ول ستـــور

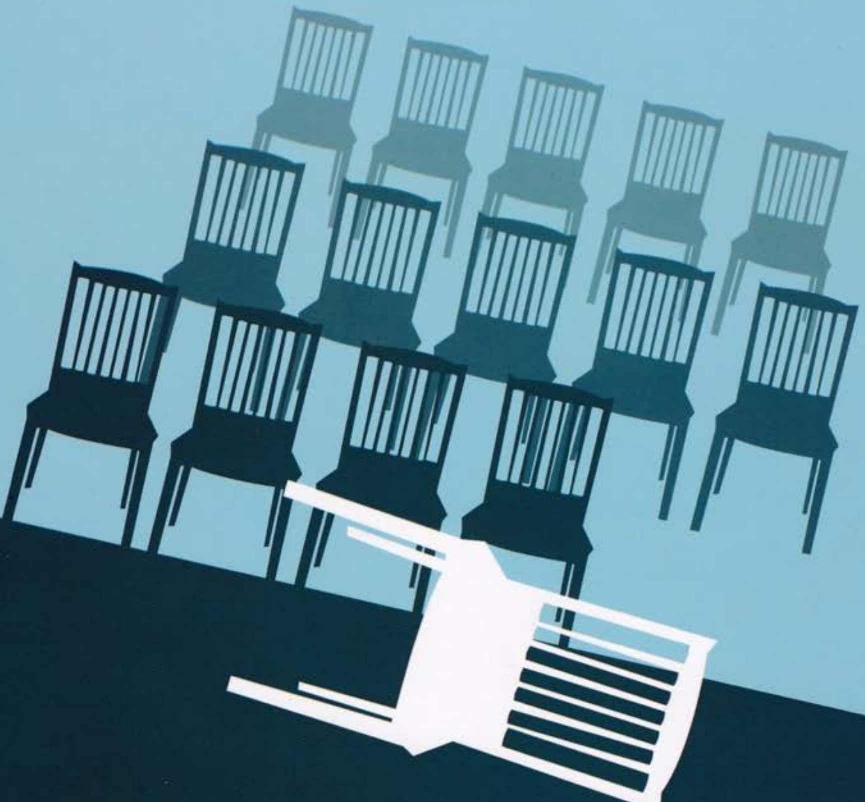

مكتبة

لعبة المكانة

ترجمة

د. هناء خليف غني

صفحة

THE STATUS GAME

Will Storr

مكتبة

t.me/soramnqraa

لعبة المكانة

ول ستور

ترجمة: د. هَناء خليف غني

صفحة 7

صفحة 7

الكتاب
لعبة المكانة
المؤلف
ول ستور

الطبعة الأولى: 2023
الترقيم الدولي:
978-603-8387-57-3
رقم الإيداع:
1444/10848

©Janklow & Nebsit (UK)Ltd

حقوق الترجمة العربية محفوظة
© صفحة سبعة للنشر والتوزيع

E-mail: admin@page-7.com
Website: www.page-7.com
Tel.: (00966)583210696
العنوان: الجبيل، شارع مشهور،
المملكة العربية السعودية

تمت ترجمة هذا الكتاب ضمن
مبادرة ترجم

مكتبة
t.me/soramnqraa

جميع آراء المؤلف الواردة في هذا العمل وخلافه تعبر عنه وحده وليست مسؤولية دار النشر أو أي جهة أخرى متصلة بها من الجهات والهيئات الثقافية التنظيمية أو المانحة وغيرها.

تستطيع شراء هذا الكتاب من متجر صفحة سبعة

www.page-7.com

المحتويات

مدخل 5

الفَصْل الأوَّل: حياة بن غون ونهايته 13

الفَصْل الثّاني: التوافق والنجاح والمضي قدمًا 21

الفصل الثّالث: عالمٌ متخيل من الرموز 31

الفصل الرّابع: عالمٌ متخيلٌ من القواعد 49

الفَصل الخَامس: الألَعاب الثّلاثة 59

الفَصْل السادس: ألعابُ المَهابة والوجاهة 71

الفصل السابع: ألعاب الهيمنة 83

الفَصْل الثّامن: الذّكر، الهيَبة، المُهان: اللعبة الأشد فتكًا 95

الفصل التاسع: غير القواعِد، غير اللاعب 111

الفَصْل العَاشِر: ماكينة حظ لأجل المَكانة 121

الفَصْل الحَادي عَشر: النقص 129

الفَصْل الثّاني عَشر: التحامل العالمي 141

الفَصْل الثّالث عَشر: عيش الحلم 151

الفَصْل الرّابع عَشر: الإخضاع والثّورة والحضارة 159

الفصل الخامس عشر: صناعة اللاعب 169

الفَصْل السادس عَشَر: الإيمان بالحلم 185

الفصل السابع عشر: حُمى الذّهب 199

الفَصْل الثّامن عَشر: ألعاب الحَرب 217

الفَصْل التاسع عَشر: استبداد أبناء العمومة 233

الفَصْل العِشرون: ضَحايا ومحاربون وسَحرة 253

الفصل الحادي والعشرون: تائهٌ في حُلمٍ 269

الفصل الثَّاني والعشرون: مكائن إنتاج المَكَانة 279
الفصل الثَّالث والعشرون: الإبادة: الجزء الثَّاني 301
الفصل الرّابع والعشرون: الخروج من الجحيم 311
الفَصْل الخَامس والعشرون: الذّات النيوليبرالية 339
الفصل السادس والعشرون: العدالة والظّلم 351
الفصل السابع والعشرون: عندما تتصادم الأَحلام 369
الفصل الثّامن والعشرون: حكاية الشيوعيين 387
الفصل التاسع والعشرون: القواعد السبع في لعبة المكانة 415
تعليقٌ على منهجي 429
عرفان بالجميل 431
مسرد بالمصطلحات 433

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

مدخل

مكتبة
t.me/soramnqraa

الحياة لعبة:

لا سبيل إلى فهم عالم البشر ما لم نفهم، أولًا، هذا الأمر. كُلنا نلعب لُعبةً، قَواعدها الخَفية مبنيةٌ في داخلنا؛ وهي توجه، بصمتٍ وهدوءٍ، أفكارنا ومُعتقداتنا وأفْعَالنا. هذه اللعبة في داخلنا، إنها نحن، وليس بوسعنا إلا أنْ نلعبها.

تتخذ الحياة هذا الشكلَ الغريب بِسَبب الطّريقة التي تطوَّرنا بها. فعلى شاكلة الكائنات الحية الأخرى، ينزعُ البشر نحو البقاء والتكاثر، ولأننا أنواعٌ قبليةٌ، كان بقاؤنا الشخصي يعتمدُ دائمًا على قبولنا في مجتمعٍ محلي داعمٍ. وتضطرّنا العواطف الجياشة إلى التواصل، وإلى الشعور بفرح الانتماء، وألم الرّفض؛ لكننا ما إن نكون داخل جماعةٍ، يندرُ أن نقتنع بالتدحرج إلى مراتبها الدنيا. لذلك نسعى إلى الصّعود والارتقاء، وعندما ننجح في ذلك، وتنهال علينا عبارات المديح والثّناء ممن يحيطون بنا، نشعر كما لو أن لحياتنا معنى وغرضًا، وبِأننا نزدهر ونتقدم. لقد بدأت ظروف الحياة بالتحسن في كثير من الجوانب، وكانت المكانةُ المتعاظمة في العصر الحجري تعني مزيدًا من النفوذ والحرية في اختيار الشركاء والشعور بالأمن والحصول على الموارد لنا ولأطفالنا. وما تزال المكانةُ تفعل الشيء ذاته في عالم اليوم. فنحن مُبرمجون للسعي وراء النفوذ والمنزلة: أن نحظى بالقبول في الجماعات، وأن ننال الحظوة والمكانة فيها. هذا الشيء جزءٌ من طبيعتنا. إنها لُعبة الحياة البشرية.

ليس مُهمًا الوجهة التي تقصدها في سَفرك، سواء أكانت مجتمعات بابوا غينيا

الجديدة أم غابات ناطحات السحاب في طوكيو ومنهاتن؛ لأنك ستجد المكانة أمامك: إن البشرَ يُشكّلون جماعات، ويلعبون سعيًا إليها. ويشترك الناس في العالم النامي في ألعابٍ سياسيةٍ أو دينيةٍ، أو ألعاب الشركات المُساهمة، أو الألعاب الرِّياضية، أو الطقوسية، أو القانونية، أو ألعابٍ خاصة بالأزياء، أو الهوايات، ويشتركون أيضًا في ألعاب حاسوبية، وألعاب أفعال الخير والإحسان، وشبكات التواصل الاجتماعي، وهناك ألعاب عرقية، وألعاب النوع الاجتماعي، والألعاب القومية. لا حدود للتنوع في هذا المجال، إننا نطمح إلى المكانة الفردية في هذه الجماعات، وننشد الثَّناء والاستحسان من زملائنا اللاعبين. بيد أن الجماعات التي ننتمي لها تتبارى مع جماعات منافسة في سباقات المكانة: إذ يُساجل ائتلاف سياسي ائتلافًا آخرَ، وتحارب شركةٌ مُساهمةٌ شركةً أخرى، ويتبارى فريق كرة قدمٍ مع فريقٍ آخر. إن فوز ألعابنا بالمكانة يعني فوزنا بها. إننا نغدو اللعبة التي نؤديها.

إن حاجتنا للمكانة تجعلنا متعطّشين للمنزلة والرّفعة، ومتخوّفين من فقدها، وهو الشيء الذي يمسخُ تفكيرنا، ويحرمنا من فرصة السعادة الهانئة، هذا هو السبب الذي يجعلنا نستمرّ في التصرف مثل الحيوانات - وربما أسوأ منها - مع تفوّقنا عليها وارتقائنا بِأنفسنا إلى مستويات عالية نبدو فيها أمامها مثل آلهةٍ. ولأننا في حالة تأهّبٍ دائمةٍ للرد على أية إهانة، أو التجاوب مع أي مديحٍ، من المحتمل أن نكون وضيعين [في سلوكنا] أو بغيضين أو عدوانيين أو مهووسين بالعظمة أو موسوسين. إننا ننشد المكانة، ولو بأبسط أشكالها، في كل تواصل اجتماعي، وإسهام نقدمه في العمل، أو في علاقات الحبّ أو الحياة الأُسرية، أو كل منشور في الشبكة العنكبوتية، إننا نلعب عندما نختار نوع الملابس التي نرتديها، والطّريقة التي نتحدث بها، والأشياء التي نؤمن بها. إننا نلعب بحيواتنا - بالقصّة التي نسردها عن ماضينا وأحلامنا في المستقبل ـ إن وجودنا اليَقظ مُحاطٌ بحشدٍ من المشاعر المتدافعة، ومن المحتمل أن نشعر بالهلع حينما نُخطئ، ولو بشيء يسيرٍ، أو بالنشوة الفائقة حينما نُحلق عاليًا. وهكذا، صعودًا أو هبوطًا، ومن الأعلى إلى

الأسفل، وصعودًا ونزولًا، نمضي في حياتنا لحظةً إثر لحظةٍ ويومًا إثر يوم، من الطّفولة إلى القبر. ليست الحياة رحلةً إلى مقصدٍ مثالي؛ إنها لُعبةٌ لا نهاية لها!! وهي أسوأ ما فينا.

لكنها ـ أي اللعبة ـ بالقدر نفسه، أفضل ما فينا، إذ إننا لم نكن لنرتقي بِأنفسنا فوق الحيوانات الأخرى، في الأصل، لولا الأساليب الفريدة والخاصَّة التي نستثمرها كي نلعب في الحياة، وهناكَ اِستراتيجيات تفوق الحصر يُمكن الانتفاع بها في نيل المكانة. يروم البشر النجاح، ويرجون أنْ يحملوا لقب الصّيادين الأفضل، وعمال البناء الأمهر، والطّهاة الأحسن، والتقنيين الأبرع، والزّعماء الأمثل، وجامعي الثّروات الأنجح. تُجبرنا اللعبة على التخطيط والابتكار والتحليق في آفاقٍ جديدةٍ ابتغاء الفوز. إن نجاحنا يعني أن عشرات ومئات، وحتى ملايين آخرين قد ينتفعون من أدائنا في اللعبة. ويسعى البشر أيضًا كي يكونوا فاضلين، ويكسبوا في المعارك الأخلاقية المُلحة، وينقذوا المتعرضين للخطر، وينتشلوا من براثن الفقر أو العنف غرباء في قارات أخرى بعيدة، ويخترعوا لقاحات تحمي حياة الناس الذين سيولدون بعد مغادرتنا هذا العالم بوقتٍ طويلٍ. كل هذه المساعي مشفوعةٌ بسيل المشاعر المتدفقة المصاحبة لِلعبة، مثل الشعور بالعار أو الفخر، والحضيض أو السمو. وهذا ما حثّني على الاعتقاد بِأننا نرتكب خطأً جوهريًا حينما نصف رغبتنا بالمكانة، بشكل لا إرادي، بِأنها عائبةٌ ومُخجلةٌ.

ولا شكّ في أن فهمًا أعمق وأفضل لما يُساعدنا في الاستمرار في هذه الحياة، بسرّائها وضرّائها، سيكون نافعًا ومُسعِفًا لنا. والبحث أدنى القصص اللطيفة والمُتملقة التي نهوى سردها عن أنفسنا، يُمكن أن يُساعدنا في أن نرى بوضوح أكبر قدرتنا على أن نكون بحالٍ أحسن من جانب، وسهولة استدراجنا إلى الوقوع في مصيدة الوهم والتسلط أيضًا، من جانبٍ آخر. إن استيعاب ما تفعله الحياة عمليًا عندما تسوء الأمور تُثقفنا بسُبُلِ تجنب مصائدها. وعلى غرار ذلك، فإن

إدراكنا طبيعة ما نفعله عندما تسير الأمور على ما يُرام يُعيننا في بلوغ مستقبلٍ أفضل، ويُعزز من فرص تنعّم الجميع بالعَدالة والثّروة ونوعية الحياة الجيدة.

لقد سَطّرتُ صفحات هذا الكتاب في زمنٍ ساده الغضب والخوف في العالم الغربي، ليس بعيدًا عنا شكوانا الأساسية بشأن التشابه الذي يصل حد التطابق بين أحزاب اليسار واليمين السياسية. إننا نتساءل: ما جدوى المشاركة في التصويت إذا كان جُل ما نحصل عليه هو نُسخٌ لا تختلف كثيرًا عن الرّأسمالية «النيوليبرالية»؟ لقد كففنا عن تقديم هذا السؤال! وشهد القرن الحادي والعشرون الأزمة المالية العالمية، واختراع الهواتف الذّكية، وبروز شبكات التواصل الاجتماعي. واليَمين يُفرط في التوجه يمينًا نحو بريكست (خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي) وترامب، مدفوعًا بالبرامج القومية، ويغدو اليَسار متطرفًا في نزعاته اليَسارية بجنوحه نحو سياسات الهُوية ومعجم الإهانات الجديد التابع لها، على شاكلة أحمر مثل فخذ الخنزير، والتمييز المبني على التوجه الجنسي، وثقافة الشباب الأبيض الفرعية،[1] والمرأة المُتسلطة البيضاء التي ترى نفسها فوق الجميع (تُعرف في اللغة العامية بـ «كارين»)، والمتعجرف الذَّكر، والجلوس بساقين مُتباعدتين في وسائل النقل العامة، والبيض الكهول المحظوظين والمهيمنين. تَدبُ الخلافات في داخل الأُسر، وينفصلُ الأصدقاء، ويتَألبُ الدهماء ويُطيحون بالمواطنين ذوي الأفكار الخاطئة والمشاهير والأكاديميين، وتُدلي الشركات المُساهمة العالمية بالآراء السياسية، وقراءة الأخبار تغدو مثل الجري عبر نبات القراص اللادغ، ثم هناك عودة الحرب إلى أوروبا. ما الذي يحدث حقًا؟

إن جُزءًا من السبب الذي يدفعنا إلى الاستمرار في ارتكاب الأخطاء ذاتها، والاشتباك في صراع جماعي نسبيًا هو أننا نعيش الحياة بوصفها لعبة مكانةٍ. تعمل أدمغتنا باستمرار، وبطرائق لا حصر لها، في قياس موقعنا موازنةً بالآخرين. إنها

(1) ثقافة فرعيّة تخصُ الشّباب لا سيّما البيض الذين يرتدون السَّراويل القصيرة، ويَشربون الجعة الرَّخيصة، ويقضون وقتهم في التسكع والحفلات. وكلمة bro في النص الأصلي تعني الأخ brother (المترجمة).

تعمل تلقائيًا على ترتيبنا مع الجماعات التي ننتمي إليها داخل هياكل هرميةٍ متسلسلةٍ. وأكثرية هذه العمليات خافيةٌ عنا وغير واعية. والأهم إننا بينما نُمارس الحياة، بوصفها لعبة، ممارسةً غير واعية، فإن خبرتنا الواعية بها تتخذ شكل قصةٍ. يُغذِّينا الدماغ بحكايات شائعة وساذجة ومُجاملة للذات عن السبب الذي يجعلهم أعلى أو أدنى منا. فتُختزلُ الحقائق المُعقدة، بهذا النحو، إلى صراعات أخلاقية هزلية بين الخير والشر. ونحن جميعًا مُعرّضون للإيمان بسرديات من هذا النوع، لأنها تُشكل خبرتنا عن الواقع. إنها تُسعفنا في تحسين صورتنا أمام أنفسنا، وتدفعنا إلى السعي لتحسين مكانتنا. لكن هذه السرديات ذاتها خادعة ومُضلِلَة، فهي مسؤولة عن الكثير من الغرور والكراهية والنفاق المتفشي في نوعنا البشري. بل إن بوسع هذه السرديات أن تدفعنا إلى القتل!

وما يتبع في السطور الآتية هو استعلام مبنيٌّ على دراسات بحثية تمتد عبر حقولٍ معرفيةٍ، مثل علم النفس، والإناسة، والاجتماع، والاقتصاد، والتاريخ وصولًا إلى البناء الخفي للحياة البشرية. وسنعود بالزمن، من أجل أن نكشف عن الأنماط السرية لهذه الحياة، إلى جذورنا التطورية، وإلى الاتحاد السوفياتي، وجمهورية النيجر ومجتمع محلي جزيري في منطقة مايكرونيزيا، حيث يزرعون أشجار اليام (البطاطا الحلوة) الضخمة؛ وسنستبين ما تشترك به كل من ألمانيا النازية، والثّورة الصّناعية البريطانية والذّعر الشيطاني في الولايات المُتحدة في ثمانينيات القرن العشرين. وسنتسلل إلى داخل عقول منظري المؤامرة المناهضة للتلقيح، والقتلة المسعورين الكارهين للنساء، وأتباع الطّقوس الخاصّة والحشود الإلكترونية والعرقيين الرّقميين. وسنكتشف أيضًا طريقةً جديدةً لتعريف الطُّغْيان- لنعرف ما يحدث عندما تفسدُ لعبة المكانة؟ وسنروي في أثناء ذلك قصة العالم، بأسلوبٍ جذاب وغير مألوفٍ: إنه عالم تتغير فيه الذّات والثّقافة مع التغير في قواعد ألعاب المكانة بالصدفة غالبًا. وسنُحدد ثلاثة أشكالٍ من لعبة المكانة، هي: لعبة الهيمنة، ولعبة الفَضِيلة ولعبة النجاح - ونستفسر عن كيف يُمكن لأنواعٍ مُحددةٍ من اللعب أن

تقودنا إلى غدٍ أعدل وأثرى. وختامًا، سنُراعي بعض النصائح العملية التي ترمي إلى مساعدتنا في ممارسة ألعاب الحياة الشخصية.

تستندُ الحججُ التي يسوقها هذا الكتاب إلى فكرةٍ يسيرةٍ وسهلةٍ، تحظى حاليًا بدعم الباحثين، هي أن المكانة حاجةٌ بشريةٌ أساسيةٌ؛ وإذا كانت أساسيةٌ مثلما نصوّرها، فمن الطبيعي أن يستتبع ذلك رصدنا للأدلة المُمثلة لها في كل شيء حولنا: في أفعالنا وتاريخنا وتخفينا وراء كثيرٍ من أفكارنا وقناعاتنا. وفي حين أحاول الكشف عنها حيثما أجد سبيلًا لذلك في الفصول الآتية، فقد يبدو لكم الأمر كما لو أني اقترح وجهة نظرٍ اختزاليةٍ إجماليةٍ عن طبيعتنا المشتركة. بيد أن تركيزي على حاجةٍ بشريةٍ واحدةٍ لا ينبغي أن يدفعكم إلى التصور بأني أُلّمح ضمنًا إلى تفاهة الحاجات البشرية الأخرى التي تستثنيها هذه الدراسة. فالواضح الذي لا خلاف فيه هو أننا منساقون بعددٍ كبيرٍ من الغرائز والرّغبات التي يتضافر بعضها، في أحيانٍ كثيرةٍ، في التأثير فينا آنيًا. من الجائز أن يكون الفضول الجامح ومتعة التمكّن من حل المشكلة والرّغبة في دفع الرّهن مُضافًا إلى التوق إلى نيل إعجاب الأقران، هي الدوافع التي تحثّ المخترعين على العمل. المكانة هي ما يُسميه الباحثون بالحافز «النهائي» لا الحافز «القريب والمباشر»: إنه أحد أنواع الدوافع الأم، وهو مُسببٌ تطوري قوي لبروز كثيرٍ من المعتقدات، والسلوك الجوهري الفاعل التي فضلتها عملية الانتقاء، وضَمِنتها في تصميم أدمغتنا.

وبناءً على ذلك، لا يوجدُ في هذا الكتاب ما يَجعلك تَتصور أن محور الفكرة التي أناقشها فيه هو أن المكانة هي المُحرك الوَحيد للحياة. غني عن البيان هنا وفرة الرّغبات والغَرائز التي تؤلف حوافز لنا في هذه الحياة. إننا نحثّ الخطى في طلب السلطة والجنس والثّروة، ونتوق أيضًا إلى تغيير المجتمع نحو الأفضل. غير أن ذلك لا ينفي حقيقة أن لعبة المكانة متجذرةٌ بقوّةٍ في جميع هذه الرّغبات البشرية الجامحة، فإذا كُنت تُريد أنْ تحكم العالم، أو تنقذه أو تملكه أو تلعنه، فإن أوّل شيء عليك السعي له هو المكانة. إنها المفتاح الذهبي الذي يفتح الآفاق أمام أحلامِك.

وعقلك غير الواعي يفهمُ ذلك. وهذا هو السبب الذي يجعلنا، حسبما كتب المتخصص النفسي الأستاذ برايان بويد، «نسعى بشراسةٍ متوقعةٍ، إلى حيازة المكانة: إننا جميعًا، بلا استثناء، نحاول في المعتاد، بلا كللٍ ولا مللٍ، وربّما بلا وعي منا، أن نوطّد مكانتنا عن طريق إبهار الأقران، ونحاول، بالطّريقة ذاتها، أن نُقيم الآخرين حسب مكانتهم وموقعهم».(2)

يرتكز كتاب *لعبة المكانة* على اثنين من كُتبي السابقة، هما: *المهرطقون* (نُشر في الولايات المُتحدة بعنوان *الرّافضون للإقناع*) الذي يسأل: كيف ينتهي الأمر بالأذكياء إلى تصديق الأشياء السخيفة؟ وتوصّلت فيه إلى استنتاج مؤداه أننا نضعف تحديدًا أمام اللاعقلانية في الحالات التي تعمل فيها «الحقائق» ذات الصّلة على دعم القصّة البطولية التي نرويها عن أنفسنا أو تُعرضها للتهديد. أمّا الكتاب الثّاني الذي حمل عنوان *سيلفي*، فهو رحلةٌ في داخل الذّات، والأساليب التي يعتمدها التطور والثّقافة والاقتصاد في تشكيل ما نحنُ عليه. يرى هذا الكتاب (في نقاشٍ تطرّقت إليه باقتضابٍ في الفصل الخامس والعشرين) أن اقتصادنا النيوليبرالي الانفرادي التوجه قد ألقى الغرب في «عصر الكمالية أو المثالية المُفرطة» الضار. وسأفتل، في الصّفحات الآتية، خيوط الأفكار هذه معًا لأخرج منها بشيء جديدٍ نسبيًا.

من المحتمل أن التمس لك العذر لتساؤلك عمّا إذا كُنت على وشك الارتطام بتناقض هائلٍ في هذا الكتاب في حال أقدمت على قراءته [مباشرةٍ] بعد كتابي السابق *علم الحكي*. بذلت جُهدًا كبيرًا لإقناعك أن دماغك حكّاء، وأنا الآن مصرٌّ أنه لاعبٌ مشتركٌ في لعبة. لكني أتمنى أن يكون واضحًا أن ما ذكرته هو، في الواقع، فكرةٌ موازيةٌ خضعت للبحث في مستوى أعمق. فإذا كانت التجربة الواعية منتظمةً بوصفها قصةً، فإن هذا الكتاب معنيٌّ بدراسة الحقيقة اللاواعية

(2) Brian Boyd, *On the Origin of Stories*, (Harvard University Press, 2010), p. 109.

الكامنة أدناها.

تمكنت في السنوات التي قضيتها في دراسة هذا الموضوع، من فهم المزيد عن الناس، واستيعاب الأسباب التي تجعلهم حانقين للغاية أو وضيعين أو حائرين أو رائعين. لم يعد هؤلاء الناس، ولا أنا، بذلك الغموض الذي نتخيله. وإني لأرجو، عن طريق تعريف الحياة البشرية بدقَّةٍ أعلى، أن نكتسب قدرةً أكبر على مواجهة تحدياتها، والدفاع عن أنفسنا ضد فظائعها، وفي النهاية، أن نكون أكثر يقينًا بشأن عيش حياةٍ يسودها المعنى والأمن والسعادة. ما ستقرؤه بعد هذه الأسطر هو رحلةٌ مبدئيةٌ في لعبة المكانة التي ستُميزها وتتعرف عليها، بطبيعة الحال، لأنك، طوال حياتك، مشتركٌ فيها.

الفصل الأول

حياة بن غون ونهايته

بدأت حياة بن غون في اللحظةِ التي رفعَ فيها ساق كرسي خشبي وهوى به على رأس صديقه الجديد، كان الوقت بعد الساعة السابعة مساءً بقليل، في التاسع من نيسان عام 1980، في ساحة ألعاب مدرسية في مدينة بريكون، في مقاطعة ويلز البريطانية. قال بن: «حياتي بدأت عندها، قبل ذلك، لم يكن ثمة شيء مهمٌ».

كان عمرُ بن أربعة عشر عامًا، وضحيته برايان أحد عشر عامًا. في وقتٍ مبكرٍ من ذلك اليوم، كان بن وبرايان قد هربا من دار الرِّعاية الذي يعيشان فيها، وعثرا في ساحة مدرسةٍ فارغةٍ على كدسٍ من الأثاث المُحطم، واشتبكا في لعبة قتاليةٍ، أفشى بن، بعد الانتهاء منها، سهوًا، سرًّا. لم يصدق بن ما قد كشف عنه للتوّ. كان واثقًا أن المجتمع كله سينبذه ويبصق عليه في الشارع، ويغدو بنظره وضيعًا تافهًا إن ذاع أمر اعترافه. «لم يكن هناك مجال للتفكير. أدركت أني أطلعته على السر، وأنه سيُخبر العالم كله. اكتسحتني مشاعر شتى. وفي ثانيةٍ واحدةٍ، كُنت أضربه بساق الكرسي لأني عرفت أني قضيت على حياتي».

أسرع بن إلى كُشك الهاتف واتصل بالرقم 999، وقال: «لقد قتلت صبيًا. ضربته بعصا وأظن أني خنقته». عُثِر على بريان فاقدًا قطعةً من جمجمته. وتوفي بعد ثلاثة أيامٍ في المستشفى الملكي في كارديف. ولم يعلم بن بوفاة صديقه إلا بعد أن أخبره المُحامي مُبينًا: «حسنًا، تعلم أنها ستكون قضية قتل الآن. ألم يخبروك بذلك؟» كان بن يرتدي زيه المدرسي عندما حكموا عليه بقضاء مدة غير مُحددة في

السجن بمقتضى إرادة جلالة الملكة. اقتادوه بعيدًا حتى قبل أن يُكمل القاضي تلاوة كلمته: «*قتلت صبيًا بلا معنى ولا سببٍ. أنهيت حياته بلا دافعٍ موجبٍ في ظروفٍ تعلم أنها ترقى إلى جريمة قتل...*».

كان المسؤولون عن السجن يعاملون بن كما لو أنه شخصٌ تافهٌ عديم القيمة. في عملية تفتيشٍ مبكرةٍ للزنزانة، «كدسوا كل شيء على الأرض، كل ملابسي وغطاء السرير وكل ما بحوزتي، ثم غادروا». كان بن غاضبًا، فرفض ترتيب المكان، وافترش الأرض ثلاث ليالٍ. فصدر أمرٌ مباشرٌ له بترتيب المكان والعدول عن هذا التصرف، لكنه أصرّ على الرّفض. فأرسلوه إلى الحجز الانفرادي الذي جلس فيه وحيدًا في زنزانةٍ باردةٍ. كان هذا هو عالمه في الوقت الحاضر. كان قاتلًا حَدثًا في أسفل السافلين. لم يكن يملك شروى نقير. كان نكِرةً لا قيمة له.

حاول بن الفرار مِرارًا، وجرّب الإضراب عن الطعام حد الموت. في الجلسة الأولى لإطلاق سراحه المشروط التي عُقدت بعد قضائه عشر سنوات في السجن، رفضت السلطات طلبه، وتكرر هذا الرّفض ثانيةً وثالثةً. وهكذا، تتابعت عليه سنوات السجن، اثنتي عشرة سنة، خمس عشرة سنة، عشرون سنة، ثم خمس وعشرون سنة. وقع بن بعد ذلك، في صيف عام 2007، على وجه الدقة، في غرام أليكس، المدرِّسة الزّائرة التي أخبرتني أن بن «كان يرتدي بِذْلة خاكية اللون، وكانت لحيته مسترسلة... كان يجمع في هيأته بين أُسامة بن لادن وراسبوتين، وكان يحمل بيده كوز الماء القذر المملوء بالقهوة. فسألت: من هذا الشخص؟ فأجابوني: إنه بن غون. ابتعدي عن طريقهِ».

لكن أليكس وبن استلطفا بعضهما، ومارسا العلاقة الحميمة في خزانة الأدوات المكتبية، وكانا يتواصلان سِرًّا، عند استخدام أليكس حاسوب بن للطباعة، فيبدو الأمر كما لو أنها كانت تُساعده في إتمام واجباته الصفية في حين كانت كلماتها له تنطق بالحبّ والرّغبة. وقد تبادلا مئات من قصاصات الملاحظات اللاصقة والرّسائل الصّوتية في شرائح الذاكرة. وكان بن يتصل بها يوميًا عن طريق هاتفٍ

خلوي مُهرب في الثّانية عشرة، والرّابعة والنصف ظهرًا، وأيضًا في التاسعة مساءً.

بحلول العام 2010 كان قد مضى على وجود بن في السجن ثلاثون عامًا، وهي ثلاثة أضعاف الحد الأدنى لمدة العقوبة المطلوبة. كان يجب أن يُطلق سراحه قبل عقود. لكنه كان ينجح، في كل مرّة تلوح فيه فرصة إطلاق سراحه، في أن يمنح مسؤولي السجن سببًا جديدًا لحرمانه منها. قال عضو البرلمان، مايكل غوف، الذي سعى جاهدًا من أجل إطلاق سراح بن، لصحيفة التايمز، إنه يظن أن هناك «عاملًا مدمِّرًا على الأرجح في تكوينه، لأن سلطات السجن كانت تجد دائمًا مُخالفة له توردها في تقريرها؛ مُخالفة جسيمة (لكنها غير عنيفةٍ) أو تصرفًا تافهًا ومبتذلًا يحول دون الموافقة على الإفراج عنه».[(3)]

ومن أجل تشجيعه على الخروج من السجن، كانت أليكس ترسم له لوحات عن الأشياء التي بوسعهما الاستمتاع بها معًا خارج أسواره، مثل الكوخ في الرّيف، والنار الدافئة في الشتاء والقطة قربها. ولكن ثمّة شيء واحدٌ لم تجد له تفسيرًا: كان يُمكنه الارتباط بها والحصول على كل ما يرغب به، كل ما كان يجب عليه فعله هو الالتزام بحسن السير والسلوك. فما الذي يجعله يرفض؟ لكنه، بدلًا من ذلك، أبلغها مباشرةً في أحد الأيام: «أرغب في البقاء [في السجن]».

إذا كانت الحياة تسير حسبما نتخيلها، فإن ما فعله بن يبدو مُخالِفًا للمنطق. الأشياء كلها كانت في انتظاره في الخارج، كان في انتظاره الحبّ، والحرية، وكوخ جميل في كوتسوولدز. هذه حكايةٌ رمزيةٌ دينيةٌ ونهاية هوليوودية وقصة أصلية للتكفير البطولي عن الذنوب. إنه يُكفر عن خطاياه، والسجن هو مثواه الأخير وجزاؤه العظيم. لم يرغب بن في أي من هذه الأشياء، بل فضّل عليها البقاء في السجن.

ما الذّي حدث فجعله يتعلق بالحياة في داخل السجن؟ وكيف تمكّن من انتشال

(3) *The Times*: 'A life spent at Her Majesty's Pleasure', Damian Whitworth, *The Times*, 8 December 2010.

نفسه من الهوّة النفسية لمحاولة الانتحار جوعًا؟ عندما تسجن شخصًا وتجرّدهُ من كل التقْدير والاِحترام الذي يتُوق إليه، عندما تُلقي به مع مجرمين في بنايةٍ موحشةٍ كئيبةٍ وطاقم سجن يعاملونهم باحتقارٍ وتنمرٍ، أنى لهؤلاء المساجين أن يُنقذوا أنفسهم؟ كيف يُمكن لدماغٍ، بمئات آلاف السنين من التطور المتضمنة فيه، أن يستجيب لموقفٍ من هذا النوع؟

الجواب هو أنه يبني حياة خاصة به. حياة بشرية مُميزة.

شرع بن في الدراسة قبل سنوات من لقائه بأليكس، فقرأ كَثيرًا عن بوذية زنْ والتاريخ العسكري والسياسة والفيزياء. وحصل على درجةٍ في السياسة والتاريخ، ونال شهادة الماجستير في حقل السلام والمصالحة، وباشر دراسة الدكتوراه في علم الإجرام، وعُينَ سكرتيرًا عامًا لرابطة السجناء. «أصبحت معروفًا بالمُدمِّر والهادم والحيوان السياسي ومحامي السجن». وفضلًا عن ذلك، صار بن نباتيًا، «لا لوازع أخلاقي بل لألمٍ أشعر به في دُبري». (في إحدى وجبات الغداء، ولكي يردوا له الصاع صاعين، قدمَ له العاملون في السجن طبقًا قوامه البطاطا المهروسة والبطاطا المسلوقة يحفّه في أحد جوانبه البطاطا المُحمصة.

صنع بن لنفسه حياةً عن طريق الاشتراك في لعبة تصور بِأنها «مقاومةً لانتهاكات السلطة وتجاوزاتها»، ونجح في التفوق فيها. لم يلتق بن، طوال مدة محكوميته، سوى بمدير سجنٍ واحدٍ فحسب عده ضليعًا، مثله، بالقَوَاعِد. كان بن يُساعد المساجين الآخرين على مقاومة النظام، ويعمل أحيانًا على إلهاء المسؤولين لشهورٍ طوالٍ بكثيرٍ من الطّعون المَسنُودة بالحُجَجِ على مُخالفات السلوك الأتفه. وأضحى معروفًا بين مسؤولي السجن والعاملين فيه. وأعلنت لجنة الإفراج المشروط أنه «عضوٌ بأجرٍ كاملٍ في فريق المقاومين للتغيير». كان بن مُبهرًا في نجاحه. أخبرتني أليكس بِأنه «كان ذا شأنٍ في السجن». وقال بن: «أعرف أن هذا سيتغير حالما أخرج من السجن. إذ أني سانتقل من كوني شخصًا مُتَوسط النفوذِ في حلقةٍ صغيرة إلى محض سجينٍ سابقٍ آخر».

وفي محاولةٍ لاستمالته وإقناعه بالخروج، حثّته أليكس على إنشاء مدونةٍ خاصةٍ به، وظهرت التدوينة الأولى في «السجِين بن–Prisoner Ben» في الحادي والثَّلاثين من آب عام 2009، وحظيَت مباشرةً بعناية القرّاء الذين ارتفع عددهم إلى عشرين ألفًا. ورُشِحت المُدَوَّنة في 2011 إلى جائزة الرّوائي جورج أورويل الرّصينة. وأخيرًا، غير بن غون رأيه، وأُطلق سراح السجين رقم 12612، في الثّالث والعشرين من آب عام 2012، بعمر السابعة والأربعين. لكنه، قبل أن يغادر، تلقّى تحذيرًا من أحد العاملين في السجن: «ستفقد المكانة التي تتمتع بها هنا». فسأله بن: «ما الذي تعنيه بذلك؟» فرد عليه العامل: «أنت تشغل، بوصفك سجينًا محكومًا مدى الحياة، موقعًا مُحددًا في التسلسل الهرمي في السجن». فقلت في نفسي: «جميع هذه الأشياء تمنحك مكانةً، وأنا أعلم، أنها ستفقد أهميتها حال خروجي من هذا المكان».

كل ما يُمكنني قوله هو إن هؤلاء العاملين كانوا على حقٍّ. إذ واصل بن نضاله منذ إطلاق سراحه، وبرع إيما براعة في وصفه لجة اليأس التي انزلق إليها بعدما ظهر نحيفًا وشاحبًا ومحلوق الرأس، يُدخّن السجائر الملفوفة، ويجلس في الحديقة المُشمسة في كوخ كوتسوولدز الذي تملكه أليكس. قال بن: «كان أمرُ إطلاق سراحي مُقلقًا للغاية في أحد مستويات اللاوعي. كُنت أفترش الأرض لأسبوعين، في حركةٍ دائبةٍ إلى الأمام والخلف. كان بوسعي تحديد موقعي في السجن. كُنت أعرف من أنا، وما كُنت أُريده لنفسي. أما الآن، فأنا ضائعٌ تمامًا. إني انهار». لكني عندما استعلمت منه عما إذا كان مسؤولو السجن محقّين في التنبُّؤ بِأنه سيعاني من تدهورٍ متسارعٍ في المكانة، كان الإنكار جوابه.

عندما نُسأل عن سبب فعلنا للأشياء التي نفعلها، قلما يكون جوابنا: «نفعل ذلك من أجل المكانة. إنا مغرمون حقًا بها». وربّما يكون أمرًا مُثيرًا للاشمئزاز أن نُفكر في المكانة بوصفها قوّةً دافعةً مُضافًا إلى قوّة جوهرية، لأن قولنا هو النقيض للقصّة البطولية التي نَرْغبُ في سرْدها عن أنفسنا. إننا نميلُ إلى التركيز على نهاياتنا

السعيدة عند سعينا إلى تحقيق الأهداف الكُبرى التي وضعناها في حياتنا. إننا نطمح إلى الفوز بالمؤهّلات والترقية المِهنية والعلامات الفارقة والجوائز. وهذه الدوافع، التي تقفز إلى الذّهن مباشرةً في الغالب، يصفها الباحثون بـ «المباشرة والقريبة». إنها حقيقية وملائمة للغاية مع أنها تتضمن مُسببات «نهائية» مُضمرة أخرى. وهذه المُسبّبات غير واعية في الغالب ومخفيةٌ عنا: إنها السبب الأصلي الذي يجعلنا نَرغبُ في المؤهّلات والترقية والتميز والمكافأة. إنها إحدى النوازع الجوهرية التي انتقاها التطور ورسخها في برمجة أدمغتنا. وحسبما ذكرت المختصة في علم الأحياء التطوري، نيكولا ريحاني: «إن التفسيرات النهائية تُسعفنا في فهم *السبب* في إحساسنا بالدوافع التي نحس بها، و*السبب* في تصميم الأدمغة بهذا الشكل».

وإذا كانت حاجتنا للمكانة جوهريةً، فإن الانزعاج الذي نشعر به بشأن الاعتراف بهذا الأمر يبدو غريبًا. من المحتمل أن السبب هو ميلنا إلى تصديق قصة الدماغ البُطولية لا السياسة الفعلية اللاواعية للعبة. إن الاعتراف بأن ما يدفعنا هو تحسين منزلتنا يُخاطر بجعل الآخرين يتصوّرون أننا أقل منهم، الشيء الذي يُفقدنا المكانة. وحتى الاعتراف بذلك مع أنفسنا قد يجعلنا نشعر بالنقص. وتبعًا لذلك، فإن وعينا برغبتنا بالمكانة يستهلك ذاته. إننا نُدرِك هذا الجانب ونُميزه، بِسهولةٍ وسرعةٍ، في الخُصوم وحتى نستثمره بوصفه وسيلةً للإهانة مع أن هذا الفعل يُمثل، بنحوٍ فارقٍ، لعبة مكانةٍ: إنه محاولة نبذلها للتقليل من شأن الآخرين مقابل الإعلاء من شأننا.

ولأن لَهَا أُسلوبًا ماكرًا في التخفي بهذه الطّريقة، دعونا نسحب طريدتنا من مكمنها المُذنب. لا تدور المكانة حول تمتعك باستحسان الآخرين، أو قبولهم، فهاتان حاجتان منفصلتان مقترنتان بالتواصل، وعندما ينصاع الناس لنا ويعاملوننا باحترامٍ ويعجبون بنا، أو يُثنون علينا أو يسمحون لنا بالتأثير فيهم، فهذه هي المكانة، إنها أمرٌ رائعٌ! والشعور بالارتياح حيالها هو جزءٌ من الطَّبيعة البشرية، إنها في برمجتنا الأَسَاسية، وفي سِجل تطوُّرِنا أو حمضنا النووي. وهي لا

تتطلب إنجازًا مُذهلًا من نحو تسجيل هدفٍ في كأس العالم أو تفجير محطة الفَضاء الخيالية وسِلاح الدمار الشامل، نجم الموت.[4] يُمكننا أنْ نشعر بالملمس المخملي للمكانة عدة مرات في حوارٍ واحدٍ أو في نظرة غريبٍ عابرٍ.

إننا نَخضع للتقْييم والحكم علينا حُكمًا واعيًا أو غير واعٍ، حيثما نكون في حضرة البشر، ولا خلاف في أهمية أحكامهم. وحيثما يولي علماء النفس وجوههم، فإنهم يجدون صلةً دامغةً في قوتها بين المكانة والرَّفاهية. انتهت إحدى الدراسات التي شملت ستين ألف شخصٍ في مائة وثلاثة وعشرين بلدًا إلى القول إن: «رفاهية الناس تعتمد اعتمادًا ثابتًا ومنتظمًا على الدرجة التي يشعرون بها باحترام الآخرين لهم».[5] وكان بلوغ المكانة أو فقدها أو خسارتها «المؤشر الأقوى والأبرز على المشاعر الإيجابية أو السلبية طويلة الأمد». وخَلصت مراجعةٌ مستفيضةٌ للأدبيات العلمية في موقعٍ آخر إلى نَتيجةٍ مؤداها أن «أهمية المكانة بَدَت واضِحةً وحاضِرةً بين الأَفْراد الذين يختلفون في الثّقافة والنوع الاجتماعي والفئة العمرية والشخصية... فضلًا عن أن الأدلة ذات الصّلة تُفيد أن الرّغبة بالمكانة جوهريةٌ حقًا».[6]

وقصة بن درسٌ بليغٌ في كَيفية العَيش، فهي تُخبرنا عن إمكانية العيش والبقاء بعد تجريدنا من كل شيء. من الجائز أَنْ يحتقرنا المجتمع وَيستخف بنا وأَنْ يضعنا في خانة قَتَلة الأَطفال، ومن المحتمل أن نقع ضحية القوّة المُفرطة التي يستخدمها العاملون في السجن ضدنا. وليس مستبعدًا أن نلامس أعماق العذاب إلى حد يدفعنا إلى رفض تناول الطَّعام لثَلَاثة وأربعين يومًا، والتضور جوعًا إلى حد الشعور بالجفاف في مُقل عيوننا. ومع ذلك، نتمكن من الازدهار والنهوض من

---

(4) ظهر 'نجم الموت' في سلسلة أفلام الخيل العلميّ، حرب النجوم' التي أخرجها جورج لوكاس (المترجمة).
(5) 'Is the Desire for Status aFundamental Human Motive? A Review of the Empirical Literature', C. Anderson, J. A. D. Hildreth and L. Howland, *Psychological Bulletin,*16 March 2015.

(6) المصدر نفسه.

رحم ظروف التحقير المؤلمة هذه. شيد بن حياةً ترفلُ بالمعنى والغَرض، وفعل ذلك بفضل ربط نفسه بمجموعةٍ من الأَدمغة التي تماثله تفكيرًا، واشتراكه في لعبة كان الفوز بالمكانة غايتها. إن وضعه بوصفه سجينًا مدى الحياة وعمله مُحاميًا في السجن أسبغا عليه الاحترام والتوقير. صار بن مُفيدًا لِزُملائه اللاعبين في صراعاتهم مع العاملين في السجن. وعاش محفوفًا بالإعجاب والتقدير. واستثمر كل جهوده التي بذلها في الأيام والأشهر والسنوات التي قضاها في السجن في ممارسة هذه اللعبة. خلق بن عالمًا من المعنى لنفسه في السجن، لكنه تهافت وتداعى بعد خروجه منه. وإذا كانت الحرية تعني نَبذَك عن المعنى الذي قضيت حياتك في خلقه، فهذه الحرية هي الجحيم.

الفصل الثّاني

التوافق والنجاح والمضي قدمًا

إذا كان بقدرة بن أن ينجح ويزدهر في السجن، بوسعنا أَنْ نأمل في تحقيق النجاح أيضًا. ليس من المحتمل وجود الكثير منا ممنْ يجدون بأنهم يفتقرون إلى الفاعلية والفرصة مثلما حدث له. كمْ يبدو هذا الأمر سهلًا! أفتح الباب، أخطو بقدميك إلى خارجه، وكل شيء سيكون بانتظارك: العالم بكل عنفوانه وعجائبه. إن القصةَ التي طالما تكررت على مسامعنا هي أن بوسعنا أن نفعل كل ما نرغب به، وأن نكون الشخص الذي نطمح إليه إذا التزمنا التزامًا وافيًا بالإيمان بذاتنا، وبذلنا الجهد المطلوب.

بيد أن الأمرَ ليس بهذه السهولة. فظاهر العالم ليس مثل باطنه، وعلى الجانب الآخر من ذلك الباب لن تجد الطَّريق إلى السعادة يسيرًا ومعبَّدًا، ولن يكون بوسعك أن تمضي به، بشجاعةٍ وبطولةٍ، لسبعة أو ثمانية عقودٍ. جميع البشر خارج ذلك الباب مشتركون في لعبة لها قواعدها المُضمرة وفِخاخها ومسالكها المُختصرة. ومع ذلك، لا يكادُ يوجد أحدٌ من الأحياء على درايةٍ كاملةٍ بشكل هذه اللعبة برغم اشتراكهم اليومي الفاعل فيها. ولذا، دعونا نحاول التيقظ والالتفات لهذه اللعبة العظيمة. دعونا نجرّب تقديم تعريفٍ أدق لما نقصده بالحياة البشرية، وما تحاول أن تكون عليه.

البشرُ أحد أنواع القِردة العليا أو المتطورة، الذين تمكّنوا من البقاء بفضل

انضمامهم إلى جماعات تعاونية تشترك في الجهد والعمل.[7] لقد عشنا في مجتمعات محلية مستقرّةٍ قرابة خمسمائة جيلٍ.[8] لكننا كُنا نحيا في جماعات صيادين وجامعي ثمار متحركة لمدة أطول من ذلك، لمئة ألف جيلٍ على الأقل. وبقيَت أدمغتنا مُبرمجةً لهذا النمط من الحياة. فنحن اليوم مثلما كُنا دائمًا: قبليين.

لدينا غرائز تُرغمنا على طلب التحالف مع الآخرين إضافةً إلى حرصنا على نيل استحسان أفراد الجماعة ورضاهم حال انتسابنا لها. والاستحسان والرّضا أساسيان لِرخائنا وتطوُّرنا. وجد باحثون، من بينهم المختصُّ بعلم النفس ديفيد باس أن: «المكانة الاجتماعية هي مؤشرٌ عالمي على السيطرة على الموارد» في أنواع المجتمعات المحلية ما قبل الحديثة التي تطورت فيها أدمغتنا، وأضافوا إلى جانب المكانة كلا من «جودة الغذاء، واتساع مساحة الأرض والرّعاية الصحية الفائقة». إنها تؤدي إلى تحسين قدرة الفرد على اختيار الشركاء المُفضلين و«تمنح الأطفال فرصًا اجتماعية» يُحرم منها أقرانهم في العائلات المنتمية إلى المراتب الدنيا. وقد لاحظ الباحثون بعد تحليلهم مائة وستة وثمانين من المجتمعات ما قبل الحديثة في العالم أن الرِّجال الذين يتمتعون بمكانةٍ عاليةٍ «يحظون على الدوام بوفرةٍ من المال والزّوجات، ويوفّرون لأطفالهم تغذيةً أفضل».[9] كان هذا وما يزال هو السرّ في زيادة قدرتنا على البقاء والتكاثر إلى الحد الأقصى: فكلما ارتفعنا عاليًا، تعززت احتمالات أن نعيش ونُحبّ ونتكاثر. إنه جوهر الازدهار البشري. إنها لعبة المكانة.

لقد برمجنا التطور بطريقةٍ تجعلنا نبحث عن جماعات ننتمي إليها، ثُمَّ نَسعى طلبًا للمكانة والمنزلة فيها. غير أننا لا نتحدد بجماعةٍ واحدةٍ في العصر الحديث على وجه

---

(7) https://australian.museum/learn/science/ human-evolution/humans-are-apes-great-apes.

(8) *Private Truths, Public Lies,* حقائق خاصة، أكتذيب عامة Timur Kuran (Harvard University Press, 1995), p. 40.

(9) '*Evolutionary Psychology,* David Buss (Routledge, 2015), p. 11.

الخصوص. قوامُ الحياة التقليدية، لمن لا يعيش في السجن منا، هو الاشتراك في عدة ألعاب. وقدر اللعبة أن تستمر أينما نرتبط بآخرين مماثلين لنا من حيث التفكير: في مكان العمل، والإنترنت، وساحة الألعاب الرياضية، ومركز التطوع، والنادي وفي الحديقة أو المجموعة الناشطة، وحتى في داخل البيت. والتواصل هو الحد الأدنى المطلوب للاشتراك في اللعب. وقبل أن يجازينا الآخرون بالمكانة، علينا، أولًا، أن نحظى بالقُبول في المجموعة بوصفنا لاعبين.

لاحظ المختصون بعلم النفس أن الارتباط بالآخرين والشعور بالقبول بينهم كفيلٌ لوحده بأن يُشعرنا بارتياحٍ عميق. لكن المُدهش بالقدر نفسه هي طريقة تصرف عقولنا وأجسامنا عندما نُخفق في التواصل والارتباط. فطِنَ عددٌ لا بأس به من الأبحاث إلى أن المصابين بالكآبة يميلون إلى الانتماء إلى عددٍ من الجماعات «أقل» من غيرهم.[10] وأفادت دراسات أجراها الباحثون في مددٍ زمنيةٍ متباينةٍ أنه كلما تماهى المُكتئب مع مجموعته – أي أَنْ يستثمر قدرًا أكبر من إِحساسه بالذّات فيها – تبددت الأعراض التي يُعانيها.[11] إن الفشل في التواصل قد يؤدي إلى إِصابتنا بأمراضٍ عضويةٍ مختلفةٍ. ورَصَدت دِرَاسات كثيرةٌ إمكانية التنبؤ بالوفاة عن طريق لحظ المدى الذي يرتبط فيه الفرد بعلاقةٍ هادفةٍ مع الآخرين. ووجدت دِراسةٌ مسحيةٌ شملت قرابة السبعة آلاف من سكّان مدينة الاماندا كاونتي في ولاية كاليفورنيا أن «الأَفراد الذين كانوا يرتبطون بعلاقةٍ مباشرةٍ وجهًا لوجهٍ يزداد معدل بقائهم حتى مرحلة الشيخوخة»، حسبما ذكرت المختصة في علم النفس سوزان بنكر.[12] ساعدت العلاقات الاجتماعية لهؤلاء الأفراد، أو غيابها، في «التنبؤ بمعدل الوفاة، بنحوٍ مستقلٍ عن مدى تَمتعهم بالصّحة والرّفاهية أو

---

(10) T. Cruwys, G. A. Dingle, C. Haslam, et al., *Social Science and Medicine*, 2013, 98,.
تُسهم عضوية المرء في الجماعة الاجتماعيّة في حمايته من الكآبة في المستقبل، وتقلل من أعراضها وتحول دون النكوص إليها."

(11) 'الشّعور بالارتباط ثانيةً'.
'T. Cruwys, G. A. Dingle, C. Haslam et al., *Journal of Affective Disorders*, 2014, 159, 139

(12) *The Village Effect*, Susan Pinker (Penguin Random House, 2014), p. 25.

اللياقة الجسدية».

والانفصال هو إحدى الحالات المُخيفة إذا وجد المرء نفسه فيها. إنها بمنزلة تحذيرٍ بأن حياته تتداعى، وأن عالمه قد أضحى عدوانيًا، إذ لا صلة تربطه ولا حماية تقيه. تدمّرنا العزلة تدميرًا عميقًا يصل إلى حد تغييرنا. وبهذا الشأن، كتب أستاذ علم النفس وعلم الأَعصاب الاجتماعي، جون ت. كاسيوبو، أن بوسع العزلة أن ترغمنا على اتخاذ «وضعية الدفاع»، التي نسعى فيها إلى الوقوف بوجه خَطَرِ الرَّفض المُتواصل.(13) تغدو تصوراتنا عن الآخرين شائهةً ومُلتبسةً، إذ يبدون لنا «أميل للانتقاد والتنافس والتحقير أو غير مرحبين بنا في ظروفٍ أخرى». وتتحوّل هذه الرّؤى المغلوطة «سريعًا إلى توقعات، نغدو بعدها أكثر تشوُّشًا، وشعورًا بالمرارة والسلبية؛ وهي عقلية تُفضي إلى مشاحنات زوجية أعمق، وخلافات مع الجِيران، مشكلات اجتماعية أكثر أيضًا».

وحالما يحدث ذلك، نُصبح أكثر عُزلةً وعرضةً لمختلف أنواع السلوك غير الاجتماعي. يُميل المرفوضون في الغالب إلى إصدار العقوبات، ويقل لديهم فعل التبرع بالمال أو مساعدة الغرباء،(14) ومن الجائز أَنْ ينخرطوا في ممارسات مُدمّرةٍ للذات. أخبر الباحثون المشاركين في إحدى الدراسات أنهم يختبرون طعم بسكويت رقائق الشوكولاتة، وطلبوا منهم، قبل الشروع بالاختبار، أن يختلطوا مع المتذوّقين الآخرين، ثمّ اختيار اثنين ممن يرغبون في العمل معهم.(15) قيل لبعض المشاركين (كَذِبًا) إن لا أحدَ من أفراد المجموعة اختارهم في مقابل آخرين قيل لهم إن الجميع اختارهم. تناول أفراد المجموعة الأولى، من المرفوضين اجتماعيًا، عددًا من قطع البسكويت زاد عن عدد القطع التي تناولها أفراد المجموعة من المقبولين اجتماعيًا بتسع مرّات؛ أي قُرابة الضّعف. ومنح أكثريتهم

(13) *Loneliness*, John T. Cacioppo and William Patrick (W. W. Norton & Company, 2008),.
(14) المصدر نفسه، ص. 6.
(15) 'Social exclusion impairs self-regulation', R. F. Baumeister, C. N. DeWall, N. J. Ciarocco and J. M. Twenge, *Journal of Personality and Social Psychology*, 88 (2005): 589–604.

درجات تقييم أعلى لقطع البسكويت، الشيء الذي يُلمح إلى أن رفضهم قد غير بالفعل من تصوُّراتهم عن الطَّعام الحُلو المذاق.

إذن، عندما تبدأ أركان حياتنا بالتصدع، فإن عقولنا وأجسامنا تحذو حذوها: إذ يعترينا المرض، ويستبد بنا الغضب، ونغدو انطوائيين ومنعزلين تمامًا. إننا، حسبما كتب جون ت. كاسيوبو، «مخلوقات شكّلها التطور للشعور بالأمان في الصّحبة، والخطر حينما يُفرض علينا البقاء وحيدين».[16] غير أن التواصل لا يضمن التنعم بحياةٍ ناجحةٍ. إذ قلما نشعر بالرّضا عن إطالة المقام في الدرجات الاجتماعية الدنيا من مجموعاتنا؛ نعم، نحن أهلٌ لِأن نُحب، لكننا عديمو النفع وبنا رغبة بِأن نحظى بالتقدير والإعجاب، وبِأن نشعر أننا ذو قيمة. ثمّة رغبةٌ شديدةٌ في الصّعود إلى الأعلى. والبشر، بكلمات أستاذ علم النفس، روبرت هاغان، التي كثيرًا ما تُقتبس، مدفوعون نحو «السعي المتواصل والمُضي قدمًا»، أو، من منظور دِراستنا الحالية، أَنْ يُقبلوا في ألعاب المكانة، وأَنْ يلعبوا فيها بمهارةٍ.[17]

وإذا كان بوسع حرماننا من الاشتراك في اللعبة أن يجعلنا حزانى وغاضبين ومعتلين صحيًا، فإن تأثيرات الفشل في الفوز بالمكانة قد تكون قاتلةً. كشف اختصاصي الأَوبئة، الدكتور مايكل مارموت، عن التأثير المذهل الذي تمارسه لعبة المكانة في رخائنا الجسدي بعد أَنْ قضى عقودًا في تحليل صحة العاملين في الوظائف العامة البريطانية، وبينَ أن «بريطانيا كانت وما تزال مجتمعًا طبقيًا، وأنها برمتها ترتع بهذه الطبقية»، مما يجعلها «مختبرًا مثاليًا» يُمكن فيه أن نكتشف الدور الذي تؤديه الفوارق الدقيقة في المرتبة الاجتماعية في بروز تباينات جوهرية في الصّحة لدى الأفراد الذين يقعون في منطقة وسط، فلا هم بالأثرياء ولا بالمُعدمين.

غلبت الدهشة مارموت بعدما اكتشف على وجه الدقَّة القدرة العالية لأُسلوب الموظّفين في التقدم في لعبة الوظيفة العمومية في التنبؤ بمخرجاتهم الصّحية وأيضًا

---

(16) *Loneliness,* John T. Cacioppo and William Patrick (W. W. Norton & Company, 2008),.
(17) *The Redemptive Self,* Dan P. McAdams (Oxford University Press, 2013), p. 29.

معدلات وفاتهم. ولم يكن لذلك صلة، مثلما قد تفترض افتراضًا معقولًا، بالأفراد الأثرى ماديًا الذين يحيون حياةً قوامها الصّحة والعافية وأنماط الحياة المُرفّهة. كان هذا التأثير الذي اختار مارموت تسميته بـ «متلازمة المكانة» مستقلًا استقلالًا تامًا: فالمُدخن الثّري الذي لا يفصله عن بلوغ قمة لعبة المكانة سِوى درجةٍ واحدةٍ عرضةٌ للإصابة بالمرض نَتيجة عادة التدخين بمعدلٍ أكبر من المدخن الذي يسبقه بمرتبةٍ واحدةٍ.[18]

كانت هذه الاختلافات في الصّحة على قدرٍ عظيمٍ من الأهمية. فالعُمّال «في أدنى التسلسل الهَرمي لمؤسسة العمل يواجهون خطر الوفاة بالأعمار الممتدة من الأربعين إلى الرابعة والستين، بمعدل فاق أربع مرّات معدل الوفاة بين المسؤولين الإداريين في أعلى التسلسل».[19] ويستمر هذا الحال مع كل خطوةٍ تخطوها في اللعبة صعودًا أو نزولًا. فكلما استمر نزولك، يتفاقم وضعك الصحي، ويتعجل الموت بخطفك. «تسجّل المجموعة التي تحل بالمَرتبة الثّانية معدل وفاة أعلى من المجموعة التي تعلوهم». وقد تأكّدت هذه النتائج المُذهِلة والمهمَّة عند الرِّجال والنساء،[20] ورصدها الباحثون في السعادين الضّخمة أيضًا.[21] أطعم الباحثون القِردة المُختبرية وجبات غنية بالكوليسترول والدهن إلى أن بلغت مستويات خطيرةٍ من تصلب الشرايين اللويحي. كلما ارتفعت مكانة القرد في التسلسل الهرمي للمجموعة، انخفض احتمال إصابته بالمرض الناجم عن الوجبات المؤذية. وعندما تواطأ الباحثون لتعديل التسلسل، تغير معدل خطر إصابة كل واحدٍ من القُرُود بالمرض تغيرًا يتوافق مع التغيير في المكانة. وحسبما أعلن مارموت: «كان الموقع الجديد، لا الموقع الذي شغلوه في الأصل، هو المحدد لدرجة تصلب الشرايين الذي أُصيبوا به». و«كانت الفوارق هائلةً».

---

(18) *The Status Syndrome,* Michael Marmot (Bloomsbury, 2004). Kindle location 793.

(19) المصدر السابق، موقع كندل 681.

(20) *The Status Syndrome,* Michael Marmot (Bloomsbury, 2004). Kindle location 757.

(21) المصدر نفسه، كندل 1472.

يُقدم لنا العلم الجديد للجينومات الاجتماعية، الذي يُركز على دراسة تأثير عوالمنا الاجتماعية في جيناتنا، وأساليب عملها أيضًا، إشارات مبدئية تشرح لنا طريقة حدوث هذا الأمر.[22] إن الفكرة الأساسية هنا هي أن أجسامنا تَستعدُ للأزمة، عندما لا نُبلي بلاءً حسنًا في لعبة الحياة، عن طريق تغْيِيرها لإعداداتنا ضمانًا لاستعدادنا للهُجوم، إذ تزيد من معدل الالتهاب الذي يُساعد في شفاء الجروح الجسمية التي يُحتمل إصابتنا بها قريبًا، وتعمل كذلك على ادخار الموارد بفضل تقليصها لاستجابتنا المُضادة للفيروسات. إلا أن استمرار الالتِهاب مدة طويلةً من الوقت قد يضرنا بطرائق لا حصر لها، إذ إنه يُعزز من خطر الإصابة بمرض التنكس العصبي، وأيضًا نشر اللويحات في الشرايين، ونمو الخلايا السرطانية. وحسبما صرح الأستاذ ستيف كول، أحد روّاد هذا المجال: «لقد ربطت دراسات عدة بين المؤشرات الموضوعية على المكانة الاجتماعية المتدنية والارتفاع في عدد الجينات المساعدة على الالتهاب و/ أو الانخفاض في عدد الجِينات المُضادة للفيروسات. يُحدث الشعور بالإنهاك أو الهَزيمة والاستسلام في سباق الجرذان تغييرًا طبيعيًا في ما تتوقعه من الغد، ويبدو أن هذا الشيء يؤثّر بالفعل في طريقة استعداد خلاياك له».

ليس مفاجئًا، على الأرجح، أن نكتشف أن الشعور بِالحِرمان من المكانة هو أحد المصادر الرّئيسة لِلشعور بالقلق والكآبة. إننا نشعر بالأذى والإجحاف عندما تكون الحياة لعبة نخسرها. وجدت مراجعة للأدبيات العلمية الخاصَّة بهذا الموضوع أن «شعور المرء بتدني مكانته موازنةً بالآخرين يرتبط ارتباطًا دائمًا بارتفاع أعراض الِاكتئاب».[23] ويقول بعض المختصين النفسيين بِأننا «ننسحب ذهنيًا من المُنافسة على مكانة أعلى عند الإصابة بالكآبة». وهذا يُبقينا بَعيدين عن «مراصد

(22) مقابلة مع المؤلف.

(23) 'Social rank theory of depression: A systematic review of self-perceptions of social rank and their rela- tionship with depressive symptoms and suicide risk', Karen Wetherall, Kathryn A. Robb, Rory C. O'Connor, *Journal of Affective Disorders*, 2019, 246, 300–319.

الأفراد ذوي المكانة المُرتفعة»، فنحتفظ بِالطّاقة الكَفيلة بمساعدتنا في التعامل مع ال«فرص المُتناقصة التي تفرضها المكانة المُتدنية».[24] إن الهَزائم المُتكررة في لعبة المكانة جعلتنا نتقهقر إلى المنطقة الآمنة المُعتمة في الجُزء الخَلفي من الكهف. ومن المحتمل، في حِمى هذه الظّلال، أن ينقلب حوارنا الداخلي ضدنا، فيُسرف في انتقادنا في عمليةٍ تُعرف بالإخضاع الذاتي. إننا نبالغ في تَقريع أنفسنا في سَورةٍ من الإذلال الذّاتي، فَنُقنع أنفسنا بعبثية القتال، وبانتمائنا إلى القاع، وبِأن الفشل هو مصيرنا المحتوم.

وَقد يبلغ الأمر بالعقل، عندما نُحرم من المكانة حرمانًا دائمًا مزمنًا، أن ينقلب على ذاته، ويتسبب بتدميرها. ومع أن مسببات الانتحار معقدةٌ في طبعها ولا حصر لها، إلا أن الحرمان من المكانة هو أحد الدوافع الشائعة المعروفة. اللافت للنظر أن التحركات المُفاجئة في أدنى مراتب اللعبة هي الأشد خطرًا في الغالب. إذ يتركز الانتحار «في أوساط الذين يتعرّضون إلى زيادةٍ في شعورهم بالدونية الاجتماعية»،[25] ويقع غالبًا «عندما يتخلف الناس عن اللحاق بالرّكب» حسبما أورد عالم الاجتماع جيسنماننغ الذي أضاف: «كلما كان الهبوط أعظم وأسرع، زادت احتمالات الإقدام على الِانتحار».[26] من المحتمل أن الذين قرروا وضع حد لحياتهم، والخروج نهائيًا من اللعبة التي تسببت في إيذائهم، كانوا قد عانوا في المدة الأَخيرة من خسارةٍ ماليةٍ أو تسريحٍ من العمل. ومن الجائز أيضًا خسارتهم لِسمعتهم أو، بسهولةٍ ويسرٍ، بقائهم محلك سر في أماكنهم مع ابتعاد الآخرين المُتسارع عنهم: «لا يُقدم الفرد على الانتحار بسبب الإخفاق والفشل وحدهما، بل أيضًا بسبب التخلف عن المواكبة».[27]

(24) 'The Emotional Underpinnings of Social Status', Conor Steckler and Jessica Tracy, *The Psychology of Social Status*,2014, 347–362. Accessed at 10.1007/978-1-4939-0867-7_10.

(25) *Suicide: The Social Causes of Self-Destruction*, Jason Manning (University of Virginia Press, 2020). Kindle location 728.

(26) المصدر نفسه، 715.

(27) المصدر نفسه 937.

إن اللعبة التي نلعبها بالغة الجدية. والواقع أننا لن نُدرك أن المكانة ليست محض إحساس جميلٍ، مثل الإحساس الجميل بالاستلقاء على ملاءات نظيفةٍ أو تناول حلوى التفاح إلا عندما نتحرى الضَّرر الذي يُمكن للفشل أَن يُحدثه. إننا في حاجةٍ إلى المكانة؛ فهي من العناصر المُغذية الأساسية التي لا ينحصر وجودها في اللحوم أو الفواكه أو ضوء الشمس، بل في الإدارة الناجحة لحيواتنا. وحينما يَستولي علينا شعورٌ مزمنٌ بالحرمان منها أو بالإقصاء من اللعبة، فإن عقولنا وأجسامنا قد تنقلب علينا. المكانة موردٌ لأدمغتنا مماثل في واقعيته وصدقيته للأوكسجين والماء. إننا ننهار عندما نخسرها.[28]

(28) *Why We Fight,* Mike Martin (Hurst & Company, 2018). Kindle location 856.

الفصل الثّالث

عالم متخيل من الرُّموز

لا نشعر وكأننا لاعبون في لعبة، بل نشعر وكأننا أبطالٌ في قصص. هذا هو الوهم الذي يحيكه الدماغ لنا؛ فهو يجعلنا نشعر كما لو أننا البطل في مركز الكون مُحاطًا بمجموعةٍ من الشخصيات الساندة. وأهداف حياتنا هي الحبكات التي تستهلكنا في أثناء قهرنا للصعاب وسعينا النبيل إلى بلوغ النهايات السعيدة. وهذه القصّة التي يغزل خيوطها الدماغ أنانيةٌ ومُحفزةٌ ومقنعةٌ بأدق أدق تفاصيلها؛ إذ تبدو حقيقيةً لأنها الحقيقة الوحيدة التي نعرفها مع أنها كذبةٌ.

لا أحد يعلم الطّريقة التي تتشكل فيها تجربة «الوعي» هذه مع أن علماء الأعصاب والنفس يتفقون على أنها انطباعٌ مُذهلٌ في سهولته ومُعدل للواقع الحقيقي. يبدو الأمر كما لو أننا نحظى بقدرةٍ مُطلقةٍ على بلوغ العالم الخارجي، وبِأننا ننظر من خارج رؤوسنا إلى الفضاء المترامي الذي يُحيط بأجسامنا. لَكن هذا غير صحيح، فَنحن لا ننظر إلى الخارج، بل إلى *الداخل*. إن حواسنا تلتقط المعلومات من حولنا، وتُشفرها في مليارات من النبضات الكهربائية التي يقرؤها الدماغ مثلما يقرأ الحاسوب الشفرة، ويستثمرها في استحضار رؤيتنا للواقع. والحقيقة المُثيرة للقلق هي أن كل ذلك يحدث *في داخل* التجويف العظمي الضيق في جمجمتنا. الحياة عرضٌ سينمائي ثلاثي الأبعاد، وقصة نشاهدها في داخل رؤوسنا.

إننا نتوهم وجود عالمٍ خاصٍ بِنا، وعن ذلك كتب أستاذ علم الأعصاب، ديفيد

أيغلمان: «إن ما نسميه بالإدراك العادي لا يختلف في حقيقته عن الهلوسات فيما عدا أن الأخيرة - أي الهلوسات - لا ترتكز على مُدخلات المَعلومات الخارجية».[29] وارتكاز إدراكنا في الواقع هو وظيفة الحواس التي يتعذر الثقة بها. فالآذان والعيون والألسن والجلد والأُنوف لا تزوّد الدماغ بالأَصوات والأَلوان والأذواق واللمسات والرَّوائح، بل إن من يفعل ذلك هو «تيار هادر من النبضات الكهربائية المُنطلقة بسرعةٍ نحو الحزم الكَثيفة من أسلاك البيانات التي نُسميها الأعصاب.»[30] والتجارب التي يُعدها الدماغ من هذه النبضات هي أفعال خلقٍ وابتكارٍ.

إن الجُزء الأكبر مما يبدو واقعيا وحقيقيا حقيقةً قاطعةً في الفضاء المحيط بنا ليس كذلك. العالم الفعلي أُحادي اللون وصموت. إذ لا توجد الأصوات والألوان والأذواق والرّوائح إلا في الإسقاط في رؤوسنا.[31] وما يوجد فعلًا هناك في الخارج هي الجَزيئات (particles) غير المُستقرّة، ومركبات كيمائية عائمة وجزيئات وأمواج ضوئية عديمة اللون متباينة في أطوالها. وتصوّراتنا عن هذه الظواهر هي مؤثّرات خاصة في فلمٍ يُنتجه الدماغ، ولا قدرة لحواسنا إلا على تعقب الجزء الأَصغر والأَدق مما يوجد في الخارج. فعيوننا، في سبيل المثال، قادرة على التقاط أقل من واحد على عشرة تريلون من طيف الضوء المُتوفر.[32]

إذن، يخلق الدماغ تجربتنا الخاصَّة بالعالم، ثم يعمل على استحضارنا، ووضع الذّات في مركز هذا العالم. إنه صانع البطل الذي يخلق وهم الذَّات وسردِها الأخاذ، ويؤطر حياتنا بوصفها رحلةً نحو مقصدٍ متفائلٍ. وللقصّة التي يَرويها الدماغ راوٍ؛ صوت داخلي يزقزق ويشدو، ويؤدي عرضًا مُرتجلًا حيًا لسيرتنا

(29) *Incognito:TheSecretLives of the Brain,* David Eagleman (Canongate, 2011), p. 46.

(30) *Livewired: The Inside Story of the Ever-Changing Brain,* David Eagleman (Pantheon, 2020), p. 27.

(31) للاطلاع على نقاش مُكثفٍ للمفاهيم المُبينة في هذا الجزء، راجع:
Making up the Mind, Chris Frith (Blackwell Publishing, 2007).

(32) *Incognito: The Secret Lives of the Brain,* David Eagleman (Canongate, 2011), p. 77.

الذَّاتية. يُسمي أستاذ عالم الأعصاب، مايكل غازانيغا، هذا الشيء «وحدة مُفسر»، ووظيفتها، حسبما يذكر، هي تقديم «أحداث قصّة حياتنا وسردها.»[33] إنها «تُقدم التفسيرات لِتصوُّراتنا وذكرياتنا وأفعالنا والعلاقات فيما بينها. وهذا من شأنه أنْ يؤدي إلى سردٍ شخصي هو القصة التي تربط معًا جميع الجوانب المتفرّقة لِتجربتنا الواعية في نسيجٍ متماسكٍ: إنه النظام من رحم الفوضى.»[34] وهذه القصّة «قد تكون خاطئة تمامًا»، وهي عادة ما تكون كذلك. «ما «أنت»، الذي تشعر بالزهو به، سوى قصّة نَسَجت خيوطها وحدة المفسر الخاصَّة بك ابتغاء تفسير أكبر قدرٍ يمكنها تضمينه من سلوكك في حين تنكر هذه الوحدة الباقي، وتجد المسوّغات المنطقية لتبريره.»[35]

يبرعُ الدماغ المتعافي نفسيا في جعل مالكه يشعر بِأنه بطلٌ؛ وهو يفعل ذلك بفضل إعادة ترتيبه لتجاربنا، ومزجه لذكرياتنا[36]، وترشيده لسلوكنا مُستخدمًا مجموعةً من أسلحة تمويه الواقع التي تدفعنا إلى تصوّر إننا أكثر اِستقامةً وصلاحًا[37] في معتقداتنا، وأن بانتظارنا مستقبلًا أكثر تفاؤلًا وإشراقًا من الآخرين.[38] «الدليل واضحٌ ومتسقٌ،» بحسبما يرى أستاذ علم النفس، توماس غيلوفيج، «فنحن ميالون إلى تبني معتقدات أنانية عن أنفسنا، ومعتقدات مريحة عن العالم.»[39] ويُعتقد أن الانحياز الأخلاقي هو الأقوى من بين هذه الأسلحة.

(33) *Who's In Charge*? Michael Gazzaniga (Robinson, 2011), p. 105.

(34) المصدر نفسه، ص 102.

(35) المصدر نفسه، ص. 108.

(36) يرى أستاذا علم النفس الاجتماعي، كارول تافرز وآليوت آرونسن، أننا نستخدم 'تخاريف الذاكرة' لإيجاد 'مسوغٍ لحياتنا الخاصة وتفسيرها."

Mistakes Were Made (But Not By Me) by Carol Tavis and Elliot Aronson (Pinter & Martin, 2007), p. 76.

ناقشت بتعمقٍ واستفاضةٍ الذكريات غير الموثوق بها في الفصل العاشر من كتابي *المهرطقون* (بيكادور، 2013).

(37) *How We Know What Isn't So*, Thomas Gilovich (Simon & Schuster, 1991), p. 78.

(38) *Mindwise*, Nicholas Epley (Penguin, 2014), p. 50.

(39) *How We Know What Isn't So*, Thomas Gilovich (Simon & Schuster, 1991), p. 78.

فبغض النظر عما نفعله والخداع الذي نمارسه، فإن دماغنا يدفعنا إلى اِستخلاص بِأننا الأفضل، في نهاية الأمر، من الآخرين. خمّنَ المشاركون في إحدى الدراسات معدل الوقت الذي أظهروا فيه مدى من السلوك الفاضل.[40] وطلب منهم الباحثون، بعد ستة أسابيع من الدراسة الأولى، أن يخمّنوا معدل الوقت مرةً أخرى مع إبلاغهم بمتوسط المعدلات التي خمّنها المشاركون الآخرون. قيَم المشاركون أنفسهم، بِأنهم على درجةٍ من الأخلاق تفوق كثيرًا الآخرين فيما يتصل بالغالبية العظمى من السلوك. لكن ما لم يكونوا يدركوه هو أن «متوسط التقييمات» الخاصّة بالآخرين كانت، في الواقع، *تقييماتهم ألتي وضعوها قبل سِتة أسابيع*. ولحظت دراسةٌ أخرى، وازنت بين الصّور الذّاتية للمشاركين بإزاء عددٍ من السمات، أن «جميع المشاركين عمليًا قد أفرطوا واشتطَوا في تضخيم خصائصهم الأخلاقية.» كتب الباحثون أن «أكثرية الناس يؤمنون إيمانًا قويًا بإنهم عادلون وفضلاء وأخلاقيون مع أنهم يرون أن الإنسان العادي لا يرقى إلى هذه الخصائص،» واستنتجوا، تبعًا لذلك، أن التفوق الأخلاقي «هو أحد أشكال الوَهم الإيجابي الفريدة في قوتها وشيوعها».

تتواطأ الثّقافة في حلم الحياة البشرية هذا. إذ تتشكل الثّقافات من مليارات من الأدمغة: مليارات من الحكائين العصبيين المتضافرين في عملهم. إنهم يملؤون أديانهم ورواياتهم وصُحفهم وشاشاتهم وأحاديثهم وثرثراتهم وإيديولوجياتهم بِالقصص السهلة الساذجة عن الأبطال المُستقيمين، والأَوغاد الأشرار، وعن الممثلين الذين يقاومون الصّعاب، ويقاتلون الشر في أثناء رحلاتهم إلى الأراضي الموعودة. إننا جميعًا نعيش حلم العقل.

ومن أجل الكشف عن البناء المُضمر للحياة البشرية، يَجب علينا أن نحفر أدنى

(40) 'The Illusion of Moral Superiority' 'وهم التفوق الأخلاقي' B. M. Tappin, R. T. McKay, *Social Psychological and Personality Science*, August 2017, 8(6): 623–631. https://doi.org/10.1177/1948550616673878. Epub 10 October 2016. PMID: 29081899; PMCID: PMC5641986.

القصة الواهمة للوعي، والغوص في داخل اللاوعي، ذلك المكان الفريد في قوّته. ففي هذه الأعماق الغامضة تحديدًا تقع بالفعل الأغلبية العظمى من حسابات الحياة. وعلى الرّغم مما يبدو عليه الوعي، إلا أنه، بحسبما يقول ايغلمان، «لا يقع في مركز الفعل في الدماغ، إنه بعيدٌ في طرفٍ قَصي، لا يسمع سِوى همسات الفعل.»[41] «صمّمَ الانتقاء الطّبيعي» دوائر اللاوعي التي تُنتجُ عالم القصّة المتخيلة هذه «لحل المُشكلات التي واجهها أسلافنا في مسار التاريخ التطوري لِنوعنا البشري.»[42]

والدماغ البشري متخصّص بالألعاب التي طَوّرناها لكي نلعب فيها. يقول عالم الأعصاب الأستاذ كرس فرث إن الدماغ «يُقدم العالم بوصفه فضاء مكافأة.»[43] إنه مُشفرٌ لاكتشاف «الأشياء القيّمة في العالم، والأفعال التي نحتاج إلى أدائها لبلوغ هذه الأشياء... كُل ما حولي يدفعني أو يسحبني؛ لِأن دماغي قد تعلم إسباغ المعنى عليها».[44] ومثلما عرَفنا، فإن البشر يُثمنون التواصل والمكانة. إننا نسعى إلى التواصل مع شركائنا اللاعبين من أجل الحصول على الموارد الضّرورية لبقائنا وتَكاثرنا؛ ونسعى إلى علو المقام والمَنزلة ضمانًا لحصولنا على *المَزيد* من هذه الموارد. لكن ما سبيلنا إلى قياس هذه المنزِلة؟ كيف نصف أداءنا في لعبة الحياة هذه؟

نفعل ذلك، جزئيًا، بإسباغ قيَمٍ على الأشياء. فالساعة علامة كارتير تستحق *هذه* المكانة المعتبرَة في حين تستحق الساعة علامة كاسيو *تلك* المكانة. وتُخبرنا «رموز المكانة» هذه وأيضًا شركاؤنا في اللعب، عن نوعية أدائنا. إننا نُفرّط حد الهوس في العِناية بهذه الرّموز، ونحن نحتاج إلى ذلك: إذ تخلو الحياة البشرية، خلافًا لِلعبة الحاسوب، من لوحة تسجيل نقاط قاطعةِ، وليس بوسعنا أبدًا أن

---

(41) *Incognito: The Secret Lives of the Brain*, David Eagleman (Canongate, 2011), p. 9.

(42) المصدر نفسه، ص. 5.

(43) *Making up the Mind*, Chris Frith (Blackwell Publishing, 2007), p. 97.

(44) المصدر نفسه، ص 110.

نعرف بالضّبط مواقع جلوس اللاعبين قبالتنا في تصنيفات المراتب، بل بوسعنا فقط أنْ نستشعرها من الرّموز التي منحناها قيمًا دقيقةً. ويعتمد اللاوعي، ابتغاء إدارة هذه العملية، على «نظام تعقب مكانة» قوامه آليات تقرأ «الإشارات المُختصَة في البيئة لتقييمها- أي المكانة.»(45)

وهذا النظامُ مذهلٌ في حساسيته، فهو لا يكتفي باستخدام الأشياء غير الحيّة بوصفها رموز مكانة، بل بقدرته أنْ يُسقط القيمة على ما يُقارب كل شيء، بما فيه مظهر الناس وسُلوكهم. تشتمل الأفعال الدالة على المكانة في دراسة تناولت الحياة المهنية في إحدى المديريات: «الحمل الدائم للأضابير والمَلفات»، و«السيرَ بأسلوبٍ دالٍ على الجدَية حتى إلى براد الماء»، و«اقتناء الساعات متعددة التوقيت.»(46) عندما خُصص لكل واحدٍ من نواب الرّؤوساء في شركةٍ مساهمةٍ أمريكية عُدة مكتبية بحاملة قلمٍ منضدي مفرد، «سعى أحدهم بعد مدةٍ وجيزةٍ إلى الحصول على حاملة منضدية ذي قلمين، وفي غضون أربعة أيام، سعى جميع النواب الآخرين إلى الحصول على حوامل منضدية ثلاثية القلم.»(47)

كانت النظرة إلى الناس بِأنهم منشغلون بظواهر «تافهة» يُفسرونها بوصفها رمزًا دالًا على مكانتهم، مثل الكميَة النسبيَة لعصير البرتقال الذي يُصبّ في كؤوسهم، والفوارق «الطّفيفة» في الملبس.(48) والقاعدة العامة، في لعبة الملابس الفاخرة، هي أنه كلما كان الشعار (logo) كبيرًا، تدنت المكانة والسعر تبعًا لذلك. رصد تحليلٌ أن «زيادةً في حجم الشعار مقداره نقطة واحدة من مقياسٍ مؤلفٍ من

---

(45) *The Psychology of Social Status*, Joey T. Cheng, Jessica L. Tracy, Cameron Anderson (Springer, 2014), p. 121.

(46) المصدر نفسه، ص 167.

(47) 'Is the Desire for Status a Fundamental Human Motive? A Review of the Empirical Literature', C. Anderson, J. A. D. Hildreth and L. Howland, *Psychological Bulletin*, 16 March 2015.

(48) 'Is the Desire for Status a Fundamental Human Motive? A Review of the Empirical Literature', C. Anderson, J. A. D. Hildreth and L. Howland, *Psychological Bulletin*, 16 March 2015.

سبع نقاط تتحول إلى انخفاض في السعر مقداره مائتين واثنين وعشرون دولارًا وستٍ وعشرون سنتًا بالنسبة للحقائب اليَدوية علامة غوتشي، وستة وعشرون دولارًا، وسبع وعشرون سنتًا في حالة الحقائب اليَدوية عَلامة لوي فوتون.»[49] والشعار في حقيبة هوبو اليَدوية التي تُنتجها دار أزياء بوتيغا فينيتا الأيطالية لا تظهر للعيان، إذ ثبتها المصممون في الجزء الداخلي.

هذه الرّموز المُبتذلة في ظاهرها مُهمةٌ.[50] عرض الباحثون، في أحد الاختبارات، على المشاركين صورًا لأشخاص يرتدون ملابس «فاخرة» أو «متواضعة»، فأفترض المشاركون تلقائيًا أن مرتدي الملابس الفاخرة كانوا أشد كفايةً وتميزًا، وينعمون بمكانةٍ أعلى. واستمر هذا التأثير حتى مع تلقيهم تحذيرًا صريحًا من الإنحياز المحتمل، وإخبارهم بأن الملابس غير مهمة إطلاقًا، وبأن جميع المشاركين يعملون في قسم المَبيعات في شركةٍ متوسطة الحجم في الغرب الأوسط، ويكسبون قرابة الثمانين ألف دولار أمريكي. وتواصل التأثير حتى مع دفع الباحثين المال إلى المشاركين من أجل الإدلاء بتخمينٍ دقيقٍ. كل ما كان مطلوبًا لكي تُصدر أجهزة تعقب المكانة خاصتهم أحكامها شديدة العِناد هو نظرة خاطفة واحدة على كُل صورةٍ لم تستغرق سوى مائة وتسعة وعشرين جزءًا من ألف جزء من الثّانية.

يواصل نظام تعقّب المكانة قراءة المعلومات الرّمزية التي ترسلها أصوات شركائنا اللاعبين ولغة أجسامهم. إنه يُسجل عَلامات الهيمنة أو الخضوع في ثلاثة وأربعين جزءًا من ألف جزء في الثّانية،[51] ويحسبُ نوعية التواصل البصري الذي نستلمه وكميته (كلما زاد التواصل، كان أفضل)، وهو يفعلُ ذلك باستمرارٍ ووعيٍ

(49) 'Social Hierarchy, Social Status and Status Consumption', David Dubois, Nailya Ordabayeva, 2015. 10.1017/ CBO9781107706552.013.

(50) 'Economic status cues from clothes affect perceived competence from faces', D. Oh, E. Shafir, A. Todorov, *Nature Human Behaviour* 4, 287–293 (2020). https://doi.org/10.1038/s41562-019-0782-4.

(51) *Behave*, Robert Sapolsky (Vintage, 2017), p. 432.

و«دقةٍ رقميةٍ».[52] يميلُ ذوو المكانة الرّفيعة إلى التحدث بمعدلٍ وبصوتٍ أعلى؛[53] والنظرة لهم بِأنهم ذوو وجوه أكثر قدرةً على التعبير، وهم أقدر على النجاح في مقاطعة الآخرين في الحديث، وعلى الوقوف قريبًا منا؛ لكنهم لا يمارسون العادة السريَة كثيرًا، ويقفون ويجلسون بوضعيات جسدية أكثر استرخاءً ودلالةً على الثّقة؛ ويستخدمون عددًا أكبر من «الوقفات الممتلئة» من مثل «أوم» و«آه»؛ ويتكلمون بنبرةٍ صوتيةٍ أهدأ وأوثق (مع ملاحظة التباين في بعض هذه الرّموز تبعًا للثقافات).[54] عندما التقط الباحثون صورًا مفاجئةً وعفويةً لِستة وتسعين زوجًا من زملاء العمل، وهم يتعاطون مع مسألةٍ ما[55]، ثمّ عمدوا إلى اقتطاع صور العاملين فحسب، وتثبيتها بإزاء خلفيةٍ بيضاء لإزالة أية معلومات سياقية، أظهر الناس «دقةً بالغةً» في تقديراتهم للعامل الذي يحظى بمكانةٍ أعلى؛ إذ أن محض نظرةٍ عابرةٍ على الصّورة الساكنة لزملاء العمل في أثناء حديثهم كانت كافيةً لِتمكينهم من معرفة العامل الذي يشغل الموقع الأعلى.

لا يكتفي نظام تعقب المكانة بذلك، فهو يقرأ أيضًا المعلومات الرَّمزية في الأصوات التي يتعذّر علينا أنْ نسمعها سماعًا واعيًا. إذ إننا نُطلق في أثناء الحديث طنَينًا منخفض الترددَ عند قرابة الخمسمائة هيرتز (أو دورة لكل ثانيةٍ).[56] وطنين الناس يتغير عند لقائهم وحديثهم، فالأعلى مكانةً في المجموعة هو الذي يُحدد مستوى الطّنين، ويعمل الباقون على تعديل مستوى طنينهم ضمانًا للتوافق. ويُنظر إلى هذا الطّنين بوصفه «أداةً اجتماعيةً غير واعيةٍ» تُساعد في تصنيفنا في سلاسل المكانة الهرميَة. لحظت تحليلات المقابلات في *برنامج لاري كنغ* أن المَضيف يُغير طنينه بأسلوبٍ دالٍ على التوقير والاحترام كي يتوافق مع طنين النجمة السينمائية

---

(52) *Subliminal,* Leonard Mlodinow (Penguin, 2012), p. 120.

(53) *The Psychology of Social Status,* Joey T. Cheng, Jessica L. Tracy, Cameron Anderson (Springer, 2014), p. 330.

(54) ملاحظة تخص تدقيق الحقائق، وليم باكنر.

(55) C. Anderson, J. A. D. Hildreth and L. Howland, *Psychological Bulletin,* 16 March 2015.

(56) *Our Inner Ape,* Frans de Waal (Granta, 2005), p. 56.

إليزابيث تايلور، وكان السياسي الأمريكي دان كويل يتبعه في هذا التعديل.

ونظام تعقّب المكانة بالغ الوضوح في سلوك الأطفال والمُراهقين. فقرابة ثلاثة أرباع السجالات والمُناكفات بين الأطفال بعمر العام والنصف والعامين ونصف تخص الأغراض والمُقتنيات، مع ارتفاع هذه النسبة إلى 90٪ عند وجود اثنين من الأطفال الصّغار حديثي المشيَ.[57] يرى أستاذ علم النفس التطوري، بروس هوود، أن حيازة الأشياء هو «وسيلةٌ لتحديد موقعك في نظام التسلُطّ في حضانة الأطفال.» إذ يرغب الأطفال الآخرون بالدميَة حالما يدعي طفلٌ صغيرٌ ملكيته لها. «إن لامتلاك الأشياء علاقةً وثيقةً بالمكانة بين المتنافسين. وهذه الخلافات المبكرة هي تلميحٌ إلى الحياة اللاحقة في العالم الواقعي.»[58] وهؤلاء الشبان الساعون إلى المكانة، على شاكلة البالغين، منافقون. يقول عالم النفس، بول بلوم، إن الأطفال «حساسون لعدم المساواة، التي لا تزعجهم، كما يبدو، إلا عندما يكونون هم الطّرف الذي يحصل على الأقل.»[59]

يشعرُ الأطفال الصّغار بالانزعاج عندما يحصلون على قطع حلوى أقل من غيَرهم. ومنْ هم بعمر الخامسة يأملون في التنعم بِميزةٍ نسبيةٍ، إذ يختارون في العادة أنْ يرفضوا مدفوعات متساوية هي قيمة شارتيَ تفوق رمزيتين لكل واحدٍ من الأطفال، مفضلين عليها شارةً واحدةً لأنفسهم حتى لو كان ذلك يعني حرمان الأطفال الآخرين من الحصول على أية شارةٍ. إن الإجحاف المقترن بالمنفعة النسبية يحظى بجاذبيةٍ شديدةٍ، حتى بين الأطفال، «إلى حدٍ يقهر معه كلا من الرّغبة بالإنصاف وأيضًا الرّغبة بالكسب المُطلق».[60]

---

(57) *Possessed*, Bruce Hood (Penguin, 2019), pp. 53–54.

(58) *The Domesticated Brain*, Bruce Hood (Pelican, 2014), p. 195.

(59) *Just Babies*, Paul Bloom (Bodley Head, 2013), p. 80.

(60) 'When Getting Something Good Is Bad: Even Three-Year-Olds React to Inequality', Vanessa LoBue, Tracy Nishida, Cynthia Chiong, Judy DeLoache, Jonathan Haidt, *Social Development*, 2011, 20, 154–170. 10.1111/j.1467-9507.2009.00560.

وما يبدأ بوصفه صراعًا على حيازة الدمى في غرفةِ الألعابِ يتطور إلى صراعات مُدمرةٍ بعد البلوغ. تعودنا على التفكير في المال والسلطة بِأنهما من القوى الدافعة الأساسية في الحيَاة. مع ذلك، تقول الدراسات إن الرّغبة بالتسلط على الآخرين، خلافًا لِلمكانة، ليست جوهريةً في البشر.[61] فهي ليست متنبئًا قويًا على الرّخاء والرّفاهية على العكس من المكانة مُضافًا إلى أن الرغبة بالسُلطة قابلةً للإشباع. تقول عالمة الاجتماع سيسليا رجَويَ بهذا الشأن: «إن غالبيّة الناس يصبحون أقل اهتمامًا بالفوز بمزيد من السلطة بعد حصولهم على قدْرٍ معتدلٍ منها.» لكن هذا القول لا يصدَق على المكانة.[62]

وعلى غرار ذلك، ليست جوهريةً الرّغبة بالثّروة.[63] المكانةُ هي الشكل الأصليَ للعُملة، وهي الأَهم بين الأشياء. تكشف الدراسات عن تفضيل أغلب العاملين موقعًا وظيفيا أرفع مكانةً على الزّيادة في الأجر، وتحدثت إحدى الدراسات المَسحية التي شملت ألفًا وخمسمائة من العاملين في الوظائف العمومية عن تفضيل قرابة السبعين بالمائة منهم للمكانة على المال، مع تفضيل المُساعدين المُبدعين لمنصب «المسؤول الرّئيس عن الابتكار»، وتفضيل موظفي الأضابير

'Why people prefer unequal societies', Christina Starmans, Mark Sheskin, Paul Bloom, *Nature Human Behaviour*, 2017, 1, 0082. 10.1038/s41562-017-0082.

(61) 'Is the Desire for Status aFundamental Human Motive? A Review of the Empirical Literature', C. Anderson, J. A. D. Hildreth, L. Howland, *Psychological Bulletin*, 16 March 2015.

(62) *Status*, Cecilia L. Ridgeway (Russell Sage Foundation, 2019), p. 59.

(63) يتصرف حتى المصرفيّين في وول ستريت مثلما لو أن المكانة أهم لَديهم من المال. كانت الإعلانات عن عروض التأمين تُنشر في صحفٍ ماليةٍ معتبرةٍ مثل وول ستريت جيرنال في الجزء الأكبر من القرن العشرين. وكانت أسماء المصارف المعنية تردَ في صفحةٍ كاملةٍ مخصصَةً للإعلانات، وموقع هذه المصارف في ترتيب الأسماء هو مؤشرٌ على مكانتها النسبيَّة، مع تكريس القسم الأعلى إلى اليَسار للمصارف الأعلى تصنيفًا. وكان المصرفيَون يهتمون حدَ الهَوس بمواقع مصارفهم في الترتيب، ويتراجعون عن الصَّفقات لو شعروا بعدم الرّضا. تخلت مؤسسة مورغن ستانلي للخدمات الماليّة والاستثماريَّة، في عام 1979، عن عرضٍ من شركة أي بي أم للسيارات، التي واصلت التعامل معها مدّة عشرين عامًا لِشعورها بالاستياء من ترتيب موقعها في إعلانٍ، متجاهلةً قرابة المليون دولار هي قيمة الصفقة، إذ قدرت المؤسسة بِأنها إذا كانت ترغب في حصد المزيد من المال في المستقبل، فعليَها، أولًا، أن تعتني بمكانتها.

Status Signals, Joel M. Podolny (Princeton University Press, 2005). Kindle location 799.

والمَلفات لمنصب «المُتخصص بخزن البيانات» لأنهم يَطَلِعون على تفاصيل كثيرةٍ. وعلى فرض أن لدينا من المال ما يكفي لإِعالتنا، يبدو أن التنعم بمكانة نسبية تجعلنا أسعد من التنعم بالمال وحده.

رصدَ عددٌ من الدراسات هذا الأمر، خَلصت إحداها، بعد استخدامها بيانات تخصّ اثني عشر ألفًا من البالغين البريطانيين[64]، إلى أن «ارتفاع معدل دخل الفرد يتنبأ بالرّضا العام عن الحيَاة مع لحظ غياب التأثير في حالة الدخل المطلق والدخل المرجعي.» ولاحظ اقتصاديون، في مواضع أخرى، أن سعادة الناس تنخفض إذا كان الآخرون الذين يعيشون قريبًا منهم يتفوّقون عليهم في كسب المال،[65] وتنحدر بمعدلٍ أكبر في حالة الأفراد الذين يقضون وقتهم في التواصل اجتماعيًا مع الجيران. إن التأثير هائلٌ هنا: «إذ لِلزيادة في مداخيل الجيران في مقابل انخفاض مماثلٍ في الحجم في دخلنا، على وجه التقريب، التأثير السلبي ذاته في الشعور بالرّخاء والرّفاهية.»

ويتوافق هذا مع فهمنا لِآلية عمل الدماغ الذي ينبغي له أنْ يحكم على مكانتنا قياسًا إلى مكانة كل شخصٍ آخرٍ لأن هذا هو أسلوبه في الإدراك الحسي والاستِشعار. تقول عالمة الأعصاب صوفي سكوت: «ليس للإدراك الحسي منطقة صفر. ليست هناك حقيقة مطلقة عن العالم نوازنها بكل شيء آخر، فيكون كل شيء نسبيًا.»[66] ولذا، يعمل نظام تعقب المكانة في جوٍّ من التنافس. تنبه الباحثون

---

(64) 'Is the Desire for Status a Fundamental Human Motive? A Review of the Empirical Literature', C. Anderson, J. A. D. Hildreth and L. Howland, *Psychological Bulletin*, 16 March 2015.

'Money and Happiness: Rank of Income, Not Income, Affects Life Satisfaction', C. J. Boyce, G. D. A. Brown, S. C. Moore, *Psychological Science*, 2010, 21 (4):471–475. https://doi.org/10.1177/0956797610362671.

(65) 'Neighbors as Negatives: Relative Earnings and Well-Being', Erzo F.P. Luttmer, *National Bureau of Economic Research Working Paper Series*, No. 10667, August 2004. https://doi.org/10.3386/w10667.

(66) تواصل مع العالِمة عبر البريد الإلكتروني.

إلى أن أنظمة المكافأة البشريَة تبلغ أقصى درجات النشاط عند حصولنا على مكافآت نسبية أكثر منها مطلقة؛[67] إننا مُصَممون بطريقةٍ لا تجعلنا نشعر بأننا في أفضل حالاتنا عندما نحصل على المزيد، بل عندما نحصل على أشياء تفوق ما يحصل عليه الآخرون حولنا.

يجادل بعضهم أن هذا الشيء صحيح كذلك في المستوى الوطني، ويقول إن اِرتفاع متوسط الإيرادات في البلد لا يعني اِرتفاع معدل السعادة. وهذا معقول، على وفق منطق اللعبة: فإذا أثرى الجميع دفعةً واحدةً، فإن أموالك الإضافية لن تجلب لك تفوقًا في المكانة. مع ذلك، الفكرةُ موضع جدلٍ وخلافٍ، ومردَ السبب في ذلك، في جزءٍ منه، يعود إلى التعقيد الذي تتصف به الأمم، إذ يتعذر أن نفصل فصلًا قاطعًا الصِّلة الرّابطة بين النمو الاقتصادي والسعادة. والظاهر أن بعض البيانات، المبنيَة على أدلةٍ شاملةٍ عن البلاد، تكشف عن ارتباط الارتفاع في الدخل القومي مع الارتفاع في مستوى السعادة الوَطنية.[68] غير أن الزّيادة مُتدنية حسبما صرَح به الدكتور كريستوفر بويس، المختص بالسعادة.[69] «إذ تُعبر البيانات فقط عن اِرتباط النمو الاقتصادي اِرتباطًا أعلى بِالرّضا عن الحياة (وإن كان ارتباطًا واهنًا للغاية، وليس سببيا). وسواء أكانت هذه البيانات شاملةً للبلدان أم السكان الذين يتشاركون العيش في نفس البلد، فإن جنيَ المزيد من المال، من الناحية الإحصائية، يؤثر تأثيرًا دائمًا في الغالب في الشعور بالسعادة، مع أن هذا التأثير ليس هائلًا على الإطلاق. ولذلك، وفي حين بوسع المال شراء السعادة، إلا أنه لا ينجح في ذلك دائمًا أو أن تأثيره ضئيلٌ للغاية». وفي هذه الأثناء، وجد أكاديميون يعملون في مركز أبحاث الرَّفاهية التابع لجامعة أكسفورد، كما قد تتوقع، أن

---

(67) 'Socially relative reward valuation in the primate brain', M. Isoda, *Current Opinion in Neurobiology*, 8December2020,68:15–22.https://doi.org/10.1016/j.conb.2020.11.008.Epub ahead of print. PMID: 33307380.

(68) للاطلاع على فكرةٍ مخالفةٍ، أنظر

Enlightenment Now!, Steven Pinker (Penguin, 2018), p. 268.

(69) مراسلة مع الدكتور عبر البريد الإلكتروني.

البُلدان الأقل ثراءً تشهد بالفعل زيادةً في معدل السعادة مع التحسن في الظُّروف العامة للمعيشة.(70) وهذا خِلافُ الملاحظ في البلدان الثّريَة سلَفًا التي لا يُحدث المال فيها، على المدى الطَّويل، تغييرًا جوهريًا. كان الاقتصاد الأمريكي ينمو بمعدلٍ صافٍ يبلغ 1.7٪ سنويًا بين عاميَ 1965 و1990 في حين كانت اليابان تشهد طفرةً سنويةً مذهلةً مقدارها 4.1٪. لكن السعادة لم تكد تتزحزح عن مكانها في البلدين.(71)

المال هو تعبيرٌ عن أشياء تفوق الحصر، بطبيعة الحال: إذ نحتاجه للبقاء على قيدَ الحياة، وهو المورّد لعددٍ مذهلٍ من مُتع الحياة؛ إلا أننا نستثمره أيضًا، على شاكلة استثمارنا للسلطة، بوصفه رمزًا للمكانة مثلما فعلنا مع حجم الشعار في حقيبة اليد، وكمية عصير البرتقال المسكوب في كأسٍ. هناك قطع حلوى علامة باكمان في لعبة الحياة البشريَة، والبشر مخلوقات مُدهشةٌ في قدرتها على التخيَل، إذ بوسعهم، عمليا، تحويل كل شيء إلى رموزٍ للمكانة.

نشر الأنثروبولوجي وليم باسكوم، في العام 1948، تحليلًا لِلعبة المكانة المستندة إلى نبات اليام المُتسلق في جزيرة بونبي أو بونابي في منطقة ميكرونيسيا غربي المحيط الهادئ.(72) كانت الحياة في الجزيرةِ مثلها في كل مكانٍ: مقسمةً إلى مراتب، يشغل القمةَ فيها الشيوخُ، مع توزع الأدنى منهم مرتبةً على وفق الوِراثة والانتماء السيَاسي، والارتقاء إلى المراتب الأعلى صعبٌ، مع وجود وسيلةٍ واحدةٍ فقط لتحقيق ذلك، إذ يُمكن للرّجال الذين يجلبون نبات اليام للحفْل الذي يقيَمه الشيخ، أن يحظوا بمكانةٍ مائزةٍ، شريطة أن تكون الشجرةُ طويلةً: «إذ لا يُمكن لرجلٍ»، بحسبما لحظ باسكوم، «أن يحظى بالمكانة والاحترام بجلبهِ عددًا كبيرًا من

(70) 'Different Versions of the Easterlin Paradox: New Evidence for European Countries', Casper Kaiser, Maarten Vendrik, *IZA Discussion Paper* No.11994.
(71) *The Status Syndrome*, Michael Marmot (Bloomsbury, 2004). Kindle location 1505.
(72) Ponapean Prestige Economy', William R. Bascom, *Southwestern Journal of Anthropology*, 1948, Vol. 4, No. 2, pp. 211–221. www.jstor.org/stable/3628712.

نباتات اليام الصّغيرة إلى الحفْل.» وسيعلن منافسو الرّجل صاحب الشجرة الأكبر حجمًا على الملأ بِأنه «رقم واحد»، وسيُثني عليه الشيخ لكرمِهِ وسخائه.

تنبه باسكوم إلى أن رجال جماعة بونبي يعيشون في حالة حربٍ رمزيةٍ لسعيَهم جميعًا إلى نيل لقب «رقم واحد». ولِذا، يزرع كل واحدٍ منهم، في مناطق سرية ونائية وكثيفة الشجر، قرابة الخمسين من هذا النبات سنويًا لتقديمها في الحفْل حصرًا؛ كانوا يتسللون من أسِرتهم في الساعة الثّانية صباحًا لرعاية النبتات، وتبطين الحُفر بالتربة والمخصّبات حتى طلوع الفجرّ. قد تستغرق مدة نمو النبتة الواحدة عشر سنوات حتى يصل طولها إلى أربعة أمتار، ووزنها إلى تسعين كيلوغرامًا، وتتطلب قرابة الأثني عشر رجلًا لحملها إلى الحفْل بنقالةٍ خاصةٍ مُسندَةٍ إلى أعمدة. وكتب باسكوم أيضًا: «إن قدرة رجال البانوبي على زراعة نباتات اليام الهَائلة الحجم ليست محل تشكيك ... إذ ذاعت شُهرتهم حتى بلغت على الأقل، مسامع السكّان في ولاية تراك، إذ لا تنعم نباتات اليام المتسلقة بأهميةٍ كبيرةٍ.»

وفي حواف حروب نباتات اليام هذه نما وازدهر نظامٌ دقيقٌ من قواعد السلوك وآداب التصرف. «فالنظر إلى نباتات رجلٍ آخرٍ»، مثلما يورد باسكوم، «هو أمرٌ مخالفٌ لقواعد التهذيب، ومن يُمسك مُتَلبسًا بفعل ذلك سيشعر بعار السخريةِ والقيَل والقَال الذي سيلحق به.»

ويبالغ أفراد جماعة بونبي في ذلك حد «التظاهر بتجاهل حتى نباتات اليام الناميَة قرب المنزل» الموجودة لأغراض الطّعام. وعندما يُعلن عن فوز أحدهم بلقب «رقم واحد» في الحفْل، «عليه ألا يظهر مختالًا في سلوكه أو يتفاخر علنًا بما حققه؛ وعليه أيضًا أنْ يتظاهر بعدم الإصغاء حينما يأتي الآخرون على ذكر مزايا نَباتاته.»

وهذا التظاهر بالتواضع هو جزء من اِستراتيجية ممارسة اللعبة: «فالرّجل الذي

ينال لقب «رقم واحد» لا يجرؤ على الاستخفاف بهالك النبتة الثّانية في الحجم أو الاستهزاء به، أو حتى السخرية من الرّجل الذي جلبَ النبتة الأصغر حجمًا خوفًا من احتمال تقديم رجلٍ آخرٍ لنباتات يامَ أكبر من نباتاته في الحفْل التالي... وقد يُنكل به علنًا إذا لم يتمكن المتحدي من تقديم نباتات أكبر حجمًا.»

قد تبدو لعبة نبات اليام، التي يُمارسها أفراد الجماعة، سخيفةً ومضحكةً، غير أنها لا تختلف عن الألعاب التي يشترك فيها أيٌ منَا باستخدام عصيرَ البرتقال والساعات أو المشيَ بسرعةٍ في المكتب لَلدلالة على المكانة. نجح صانعو السيارات، بعد مدةٍ وجيزةٍ من كتابة باسكوم لِدراسته، في إقناع الرّأي العام الأمريكي، في خمسينيات القرن العشرين، أن السيارات بالغة الطّول هي أحد رموز لعبة المكانة.[73] ينطلقُ صوتُ رجلٍ في أحد الإعلانات التجارية من مذياع سيارةٍ نوع دوج هادرًا دهِشًا: «يا فتى، لا بد أنك ثري لتمتلك سيَّارةً بهذا الطّول!» وقدمت شركة رايفلز بلاماوث إعلانًا مطبوعًا تظهر فيه أسرةٌ يبتسم أفرادها ابتسامةً عريضةً مصحوبةً بهذه العبارة: «لسنا أثرياء... بل نبدو كذلك!» وعمِل الإعلانُ الذي قدمته شركة فورد للسيارات على إبراز الأضواء الخلفية الناتئة للسيارة مصحوبةً بعبارةٍ تقول: «دع الناس خلفك يعرفون أنك تسبقهم!»

وكان لهذهِ الدعوات مفعول السحر، إذ ما برحت السيارات الأمريكية تزداد طولًا، وبدأت الحِيتان الفولاذية الضَّخمة -أي السيارات - بخنق حركة المُرور في المدن. وانتشرت عدادات مواقف السيارات، وامتدت لمسافات ظلت تَستطيل. وناشد حُكام المُدن المصنعين العودة إلى السيارات الأقصر طولًا. إذ أعلن روبرت واغنر، عمدَة مدينة نيويورك، بِأنهم لن يشتروا بعد اليوم سيارات الكاديلاك ما لم يُقلص حَجمُها، فما كان من المُراقب المالي للمدينة إلا أن يَتحداه، ويُدافع عن نفسه بِالقول الآتي: «يَجب على كبار المَسؤولين في المدينة أن يقتنوا سيارات الكاديلاك

(73) *The Status Seekers*, Vance Packard (Pelican, 1966), pp. 273–276.

حفاظًا على هيْبة مَناصبهم».

لا يكفّ نظام تعقّب المكانة عن العمل أبدًا، واللعبة لا تتوقف مُطلقًا. ولهذا السبب، من المحتمل أن نجد أنفسنا، لا سيّما في المجال العام، مُشتركين في ألعاب مكانةٍ غارقةٍ في محليتها، ومؤقتة وسريعة الزّوال؛ وربما تَقتصر ممارستها على شَخصين فحسب. وليس مُستبعدًا، في سبيل المِثال، أن نجد أنفسنا مشتركين في لعبة محليةٍ للغاية في مصعد فندقٍ لا تستغرق سوى ثمان وأربعين ثانيَةً: من العامل ومن الضيَف؟ من الذّي سَيخرج من المصعد إلى الطوابق العليَا الفاخرة؟ منْ ذاك الشخص الذي لم يُظهر لي ما استحقه من احترامٍ بمضايقتي في هذا الحيز الضّيق؟ من صاحب الحقيبة المُبهرجة؟ تَنتشرُ الألعاب ذات الطّابع المحلي في أي مكانٍ يتجمع فيه أفرادٌ يشتركون في مجموعةٍ متفقٍ عليَها من الرّموز. شاطئ بوندي في أستراليا هو لعبة مكانةٍ بقواعد محليةٍ خاصةٍ مشابهٌ لصفّ المساعدة الذّاتية والنادي الليلي وطابور الوقوف أمام الحافلة ومجموعة الأصدقاء التي يتشارك أفرادها وجبة طعامٍ.

يكتب أستاذ الأنثروبولوجيا، روبرت بول، إن للسعي إلى المكانة الرّمزية «علاقة بحقيقة أن الحياة الاجتماعية البشرية تعتمد اعتمادًا فِطريًا على وجود ميدانٍ عام يُمكن فيه إتاحة الرّموز أمام الإدراك الحسيَ، وأمام اشتراك كثير من الناس فيها أيضًا».[74] يَشترك الأَفراد الذين تربطهم علاقة «في تصَور هذه الرّموز، وتَضمِينُها في تَفكيرهم وشُعورهم وهويتهم»، الشيء الذي «يعني أنهم يتعاملون مع منْ يحيط بهم من أفرادٍ بوصفهم «أقرباء» لهم».

إنها الطّريقة التي نعيش فيها بوصفنا قبيلةً وثقافةً وجماعةً. إننا نَظهرُ إلى الوجود بصفتنا مجموعةً عندما نتواصل مع آخرين يماثلوننا في التفكير، ويحوزون عقولًا تتعامل مع الواقع بطرائق مماثلةٍ، ويحلمون بأحلام حياتية مُشابهة. إننا نميَز الرّموز

---

(74) *Mixed Messages*, Robert Paul (University of Chicago Press, 2015), p. 299.

ذاتها؛ ونمارس اللعبة نفسها؛ ونغدو، في أثناء فعلنا ذلك، مصدرًا لتنعم بعضنا بعضًا بالمكانة؛ إننا لا نختلف عن جماعة نبات اليام المتسلق. إننا نشاهد هذه النبتة، ونعرف ما تَعنيه، ونجرّب إحساسًا عميقًا بالإرتباط مع منْ يرى الواقع بأعيننا. إننا نمارس لعبة نبات اليام بوصفنا كائنًا حيًا واحدًا، ونوطد مكانة بعضنا بعضًا عندما نَتيقن من الظَّفر بها. إننا نسعى إلى الفوز بها على مدى عقودٍ من القلق والتخطيط والكدَ، مستخدمين في ذلك رموزًا مُشتركةً لبناء ممالك المعنى العظيمة. وهذه الممالك- هلوسات الواقع الافتراضية والمترابطة التي يُنتجها الدماغ - هي العوالم التي نوجد فيها. إن لعبة المكانة مكانٌ. إنها منطقتنا العصبيَة، إنها عالمنا.

الفصل الرّابع

عالم متخيل من القواعد

ظاهرُ الحيَاة خلاف باطنها. وعن ذلك كتبَ عالم الأعصاب، الأستاذ كرس فرث، أن «تصوّرنا عن العالم هو خيالٌ يتعارض مع الواقع».(75) وحالة الحلم التي نوجد فيها مُتأسسةٌ على حقيقةٍ موضوعيةٍ، فنحن نعيش في كوكبٍ، ونتنفّس الهَواء تحت السنوات. غير أننا نُشيد، على هذه الأُسس، عددًا لا حصر له من الأَلعاب الخيالية. يجتمع الناس، ويتفقون على الرّموز التي سيَستثمرونها لِلدلالة على المكانة؛ ثُم يجتهدون في بلوغها. من المُحتمل أن تتخذ هذه الرّموز شكل المال أو السلطة أو شاحنة قلابة بلاستيكية في صندوق ألعاب في حضانة أطفالٍ، وربما تتخذ هيأة علامة تجارية فاخرة، أو بعض عضلات الجسم المثيرة للشهوة الجنسيَة، أو جائزة أكاديمية أو نبات اليام هائل الحجم. إن حلم العقل يُسقط قيمةً على هذه الرّموز؛ وهي قيمة كبيرة قد نندفع إلى القتال والموت من أجلها. وتروي لنا هذه القيمة قصةً تقول إن لهذه الرموز شأنًا جليلًا: إن آلهتنا حقيقةٌ، وإن السعي في خدمتها مقدسٌ. إنها تجعلنا نشعر بِأننا أبطالٌ في رِحلات نحو محاجّ الدهشة والأعاجيب. إننا نؤمن بهذه القصة، فهي منسوجةٌ في تصوُّرنا للواقع، وهيَ ليست أقل واقعيةً من الكوكب والهَواء والسماء. إلا أن حقيقة الحيَاة البشريَة تقول إنها مجموعةٌ من الألعاب الهَذيانيَة المُنظمة حول الرّموز. وهذه الألعاب هي أحد أفعال الخيَال المُشترك. إنها تظهر للوجود في العوالم العصبيَة لمن نختار أن نلعب معهم – من أقاربنا أو أفراد قَبيلتنا أو شعبنا، فهؤلاء هم الذّين يفهموننا فهمًا

---

(75) *Making up the Mind*, Chris Frith (Blackwell Publishing, 2007), p. 111.

صحيحًا، ويخربشون على جدران العالم المعاني نفسها التي نُخَربشها.

لكن وصف الحياة هذا ما يزال غير مكتملٍ. إذ ليسَ بوسع الحَضارة أن تعمل إذا كانت أيامنا تقوم حصرًا على جماعات بشرية تلهث بجنونٍ وراء الجوائز والمكآفات. يشترك اللاعبون في لعبة مونوبولي (Monopoly)- أو بنك الحظّ أو لعبة الاحتكار- للحصول على أموالٍ ومواقع رمزيةٍ عن طريق بيع وشراء المنازل والفنادق في أثناء تحرّكهم على رقعة اللعب المُعتمد على نَتيجة رمي النرد. إلا أنك لن تحصل على هذه الأشياء بمدَ يدك نحوها فحسب، إذ هناك قَواعد سُلوك صارمة يَجب على اللاعبين التقيَد بها. ولعبة المكانة لا تختلف في هذا الجانب، إذ تستوجب الالتزام بقواعد يَتفق عليها اللاعبون. وللدماغ قدرةٌ مذهلةٌ على تعلم هذه القَوَاعِد وإتباعها بطريقةٍ مماثلةٍ لِقدرته على معالجة رُمُوز المكانة.

يَستحيلُ حساب القَوَاعِد التي نعتمدها كي نلعب في الحياة. إننا لا ندرك إدراكًا واعيًا حتى تقيَدنا بها، في الجزء الأكبر من الوقت؛ إذ نكتفي بالتصرف بأساليب تَعَلمنا أنها صحيحةٌ، ونحكم على أنفسنا والآخرين على وفق البَراعة في الالتزام بها؛ فَنَقيس المكانة عندنا وعند الآخرين، وننتزعها منهم، ونمنحها لهم. اخترع أسلافنا الحديثون والقدماء هذه القَوَاعِد، ويعرف البشر اليوم كيف يعيشون حياةً ناجحةً لأنهم قد ورثوا التعليمات ممن سبقوهم. وتُخبرنا هذه القَوَاعِد عن أنسب الأفعال والسلوك، وأيضًا ما يجب أن نكون عليه لكي نفوز؛ وهي مخزونةٌ في مكانين مُنفصلين هما، بحسب ما ذكره الأنثروبولوجي روبرت بول: «قناتا وراثة منفصلتان فاعلتان في الحياة البشرية»[76] تحتوي كُل واحدةٍ منهما على مجموعة التعليمات الخاصَّة بها. أوْلى هاتين المَجموعتين وضعها أَسلافنا الذين عاشوا ملايين السنين في جماعات قبلية مُرتحلةِ، حدث ذلك في حقبةٍ كانت فيها أَدمغتنا في طور التطور، وما يزال جميع الأحياء اليوم مُشفرين لممارسة ألعاب الصّياد وجامع

(76) *Mixed Messages*, Robert Paul (University of Chicago Press, 2015), p. 49.

الثّمار. إن هذه القَوَاعِد مَخزونةٌ في حَمَّضنا النووي.

ابتُكِرت قواعد الصَّياد - جامع الثّمار لغرضٍ خاصٍ هو مساعدة القبائل البشرية على الاستمرار في أداء وظائفها، وأيضًا استمرار أفرادها في العمل معًا بسلامٍ وإتقانٍ. وصُمِمت لعبة يُشجع فيها المشاركون على تبني سلوكٍ اِجتماعي إيجابي ينتفعون منه. وعلى وجه الإجمال، كلما آثرت مصالح قبيلتك على مصالحك، تتعزز مكانتك بينهم، وتتحسن ظُروف حياتك. وهذه القَوَاعِد لا غنى عنها لمَيَل البشر في الغالب إلى الجَشع والخِداع والعِدوانيَة. أسفرت دراسةٌ مسحيةٌ لِستين من المجتمعات ما قبل الحديثة عن سبع قواعد لعبٍ عامةٍ يُعتقد بشيَوعها عالميًا، هي: ساعد أُسرتك، وأغث جماعتك؛ ورد الجميل، وكن شجاعًا، ووقّر الأعلى مقامًا، ووزع الموارد بعدالةٍ؛ واحترم مُلكيَة الآخرين.(77)

تُملي هذه القَوَاعِد الأسَاسية على البشر الطرائق التي يحافظون بها على فاعلية قبائلهم؛ إذ تُخبرنا، بسهولةٍ وإيجازٍ، عن آلية اللعب: فاحترام الأعلى مقامًا يعني أن يكون المرء «موقِرًا للآخرين ومُحترمًا ومُخلصًا ومُطيعًا لمن يعلوه في الترتيب الهرَمي، ومراعيًا للأشكال المُناسبة من الخِطاب وقواعد السلوك»؛ ورد الجميل يشملُ «الإيفاء بالدين، ومُسامحة الناس عند اعتذارهم»؛ وتقسيم الموارد يعني «الرّغبة في التفاوض والتوصل إلى تسويةٍ.»

وقواعد الحمض النووي هذه هي بمنزلة الخطوط العامة للسلوك البشري، فهي التعليمات الأسَاسية التي نعتمدها في الحيَاة إضافةً إلى أنها معروفةٌ لنَا جميعًا ومُمثلةٌ لإنسانيتنا المشتركة. إنها السبب الذي يُعلل تمكّن ممثلة بديلة آرتيرية، وشامان (طبيبٌ ساحرٌ) من جماعة الإنويت، وأستاذ شطرنج سلوفاكي اجتمعوا في صالة فندقٍ في مدينة نيويورك من التعاون في المستوى الأسَاسي؛ ثُم ينشأ بينهم،

---

(77) 'Is It Good to Cooperate?: Testing the Theory of Morality-as-Cooperation in 60 Societies', Oliver Scott Curry, Daniel Austin Mullins, Harvey Whitehouse, *Current Anthropology*, 2019, 60:1, 47–69.

تلقائيًا على الأرجح، ترتيب هرمي غير مستقرٍ، يشغلُ فيه أحدهم القِمَّة في حين يتوزّع البَاقون في مواقع أدنى منه، وهذا بالضّبط ما يحدث حينما تَتَشكل الجماعات، إذ تظهر اللعبة من تلقاء نفسها، بلا دعوةٍ.

المجموعةُ الثّانيةُ من القَوَاعِد وضعها بشرٌ كانوا موجودين بوقتٍ أحدث، وهي مُشفرةٌ في الثَّقافة. لِكُل ثقافةٍ قواعد تميّزها، وتَرغب في أن يلتزم أفرادها بها. ومثلما نحكم على أنفسنا، فإن الآخرين يحكمون علينا من منظور براعتنا في اِستخدام هذه القَوَاعِد، التي تغدو، على شاكلة قواعد الحُمض النووي القديمة، متأصلة في إدراكنا إلى حد بالكاد نشعر معه بِوجودها ما لم ينتهكها أحدهم.

فكّر في الحانة التي يَستَمتع بوجودهم فيها أكثرية مرتاديها من الإنكليز من دون أن يشغلهم التفكير بما يفعلونه حقًا مع أن للحانات قواعد مُضمرة تفوق الحصر، تمكنت الأنثروبولوجية كيت فوكس من رصد بعضها.[78] إذ كتبت، في سبيل المثال: «إن الطاولة في الحانة هي من بين الأماكن القَليلة للغاية في إنكلترا التي يكون عندها البدء بحديث مع شخصٍ غريبٍ تمامًا مَقبولًا اجتماعيًا.» ويُمكن توسيع «قاعدة المُصاحبة الاجتماعية» هذه «بقدرٍ محدودٍ» بالقرب من لوحة التصويب وطاولة البليارد مع لحظ أن ذلك «يَقتصر حصرًا على الواقفين قريبًا من اللاعبين: فالطاولات في المنطقة المجاورة لهذا الألعاب تبقى مُنعزلةً وخاصةً.» وتشمل قائِمة القَوَاعِد الأُخرى الواضحة للإنكليز لا للغرباء: «إن شخصًا واحدًا أو اثنين، لا المجموعة كلها، هما من يتوجه إلى البار لشراء الشراب»، وعند بلوغه أو بلوغهما هناك، لا بُد لهما من الالتزام بـ«صفَ غير مرئي يعرفه العاملون في البار والزبائن»؛ وهناك أيضًا «قَاعِدة سُلوك صارمة ضرُورية في لفت اِنتباه العاملين: إذ يجب على الزّبون فعل ذلك من دون الإدلاء بحديثٍ أو إحداث ضجَّةٍ أو اللجوء إلى الإيماءات الوَاضحة والمُبتذلة»؛ ولا يسمح للزبائن المُنتظمين بخرق هذه القاعدة إلا في مواقف المُزاح والمُفاكهة؛ وينبغي توجيه عبارات الشكر أو «في

---

(78) *Watching the English*, Kate Fox (Hodder, 2005), pp. 88–106.

صحتك» إلى بائع الشراب «بعد تقديمها إلى الزّبون، ومرةً ثانيةً عند تسليمه النقود؛ وأوّل وصيّة» من وصايا الحديث في حانةٍ هي: «إنك لن تأخذ الأمور على محمل الجدَ...وحتى الإلحاح في الحديث عن مَوضوعٍ ما لمدةٍ تتجاوز بضع دقائق قد يُنظر له، أحيانًا، بوصفه دليلًا على الجدية المُفرِطة.» وما إلى ذلك.

ثمّة تحولات هائلةٌ في أساليب ممارسة لعبة المكانة في العالم، ومن شأن هذه التحولات أن تؤدي إلى بعض الِاختِلَافات الجذرية في الذّات مع تشكّل الأَدمغة حول القَوَاعِد المحلية. ويُعد الاختلاف بين الشرق والغرب من بين الاختلافات التي حظَيت بِعناية الدراسات. إذ يميلُ الغربيون إلى التعامل مع السعي إلى المكانة بوصفه مهمة الفرد بالدرجة الأَساس، الشيء الذي يؤثر في الاستراتيجات التي يعتمدونها في ممارسة اللعبة. لاحظ علماء النفس أن الغربيين، عمومًا، يُحبون البُروز والشعُور بالتفردَ، وينزعون نحو الآراء الذّاتية المُتعجرفة،[79] ويرون بِأنهم أفضل من المتوسط في جميع أَنواع السمات، ومن بينها العادَات الصّحيَة،[80] والمناعة من الانحياز[81] ومهارات السياقة.[82] صنَف 86٪ من الأُستراليين أداءهم الوظيفي، في إحدى الدراسات، بِأنه «فوق المتوسط»؛[83] وَوصف 96٪ من الأمريكان أنفسهم بـ «المتميزين».[84] في المقابل، تميلُ الألعاب الشرق آسيوية إلى تَغليب كفَّة اللعب الجماعي.[85] في بلدانٍ مثل اليابان والصّين، ينظر الناس، عمومًا، إلى السعي إلى المكانة بوصفه مَسؤولية الجماعة، ويُرجح شُعُورهم بالرّفعة

---

(79) 'In search of East Asian self-enhancement', S. J. Heine and T. Hamamura, *Personality and Social Psychology Review*, 2007, 11 (1) 4–27.

(80) 'Distortions in Reports of Health Behaviours: The Time Span Effect and Illusory Superiority', Vera Hoorens, Peter Harris, *Psychology and Health*, 1998, 13 (3): 451–466.

(81) 'The bias blind spot: Perceptions of bias in self versus others', E. Pronin, D. Y. Lin, L. Ross, *Personality and Social Psychology Bulletin*, 2002, 28 (3): 369–381.

(82) 'The Grand Delusion', Graham Lawton, *New Scientist*, 14 May 2011.

(83) *Personality Psychology*, Larsen, Buss and Wisjeimer (McGraw Hill, 2013), p. 473.

(84) *The Lucifer Effect*, Philip Zimbardo (Rider, 2007). Kindle location 6880.

(85) للاطلاع على تحليل رائعٍ ومذهلٍ لهذا الموضوع، راجع:
The Geography of Thought, Richard E. Nisbett (Nicholas Brealey, 2003).

والسمو عند خدمتهم الجماعة، وفوزهم بالمكانة عند ظهورهم بِمظهر المُتحلين بالتواضع والاِمتثال والإيثار بالنفس. مكانة الجماعة في الشرق لها اليد الطولى على الدوام. إنها خُطة لعب وجيهةٌ ورائعةٌ في ظاهرها حتى تبدأ بالتفكير بِتداعياتها على حُقوق الإِنسان الفَردية.

ومن المحتمل أن تَتمخض اللعبة أيضًا عن تَوتر ثقافي، فَسفرنا إلى قارات مختلفة يُعرضنا أحيانًا إلى الإصابة بـ «صدمةٍ ثقافيةٍ» لِأن السلوك التي تَعلمناها في بُلداننا الأم يَجب أن تَنال القُبول، وعند حدوث ذلك، تبدأ المكانة بِالتداعي والسقوط.

وليس مستبعدًا أن ينظر الآسيويون إلى الغربيين، الذين يتفاخرون بِصَراحتهم في الكلام، وقدرتهم العالية على الإنجاز، وفرادتهم، بوصفهم طفوليين وغير مُتحضرين. ومفهوم «الوجه» في آسيا هو أحد المكونات الأسَاسية في لعبة المكانة. وقد حددَ عالم الاجتماع ديفيد ياو فاي هو ثلاثة جوانب من المحتمل أن يفقد فيها المرء ماء وَجهِهِ، هي:[86] عندما يفشل في تَلبية توقعات الآخرين المُتصلة بالمكانة الاجتماعية؛ وعندما لا يُعامل الآخرون المرء بالاحترام الذي تستحقه مكانته؛ وعندما يفشل أفراد الجماعة (نقصد بالجماعة الأُسرة والأقارب والأتباع المقربين) في تأدية أَدوارهم الاجتماعية. والاختلاف بين اللعبة الآسيوية القائمة على الجماعة ونظيرتها في الغرب هو اختلافٌ جوهري في الغالب. فإذا خُصّ أحد الموظفين بالثناء في آسيا، فإن أفراد الفريق سَيشعرون بِالمهانة على الأرجح. ولهذا، لا يشعر الموظف الذي حظيَ بالثناء بالفرح والابتهاج، بل بالخجل والعار، فَيندفع نحو خفض مستوى أدائه، ويتعمد التقصير في عمله كي يتمكن الفَريق من اِستعادة تناغمه وماء وجهه.

وتتغير القَوَاعِد مع تغير الموقع في الفضاء الجغرافي، بفضل السفر، وأيضًا مع السفر عبر الزّمن؛ فالناس على اختلاف مَشاربهم في الحُقب الزمنية المختلفة

(86) 'The Concept and Dynamics of Face: Implications for Organizational Behavior in Asia', Joo Yup Kim and Sang Hoon Nam, *Organization Science*, 1998, 9:4, 522–534.

يَنشَؤون وهم يمارسون ألعابًا تختلف جذريًا. من المُمكن رَصد هذا التنوع في الألعاب في كُتب قواعد السلوك الشعبية التي كُتبت عبر الزّمن. أوضحت السيدة جوليانا بيرنرز في 1486 أنواع الطّيور الملائمة عند الصّيد بالباز أو الصّقر لشاغلي كُل مرتبةٍ من مراتب المكانة الاجتماعية:[87] بوسع أحد صَغار المُلاك أن يصطاد بالصّقر، ويُمكن لسيَدةٍ أن تصطاد بجلمٍ أو صقرٍ صغيرٍ، والصّقر الجوّال أو الشيهانة هو من نصيب الإيرل؛ أمّا الأَمير والمَلك والإمَبراطور فيُمكنهم أن يصطادوا بالصّقر والشنقار أو الشاهين البحري والنسر على التوالي. ونصح جيوفاني ديلا كاسا، المُختص بقواعد السلوك الفلورنسية، في 1558، من يتشارك سريرًا مع غريبٍ، بأنه «إذا وجد شيئًا مُقززًا كريه الرائحة في ملاءات السرير، مثلما يحدث في العادة، فعليَه ألا يتحول في الحال نحو رفيقه ليُظهره له، لِأنها ليست من العادات الرَّاقية. والأقل رُقيًا ولَياقةً منها هو الإلحاح في تقديم هذا الشيء إلى شخصٍ آخرٍ كي يشَمه، لأن بَعضهم معتادٌ على هذا الأمر، بل إنهم يحثّون رفاقهم على فعل ذلك، إذ يرفعون الشيء كريه الرّائحة إلى خياشيمهم، ويقولون: "أود أن أعرف مدى نَتَانتها"».[88]

ويوصي *الكتاب الصّيني لقواعد السلوك وآداب التصرف للنساء والفتيات*،[89] الذّي نُشِر في الغرَب أوّل مرّة في 1900 مع أن تاريخ تأليفه يعود إلى عدة قرونٍ خلَت بـ:

أكرم حماك واحترمه،

لا تُظهرُ له على محياك

سَعادةً ولا حزنًا.

---

(87) *The Polite World*, Joan Wildeblood and Peter Brinson (Oxford University Press, 1965), p. 21.

(88) *The Civilizing Process*, Norbert Elias (Wiley-Blackwell, 2000), p. 111.

(89) https://www. gutenberg.org/files/35123/35123-h/35123-h.htm.

ولا تحاول حتى السير خلفه،

ولا تقف أمامه عند التحدث؛

بل إلى جانبه أو خلفه قفْ.

وأسرع إلى الِامتِثال لِأوامره كُلها.

وعندما تجلس حماتك،

عليك الوقوف باحترامٍ،

والامتثال سريعًا إلى أوامرها.

كانت هذه كُتبًا إرشاديةً تخصّ ممارسة لعبة الحياة، وتضمّ صفحاتها قواعد تبدو في واقعيتها ودقتها مماثلةً لما يتوفّر لنا اليَوم.

لا يجب عليك أبدًا، بِطَبيعة الحال، أن تمشي خَلف حَميك؛ ولا يُمكن لمالك أرض صغير، قطعًا، أن يصطاد بِسنقرٍ، وليس بوسعك، بكل تأكيدٍ، أن تبدأ حوارًا مع غرباء يجلسون إلى طاولةٍ في حانةٍ إنكليزيةٍ. إن الإحاطة بهذه القَوَاعِد والالتزام بها من شأنها أن تدَل على موقعك بوصفك شخصًا رَفيع المكانة، والاستخفاف بها يؤدي إلى الحطّ من قدرك.

يبدأ الدماغ بتعلم هذه القَوَاعِد في مرحلة الطّفولة. إذ يبلغ عدد الِاتصالات بين خلايا دماغ طفلٍ بعمر الثَّانية مائة ترليون،[90] وهو ضعف عددها لدى الشخص البالغ، والسبب هو أننا عندما نولد، لا نعرف أين سَنظهر فجأةً. وأَدمغة الأطفال مناسبةٌ للعديد من البيئات والألعاب؛ وهم أفضل في هذا العمر من البالغين في تمييز وجوه الأعراق الأخرى،[91] وبوسعهم سماع النغمات في اللهجات الأجنبية

(90) *The Brain,* David Eagleman (Pantheon Books, 2015). Kindle location 85.

(91) *The Self Illusion,* Bruce Hood (Constable, 2011), p. 28.

التي يتعذّر على البالغين سماعها. ثُم يبدأ دَماغنا في تَكييف وضعه مع البيئة المحلية، وتنطلق عملية فرز الِاتصالات واِنتقائها بمعدلٍ يصل إلى مائة ألف اتصالٍ في الثَّانية، ونُشرع في اِكتساب هيئة اللاعب في زمان ومكانٍ مُحددين.[92]

ويعمل المُدرسون والآباء، مع تقدمنا في العمر، على غرّس هذه القَوَاعِد والرّموز الثّقافية في جولات متكرّرةٍ من الثّواب والعِقاب: "فتى مطيعٌ! فتاةٌ مُطيعةٌ!" يقولون لنا. ونشعر بأنفسنا مُحلقين من الفرح عندما نفعل الشيء "الصّحيح"، لكنَنا نتهاوى مع الفعل "السيء". ونرعى ضميرًا، بمضامينه المُريعة من الشعور بالخجل والاِرتباك والذَّنب والتأسف، وأيضًا بما يُتيحه لنا من العوم في موجات مُبهجةٍ من الشعور بالفخر.

يكتب الأنثروبولوجي كريستوفر بيوهم أن ضميرنا يزوّدنا بـ «مرآة اِجتماعية»[93] يُمكننا من خلال «المواظبة في النظر إليها من تتبع المَزالق المُخجلة التي تُهدد مَكانتنا المُتجذرة في السمعة أو التخطيط بفخرٍ واستقامةٍ لِتَقدمنا».

وهكذا، إقبالًا وإدبارًا، وصُعودًا ونزولًا، وجيئةً وذهابًا نمضي في حياتنا اليَوميَة، إذ القَواعد والرَّموز في الزَّمان والمَكان، اللذين نَعيش فيهما، تعمل في توجيه مُعتقداتنا وأفكارنا وسُلوكنا. إنها تُعرفنا. نُشرع في منح الآخرين المكانة عندما نشهد على براعتهم في اللعب في ضوء مجموعة القَوَاعِد المتأصّلة في داخلنا، ونَنتزعها منهم عندما يفشلون. ونَندمج في ممارسة هذه اللعبة، فنؤديها بقوانا الجَسَدية، ونجسدها في لمعان أعيننا، ونشدو بها في نَغمات أصواتنا. لم تَعد لعبة المكانة في داخلنا فحسب، بل انتقلت إلى خارجنا أيضًا بعد اِتصالنا بالآخرين أمثالنا واشتراكنا معهم في خلق عالمٍ من المعنى نُمارس اللعبة فيه.

لا خلاص ولا اِنسِحاب من هذه اللعبة، فهي مُدوَّنةٌ في دَماغنا وأدمغة جميع من سنلتقي بهم. يحاول بعضهم التعافي من نشدان المكانة بالتأمل مع أن المتأملين قد

---

(92) المصدر نفسه، ص 15.

(93) *Moral Origins*, Christopher Boehm (Basic Books, 2012), p. 172.

يشعرون شعورًا خاصًا بالرّضا عن أنفسهم. لحظت دراسةُ شملت قرابة الثّلاثة آلاف وسبعمائة من الممارسين للتأمل خصيصًا لـ «الحد من التعلق بِاحتياجات الذّات والأنا، من مثل الإستحسان والنجاح في المستوى الاجتماعي»[94] إحرازهم علامات مرتفعةً في قياسات «التفوق الرّوحاني»، إذ اتفقوا مع عبارات على شَاكلة: «صِلتي بحواسي أقوى من صلة أكثرية الآخرين بِحواسهم، وبسبب خبرتي السابقة وتجاربي، فإن علاقتي بجسمي أوثق من علاقة الآخرين بأجسامهم، وسيكون العالم مكانًا أفضل لو حاز الآخرون التبَصرات ذاتها التي أحوزها حاليًا. وانتبه رئيس الفريق البحثي رووس فونك أن الآراء الذّاتية لدى المُتأملين كانت «بالضبط العكس من الإستنارة».

والوسيلةُ الوحيدةُ للخروج من اللعبة هو البحث عن غرفةٍ فارغةٍ والبقاء فيها. يُعاني أكثر من نصف مليون من البالغين في اليابان من «متلازمة الإنسحاب الاجتماعي»، إذ يرفضون مغادرة غرف نومهم ما لم يكونوا مُكرهين على ذلك. يقول عالم الإجتماع تيبيه سيكيميزي إن الهيكيموريين أو المُتقوقعين «غير قادرين على الالتزام بِقواعد المجتمع»[95]، فهم يَشعرون أن التواصل والمكانة أصعب من أن يتمكنوا من ضمان الفوز بهما، ويتفقون بشدَةٍ مع عبارات من أمثال: «لا يُمكنني الاندماج في الجماعات»، و«أشعر بِالقَلق مما قد يَظنه الآخرون بيَ».[96] ويبقى كثيرٌ منهم حبيسي غرفهم لسنين، وبعضهم يموت وَحيدًا. وهذا، في نِهاية المَطاف، هو الخيَار الذي يواجه كل واحدٍ منا: التقوقُع والإنْسحاب أم الإشتراك في اللعب.

---

(94) 'An Exploration of Spiritual Superiority: The Paradox of Self- Enhancement', R. Vonk and Anouk Visser, *European Journal of Social Psychology*, 2020, 10.1002/ejsp.2721.
Mindfulness and meditation "lead to narcissism and spiritual superiority": Rhys Blakely, *The Times*, 29 December 2020.

(95) 'Japan's modern-day hermits: The world of hikikomori', France 24 via YouTube, 18 January 2019.

(96) 'New Insights Into Hikikomori', Emma Young, *The British Psychological Research Digest*, 22 May 2019.

الفَصل الخَامس

الأَلعاب الثّلاثة

تَظهرُ المكانة في عدة أشكالٍ، إذ احتمال الحصول عليها واردٌ بفضل شيء سهلٍ، سُهُولة الفِئَة العُمرية: فالشبان يكسبون عند بركة سباحة الفندق؛ والأكبر منهم سنًا يفوزون على متن القطار، ومنْ له حظٌ وافرٌ من الجمال والوَسامة ينال المَنزِلة بفضل مظهرهم. قَدَرت مراجعة علمية أَسَاسية لأدبيات نفسية أن الحكم على الأشخاص الجذَّابين ومعاملتهم يكونان أكثر إيجابية من الحكم على غير الجذَّابين؛[97] وهذا الحكم والتعامل يشمل «حتى الأفراد الذين يَعرفونهم». يتشكّل الجزء الأكبر من المُتبقي من الحياة البشريَة من ثلاثة أنواع من السعي إلى المكانة، وثلاثة أنواع من اللعب هي: الهيَمنة والفَضيلة والنجاح. تُنتزع المكانة في ألعاب الهَيمنة بالقوَّة أو الخوف؛ وتُمنح، في ألعاب الفضيلة، إلى اللاعبين اللافتين في اِستقامتهم وامتثالهم وتحليهم بالأخلاق؛ ويُنعم على اللاعبين بالمكانة في ألعاب النجاح لِتَحقيقهم نَتائج لافتة تتعدى حد الفوز السهل واليَسير، إذ تتطلب المهارة والموهبة أو المعرفة. المافيات والجيوش هي ألعاب هيمنة؛ والأَديان والمؤسسات المَلكية هي ألعابُ فَضيلةٍ، أما الشركات المُساهمة والمُنافسات الرياضية فهي ألعاب نَجاحٍ.

جديرٌ باللحظ هنا أن هذه الأَلعاب ليست قطعيةً أو جازمةً، إذ لا توجد، على

(97) 'Maxims or myths of beauty? A meta-analytic and theoretical review', J. H. Langlois, L. Kalakanis, A. J. Rubenstein, A. Larson, M. Hallam, M. Smoot, *Psychological Bulletin*, May 2000, 126 (3): 390–423. dhttps://doi.org/10.1037/0033-2909.126.3.390. PMID: 10825783.

الأغلب، ألعابٌ نقيةٌ تمامًا، بل هي أخلاط من الهيمنة والفَضيلة والنجاح. غير أن أحد أنماط اللعبة أو جوانبها يسجّل في المعتاد حُضورًا مُتميزًا فيها إلى حد نجاحه في تعريفها مثل نكهةٍ مُضافةٍ إلى حساء. يُمكن وصف قتال في الشارع وصفًا معقولًا بِأنه لعبة هيمنة مع مُلاحظة ميل هذا النوع من القتال أيضًا إلى الالتزام بقواعد فَضيلة خاصة به (مثل عدم جرّ الشعر أو الرّكل بين أعلى الساقين) واعتماد النتيجة التي تسفر عنه على الكِفاية وأيضًا القوَّة. وتُمارس شركة آبل للتكنولوجيا لعبة نجاح مماثلةً عندما تبتكر المُنتجات، ولعبة فضيلة أيضًا عندما تُعلن عن قيم علامتها التجارية، ولعبة هيمنة حينما تُقاضي منافسيها على انتهاك بَراءات الاختراع، والألعاب التي يُمارسها الملاكمون في الحَلبات وأساتذة الطّهي في المطابخ الحاصلة على نجمة ميشيلن تَقديرية، مُذهلة بفضل اعتمادها خلطة متساوية المكونات نسبيًا من الهَيمنة والفَضيلة والنجاح: تتصف هذه الألعاب في أحوال كثيرةٍ بِشراستها الشديدة وتقيّدها بالأعراف والتزامها بِقَواعد سلوك صارمةٍ، وبالإشادة بالفائزين فيها لإنجازاتهم الدالة على الكِفاية والجَدارة الفَائقة.

ويصدق الحال ذاته علينا بوصفنا لَاعبين. فالأنواع الثّلاثة من اللعب تقترن بِثلاثة أنواع عامة من البَشر: إذ يُمكننا أن نكون الديكتاتور عيدي أمين، أو الأُم تيريزا، أو ألبرت انشتاين مع وجود عناصر من هذه الأنواع الأصلية الثَّلاثة في كُل واحدٍ منا. وللبشرِ القدرة على استِخلاص المكانة من أفعال الهيمنة والفضيلة والكِفاية، وبِالشطط الذي عُرفنا به، سنعمل على استغلال أية استراتيجية متاحة لنا؛ فالعالِم والأميرة وزعيم الاتحاد الاحتكاري كلهم سيوظفون أنماطًا مختلفةً من الهيمنة والنجاح والفَضيلة عند اشتراكهم في ألعاب الحياة. إننا جميعًا، بين حينٍ وحيْنٍ، مزيجٌ مضطربٌ ومتناقض في الغالب من هذه المسالك الثّلاثة المؤدية إلى الجَائزة العَظيمة.

إن قصّة الطّريقة التي اتخذت فيها الحياة البشرية هذا الشكل هي قصة نوعنا الحيَ. كُنا مُهيئين ومُتَخصصين، قبل أكثر من مليونين ونصف عامٍ، لممارسة ألعاب

الهيمنة، إذ كُنا مخلوقات ما قبل بشرية مُرعبين في حدَة عدوانيتنا، وحجمنا مقارب لحجم قردة الشمبانزي.[98] كانت عظامنا أكثر سُمكًا،[99] وأسناننا أطول وفكوكنا أوسع؛ وكانت لدينا أقواس حواجب غليظة بارزة أعلى محاجر العينين، وأيضًا قوَّة عَضلية هي الضّعف مما يتميز به البشر حاليًا.[100] الهيمنة هي الطّريقة التي تتبعها الحيوانات في ممارسة ألعاب المَكانة في أغلب الأوقات. عندما توضع الدجاجات معًا، فإنهن يَشرعن في نقر إحداهن الأخرى حتى تثبيت نظام تسلسل هرمي؛ ويدور سمك الرّوبيان حول بعضهم بعضًا قبل الشروع في الهُجوم الوحشي المُقطع لِلأطراف، الذي يخرج منه الفائز وهو يعوم بتباهٍ وخيلاء مزهوًا بِانتصاره الظّاهري في حين ينطلق الخاسر مُسرعًا فرارًا من الميدان.

ومع أن العنف ليس هو السبيل الوَحيد لِنيل المكانة، إلا أنه ليس هناك شكّ في أننا كنا أشد وحشيةً في العصور الغابرة!! إن توطيد العلاقات مع الحلفاء والحفاظ على السلام بين الأتباع يُعد جوهريًا بالقدر نفسه في بعضٍ من مجتمعات الرّئيسيات، بما فيها قردة الشمبانزي الأقرب إلينا. كان الذّكور يتصفون بأمزجةٍ عُدوانيةٍ قاتلةٍ يسهل على المنافسين تهييجها. وعن هذا، يقول الأنثروبولوجي ريتشارد رنغام: «إن العدوان التفاعلي أو الانتقامي كان سيُهيمن على الحياة الاجتماعية بالطّريقة ذاتها التي هيمن فيها في أكثرية الرّئيسيات الاجتماعية.»[101] وتُبيَن الأدلة المتوافرة، ومن بينها دليل "وجوهنا كبيرة الحجم"، بأننا، على الأرجح، «واصلنا القتال الجسدي، رجلٌ لرجلٍ، حتى العصر الجليدي الوسيط- الممتد على وجه التقريب بين (77000) و(126000) من السنين.»[102]

---

(98) *The Goodness Paradox*, Richard Wrangham (Profile, 2019). Kindle location 1860.

(99) *The Goodness Paradox*, Richard Wrangham (Profile, 2019). Kindle location 1015–1028.

(100) 'The Domestication of Humans', Robert G. Bednarik, *Anthropologie*, 2008, XLVI/1, 1–17.

(101) *The Goodness Paradox*, Richard Wrangham (Profile, 2019). Kindle location 2627.

(102) *The Goodness Paradox*, Richard Wrangham (Profile, 2019). Kindle location 2640.

ثُم ابتعدنا عن القتال بِالقَبضة والناب عندما شرعنا في ممارسة الألعاب بِرموز حاضرة في المخيَلة الجمعية. ولا يُمكن للقصص الخاصَّة بِكيفية حدوث ذلك وسببه إلا أن تكون تخمِينية ومحل جدلٍ عميقٍ. يفكر بعضهم أن التهديد الذي تَعرضنا له بعد نزولنا عن الأشجار دفعنا باتجاه تشكيل الجماعات الدفاعية.(103) ومع تعقّد المعيشة وتنوعها، وجد الذُّكور أنفسهم أمام عددٍ أكبر من المُنافسين عليهم التصدي لهم، وبهذا، بدؤوا في تغيير ستراتيجية اختيار الشريك نحو الارتباط الزّواجي، إذ يوفّرون اللحم والحمايةَ للإناث في مقابل الحصول على الخدمات الجنسية المفضّلة. ثُم تمددت هذه الأُسر الناشئة بفضل تشييد الأجداد، والأخوال والخالات والأعمام والعمّات لعلاقات وطيدةٍ دائمةٍ، واشتراكهم في تحمل مسؤوليات تَنشئة الأطفال. وعندما اقترنت النساء بذكورٍ من أُسر مختلفةٍ، بدأت بالتشكل القبائل أو العشائر السائبة. إن العيش المشترك يؤدي إلى التعلم المشترك والقدرة على نقل القَوَاعِد والرُّموز بين الأجيال.

يرى إداورد أو ويلسن، المُختص بعلم الأحياء، أن استخدام مواقع التخييم، التي يعود تاريخها إلى مليون سنةٍ على الأرجح، هي من بين الأحداث الأخرى الحاسمة في تاريخ البشرية،(104) وزاد على ذلك بوصفها بـ"الأعشاش" البشرية، ونبه إلى أن جميع الحيوانات "بلا استثناء"، التي نجحت في بلوغ الشكل الأمثل للبقاء عن طريق التعاون الذي يتقنه البشر، قد عاشت بِهذه الطّريقة. إذ نُماثلهم في «رعاية الصّغار في العش، ومغادرته والابتعاد عنه من أجل الحصول على الطَّعام، ثُمّ العودة بالغنائم لمشاركتها مع الآخرين.» تعني الحياةُ المُشتركةُ تقسيم العمل ومشاركة الموارد والدفاع عن الأَعشاش جماعات جماعات وشن الغارات على أَعشاش الآخرين.

كانت الوَحشية المُفرطة التي يُبديها الذّكور المُهيمنون عديمة النفع وغير مُرحّب

---

(103) *The Secret of our Success*, Joseph Henrich (Princeton University Press, 2016), pp. 304–307.

(104) *The Social Conquest of Earth*, Edward O. Wilson (Livewright, 2012), p. 42.

بها في هذا العالم الجماعي المُتَداخل. لذا، كان التوافق والمضي إلى الأمام يعني الفوز بتعاون الآخرين. كان الذّكور العَنيفون للغاية، الذين يحاولون الهيمنة على القَبيلة، يجدون أنفسهم منبوذين باطرادٍ أو مقتولين.[105] وشرع الرّجال الأشد ميلًا للمُسالمة والأذكياء اجتماعيًا في حصد المكانة. فبرز، على أثر ذلك، ببطء نسلٌ جديدٌ من البشر، فيه أنواع من الهرمونات تختلف اختلافًا واضحًا، وكيمياء دماغ تنظم سلوكهم.[106] وتغيرت هياكلنا العظمية، وأيضًا أدمغتنا وأسَاليب عيشنا.

وما نزال نحتفظ بِنزوعنا القَديم نحو تنظيم أنفسنا في مراتب ودرجات. يقول عالم النفس، ديفيد باس إن لِأسلافنا «سلاسل مكانة هرمية مُحددة تحديدًا واضحًا، وكذلك موارد تَتَدفق بِانسيابيةٍ صوب من همْ في القمة بينما تتقطر ببطءٍ نحو منْ هم في القاع.»[107] وتَتَوزع هذه السلاسل الهَرمية توزّعًا طبيعيًا على شبانٍ وشيوخ،[108] وذكور بإزاء ذكور في تنافسهم على الإناث،[109] وإناث مقابل إناث في تنافسهن على الذّكور. كان الرّجال يُمنحون تلقائيًا، في الغالب، مكانةً أعلى،[110] وكان لهذا الفعل المحتمل وصوله إلينا من الذّكر المُهيمن، الذي سيطر على الحقب قبل البشرية، بعضُ من العواقب المروّعة التي أثرت في حياة النساء اللاتي ما زلن يناضلن ضدها حتى الوقت الحاضر. وبرزت إلى جانب ذلك تَقسيمات فرعية أحدث بعد تَعلم البشر التخصص في أداء مهامٍ ضرورية للحفاظ على قدرة الجماعة على العمل بفاعليةٍ.

وهكذا، بدأت ألعاب المكانة بالانتقال إلى عالم المُخيلة المشتركة. لم يكن الشيء الذي اكتسب أهميةً متزايدةً يتصل بمدى وحشيتنا وقَسوتنا، بل بما يفكره زملاؤنا

---

(105) *The Goodness Paradox*, Richard Wrangham (Profile, 2019). Kindle location 2627.
(106) *The Domesticated Brain*, Bruce Hood (Pelican, 2014), p. 7.
(107) *Evolutionary Psychology*, David Buss (Routledge, 2015), p. 110.
(108) *The Social Conquest of Earth*, Edward O. Wilson (Livewright, 2012), p. 48.
(109) *EvolutionaryPsychology*,DavidBuss(Routledge, 2015), p.344.
(110) *The Psychology of Social Status*, Joey T. Cheng, Jessica L. Tracy, Cameron Anderson (Springer, 2014), p. 180.

في اللعب بنا. بوسعنا أن نكتسب هذا النوع من المكانة المبنية على المحترمية والهَيبة بإثبات فائدتنا للجماعة. وتحقيق ذلك مُتيسرٌ بطريقتين هما: أوّلًا *النجاح* الذي تُظهر به معرفتك ومهارتك النافعتين للآخرين. بوسعنا أن نَروي قصصًا رائعةً، ونتنبأ بالمستقبل بدقةٍ، ونكون صيادين ولَاعبين وصانعي أدوات ومقتفي آثار ومكتشفي عسل.[111] ويمارس أفراد قبيلة كونا، في بنما، ألعاب نجاح يحتفظون فيها بسجلٍ حياتي لضحاياهم من السناد أو التابير (حيوان شبيه بِالخنزير)، مع تَمتع الصّائد الذي يقتل العدد الأكبر من التابير بِالمكانة الأعلى.[112] وعلى شاكلة ذلك، يحظى صيادو السلاحف الأفضل في جماعة مريام، في مضيق توريس بين أستراليا وجزيرة غينيا الجديدة، باحترام شيوخ القرية، وتحظى آراؤهم بدعمٍ كبيرٍ في الاجتماعات العامة والنزاعات الخاصَّة.

وبِقدرتك، ثانيًا، أن تنال المكانة المُستندة إلى المهابة والوجاهة بأن تكون فاضلًا ونزيهًا، عن طريق إظهار معتقدات أو سلوك تخدم مصالح الجماعة. يُمنح هذا النوع من المكانة للأفراد الذين يُظهرون عنايةً بالمصلحة العامة، ويُبدون التزامًا بالجماعة أو يعملون في فرض قواعدها. وبوسعهم أن يرتقوا بمراتبهم إذا ما برهنوا على شجاعتهم أو كرمهم مع شركائهم اللاعبين. يظفر الصّيادون من جماعة هادزا في تنزانيا، الذين يتشاركون في اللحم على نحوٍ واسعٍ بـ «مكانةٍ اجتماعيةٍ مهيبةٍ»[113]- وهي المَهابة التي يُمكن تطويرها إلى تحالفات اجتماعية قوية، والتنعم باحترام الرّجال الآخرين، وتحسين فرص اختيار الشريك، حسبما ذكر عالِم النفس، ديفيد باس. وينخرط الناس في "الإيثار التنافسي"، إذ يتصارعون من

(111) 'The Appeal of the Primal Leader: Human Evolution and Donald J. Trump', Dan P. McAdams, *Evolutionary Studies in Imaginative Culture*, 2017, 1 (2), 1–13. https://doi.org/10.26613/esic.1.2.45.

The Goodness Paradox, Richard Wrangham (Profile, 2019). Kindle location 2559.

(112) *The Psychology of Social Status*, Joey T. Cheng, Jessica L. Tracy, Cameron Anderson (Springer, 2014), p. 17.

(113) *Evolutionary Psychology*, David Buss (Routledge, 2015), p. 79.

أجل أن «يظهروا بمظهر المُساهمين الأَفضل في رخاء الجماعة.»[114] وبطبيعة الحال، يحصد الشخص، الذي يؤثر على نفسه، المكانة في المجتمعات الأحدث كذلك، إذ تُبين الدراسات أن المُتبرعين للجمعيات الخيَرية، مثلًا، يحظون بـ «ارتفاع هائل في المكانة في نظر الآخرين.»[115]

وابتغاء التمكن من ممارسة النوعين كليَهما من ألعاب المهابة، كان يجب على الدماغ أن يطوّر قدرةً غير عادية. ألعاب المهابة والسُموّ رمزيةٌ، إذ إنها تعتمد في ممارستها على السمعة لا على ذواتنا الفعلية مثلما يحدث في مسابقات الهيمنة الجسدية. وبإمكاننا التفكير في سمعتنا بوصفها نسخةً رمزيةً عنا موجودة في عقول الآخرين. وتحتاج الأدمغة البشرية إلى السعة اللازمة لخزن هذه الذّوات الرّمزية المُفصلة للغاية. وعوالمنا العصبيّة محتشدةٌ بصورٍ متخيلة عن الآخرين شديدة السطوع حتى يَخال للمرء بأنه قادر على استدعائها متى شاء. إننا جميعًا نتجول مع أي شخص نعلم بوجوده متكدسًا مع الآخرين في داخل رُؤوسنا.

ونحتاج، إضافة إلى ذلك، إلى التحلي بالقدرة على الكَلام. لربّما نكون قد أحتفظنا بِسمعة الآخرين في أدمغتنا. غير أن هذه السمعة تعيش وتموت في القصص التي نرويها عنهم. تقول النظرية السائدة الحالية إن هذا هو السبب الذي جعلنا نطوّر الكلام إلى النميمة والقَيل والقال.[116] فإذا أحسن الآخرون في القَبيلة الحديث عنا، سنظفر بِسُمعة معتبرةٍ ونحظى بالفوائد الوهاجة المُترتبة عليها؛ أمّا إذا تحدثوا عنا بسوء، فستَتَدهور منزلتنا ونخاطر بالتعرض إلى العقاب. وبوسعنا أيضًا أن نكسب المكانة من النميمة. وربما يكون الشخص الذي ننخرط معه في الاغتياب أحد رموز المكانة؛ وتبادل القيل والقال والأشاعات مع أفراد

---

(114) المصدر نفسه، ص 280.

(115) *EvolutionaryPsychology*, DavidBuss(Routledge, 2015), p. 353.

(116) *Grooming, Gossip, andtheEvolution of Language*, Robin Dunbar (Harvard University Press, 1996).

رفيعي المنزلة توحي ضمنًا أننا نماثلهم فيها.(117) وفضلًا عن ذلك، فإن إحدى الغايات الحاسمة للنميمة كانت الكشف عن قواعد القبيلة، وما يترتيب على انتهاك الفرد لها.(118) والنميمة تُساعدنا على إثبات معرفتنا بالقَوَاعِد، وإخلاصنا لها، الشيء الذي قد يجلب لنا المكانة أيضًا. توصف النميمة بأنها «نشاطٌ يرمي إلى لفت الانتباه، وتعزيز المصلحة والصَّورة الذَّاتيتين عن طريق الموازنة الاجتماعية، والطّعن بالآخرين والتشكيك بهم.»(119) إنها عالميةٌ وأسَاسيةٌ في ممارسة اللعب:(120) فالأطفال ينخرطون فيها حالما يبدؤون الكلام.(121)

تُشفر قواعد القَبيلة ورموزها، إلى جانب النميمة، في الخرافات والأساطير التي يرويها كبار السن، وفي الطُّقوس والاحتفالات وملابس الآخرين وسُلوكهم. ونستوعب هذه القَوَاعِد والرّموز مع تقدمنا في السن، فنُنمي ضميرًا أو نوعًا من القبيلة المُتَخيلة التي سوف تحكم علينا وتُحذرنا حينما نقع في الغلط. يقول جوزيف هنريش، المختصّ بعلم الأحياء: إن انتهاك القَوَاعِد بفعل الفشل في مشاركة اللحم، مثلًا، أو ارتكاب الأخطاء عند ممارسة طقسٍ ما، يُسفر عن مواجهة الفرد خطر «تشويه السمعة، وخفض فرص العثور على شريكٍ، والنبذ الاجتماعي، وفي الحالات القصوى، التعرض للقتل على يد الجماعة.»(122) شكل الانتقاء الطبيعي بناءنا النفسي كيَ نكون طَيعين ومُحرجين من انتهاك التقاليد، وماهرين في اكتساب الأعراف الاجتماعية واستيعابها.

ومع تغيَر الأسَاليب التي نستثمرها في اللعب، تحولنا تدريجيًا إلى الحيوانات

---

(117) ملاحظة التثبت من الحقائق، صوفيا سكوت.

(118) 'GossipasCultural Learning', R. F.Baumeister, L. Zhang, K. D. Vohs, *Review of General Psychology*,2004,8(2):111–121.https://doi.org/10.1037/1089-2680.8.2.111.

(119) 'Gossip in Organizations: Contexts, Consequences, and Controversies', Grant Michelson,AdIterson,KathrynWaddington(2010),*Group&Organization Management* 35, 371–390. 10.1177/1059601109360389.

(120) *MoralTribes*,JoshuaGreene(Atlantic Books, 2013), p. 45.

(121) 'Gossip as Cultural Learning.'

(122) *TheSecretofourSuccess*,JosephHenrich (Princeton University Press, 2016), p. 319.

الغَريبة، التي تسير بزهوٍ وخيلاء، والمهووسة بالعقل والمُزدانة بالجواهر المتلألئة التي نعرفها في الوقت الحاضر. فَشَرعنا في الانخراط في أنشطةٍ غايتها الفوز بالمكانة من مثل الرَّسم وعزف الآلات الموسيقية ولبس الحلي والمجوهرات الفَاخرة وصناعة الأشياء المرغوبة ومقايضتها وعرضها. اكُتشف في ألمانيا تمثالٌ صغيرٌ نصفه أسد ونصفه إنسان عمره أربعون ألف عامٍ، ويُقال إن أي حرفي ماهر كان سيُنفق أربعمائة ساعة في نحته.[123] وعُثِر في أوكرانيا على بقايا أربعة مبانٍ ضخمةٍ مشيدةٍ من عظام ماموث متشابكةٍ هائلةٍ، مع بعض الجماجم في المباني التي يصل وزنها إلى مائلة كيلوغرام على الأقل.[124] كانت هذه المباني التي يُعتقد أن عمرها يتجاوز العشرين ألف عام، تحتوي على كنوزٍ مثل الحُلي المصنوعة من الكهرمان والقَواقع المُتحجرة التي جلب السكان بعضها، وقايضوا على الأَغلب بعضها الآخر مع مناطق تبعد قرابة الخمسة آلاف كيلومتر.

لقد أصبحنا أكثر غرورًا وأشد استقامةً، وأدى تحوّلنا من ممارسة ألعاب الهيمنة إلى ممارسة ألعاب السمعة إلى إفراطنا في التسامح عند التعامل مع أفراد مجموعتنا موازنةً بأقاربنا من الرّئيسيات. يقع العدوان الجسدي بين البشر بمعدل يبلغ أقل من 1٪ موازنة بقردة الشمبانزي والبونوبو (الشمبانزي القزم).[125] ويُلاحظ أن جماعات قردة الشمبانزي أعنف من حتى المجتمعات البشريَة الأشرس بمعدلٍ يتراوح من «بضع مئات إلى ألف.»[126] لسنا بحاجةٍ إلى تقطيع الأطراف أو بتر الأعضاء التناسلية وشرب الدم للظفر بالمكانة مثلما تفعل قردة الشمبانزي، إذ يُمكننا التنعم بها عن طريق تَعزيز قيمتنا واعتبارنا وإظهار مَنزِلتنا في تماثيل الأسود العاجية والأصداف اللامعة.

يُمارس البشر ألعاب المَهابة في كل مكانٍ، من الغابات والسهول العشبية

---

(123) *Transcendence*, Gaia Vince (Allen Lane, 2019), p. 156.

(124) المصدر نفسه، ص 171.

(125) *The Goodness Paradox*, Richard Wrangham (Profile, 2019). Kindle location 344.

(126) *The Goodness Paradox*, Richard Wrangham (Profile, 2019). Kindle location 322.

في المجتمعات قبل الحديثة إلى الطّرق وناطحات السحاب في المدن المُضاءة. شاع الافتراض في الماضي أن البشر فحسب يستخدمون المهابة مع أن الباحثين قد رَصَدوا منذ ذلك الحين، حضورها في الحيوانات الأخرى، حينما تقود الفيَلة العجوز الحكيمة قطيعها إلى مورد الماء. ومع ذلك، ليس هناك نوعٌ حيٌّ أفرط في مُمارستها في الأماكن كافة مثل البشر. فالمَهابة هيَ إحدى أشد رغباتنا روعةً واشتهاءً. إنها رشوةٌ تحثنا على أن نكون نافعين، ونعمل في خدمة مصالح القبيلة، وتُسعفنا في إتقان فن العيش التعاوني المشترك، إذ نسعى في تحقيق الأهداف ومعالجة المشكلات، بوصفنا أفرادًا في جماعات تَعاونيةٍ لِأننا مُبرمجون على العناية بجديةٍ وعمقٍ بما يظنه زملاؤنا بنا: إننا نستمتع بمكافأة المكانة التي يقَدمونها لنا، ونتقدم في أثناء سعينا إلى الظّفر بِسُمعةٍ معتبرةٍ ومهيبة باستخدام أي من الاستراتيجيتين المُتاحتين: إمّا أن نكون نزيهين وفاضلين، وإمّا ناجحين. هذا هو سرّ نجاحنا، بوصفنا نوعًا حيًا، وقد ساعدنا في السيطرة على الكوكب، ومثلما ذكر الأنثروبولوجي جيروم باركاو: «من دون المَهابة الرّمزية، يتعذر علينا أن نُدرك حجم التعقيد الذي قد تَتَصف به المجتمعات.»[127]

غير أن لهذا الأمر جوانب سلبيةً. فَبسبب القيمة الفائقة التي تمنحها الأَدمغة للمكانة المبنية على السمعة، فإن ضياعها لا يُطاق، ويُعد في بعض المجتمعات، مثل مجتمع لبخا في منطقة الهملايا، السبب الأكثر شيوعًا لِانتحار الناس. ويصدق هذا الشيء على الأمم الحديثة مثل غانا، إذ وثّقت حادثة انتحار شابٍ بعمر الثّانية والثلاثين بشرب سائلٍ مضاد للحشرات، بعدما مسكه القَرويون متلبسًا بممارسة الجنس مع نعجةٍ؛ والِاتهامَات بالِاعتداء الجنسي على الأطفال ترتبط بِمعدلات الانتحار "المرتفعة ارتفاعًا هائلًا"[128] وبهذا الصّدد، ذكرت دراسةٌ مسحيَة أن

(127) 'Prestige and the Ongoing Process of Culture Revision', Barkow J. (2014), *The Psychology of Social Status*, edited by J. Cheng, J. Tracy and C. Anderson (Springer, 2014). https://doi. org/10.1007/978-1-4939-0867-7_2.

(128) *Suicide: The Social Causes of Self-Destruction*, Jason Manning (University of Virginia Press, 2020). Kindle location 880–898.

53٪ من الأمريكيين يفضلون الموت حالًا على اكتسابهم سمعة المتحرشين بالأطفال الشائنة،[129] واختار 70٪ قطع يدهم المُفضلة بالاستخدام على محو وشم الصّليب المعقوف في وجوههم؛ وفضّل 40٪ قضاء سنَةً في السجن على حمل لقب مجرم.

هُناك سُمعة نَسعى إلى التَمتع بها في كل لعبة مكانة نُمارسها. ولهذه السمعة تفاصيلها الخاصَّة التي تختلف في عقل كل لاعبٍ. ونَحنُ نوجد، بدرجاتٍ مُتباينةٍ من العُمق والإنصاف، في جميع هذه العقول. إن الآخرين يُنمقون صورتنا بمعلومات المكانة التي يملكونها في كل مرّة يفكرون فيها بنا. هل نحن أخلاقيون أم تعوزنا الأخلاق؟ خبراء أم عديمو النفع؟ كيف نبدو؟ كيف نتكلم؟ ما العَمل الذي نؤديه؟ هل نجعلهم يشعرون بأنهم محبوبون أم مكروهون؟ خياليون أم منفِّرُون؟ مُثيرون للشفقةِ أم للإعجاب؟ إنها هذه الصّورة الرّمزية الشائهة والمُتحيزة التي نُمارس الحياة بها لا ذاتنا كُلها. لا أحد يَعرفنا مَعرفة حقيقية قطّ، وليس بِقدرة أحدٍ مَعرفتنا أبدًا.

(129) ‘Death Before Dishonor: Incurring Costs to Protect Moral Reputation’, A. J. Vonasch, T. Reynolds, B. M. Winegard, R. F. Baumeister, *Social Psychological and Personality Science*, 2018, 9 (5) 604–613. https://doi. org/10.1177/1948550617720271.

الفصل السادس

ألعاب المهابة والوجاهة

كشف الباحثون العديد من قواعد الحياة البشرية المُضمرة بفضل دراستهم لَعبتيَ الفَضيلة والنجاح المُقترنتين بِالمهابة، وقد تمكنوا من فهم بعض السلوك الأغرب في نوعنا البشري. مثلاً:

- ما السبب الذي يجعل بعض الأفراد يجمعون الآخرين حولهم كما لو أنهم منوَّمون مغناطيسيا؟

- لمَ يسلك مشجعوهم الرّائعون هذه السلوك الهوجاء والمُحرجة في حضرتهم؟ لم يُقلدونهم في ملبسهم وطريقة حديثهم والكُتُب التي يقرؤونها؟

وفي كل مرّة يبرهنُ الفرد على أهميته وقيمته في اللعبة التي يُمارسها مجموعة من الأفراد، بفضل الحضور الواضح لنزاهته، أو نجاحه، فإن زملاءه اللاعبين يوثّقون هذه القيمة ويؤشرونها.[130] وسيدركون في عقلهم الباطن أن سُلوك هذا الفرد الذي ضمنَ له الفوز هو بمنزلة فرصة تُتيح لهم الفوز أيضًا. ولذا، يرغبون في التعلم منه كي يتمكنوا من الارتقاء بمكانتهم، وهذا يعني ضرورة الوجود بقربهِ لِأطول وقتٍ ممكنٍ، ومنحه مكانةً رمزيةً مكافأةً له على وقته الثّمين ومعرفته. إنهم يغدقون عليه بالتواصل البَصري، ويمتثلون له في الحِوار، وربّما يقفون أمامه وقفةً

---

(130) للاطلاع على تحليل تفصيلي لهذه التأثيرات، أنظر:
The Secret of our Success, Joseph Henrich (Princeton University Press, 2016).

منحنيةً مُتذللة[131]، ويكشفون عن أسنانهم في عروضٍ من الخنوع تُعرف بـ «تكشيرة الخوف»[132] لدى القرود و«الابتسامة» لدى البشر، ويجلبون له الطّعام والشراب أو هدايا أخرى؛ ويسيرون خلفه، ويفتحون له الأبواب، ويُجلِسونه في أماكن خاصةٍ، أو يستخدمون الألقاب التبجيلية في مخاطبتِهِ، وسينعم اللاعب رفيع المستوى والمُهاب بجميع مؤشرات المكانة هذه، ومن الوَاضح أن هؤلاء الأفراد يشعرون بأنهم *رائعون ومُذهلون*. مع ذلك، وبقدر ما يبدو هذا الشيء جميلًا، إلا أنه خدعة أو اِستراتيجية في الغالب؛ إنه خطة لعب.

وغرائز ممارسة اللعبة هذه هي أحد مكونات الطّبيعة البشرية العالمية. إذ يُقلد الناس اللاعبين المُهابين تقليدًا أعمى بسبب رغبتهم الخَارقة في التعلم منهم: إذ يقلدونهم في أنْواع المَلابس التي يرتدوها والأطعمة التي يتناولوها، وفي طريقة حديثهم، ويقرؤون الكتب التي يوصون بها، ويتبنون بشغفٍ معتقداتهم وسلوكهم وأسَاليبهم المُتكلفة؛ وقد يصل الحال بهؤلاء اللاعبين مُتدني المكانة إلى أن يبدو بصورة المَمسُوسين عمليًا، ودورة [السلوك] هذه التي توجّههم وتقودهم كانت حاضرةً لملايين السنين؛ إذ يُقلد القردة كذلك زملاءهم رفيعي المقام.[133] غير أن أقاربنا التطوريين لم يمضوا في تبنيهم لِغريزة التقليد إلى الحد الذي مضينا فيه. إذ أظهرت الدراسات التي وازنت بين الأطفال الصّغار وقردة الشمبانزي أن النوعين كليهما يُقلدان أفعال الأفراد المُهابين والمُحترمين، عندما يستعيدون

(131) 'The Evolution of Prestige: Freely Conferred Status as a Mechanism for Enhancing the Benefits of Cultural Transmission', Joseph Henrich and Francisco Gil-White, *Evolution and Human Behavior*, 2000, 22, 165–196.

(132) 'Smiles as Signals ofLower Status in Football Players and Fashion Models: Evidence That Smiles Are Associated with Lower Dominance and Lower Prestige', Timothy Ketelaar, Bryan L. Koenig, Daniel Gambacorta, Igor Dolgov, Daniel Hor, Jennifer Zarzosa, Cuauhtémoc Luna-Nevarez, Micki Klungle and Lee Wells, *Evolutionary Psychology* (July 2012).

(133) 'Prestige Affects Cultural Learning in Chimpanzees', V. Horner, D. Proctor, K. E. Bonnie, A. Whiten, F. B. M. de Waal, *PLoS ONE*, 2010, 5(5): e10625. https://doi.org/10.1371/journal.pone.0010625.

القِردة، بمهارةٍ، قطعة حلوى بعصًا، في سبيل المثال، لكن البشر لوحدهم يقلدون جميع الأفعال.[134] ويُحدد قردة الشمبانزي تحديدًا حكيًا وحذرًا، ويُنقحون أيضًا أي أجزاء عديمة الجدوى في هذه العملية، إذ يُقلدون ما هو ضروري فحسب للحصول على الحلوى. أما البشر فيقلدون كل شيء.

ويُعتقد أن هذا هو أساس مفهوم الإيمان الحاضر في كثيرٍ من ألعاب المكانة المُمتدة من الأديان إلى الشركات المُساهمة.[135] يبدو الأمر كما لو أن تقليد معتقدات مرموقي المكانة وسُلوكهم هو شيء صحيح إلى حدٍ ما، حتى لو لم تكن هذه المعتقدات والسلوك منطقيةً. وهذه هي الطّريقة التي تُساعد الأطفال في بلدانٍ مثل الهند على التغلب على الألم المصاحب لِتناول الأطعمة الغنية بالتوابل.[136] ويُقال إن تقليد أفعال الأفراد رفيعي الشأن أمرٌ جذابٌ ومنشودٌ، إذ تُعيد أدمغتهم تفسير إشارات الألم فتجعلها مُمتعةً ولَطيفةً. ويسود الاعتقاد أن الأطفال يُعلمون أنفسهم الاستمتاع بالأطعمة المُتبلة لاذعة الطّعم باستخدام التقليد الآلي الموجه بِالمكانة. والوَاقع هو إنهم ليسوا بحاجةٍ إلى من يُجبرهم.

إن الجزء الأكبر من سلوكنا المُقلد غير واعٍ، إذ لا نُدرك أننا نفعل ذلك، ولا نميز السبب ورائه. لكن كيف نختار منْ نقلده؟ بأية وسيلة نُحدد الشركاء الذّين نتوسم بهم المَنفعة؟ إننا نولد بقدرةٍ سليقيةٍ على البحث عنهم، والعثور عليهم. إننا نفحص فحصًا لاواعيًا اللعبة بحثًا عن «إشارات» متنوعة تدل على أن شخصًا ما جديرًا بالتعلم منه، وهذه العملية تبدأ مبكرًا. وعن هذا يكتب جوزيف هنريش، الخبير العالمي في علم نفس المَكانة: «إن الأطفال بعمر السنة يستثمرون معارفهم الثَّقافية المُبكرة لتحديد منْ يميل إلى معرفة الأشياء، ثُم يستخدمون هذه المعلومات في تكثيف التعلم والعناية والذَّاكرة.»[137]

(134) *The Secret of our Success*, Joseph Henrich (Princeton University Press, 2016), p. 109.
(135) المصدر نفسه، ص 97.
(136) المصدر نفسه، ص 110.
(137) *The Secret of our Success*, Joseph Henrich (Princeton University Press, 2016), p. 41.

والدماغُ مُشفّر للبحث عن أربع إشارات أساسية تُسهم حال تحديدها والعثور عليها في حثّ الأفراد على التركيز. إذ نبحثُ، أوّلًا، عن إشارة التشابه الذّاتي،[138] ونَفترض أننا نتعلم دروسًا مُفيدةً، على الأغلب، من أشخاصٍ *يَشبهوننا*. إننا نُفضل تَفضيلًا فِطريًا من يوافقوننا في العمر والعرق والنوع الاجتماعي، فنعتني بهم، ونَمنحهم المكانة منحًا تفضيليًا. وهذا هو أحد المصادر العميقة للعصبيَة والتحيز اللذين يلوثان عددًا كبيرًا من ألعاب المكانة. حتى الأطفال الصّغار يُبدون الاحترام للغرباء الذين يتحدثون بِلهجةٍ مُشابهةٍ لِلهجة الأم.

و"إشارات المَهارة" هي ثاني الأَشياء التي نبحث عنها:[139] منْ يبدو الأفضل قدرةً في اللعبة التي نشترك فيها؟ تقول الدراسات إننا نبدأ بتقليد الأفراد الذين يُظهرون كفايةً في تنفيذ المهام بعمر العام والشهرين على وجه التقريب. وننشد "إشارات النجاح" أيضًا، أي رموز المَكانة، مثل قلادة من الأسنان يرتديها صيادٌ خبيرٌ؛ وكوخ أكبر حجمًا يمتلكه شيخُ القبيلةِ؛ وشهادة دكتوراه، أو زوج من أحذية لوروم للمصمّم الإسباني مانويلو بلانك رودريغز. إن رَغبتنا في تأشير النجاح بهذه الطّريقة هي السبب في «الإِستهلاك المُستشري» في أرجاء العالم. تبلغ قيمة سوق الرّفاهية والترف العالمي قرابة الترليون وبليوني دولار سنويًا، منها مائتان وخمسة وثمانون بليون دولار تُنفق على السلع، أغلبها في آسيا.[140] ويُنفق أفراد قبيلة تسيماني الأمازونية، الذين يَجنون مالًا يفوق ما يَجنيه الآخرون، نسبةً كبيرةً منه في اقتناء السلع المُبهرجة، مثل الساعات؛[141] ويُمكنك في الغرب، لو كُنت راغبًا بذلك، اقتناء ساعة فرانك مولر اتيرتيناس ميغا 4 مقابل 2.7 مليون دولارٍ.

---

(138) المصدر نفسه، ص 44.

(139) *The Secret of our Success*, Joseph Henrich (Princeton University Press, 2016), p. 38.

(140) *Possessed*, Bruce Hood (Penguin, 2019), p. 96.

(141) 'Is the Desire for Status a Fundamental Human Motive? A Review of the Empirical Literature',

C. Anderson, J. A. D. Hildreth and L. Howland, *Psychological Bulletin*, 16 March 2015.

ونبحث، في الختام، عن "إشارات المَهابة":[142] إذ نُحلل لُغة الجسد لدى شركائنا، وحركات أعيَنهم وأنماط أصواتهم لنعرف من يمتثلون له، ونتعقّب إشارات مماثلة في سلوك الأفراد المَرموقين والأجلاء. ثُم نُشرع في الانتباه لهم ومتابعتهم، وهذه العمليات حيوية ومؤثّرة ومُعدة للعمل في مجموعات صغيرةٍ تختلف عن بيئة وسائل التواصل والإنترنت الحديثة الهائلة. ليس غريبًا في عالم اليوم أن يعتني مَلايين من البشر بشخصٍ واحدٍ، بِسهولةٍ ويسرٍ؛ لأن ملايين غيَرهم يَنجذبون إليه، ويتابعوه حتى تتحول هذه العناية إلى حلقة متصلة من التعليقات والآراء المُتبادلة، الشيء الذي يؤدي إلى إرسال شخصٍ عادي ومغمور نسبيًا إلى ذُرى المكانة. وهو ما يُسميه الأكاديميون «أثر باريس هلتون.»[143]

تُسدى النصِيحة الآتية لكل من يهوى تَغيير الواقع: عليك بِدراسة هذه الإشارات كي تتمكن من التأثير في السلوك البشري. إن سلوك التقليد ـ الإطراء - الامتثال غير الواعي الذي تنتجه هذه الإشارات يُمكن أن يكون مُذهلًا في تأثيره. استغل المستكشف الإنكليزي القبطان جيمس كوك إشارات المَهابة لإرغام رجاله على تناول الساوركراوت (العشب الحامض أو الملفوف المُخلل) بوصفه علاجًا تجريبيًا للإسقربوط أو المرض المعروف بـ"طاعون البحر"، وقاتِل البَحارة المسؤول عن وفاة قرابة المليونين منهم بَين القرنين السادس عشر والتاسع عشر.[144] أبحر جيمس كوك، في 1769، نحو بحر الباسفيك الجنوبي حاملًا على متن السفينة 3565 كيلوغرامًا من الملفوف المُخمر لاذع الطّعم، وأمر أن يُقدم على "مائدة الكابتن" حصرًا. وكانت هذه إشارة مَهابة مُهمة. وذَكر كوك في يومياتِهِ: «إن الملفوف أضحى أفضل طعامٍ في العالم في اللحظة التي رأى فيها البحارة أن

(142) *The Secret of our Success*, Joseph Henrich (Princeton University Press, 2016), p. 42.
(143) المصدر نفسه، ص 126.
(144) *The Secret of our Success*, Joseph Henrich (Princeton University Press, 2016), p. 139. www.captaincooksociety.com/ home/detail/scurvy-how-a-surgeon-a-mariner-and-a-gentleman-solved- the-greatest-medical-mystery-of-the-age-of-sail-bown-stephen-r-2003.

قائدهم أسبغ عليه قيمةً.»[145] ومما لا شك فيه أن اللاعبين مُتدني المكانة شرعوا في طلبِهِ. وقبل أن تمضي مدةٌ طويلةٌ، كان يَجِب تقنين كمية المَلفوف المُقدمة. سجّلت هذه الرِّحلة اِنخفاضًا قياسيا غير مسبوق في عدد الرِّجال المتوفين بداء الإسقربوط هو صِفْر.

لم تُسهم إشارات المهابة في تحسين طعام البحارة فحسب، بل حظيَت بريطانيا، على مدى أجيال، بِسمعة لها ما يبررها تخصّ تقديم الطعام الأسوأ في أوروبا، وربما في العالم. كان كِبار الطَّبَّاخين من الفرنسيين في سبعينيات القرن العشرين وثمانينياته (عندما وصل الطّاهي البرت رو إلى إنكلترا في خمسينيات القرن العشرين، كان زيت الزّيتون يُباع في الصّيدليات حصرًا بوصفه عِلاجًا لشمع الأذن) في حين لم يكن نجوم الطّبخ التلفزيونيين - أمثال ديليا سمث، ومادهور جفري، وكيث فلويد - بمكانةٍ متميزةٍ، إذ كانوا يجسدون أريحية منتصف العمر في فترات ظهيرة يوم الأحد التي لا تُثمر شيئًا. وتغير ذلك في كانون الثاني عام 1987 عندما باشر طاه من الطّبقة العاملة من مدينة ليز في إدارة المطبخ في مطعمٍ جديدٍ اسمه هارفيز في جنوب لندن. حاز ماركو بيير وايت أول نجمة ميشيلن في غضون عامٍ، وخطف الثَّانية في العام التالي. فأصبح الطّباخ ذو الخمسة وعشرين ربيعًا مشهورًا بين ليلة وضحاها.

لم يكن وايت مُذهلًا في موهبته فحسب، بل كان وسيمًا وجذابًا ومؤثرًا ومُخيفًا، مُضافًا إلى ما شَاع عَنه من سورات غضبٍ وهياجٍ في المطبخ، وفي صالة المطعم أيضًا حيث كان يطرد الضَّيوف أحيانًا. وأُعد برنامجٌ عنه في السِلسلة التلفزيونية المَعروفة بـ "ماركو" في 1988، ثمّ تبع ذلك بعامين، أي في 1990، نشِر كتابٍ فخم عن الطّهي بعنوان (*حرارة وايت*) يَضمُّ صورًا فوتغرافية بالأسود والأبيض التُقِطتْ في مطعم هارفي، ويُقدم الطّاهي وايت في صورة نجم الرَّوك، إذ يظهر

---

(145) 'Captain Cook and scurvy', Egon Hynek Kodicek and Frank George Young, *Notes and Records*, Royal Society London, 1969, 2443–63. https://doi.org/10.1098/rsnr.1969.0006

عاري الصّدر، وهو يدخّن، ويُقطع الشرائح بالساطور، بشعرٍ مجعّدٍ داكن ينسدل على كتفيهِ. كان ما فعله هذا البرنامج شيئًا مثيرًا حقًا في عالم الطُهاة وفي خارجه، وعن ذلك كتب أنثوني بوردين، الطّاهي والمؤلف الأمريكي من مدينة نيويورك: «لا أعلم إنْ كان بمقدوري أن أُقدم وصفًا وافيًا لِلتأثير الذي خلفه كتاب *حرارة وايت* فيَ، وفي كبار الطّهاة وصغارهم حولي، وأيضًا في الأجيال اللاحقة.»(146) «فجأة، توزعت الحياة إلى ما قبل ماركو، وما بعده. مَنحنا هذا الكتاب القوَّة. كُل شيء بدأ من هنا.»

أصبح وايت أصغر طاهٍ في التاريخ يحصل على ثلاث نجوم ميشيلن، وبات بوسع بريطانيا، أخيرًا، أن تَفتخر بمشهد الطّهي الخاص بها الذي لطالما كان مصدرًا للحرج في المستوى الدولي. كانت الموائد في مطعم هذه الأيقونة تكتظ بالأفراد من طبقة النخبة الذين كانوا ينشرون أخباره في صُحفهم وقنواتهم التلفزيونية. شرع إدراك مهابة الأمة في الِاختلاج بعدما أضحى تناول وجبة عشاء فاخرة رمزًا مُهمًا دالًا على المكانة. وأسهم وايت أيضًا في رفع مكانة العمل في الطَّهي ذاته: إذ بدأ جيلٌ جديدٌ من البريطانيين ينظرون إلى لُعبة الطَّهي بوصفها إحدى الألعاب التي يُمكنها أن تمنحهم وجاهةً واعتبارًا هائلين، بعد بروز سوقٍ كان في انتظارهم آنذاك.

شارك وايت في لُعبة المكانة، المُؤدية إلى القمّة، بكل عنفوانٍ وشراسةٍ. كتب الطّاهي بيير كوفمان الذي تَتلمذ ماركو على يديه في المطعم الذي يعمل فيه في لندن، وهو لا تانت كليَر: «لم يفعل ماركو شيئًا سوى سرقة وصفاتي.»(147) ثُم أضاف مُبينًا: «لكنه أحد أفضل الطّهاة الذين عملوا في مَطبخي، إذ كان دائم الملاحظة، ودائم الإصغاء، ودائم الرّغبة باستيعاب أكبر قدرٍ ممكن، وبأسرع وقتٍ ممكن.» وبعدما نال وايت الوجاهة والمهابة، عمل على رد الجَميل وزاد عليه. إذ

(146) *White Heat 25,* Marco Pierre White (Mitchell Beazley, 2015), p. 110.
(147) *White Heat 25,* p. 9.

عَمَل تحت إشرافه في المطبخ الصَّغير في مطعم هارفي عددٌ من الطُّهاة الشباب الذين نالوا نجوم ميشيلن، ليس آخرهم الصِّبياني غوردن رامسي الذي وصفه وايت بأنه: «أحد أشد المولعين بالتنافس الذين قابلتهم في حياتي... يرغب غوردن في أن يَصطاد كميَة سمك أوفر من ماركو؛ إنه يريد أن يصطاد سمكةً أكبر من ماركو.»(148) ولِأنه ماركو مُصغر في أكثر من جانب، حاز رامسي ست عشرة نجمة ميشيلن تقديرية في عددٍ من المطاعم، ودرّبَ كثيرًا من كِبار الطُهاة في القرن الحادي والعشرين، من بينهم: كلير سميثن، وأنجيلا هارتنيت، ومارك سارجرنت، وماركوس وارينغ، وجيسن أثرتن، وغيرهم.

كان ماركو بيير وايت ماكِنة توليد مكانة يُديرها رجلٌ واحدٌ، والجوائز والشهرة والجاذبية والبرامج التلفزيونية والكِتاب كلها كانت إشارات مهابة كاشفة عن مكانة كبرى مبنية على النجاح، ومؤسسة لجيلٍ من الطّهاة، وأيضًا كانت فاعلة في تغيير ثَقافة شائعة. بات الطّعام الفاخر أحد رموز المكانة، وشاعت هذه القِيَمة في المُدن الكَبيرة والصّغيرة والمزارع والمَتاجر الزِّراعية ومتاجر التجزئة المُتخصصة والمتاجر الكبيرة (السوبر ماركت)، وتجلى هذا الرّمز في التلفزيون والمجلات والصّحف ووسائل التواصل الاِجتماعي في نهاية المَطاف. ومثلما هو متوقع، كانت هناك عوامل أخرى حاسمة ليس آخرها اقتصاد مزدهر، ووايت، بلا أدنى شك، لم يكن العاصفة الوَحيدة وراء الموجة المُندفعة على الرّغم من دوره الأساسي في مساعدة بريطانيا في تعزيز سُمعتها ومكانتها في عالم الطّهي. هذه هي الطّريقة التي تَتقدم بها الثّقافة في العَادة. وفي قلب هذه العمليّة يقع نزوعنا الفرديَ إلى تقليد الأفراد ذوي المَهابة والوَجاهة أملًا في أن نحظى بهما.

وقد تُسفر هذه العملية عن نتائج غير تلك المأمولة. فإذا بدأ الأشخاص الذين نظن أنهم دوننا بكثير في تقليدنا والتشبه بنا، فَسَنتخلى، على الأرجح، عن السلوك

(148) Ramsay, who White would describe as: https://www.youtube.com/watch?v=55B4nJxoUwQ.

الذي أكسبنا المكانة في المقام الأول. عندما تبنى عشاق كرة القدم، ومشاهير الطّبقة العاملة تصميم توقيع الشيكات للعلامة التجارية المعروفة بيربيري، وبدأوا بعرضها على ملابس البكيني والمظلات، وعَربات الأطفال، أحس المسؤولون بضرورة سحب العديد من صفقات الترخيص من أجل وقف التسرُّب المتواصل للزَّبائن من عِلْية القوم.[149] وبطريقةٍ مشابهةٍ، رصد الباحثون ميل الأفارقة الأمريكيين إلى التخلي عن الملابس واللغة العامية التي يتبناها البيض.[150]

ومن الجائز أن تتخلى مجتمعات كاملة عن بعض العادات لِلسبب ذاته. بقيَت المبارزة بالسيف، التي تعود بداياتها إلى عصر النهضة، مدة طويلةً من الوقت، إحدى الوسائل الشعبية التي يحسم النزاعات بوساطتها "ذوو المحتد النبيل والوجاهة" في أوروبا والولايات المُتحدة.[151] خسر مئات الآلاف حياتهم في هذه المبارزات التي تقع على خلفية الإهانات الأتفه والأسخف للمكانة.[152] يُفضّل المبارزُ النموذجي «الموت بطلقةٍ أو طعنةٍ قاتلةٍ على السماح لأفكارٍ سمجةٍ وسلبيةٍ عنه بالبقاء حبيسة ذهنه»، حسبما يقول آلان دو بوتون الذي وثّق حكاية مقتل رجلٍ في باريس بعد وصفه شقّة غريمه بـ «عديمة الذوق»، ومقتل آخرٍ في فلورنسا بعد اتهامه لابن عم له بـ «الفشل في فهم دانتي»، ومبارزة وقعت على ملكية قط من نوع أنغورا.

كانت المبارزة شائعة لمئات السنين. إذ اشتكى الفيلسوف ديفيد هيوم في القرن

---

(149) ‘'Signaling Status with Luxury Goods: The Role of Brand Prominence', Y. J. Han, J. C. Nunes and X. Drèze, *Journal of Marketing*, 2010, 74 (4), 15–30. https://doi:10.1509/jmkg.74.4.015.

(150) 'Who drives divergence? Identity signaling, outgroup dissimilarity, and the abandonment of cultural tastes', J. Berger, C. Heath, *Journal of Personality and Social Psychology*, September 2008, 95 (3) 593–607.

(151) *The Honour Code*, Kwame Anthony Appiah (W.W. Norton & Company, 2010). Kindle location 736.

(152) *Status Anxiety*, Alain de Botton (Hamish Hamilton, 2004), p. 115.

الثَّامن عشر من أنها «أهدرت بعضًا من أفضل الدماء في العالم المَسيحي».[153] ويُقال إن أحد الأسباب الذي جعلها تفقد بريقها في مطلع القرن التاسع عشر هو تقليد أبناء الطّبقات المُتدنية لممارستها، الشيء الذي أدى إلى هجر عِليَة القوم لها.[154] وهذا يعني أن هذه الممارسة لم تعد محترمةً، أو رفيعة المستوى، لذا هجرها الجميع. وصف أحد البرلمانيين البريطانيين الحاليين هذا التحوُّل بالكلمات الآتية: «أتذكر أن بعض مساعدي تجّار الكتان فكروا في التوجه صبيحة يوم أحد... وباشروا بالمبارزة، وحالما شرعوا بذلك، سقطت هذه الممارسة من أعين أبناء الطَّبقات العليَا... والآن ليس ثمة ما هو أسخف من أن يفكر نبيلٌ أو سيَد ماجدٌ في الرّد على إهانة بالتوجه إلى الاشتراك في مبارزةٍ».[155]

وبالمثل، تراجع تناول حساء زُعنفة القرش تراجعًا ملحوظًا في الصّين في الآونة الأخيرة، والسبب في الأساس يعود إلى التنظيم الناجح لتأشير المهابة.[156] كان تناول هذا الطبق عديم الطّعم والقيَمة الغِذائيَة شائعًا بين أفراد طَبقة النخبة في الصّين الإمبراطورية، وجرى استنساخ هذا الفعل بحماسٍ في الاقتصاد الجديد، إذ استخدمه أفراد النخبة الثّرية بوصفه مؤشرًا على المكانة في حفلات الزّفاف والوَلائم. وقد كان عدد أسماك القرش التي تُقتل سنويًا من أجل إعداد الحَساء قرابة ثلاث وسبعين مليون سمكة. ولِذا، نُظمت حملة معلومات عامة تزعمها عددٌ من المشاهير المرموقين من بينهم نجم كرة القاعدة، ياو مينغ. والأهم هو إزالة الرئيس الصّيني للطبق من جميع الولائم الرسميَة، لينخفض، على أثر ذلك،

(153) *The Honour Code*, Kwame Anthony Appiah (W. W. Norton & Company, 2010). Kindle location 590.

(154) المصدر نفسه، الجزء الأول: المبارز يموت.

(155) *The Honour Code*, Kwame Anthony Appiah (W. W. Norton & Company, 2010). Kindle location 746.

(156) 'Even as China turns away from shark fin soup, the prestige dish is gaining popularity elsewhere in Asia', Simon Denyer, *Washington Post*, 15 February 2018.

استهلاكه في الصّين بين عاميَ 2011 و2018 بمعدل بلغ 80٪.

والتأثير هو من العوامل الأساسيَة لعمل ديناميَات المكانة هذه. فحالما نُحدد اللاعبين المرموقين، تنشط برمجة *التقليد - الإطراء - الامتثال* غير الواعيَة، التي تسمح لهم في تعديل معتقداتنا وسلوكنا. تسيَر ألعاب المكانة على طول خطوط قوَّة قوامها التأثير والانصياع تمتد أعلى تَسلسلهم الهرمي وأدناها. وهذا هو السبب الذي يجعل التأثير هو الرّمز الأجدر بالثّقة على الأغلب من بين جميع رموز المكانة الوَفيرة الحاضرة في الحياة البشريَة. نحسب في العادة أن المال أو مقتنيات الرَّفاهية هي الرّموز الأشد ضمانًا وقبولًا فيما يتصل بمنزلة المرء مع أن الرّاهب الأعلى مقامًا في العالم يمتلك، على الأرجح، ثروةً أقل، وربطات عنق علامة هيرمس أقل من المصرفي الأصغر سنًا في وول ستريت. التأثير أمرٌ مختلفٌ.

لَكن التأثير، بالطبع، ليس إشارةً كاملةً على المكانة، إذ بوسع أحد الأفراد متدني المَرتبة أن يؤثر في الآخرين بالقيَل والقال أو الإطراء والتمَلق أو الأكاذيب، ومع ذلك، تبقى المكانة النتيجة المباشرة والمتوقّعة للقدرة على التأثير. كثيرًا ما تتجلى مكانة المرء، حتى في المجتمعات الصّغيرة، في نقاشات أفرادها الرَّامية إلى التعريف بآرائهم واستجلاء مقترحاتهم والتعبير عن التوافق الجماعي حال التوصل إليه.[157] يُمكن قياس التأثير الهائل الذي يُمارسه اللاعبون رفيعو المقام أيضًا بمعرفة مقدار الوقت الذي يتحدثون به. لاحظت دراسةٌ لمجتمعات ما قبل حديثة أن الأفراد مرموقي المكانة يتحدثون أكثر ممنْ هم في أدنى مراتب السلم الاجتماعي بمعدل خمس عشرة مرّة في مقابل حديثهم بمعدل يصل إلى قرابة خمسة أضعاف حديث من هم أدنى منهم بمرتبةٍ واحدةٍ.[158]

والتأثير هو إحدى الإشارات المفيدة في ألعاب الهيمنة، إذ تبرز في شكل

---

(157) *The Psychology of Social Status,* Joey T. Cheng, Jessica L. Tracy, Cameron Anderson (Springer, 2014), p. 182.

(158) المصدر السّابق، ص 49.

السلطة، وأيضًا في اثنتين من ألعاب المَهابة، إذ يُقدمها اللاعبون عن طيب خاطرٍ. يُمكن ملاحظة ألعاب المكانة التي يُمارسها الناس، ويفوزون فيها أينما تقتفي أثار التأثير من مثل إظهار التبجيل وتعديل المعتقدات والسلوك لتوافق معتقدات الأعلى مقامًا وسُلوكهم. ونقيس بِانتظام مستوى مكانتنا تبعًا لقدرتنا على التأثير، وتراقب أنظمة تعقّب المكانة في داخلنا مدى احترام الآخرين لنا في تفاوضات السلوك، وفي لغة الجسد والنبرة الأدق والأوضح.

وهذا أحد الأسباب الذي يجعلنا نأخذ مسألة رفض أفكارنا وأذواقنا أو آرائنا على محملٍ شخصي. ولو كانت الحيَاة البشرية عقلانية في جوانبها كافة، لما شعرنا بعدم الرّضا، على الأغلب، لاختلاف الآخرين معنا، أو ربما بالقلق من اتخاذ قرارٍ ليس مثاليًا تمامًا، ومن المحتمل أن نشعر بالرّضا عنه والتعامل مع الاختلاف بوصفه مؤشرًا على صلابة المجموعة. لكننا قد نشعر بالاغتمام والاستياء والمَرارة والرَّغبة بالانتقام حينما تخفق محاولاتنا في التأثير في بلوغ الغاية، لا سيما في العلن، وعلى مرأى ومسمع اللاعبين رفيعي المكانة. وحالما يحدث ذلك، نَنسل إلى نمطٍ من اللعب بدائي للغاية، إذ المرء لا يظفر بالمكانة بعد تقديمه ما يثبت فائدته، بل يختطفها باستخدام أفعال الهيمنة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل السابع

ألعاب الهيمنة

إنه عيد الفصح، يوم الأحد في 2018، حالة توقف عادية في حركة المرور في منطقة تينافلاي في نيوجرسي.[159] رصد رجال الشرطة سيارةً في خارج المدينة كان جزءٌ من لوحة تَرخيصها محجوبًا إضافةً إلى تَظليل نوافذها الجانبية، وهو ما كان ممنوعًا في الولاية، ووجدوا في داخلها، بعد سحبها إلى جانب الطّريق، ثلاثة شبانٍ بالغين، منهم السائق الذي فشل في تقديم أوراق تأمين أو تسجيل صحيحة، فحجزوها، وأصدروا الأوامر بإعادتها بعد تقديم الوثائق المضبوطة. اتصلت واحدة من المسافرين بوالدتها كي تأتي لاصطِحابها وصديقَها. وفي لحظة وصولها بالضّبط، أضحى كل شيء غريبًا.

وصلت أمراةٌ نحيلةٌ بعمر الستين عامًا جذابة بملابس رياضية سوداء اللون ضيقة، وسترة جلدية بلا أكمام، وتوجّهت مباشرةً حيث رِجال الشرطة بخطوات واثقةٍ، ودفعت بنظارتها الشمسية إلى أعلى جبهتها، وبيد ممدودة تُمسك ببطاقة عمل، قالت معلنةً: «أنا كارن تيرنر».

قال رجل الشرطة وهو ينظر إلى البطاقة بيدها: «هذا رائع. لا حاجة لي بها».

أجابت المرأة: «حسنًا، رائع. أنا كارن تيرنر».

فرد عليها: «أنت هنا لاصطِحابهم فحسب، صحيح؟»

---

(159) Easter Sunday 2018: https://www.youtube.com/watch?v=Y5zx1xzzi7k.

فأجابته: «كلا. أنا هنا بوصفي مواطنةً حريصةً. أنا من أصدقاء العمدة. وقد قضيَت في تينافلاي خمسة وعشرين عامًا، وأتحمل المسؤولية كاملةً عنهم. ما السبب في سحبِ سيارتهم إلى جانب الطَّريق؟»

رد عليها الشرطي: «عند السائق جميع المعلومات. سوف يُخبرك.»

فردت عليه: «لا لا لا لا لا لا،» كانت الـ «لا» التي صَوبتها نحوه مثل طلقات رصاص صغيرةٍ. وأردفت: «أنا في حاجة لِمعرفة الأمر.»

فأجابها الشرطي: «كلا. لست بحاجة إلى معرفة الأمر. الأمر لا يعنيك. كل ما عليك هو اصطِحابهم».

فردت عليه: «لا لا لا، الأمر يَعنيني. ثق بي. الأمر يعنيني تمامًا».

استمرت تيرنر، في محاولتها إقناع رجال الشرطة بإخبارها عن السبب الذي دفعهم إلى إيقاف السيارة، وسحبها إلى جانب الطَّريق في اللقاء الذي سجلته كاميرا الشرطة، وكرّر رجال الشرطة عليها نصيحتهم بِسؤال السائق. ومرّةً أخرى، قدمت لهم تيرنر بطاقة العمل الخاصَّة بها، لكنهم أصروا على رفض طلبها قائلين:

«لا حاجة بنا إلى رؤية أوراقك الثُّبوتية». وعندها استخرجت بسرعةٍ شارةً ذهبيةٍ لوحت بها قائلةً: «أنا مأمورة سلطة الموانئ، وتحت إمرتي أربعة آلاف من رجال الشرطة. اتفقنا؟ إذن. إذا كانت هناك مشكلة...»

رد عليها شرطيٌ آخر: «ليست هناك مشكلة. إنها مركبة غير مُسجلة».

«والآن، ما سبب سحب السيارة، في الأصل؟»

«سيدة...»

«كلا، لا تدعوني سيدة. أنا المأمورة. شكرًا لك».

لم تُجدِ جميع محاولات تيرنر نفعًا في الحصول على جوابٍ لِسؤالها. لم ينفعها إبلاغهم أنها كانت محامية. ولم يشفع لها إخبارهم أن من بين ركاب السيارة «طالبًا في مرحلة الدكتوراه في جامعة ييل للدراسات العليا.» ولم يفدها تكرارها لِطلبها: «أريد أن أعرف». شرح رجل الشرطة الثّاني السبب في رفضه تلبية طلبها: «الأمر يتصل بأسلوب تعاملك معي، وسُلوكك». أخذت تيرنر، بعد أن استبد الغضب بها، في رفع ذراعيَها عاليًا، والتلويح بِسبابتها نحو الشرطي الثَّاني، والاقتراب منه إلى حد محاصرته قرب سيارته.

عندها قال لها الشرطي: «أرجعي. أرجعي خطوةً إلى الوراء وابتعدي عني. لا يُمكنني التحرك خطوةً واحدةً».

انتهرت تيرنر الرّجلين بعد قرابة السبع دقائق من المواجهة بينهما قائلةً: «أشعر بخيبة أملٍ كبيرةٍ من أسلوبكما في التعامل» وعندما أقترح الشرطي الثّاني أن تصطحب المسافرين الشبان إلى منازلهم، بادرته تيرنر بالوقوف متخصرةً ووبخته: «هذا مثيرٌ للشفقة. وأنت مُخيب للأمل.» ثُم استدارات نحو رجل الشرطة الآخر لِتقول له: «وأنت تكتفي بالسَير خلفه وتعقب خطاه. إذن، أنت أيضًا مُخيب للأمل.»

فقال لها الشرطي الثاني: «بوسعك اصطِحابهم الآن».

فردت عليه: «لا يحق لك *أن تخبرني متى اصطَحب طفلتي*» في حين كان رأسها يتأرجح يمينًا ويسارًا مع كل مقطع لفظي منطوق، وأضافت: «بوسعك أن تغلق فمك اللعين، ولا تحدد لي الوقت الذي يُمكنني فيه أن اصطَحب طفلتي ورفيقيها، الطلبة في مرحلة الدكتوراه، في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، وجامعة ييل. لا يحق لك أن تَخبرني بشيء لأنك لم تخبرني بأي شيء. العار عليكما. سأتحدث إلى رئيس جهاز الشرطة، وأيضًا إلى العمدة ... لدي كل المعلومات اللازمة عنكما، أعزائي.» وأخيرًا غادرت تيرنر، ثُم عادت، وعندما أخبرها أحد الشرطيين بأنه

كان «مُحبطًا قليلًا» منها، ردت عليه بحدةٍ: «لا يجب عليك أن تشعر بالإحباط مني. كان جهاز الشرطة كله في منازلي الأوّل والثّاني والثّالث في تينافلاي.»

فأجابها الشرطي: «لا أعلم ما علاقة ذلك بهذا الموقف.» وجد الفيديو المصّور طَريقه إلى الإنترنت ووسائل الإعلام. ولم يمض أسبوع على ذلك حتى قدمت تيرنر استقالتها من منصبها في سلطة الميناء في نيويورك ونيوجرسي، إذ كانت تشغل أيضًا منصب رئيسة لجنة الأخلاق. تأسفت تيرنر، في بيانٍ لها، لأنها «سمحت لانفعالاتها بِأن تُسيطر عليها» وتأسفت أيضًا على استخدامها «لُغة غير لائقةٍ.»[160] غير أنها أنكرت استغلالها منصبها في السعي للتمتع بمعاملةٍ خاصةٍ، وختمت حديثها بهذه المقولة اللطيفة: «أحث قسم شرطة تينافلاي على مراجعة الممارسات الأفضل فيما يتصل بِنبرة الصّوت والحد من تصعيد المواقف لكيَلا تتكرر حوادث مثل هذه.»

إن ما حدث في ظهيرة ذلك الأحد المشرق في آذار هو نقاشٌ يخصّ سؤالًا. كانت كارن تيرنر ترغب في معرفة السبب في سحب السيارة التي كانت تقل ابنتها وصديقيها إلى جانب الطّريق. فطلب منها رجل الشرطة أن تتوجه بالسؤال إلى السائق الذّي كان واقفًا على بعد ثلاثة أمتار، على الأرجح، وفي حوزته جميع الإجابات المَطلوبة. هذا في الظّاهر، أما أدنى السطح (ليس بعيدًا كثيرًا عن السطح، ربما أقل من نصف مليمتر) كان ما حدث معركةً على المكانة، نزاعًا يخصّ منْ يشغل المَنزِلة الأعلى. لقد مارست كارن تيرنر لعبة هيمنة، وخسرتها.

كلما تعرّض إحساسنا بالمكانة إلى التحدي، مثلما حدث مع تيرنر، يُمكننا، بسهولةٍ، الانسلال إلى حالة وجود مختلفةٍ، فنلجأ إلى توظيف التشفير العصبي البدائي الذي كُتِب قبل ملايين السَنين في عصر الهيمنة قبل البشرية. ومع أن ألعاب المَهابة المعنية بالفَضيلة والنجاح قد جعلتنا حيوانات أكثر لُطفًا وحكمةً، فإن هذه

(160) 'Port Authority slams Caren Turner over ethics, after sorry-not-sorry apology', Ted Sherman, NJ.com, 30 January 2019.

الأنواع الفائقة من اللعب لم تتمكن بعد من أن تقهر قهرًا كاملًا قابلياتنا البهيمية. يكتب المختص بعلم نفس الشخصية، دان مكادمز: «إن التوقع البشري بشأن إمكانية الحصول على المكانة الاجتماعية بالقوَّة المُفرطة والترهيب؛ وقدرة الأقوى والأضخم والأكثر جرأةً على السيطرة على الناس العاديين، قديمٌ للغاية، وبديهي بداهةً مدهشةً ومتأصلٌ تأصلًا عميقًا. ولذا، لم يتمكن غريمه الأحدث سنًا - أي المهابة - قطّ من إزاحة الهيمنة من العقل البشري.»[161]

ما يزال الوحشُ قابعًا في داخلنا. إنه *ذاتنا الثّانية*. وكثيرٌ منّا يتنقلون بين هذه الذّوات عدة مرات في اليوم، على الأغلب، من دون أن يعوا تحولهم من ذاتٍ إلى أخرى. وهذه الذّوات هي بالفعل أنماط وجود مختلفةٍ. إذ يتعزّز سلوك المهابة والهيمنة بـ «عمليات نَفسية متميزة؛ إنها سلوك وكيمياء عصبية انتُقيت من أجل التعامل مع ضغوطٍ تطورية محددة.»[162] ونحنُ نميلُ إلى تشكيل فكرةٍ مختلفةٍ عن أنفسنا مع كل تغيرٍ في نسخة الذّات التي تسكن فينا؛[163] فحينما نكون في نمط الذّات المهيمنة الثّانية، فإننا نستحوذ على مساحةٍ أكبر، ونُبعد أذرعنا عن أجسامنا، ولا نبتسم كثيرًا، ونحتفظ برؤوسنا مائلةً نحو الأسفل؛ أمّا في نمط الذّات المُهابة، فنوظّف مكانتنا بأساليب أقل وضوحًا، إذ نمد بصدورنا، وندفع بجذوع أجسامنا إلى الأمام، ونميل برؤوسنا إلى الأعلى. وقد أظهرت الدراسات بأنه حتى الأطفال الأصغر من عامين بوسعهم التمييز بين اللاعبين الذين يستخدمون استراتيجيات

(161) 'The Appeal of the Primal Leader: Human Evolution and Donald J. Trump', Dan P. McAdams, *Evolutionary Studies in Imaginative Culture* 1, no. 2 (2017), 1–13.

(162) 'The Psychology of Social Status', Joey T. Cheng, Jessica L. Tracy, Cameron Anderson (Springer, 2014), p. 19.

(163) 'Two signals of social rank: Prestige and dominance are associated with distinct nonverbal displays', Z. Witkower, J.L. Tracy, J. T. Cheng, J. Henrich, *Journal of Personality and Social Psychology*, January 2020; 118 (1) 89–120.

الهيمنة والمهابة.[164]

والنمطان فاعلان كلاهما. إذ يُمارس اللاعبون المهيمنون والمُهابون كلهم تأثيرًا أقوى في زملائهم.[165] وعلى شاكلة الرِّجال ذوي المهابة والوجاهة، يُحقّق المهيمنون نجاحًا تكاثريًا أعظم.[166] فقد لاحظ أحد التحليلات اللاحقة لأكثر من ثلاثين دراسةٍ أن الهيمنة هي أحد «أقوى المتنبئين ببروز القادة، إذ تتفوق في ذلك على الكثير من المتنبئين الآخرين، بما فيهم الضّمير والذّكاء.»[167] هذا على الرّغم من حقيقة أن القادة في النمط المهيمن هم في العادة أقل فاعليةً من القادة المَرموقين،[168] إذ يميلون غالبًا إلى العِناية بمصالحهم الشخصية على حساب مصالح الجماعة،[169] وتقل عندهم، على الأغلب، احتمالات طلب المشورة، مع النزوع إلى الرَّد على الانتقادات بـ «عدوانية دفاعية أَنوية.»[170] يتصف القادة ذوو النمط المُهيمن كذلك، بالغطرسة، إذ يميلون علنًا إلى عزو الفَضل في نجاح المجموعة لأنفسهم،[171] وإلى الاستهزاء بالتابعين وإذلالهم مُضافًا إلى أنهم متحكّمون موازنةً بالقادة المرموقين الذين كثيرًا ما يجنحون نحو التحلي بصفات التواضع وإنكار الذات، ويقولون النكات، وينسبون النجاح علنًا إلى فريقهم. اللافت هنا شدة ميلنا إلى إعداد القادة المهيمنين عندما تتعرض مكانة لُعبتنا إلى التهديد. اختار الرّجال والنساء في عددٍ من الدراسات صورًا جانبيةً لأشخاصٍ

(164) 'Infants distinguish between leaders and bullies', Francesco Margoni, Renée Baillargeon, Luca Surian, *Proceedings of the National Academy of Sciences*, September 2018, 115 (38) E8835-E8843. https://doi.org/10.1073/pnas.1801677115.

(165) *The Secret of our Success*, Joseph Henrich (Princeton University Press, 2016), p. 122.

(166) *The Psychology of Social Status*, Joey T. Cheng, Jessica L. Tracy, Cameron Anderson (Springer, 2014), p. 12.

(167) *The Psychology of Social Status*, Joey T. Cheng, Jessica L. Tracy, Cameron Anderson (Springer, 2014), p. 13.

(168) المصدر نفسه، ص 9.

(169) *The Psychology of Social Status*, Joey T. Cheng, Jessica L. Tracy, Cameron Anderson (Springer, 2014), p. 11.

(170) المصدر نفسه، ص 236

(171) لمصدر نفسه، ص 124.

طوالٍ وضخام الجثّة بعيون ضيقةٍ وشفاه نحيفةٍ وفكّ قوي بوصفهم قادة مِثاليين في أوقات الحرب؛[172] على العكس من أوقات السلم، إذ حظيَ الأشخاص ذوو الهياكل الأنحف بشعبيةٍ أكبر.

والفرق الرّئيس بين الهيمنة والمهابة هو إننا لا نمنح المكانة اختياريًا للاعبين ذوي الذّات الثّانية، فاللاعبون المهيمنون يأخذونها منّا دائمًا. يقول علماء النفس إن اِستراتيجية الهيمنة تستلزم «حثًّا للخوف عن طريق الترهيب والإكراه للحصول على المنزلة والتأثير أو الحفاظ عليها.»[173] إنهم ينتزعون الاحترام والتبجيل من الشركاء عن طريق إثارة «الخوف من قدرتهم على إنزال الأذى الجسدي والنفسي» باستخدام «أفعال العدوان والإكراه والتهديد والانتقاص والتحقير والتحكم». وقد يستخدم اللاعبون ذوو الذّات الثَّانية العنف والخوف منه في شق طريقهم إلى المراتب العليّا، وبوسعهم أيضًا استغلال أنواعٍ مختلفةٍ من الألم الخالية من إراقة الدماء والرُّضوض، لكن المليئة بِذرف الدموع والشعور بالعار واليأس.

وأنماط الهيمنة هذه هي أحد الاختلافات التي يُمكن رصدها بسهولةٍ بالغةٍ بين الرّجال والنساء. إذ ليس غريبًا أن يتصرف أي منهما بعدوانيةٍ دفاعًا عن مكانته. ذكر قرابة النصف من الذّكور والإناث في إحدى الدراسات «مخاوف المكانة/ السمعة» بوصفها المُسبب الرّئيس لتصرفهم العدواني في المُدة الأخيرة.[174] مع ذلك، ما يزال لدى الرّجال حتى اليوم نزوعٌ متجذرٌ في عقولهم وعضلاتهم وعظامهم نحو منافسات المكانة الجسدية. إنهم الأغلبية من مرتكبي جرائم القتل،

(172) 'A Dual Model of Leadership and Hierarchy: Evolutionary Synthesis', Mark Van Vugt, Jennifer E. Smith, *Trends in Cognitive Sciences*, 2019, Volume 23, Issue 11, 952–967, ISSN 1364-6613.

(173) *The Psychology of Social Status*, Joey T. Cheng, Jessica L. Tracy, Cameron Anderson (Springer, 2014), pp. 4–12.

(174) 'Aggress to impress: hostility as an evolved context-dependent strategy', V. Griskevicius, J. M. Tybur, S. W. Gangestad, E. F. Perea, J. R. Shapiro, D. T. Kenrick, *Journal of Personality and Social Psychology*, 2009, May 1996 (5) 980–994. https://doi.org/10.1037/a0013907. PMID: 19379031.

وأيضًا الأغلبية من ضحاياهم، إذ تبلغ نسبة الذّكور الذين يرتكبون جرائم القتل في العالم 90٪ في حين تصل نسبة الذّكور بين الضحايا إلى 70٪.[175] والقتلة في أكثرية الحالات هم من العاطلين عن العمل، وغير المتزوجين، ومن ذوي التحصيل الدراسي المُتَدني، الذين تقل أعمارهم عن الثّلاثين عامًا.[176] إن إحساسهم بالمكانة هشٌ. يقول الدكتور مايك مارتن، الباحث في شؤون الصّراع: «إن الأسباب الرّئيسة وراء القتل في أكثرية الحالات "مدفوعة بالمكانة"، إنها محصلةٌ للنزاعات حول مسائل تَافهة.»

ولاحظ الأستاذ جيمس غيليغان، الذي قضى أكثر من ثلاثة عقود اتخذ فيها من السجون والمشافي التابعة لها «مختبرات» لِدراسة مُسببات العنف الإجرامي، أن الرّجال يدلون «المرّة تلَو الأخرى» بالجواب ذاته عن السؤال المتعلق بالسبب في ارتكابهم جريمة الاعتِداء أو القتل: «"لأنه لم يحترمني" أو "لأنه لم يحترم ضيفي [أو زوجتي، أمّي، أختي، صديقتي، ابنتي، إلى آخره]."»[177] والواقع أنهم كثيرًا ما يستخدمون هذه العبارة إلى حد اختصارها إلى العبارة العاميّة الدارجة: «إنه يحتقـ ...ي.» وحيثما يكرّر الناس استخدام كلمة إلى حد اختصارها، فلا بد أنها تشغل موقعًا محوريًا في ذخيرتهم المفرداتية الأخلاقية والعاطفية. فكر غيليغان ذات مرّة أن الجشع أو الحاجة هما الدافع الرّئيس وراء عمليات السرقة والسطو المُسلح. لكني عندما جلست بالفعل مع الرّجال الذين واظبوا على ارتكاب هذا النوع من الجرائم، وأسهبت في الحديث معهم، بدأت أسمع تَعليقات من أمثال: «لم أحظ قط بهذا القدر من الاحترام من قبل مثلما حظيَت به عندما صوبت فوهة البُندقية نحو وجهٍ متأنقٍ ما».

---

(175) *The Ape that Understood the Universe*, Steve Stewart-Williams (Cambridge University Press, 2018), p. 103.

(176) 'status-driven': *Why We Fight*, Mike Martin (Hurst & Company, 2018). Kindle location 959.

(177) 'Shame, guilt, and violence', James Gilligan, *Social Research: An International Quarterly*, 2003, 70 (4) 1149–1180.

وأسباب العنف الذي ترتكبه النساء لا تختلف كثيرًا. فقد لحظت دراسة شملت فتيات بعمر السادسة عشرة من الطّبقة العاملة في بريطانيا أن الإهانات، المقترنة في الغالب بمستوى الذّكاء وارتِكاب الجنح والسلوك الجنسيَ، هي السبب الرّئيس وراء ارتكابهن الجرائم.[178] إلا أن العُنْف الخَطير في أوساط النساء والفتيات نادرٌ نسبيًا. يرى عالِمِ النفس، جوناثان هيَدت: إن «الفَتيات والفتيان متساوون في مقدار عدوانيتهم، إلا أن نوعيَة العدوانيَة هذه مختلفةٌ. إذ تدور عدوانيَة الفتيان حول التهديد باستخدام العُنف: «سأؤذيك جسديًا»... أمّا عدوانيَة الفتيات فكانت علائقية على الدوام: «سأدمّر سمعتك أو علاقاتك.»[179] ويقول الباحثون إن عدوانيَة الأنثى تميل إلى أن تكون «غير مباشرة». فبدلًا من الاعتداء على جسم الخصم، وجهًا لوجهٍ، يجري الاعتداء على كيانِهِ المعنوي. إذ يحاولنَ ضمان إقصاء العدو ونَبذه، وقطع علاقاته بالألعاب، واستخدام السخرية والنميمة والإهانة لتجريده من المَكانة. وبالطبع هناك متوسط اختلافات. إذ يستخدم الرّجال اِستراتيجيات تشويه السمعة بكثرةٍ أيضًا مع لحظ التنوع في طبيعة الإهانات. خَلَص تحليلٌ للعنف الإلكتروني إلى: «إن النساء يَنتقصن من تعدد العلاقات العاطفية لدى النساء الأخريات،[180] ومن جاذبيتهن الجسدية أيضًا في وسائل التواصل الاجتماعي بمعدلٍ أكبر من الرّجال، في حين ينتقص الرّجال من قدرات غيَرهم بمعدل أكبر من النساء.» وتستخدم كثيرٌ من النساء، بطريقةٍ مماثلةٍ، أسلوب الهيمنة وجهًا لوجهٍ كما يَظهرُ في المواجهة مع الأنثى المُهيمنة، كارن تيرنر.

ينشأ سُلوكُ الهيمنةِ، في الغالب، عندما تلتبس المكانة النسبيَة للأفراد المعنييَن.

---

(178) *Virtuous Violence*, Alan Fiske and Tage Shakti Rai (Cambridge University Press, 2014), p. 72.

(179) 'How Social Media Is Changing Social Networks, Group Dynamics, Democracies, & Gen Z', Jonathan Haidt: https://youtu.be/qhwTZi3Ld3Y.

(180) 'Sex differences in victimization and consequences of cyber aggression: An evolutionary perspective', J. P. Wyckoff, D. M. Buss and A. B. Markman, *Evolutionary Behavioral Sciences*, 2019, 13 (3) 254–264.

وتتعاظم جاذبية الاستعانة بالعدوانية لضمان التفوق والسيطرة في الحالات التي لا يكشف فيها التسلسل الهرمي كشفًا واضحًا عن المسؤول أو المُتحكم. يبدو أن تيرنر، في حادثة سحب السيارة، كانت تعتقد أن موقعها، بوصفها مفوضة سُلطة الميناء، ومُحامية وصديقة العمدة وزميلة لرئيس جهاز الشرطة، ومضيفة لطالبين من جامعة ييل ومعهد ماسوشتوستس للتكنولوجيا، ومالكة لثلاثة منازل في تينافلاي، يدل دلالةً رمزيَة واضحةً على تَفوقها وهيمنتها. غير أن رجال الشرطة كانوا يرون أمرًا آخرًا: «إنها هنا لاصطِحاب الشبان الثّلاثة إلى منازلهم فحسب.» وهذا صحيح بالنسبة للخلافات اللفظية الخَالصة، ومن يتحول منها إلى اشتباكٍ جسدي أيضًا. يقول عالِم الاجتماع روجر غولد: «كلما أشتد غموض العلاقة قدر تعلق الأمر بمنْ يجب أن نتوقع تفوقه على الآخرين في المرتبة، ارتفعت احتمالات العنف.»[181]

يبدو واضحًا أن الخلاف بين تيرنر ورجال الشرطة هو خلافٌ حول سؤالٍ: «ما سبب سحب رجال الشرطة للسيارة إلى جانب الطّريق؟»، وهو سؤال منطقي، ورفضهم الإجابه عنه كان فعلًا وضيَعًا. إلا أن ذلك هو ما يحدثُ عادةً في هذا النوع من الخلافات حتى تلك التي تغدو شديدة العدوانية، فتنتهي بالقتل. عندما يشتطّ غضب الناس على أشياء تافهةٍ، مثل عدم الحصول على جوابٍ أو سداد دينٍ صغيرٍ، أو جحود متخيل أو التصرف بقليلٍ من الفَظاظة في الطَّريق، فإنهم يسوّغون ما يفعلونه بالقول إنه يتعلق بـ «المبدأ» في الأصل. ويرى غولد أن ما يقصده الناس في حديثهم عن المبدأ هو أن «الطّرف الآخر قد استحوذ لنفسه على دورٍ مهيمنٍ لم يكن من خصائص العلاقة بينهما في السابق.»[182] في الحيَاة، حتى الأحداث بين الشخصية الثّانوية يُمكن أن تكتسب بُعدًا رمزيًا، إذ يقرأها نظام تعقّب المكانة كلها، بسهولةٍ ويسرٍ، ويترجمها إلى: «اللعنة عليك.» وعندما يحدث

(181) *Collision of Wills*, Roger V. Gould (University of Chicago Press, 2003), p. 69.

(182) المصدر نفسه، ص 52.

ذلك، فإننا غالبًا ما نشعر بالذّنب لشقّنا طريقنا صعودًا إلى الأعلى بالعدوان أو التهديد به. وهذا يُخالف كثيرًا الصّورة التي نفضل امتلاكها عن أنفسنا بوصفنا أبطالًا أخلاقيين. ولذا، ننفي ما بدر منا من سلوك، ونروي قصةً نلقي فيها باللائمة على الظّروف أو الشيطان أو خصومنا الأَوغاد: على رجال الشرطة المُفزعين بنَبرتهم المُستفزة، وفشلهم في الحد من التصعيد. إن هذه الرؤى التي ينسج خيوطها دماغنا تُعمِينا عن رُؤية أَنفسنا على حَقيقَتَها: إننا لَاعبون في ألعاب نَستخدم فيها اِستراتيجيات عملت بفاعليةٍ لملايين السنين. في داخلنا جميعًا هذا الوَحش في داخلنا. إننا جميعًا كارن تيرنر.

الفصل الثّامن

الذّكر، الهيبة، المهان: اللعبة الأشد فتكًا

كان اليوت في الحادية عشرة من عمره يلعب سعيدًا في مخيمٍ صيَفي حينما اصطدم، عرضًا، بفتاةٍ جميلةٍ ومعروفةٍ. قال عن ذلك فيما بعد: «إنها شعرت بغضبٍ شديدٍ، وشَتمتني ودَفعتني.»[183] فتَجمّد اليوت في مكانه مذهولًا وحائرًا لا يدري كيَف يَرُد. وكان الجميع يُراقب ما يجري. إذ سأله أحد أصدقائه: «هل أنت على ما يرام؟» لم يكن بقدرة اليوت الرّد أو التحرك. شعرَ بِالمهانة، وبالكاد نطق بكلمةٍ لما تبقّى من اليوم. لكنه قال: «لم أستطع أن أصدق ما حدث.» جعلتني التجربة أشعر كما لو أنني: «فأرٌ صغيرٌ تافهٌ وحقيرٌ. شعرت بالضّعة والهَشاشة. لم يكن بوسعي أن أصدق أن الفتاة كانت بهذِهِ الفظاعة معي، وحسبت أنها فعلت ذلك معي لأنها كانت ترى فيَ شخصًا خاسرًا.» لم ينس اليوت هذه الحادثة مع تقدمه في سنوات المراهقة التي عانى فيها من رفض زملائه المرموقين الرّائعين في المدرسة، وتنمّرهم المُتواصل عليه. قال اليوت: «وَصَمتني هذه الحادثة فيما تبقى من حياتي.»

قدم تيد، الباحث الموهوب، الذي اِلتحق بجامعة هارفرد في عمر السادسة عشرة،[184] في أحد الأيام طلبًا للاشتراك في تجربةٍ يُجريها عالم النفس اللامع، هنري

---

(183) *My Twisted World,* Elliot Rodger, accessed at: https://www.documentcloud.org/documents/1173808-elliot- rodger-manifesto.html.

(184) ما لم أذكر العكس، فإن حديثي عن هذه التجربة مبنيٌّ على:

AMindForMurder, Alston Chase (W. W. Norton & Company, 2003), chapter 15.

موري. طُلِب من تيد قضاء شهرٍ في كتابة «إيضاح لفلسفته الشخصية في الحياة، وتأكيد على المبادئ المُرشدة الأساسية التي يعيش حياته أو يأمل في عيشها على وفقها» إضافةً إلى سيرةٍ ذاتيةٍ تضمّ معلومات شديدة الخصوصيّة عن موضوعات منها التدرب على استخدام المرحاض، ومصَ الإبهام والاِستمناء. ما كان يجهله تيد هو أن لموري تاريخًا من العمل بالإنابة عن وكالات حكومية سريَة. إذ إن التجربة هي دراسةٌ لِتقنيات التحقيق والاستجواب القاسيَة، لاسيما «تأثيرات الصّدمة العاطفية والنفسيَة بالجهلة من الأفراد.»[185] وما إن فرغ تيد من تدوين أسراره وفلسفاته الحياتية حتى اقتاده الباحثون إلى غرفةٍ ساطعة الإضاءة، وربطوا جسمه بأسلاكٍ ومجسات، وأجلسوه أمام مرآةٍ أحادية الاتجاه، لتبدأ سلسلة مما أسماه موري هجمات «قاسية وكاسحة ومُسيئة في المستويين الشخصي والنفسي» على تاريخه الشخصي والقَوَاعِد والرّموز التي عاش بها أو أمل أن يعيش بها. قال أخو تيد: «لِثلاث سنوات مُتتالية، كان هناك شخصُ ما يلتقي تيد أسبوعيًا كي يُسيء إليه لفظيًا ويَذله. لم يُخبرنا تيد عن التجارب قط، لكننا لاحظنا التغير الذي طرأ عليه.»[186] وصف تيد تجارب الإذلال هذه بأنها «التجربة الأسوأ في حياتي.»[187]

نشأ إد مع أمٍّ مُسيئةٍ مؤذيةٍ، فهي مُدمنة كحول ومهلوسة و«مُتسلطة تسلطًا شديدًا.» كانت توبخه علنًا، وتحرمه المودة والحَنان خشيَة من تحوله إلى مثلي. وعلى الرّغم من صغر سنَه الذي لم يتجاوز العاشرة، إلا أن الأُم باتت مهووسةً بفكرة أن تيد يتحرش بأخته،[188] ولذا، حبسته في القبو لينام، إذ قضى فيه شهورًا، وفتحة الباب الأرضي الوحيدة التي تتيح له الخروج مغلقةٌ دائمًا بطاولة المطبخ. كانت كثيرًا ما تسخرُ منه، وتخبرهُ أن لا واحدة من الشابات الذّكيات الجَميلات في

---

(185) *EveryLastTie,* David Kaczynski (Duke University Press, 2016), p. 11.

(186) 'MyBrother,theUnabomber', Michaela Haas, 25 February 2016, Medium.

(187) *Every Last Tie,* David Kaczynski (Duke University Press, 2016), p. 12.

(188) *Serial Killers,* Peter Vronsky (Berkley, 2004), p. 258.

الجامعة التي تعمل فيها سيقترين منه.[189] كانت طُفولته طفولةً قوامها الرّفض والإذلال، إذ قال عنها تيد: «في علاقتي بأمّي، كُنت أشعر بِعقدة الحبّ - الكَراهية التي شقّ عليَ التعامل معها.»[190] وهذا "التشاحن والتخاصم" مع أمّه جعله يشعر بـ «النقص وعدم الراحة حيَال النساء لِأنهن يمثلن تهديدًا له. كُنت أمقتهن كثيرًا في داخلي. تعرف، لم يكن بوسعي المشاركة في الألعاب الصّغيرة التي تمارسها النساء ولا تلبية متطلباتها. ولذا، كان وضعي يتردى، وكنت أنغمس في المعاصي.»

اِنحرف إد عن المَسار الصَّحيح. فعل ذلك حقًا، إذ قتل جدته لأني «كنت أرغب في قتل أمّي.» تبعها بقتل والدته، إذ قطع رأسها ومارس العلاقة الحميمة معها، ثُم دفنها في الحديقة، وعيناها شاخصتان إلى الأعلى لأنها كانت على الدوام ترغب في أن «يُكبرها الناس ويعجبون بها.»[191] وأجهز أيضًا على ثماني نساء أُخريات، ومارسَ الجنس مع بعض الجُثث، وأكل بَعضها الآخر. ما يزال إد كمبر واحدًا من القَاتلين المُتسلسلين الأَشهر في أميركا في حين أضحى اليوت روجر قاتل فورةٍ، إذ أزْهق حياة ستة من الطَّلبة الشبان، ثُم أجهز على نفسه في جامعة كاليفورنيا في سانت بربارة في 2014. ماذا عن تيد؟ إنه تي كزينسكي، مفجّر الجَامعات والطَّائرات. مكتبة سُر مَن قرأ

وإذا كانت الحَياة، في الأعم الأغلب، لعبة مكانة، ماذا يحدث لو اُنتزعت مكانتنا كُلها مِنا؟ ماذا يحدث إذا أُرغمنا على الشعور بِأننا لا شيء مِرارًا وتِكرارًا؟ يُمكن النظر إلى المَهانة والإذلال بوصفهما النقيض للمكانة؛ إنهما مثل الجَحيم موازنة بالجنَة. الآخرون هم مصدرُ الإذلال مثلما هم مصدر المَكانة. وعلى غَرار المكانة، يكشفُ الإذلال عن حُكم الآخرين على مكانتنا في سلم المراتب الاجتماعية. ومثلما هو الحال مع المكانة، كلما ارتفعت منزلة هؤلاء، وكَثُر عَددهم، صار حكمهم أقوى وأشد تأثيرًا. وبِقدر أهمية المكانة تكون أهمية الإذلال الذي وصفه

(189) *Mindhunter*, John Douglas (Random House, 2017), p. 111.

(190) *Sacrifice Unto Me*, Don West (Pyramid, 1974), p. 191.

(191) *Serial Killers*, Peter Vronsky (Berkley, 2004), p. 264.

البَاحِثُون بـ «القنبلةِ الذَّرية للعواطف»،[192] وبينوا العَواقب الوَخيمة المُتَرتبة على التعرض له مثل أنواع الكآبة والمَيول الإنتِحارية والاضّطِراب العقلي والسخط والقلق الشديد، وأيضًا بَعض خصائص اِضطِراب ما بعد الصّدمة.[193] وصف جيمس غيليغان، الخبير بِالعُنف الإجرامي، تَجربة الإذلال بِأنها "إبادة للذات".[194] إذ أرشَدتهُ العُقُود الثَّلاثة من البحث في مسببات العُنف في السجون ومَشافيها إلى «حقيقةٍ نفسيةٍ تَتَجلى في أن واحدًا تلَو الآخر من نزلاء السجون الأَعنف والأَشرس الذين عملت معهم سَنوات طوالٍ كانوا يَصِفون لي الإذلال المُنتظم الذي تَعرَّضوا له في سَنَوات طُفولتهم.»[195]

يَفترِضُ منطقُ لعبة المكانة أن الإذلال (وبدرجة أقل الخزي والعَار، الذي يُمكن وصفه بِالتجربة الخاصَّة للإذلال، أو الإِحساس بِأن الجمهور المُتخيل في رؤوسنا يحكم علينا بأننا فظيعون وبشعون) لا بد من أنْ يكون كارثيًا بمعنى الكَلمة. الإذلال، من وجهة نظر عالميَ النفس، ريموند بيرجنر ووالتر توريس، هو التجريد المُطلق من المكانة، والقُدرة على المُطالبة بها.[196] ارتأى العالِمان وجود أربعةِ شروط مسبقةٍ في حادثة ما لكي تُوصف بالمُذلة. إذ يجب، أوّلًا، أنْ نؤمن، مثلما يفعل الأغلبية منا، بِأننا نستحق التنعم بالمَكانة، وثانيًا، وقوع هذه الحوادث في العَلن؛ وثالثًا، يجب أن يَتصف مُمارس فعل الإذلال بمستوى متدنٍ من المكانة، وأخيرًا، الإقصاء الكَامل، أو، من وجهة نظرنا: «الطَّرد من لعبة المكانة والحِرمان

---

(192) 'Genocide, Humiliation, and Inferiority: AnInterdisciplinaryPerspective',EvelinGerda Lindner,2009,in*Genocides by the Oppressed: Subaltern Genocide in Theory and Practice*, edited by Nicholas A. Robins and Adam Jones, pp. 138–158.

(193) 'Humiliation: Its Nature and Consequences', Walter J. Torres, Raymond M. Bergner, *Journal of the American Academy of Psychiatry and the Law Online*, June 2010, 38 (2) 195–204.

(194) المصدر نفسه.

(195) 'Shame, Guilt,andViolence',J.Gilligan,*SocialResearch*,2003,70(4),1149–1180.

(196) 'Humiliation: Its Nature and Consequences', Walter J. Torres, Raymond M. Bergner, *Journal of the American Academy of Psychiatry and the Law Online*, June 2010, 38 (2) 195–204.

من المُطالبة بها.»

في حَالات الإذلال القصوى، نَتَدحرج تدحرجًا رهيبًا إلى المَراتب الدنيا إلى حد يرى الآخرون معه بِأننا لم نعد مُفيدين أو ملائمين للمشاركة في اللعبة. وهكذا، نتعرّض للإقصاء والنفي والإِلغاء، فتَنقطع علاقتنا بالأقارب. وعن ذلك، كتب [الباحثون]: «يتعذّر المُبالغة في وصف الطّبيعة الدقيقة لهذا الجانب»، و«عندما يقضي الإذلال على مكانة الأفراد، وَيَحول دون المطالبة بها، فإنه يَسلبهم، في الأَساس، الأهلِيَة لِاسترجاع المكانة التي فقدوها». وإذا كان البشر لَاعبين مُبرمَجين للسَعي إلى العلاقات والمكانة، فإن الإذلال يوجه إهانةً إلى اِحتياجاتهم الجَوهرية. وليس هناك ما يُمكننا فعله حِيال ذلك: «لقد فقدوا عمليًا الصّوت الذي ينادون به بمطالبهم في مُجتمعهم المحلي، وبالأخصّ الصّوت الذي يُمكِّنَهُم من تَقديم المُطالبات المُضادة بالإنابة عن أَنفسهم لِلتَخلص من الإذلال.» والطّريق الوَحيد أمامهم لِلتَعافي والنهوض هو العثور على لعبةٍ جديدةٍ حتى لو تَطَلبَ ذلك إعادة بِناء الحياة والذّات: «يجد كُثيرٌ من المُهانين أنهُ من الضّروري الِانتقال للعيش في مجتمعٍ محلي جديدٍ لِاستِعادة مكانتهم، أو إعادة بناء حَيَواتهم عُمُومًا».

لكن هناك خيارٌ آخر وَحيدٌ. يقول مثلٌ أفريقي: «إن الطّفلَ الذي لا تحتضنه القرية سَيَحرقها لكي يشعر بدفئها.» فإذا لَفظتك اللعبة، بوسعك الرّجوع مُهيمنًا بِوصفك إلهًا مُنتقمًا يستخدم العُنف المُميت لإجبار اللعبة على الاهتمام بك في تَواضعٍ وذلةٍ. أسهم العمل الذي كرّس له الأستاذ غيلغان حياتهُ إلى اِستنتاج مؤداه أن السبب الجوهري وراء الجزء الأكبر من العنف البشري هو «الرَّغبة في اِتقاء أو القَضاء على الشعور بالخِزي والمهانة واستبدالها بمقابلها: الشعور بالفَخر والِاعتزاز.»(197)

سيكون من السذاجة، بالطبع، القول إن إد وتيد واليوت كانوا مَدفوعين فيما

(197) 'Shame, Guilt, and Violence', J. Gilligan, *Social Research*, 2003, 70 (4), 1149–1180.

فعلوه بالرّد على الإذلال حصرًا. فإذا كان سَلبُ المكانة هو سببٌ يسيرٌ في التحول إلى القَتل الجَماعي، فإن جرائم من هذا النوع ستكون شائعةً. الأرجح هنا حضور عوامل مُسهمة إضافية. فإد وتيد واليوت رجالٌ، الشيء الذي يُسهم إسهامًا فاعلًا في تَعزيز اِحتمال سعيَهم إلى اِستِعادة مكانتهم المَهدورة بِوسائل عَنيفةٍ. يُقال إن اليوت روجر كان يعاني اِضطِراب طيف التوحد الذي يُرجح تأثيره في قدرته على إقامة علاقات الصّداقة مع الفِتيان والفَتيات؛[198] وزعم المعالج النفسي القَضائي أن إد كمبر يعاني فِصام الشخصية الهَذيانية (على الرّغم من بقاء هذا الجانب محل خلافٍ)؛[199] وذكر أخو تيد كازينسكي بِأنه، في إحدى المرّات: «أظهر مؤشرات على فِصام الشخصية.»[200] لكن لا واحد من هذه الظروف هو جوابٌ في ذاته؛ لأن الغالبية العظمى ممن يتحلون بها لم يَحرقوا قراهم.

وهذا هو ما حدث، إذ هاجم الثّلاثة كُلهم ألعاب المكانة التي شعروا بِأنهم مطرودون منها، وشددوا على هَيمنتهم على من أَذلهم. إذ أهانت الأم ابنها، إد كمبر، وسَخرت منه بِاعتقادها أن الفَتيات رَفِيعات المستوى في الجامعة لن يقبلنَ بِمواعدته أبدًا، فشرع في قتل هؤلاء الفَتيات، وتحول إلى «قاتل الطّالبات الجَامعيات» قبل أن ينهي مسيرَته بقتل أُمّهِ: «قَطَعتُ رأسها ومَثلتُ بجثتها.»[201] ثُم رميَت حنجرتها في جهاز التخلص من فَضلات الطّعام: «يبدو ما فعلته مُتَناسبًا مع مقدار ما وَجهته لي من إِهانات وشَتائم وصَرخات في السنوات السابقة.»[202] كَتَبَ المحلل النفسي في مكتب التحقيقات الفيدرالي عن حالة كمبر: «كان رجُلًا مُكلفًا بِمهمةٍ،[203] وخَاضَ تجارب مُذلةً مع النساء، وهو الآن يسعى بجديةٍ

(198) 'California killer's family struggled with money, court documents show', Alan Duke, CNN, 28 May 2014.

(199) Kemper's defence of insanity rested on this claim, which was disputed at trial by Dr Joel Fort.

(200) 'My Brother, the Unabomber', Michaela Haas, 25 February 2016, Medium.

(201) *Murder: No Apparent Motive*, HBO documentary, 1984.

(202) *Mindhunter*, John Douglas (Random House, 2017), p. 108.

(203) المصدر نفسه، ص 391.

لمعاقبة أكبر عددٍ منهن»، مضيفًا إلى ذلك: «أن كم لمْ يولد قاتلًا متسلسلًا، بل صُيِّرَ كذلك.»[204] وتَحول تيد كازينسكي، الذي تَعرض للإذلال على يد أستاذٍ مرموقٍ في الجَامعة إلى "مفجّر الجَامعات والطّائرات"، إذ كان يَستهدف الأولى في جزء من أعماله. لقد استولى دَماغهُ على مشاعر الاِستياء والتحقير وحولها إلى قصّةٍ كان هو بَطلُها. فشَن حربًا على الأَذكياء، والعالم الذي يصنعونه، وكَتَبَ أن عَصر التكنولوجيا وعواقبه كان «كَارِثةً على الجِنس البشري»، إذا جرد الحياة من الشعور بالرِّضا، وعَرضَ البشر إلى أنواع المهانات، وأدى إلى شُيوع المعاناة النفسية. وكانت حملةُ التفجير التي نَظمها بدايةً لثورةٍ ترمي إلى تَحرير الناس من اِستعباد النظام. طالبَ كازينسكي وحصلَ، في مقابل تعهده بالتوقف عن العُنف، على فرصة خوض تجربةٍ مذهلةٍ في مَهابتها وأهميتها؛ وهي نشر صحيفة الواشنطن بوست لكلمته عن شرور التحديث التي تَقع في خمس وثلاثين ألف كلمة.

ماذا عن اليوت روجر؟ في أَدناه ما كان يُريد قوله في السيرة الذَّاتية، المُوازية لِروايةٍ في طولها، التي وَزّعها قبل فورة هجومهِ القاتل: «كل هؤلاء الأطفال المَحبوبين الذين يعيشون حيوات مترعةً بالمُتعة واللذَّة في حين كان علي أن أتعفَّن وَحيدًا كل هذه السنوات. كُلهم كانوا ينظرون لي بِازدراء في كل مرّة كُنت أحاول الاِنضمام إليهم. كُلهم كانوا يُعاملونني مثل فأرٍ ... إذا لم يمنحني البشر مَكانًا مُعتبرًا جَديرًا بينهم، فإني سأُدمرهم كلهم. أنا أفضلُ منهم كُلهم. أنا إله. وإنزال العقاب هو وسيلتي لإثبات جَدارتي لِلعالم.» فطن البَاحِثون إلى أن الرَّفض الَاجتماعي الحاد أو المُزمن هو أحد العَوامل المُسهمة الرَّئيسة في 87٪ من حوادث إطلاق النار الجَماعي في المَدارس بين 1995 و 2003.[205]

مع ذلك، ثمَ عاملٌ أخيرٌ يربط معًا ثُلاثي التدمير هذا. إذ لم يخض روجر وكمبر وكازينسكي بِالفعل تَجربة إِذلال مُريعة فحسب، بل إنهم بَلَغوا قمَّةَ مرتفعٍ نَفسي

(204) المصدر نفسه، ص 114.

(205) 'Teasing, rejection, and violence: Case studies of the school shootings', M. Leary, R. M. Kowalski, L. Smith and S. Phillips, *Aggressive Behavior*, 2003, 29 202–214.

هائل سيَسقطون منه سُقوطًا مُدوِّيًا. كُلهم كانوا أذكياء-إذ سجل كمبر حاصل ذكاء بلغ 145، وهو مستوى يجعله قريبًا من العبقرية[206]- إضافةً إلى إحساسهم الوَاضح بالعَظمة، إذ تمَنى كازينسكي أن يَتزعّم ثورةً عالميةَ، وسيَرة روجر الذّاتية مُتخمةٌ بالشعور بِالجَدارة والنرجسية التي تَبرز في صفاتٍ شَخصيةٍ مثل: «جميل وسيَد محترم جليل.» وتمرغ كمبر متفاخرًا بالحَضيض الذي اِنحدر إليه؛ إذ كان يَستعرض نفسه مُتبخترًا في محطات الاِستراحة، ويُظهر أَصفاد يديه، ويَتكهن بحماسٍ بشأن التغطية الإعلامية، وذلك في أثناء الرَّحلة الطَّويلة مع رجال الشرطة في أعقاب القَبض عليه. بل يُقال إن اِعتِرافاته بأكل اللحم البشري، ومُضاجعة الموتى كانت تلفيقات كاذبة غايتها طلب المكانة.[207] كان الثّلاثة مُتعطّشين لبلوغ مكانة، وكانت حاجتهم إليها عنيفةً عنفًا مَرضيًا وغير مألوفةٍ، لذا، كانت أنواع التحقير والإهانات التي عانوها أكثر إيلامًا وأمضى تأثيرًا. كَتَبت ماريت سفندست، خبيرة الصّحة العقلية عن ذلك: «حتى أسهل الخلافات أو الإهانات من شَخصٍ مماثلٍ في المكانة أو من مكانة أعلى قد تكون كَافيةً لِشُعُور النرجسي بالإذلال.»[208] ولِشُعُورهم بأنهم جديرون بشغل موقعٍ في قمَّة اللعبة، نجدهم مدفوعين إلى الخِسة والحقارة بسبب حياتهم التي قضوها في القاع.

وهذا النمط، أي الذّكر والشعور بِالعَظَمة، والشعور بِالمهانة، واضحٌ أيضًا لدى مُرتكبي أفعال التدمير غير العنيفة ضد لَعبتهم. حلم روبرت هانسن في أن يُصبح جاسوسًا منذ الصِّغر،[209] وأَحب شَخصية جيمس بوند، وابتاع لنفسه مسدسًا نوع والذر بي بي كيَ ومذياعًا قَصير الموجة، وحتى فَتَح حسابًا بنكيًا في سويسرا.

---

(206) *Serial Killers*, Peter Vronsky (Berkley, 2004), p. 259. during a long drive with police officers: Kemper on Kemper, 2018 documentary.

(207) 'Kemper and Me', Katherine Ramsland, *Psychology Today*, 17 March 2018.

(208) *Humiliation*, Marit Svindseth and Paul Crawford (Emerald, 2019). Kindle location 822.

(209) اعتمدت في روايتي لقصة هانسن على:

Spy, David Wise (Random House, 2013).

لكن والد هانسن كان مؤذيًا ومُتعسفًا في مُعاملتهِ، إذ كان يسخر منه، ويحطّ من قدرهِ، ويُنزل به عقوبات غريبةً. قال المُعالج النفسي إن والدهُ: «كان يُجبرهُ على الجُلوس مُتباعد الساقَين بطريقةٍ ما؛ كان يُجبرهُ على الجُلوس في هذه الوَضعية المُذلة.» وأنواعُ الإِذلال والتحقير هذه لم تكن حَبيسة المنزل، بل اِنتقلت إلى خارجهِ أيضًا. في كُل مرّة يلتقي فيها والده بِوالدة أفضل أصدقائه، كان هناك: «على الدوام شيءٌ ما يَستخف ببوب ويَستَهين به. ومهما يفعل بوب، فإن ما يَفعَلهُ لن يكون صَحيحًا. لم أشاهد أبًا مثله. لم تكن لديه كلمةٌ لطيفةٌ واحدةٌ يقولها لطفلهِ الوحيد.» واستمر الإذلال والتحقير حتى بعد بلوغ هانسن وزواجهِ. كان يخشى النزول إلى الأسفل حينما زاره والداه لِتناول العَشاء في منزله: «بدأ يشعر بتوعكٍ في معدتهِ، ولم يكن بقدرتهِ النظر إلى أبيهِ في أثناء جلوسهما إلى المائدة.» وفي الخِتام، قالت زوجته [بوني]: «إذا كُنت موجودًا تحت هذا السَقف، وإذا لم يكن باستطاعتك أن تتصرف باحترامٍ مع بوب، إذن، قدومك إلى هنا غير مُرحب به.»

مع ذلك، كانت حاجةُ هانسن إلى المكانة مُلحةً. إذ أصبح عضوًا «متعصبًا دينيًا ومُلتزمًا ومتحمسًا» في الكَنيسة الكَاثوليكية، وجزءًا من الأوبس داي (Opus Dei) أو حبرية الصّليب المقدس الخَاضعة لِسُلطة الأسقُف الشخصية، وإنضم إلى مكتب التحقيقات الفيدرالي في 1976 أملًا منه في أنْ يعيش حياةً من الإثارة المُهابة بوصفه عَميلًا في وحدة مكافحة الاستخبارات، لكن حلمه بأداء أدوار مَهيبة مثل هذه دائمًا ما كان يُجهض. وحسبما قال مُترجم سيَرتهِ، كان هانسن يجد نفسه على الدوام في المَواقع الخلفية: إنه «يُشاهد ويَرصُد من مسافات بعيدةٍ بينما يؤدي الآخرون أعمالًا أكثر إثارةً وتشويقًا.» كان الرّأي بهانسن أنه "فائق الذكاء" بمهارات تِقنية قوية، لكنه كان يَعكس في شخصيتهِ إحساسًا بالتفوق وصُعوبة المراس مُضافًا إلى ما يحملهُ من «تعبيرٍ متهكّمٍ في وجهه. لم يكن يُطيق الحَمقى. وكان يقول لِنفسه: "لمَ يجب علي أن أنزل إلى مستواهم؟"» اتصل هانسن في عام 1979 بالاتحاد السوفياتي عارضًا أنْ يعمل جاسوسًا لهم، واستمر في ذلك حتى

إلقاء القَبض عليه في 2001 بعدما سرّب آلاف من الوَثائق فائِقة السرية إلى جهاز الاستخبارات الرّوسي، وكشف عن العديد من الجَواسيس العاملين لصالح أميركا الذين أُعدم بعضهم. هانسن هو الجَاسوس الأشد ضررًا في التاريخ الأمريكي. وقال معالجه النفسي بعد محاكمتهِ: «إذا كان عليَّ أن اختار سَببا نفسيا أساسيا لِعمله في الجاسوسية، فساختار التجربة التي خاضها في علاقتهِ بوالده.»

والإذلال هو السبب الرَّئيس في جَرائم الشرف أيضًا[210] التي تتآمر فيها الأُسرة لِقتل شخصٍ تعتقد بِأنه جلب العار لها بِانتِهاكه لقواعد اللعبة ورُمُوزها؛ ويتجلى ذلك في العادة في سلوكٍ يتعلق بالنشاط الجنسي أو الظّهور بمظهر "غربي للغاية".[211] يسود الاعتقاد في بعضٍ بيئات المُسلمين والهندوس والسيخ أن قتل المُخطئات المَزعومات هي الوسيلة الوحيدة لِاستعادة مكانة الأسرة المَهدورة. من المحتمل أن الضّحايا قد رفضنَ الزيجات المُرتبة، أو مَارسن الجنس أو ارتبطن بعلاقةٍ عاطفيةٍ قبل الزّواج أو طَلبن الطّلاق، أو ربّما كُن يرغبن في التخلي عن عَقيدتهن الدينية والتحول عنها. تقع بعض حوادث القتل نتيجةً للوقوع ضَحية اِغتصابٍ أو ارتداء الجواهر، والضّحايا هم من النساء غالبًا، وأحيانًا يكون الضّحايا من الشواذ، وما يدعو لِلدهشة هنا تَنوُّع النوع الاجتماعي للمُعتدين. وجدت دراسةٌ - وإن كانت صغيرةً - شملت إحدى وثلاثين حالة قتلٍ في أوروبا وآسيا أجراها الأستاذ المتمرس في علم النفس، فيلس جسلر أن النساء كُن «شريكات في القتل» في 39٪ من الحالات، ومتآمرات شريكات في 61٪ منها.[212] والهند هي الِاستثناء لذلك، إذ كانت النساء هن القاتلات في جميع الحالات. يقول جسلر إن المجتمعَ المحلي ينظر إلى أفراد الأُسر التي ترتكب جريمة القتل بوصفهم «أبطالًا».[213] وعلى الرّغم من تباين الإحصائيات، إلا أن تقدير

---

(210) *Behave*, Robert Sapolsky (Vintage, 2017), p. 288.

(211) 'When Women Commit Honor Killings', Phyllis Chesler, *Middle East Quarterly*, Fall edition.

(212) المصدر نفسه.

(213) 'Honor Killing Is Not Just A Muslim Problem', Phyllis Chesler, *Tablet*, 16 April 2018.

الأمم المُتحدة البالغ قرابة الخمسة آلاف سنويًا من حالات القتل هذه هو تقديرٌ مُتحفظٌ.[214]

وإحدى مخاطر قراءة الحالات المُتطرِّفة هو شُعُورنا نحن البَشر الطّبيعيون بأننا غير مشمولين بالدروس المُستَخلصة منها. ومع ذلك، من المُحتمل أن يَجد القُرَّاء النابِهون صورهُم الجانبية في ظِلال هذه الحالات الشاخِصة. تُلمح الدراسات المَسحية إلى فَظاعة الألم الذي يُمكن أن تُسببه حوادث الإذلال لِلناس العاديين، وتُشير إلى قدرة هذه الحوادث على اِستحضار الشياطين في داخلهم، وهذا ما كَشفت عنه إحدى الدراسات التي اعترف فيها 59٪ من الرِّجال و45٪ من النساء بِتفكيرهم بالقتل انتقامًا لحوادث من هذا النوع.[215] وقد يَعترض آخرون جملةً وتَفصيلًا على محاولات فهم هذا النوع من الأفعال المُريعة مثلما لو أن قيامنا بذلك هو، إلى حدٍ ما، ترخيصٌ بِارتكابها. ربّما تكون لغة اللوم والمُسامحة ملائمةً للمَحاكم والكَنائس والمُتضررين تَضررًا مُباشرًا من هذه الأفعال، إلا أننا سَنغدو أقل فائدةً وقدرةً على تحديد المخاطر واقتراح سُبل الوقاية مِنها.

أخذ الناس يبحثون عن السبب في وَحشية اليوت روجر بعد قتله أربعة رِجالٍ وامرأتين فضلًا عن اِصابته أربعة عشر آخرين في 2014. ما القوّة الشيطانيَة التي بِوسعها حرفِ رحلة حياة روجر عن مسارها بهذا العنف؟ حدد المُعلقون، من مثل المُعلق السياسي والمُنتج التلفزيوني، غلن بك من جهةٍ، وصولًا إلى مجلة فايز (Vice) من جهةٍ أخرى، سريعًا هذه القوّة في هَوسه بِعالم الألعاب الحربية الحَاسوبية. قال بك: «الرجاء، أصغِ لي. عليك إبعاد ألعاب الفيديو عن متناول يد طفلك»[216] «لا يُمكنهم التعامل معها. إنها تختلف عن لعبة باك مان اليابانية. هذه

---

(214) ترفع جماعات الضغط هذا العدد إلى عشرين ألفًا.

Behave, Robert Sapolsky (Vintage, 2017), p. 290.

(215) *EvolutionaryPsychology*, David Buss (Routledge, 2015), p. 310.

(216) 'Elliot Rodger's Violent Video Games Like World Of Warcraft To Blame For The Santa Barbara Shooting, Says Glenn Beck', Patrick Frye, *The Inquisitr*, 30 May 2014.

الألعاب الحربية هي عوالم اِفتراضية يعيش الأطفال فيها». وبالمثل، تحدثت مجلة فايز عن «دَورة اللعب المُسببة للإدمان» التي تأخذ اللاعبين بعيدًا عن «تنمية التواصل مع الناس، والحبّ والطُّموح الاِجتماعي.»[217] لكن ثمّة مشكلةٌ في هذه القصص، وهي مشكلةٌ واضحةٌ في السيرة الذاتية لروجر الواقعة في مائة وثمانية آلاف كلمة.

عالمي الملتوي: قصة اليوت روجر وثيقةٌ مذهلةٌ. إذ يروي هذا الكتاب، الأخَاذ والمُرعب، بتفصيلٍ شائقٍ ومُترابطٍ، قصة انحداره من طُفولةٍ مباركةٍ "سعيدة" إلى مرحلة بلوغ قوامها الرّفض والكَراهِية والاختبال المُدمر. وشُعُور اليوت المُتضخّم بالحاجة إلى المكانة حاضرٌ منذ البداية. إذ نعلم أن والده ينحدر من "أسرة روجر المُحترمة" في حين كان لِأمّه «علاقات صداقة مع شخصيات مهمةٍ للغاية من قطاع صِناعة الأفلام، من بينهم جورج لوكاس وستيفن سبيلبيرغ.» كانت الحياة سعيدةً في جوهرها، باستثناء طلاق والديه حتى اكتشافه بِأنه يُصبح أقصر وأضعف من زُمَلائه في الصَّفّ. وعن هذا، قال اليوت: «طالما أغاظني ذلك.» كانت السنوات بين التاسعة والثَّلاثة عشر هي «سَنوات الرّضا والاِرتياح الأَخيرة» في حياة روجر. إذ بدأ، في حياته الاجتماعية، برصد «السلاسل الهرمية، ولحظ أن بعض الأفراد أَفضل من غيرهم ... وفي المدرسة أيضًا، كان هناك على الدوام "الأطفال الرّائعون" الذين يبدون أروع من أي شخصٍ آخر». وفَطَنَ روجر إلى أنه "لم يَكن رائعًا أبدًا. كانت تَسريحة شعري مُضحكةً وغير عصرية، وملابسي عادية وغير جذابة، وكنت خجولًا وغير محبوب... وفوق كل ذلك، هناك الشعور بالاِختلاف بسبب عرقي المُختلط». سيختلف كل شيء بعد هذا الإدراك: «ذَهبت إلى غير رجعةٍ بيئة الطُّفُولة المُسالمة والبَريئة حيث الجميع مُتَساوون. كان وقت اللعب الجميل يوشك أن ينتهي.»

حاول روجر أن يكون "جذابًا ومحبوبًا" عندما كان صبيًا عن طريق تعلم

(217) 'A Day at the First Video Game Rehab Clinic in the US', Jagger Gravning, 18 June 2014.

التزلج. لكن قواعد اللعب لا تبقى على حالها، إذ تغيرت مع بلوغه سن الشباب: والشيء "الرّائع" الذي يَجب عليه أن يفعله الآن هو النجاح في كسب ودَ الفَتيات. *كيف، بحقّ الجحيم، سأفعل ذلك*؟ وجد روجر نفسه مَنبوذًا وعرضةً للتنمّر: «لم أكن أحظى بشعبيةٍ مطلقًا، كُنت مكروهًا على نطاقٍ واسعٍ. كانوا ينظرون لي بوصفي الطّفل الأَغرب». لكنه وجدَ مُغيثًا له في الألعاب الحاسُوبية التي يلتقي فيها مع آخرين يُشاركهم اللعب في مقهى إنترنت حيث يبقى عَالقا حتى الثّالثة فجرًا في بعض الأحيان: «كُنت أشعر بِالكثير من السعادة والمرح خارج المدرسة مع أصدقائي في مقهى سايبر بلانت حتى لم يكن يَعنيني في الواقع أن أحظى بالشعبية أو لفت انتباه الفَتيات.» وعندما اكتشف لعبة "عالم الحرب" التي تَسمح للاعبين بالتجمع إلكترونيا وتنفيذ مهامٍ: «شدتني اللعبة إليها. كانت أوّل تَجربة لي معها أشبه بدخول عالمٍ آخر من الإثارة والمُغامرة ... كان الأمر أشبه بعيش حياة أخرى.» أصبح روجر مَهووسًا باللعبة: «كُنت أُخفي نفسي بعيدًا في لعبة "عالم الحرب" الإلكترونية، إنها المكان الذي أشعر فيه بالرَّاحة والاِطمِئنان.»

وفي أثناء ذلك، كان نُمو الدافع الجنسي في داخل روجر هائلًا وضاغطًا. وبسبب شعوره بالذّعر من الفتيات، ورغبته في نيل استحسانهن في الوقت نفسه، قضى روجر سَنوات مراهقته في عذابٍ ممضٍ ذَاهلٍ. ولذا، توسل إلى والديه لِكيلا يُرسلانه إلى مدرسةٍ مختلطةٍ. كان أقرانه يسخرون منه، ويرمون الطّعام عليه، ويَسرقون متعلقاته الشخصية. وكان يقضي كل دقيقةٍ مُمكنةٍ في ممارسة لعبة «عالم الحرب»، إذ نال مكانةً مرموقةً ببلوغه أعلى مستوى فيها، وهو «إنجازٌ عظيمٌ ومهمٌ» بالنسبة له. وكان الأولاد الثّلاثة الذين يشترك معهم في اللعبة «أقرب شيء إلى مجموعة الأصدقاء حظيَت به.» إلا أن روجر اكتشف اكتشافًا خطيرًا هو أن هؤلاء الأصدقاء كانوا كثيرًا ما يَلتقون سرًا كي يتمكنوا من اللعب بدونه. وهو شيءٌ قال عنه: «كُنت منبوذًا ووحيدًا وغير مرغوبٍ به حتى في هذه اللعبة.» ولِذا، بدأ يَشعرُ بِالوحدة حتى في أثناء اللعب، وكان يَنهار باكيًا أحيانًا: «بدأت بسؤال

نفسي عن جدوى ممارسة هذه اللعبة.» لذا، كفّ عن المُشاركة فيها.

وتلا ذلك، حدوث تغير ما. إذ ظَهر روجر، حتى هذه النقطة، بمظهر المحتار والتعيس والمُغتاظ، وكان مكروهًا أيضًا، إذ تحوّل خوفه من النساء إلى كراهيةٍ شديدةٍ لهن، ثُم امتد مقته لهن إلى الرِّجال «الرّائعين» الذين اختارت النساء مواعدتهم. ومما يؤسف له أن الكَارهين للنساء الغَاضبين غير نادرين. لكن القيامة لم تقم في أفكار جورج إلا بعد فقده مصدر التواصل والمكانة: «شرعت أوهام القوَّة الفائقة، وفكرة منع الجميع من ممارسة العِلاقة الحميمة في مراودتي. وكانت هذه نقطة تحولٍ رئيسةٍ.» تَحدث روجر إلى آخر صديقٍ لازمه، في آخر يوم شارك فيه في اللعبة، عن «آرائه المُكتشفة حديثًا...يَجب القضاء على ممارسة العلاقة الحميمة.»

استولى دماغ روجر على مشاعر الإِستياء والتحقير، وحَولها إلى قصةٍ أدى فيها دور البطولة. تروي القصَّة أن السبب في معاناته هن النساء اللاتي يُمثلن «كل ما هو ظالم ومُجحف في هذا العالم ... ويتحكمن بِمن يحصل على [الجنس] من الرّجال، ومنْ يُحرم منه»، وإنهن «سيقفنَ عائقًا أمام تقدم الجنس البشري» لِأنهن يخترن على الدوام «الأغبياء والمُنحلين والكَريهين». تخيل روجر «أيديولوجيا نِهائية ومِثالية تخصُّ الطّريقة التي سيعمل على وفقها عالمٌ عادلٌ ونقيٌ.» في هذا العالم، ستُجرم ممارسة العِلاقة الحميمة، ويُقضى على النساء، مع الإبقاء على بعضهن ابتغاء التكاثر عن طَريق التلقيح الصّناعي. وتَعامل روجر مع هذه الرؤى القَبيحة بوصفها دليلًا على تَفوقه: «أنظرُ إلى العالم بمنظورٍ يختلف عن أي شخصٍ آخرٍ. لا بد من أن العظمة هي قدري بِسبب كل أنواع الظلم التي عانيتها، ورؤية العالم التي وضعتها على أثر ذلك.» وفي هذا الحُلم الذي نسج خيوطه دماغه فَتاه فيه روجر، كانت كَراهية النساء فعلًا صَحيحًا وصَالحًا: «كل ما تمنيتهُ في حياتي أن أحبَّ النساء، وأن يبادلنني الحُب. وسلوكهن معي لم يكسبهن سِوى عداوتي وكَراهيتي، عن استحقاقٍ! أنا الضّحية الحقيقي في كل ما جرى. أنا رجلٌ صالحٌ.»

كان روجر في السابعة عشر من عمره، وفي السنوات الخمس التالية حتى فورة القتل التي دهمتهُ، كفّ روجر عمليًا عن المشاركة في اللعبة الإلكترونية، فيما عدا بعض المرّات المتفرقة. هاجَ وماجَ، في الوقت نفسه، الشعُور بالبؤس والمقت والاختبال الذي ألم به. كان لعبة «عالم الحرب» المكان الوحيد الذي يشعر فيه بقيمته. كانت لعبة مكانة تفوق فيها على الآخرين. لم تكن هذه اللعبة قطّ هي السبب في جنونه، بل كانت، على الأرجح، الشيء الأَخير الذي يبقيه عاقلًا.

الفصل التاسع

غير القواعد، غير اللاعب

لماذا يعدو الناس عدوًا سريعًا؟ من أمثال العدَاء محمد فرح، ما الجدوى؟ ولماذا يَستثمر الناس مقدارًا وافرًا من المال والوقت، وعدم الرّاحة في مشاهدة هؤلاء العدَائين فائقي السرعة؟ يبدو أن هؤلاء الناس، في تحديقهم وصُراخهم من مقاعدهم الدلوية البلاستيكية في هذه المَيادين الخرسانية المروعة، يُولُون أهميةً كبيرةً لِعدد المليمترات في الثّانية التي ركض فيها هذا العدَاء أسرع من غيره. ما السبب؟ وبما أننا نتحدث عن هذا الموضوع، ما الجدوى من لعب كُرة القدَم؟ وما نفع لعبة الشطرنج؟ وما المغزى من الألعاب الحاسوبية؟ كل هذه الساعات التي نقضيها في أسِرّتنا في ضغط الأزرار. بأية طريقة يجعلك ذلك شخصًا أفضل؟ ما دور ذلك في دفعك إلى المضي في رحلة الحياة البطولية؟ وعلى شاكلة اليوت روجر- لمَ أصبح مهووسًا بلعبة «عالم الحرب»؟ هل السبب في ذلك هو رغبته في القتل؟ أم لأنه كان وحشًا؟

لعبة «عالم الحرب» هي ماكينة مولدة للمكانة، إذ قدمت لروجر عالمًا بديلًا يُمكن لنسخةٍ من ذاتهِ أنْ تلعب فيه، فشيد حياةً خاصة به هناك، ومارس ألعاب الهيمنة والنجاح وازدهرت أحواله، وهذه هي الطّريقة التي تعمل بها جميع الألعاب التي يُشارك فيها الناس: عن طريق استثمار الشبكة العَصبية الحيوية التي تطوّرت لممارسة لعبة المكانة، التي هي اللعبة الأصلية، واللعبة الأعظم على الإطلاق. يتنافس الرّياضيَون والمُلاكمون والسبّاحون ولاعبو كرة القاعدة

والشطرنج وكرة القدم والمشاركون في مسابقات تلفزيون الواقع كّلهم على المكانة في عوالم مُتخيلة من القَوَاعِد والرّموز. ويُمارس الناس الألعاب المُفردة، مثل الكلمات المتقاطعة أمام جمهورٍ متخيلٍ يعيش في رؤوسهم، إذ نئن من الألم ونهتف فرحين في داخلنا مع كل فشلٍ أو نَجاحٍ. وتُضاف بَعض التعديلات الذّكية إلى قواعد الألعاب التي نُمارسها من أجل الِاستمتاع ابتغاء مضاعفة قدرتها على الإثارة والتشويق. وهذه الألعاب محدودة الوقت في العادة، إذ يُمارسها اللاعبون في وقت معلوم البِداية والنِهاية، أو أنهم يُكلفون بمهمةٍ أو معركةٍ يجب الانتهاء منها؛ والواضح أنها لعبة غالب ومغلوب، إذ يتعين على المتنافس بلوغ هدفٍ محددٍ على حساب المُتنافسين الآخرين، وأيضًا تعتمد على التصنيف الرّسمي للمراتب التي يجري على وفقها تحديد موقع كل لاعبٍ أو فريقٍ بعد تسجيل النقاط التي أحرزها بدقةٍ، وإعلانها على الملأ. لكن الألعاب التي نمارسها في حياتنا اليومية لا تحتوي في العادة على هذه الخصائص، بل تَميلُ إلى أن تكون مفتوحة النهاية، إذ تستمر طالما استمرت علاقاتنا بِشركائنا اللاعبين. وموقعنا فيها، بالنظر إلى تَغيرها من دقيقةٍ إلى أخرى، ومن يومٍ إلى آخر، ليس ثابتًا في مرتبةٍ محددةٍ تحديدًا دقيقًا ولا مُعلنًا على الملأ. بل إنها مرتبةٌ يحسها الناس، ويقرؤها نظام تعقب المكانة في الإشارات المتوفّرة في عالم الرّموز المغمورين فيه. يعني هذا أن من الممكن أنْ تحضر لقاء عمل بوصفك عضوًا مُتدني المكانة في فريقٍ، فتقدم فيه فكرةً مُدهشةً في فائدتها، فتُكافئ رمزيًا بالاهتمام والإشادة والقُدرة على التأثير، فتُغادر الاجتماع منتشيًا بالشعور بأنك في قمّة العالم. قد لا نكون رقم واحد، لكننا نشعر أننا كذلك. وحتى لو كُنا نحظى بلقبٍ وظيفي وتدرجٍ في الأجر أيضًا، فهذه الأشياء ليست حُكمًا دقيقًا وقاطعًا على شاكلة المَرتبة التي تدل عليها النقاط في لوحة التسجيل في مضمار السباق الرَّياضي. وإذا كانت لقاءات الأعمال تدور في هذا الفَلك، بمكان واحدٍ للفائز يتنافس عليه الجميع، وبإِعلانٍ عن مستويات الأداء في شاشةٍ ساطعة الأضواء بقدرة الجميع مشاهدتها، حسنًا، يُمكنك تخيل ما سَيحدث.

لا تتطلب ألعاب المكانة التي يُمارسها الناس مُمارسةً طبيعيةً تعديلات مثل هذه كي تؤدي وَظائفها. إذ بوسع مكافآت رَمزيةٍ يَسيرةٍ من زملائنا اللاعبين أنْ تَدفعنا وتَحثنا على تحقيق إنجازات أعظم، مع تقييم ارتقائنا إلى مراتب أعلى بوصفه اِعترافًا باستِحقاقنا وجدارتنا لا بوصفه مؤشّرًا على تغلبنا على الكثير من الأَعداء. وهذه المشاعر الإيجابية النابعة من الجَماعة مهمةٌ وأساسيةٌ: في لعبة جرَ الحبل، عندما يكون الأداء الفردي متواريًا، يسحب المشاركون بمقدار يصل إلى نصف المقدار الذي يبذلونه عندما يلعبون مُنفردين، لكنهم يُكثفون جهودهم مع تعالي الهُتافات المُشجعة لهم. ويصدقُ الحال ذاته على العَدائين وراكبي الدرَّاجات الذّين يتحسن أداؤهم بحضور جمهور مشجع يُقدرُ ما يفعلونه.[218]

ونظام اللياقة البَدنية، كروس فت، المعروف عالميا، هو أحد أكثر ألعاب المكانة، التي مرَت علي، نجاحًا. استثمرت اللعبة، التي تأسست في الولايات المُتحدة في العام 2000، استثمارًا رائعًا الرَّغبة بالتواصل والمكانة لدفع أعضائها إلى حالةٍ شبيهةٍ بالإدمان في بعض الأحيان. يحضر ممارسو اللياقة البدنية الجَلسات في "صالة" محلية يشاركون فيها في تَدريبات رياضية يومية محددة، مع التغيير الدائم لِأنواع الأَنشطة الرِّياضية عالية الكَثافة كي تُلائم مستوى لياقة كل عضوٍ من الأعضاء. أي أن هؤلاء المُمارسين غير مُضطرين للتنافس فيما بينهم (مع أن ذلك مُتاحٌ لهم لو رَغبوا بذلك)، بل عليهم الارتقاء بِأدائهم كي يتجاوزوا المُستويات السابقة. وما يَعنينا هنا هو أنهم يفعلون ذلك مُحاطين بِزُملائهم الذين يتابعون التقدم الذي يُحققه بعضهم بعضًا، ويهتفون تشجيعًا لهم على الاستمرار. ولا تحظ المكانة في تدريبات اللياقة البدنية هذه بحراسةِ غيورةٍ يفرضها أفراد يتقاتلون على موقع صفْري المَكسب على رقعة زعيم أوحد، بل إنها تُغدق على أي لاعبٍ يجد ويسعى.

لاحظت الدراسات أن مُمارسي اللياقة البدنية يَتمتعون بـ «مستويات أعلى من

(218) *The Self Illusion*, Bruce Hood (Constable, 2011), pp. 135–136.

التواصل الاجتماعي والانتماء المُجتمعي» موازنةً بمرتادي صالات الرِّياضة التقليدية. وذكرت دراسة أخرى في 2021 أنهم مندفعون بشدةٍ بـ «رأس المال الاِجتماعي» و«الصَّداقة المَتينة» التي توفّرها التدريبات، إذ أوضح أحد المستجيبين أنهم «يُكملون بعضهم بعضًا في مجال الإنجاز، وكُل ما يتصل به من أمور وأشياء. تَستهويني حقيقة الهُتافات المُشجعة التي يُغدقها المشاركون على زُملائهم طوال الوقت في كل مرّة يصارعون فيها من أجل الاِنتهاء من تدريب يومي أو مُرورهم بيومٍ عَصيبٍ أو معاناتهم من قسوة التدريبات.»[219]

ويُرجح أن ديناميات ألعاب المكانة مُتقنة التنظيم والإدارة قد برعت في أداء وظائفها في الماضي أيضًا. يُشتهر ممارسو اللياقة البدنية بالولاء الذّي يصل حد العِبادة لمجموعاتهم، وبحرصهم على المُضي بما يفعلونه إلى الحدود القصوى: في "التميمة غير الرّسمية" الشعبية، ثمَ مهرجُ رسوم هزلية اسمه العم ربيدو دائمًا ما يظهر متهالكًا أشعثًا خائر القوى إلى جانب جهاز غسيل كلى ومعدات تَدريب رِياضية في حين تظهرُ إحدى كليتيه ملقاةً على الأرض.[220] و«ربيدو» هو اختصار لُمتلازمة انحلال الرّبيدات أو انحلال العضلات المُخططة الهَيكلية، وهي حالة سريرية قاتلة على الأغلب تقع على الأرجح بسبب الإفراط في التمارين الرِّياضية الذي يؤدي إلى تَحلل خلايا العَضَلات. وثمَة تميمةُ مهرج ثانٍ هو «بوكي» يطل علينا بتيارٍ من قيء أخضر اللون مندلقًا من فمه بسبب الإجهاد المُفرط.[221]

ومجموعات اللياقة البدنية، إضافةً إلى ذلك، صغيرةٌ نسبيًا، إذ تضمُ في العادة من ثلاثة عشر إلى ثمانية عشر عضوًا.[222] والحجمُ الصغيرُ نسبيًا هو إحدى الخَصائص الأخرى لألعاب المَكانة السليمة. كان عدد أفراد المجموعات الفرعية القبلية التي

---

(219) Lautner, S. C., Patterson, M. S., Spadine, M. N., Boswell, T. G. and Heinrich, K. M. (2021), 'Exploring the social side of CrossFit: a qualitative study', Mental Health and Social Inclusion, Vol. 25 No. 1, pp. 63–75. https://doi.org/10.1108/MHSI-08-2020-0051.

(220) CrossFit's Dirty Little Secret, Eric Roberston, Medium, 20 Sept 2013.

(221) 71 Terms You Should Know, https://wodreview.com/crossfit-glossary.

(222) https://www.livestrong.com/article/13730816-crossfit-statistics/.

نَقضي الجزء الأكبر من وقتنا معها في العصر الحَجري يتراوح من خمسة وعشرين إلى ثلاثين عضوًا في الغالب، وأَكثريتهم هم أفراد في أُسرٍ مُمتدةٍ.[223] وقد عَلمنا بوجود تقسيمات حتى في داخل هذه المجموعات الفرعية: إذ يتنافس الرّجال بشدَةٍ فيما بينهم على المكانة، وتُقلدهم في ذلك النساء. وثمَة، ضمن النوع الاِجتماعي، تقسيمات إضافية تخصُّ العمرَ ومجالات الكِفاية المُتَخصِّصة: فهناك مُتعقِّب الأثر والمعالج ومكتشف العَسَل وراوي القِصَص. وهذا هو السبب في أن الجميع لا يشعرون مثلما لو أنهم يسعون إلى المكانة على حساب الآخرين في العالم لأنه إذا شعر كل واحدٍ من سُكان الكُرة الأرضية البالغ عددهم سبعة مليارات، في صَبيحة الغد، أنهم قد دخلوا في تنافسٍ شخصي مع ميشيل أوباما أو ملك تايلندا، فسَينتهي الأمر، على الأغلب، إلى انهيار عصبي عالمي. فَهَمَ الباحثون أن السعادة لا ترتبط ارتباطًا وثيقًا بِمكانتنا الاجتماعية-الاقتصادية التي تكشف عن منزلتنا موازنة بالآخرين في المجتمع كله، بما فيها الطبقة [الاجتماعية]. الواقع أن ألعابنا الأصغر أهم، إذ «كشفت الدراسات أن الاحترام والإعجاب اللذين نحظى بهما في داخل جماعتنا المحلية هما من يتنبأن بِرخائنا الشخصي، لا مكانتنا الاجتماعية-الاقتصادية.»[224]

إن نُزوعنا الطّبيعي إلى الاشتراك في ألعابٍ صغيرةٍ محلية مرصودٌ في الوحدات القتالية في الحرب، إذ يميلُ الجنود إلى الاندفاع متأثرين بالرّغبة في التواصل مع رِفاقهم في السلاح والتمتع بإعجابهم، وأيضًا بالشعور بالإثارة البِدائية المُقترنة بلعبة الهيمنة بمعدلٍ أكبر من تأثرهم بالأهداف البَعيدة لِزعيمهم الوطني. يرى الدكتور مايك مارتن، الباحث في قضايا العُنف والضّابط السابق في الجيش البريطاني، أن القتال في أفغانستان كان «بسهولةٍ وبشكلٍ قاطعٍ، التدفق الأعلى

(223) هامش مؤكد للحقيقة، وليم بكنر.

(224) 'The Emotional Underpinnings of Social Status', Conor Steckler and Jessica Tracy, *The Psychology of Social Status*, pp. 347–362, 10.1007/978-1-4939-0867-7_10.

للمشاعر الإيجابية الذي غمره في حياتهِ كلها.»[225] «إن القتال الذي تحاول في أثنائه مع مجموعةٍ صغيرةٍ من البشر أن تتغلب على جماعةٍ أخرى وتتفوق عليها في المُناورة وسَعة الحيلَة، وتفعل هيَ الشيء ذاته معك ... هذا القتالُ هو الرّياضة الجماعية الجوهرية». «تلحظ الدراسات المَعنية بالجنود دائمًا أن دافعهم الأساس ليس مَصدره المَلِك أو المَلِكة أو البلد، بل رفاقهم الأقرب إليهم. ولاحظت الدراسات أن القيَم السياسية، حتى في حالة المُقاتلين النازيين، تؤدي دورًا ثانويا للغاية في إدامة دَافعهم لِلقِتال».[226]

لا يَتنافسُ هؤلاء الجُنود فيما بينهم، بل يُحاربون عدوًّا مشتركًا. ولن تؤدي ألعاب المكانة مهامها على النحو الأمثل بدفع حدَة التنافس إلى الحد الأقصى بين اللاعبين. والدراسات عن هذا الموضوع متباينةٌ،[227] مع شيوع الاعتقاد بِأن المُستَويات المُعتدلة من شأنها زيادة اليَقظة والإنتاجية.[228] إلا أن الإفراط في التنافس قد يؤدي إلى نتائج عكسية. فإذا طغت أجواء الكُل – ضد – الكُل القاسية على اللعبة، فإن اللاعبين قد يُدفعون إلى الكفّ عن مكافأة بعضهم بعضًا بالمكانة، وبالتالي إلى شحّة في الشعور بها. وربّما تمور الحَياة بالتوتر والبؤس في ظل ظروفٍ مثل هذه، ومن المحتمل أيضًا أن تؤدي إلى إفساد اللعبة.

نَشرت مجلة تايم، في حزيران 2001، تَقريرًا عن نظام تقييم أداء يَستند إلى «المُنافسة الشرِسة» في إحدى الشركات الأمريكية، يُقيم بِموجبِهِ أداء المُوظفين بناءً على درجات يُحددها الزُّملاء، ثمّ يوزّعون على مراتب مُتباينة، يحصل فيها الموظفون الأعلى تقييمًا ضمن فئة 5٪ على لقب «متفوق» في حين يواجه من هم ضمن نسبة 15٪ الأدنى خطر خَسارة وظائفهم. وَصفت المجلةُ ما يجري كَالآتي:

---

(225) *Why We Fight,* Mike Martin (Hurst & Company, 2018). Kindle location 704.
(226) *Not Born Yesterday,* Hugo Mercier (Princeton University Press, 2020), p. 130.
(227) 'Driven to Win: Rivalry, Motivation, and Performance', G. J. Kilduff, *Social Psychological and Personality Science,* 2014, 5 (8) 944–952.
(228) *The Weirdest People in the World,* Joseph Henrich (Penguin, 2020), p. 348.

«في جلسةٍ مُكثفةٍ تقليديةٍ، يجتمع ما لا يقل عن خمسة وعشرين مُديرًا حول طاولة اجتماعات في غرفة كتيمة مُزودة بشاشة حاسوب مزدحمة بمراتب الموظّفين المُجسمة على أحد الجُدران. يأتي كُل مشاركٍ متسلحًا بدفتر ملاحظات متخمٍ بمراجعات وظيفية. ومن المحتمل أن ينتقل المديرون، مع تَقدم المناقشات، من تدرجٍ إلى آخر، فيتَحدد مصيرُ الموظف بضغطةٍ على فأرة الحاسوب.» عَبَرَ مُعد التقرير عن قلقهِ من الدور الذي يُرجح أن تؤديه «أنظمة المُنافسة»، من أمثال «إمّا في العمل وإمّا في خارجه»، في «إثارة الشكّ وإحباط روح العَمل الجماعي.» دافع أحدُ المديرين عن هذا النظام مُبينًا: «عليك أن تعرف أينَ تقف، وأحسب أن النظام قد أدى عملًا ممتازًا في هذا المجال.» وكان من الصّعب إنكار حقيقة نَجاح الشركة؛ فهي سابعُ أكبر شركة في الولايات المُتحدة، بقيمة بلغت سبعين مليار دولار في أوج اِزدهارها.

لم تكد تمرّ أربعةُ أشهر على نشر المجلة تقريرها حتى أفلست الشركة، وخضع عددٌ من مُديريها التنفيذيين إلى المُحاكمة، مع مُواجهة جف سكلنغ، المُدير التنفيذي لِلشركة، قائمة اِتهامات من بينها التآمر والاحتيال في السندات المالية والتداول من الداخل، وصدر بحقّه، في النهاية، حكمٌ بالسجن مدة أربعة وعشرين عامًا. الحديث هنا عن شركة أنرون، التي تُعد أحيانًا إحدى أكثر الشركات المُساهمة فَسادًا في التَاريخ، بِثقافة التنافس الوَحشي الشرس التي تقع في قلب تهاويها وانحلالها.

الاِستراتيجية الأفضل هي اِستنهاض الخصومة التي تمتاز عن المُنافسة بتركيزها [على شيء محددٍ]. تقوم المنافسات على «العديد ضد العديد» في حين تميلُ الخصومة إلى الفردية، إذ يخاصم فردٌ فردًا آخرًا أو لعبةٌ لعبةً أخرى. تنشأ الخُصومات بمرور الوقت بين أطرافٍ يغلب على علاقتهم التشاحن، ويشتركون في تاريخٍ من

المناوشات الحادة والصّدامات الوَشيكة ومحاولات النجاة بأعجوبةٍ.[229] والخصومة بين الشركات هيَ الأعلى عندما يشتد التنافس بينها في المجال ذاته، وهي تَتَمتع بقوةٍ متوازنةٍ.[230] وفيما يبدو أنه صدى لماضينا الإقليمي الدامي أحيانًا القائم على الصّيد وجمع الثِّمار، فإنه حتى وجودنا قريبًا من أحدنا الآخر جغرافيًا ربّما يزيد من الخصومة فيما بين مؤسستين أو شَركتين.

إن قوّة الخُصُومة المُغيرة للعالم واضحةٌ في الحكاية الآتية من وادي السيلكون. بدأت الحكاية عندما قابل ستيف جوبز، المُديرُ التنفيذي لشركة آبل أحد المديرين التنفيذيين من شركة مايكروسوفت، الخصم التكنولوجي الذي طالما اشتبك معه جوبز في سلسلةٍ طويلةٍ من المعارك، والذي تمكّن في إحدى المرّات من الهيمنة على آبل إلى حدٍ كاد معه أن يدمّرها.[231] كان المُدير التنفيذي متزوجًا من إحدى صديقات لورين، زوجة جوبز، ولذا كان الرّجُلان يلتقيان بانتظامٍ. وعن ذلك، قال سكوت فورستول، المديرُ التنفيذي في آبل: «كان ستيف يعود منزعجًا وغاضبًا بعد أي لقاء اجتماعي يجمعه مع ذلك الرّجل.» وأضاف: عاد ستيف في إحدى المرّات، وتحدث عما أخبره به ذاك الرّجُل: إن مايكروسوفت قد حلت إحدى مُشكلات الحِساب ... كانوا سيَصنعون جهاز حَوسَبة لوحي، وسَيَفعلون ذلك بالأقلام. قذف الرَّجُلُ بالمعلومةِ الآتيةِ بوجه ستيف: إنهم سَيحكمون العالم بألواحهم القلمية، ثُم بدا الأمر أشبه بـ «دعونا نُريهم كيف يُمكن أنْ نفعل ذلك.» شكَل جوبز، المُتحفز بالسلوك المُتبجح الذي بدر من المدير في مايكروسوفت،

(229) 'Driven to Win: Rivalry, Motivation, and Performance', G. J. Kilduff, *Social Psychological and Personality Science*, 2014, 5 (8): 944–952.

بينت الدراسات أن اللاعبين "يشعرون أن مكانتهم معرضةٌ للخطر" عندما يتنافسون مع طرفٍ يعدونَه خَصمًا لهم., 'Do status hierarchies benefit groups? A bounded functionalist account of status', C. Anderson and R. Willer, 2014, in *The Psychology of Social Status*, edited by J. T. Cheng, J. L. Tracy and C. Anderson (Springer, 2014), pp.47–70.

(230) 'The Psychology of Rivalry: A Relationally Dependent Analysis of Competition', Gavin Kilduff, Hillary Elfenbein and Barry Staw, *Academy of Management Journal*, 2010, 53, 943–969. 10.5465/AMJ.2010.54533171.

(231) https://www.youtube.com/watch?v=yIeJZ3hVcyM

فريقًا لِتَجربة لوحٍ لا يعمل بالأقلام، بل بالأصابع. وهكذا، ظهر الجِهاز الذّي صمموه باسم آي فون، ثمَ ظهر ثانيةً باسم آي باد: «حدث ذلك، لِأن ستيف كره هذا المدير. هذا هو الأصلُ الفعلي في صنع الجِهاز»، هذا ما قاله فورستول الذي أضاف بحكمةٍ وتدبرٍ: «كان من سوء حظّ مايكروسوفت أن يلتقي ستيف بهذا الرّجل.»

لا يتطلب النجاح أن تكون مهووسًا حد الجنون بالخُصُومة والتشاحن، كما في حالة ستيف، أو مُضطرًا إلى خوض حربٍ بعد استعادة محدودة للمكانة المَحروسة بحرصٍ شديدٍ كما في حالة العاملين في شَركة أنرون. يقع الجزءُ الأكبر من لعبة المَكانة وجهًا لوجهٍ، مع زملاء قريبين منا، وعلى شَاكلة الجنود في الحرب، نستمرّ في اللعبة، ونُحافظ على زخمنا بفضل المكافآت التي لا تأتي ممن هم في القمّة، بل من اللعب التقليدي مع من نألف وجودهم حولنا مثل الزُّملاء وأفراد الأُسرة والأَصدقاء الفعليين والرّقميين. ونحرص أيضًا على استعراض معرفتنا بِقواعد اللعبة التي نَلتزم بها بنزاهةٍ ومهارةٍ؛ والبرهنة على أهميتنا في تَنفيذ المهمة ككل؛ ونأمل، في محاولتنا ومسَاعينا اليومية، أن يقدر الآخرون ويعجبون بما نفعل مثلما يتوقّعون منا أن نبادلهم هذا الشعُور. مع ذلك، للألعاب التي نشترك فيها سطوةٌ بالغةٌ علينا. وما يجري في العادة هو أننا نتغير مع تغير قواعدها.

الفصل العاشر

ماكينة حظ لأجل المكانة

بدأنا نشعرُ بسطوة لعبة المكانة، ونلمحُ قدرتها الهائلة على خلق المرح والفوضى بعد التبصّر في الحقيقة الكامنة أدنى أُسطورة الوضع البَشري. إننا نزدهر ونُثمر عند فوزنا بالصّلات والمَكانة؛ ويعترينا الحزنُ والمرضُ والميول الإنتحارية والقاتلة حينما نفقدهما. وبوسع النساء والرّجال رَفيعي المَنزلة أن يسحروننا، ويجذبوننا إلى المسارح وقاعات المؤتمرات ودور السينما وميادين الرِّياضة؛ وربما نشعر وكَأننا مسكونون بهم مع تفعيل آليات *التقليد - الإطراء - الإمتثال* في داخلنا، لكن ليست هذه هي الطَّريقة الوَحيدة التي يُمكن لِلعبة أن تُغيرنا بها من دون انتهاكٍ واعٍ من جانبنا. فمثلما وجد العَاملون في شركة أنرون، ليس مستبعدًا أن تتغير القَوَاعِد بطريقةٍ تُسهم في إفسادنا. فَالإستراتيجيات التي نَعتمدها في الظّفر بالصِّلات والمكانة تُشكل وجودنا. إننا نُصبحُ، إلى حدٍ بعيدٍ، دمى في اللعبة التي نشترك فيها.

وما يزال شيء مماثل لذلك يحدث، في السنوات الأخيرة، لمستخدمي وسائل التواصل الاجتماعي البالغ عددهم ثلاثة مليارات وستمائة ألفٍ.[232] هذه الوسائل هي لعبة مكانةٍ، ولا يمكنها إلا أنْ تكون كذلك: إنها الحياة البشرية التي تَتَجلى رقميا، كُل شيء معروض هناك: ألعاب النجاح لِلُملتقطي الصّور الشخصية (السيلفي) والمُتبجحين- المتواضعين؛ وألعاب الفَضيلة التي يُمارسها المُرشدون

(232) www.statista.com/statistics/278414/ number-of-worldwide-social-network-users/.

إلى الرَّفاهية، وأيضًا منظمو الحملات السياسية؛ وألعاب الهيمنة التي يَشترِكُ فيها الغَوغائيون والإِلغائيون، لكن نضال الحياة اليومية ومساعيها المُتواصلة تواصلًا طَبيعيًا مألوفًا اشتدَت واحتدت وتكثّفت في الفَضاء الرَّقمي بفعل التكنولوجيات التي عملت في تغيير قواعد هذه الألعاب ورُموزها، وتَحويلها إلى ألعاب يغلب عليها شراسة التنافس والهَوس القهري بالاشتراك فيها. لحظت دراسة مسحية في العام 2019 شملت قرابة الألفين من مستخدمي الهواتف الذّكية من الأمريكان، أنهم يعودون لمراجعة هواتفهم بمتوسط بلغ ستًا وتسعين مرّة في اليوم، أي قُرابة مرّة واحدة كل عشر دقائق؛ بمعدل زيادة بلغ 20٪ موازنةً بالمعدل نفسه قبل سنتين.[233] وذكرت دراسةٌ مسحيةٌ أخرى شملت ألفًا ومائتي مُستَخدِمٍ أن 23٪ منهم يُدققون هواتفهم بعد أقل من دقيقةٍ من استيقاظهم من النوم، مع تمكّن 34٪ منهم من الانتظار مدةً تراوحت بين خمس إلى عشر دقائق؛ ولحظ عدم تَجاوز نسبة من تمكّن منهم من الانتظار ساعتين أو أكثر 6٪.[234]

يتصل ما قلته للتو بتجربةٍ شخصيةٍ لي، فعلى الرّغم من حقيقة أني مُعتدل في النشر في مَنصة تويتر، ونادرًا ما أنشر أكثر من مرّةٍ واحدةٍ أسبُوعيا في الانستغرام، وأني لا أنشر بتاتًا في الفيس بوك، ما زلت أحس أن الهاتف قد أصبحَ رفيقي الدائم. لكني تخليت عن الجهاز أخيرًا بعد لحظي عدم قدرتي على الحَيْلُولة دون إخراجه من جيبي كل دقيقتين وفتح تطبيقات وسائل التواصل الِاجتماعي، وتمرير إبهامي أعلى الشاشة وأسفلها في حركة تصفحٍ متكرّرةٍ حتى في أثناء النزهات الرّيفية مع زَوجتي وكلابي. ليس هناك تفكيرٌ واعٍ؛ فالأشياء تظهر من تلقاء نفسها فحسب. وحتى بعد أن تَركته في المنزل، كانت يدي كثيرًا ما تمتد إلى جيبي بحثًا عنه كما لَو أني كُنت مسكونًا بشيء غريبٍ. لهذه التكنولوجيا سحرٌ لا يقاوم، وساحرها الأول

---

(233) https://www. asurion.com/about/press-releases/americans-check-their-phones-96-times- a-day/.

(234) https://rootmetrics.com/en-US/content/ rootmetrics-survey-results-are-in-mobile-consumer-lifestyles.

هو الدكتور المُختص بعلم السلوك، بريان جفري فوغ، مؤسس مُختبر تكنولوجيا الإقناع، الواقع في خارج جامعة ستانفورد، مؤسستي التعليمية المُفضلة في وادي السيلكون. زهت أسطورة فوغ في 2007 عندما بدأ بتعليم أحد الصُّفوف استخدام تَقنيات الإقناع التي وضعها لِتَصميم تَطبيقات في مَنصة الفيس بوك. تمكّن الطَّلبة، في نهاية الدورة التدريبية التي دامت عشرة أسابيع، من جمع ستة عشر مليون مستخدم، وجني مليون دولار من عوائد الإِعلانات.[235] بدأ هوس فوغ بالسيطرة على السلوك عندما درس الدعاية في المدرسة في عمر العاشرة. وعن هذا الكَشف، قال فوغ: «تعلمت مسمّيات التقنيات المُتنوعة للدعاية، وتمكنت سريعًا من تحديدها في الإعلانات الدعائية في المجلات والتلفزيون»،[236] وأضاف: «شَعرت بالتمكين... وأصابني الذّهول من قدرة الكَلمات والصّور والأغاني على إقناع الناس بالتبرع بالدم، وشراء السيارات الجَديدة، أو الانضمام إلى الجيش. كان هذا أوّل تعرف رسمي لي إلى الإقناع، إذ بتُّ بعدها أرى، أنى اتجهت، في الأماكن كلها، ما اسميه "الدعاية" تُستخدم لِغايات نافعةٍ تارةٍ ومؤذيةٍ تارةً أُخرى.»

فكر فوغ، الذي أفاد من نَشأتِهِ في كَنفِ أبٍ مَهووسٍ بالتكنولوجيا، متسائلًا عن إمكانية استثمار قوّة الحَواسيب في الإقناع، ودرس في جامعة ستانفورد الدور الذي يؤديه التعاطي معها - أي الحواسيب - في «تغيير مواقف الناس وسُلوكهم.» تلا ذلك نشره لكتاب *التكنولوجيا المُقنعة: استخدام الحواسيب في تغيير ما نُفكرُ به وما نَفعلهُ* في 2003. قدم الكتاب موجزًا عن رؤية فوغ لغد البشرية المُترابط، قبل اِختراع الهَواتف الذّكيَة بسنوات، إذ قال: «يومًا ما في المُستقبل، ستَجلسُ في مكتبة الجامعة طالبةٌ في المرحلة الأولى اسمها باميلا، وتستخرجُ جهازًا إلكترونيا من حقيبتها. إنه أصغر من حزمةٍ من ورق اللعب، سهل الحمل، ويعمل بوصفه هاتفها النقال؛ وهو نافذة على المعلومات، ومنصة

(235) 'The Class That Built Apps, and Fortunes', Miguel Helft, *New York Times*, 7 May 2011.

(236) *Persuasive Technology*, B. J. Fogg (Morgan Kaufmann, 2003). Kindle location 169.

تُقدم التسلية، ومُنظم شؤون شخصية. إنها تحمله معها حيثما تذهب، وتشعر بالضّياع إلى حدٍ ما من دونه.»[237]

يرى فوغ أن أجهزةً من هذا النوع سَتكون «أنظمةً إقناع تكنُولُوجيةً». إذ ستتمكن من تغيير أفكار المُستخدِمين وسُلوكهم بقوةٍ لم يعرف التاريخ لها مثيلًا. وبحسبما بينَ فوغ: «طالما استُخدِمت وسائل الإعلام التقليدية من مُلصقات السيارات إلى الإعلانات الإذاعية، ومن الإعلانات المَطبوعة إلى الإعلانات التجارية التلفزيونية في إقناع الناس بتغيير مواقفهم أو سُلوكهم ... ما المختلف في علاقة الحَواسيب بالإقناع؟ الجواب يَتلخص في كلمةٍ واحدةٍ: التفاعليَة.»[238] سيتفاعل هذا الجهاز مع المُستخدِمين، ومع جوانب حيواتهم المختلفة أيضًا، ويُعدل من تقنيات التلاعب والتحكم خاصته مع كُل تَغير في أوضاعهم، ويتواصل معهم كما لو أنه يَحس بهم. يقول فوغ واصفًا هذا الأمر: «عندما تحملُ تكنولوجيا إقناع متنقلة معك، فإنك تحمل مصدرًا للتأثير فيك. بوسع الجهاز، في أي وقت (في الوقت المُناسب، المثالي)، أن يقترح عليك، ويُشجعك ويكافئك؛ وبقدرته أن يتعقّب أداءك أو يرشدك في أثناء تنفيذك لعمليةٍ ما.»[239] وبقدرة هذه التكنولوجيا أن تفعل ذلك بعناصر "إقناع صغرى" مثل الإشعارات والشارات أو رُموز المكانة: أي جميع التنبيهات المألوفة لنا حاليًا في وسائل التواصل الاجتماعي.

نظم فوغ نظريته في ما أسماه «نموذج فوغ للسلوك» الذي دَرَسه في "المُعسكرات البرمجية لإدارة السلوك"، ومختبر ستانفورد للإقناع الذي أصدر مجلةً هي بمنزلة «نقطة تَحصيل رُسوم لرِجال الأعمال ومُتعهدي المَشاريع ومُصممي المُنتجات في

(237) *Persuasive Technology*, Kindle location 2154.

(238) *Persuasive Technology*, Kindle location 286.

(239) *Persuasive Technology*, B.J. Fogg (Morgan Kaufmann, 2003). Kindle location 2180.

طريقهم إلى مَنصات فيس بوك وغوغل.»[240] يقول النموذج إن المرء مضطرٌ إلى العمل عند اِصطِدام ثلاث قوى في لحظةٍ ما، هي: الدافع (يجب أن نرغب في الشيء)؛ التنبيه (يجب أن يحدث شيء ما لِتَنشيط الرّغبة في الحصول على المزيد منه)، والقُدرة (يجب أن يكون هذا الشيء سهلًا).[241] لِنَضرب مثلًا بموقع لنكدإن (LinkedIn) الذي كان عند اِنطلاقه يوازي عمليا حجم الشبكة المهنية للمُستخدم بأيقونية توزيع محوري. كلما كبُر حجم الأيقونة، تعاظمت المكانة. ترغب الناس في المكانة (هذا هو الدافع)، وتخلق الأيقونة رغبةً مُلحةً مُفاجئةً في الحصول على المزيد (هذا هو المُنبه) واللنكدإن يوفّر حلًا سهلًا، إذ يستغله المُستخدِمون في توسيع دائرة العلاقات (وهذه هي القُدرة). يقول فوغ: «وعلى الرّغم من عدم وجود أي شيء مفيدٍ كان يُمكنك فعله بموقع لنكدإن في وقت انطلاقه، إلا أن لهذه الموقع اليَسير قدرةً هائلةً على الاستفادة من رغبة الناس في عدم الظُّهور بمظهر الخَاسِرين.»[242]

ومع ذلك، فإن جوهر عبقرية فوغ العميقة يقع في تبصُرٍ لامعٍ آخرٍ. إذ تمخضت هذه العبقرية عن تعديلٍ في الطّريقة التي تُمارس فيها لعبة المكانة في وسائل التواصل الاجتماعي، والتي فاقت أية طريقة أخرى في قُدرتها على الترويج لهذه الألعاب. إذ وصف فوغ طريقةً لتقديم المكافآت تؤدي دورًا كبيرًا في تَنمية السلوك القَسري. فإذا أراد المُبرمج أنْ يَدفع مُستخدِمًا ما إلى تبني سلوكٍ معينٍ، فعليه أن يَعرض عليه رمز تحفيز رقمي بعد انتِهائهِ من تأدية «السلوك المُستهدف». لكن هنا تحديدًا تكمنُ الخُدعةُ: فالتحفيز الإيجابي سيكون مُتناقضًا. إذ إنك لا تعلم دائمًا ما سَتحصل عليه. كتب فوغ في 2003: «لِتَرسيخ سُلوك قائم، تُحقق المُحفزات والمُنبهات أقصى درجات التأثير عندما تكون غير قابلةٍ للتنبُّؤ.»[243]

---

(240) 'The Formula for Phone Addiction Might Double As a Cure', Simone Stolzoff, *Wired*, 1 February 2018.

(241) 'A behavior model for persuasive design', B. J. Fogg, 2009, 40. 10.1145/1541948.1541999.

(242) 'The Binge Breaker', Bianca Bosker, *The Atlantic*, 8 October 2016.

(243) *Persuasive Technology*, B. J. Fogg (Morgan Kaufmann, 2003). Kindle location 750.

و«استخدام آلة السلوت أو ماكينة الحظ مثالٌ جيدٌ: فالفَوزُ بمكافأة من فئة الرّبع التي تَتَدفق إلى الوعاء المَعدني هو أحد المُحفِّزات مع أن ما تَفعلهُ هنا اِعتباطي. وهذا النوع من جَدولة المُكافأة غير القابلةِ للتنبُّؤ يجعلُ السلوك المُستهدف- أي المُقامرة في هذه الحالة- شَديد التأثير، وحتى إدماني.»

وقصةُ مختبر فوغ معروفةٌ نسبيًا في أوساط العارفين بخبايا وسائل التواصل الاجتماعي. وفكرةُ تَحويل الهواتف إلى ماكينات حظَ سبقت حتى وجود الهواتف الذَّكية؛ ومن المؤكد أنها كانت فاعلة في ذلك. لكن ثمَة شيء ما مفقودٌ في هذه النظرية على ما يبدو. من الواضح أن التقنيين على درايةٍ تامةٍ بالشيء الذي يُقامر عليه المُستخدِمون. فوسائل التواصل الاجتماعي هي ماكينة حظّ للظَّفر بالمكانة، وهذا يَجعلها جذابةً جاذبيةً قَسرية. إذ يحكم علينا الآخرون في كل مرّة ننشرُ فيها صورةً أو مقطعًا فيديويًا أو تعليقًا، ونَنتظرُ من جانبنا الرُّدود، والتعليقات، وعَلامات الإعجاب، ورموز الاستحسان والموافقة. وعلى شَاكلة المُقامر، لا نعرف أبدًا المقدار الذي سَنَحصل عليه من آلة السلوت، ولا نعلم نوع المكافأة التي سَنَحصل عليها من مُشاركتنا، هل سنصعدُ إلى الأعلى؟ أم سَننزلُ إلى الأسفل؟ تَتَغيرُ الجائزةُ الكُبرى في كل مرّةٍ، وهذا التنوع يخلق القسر والإلزام، فنَرغبُ في مواصلة اللعب، المرّة تلو الأخرى، لِنرى ما سَنحصل عليه.

ويُمكن لِفعل اِستخدام وسائل التواصل الاجتماعي اليسير أن يكون مُنبهًا فوغيًا - نسبةً إلى فوغ - يُرغمنا على اللعب. كُلنا يرغب في المكانة، ومُشاهدة الآخرين وهم يحصلون عليها يولد فينا رغبةً ملحةً في الظّفر بها لأنفسنا. ومن المحتمل أنْ نحصد رموز مكانة مهمة إذا ما أثبتنا براعةً في اللعب، من مثل المزيد من المُتابعين، والمُتابعين من طبقة النخبة من مثل المشاهير الذين ربما نبدأ في التعرف إلى بعضهم. وقد نحصل على علامة زرقاء أو شارة تحقق تُمنح أحيانًا إلى اللاعبين في الفِئة الأولى. وقلةٌ نادرةٌ من مُستخدِمي شَبكات التواصل الاجتماعي هي من يَنجحُ نجاحًا مذهلًا ويجني الثّروات. ذُكِر في عام 2020 أن مُستخدِمة اليوتيوب،

اليونورا "ليل" بونز، تقاضت مائة واثنين وأربعين مليونًا وثمانمائة ألف دولار مقابل منشورٍ واحدٍ مدعومٍ في الانستغرام، في حين تقاضى زميلها، زاك كنغ، واحدًا وثمانين مليون دولار.[244] وهما يملكان واحدًا وأربعين مليون متابع وثلاثة وعشرين مليون متابعٍ على التوالي في موقع مشاركة الصّور. وبحسبما أوردت صحيفة الواشنطن بوست، يجني نجوم اليوتيوب بين مليونين إلى خمسة ملايين دولار من هذه المنصّة وحدها.[245]

وبوسع مستخدمي اليوتيوب الذين يبعدون بمجرّات كونية عن ليل وزاك أن يَفهموا أن صورتهم الرَّمزية قد تظفرُ بمكانة أكثر رفعةً مما يظفرون به في حياتهم الواقعية بعيدًا عن الإنترنت، وذلك عن طريق اِستثمار القدر الكافي من الوقت والجهد في اللعبة. أضحت المَنصّات لهؤلاء بمنزلة مُستودعات هائلةٍ للمكانة، وتَحولت إلى مصدرٍ لا يُقدر بثمنٍ من الصّعب والمؤلم أن يتخلوا عنه. ولذا، يجب عليهم الاستمرار في اللعب للمحافظة على ما لديهم وجنيَ المزيد: أي الاستمرار في سحب ذراع ماكينة الحظ مرارًا وتكرارًا.

كان فوغ واعيًا في 2003 للجانب المُظلم في نَظريته. إذ كانت الملاحظات بشأن المَخاوف الأخلاقية متداخلة بحذرٍ في فصولِهِ الدراسية وكتاباته.[246] وعلى الرّغم من الصّدق الذي من المحتمل أن يتحلى به، تبدو الملاحظات التحذيرية هذه، عند النظر إليها حاليًا، مثل تقديم النمل إلى آكلي النمل ثُم الطّلب منهم بإلا يأكلونه. إذ كان التقنيون الذين عَلمهم وألهَمهم، أحيانًا، أقل حذرًا منه في طَبيعة الرّسائل التي يرسلونها. قال غاماث باليهابيتيا، نائب الرّئيس السابق في قسم زيادة المُستخدِمين في الفيسبوك، ذات مرّة، أن الموقع يهدف إلى «معرفة طريقة التحكم

(244) Instagram Rich List 2020, www.hopperhq.com/blog/instagram-rich-list/niche/influencer/.
(245) 'Tiptoeing on Social Media's Tightrope', Sarah Ellison, *Washington Post*, 3 October 2019.
(246) 'The Facts: BJ Fogg & Persuasive Technology', B. J. Fogg, Medium, 3 August 2018.

بك نفسيا بأسرعِ وقتٍ ممكنٍ.»[247]

وبطبيعة الحال، ليس القصد مما ذكرناه أن المكانة هي القوة *الوَحيدة* الدافعة في انتشار وسائل التواصل الاجتماعي. فعلاوة على أَنها مُحصل أساسي للأموال بالنسبة لكثيرٍ من الناس، فهي أيضًا ماكينة توليد علاقات مذهلة. غير أني لا أظن بإمكانية فهم الصُّعود المُذهل لهذه الوَسائل من دون فهم لعبة المكانة. فانتِشارها العالمي هو أحد الأحداث المُجتمعية الكُبرى في العَصر الرّاهن. ولو نَظرنا إلى الوضع البشري من منظُور تقليدي، فإن الجزء الأكبر منه يكون معقولًا بمقدار معقَّولية العدَو السريع. نشر صورةٍ لرِكبتيك المسمرة في الإنترنت، لمَ العناء؟ الدخول في جدالٍ مع غرباء عن خلافات صغيرةٍ بشأن مسائل وقضايا لن تؤثر في حياتك أبدًا، يا له من مضيعةٍ للوقت! لكننا إذا اخترنا ألا ننظر إلى أنفسنا بوصفنا أبطالًا في رحلات حياتية، بل ماكينات بايولوجية مُصمّمة لممارسة ألعاب المكانة الرَّمزية حيثما نذهب، عندها، لن يكون نجاح وسائل التواصل الاجتماعي منطقيا ومعقولًا فحسب، بل إنه محتومٌ أيضًا.

(247) 'The Tech Industry's War on Kids', Richard Freed, Medium, 12 March 2018.

الفصل الحادي عشر

النقص

ليست هناك نهايةٌ سعيدةٌ. هذه هي الأَخبار السيئة. لكن هذا ليس ما تبدو عليه الحياة. أنْ تكون على قيد الحياة، وأنْ تَتَمتع بصحةٍ نفسيةٍ جيدةٍ يعني أنْ تكون معرضًا لقصَّة الوعي التي تُخبرنا أننا سنشعر بالرِّضا والقناعة عند تحقيق نصرٍ محددٍ، أو عند تمكننا أخيرًا من تسلق *تلك* القِمَّة. سنحظى بالسلام والسعادة والسكينة الهَانئة. إلا أن هذا وهمٌ، للأسف الشديد، إذ إننا لن نصل إلى هناك أبدًا لأن ما نَفعلهُ في جزء منه، هو الاشتراك في لعبة للفوز بالمكانة. ومُشكلة المَكانة هي أننا لن نشعر بِالقَناعة أبدًا مهما بلغ مقدار ما نَحصلُ عليه. الرّغبة بالمزيد حاضرةٌ دائمًا. وهذا هو الخَلَلُ في الوضع البَشري الذّي يجعلنا نواصل اللعب.

دعونا نَضرب مثلًا ببول مكارتني، المُغني السابق في فرقة البيتلز، الذي قضى حياته وهو يستنشق المكانة مثلما يستنشق الأوكسجين. كان لدى مكارتني الكَثير بقدر ما لدي أي أحد في العصر الرّاهن بفضل عشاقه المَفتونين به، وإعجاب النساء به، وما عُرِف عنه طوال حياتِهِ من عبقرية وثروة لا نفاد لها. ومع ذلك، وفي وسط كل هذه الأشياء التي تُحيط به، كان مكارتني يشعر بالاِنزعاج من حقيقة أن اسم لينون يسبق اسمه في البطاقات التعريفية اللاصقة في تسجيلات الفرقة المُوسيقية، وفي جميع الألبوم الطّويلة، وفي الأَغاني التي يشترك في كتابتها أيضًا: كلها كان الفَضلُ فيها يعود إلى لينون أولًا، ثُم مكارتني. لينون يأتي أوّلًا.

لمَ يجب أن يأتي اسم لينون أوّلًا؟ أين العَدالة في ذلك؟ لم يكن هذا الأمر مهمًا

بهذا القدر عندما كانا يشتركان في غرفة النوم في مرحلة المُراهقة، وعند اِتفاقهما على تَرتيب الأسماء بصرف النَظر عمن يُذكر أوّلًا أو من منهم يكتب هذا الشيء أو ذاك. فير أنه مهمٌ حاليًا لسببٍ ما. ولهذا، أعدَ مكارتني خطةً. إذ شرعَ في تغيير مواقع الأسماء، ليظهر اسم لينون ثانيًا كلما كانت العُقُود تمنحهُ مساحةً للتفاوض والمُناورة. تضمن البوم الفِرقة المباشر في 1976، المعنون *أجنحة فوق أمريكا*، خمس أغانٍ ظهرت كلها بتوقيع مكارتني-لينون.[248] ثُم قُبيل إصدار مجموعتهِ التي تضم أفضل أغاني الفِرقة في 1995 بعنوان *انثولوجي*، تساءل مكارتني عن إمكانية وضع اسم لينون ثانيًا في أغنية "الأمس"، الأغنية التي انفرد هو بِكتابة كلماتها. لكن يوكو أونو قالت "لا".[249]

أصدر مكارتني في تشرين الثاني 2002 ألبومًا مباشرًا آخرًا احتوى على تسع عشرة أغنيةً، عنوانه «مرةً أُخرى في الولايات المُتحدة»،[250] بدل فيها مكارتني ترتيب الأسماء في جميع البطاقات. ولم تَتقبل أونو ذلك، فطلبت من محاميها إصدار بيانٍ ذكرت فيه أن أفعال مكارتني كانت «سخيفةً وعبثيةً ووضيعةً.»[251] ثُم وبأسلوبٍ لا يقل غرابةً، على ما يبدو، عن السخف والعبثية والوَضاعة التي تحدثت عنهم، يُقال إنها أزالت اسم مكارتني من «أمنح السلام فرصةً»، الأغنية الأشهر لفرقة بلاستك أونو، التي منح لينون شريكه مكارتني حق كتابة اسمه منفردًا عليها كتقديرٍ لمساعدته له في أعماله الموسيقية الأُخرى.[252] واستمر أونو ومكارتني في أفعالهما هذه حتى توصلهم إلى هدنةٍ في 2003.[253] مع ذلك، بدا

(248) 'The Ballad of Paul and Yoko', Gilbert Garcia, *Salon*, 18 June 2009.

(249) 'We can work it out, Sir Paul tells angry Yoko', Adam Sherwin, *The Times*, 18 December 2002.

(250) 'The Ballad of Paul and Yoko', Gilbert Garcia, *Salon*, 18 June 2009.

(251) 'Ono! You Can't Do That Paul!', Uncredited author, *NME*, 16 December 2002.

(252) 'Beatles Credit Feud Continues', Gil Kaufman, *Rolling Stone*, 16 December 2003.

(253) 'McCartney makes up with Ono', BBC News, 1 June 2003.

مكارتني مُتذمرًا شاكيًا حتى في عام 2015.[254]

كان مكارتني معروفًا بالتهذيب واللباقة والقُدرة المُذهلة على الحفاظ على نفسه منيعًا أمام مَزالق الحياة في أوساط النخبة الموسيقية. لكن تغيير مواقع الأسماء! يبدو أنه ما يزال يشعر بذلك الشيء: ذلك التوق، والتوتر، واِضطِراب المَزاج، والظّاهر أن هذا النقص هو إحدى حقائق الطّبيعة البَشريَة. وصفت عالمة الاجتماع الأمريكية، سيسيليا رجوَيَ تجارب حاول الباحثون فيها تحديد النقطة التي تَستقر عندها الحاجة للمكانة بعد بلوغها. وقالت عن ذلك: «ليس هناك نقطة تستقر عندها الرَّغبة بمكانةٍ أعلى.»[255] يرى الباحِثون أن أحد الأسباب التي تجعل الرّغبة في المكانة «غير قابلة للإشباع عمليا» هو لأنه «لا يمكن للفرد أبدًا أن يحوزها حيازةً حقيقيةً مرّة واحدةً وإلى الأبد. إذ يُمكن على الدوام، على الأقل نظريًا، أن تُنتزع منه لأنها تقديرٌ وتعظيمٌ يمنحهما الآخرون». ولذا، تبقى الرّغبة بالمزيد منها فاعلةً: إنها رغبةٌ دائمةٌ في الاِستزادة.

يُمكن اِقتفاء أثر النقص في نَوعية شعورنا حيال المال، أو ذلك الرّمز المُشع الذي نعتمده كثيرًا بوصفه مقياسًا للمكانة. فمهما يكن مقدار ما نَكسبه، فإننا نبقى راغبين بِالمزيد، الذي نُقنع أنفسنا بأننا نستحقه. لاحظت دراسةٌ مسحيةٌ شملت ما يزيد عن سبعين ألف شخصٍ أن قرابة الثّلثين منهم ممن يحصلون على أجور بمعدل السوق يعتقدون أنهم لا يحصلون على ما يستحقونه في حين رأى 6٪ منهم أن أجرهم يفوق المَألوف أو المتوقّع.[256] واتصل فريقٌ بحثي يديره عالم النفس مايكل نورتن بعددٍ يفوق الألفين من ميسوري الحال، بصافي ثَروة تبدأ من مليون دولار وترتفع إلى أرقام خيالية. طلب الباحِثون من المُشاركين تَقييم سعادتهم على وفق مقياس من عشر نقاط، ثُمّ تحديد مقدار المَبلغ الذي يحتاجون إليه ليكونوا سُعداء تمامًا. قال نورتن في تعليقهِ على الإجابات: «على طول الطَّريق المؤدي إلى

(254) 'Paul McCartney', Alex Bilmes, *Esquire*, 2 July 2015.
(255) *Status*, Cecilia L. Ridgeway (Russell Sage Foundation,2015), p.59.
(256) *Possessed*, Bruce Hood (Penguin, 2019), p. 29.

أعلى طيف الدخل - الثّروة، تحدث الجميع عن ضِعفين أو ثَلاثة.»[257]

في غاية السعادة! لكنهم لن يَكونوا في غاية السعادة، هذا هو النقص، إنه جزءٌ من الحُلم الذّي نَنسجه عن الواقع، إنه يقول لنا إن هناك مقصدًا أو مكانًا نَبلغه، غير أننا لن نكفّ عن الرّغبة بالمزيد. وعلى الرّغم من نفحات مُتلازمة المُحتال التي قد تهب علينا عندما نشعر أن الأمر يفوق مستوى فهمنا أو كفايتنا في مواقف معينةٍ، فإننا في نهاية المطاف بارعون تمامًا في قبول أية مكانة يتوافق تدحرجها باتجاهنا. يحدثُ الشيء ذاته مع أفراد النخبة الذين يشغلون المراتب العُليا في ألعابهم. فهم يقبلون بالمكانة ويتعوّدون عليها، ويَتأقلمون مع المعايير المُتنوعة التي يقيسونها بها من مثل المال والسلطة والنفوذ والإطراء والملابس والحُلي والجَواهر، وَوَسائل التنقل وأماكن الجُلوس فيها، والعُطل، وأماكن السكن، وعدد العاملين التابعين، وحجم المنزل وموقع العمل وفخامتهما، والضّحك على النكات؛ والتواصل البَصري، ولُغة الجسد، وكمِّية عصير البُرتقال المسكوب في كأس. *لقد ظفروا بالمكانة*. ثُمّ يريدون المزيد. ويحصلون عليه. ثُمّ يُصبح التمتع بالمكانة أمرًا تقليديا مفروغًا منه. وهذه هي الطّريقة التي يغدو فيها الرّؤوساء في العمل والسياسيَون والمَشاهير ثُمالى بالمكانة، ويصبح سُلوكهم أشد جنونًا وهوسًا من أي وقتٍ مضى.

إدمان المكانة مذهلٌ وعاديٌ وشهادةٌ على الطّريقة التي تتمكن اللعبة بوساطتها من تَسميم الوضع البشريَ وإفقاده صوابه. تَزدحمُ الصّحف بحكايات عن طَلبات النجوم الغَريبة: يطلب توم كروز إخلاء أحد المَطاعم كي يَتمكن من تناول الطعام بسلامٍ؛[258] ويُعلن مغني الهِب هوب كانييه وست أن السجادة في غرفة

(257) 'The Reason Many Ultrarich People Aren't Satisfied With Their Wealth', Joe Pinsker, *The Atlantic*, 4 December 2018.

(258) The Most Outrageous Celebrity Diva Demands', Sarah Biddlecombe, *Daily Telegraph*, 16 November 2014.

'From Ariana Grande to Beyonce, Which Star is the Biggest Diva of Them All?', Kate Wills, *The Sun*, 27 April 2019.

تبديل الملابس «غير مستوية السطح»، ويُصر على كيِّها؛ وتطلب مادونا من فريق تعقيم مُتخصِّص أن «يَستخلص أي أثر للحمض النووي» من غرفة تبديل مَلَابسها: إنها مظاهر قوَّة ونفوذ تَرمز جميعها إلى المكانة الفلكية المُتَرامية التي بلغها هؤلاء.

وما يفعلهُ بَعضُ القَادة الوَطنيين أسوأ من ذلك. إذ أصرّت قَيْصَرة رُوسيا، آنا، على ارتداء أفراد حاشيتها لِطقم مَلابس مختلف في كل مرَّة تُقابلهم فيها.[259] وكانت اميلدا ماركوس، سَيدة البِلاد الأولى السابقة في الفِلبين، شديدة الرَّغبة في اِقتناء رُمُوز نَجاح أسطورية،[260] فبعد قضائها رحلة سفاري مُمتعة في كينيا، اصطَحبت معها في رحلة العودة مجموعةً من الثَّدِييات الأفريقية إلى جزيرة كالاويت استلزم تَهيئة الطَّريق لها طرد مائتين وأربع وخمسين أُسرةٍ؛ وكانت مولعةً بِالبِناء وشراء المباني الضَّخمة - بعضها في مانهاتن - إلى حد شيوع نُكتة عنها تقول إنها تعاني من «عقدة الصّروح»؛ وعُثر في القصر الذي فرّ منه آل ماركوس، حُكام البلاد، على وصل استلام لُمشتريات ضَخمة يعود تاريخه إلى 1987 من متجر «بلغاري» في نيويورك قيمته قرابة المليون ونصف مليون دولار. حاك دماغ ماركوس حُلمًا شخصيًا أنانيا يقول إن البَذخَ والإسرافَ فعلٌ فاضلٌ؛ إنه «واجبها» حيال الفُقراء: «عَليك أن تكون شَبيهًا بِالضّوء، نجمًا يُرشدهم إلى الطَّريق»، غير أن زَعيمي الوطني المُفضل هو صفرمراد نيازوف، «والد جميع التركمانيين» الذي أعاد تسميه أسماء الأسبوع إلى حفرةٍ في القَمر، وسلالة خيل، ومدينة وقناة، وأشهر السنة أيضًا، واستبدل بكلمة الخبز اسمه، وأسماء أفراد عائلتِهِ. ثُم نصب

---

(259) 'Fashion, Sumptuary Laws, and Business', Herman Freudenberger, *Business History Review*, 1963, vol. 37, issue 1–2, pp. 37–48.

(260) 'Shoes, Jewels, and Monets: The Immense Ill-Gotten Wealth of Imelda Marcos', Catherine A. Traywick, *Foreign Policy*, 16 January 2014.

'The Weird World of Imelda Marcos', David McNeill, *Independent*, 25 February 2006.

'11 Bizarre Things You Didn't Know About Imelda Marcos', Valerie Caulin, *Culture Trip*, 14 November 2017. *The Kingmaker*, documentary, 2020.

في العاصمة تمثالًا ضَخمًا مَطليا بالذّهب لِنفسهِ يَدور حيثما تَدور الشمس.

وإدمان المَكانة هو عمليا الظَّرفُ المُعرف للمَلكيَة بقصورها وتيجانها وطُقوس الإحتِرام والتبجيل الإلزامية المُقترنة بها. تعرض الأمير أندرو لانتقادٍ شديدٍ لإنفاقه عَشرات آلاف الجُنيهات من أموال دافعي الضَّرائب على رحلات طيران شَخصية لمشاهدة مباريات الغولف.[261] إلا أن إسرافه لا يُعدَ شيئًا موازنةً بسلفهِ جورج الرَّابع الذي أصر على أن يَحظى بحفل تتويجٍ أفخم وأبهى من حفل تَتويج خَصمه نابليون إمبراطورًا لفرنسا.[262] تميز حفل التتويج بوليمةٍ تفوق الخيال في فَخامتها وإِسرافها أُقيمت في قاعة وستمنستر،[263] وقُدم فيها (80) من مفاصل لحم الغَزال، و(80) من مفاصل لحم البَقر، و(400) من أقدام العُجُول، و(40) من سَمك السلمون، و(40) من سَمك السلمون المُرقط، و(80) من سمك الشبُوط، و(1610) دجاجة، و(160) من أَطباق الخُضَراوات، و(160) إوزة، وثلاثة أرباع الطَّن من لحم الخِنزير المُقدد. وضمت قائمة المشروبات (240) زجاجة بيرغندي، و(1200) زجاجة شَمبانيا، و(2400) زجاجة كلاريت (خمر أحمر خفيف). وحضر الوَجبَة الأُولى كل من دوق ولنغتون واللورد هوارد والمَاركيز أنغليسي الذين دخلوا قاعة الطَّعام وهم يَمتطون ظُهُور خيولهم.

ويئن عمالقة الرَّأسمالية اليوم تحت وطأة هذا النقص في الغَالب مع تحول مَواقع عملهم وسكنهم الساطعة إلى إماكن مُبتذلة لإدمان المَكانة. وقد انكشفت حالة التبجح والتبختر المُريعة والمُثرثرة التي أصابت بعضًا من زعماء الصِّناعة والمَال في أعقاب الأَزمة المالية العالمية. فحينما شد المُديرون التنفيذيون في شركات فورد وجيسلر وجنرل موتورز الرِّحال إلى واشنطن في مهمة اِستجداء للمال العام، فعلوا

(261) 'Andrew Wasted Thousands Using Helicopters Like Taxis, say Officials', Andrew Johnson, *Independent*, 23 January 2005.

(262) *Old Court Customs and Modern Court Rule*, Hon. Mrs Armytage (Richard Bentley & Son, 1883), pp. 37–47.

(263) https://brightonmuseums.org.uk/ discover/2015/02/26/george-ivs-coronation/.

ذلك بطائرات نَفاثةٍ خاصَّةٍ.[264] وأصبح اسم فرد غودوَن أشهر من نار على عَلمٍ في المملكة المُتحدة بعد توريطه مصرف سكوتلاند المَلكي في ديون فاقت قيمتها أربعة وعشرين مليون جنيه إسترليني إضافةً إلى كَفالة إنقاذ مالية مقدارها خمسة وأربعين مليار جُنيه من أموال دَافعي الضَّرائب.

ورَغبة غودوَن العَنيفة والشرِسة في خفض التكاليف أكسبته لقب "فرد المُمزِق". لكن هذه التخفيضات والتضحيات لم تكن تشمله، إذ أشرف في 2005 على اِفتتاح مقار بلغت تكلُفتها ثلاثمائة وخمسين مليون جنيه إسترليني، أمر فيها، بحسب ما أوردته الصّحف، بِتَغيير موقع المَطابخ كي لا يصل طبق السكالوب المفضل لديه في وجبة الغَداء باردًا في طَريقه إلى طَاولة الطَّعام.[265] كانت الفاكهة الطّازجة تصل يوميًا من باريس، وحينما لمَحَ غودوّن لطخةً صغيرةً في صالة الاستقبال خارج مكتبه الموازي لِملعب كرة القدم حَجمًا، أمر بتجديده بورق حائط قيمته ألف جُنيه إسترليني لكل لفة. وزيادة على ذلك، أرسل غودوَن، في أحد الأيام، رِسالةً إلكترونيةً يُهدد فيها بإجراء تأديبي بعد أن قُدم له، توافقًا، بسكويتًا وردي اللون مكتوبًا عليه "بسكويت روج.،[266]

يُخبرنا الوَارد أعلاه بأن إدمان المَكانة حقيقي، والشعُور بِالاستياء منه قد يكون مُسليًا. فعلى الرّغم من المُتعة التي قد تُصاحب الحَديث عن المغالاة والإفراط التي يتصف بهما سُلوك طَبقة النخبة، إلا أن النقص الذي يؤدي إليها قد يكون مُدمرًا وضارًا بنا جميعًا لا سيما عند وقوعه في الشركات التي نعمل لأجلها. ذكرت دراسة

(264) *The Dark Side of Transformational Leadership*, Dennis Tourish (Routledge, 2013), p. 92.

(265) 'Ex-RBS chief Goodwin Faces Legal Challenge to £693k Pension', Graeme Wearden, Jill Treanor, *Guardian*, 26 February 2009.

'Lifting the Lid on Fred "The Shred" Goodwin's Greed and Recklessness', Julie Carpenter, *Daily Express*, 27 August 2011.

(266) تعني كلمة روج 'Rogue' في الأصل الغَشاش والحَقير والخَسيس. ومعناها، على الأرجح، هو السَّبب في غضب غودوّن (المترجمة)

أجراها الأستاذ دنيس توريش، المختص بعلم النفس التنظيمي، أن العاملين الذين يشغلون المَراتب الدنيا في الشركة يميلون «غالبًا إلى المُبالغة في المدى الذي يتفقون فيه مع آراء وأفعال المَسؤولين مرموقي المَكانة، إذ يَتخذون من ذلك وسيلةً لِاكتساب التأثير» في حين يَتكتمون على وجهات نَظرهم المُنتقِدة في أكثَرية الأحيان.(267) ثُمّ يتسلل الشعُور بِالنقص. فالقادة، لِأنهم بشرٌ، عرضةٌ لتصديق جميع هذه الأَقاويل اللطيفة المُعززة للمَكانة؛ لذا يَتقبلون الإشادة بهم والِاتفاق معهم من دون تَمحيصٍ، ويُخفقون في الارتياب عند غياب الأخبار السيئة التي يُعاقب من يحاول الإبلاغ عنها بِشُيوع الانطباع عنه بأنه صعبُ المِراس، ومفرطٌ في سَلبيته أو أنه ليس مؤهلًا للعمل مع «لاعبي الفريق».(268) وهؤلاء قد يَجِدون وظائفهم في مهبّ الرّيح في نِهاية المَطاف.

يُراقبُ رُؤَوساء العَمل مواقعهُم في اللعبة، ويَنسجون حُلمًا أنانيًا يَشرحها ويُفسرها. وتعمل أدمغتهم على جعلهم نُجومًا في قصصٍ بطولية تكون فيها مكانتهم المرموقة مُستَحقةً تمامًا. ولأنهم عالقون في أوهامَهم، فإن أي أخبار أو أقاويل تُشيد بهم وتُثني عليهم تبدو كأنها حقيقة مثلما أن أي أخبار سيئة ستبدو كأنها هُجُوم غير عادلٍ عليهم. يَعمل هؤلاء الرّؤوساء على تَقديم المنشقين الحَصيفين عنهم بوصفهم أوغادًا وعُرضةً للعقاب. ونتيجةً لذلك، يُمسك اللاعبون الآخرون ألسنتهم خَوفًا مما قد يحل بهم. وليس غريبًا هذا الموقف. إذ تحدثت دراسةٌ مسحيةٌ عن شعور 85٪ من العاملين بِالعجز عن «إثارة مسألة أو التعبير عن مخاوف أمام رُؤوسائهم في العمل مع إدراكهم لأهميتها».(269) وحينما كان توريش وفريقه يدخلون الشركات، ويعودون بآراء سلبيةٍ من العَاملين، كان المُديرون «كثيرًا ما يشعرون بالصَّدمة».(270) وفي حين يتعامل بعضهم بِجديةٍ مع

---

(267) *The Dark Side of Transformational Leadership,* Dennis Tourish (Routledge, 2013), p. 81.
(268) *The Dark Side of Transformational Leadership,* Dennis Tourish (Routledge, 013), p. 79.
(269) *The Dark Side of Transformational Leadership,* Dennis Tourish (Routledge, 2013), p. 79.
(270) *The Dark Side of Transformational Leadership,* p.78.

هذا الأمر، «يُشكّك العديد منهم تَشكيكًا مريرًا بِنتائج الدراسة، ويقولون إن أحدًا لم يُنبههم قط إلى هذه المَسائل من قبل، ولذا لا بد من أن البيانات مَغلوطةٌ.»

ويشعر اللاعبون البَارعون الأَذكياء بهذا الخَلل في النخب التي تُدير شُؤونهم، فيَسعون إلى تَحسين مكانتهم بالتملق والإطراء الفاعِلين، وهو ما يُسميه توريش "المصيدة المُعطرة".[271] ذكرت دراسةٌ شملت أربعمائة وواحدًا وخمسين مُديرًا تَنفيذيًا أن المُديرين الذين تلقوا معدلًا منتظمًا ومُكثفًا من الإطراء والمُسايرة قيموا قُدراتهم تقييمًا عاليًا، وكانوا أقل قدرةً على تَغيير مسارهم عند تَدهور الأحوال، وأيضًا أداروا مؤسسات يتوقع، على الأرجح، أنْ تُعاني معاناةً دائمةً من فقر الأداء.[272] وحينما كان توريش يحذر المُديرين من مَغبة هذه المخاطر، كانوا يومئون كثيرًا برؤوسهم في نوع من الموافقة السَهلة، وقال: «كان العديد منهم في الورش يَتبادلون حِكايات مُسلية تصور تصويرًا بارعًا ما يجري عمليا...لكنهم كانوا غالبًا ما يمضون في حديثهم إلى اِفتراض أنهم محصّنون ضد هذه التأثيرات. غير أن الواقع يَقول خلاف ذلك: إنهم ليسوا كذلك في أكثرية الأحيان.»[273] الأشد لفتًا لِلانتباه هو النتيجة التي انتهى إليها توريش: إن المُديرين الأَنجح هم الذين يعملون في العادة مع «الأَتباع الأقل امتثالًا».[274]

وبطبيعة الحال، فإن أكثريتنا لن يَتَنسم أبدًا هذه المُستويات من المكانة. مع ذلك، ما يَزال بإمكاننا العثور على تَحذيرٍ في تَجارب المثديرين التنفيذيين وأفراد الأُسر المَالكة والمَشاهير. نعيش جميعًا، بطريقةٍ أو بأخرى، في داخل قصةٍ تخدم مصالح ذاتية. وعندما نجد أنفسنا مُتمرغين بالدلال أو التملق ومُحلقين عاليًا، فإننا عادةً ما نُخفق في مساءلة جوهر الأمر. بل نَتقبله، ونَستمتعُ به، ونُرغبُ بالمزيد منه، ولن

(271) المصدر نفسهِ، ص. 7.
(272) المصدر نفسهِ، ص 81.
(273) المصدر نفسهِ، ص 89.
(274) المصدر نفسهِ، ص 87.

نشعر بالرّضا أبدًا عما حصلنا عليه. ولذا نستمر في اللعب، مؤمنين أن الخطوة التالية أو التي بعدها ستُسعدنا، وربما نبلغُ معها أقصى دَرجات السعادة.

غير أن المَكانة لا تَمنحنا أبدًا السعادة المُطلقة. في دراسةٍ صغيرةٍ ومذهلةٍ في آنٍ معًا، أقنع علماء نفس خمسة عشر شخصًا من المَشاهير الأمريكان، من بينهم أحد نجوم التمثيل في هوليوود، وبطلٌ في كرة القاعدة، وأحد نجوم موسيقى الريذم أند بلوز الشعبيَة، لِتَقديم تحليلٍ عما يجري فعلًا فوق مرتفعات بول مكارتني [في إشارةٍ إلى ذُرى المكانة].(275) قال المشاركون في وصفهم لِلاصطِخاب المبدئي لموجة المكانة بأنه شيءٌ مذهلٌ، وتحدث أحدهم مُستذكرًا: «طوفان البشر، والطَّلبات والرَّسائل الخَطية والإلكترونية، والتحيات في الشارع، والناس في السيارات، والتزمير بأبواقها، والمُناداة باسمك بأعلى الأصوات ... بدأ كل ذلك بالتصاعُد والتكثف مثل عاصفةٍ هوجاء صغيرةٍ قادمةٍ صوبك، وتَقتربُ منك.» وهكذا، بلا مقدمات: «تشعر أنك تستحق شيئًا ما. تشعر أنك مهمٌّ.»

ثُم هناك القصّة، التي حاك خيوطها الدماغ، التي تقول إنك قد حصلت عليها - أي المكانة. قال مُشاركٌ آخرٌ في وَصفه ما حدث: «تغيرت حياتي بعدها، إذ أضحى الناس يَتذللَون لي؛ وهذا ليس شيئًا جيدًا على الدوام، لأنك تبدأ لاحقًا في التصديق بأنك تَستحق أن يَتذلل الناس لك ويَتملقُونَك...عليك أن تبقى مُتيقظًا على الدوام. وأظن أنه شيءٌ في غاية العَناء. ثمّة أوقات استغل فيها ذلك، فَاستَفيد من هؤلاء المُتملقين، أو من السلطة التي بحوزتي.» وبقدر ما هو شعورٌ غامرٌ، إلا أنه ليس كافيًا. لن يكون كافيًا أبدًا. قال مُشاركٌ آخر: «أصبَحتُ مدمنًا على كل شيء يُمكن لِلمرء أن يحظى به عمليا، والشيء الذي استحوذ على القسط الأوفر من الإدمان هي الشهرة.»

وبعد ذلك، هناك جنون العظمة. «لا أظن أنك ستثق بالآخرين بالطّريقة ذاتها

(275) Being a Celebrity: A Phenomenology of Fame', Donna Rockwell and David Giles, *Journal of Phenomenological Psychology*, 2009, 40, 178–210. 10.1163/004726 609X12482630041889.

قبل أن تكتسب الشهرة...هل يضحكون على نُكاتي لأنهم يَظنون أني مُسلٍّ أم لأني من يقولها.» إنهم يَفقدون تدريجيًا الأشخاص الذين يحبونهم: «فقدت أصدقاء لي ... كانوا يشعرون بأنهم أقل ... بأني مُتميزٌ وهم لا. الشيء التالي الذي سَتَعرفهُ هو أنهم يفضلون بالفعل ألا تكون لهم أية علاقة بك.» وعبّر بَعض النجوم اللامعين عن خيَبة أملهم باللعبة. بيد أن المكانة ذاتها لم تكن هي المُشكلة. بل المُشكلة هي أنهم لم يكونوا يحصلون على *النوع الصَّحيح* من المكانة: كانوا يحظَون بوفرةٍ من مَوارد النجاح. إنهم يرغبون بالمكانة حاليًا من أجل اِستقامتهم ونَزاهتهم: «تكتشف أن ملايين من الناس يُحبون فيك ما تفعله، وهم ليسوا أقل اهتمامًا بِمن تكون.»

النقصُ هو أحد مكونات الحُلم الذي ننسجه حول الواقع. إنه انعطافٌ في إدراكنا يُبقينا في داخل اللعبة، ويحثّنا على الاستمرار فيها. وإذا ما كان هناك من عزاء لنا في هذه القصص هو أنها، للمفارقة، أشبه بِأداة تساوي بيننا. فأفراد النخبة، الذين يبعدون عنا في المكانة، لن يجدوا أبدًا الشيء الذي يبحثون عنه. الحياةُ لعبةٌ لا نهاية لها بصرف النظر عمّنْ نكون أو مدى الِارتفاع الذي نصل إليه في لوحة تَسجيل النقاط.

الفصل الثّاني عشر

التحامل العالمي

ثَمَّ تَحاملٌ عَالمي، تَحاملٌ يجمع البشرية: إننا لا نُحبّ من يَتَبخترُ فوقنا في المراتب العُليا. إنه شعور بالِاستياء والحنق يتجاوز السياسة والطّبقة والنوع الاجتماعي والثّقافة. وسِمهُ الزّعاف يتقاطر خلال جميع مفاصل الحياة البشرية. يشعرُ الناس بِارتياح تام لِأنهم شديدو القَسوة مع المشاهير، والمُديرين التنفيذين والسياسيين وأفراد الأُسرة المَالكة، كما لو أن مَنزلتهم العالية تجعلهم مُحصنين من الألم. وجدت نَفسي في إحدى المرّات أضحك على تغريدةٍ تقول: «كل هؤلاء كُتَاب عمود حقيقيين في صحيفة التلغراف: صوفيا موني- كوتس، هاري دي كوتفيل، هامش دي بريتون-غوردون، بوديكا فوكس- ليونارد.» وأدركت، بِقليلٍ من التوبيخ الذّاتي، أنني، بسهولةٍ ويسرٍ، كُنت مدعوًّا لمشاهدة أشخاص أنيقين والضّحك عليهم. بلغ عدد إشارات الإعجاب النهائي الذي حَصلت عليه التغريدة سبعًا وعشرين ألفًا.

ويَمتد إلى آلاف السنين هذا الشعور بالِانزعاج نحو اللاعبين الذين يتمتعون بمنزلةٍ مَرموقةٍ واضحةٍ؛ وهو مكونٌ متأصلٌ في إدراكنا المَعرفي لممارسة اللعبة. طالما كان البشر من الساعين العَنيدين والشرسين للسمو والمَنزلة. وكان تَزاحمنا من أجل المَناصب والمَراتب في مُجتمعات العَصر الحجري يُدار بِقوَّة بالغةٍ إلى حدٍ تبدو فيه التدرجات الهرمية أقل عددًا وعمقًا ممّا ألفناه في الوقت الحاضر، إذ يقل فيها التفاوت بين القمّة والقاع. لم تَتوصل إحدى الدراسات الحديثة إلى أدلةٍ تُفيد

ارتفاع حدة التوتر في أوساط النساء مُتدنيات المكانة في قبيلة هادزا "المُساواتية" في شمال تنزانيا.[276] ويُقال أحيانًا إن الصّيادين وجَامعي الثّمار لم يكن لديهم لعبة مكانة على الإطلاق، وإننا تطورنا في نوع من نَعيم المساواة الكاملة الساذج. مع ذلك، من الخطأ استنتاج أن هذه التدرجات الهرمية الضّحلة هي دليلٌ على أننا لم نُبرمج للاهتمام بالمكانة. يكتب عالِم النفس، بول بلوم، إن العكس هو ما كان يحدث: «إذ كانت أساليب الحياة المُساواتية في مجتمعات الصّيادين-جامعي الثّمار موجودةً لشدَة اهتمام الأفراد بالمكانة. ينتهي الأمر بالأفراد في هذه المجتمعات إلى أن يكونوا مُتساوين على وجه التقريب لأن كُل واحدٍ منهم يُناضل من أجل ضمان ألا يَحصل أي أحدٍ آخر على قوّة تفوق قوَّته».[277]

وميادين اللعب المُسطحة نسبيًا هذه باتت ممكنةً بفضل ما نَتميزُ به من حساسيةٍ فائقةٍ للعَلامات الدالة على سلوك «الناجحين والمؤثّرين»، ومُراقبتنا الصّارمة له.[278] حرص البشر على الحفاظ على مناخ «المُساواتية الشرسة»، إذ تعمل غرائزنا المُناهضة للشخص المهم على ضمان عدم استئثار أي لاعب بالسمو والسؤدد.[279] يَتعرّض الصّيادون، في جماعات الصّيادين - جامعي الثّمار المُعاصرة، الذين يميلون إلى التفاخر بِغنائمهم دائمًا إلى السخرية. تقول الأنثروبولوجية، إليزابيث كاشدان معلقةً على ما يحدث للصّيادين من جماعة كونغ في صَحراء كالاهاري: «إذا لم يَستصغر الفردُ أهمية ما يُنجزه أو يتحدث باستخفافٍ عنه، فإن أصدقاءه وأقاربه لن يترددوا في فعل ذلك من أجله».[280] وقد وثِقت كاشدان سُخريتهم

(276) 'Status does not predict stress: Women in an egalitarian hunter–gatherer society', P. Fedurek, L. Lacroix, J. Lehmann, et al., *Evolutionary Human Sciences*, 2, 2020, E44. doi:10.1017/ehs.2020.44.

(277) 'Paul Bloom, *Just Babies* (Bodley Head, 2013), p. 68.

(278) المصدر نفسه.

Our Inner Ape, Frans de Waal (Granta, 2005), p. 74.

مصطلح 'سلوك الناجحين والمؤثرين'، في هذا السّياق، يعود إلى بولي ويسنر، ومقتبس في:

Moral Origins, Christopher Boehm (Basic Books, 2012), p. 70.

(279) *The Goodness Paradox*, Richard Wrangham (Profile, 2019). Kindle location 3552.

(280) *The Goodness Paradox*, Kindle location 2587.

من أحد الرّجال، إذ كانوا يَسألونه عن صيده: «ما هذا؟ أحد أنواع الأرانب؟»[281] وعندما يفشل تعبير الاِستهجان الوَاضح في الوجه، وتشويه السمعة والاستهزاء العلني في تَحجيم سُلوك «الناجحين والمؤثّرين» في جماعات الأنويت، فإن أفراد الجماعة كلهم يتجمعون حول الجاني المُتعجرف لإنشاد «أغنية التهكم والاستهزاء أمامه».[282] وما تزال النميمة التي يُمارسها الصّياد- جامع الثّمار الحديث مشغولةً بـ «الانتهاكات التقليدية التي يمارسها ذوو المكانة العالية بحقّ الأعراف والتقاليد».[283] لحظت الدراسات أن الناس في العالم المُتطور يُحبذون، بالقَدر نفسهِ، الثّرثرة والقيل والقال بحقّ مرموقي المنزلة لا سيما إذا كانوا من نفس النوع الاجتماعي، وخُصومًا لنا في الألعاب.[284]

وقد فَطَنَ الباحِثون في تجاربهم المُختبرية إلى مشاعر الغيظ والاستياء نحو اللاعبين اللامعين. إذ لحظ علماء الأعصاب زيادةً في نشاط مناطق الدماغ المعنية بإدراك الألم بعدما طلبوا من المشاركين قراءة مادة عن شخصيةٍ مشهورةٍ وذكيةٍ وثريةٍ. ولحظوا أيضًا فورانًا في نشاط أنظمة المُتعة لدى المشاركين بعد قراءتهم عن تدهورٍ في مكانة هذه الشخصية القصصية المُختلقة.

ونظر علماء النفس في هذا التأثير نظرةً ثقافيةً. إذ لحظت دراسةٌ شملت اليَابان وأستراليا أن المُشاركين يستمتعون في التنكيل بـ «المُتفوقين»[285]: وكلما كان الفرد أعلى مقامًا ومنزلةً، تَضاعف الشعور بالاستمتاع بتقزيمه والحطّ من قدره. ورُصِدت مستويات الحسد الأشد سُميةً وخباثةً عندما يُحقق الشخص المُختال بمنجزه نجاحًا في «مجالٍ يحظى بأهميةٍ للمشارك، مثلما هو الحال في الإنجاز

---

(281) *JustBabies*, Paul Bloom (Bodley Head, 2013), p.69.

(282) *The Goodness Paradox*, Richard Wrangham (Profile, 2019). Kindle location 2600.

(283) *Behave*, Robert Sapolsky (Vintage, 2017), p. 302.

(284) *The Oxford Handbook of Gossip and Reputation* (Oxford University Press, 2019), p. 179.

(285) *Evolutionary Psychology*, David Buss (Routledge, 2015), p. 373.

الأكاديمي بين الطَّلبة»- أي عندما يكونون خُصومًا في اللعبة.

ومع ذلك، ومثلما عَلمنا، ما زلنا مَفتونين بالأفراد ذوي المَكانة العاليَة: إذ نتوق إلى الارتباط بِالمشهورين والناجحين واللامعين. ولذا، تَتصف علاقتنا باللاعبين من فئة النخبة بِأنها مُتأرجحة تأرجحًا عَاصفًا. إذ نحتشد قريبًا منهم، ونَمنحهم المكانة من أجل أن نتعلم منهم على أمل أن نحوز المكانة لأنفسنا في أثناء ذلك، هذا من جهةٍ. ومن جهةٍ أخرى، تَعتمل في نفوسنا نحوهم مشاعر اِستياء وسُخطٍ طاحنةٍ. وهذه، ربما، هي إحدى نتائج التنافر بين العُدة العَصبية لممارسة اللعبة والبناء هائل الحجم للألعاب الحديثة. قد تكون أدمغتنا مُهيأة للتعامل مع الجماعات القبلية الصّغيرة، لكننا نشترك اليوم- لا سيما في العَمَل وفي الفضاء الإلكتروني- في ألعاب بالغة الجسامة يلوح فيها فوق رؤوسنا الناجحون مثل أشجار السروَ الحمراء. المكانة نسبيةٌ: فكلما كانت منزلة الآخرون أعلى، كانت مكانتنا أدنى موازنةً بهم. إنها موردٌ يَسلبهُ منا ازدهارهم المتجلي تجليا عاليًا. والاستثناءات التي نَضعها تجنح إلى شُمول سُفراء جماعاتنا من مثل الفَنانين والمُفكرين والرّياضيين والزّعماء الذّين نتماهى معهم تماهيًا بالغًا. الظّاهر أنهم يُمثلوننا رمزيًا، بطريقةٍ ما. إذ يحملون معهم جُزءًا من هويتنا وجانبًا من كِياننَا، وبذا، يغدو نجاحهم نجاحًا لنا، فنبتهجُ ونغتبطُ له. هؤلاء المشاهير الناجحون، في لا وعينا، هم نُسخٌ مذهلةٌ في قدرتها على الإنجاز والتفوق: ولذا تقهر تِقنية «التقليد، الإطراء، الامتثال» الإدراكية شعورنا بالسخط والاِستياء.

وهذا التنافر المُزعج القائم بين الألعاب الصّغيرة التي بُرمجِنا للمشاركة فيها، والألعاب الوَاسعة التي نشارك فيها في الواقع هو مصدرٌ للجزء الأكبر من الصِّراع والإجحاف. بدأ التوسع العظيم للألعاب البشرية عندما تخلينا عن مواقع مجتمعات الزِّراعة والرّعي المُستقرين. وجدت العشائر القبلية القديمة، التي كانت تتمحور حول شبكات أُسرية ممتدةٍ، منازل وحقولًا ثابتة يعملون فيها. ثُم عملت على الارتباط والتواصل في مجتمعات محليَة أكبر تتمركز في العادة حول قرى،

وتُسمى مشيخات أو مناطق قبلية.[286] وشرعت هذه الجماعات القائمة على الأُسرة الممتدة في التخصُّص وتنظيم أنفسهم حول ألعاب محددةٍ: فظهر الحدادون والنجارون ورُعاة الماشية. وصاروا طوائف لاحقًا. وتعاظم الاِعتماد على تحديد الأقارب والأَنساب لموقع مكانة الفَرد الاجتماعية ومهنته: إذ قد تُولد في طائفةٍ من النساجين أو بائعي الحليب أو معالجي جُثث الحيوانات.[287] ونظامُ الطَّبقةِ الموجود حاليًا، إذ مكانة الشخص ومهنته في المستقبل تتأثر تأثرًا وثيقًا بصدفة ولادته في مكانٍ محددٍ، هو استمرارٌ لعمليةٍ يعود تَاريخها إلى آلاف السنين، إلى فَجر الحَضارة.

سَتَغدو العَشيرة المَبنية على الأُسرة الوَاحدة في هذه المجتمعات المحليّة القديمة، لا محالة، أغنى وأقوى من غيَرها. ومع اشتداد شوكة الحياة المُستقرة، تعاظمت كمية الفوائض الغذائية تعاظمًا لم يسبق له مثيل في العصور السالفة. ورافق ذلك تقسيمٌ للأرض، ولأوّل مرّة، بدأ الأفراد بِتكديس الثّروات التي كان الجزء الأكبر منها يتجه نحو الأعلى، إلى العشيرة في القمّة؛ كيف كان هؤلاء يفسَرون صُعُودهم؟ عن طريق سردَ قصةٍ شخصيةٍ تقول إنهم استحقوا أن يكونوا هناك: إنهم كانوا مُميزين بالفعل. ولذا، يُحرِمون، في الغالب، التزاوج مع العشائر الأدنى مَرتبةً،[288] وهو الإجراء الذي مَكَّنَهم من تعريف أنفسهم بوصفهم طبقةً من البشر مستقلةً استقلالًا قطعيًا ومقدسةً. إنهم يقودون المَشيخة إمَّا عبر مجلسٍ من كبار السنَ أو حاكم فرد.[289]

ومع هذا التراكم الجَديد في المكانة ورُموزها، أخذت طريقة ضَبط اللعبة ومُراقبتها بالتهاوي. إذ نَجحت القبائل البشرية، في السابق، من تقويض تَدرجاتها التراتبية باستخدام القيل والقال بعدما شَرع الناس في معاقبة الناجحين والمؤثرين،

---

(286) *The Weirdest People in the World*, Joseph Henrich (Penguin, 2020), p. 116.

(287) المصدر نفسه، الصَّفحات 380- 470.

(288) المصدر نفسه، ص 117.

(289) المصدر نفسه، ص 116.

وضبط السلوك المُقترنة بالنجاح. وتمكّن الحُكام العظام والأَقوياء في هذا الوقت من البُروز. وهكذا، شرعَ شغفنا ما قبل البشري بالظَّفر بالمكانة في الانطلاق في انتصارٍ متجددٍ. سيشعر أفراد النخبة الذّين ذاقوا طعم المكانة إنهم يستحقونها، وإنهَا هبةٌ من الرّبّ بعدما نسجت أدمغتهم أحلامهم الأنانية القابلة للتنبُّؤ. ثُم دبّ الشعور بالنقص في نفوسهم: إذ تكيفوا مع مُستويات المكانة التي بلغوها، وباتوا يريدون المزيد. والظّفر بمكانةٍ أعلى يعني قيادة جماعات أكبر عددًا. إن زيادة عدد اللاعبين التابعين لهم يعني نُفوذًا أكبر، وتَبجيلًا أعمق وفائضًا في الأشياء البرّاقة المُتوهجة. ومع الزّيادة في عدد السكان، تندمج الأقاليم، وتَندفع طبقات النخبة إلى توسيع مجال سيطرتها عن طَريق الغزو. فتصيرُ المشيخات مَمالك ودولًا وإمبراطويات. وتتضخّم مساحة ميادين اللعب، ويُمارس أفراد هذه الطَّبقات اللعبة فوقنا، على مسافة غير محددةٍ في مداها.

وبقدر ما يُقدم هذا التوسع الهائل من فائدة في المراتب العليَا، فإنه يتسبّب في معاناة اللاعبين في المراتب الدنيا، إذ يصبحون أشد ضعفًا واعتلالًا. أظهرت الهياكل العظمية من قبور يمتد عمرها إلى 3500 عامٍ في اليونان أن أفراد الطّبقة الحاكمة رفيعو المقام كانوا أطول من عامة الناس بحوالي الخمسة إلى السبعة ونصف السنتمتر، وكان لديهم متوسط تجويف أسنان يبلغ واحدًا إلى ثلاثة لدى العامّة. ولحظ الباحثون أن معدل إصابات العِظام الناجمة عن الأمراض المُعدية في الهياكل المُحنطة لأفراد النخبة الذّين يُدفَنون مع أدوات الزّينة ودبابيس الشعر المُذهبة الخاصَّة بهم في التشيلي أقل بمعدل 400٪ من نَظيرتها في هياكل الناس العاديين، مع الِانتباه إلى أن معدل الإصابة بين النساء العاديَات هو أعلى موازنةً بالرّجال من نفس الفئة.[290] كان استقرارنا وحيازتنا للأرض سببًا في توسعٍ هائلٍ في لعبة المكانة لم نبرأ منه مُطلقًا.

---

(290) *The Rise and Fall of the Third Chimpanzee*, Jared Diamond (Vintage, 1991). Kindle location 3283–3295.

البشرُ اليوم مثلما كانوا دائمًا؛ فهم حيوانات طموح وواهمة، وغيورة وساخطة أيضًا. بوسع الرّموز الجليَة لِإزدهار الآخرين- مثل الثّروة والممتلكات والأسماء المُركبة للأُسر في صحيفة الديلي تلغراف- أن تُعدل من الطّريقة التي نعتمدها في مُمارسة لعبة الحيَاة. وبقدرة هذه الرّموز أن تُغيرنا وتجعلنا أَخس وأقسى وأقل تهاونًا. نفذ الأستاذ نيكولاس كريستاكيس، المُختص في الشبكات الاجتماعية، تجربةً لعبَ المشاركون فيها في ثلاثة عوالم رقمية؛ الأوّل مُساواتي، والثّاني تسَوده مُستويات من الإجحاف مُتوسطة المدى خاصة بالبلدان الإسكندنافيَة، والثّالث تغلب عليَه مُستويات أمريكية أشمل.(291) وزع كريستاكيس كُل مجموعةٍ من اللاعبين توزيعًا عشوائيًا إلى أغنياء أو فُقراء، وأعطاهم مالًا حقيقيا. وكان عليَهم، بعد ذلك، أن يقرروا ما إذا كانوا سيُسهِمون في تعزيز ثروة المجموعة أو اِستغلال الوضع لمصلحتهم الخاصَّة أو الِانسحاب. المُدهش أن مستوى الإجحاف في اللعبة لم يكن العامل الحاسم في تحديد سلوكهم، بل فيما إذا كان الإجحاف معروفًا للآخرين أم لا. إذ ارتفعت نسبة المُساواتية لدى المشاركين كلهم، بما فيهم أفراد النخبة، بعد التعتيم على ثروتهم في مقابل زيادة معدل العدوانية وانخفاض مستوى التعاون إلى "قرابة النصف" لدى اللاعبين في كل لعبةٍ بعد الكَشف عن ثروة كل واحدٍ منهم؛ مع لحظ أن الأَثرياء منهم كانوا أكثر مَيلًا إلى اِستِغلال الفُقراء.

أفضى التوسع البشري الهائل أيضًا إلى تَغييرٍ في الحياة شائع وحاسم في تأثيره. إذ تطور البشر، بحسب ما تعلمناه، ليشتركوا في ألعاب مكانة غير رسمية، ففي حين يتصف التعبير عن المنزلة في قبائل الصّيادين- جامعي الثّمار، بأنه خارجي أحيانًا، إذ يتجلى في مؤشرات النجاح- المتمثّلة في قلادة العظام التي يرتديها الصّياد أو مَهجع شيخ القبيلة الآمن، إلا أنه يقترن غالبًا بالإحساس. إذ نَتَتَبعه في لُغة الجسد

(291) *Blueprint*, Nicholas Christakis (Little Brown, 2019), p. 108.
Possessed, Bruce Hood (Penguin, 2019), pp. 111–112.

ونبرات الصّوت، ومستويات الِاحترام والتبجيل. ومع تشكّل المجتمعات المُستقرّة، تترسخ المنزلة الرّفيعة للشيوخ والمُلوك والقَساوسة ورُؤوساء الوزراء ومديري الشركات التنفيذيين بفضل الألقاب والطّقوس وأفعال التبجيل والتعظيم القسريَة. وهكذا، يُشرع الأفراد في المشاركة في لَعبتين متوازيتين هما اللعبة *الرسمية* الظَّاهرة في التدرجات الهرمية الكبرى للثقافة والاقتصاد والمُجتمع، واللعبة *الحقيقية* غير الرّسمية التي تواصل حضورها في أذهان اللاعبين.

وقاد ذلك إلى بُروز ظاهرةٍ يُمكن تسميتها بـ "مفارقة الأمير تشارلس"، إذ يُمكن للمرء أن يكون رفيع المكانة ومرذولها في آن معًا. ينعمُ الأميرُ تشارلس بقدرٍ هائل من المكانة الرّسمية، فهو الوريث للعرش البريطاني (قبل وفاة الملكة إليزابيث) لكنه ليس كذلك في المكانة الحقيقية، إذ يحمل قُرابة النصف فقط من رعاياه البريطانيين رأيًا إيجابيًا عنه.(292) من المحتمل أن تؤدي هذه الديناميات إلى عواصف مدويةٍ من البؤس والاغتمام للاعبين بعدما يفقد زعماؤهم- سواء أكانوا من أفراد الطَّبقة الحاكمة المُصابين بِجنون العَظمة أو رؤوساء العمل الفَظيعين- ثقتهم بمستوى مكانتهم الحقيقية، ويَطلبون منهم أن يُظهروا قَدرًا متزايدًا من الولاء والخُضوع والإعجاب.

وتَزيدنا الألعابُ الرّسمية جنونًا بسبب الجوائز الأساسية صِفْرية المكسب التي تُمنح للغالب على حساب المَغلوب. وهذا صحيحٌ وواضحٌ في العصَر الحديث على وجه الخصوص. فلعبة الكِتابة التي يُمارسها المؤلفون محتشدةٌ بمعارك صِفرية المكسب مثل هذه: إذ المساحات محدودةٌ في صفحات المراجعة في الصُّحف، ويُعرض "الإصدار الجديد" في محال الكُتب، وتحدد المواقع في تدرُجات المَبيعات الرّقمية، ومَنزلة "العنوان الرّئيس" الذي يتوقع له أنْ يُحقق أفضل المَبيعات في دور

(292) https://yougov. co.uk/topics/politics/articles-reports/2018/11/14/prince-charles-first-line- throne-only-seventh-popu.

النَشر. يجد الأكثرية منا أنفسهم، منذ أوّل يوم لهم في المدرسة إلى التقاعد، وهم يُكافحون من أجل الفوز بجوائز مشحونةً بالمكانة. والمتوقع أن الحياة في القبيلة كانت سَتشهد عددًا أندر من هذه المُنافسات. وعلى الرّغم من عجزي عن البرهنة عليه، إلا أني أظن أن تعرّضنا المُتواصل والمُكثف إلى اللعبة صِفرية المكسب الرّسمية مسؤولٌ عن الجزء الأكبر من البؤس والقلق والإجهاد الذي نَشعرُ به بوصفنا لَاعبين في القرن الحادي والعشرين. ولا بد من أن هذه اللعبة هي السبب في الكثير من العدوانية التي نشعر بها حيَال الآخرين.

لم يتطوّر البشر لكي يمارسوا الألعاب ممارسةً رسميةً، ولم نتطور لممارسة ألعابٍ غير معقولةٍ. بل تطورنا لنشعر بالِامتعاض والِاستياء. إذ ساعد هذا الشعُور الخطر، قبل وقتٍ طويلٍ، في تمكين القبائل من الاستمرار في أداء وظائفها والحفاظ على التدرجات الهرمية الضّحِلة فيها. إنها تدفعنا إلى مُعاقبة من نشعر بأنه يتبختر مَزهوًا بمكانتهِ فوقنا أو يحاول اِدعاء مكانةٍ لا يستحقها. إننا مُحاطون في الوقت الرّاهن بهذا النوع من الناس الذين بوسعهم، بسبب مشاعر الِاستياء التي يَتَسببون بها، أن يُفسدوا طعم القصّة التي نرَويها عن العالم، ويملؤونها بِسلسلةٍ لا نهاية لها من الأوغاد الذين نُشير لهم ونتهكَّم عليهم ونُنشد أناشيد السخرية نتهم بكل صدقٍ وغلٍ.

الفصل الثّالث عشر

عيش الحلم

عندما كُنت في الرّابعة عشر، اشتريت قميصًا (تي شيرت) من النوع الذي يرتديه أعضاء فرقة موتلي كرو الموسيقية الأمريكية من متجرٍ للبيع في وولورثز (في أثناء جولتهم الفنية ثيتر أوف پين Theatre of pain) بقيمة ثلاثة جنيهات وتسعة وتسعين سنتًا). كان ارتداء هذا القميص أوّل مرَّة مناسبةً للشعور بفخرٍ طاغٍ. كُنت نَرجسيًا بالإنابة عن أقاربي الموسيقيين الساحرين: إننا *أفضل* من أولئك المَعتوهين الذين يعشقون فرق الفتيان والحفلات الصَّاخِبة. كُنت أعلم أن هذا الشيء هو الحقيقةُ، وكُنت مُتيقنًا من ذلك. والآن أنا في معرض إظهارها، [أقصد بذلك] المكانة المتخيلة التي كانت تنهمر عليَ بطريقةٍ ما حينما كُنت أمشي مُتبختِرًا مثل أحمق ذهابًا وإيابًا في منطقة المشاة. ليس غريبًا هذا النوع من السلوك، بطبيعة الحال؛ فهو أحد المكونات الأساسية في الحياة البشرية. إن السبب في التحريم الاجتماعي الخاص بسلوك الناجحين لا يتصل بتبجُّحهم وتَفاخُرهم بالنيابة عن جماعاتنا، على العَكس من ذلك، فهذا التعبير عن مثل هذه المشاعر هو أمرٌ عاديٌّ، وحتى محمودٌ.

ومن أجل فهم السبب في ذلك، بوسعنا السَفر إلى مدينة مارادي في جمهورية النيجر. إنه العام 1974، إذ واجه الأنثروبولوجي جيروم باركاو لُغزًا مُحيرًا.[293]

(293) *Darwin, Sex and Status,* Jerome Barkow (University of Toronto Press, 1989), pp. 217–227.

كان العديد من مواطني مارادي سَليلي اللاجئين من أفراد العائلة المَالكة في مملكة كاتسينا القريبة، الذين اضطروا في القرن التاسع عَشر، إلى الفِرار من مواطنهم في أعقاب غزو الجهاديين لها. كان أحفاد الملوك هؤلاء يعانون شَظف العيَش بعد فشلهم في اِستعادة المكانة المرموقة التي كان أَسلافهم ينعمون بها. وتوقع باركاو بِأنهم يضَمرون مشاعر كراهيةً اِنتقامية نحو الجهاديين الذين سلبوهم مكانتهم. لكن لشدة ما كانت دَهشته بعد ملاحظته أن العكس هو الصَّحيح على ما يبدو: «تملكني الذّهول من غياب أي ملمحٍ من مَلامح المقاومة للإسلام على الرّغم من تَاريخ المنطقة»، وأضاف: «وجدت، بدلًا من ذلك، كثيرًا منهم يدعون تحدرهم من أُسرة شَديدة التقوى والعلمية». لم يكتفِ الإسلام بِأن يُصبح قوةً مؤثرةً فحسب، بل أخذ في الاِنتشار والنمو.

لم يكن الأمرُ منطقيا؛ لذا شرع باركاو بِتقديم أسئلةٍ بعدما وجد سبيلًا لمقابلة اثنين من الأحفاد المُباشرين لِلأُسرة المالكة في كاتسينا، اعتنق أحدهما الإِسلام في حين لم يفعل الآخرُ ذلك. تَتلمذ دايا على يد فقيهٍ قرآني منذ صباه، وتَمكّن من حفظ القرآن بعمر السادسة عشر، وأيضًا تلاوته في أجزاء؛ وهو إنجاز أَهَله للمُشاركة في حفل تخرجٍ رفيع المستوى اسمه سوكا (Sauka). وانكبّ فيما بعد على دراسة القرآن ساعات عديدة يوميًا، يرافقه في ذلك زوجتاه وأطفاله الثَّلاثة. لم يَكن دايا ثريًا، لكنه كان فخورًا بنفسهِ. كان الفرنسيَون يحتلون المدينة في ذلك الوقت، وكان هو مُمتَعضًا من أبناء بلده الذين اختاروا أن يَشتركوا في لعبة المستَعمِرين، والتمتع بتعليمهم الميَال لفرنسا، والظّفر بالمكانة في أَنظمة السلطة السائدة أيضًا: «كان شديد الانتقاد والتعنيف لأفراد النخبة البيروقراطية الذين تلقوا تعليمًا فرنسيًا في مقابل تَوقيره وإعجابهِ بعلماء القرآن الذين كان يلازم مجلسهم ساعات عديدة يوميًا، ويَتقاسم الجزء الأكبر من دَخلهِ معهم».

وهناك شيدا، حفيدُ الأُسرة المالكة في كاتسينا أيضًا الذي لم يَنتفع، على شاكلة أخيَه دايا، من التعليم الفرنسي الذي تلقاه أبناء النخبة البيروقراطيين، ولم يتلق،

مثله، تعليمًا قرآنيًا. بل اختار أن يتبع مسارًا تقليديا شائعًا، إذ عمل في مهنٍ مختلفةٍ، في خياطة المَلابس في البداية، ثمّ في بيع الفول السوداني. لكن هذه الأعمال لم تكن مؤاتيةً لشيدا الذي ما برح في شجارٍ مع رؤوسائه في العمل؛ الشيء الذي أدى إلى تَدهور علاقاته المهنية. ألقى أحد أصدقائه باللائمة، في هذا الفَشل، على «أصل شيدا النبيل»، إذ كان يعتقد أن تَحدره من سلالة الأُسرة المالكة قد جعلته فخورًا للغاية بِنفسه؛ وهو ما كان يمنعهُ من أنْ ينزل إلى مرتبة بائع الفول. ولذا، كان شيدا يتلقى الدعم المادي من زوجته وأمّه حينما قابله باركاو: «خلافًا لدايا الذي قدم، في شخصه، تصورًا عن الحيَوية والثّقة بالنفس، بدت واضحةً على شيدا علامات الوهن الجَسدي والانحناء وعدم اليقين». الرّجلان كلاهما كانا يرتعان بمرجعياتهما المَلكية المُهابة، وكلاهما استهل حياة الشباب بهممٍ عاليةٍ وطموحات عظامٍ. لكن دايا وحده عثر على لعبة يكفل له الاشتراك فيها قَدرًا من المكانة يكفي لِاسترضاء نبالة محتده. شيَد دايا «تقديره الذَّاتي على صورةٍ لنفسه بوصفه مُسلمًا صَالحًا»، وكان يرى، مع غيره من أحفاد الأُسرة المالكة الذّين قابلهم باراكاو: أن «التعليم الإسلامي وحده جديرٌ بالتوقير والاِحترام. أمّا الأنواع الأخرى من التعليم، هذا إذا قُدمت للنقاش في الأصل، فسخيفةٌ ومذمومةٌ وليست سوى وسيلةٍ لكسب المال. كان دايا، وكثيرٌ مثله، يحتقرون في سِرّهم أفراد النخبة فرنسية التعليم والميول، الذين يحتكرون السلطة السياسية إلى حدٍ بعيدٍ ... كان يرى في نفسه شخصًا أعلى مقامًا من أفراد الطّبقة البيروقراطية الحاكمة بفضل استثماره معايير مَهابة وإِجلال لها علاقة بالإِسلام.»

ومن أجل أن تُحقق لعبة المكانة، التي يُمارسها دايا، المأمول منها، كان عليه أن يؤمن إيمانًا قاطعًا بـ "معايير المَهابة" المُتضمنة فيها. وهكذا، نَسج دماغه له حُلمًا يقول إن لعبة الإسلام ليست فِعلَ مخيلةٍ مشتركةٍ، بل هي لعبة حقيقية، إذ كان دايا فيها مُمثلًا فاضلًا ونزيهًا في واقعٍ محِوره الرّبّ. صار هذا الشيء مَنطقتهُ العصَبية الخاصَّة، أو العالم الذي يشعر فيه أن قَواعده ورُموزه ـ أو "معايير المَهابة" الخاصَّة

به – صحيحةٌ صحةً قاطعةً لا شك فيها. إن حفظه للقرآن دليلٌ على شيء حقيقي. كان دايا يؤمن إيمانًا عميقًا وصادقًا بحقيقة حُلمه وصحتهِ. كان يَجِب عليه ذلك. يفرض منطقُ لعبة المكانة علينا أن نؤمن في أحقّية جماعاتنا بالتقدير العالي. إذ كيف يَتسنى لنا أنْ ننهلُ المكانة مِنها إذا لم نكن نؤمن بِأنها رفيعة المكانة في أصلها وجوهرها. غذا الإيمان بهذا الحلم دايا، وملأ «جوهره النبيل» بـ «العنفوان والثّقة بالنفس». ومثلما ذاد بن غون (في الفصل الأول) عن مكانتهِ من التعرض للضيَاع في السجن، وأنقذ اليوت روجر (الفصل الثّامن) نفسه من التنمر والرّفض بالاِستعانة بلعبة «حرب العالم» الرّقمية، تمكن دايا من إسعاف نفسه وحماية منزلتهِ المَلكية من السرقة عن طريق الاشتراك في اللعبة ذاتها المسؤولة عن سُقوط أسلافهِ. وفي حين ازدهرت أحواله وزهت، تدهورت أوضاع أخيه شيدا الذّي لم يصدق بِلعبة المكانة المتضمنة في بيع الفُول السوداني، الشيء الذّي صيره «ضعيفًا ومُنحنيًا ومُهزوزًا.»

إننا نُراقب ونَرصد بعضنا بعضًا في الألعاب التي نشترك فيها؛ لأن عَدالة اللعبة واستقرارها، وضبط سُلوك الناجحين والمؤثرين فيها تصبّ في مَصلحة الجميع. مع ذلك، تخلو المنافسات على المكانة بين الألعاب من هذا النوع من إجراءات الضّبط. على الضّد من ذلك، إذ يمنحنا زملاؤنا من اللاعبين مكانة أرفع حينما نتصرف بِطرائق تُعزز من منزلة لعبتنا في مقابل الاِنتقاص من لعبة الخُصُوم: يظهر ذلك عندما نَسخرُ، في سبيل المثال، من أن ميل أفراد النخبة إلى تبني التعليم المؤيد لفرنسا هو من أجل المال فحسب. وعندما يقض مضجعنا قلق المكانة، فإننا نُسرع إلى النظر إلى الألعاب التي يُمارسها خصمنا- سواء أكان هذا الخصم شركات مُساهمة أو أديان أو نوادي كرة قدم أو فِرق موسيقية أو زملاء دراسة أو أمم- ونُقنع أنفسنا بِتفوقنا النسبي. وحتى لو كانوا في موقعٍ أعلى منا في التدرُّج الهرمي للألعاب، فإننا سنروي قصصًا تقول إننا نُفضل أن نكوْن في الموقع الذي نحنُ فيه. اللعبة التي نشترك فيها هي اللعبة الوحيدةُ: إنها متصلةٌ بفريقنا لكرة القدم

وشركتنا وزملائنا وقبيلتنا ودِيننا. وهذا الهَوسُ بألعابنا، الذي يستبد بنا، واضحٌ للغاية في المنافسات الرّياضية. إذ من المحتمل أن يقضي مشجعو نادٍ لكرة القدم- على تدني مكانته في الدوري- الكثير من وقتهم في إقناع بعضهم بعضًا بأنهم بالفعل متفوقون نسبيًا. إنهم يبحثون عن الأفكار والحُجج الحَاذقة للانتقاص من خصومهم، ويُعيدون تقديم الخَسارات بوصفها مظالم أو انتِصارات نسبية، ويعيشون ثانيةً أمجاد الماضي. وكلما تمكنوا من إقناع بعضهم بعضا، تعزز وتكاثف حلمهم، وارتفع منسوب النرجسيةً لديهم بطريقة تَصبُ في مصلحة ألعابهم. إنها لعبة مكانة. إنها مُخادِعة وحَقودة، وهي إحدى أعظم مُتع الحياة.

وهذا الهَوسُ الجماعي بالعظمة جليٌ في النزعة القومية كذلك. وجهت دراسةٌ كان محورها «النَرجسية القومية» سؤالًا إلى آلافٍ من الطّلبة في خمسة وثلاثين بلدًا، هو: «ما الإسهام الذي قدمه البلد الذي تعيشُ فيه، من وجهة نظرك، إلى تاريخ العالم؟» بلغت نسبة إجمالي الإجابات الكَاشفة عن هذا الهَوس رقمًا مُضحكًا ومُستحيلًا في ضخامته هو 1156٪، والسبب هو أن المواطنين، على شاكلة عشاق الألعاب الرّياضية، يستمدون شعورًا شخصيا بالمكانة- حتى إن كان هذا الشعور غير واعٍ- من مكانة بلدانهم. لست من مؤيدي النزعة القومية، حتى القليل منها، ومع ذلك، خضت، بعد انتقالي إلى أُستراليا، تجربةً مفزعةً وجدت نفسي فيها أتحدث بِلكنةٍ إنكليزيةٍ متكلفة في الأماكن العَامة. واِضطَررت لاحقًا إلى إرغام نفسي على التحدث بأسلوبٍ عادي. كانت التجربة محرجةً، والواقع إنها كانت إستراتيجيةً فظيعةً للظفر بالمكانة في هذا البلد. مع ذلك، بدا إحساسي بنفسي بوصفي إنكليزيًا مهمًا أهميةً واضحةً لذلك الجزء الأبله من دماغي (شعرًت أيضًا بالاِنزعاج عندما كانوا يُسموننا بـ «الإنكليز دائمي التذمر والشكوى»، مع أننا كذلك بالفعل.

تُظهر الدراسات التي تناولت تأثيرات المَكانة القومية في سَعادة الأفراد بأني لستُ الوحيد في هذا الجانب. إذ لحظت دراسةٌ تتبعت السعادة في بريطانيا على

مدار القرنين الأخِيرين، استنادًا إلى تحليل اللغة في ملايين الكتب والمقالات الصّحفية، أن المَزاجَ القومي بلغ أوجه في العقد الأخير من القرن التَاسع عَشر.[294] شهدت هذه المرحلةُ، على الأرجح، انتشارًا واسعًا للفقر والأمراض وعمالة الأَطفال، لكنها شهدت أيضًا اِقتراب بريطانيا من القمّة في لعبة المكانة العالمية، وبلوغها أُوجُ سَطوتها الإِمبراطورية. بوسعنا لحظ المُتعة التي يجلبها هذا الشيء إلى نفوس الناس العاديين في تدوينةٍ للمؤلف لوري لي يتحدث فيها عن صفّه الدراسي في عِشرينيات القرن العِشرين الذي كان: «مكتظًا بالخرائط المؤشر عليها بالأحمر جميع الأَقاليم الاِستعمارية [التابعة لِبريطانيا]، وكنا معتادين على الجُلوس هناك؛ كُنا فُقراء للغاية، فُقراء وقانعين؛ إذ كُنا نعتاش على الكرنب المسلوق والمُحمص. كُنا الأفقر بين الفُقراء. تعودنا على الجلوس في الصّف، والنظر إلى هذه الخَرائط وتَصوَر: إننا الأعظم في العالم لأننا نملك كل هذه القطع المؤشرة بالأحمر على تلك الخارطة، على خارطة العالم تلك. كل مناطق أفريقيا والهند، وكُل تلك الجُزر في بحر الباسفيك. ثم كُنا نَتبادل النظر كما لو أننا قادةٌ في الجيش الرّوماني.»[295]

وسواء أكانت أُممًا أو أديانًا أو مُشجعي كرة قدم، فإن الألعاب هي صَنيعة الناس. ومن أجل أن نؤمن بتفوق ألعابنا، يَجِب علينا أن نؤمن بتفوق اللاعبين المُشاركين فيها وبَراعتهُم. أدرك علماء النفس، منذ أمدٍ بعيدٍ، ميلنا الغَريزي إلى حُسن الظن بقدرات رفاقنا اللاعبين. والتحيز الذي يُظهره البشر لما يخصّهم هو تحيزٌ عالمي وغير واعٍ، وينشطُ عند أقل اِستثارةٍ أو تحريضٍ. إذ حالما ننضمُ إلى جماعات يرتبط أفرادها حتى بأوهن الرَّوابط، تبدأ عملية تعزيز المكانة غير العادلة. طلب باحِثون من أطفالٍ بعمر الخامسة في إحدى الدراسات ارتداء قميصٍ ملونٍ (تي شيرت) ثُم عرضوا عليهم صورًا لأطفالٍ آخرين بعضهم يرتدي القَميص

(294) 'Historical analysis of national subjective wellbeing using millions of digitized books', T. T. Hills, E. Proto, D. Sgroi et al., *Nature Human Behaviour* 3, 2019, 1271–1275.
(295) 'a wall of maps': *Down in the Valley*, Laurie Lee (Penguin, 2019), chapter 6.

ذاته، وبعضهم الآخر لا.[296] ومع أنهم يَعرفون أن لون قمصانهم اعتباطي ولا معنى له، إلا أنهم ما يزالون يحسنون الظَّن بالأطفال الآخرين الذين لقمصانهم اللون نفسه، إذ يَتوسمُون فيهم الكَرم واللطف مُضافًا إلى أنهم يَتَحيزون في مُجازاتهم، إذ يُخصِّصون لهم وفرةً من قطع النقُود المعدنية في اللعبة. بل إنهم يَحتَفِظون بمكانتهم المرموقة في ذكرياتهم، إذ أظهروا براعةً في تذكر الأفعال الإيجابية لإخوانهم الذين يرتدون القميص ذاته بمعدلٍ أعلى من تذكرهم الأفعال المُماثلة في جودتها للأطفال الذين يرتدون قمصانًا مختلفة في ألوانها.

هذه هي حقيقةُ الطَبيعة البَشرية: إننا لَاعبون واهنون ومُبرمجون بطريقةٍ تجعلنا نَتحيز في لِعبنا. ويحكم الدماغ على مكانتنا في ضوء نمط التنافس، إذ نوازن بين ما لدينا ولدى الآخرين. وكلما تعاظم ما تملكه الجماعة التي ننتمي لها، وتمكّنت من التسلق إلى الأعلى موازنةً بالجماعات المُنافسة، فاض الشعور في داخلنا بأننا حصلنا على الجائزة الأمثل. إن حقيقة أن أدمغتنا تُخفي هذه السلوك هي، على الأغلب، أشد ضررًا من ميلنا نحو الجَشع والمُراوغة. إنهم يَسردون قصّةً شخصيةً نؤدي فيها دور الأبطال النزيهين لا اللاعبين الحَذرين الماكرين. المُخادِعون والجَشِعون والفَاسِدون هم جميعُ اللاعبين عَدَانا ورِفاقنا في اللعب. فالمتفوقون حقًا هم من يَرتدون القمصان الزّرق، هم الإسلاميون، أو الفرنسيون، أو الإمبراطورية الفرنسية، إنه المُتغطرس في المنطقة الذّي أنفق أربعة جنيهات في متجر لبيع القمصان في وولورثز، ويتصوّر نفسه حاليًا ملك مدينة تانبرج ولز.

مكتبة
t.me/soramnqraa

(296) 'Consequences of "Minimal" Group Affiliations in Children', Y. Dunham, A. S. Baron and S. Carey, *Child Development* 82, 2011, 793–811.

الفصل الرَّابع عشر
الإخضاع والثّورة والحضارة

إن نُزُوعنا نَحو تصديق القصص التي تنسجُها الأدمغة والثّقافات هو أحد مصادر الكَثير من الظُّلم الذي شابَ التاريخ البشري. وبسبب إصرارنا على مكافأة أنفُسنا وزُملائنا في اللعب بالجوائز كُلها، ترانا نبرعُ في تَصوُّر الجزء المضيء من الحقيقة الذي يخدمُ مصالحنا الذّاتية. فقصصنا تخدمنا في أغلب الأحوال، وتُقنعنا بنزاهة كفاحنا ومَساعينا، وتَدفعنا إلى الكدَ في اللعب لِبلوغ أعلى المَراتب. غير أن هذه القُصص ذاتها قد تعمل بالضّد منا، إذ بوسعها أن تُقنعنا بالاشتراك في مؤامرة قهرنا وإخضاعنا.

هذا هو أحد الأدوار الذي تؤديها الأديان الكُبرى. فالحَقيقة المُضمرة لِلأديان هي أنها ألعابُ مكانة يتفق بموجبها المُسلمون البوذيون والهندوس والمسيحيون على مجموعةٍ من القَوَاعِد والرّموز يلتزمون بها في اللعب، يعقبها تشكيلهم لِتراتبية هرمية يتحركون فيها صعودًا ونُزولًا. ويُخبرنا الحُلم الذي يُنسَجُ حول هذه الحقيقة على الدوام عن جوائز المكانة المُجزية التي لا ينالها المرءُ في الحياة الدنيا، بل في الآخرة. ولا حاجة بنا إلى توضيح أن الأديان هي ألعاب فَضيلة؛ بمعنى أن على الفرد أنْ يكون ملتزمًا بالأخلاق وصادقًا ومُطيعًا وصَالحًا إن أراد النجاح في التنعم بالعلاقات والِاحترام في هذه الحيَاة أو في الحياة الآخرة أو الحياة الفُضلى عن طريق التَناسخ.

يَجِب على الأفراد أن يفعلوا ويلتزموا بما تأمرهم به آلهتهم وقَساوستهم

ونُصوصهم. والضَّبط هو الغرض النهائي لجميع ألعاب المكانة التي صَممها التطور لدفع الناس إلى التعاون والتعاضد: لإكراهنا (في حالة الهيمنة) أو رِشوتنا للامتثال والخُضوع(في الألعاب المَهيبة للنجاح والفَضيلة). يُعتقد أن الأديان الرَّئيسة قد ظهرت للوجود بوصفها وسيلةً للسيَطرة على العدد غير المَسبوق للبشر الذين بَدَؤُوا في العيش جنبًا إلى جنبٍ في «المجتمعات الكُبرى» الأولى. والنميمة لوحدها غير قادرة على إدارة مئات الآلاف من البشر المتفرّقين، مثلما كان الحال في عصر الصَّيادين وجامعي الثّمار؛ لذا اخترعنا الآلهة الوَاعظة التي تُغرينا على الالتزام بِسلوك معين، ومُعاقبتنا في حالة مُخالفتهِ. تزامن تأليف هذا الكتاب مع نقاشٍ محتدمٍ بين الأكاديميين، بخصوص إذا ما كان وجود الآلهة الواعظة يَتقدم على ظهور المُجتمعات الكَبيرة والمُعقدة أو أنها-أي الآلِهة- تطورت بالتزامن معها.[297] مع ذلك، يتفق أكثرية الباحِثين على الدور الجَوهري الذّي يؤديه «الدين الرّئيس» الذي أسسَ مجموعةً قياسيةً من القَوَاعِد والرّموز التي تُمكّن اللاعبين على اختلاف لُغاتهم وانتهاءاتهم الثَّقافية والاثنية من الِاشتراك في الألعاب. هؤلاء اللاعبون آمنوا بهذه القَوَاعِد والرّموز، وعاشوا حُلم الواقع الذي اخترعوه.

هيمنت ألعاب الفَضيلة المُتصلة بالإيمان والطّائفة والسيادة على العصر الذي عاش فيه هؤلاء اللاعبون. يُمكن لحظ هذا التوجه نحو الحياة الطَّبقية المُلتزمة بالفَضيلة في نظام الطَّبقات في الهند الذّي يمتدُ تَاريخه إلى ألفي عامٍ، وهو على الأرجح، لعبة المكانة الثَّقافية الأقدم على الأرض إضافةً إلى أنه، علَى الأغلب، النظام الأَصعب بِطبقاته الرَّئيسة الثّلاثة آلاف وطبقاته الفرعية البالغة خمسًا وعشرين ألفًا التي تَنتَظم كُلها حول خمس طبقات رَئيسة، هي: طبقة البراهمة والمعلمين الذّين يَشغلون القمَّة في الترتيب الهَرمي، والذّين خُلقوا من رأس الإله براهما؛ وطَبقة المُحاربين والحكّام الذين خُلقوا من أذرعه؛ وطبقة الزُّراع والتجار

(297) https://www.lse.ac.uk/News/Latest-news-from- SE/2021/g-July-21/A-fresh-look-at-the-origins-of-moralising-religions.

الذّين خُلِقوا من فُخذيه؛ وطبقة العُمّال المَخلوقين من قدميَه، وفي الجزء الأسفل هناك المَنبوذون أو الداليت.[298] لا تكتفي الطّبقة هنا بِتحديد عمل اللاعب، بل أيضًا حقوقِهِ وواجباتِهِ وطقوسِهِ وقواعد سُلوكِهِ، بما فيها ما يُمكنه اقتناؤه، وطَريقة دفنِهِ، وحتى مُمارساته الصّحية الشخصية.[299] كانت حياة المَنبوذين بالغة الوَحشية والقَسوة على مدى آلاف السنين. إذ تحتوي شرائع منُو، التي يَعُود تَاريخها إلى ما بين القرنين الثّاني والثّالث قبل الميلاد، على الإشارات المُدوَّنة الأَبكر إلى النبذ.[300] تَحدثت الباحثة مال ميَ نيراف عن «القلق العميق» و «الهَلع» الذي عبر عنه الناس من «الإتصال» بِالمَنبوذين مهما كان الشكل الذي يَتخذه هذا الإتصال.[301] الإستحمامُ واجبٌ على أي شخصٍ رفيع المقام إذا ما لمس منبوذًا؛ وإذا سقطَ ظلُ منبوذٍ على طَبق طعامٍ يَتناوله مُدرس، فإن الطّعام يغدو مُلوثًا وتَالفًا.[302] إنهم يعيشون في مناطق معزولةٍ ولا يتشاركون آبار المياه،[303] والإرتباط بعلاقة عاطفية مع أحدهم من المُحرّمات. ضُبِطت فتاةٌ رفيعة الطّبقة في السادسة عشرة من عمرها مع صديقها العِشريني مِن طَبقة المَنبوذين في مهرانا، وهي قريةٍ هنديَةٍ قريبةٍ من نيودلهي.[304] فعقد شُيوخها اجتماعًا استغرق الليل بطوله لِلتَباحث بشأن معاقبتها. وحينما أصدروا حكمهم، لم «يعترض عليه أحدٌ». بل شهد قرابة الثّلاثة آلاف شخصٍ، أي سكان القَرية كُلهم على وجه التقريب، العاشِقين وهما يُشنقان من شجرة تينٍ ضخمةٍ (بانيان). حدث ذلك في عام 1991 . يَزيدُ عدد المَنبوذين في الهند اليوم على المائة وستين مليونًا، ومع ذلك ما يزالون، بحسب قناة ناشينال جيوغرافيك (National Geography) «يُنفَون

---

(298) 'What is India's caste system?', Soutik Biswas, bbc.co.uk, 19 June 2019.

(299) *Private Truths, Public Lies*, Timur Kuran (Harvard University Press, 1998), p. 159.

(300) المصدر نفسه، ص 240.

(301) 'A Historical Analysis of Segregation of Untouchable Castes in North India from circa AD600–1200', Malay Neerav, *Amity Business Review*, Vol. 17, No. 2, July– December 2016.

(302) *A Little History of Religion*, Richard Holloway (Yale University Press, 2016), p. 170.

(303) 'What is India's caste system?', Soutik Biswas, bbc.co.uk, 19 June 2019.

(304) *Private Truths, Public Lies*, p. 158.

إلى أحقر المِهن، ويَعيشون في خوفٍ دائمٍ من التعرض للإذلال العَلني، والطّواف بهم وهم عُراة، علاوةً على احتمالات التعرض للضّرب والاِغتصاب، مع ضَمان الإِفلات من العِقَاب، على يد الهُندوس الأرفع منزلةً الذين يحرصون على إبقاء المَنبوذين في مواقعهم الوَضيعة. إن مجرد سيَر المَنبوذ في منطقةٍ يسكنها عليَة القوم هو إساءةٌ تُعرض حيَاته لِلخطر.»(305)

أنى لِنظام مثل هذا أن يبقى مُستقرًا؟ فإذا كُنا جميعًا لَاعبين طموحين طُموحًا شَرسًا وعنيدًا، ما سبب استمرار المَنبوذين، لآلاف السنين، في التعاون والرّضوخ لِحلم الحياة هذا الذي يَحتقرهم ويُهينهم بوحشيةٍ؟ كثيرٌ يفعلون ذلك لأنهم يؤمنون به. إذ يرى المَنبوذون الوَرعون أن السبب في المَنزلة المُذلة التي بلغوها يعود إلى ارتكابهم خطيئةً في حياةٍ سابقةٍ؛ لذا، لن يَنالوا منزلةً أعلى في الحياة التالية إلا إذا التزموا بالقَوَاعِد والأعراف في الوقت الحاضر. وهذه هي الطّريقةُ التي اعتمدتها العديد من الأَديان الرَّئيسة لإرغام أتباعها على الاشتراك في مؤامرة رُضوخهم وإِخضاعهم. فوزك مرهون بِمعرفتك مَكانك وبقائك فيه على آمل الإِثابة بعد الموت. والعالم كُله خلق الرّب، هكذا يقول المَنطق، والناس موجودون بالضّبط حيث يريدهم الرَّبّ أن يكونوا. وحسبما تنشد الترنيمة المَسيحية: «الثّري في قلعته، والفقير عند بابه. الرّبّ جعلهما في رِفعةٍ أو ضعةٍ، وعيَن مَنزلتهم.» فإذا حَشَدَ لاعبٌ من الطّبقة الدنيا في مجتمع فضيلٍ مثل الهند قِواه، ورام الارتقاء إلى مرتبةٍ أعلى، فإن زملاءه اللاعبين سيتآمرون غالبًا لإنزالهِ ثانيةً إلى حيث كان. تحدث الرّوائي فيديادر سوراجيراساد نيبول عن رجُل أعمالٍ أثار إعجابه ذكاء أحد الخدم من طَبقة المَنبوذين، فأعانه على إكمال تعليمه والتقدم في حياتهِ.(306) لكنه عند عَودته إلى الهند بعد ذلك بِسنوات وجده حيث كان قبل لقائهِ به، يعمل في تَنظيف المَراحيض؛ إذ «قاطعتهُ الجماعة التي ينتمي إليها لِانفصالهِ عنهم؛ ومَنعوه من

(305) 'India's "Untouchables" Face Violence, Discrimination', *National Geographic*, Hillary Mayell, 2 June 2003.

(306) *Private Truths, Public Lies*, Timur Kuran (Harvard University Press, 1998), p. 163.

مُجالستهم عند التدخين مساءً. ولم تكن هناك جماعة أخرى يُمكنه الاِنضِمام لها، ولا امرأة للاقتران بها. وجد نفسه وحيدًا في عُزلةٍ لا طاقة له بها، ولذا، عاد إلى حيث كان.» وكَتَبَ تيمور كوران، أستاذ الاقتصاد السياسي، في تعليقهِ الشارح لِهذه الحكاية: «يستطيع مُنظفو المَراحيض أن يذودوا عن سُمعتهم الشخصية والجماعية بِنبذهم لأحد أقرانهم الذي تَمكّن من الحصول على وظيفةٍ أفضل. بوسعهم، بفضل فعلهم ذلك، أن يُعلنوا للمجتمع المحلي كُله، بما فيهم الجماعات الأرفع منزلةً في التدرج الهَرمي الاِجتماعي، عن رَغبتهم واِستِعدادهم للعَيش على وفق الأَعراف الاجتماعية السائدة.»[307] يتحقق بُلوغ المكانة هنا بِتدمير رجلٍ طمُوحٍ، ولذا عَمَلَ المَنطق التعسُ لِلعبة على إرجاعهِ إلى موضعهِ المتدني الأصلي.

وليسَ جميع المَنبوذين الهُنود في العَصر الحديث مُقتنعين تمامًا بالقصَة القَديمة المسؤولة عن تحديد مصائرهم. إذ لحظت دراسةٌ أن ثُلثهم يقرون الرأي الذي يقول إنهم بلغوا حالة النبذ هذه بسبب ذنوبٍ ارتكبوها في حيوات سَابقةٍ في حين ألقى مَنبوذون آخرون باللوم على الظُّلم وغياب العَدالة، وعَبروا عن إيمانهم بنُسخةٍ مُعدلةٍ من الحُلم الهندي تخدمُ المَنفعة الشخصية، وزعموا «أنهم لم يَبذلوا جُهدًا حقيقيا قطّ في الظّفر بالمكانة، وأنهم كانوا بالفعل براهمانيون مُتنكرون.»[308] اللافت هنا هو محاولة بعض المَنبوذين اِستعادة إحساسهم بالمكانة النسبية عن طريق الاِستخفاف بمنْ هم أدنى مرتبةً منهم في سُلم النبذ الاجتماعي. عبرَ هزاري، الكاتب من طبقة المَنبوذين، في سيَرته الذّاتية، تعبيرًا صادقًا عمّا يفكر به أحد اللاعبين الحقيقيين، إذ قال: «إننا ننظر إلى مَنبوذي مقاطعة البنجاب بوصفهم أدنى مرتبةً منا- نحن المنبوذين- في الأَقاليم المُتحدة؛ إذ لا نتزوج منهم، أو حتى نَشرب من الوِعاء ذاته.»[309] وثُم سببٌ آخرٌ أساسي في بقاء التدرج الهَرمي الاجتماعي مُستقرّا، وعدم تحوله باستمرار إلى فوضى مُتصارعة هو أننا مُبرمجون

---

(307) المصدر نفسه.

(308) المصدر نفسه، ص 237.

(309) *Private Truths, Public Lies*, Timur Kuran (Harvard University Press, 1998), p. 237.

لممارسة ألعابٍ محليةٍ وجهًا لوجهٍ مع الآخرين من حولنا. إن الأغلبية الساحقة من الناس غير ثَوريين أو قاتلين للمِلوك، وكثيرٌ منهم لا يَنشدون التفوق المُطلق. ذكرت إحدى الدراسات أن 65٪ من الناس لا يرغبون في بلوغ "المَكَانة الأرفع" في ظل انشغالهم بِهموم الحياة اليومية، وبالمكانة التي نَتوقع منها أن تقدمها لنا.(310) وهذا صَحيحٌ ودَقيقٌ للغاية فيما يتصل بالمجتمعات والعُصور القَائمة على الفَضيلة. من المحتمل خضوعنا، في عَصر المَملكة والإمبراطورية السالفة، لحُكم زعيمٍ بعيدٍ على المستوى النظري، لكننا كُنا، على الأغلب، مشغولين بِالتزاماتنا حيَالَ أفراد عشيرتنا المُقربين، ومُلتزمين بالقَوَاعِد والرُّموز المحلية. كانت الحيَاة محدودة الأفق ومحصورة بأقليمٍ صَغير المساحة وجماعة مُحددة. والبَراعة في اللعب مع الناس الذين يحيطون بنا مباشرةً هو ما يُميز لعبة الحياة هذه.

وطالما كانت هذه الألعابُ تؤدي وظائفها بِبراعةٍ، وتَتَلقى جَماعتنا المكافآت التي تتوقعها، فإن الوضع القائم سيستمر على الأغلب. المجتمعُ المُتماسكُ هو الذي يحظى فيه عامة الناس بالحماية من التهديد الخارجي، وتَتَدفق فيه المكانة بطرائق مُتوقعة. ولن يَتَهددُ الاستقرار شيء حتى لو حصلت جماعات النخبة على كل شيء عمليًا في مقابل حرمان الطّبقات الدنيا من كل شيء تقريبًا- سواء في الألعاب الدينية أم القَضائية أم العسكرية أو البيروقراطية أو الأَرستقراطية. ليست حدة الظُّلم والإجحاف هو ما يخلق الظّروف الثّورية، بل التَصوُّرَ أن اللعبة لم تَعُدْ تعمل بالطّريقة المُتوقَّعة منها.(311)

ولهذا السبب، ليس الفقرُ لوحده مؤهلًا لقيادة الثّورات. إذ رُصِد وقوع الثَّورات، التي تُعرف بأنها حركات جماهيرية لِتَغيير نظام حكمٍ باسم العَدالة الاجتماعية، في البُلدان مُتوسطة الدخل بمعدلٍ أعلى من البُلدان الأَفقر. وعن هذه النقطة، كتب عالِم الاجتماع جاك غولدستون: «ما يهم هو شعور الناس بِأنهم

(310) *The Psychology of Social Status*, Joey T. Cheng, Jessica L. Tracy, Cameron Anderson (Springer, 2014), p. 172.

(311) *Revolutions*,JackA.Goldstone(Oxford University Press, 2013), pp. 16–17.

يفقدون مكانهم المُناسب في المُجتمع لأسبابٍ ليست محتومةً ولا من صُنع أيديهم.» إن الشعور بِالقلق الناجم عن خسارة لُعبتهم للمكانة يعكس ما وَثقته دراسات الكآبة والإِنتِحار. فما يصدقُ علينا يصدقُ على جَماعاتنا: إذ يَكتسحُنا الشعور الخَطير بالغَضب والكرب حينما نحس- مع جماعتنا- بِتدهور مَكَانَتنا.

وقد يتوحّش اللاعبون عندما تبدأ مكانة اللعبة بالتدهور والتراجع. ومن أجل ضَمان نجاح ثورةٍ، تَحتاجُ الألعاب في قعر التدرج الهرمي إلى الظّفر بمساعدة النخب؛ كتب غولدستون في تعليقِهِ على ذلك: «الواقع أن ما يحدث في أكثرية الثَّورات هو أن النخب هي من يُعبأ الناس لمساعدتهم على الإطاحة بالنظام».[312] وتَنبه البَاحِثون عمومًا في مُراجعتَهم للسنوات المؤدية إلى الثّورات إلى أن: «الحكّامَ قد أصابهم الوهن والتخبط والجَشع، فيشعر قسمٌ كبيرٌ من أفراد النخب بأنهم خسروا ما كانوا يَحصلون عليه من مكافآت ودعم. ولذا، يَفقدون رَغبتهم في دعم النظام القَائم.» تعمل النخب بعد ذلك على التآمر مع اللاعبين في الألعاب الوَاقعة أدنى منهم، أي "الجماعات الشعبية" من أمثال جمعيات الفلاحين ونقابات العُمّال والجَمعيات المِهنية ومنظمات الشباب التي يشعرُ أفرادها أيضًا بِتداعي مِكانتهم، ويدركون حرمانهم من المكافآت المُتوقَعة.

وهذه الديناميات هي التي قادت «ثَورة اليَاسمين» في تونس.[313] إذ نَجحَ البلد، الذي يتراوح الدخل فيه بين المُنخفض والمتوسط، في الأيام الثّمانية والعشرين المُمتدة من كانون الأول 2010 إلى كانون الثَّاني 2011، في نفيَ رئيسه زين العابدين بن علي الذي دام حكمه أربعة وعشرين عامًا إلى خارج البِلاد التي شهدَت طَفرةً في عدد الشبان، مما أفضى إلى نقصٍ في تجهيزات الطَّعام، ونِهاية لِسياسة دعم التعليم والوقود والمَواد الغِذائية، فضلًا عن تَدهور في أهمية الوَظائف الحُكومية لخريجي الجَامعات، فتَفشت البَطالة بين أفراد الطَّبقة الوسطى المُتعلمة

(312) *Revolutions,* p. 10.

(313) *Revolutions,* pp. 117–119.

على وجه الخُصُوص، الذين حُرِموا من الفُرص الوظيفية المُتوقعة لهم، في الوقت الذّي انغمس فيه بن علي في مُكافأة المُقربين منه بعطايا يحصل عليها غالبًا من مُجتمع رِجال الأعمال الذين كان يُطالبهم بِتقديم المال والرُشى.

كانت ألعابُ البلد تتهاوى، مع إلقاء اللوم في ذلك على الرّئيس، وتركَّز جانبٍ من الحنق والغَضب على جهاز الشرطة الذي ما برح يَشتطُّ في فَسادِهِ وعِدوانيتهِ. أشعل بائعٌ متجولٌ، هو محمد بوعزيزي، النار في نفسه في السابع عَشر من كانون الأوّل اِحتجاجًا على المضايقات المُستمرّة التي كان يتعرض لها من أجل دفع الرُشى. والظّاهر أنه قد تعرّض لِلامتهان والإذلال في ذاك اليوم على يد مُفتشة البلدية، فايدة حمدي؛ إذ ادعت أُسرته أن فايدة صَادرت ميزانه وصفعتهُ، وأهانت والده المتوفي. كتب غولدستون: «وجد ما فعله بوعزيزي صدىً في أوساط التونسيين الذين أحسَوا إحساسًا قويًا بغياب الفُرص واستمرار المُضايقات في ظل حكم بن علي.» فتجمّعت الحُشود التي أطلق عليها رجال الشرطة النار، فأردوا بعض المُحتجين قتلى. وإضافةً إلى ذلك، فشل النظام في فرض الرّقابة على وسائل الإعلام: إذ يتفوّق الشباب التونسي على غيره في بلدان الشمال الأفريقي في كثافة استخدامهِ للفيس بوك، الشيء الذي مَكَّنهم من نشر أخبار ما جرى من اِحتِجاجات. وتَبعًا لذلك، استمرت الثّورة التي تَلقت دعمًا أساسيًا من «مجموعةٍ مؤثرةٍ من المُنظمات.» إذ نظمت نقابة العمل التونسية العَامة، في سبيل المثال لا الحصر، إضرابات عامة، وتلا ذلك رفض الجيش إطلاق النار على المُواطنين. وهكذا، انقلبت الألعاب في أعلى الترتيب الهَرمي وفي أدناه على بن علي الذّي فرّ من البلاد بعد قُرابة الأربعة أسابيع على الاِحتِجاجات التي أعقبت حَادثة بوعزيزي.

رصد غولدستون في موضعٍ آخرٍ أن «تضخم النخبة»- أي عندما يبرز عددٌ كبيرٌ من اللاعبين النخبويين الذين يضطرون إلى الدخول في صراع على مواقع ومناصب رفيعة المكانة وقليلة للغاية في الوقت نَفسهِ- هو مؤشرٌ قابلٌ للتنبُّؤ على

الإنهيار المجتمعي.[314] مستوى مُتوسط من تضخّم النخبة نافعٌ، لدوره في خلق جوٍ من المُنافسة السليمة، وتحسين نوعية النخب التي ينتهي بها الحال بالفعل إلى شغل المواقع الأسمى والأرفع في دوائر الحكومة ووسائل الإعلام والمؤسسات القَضائية وغيرها. غير أن الزّيادة في هذا التضخّم يدفعُ الجماعات المُستاءة في النخب المُحبطة والفَاشلة إلى تأسيس ألعاب مكانة خاصة بها في مواجهة الناجحة منها. وهكذا، يبدأ هؤلاء في القِتال من أجل الظَّفر بالمكانة، فيُهاجمون المؤسسة الرّسميّة، وبالتالي يعملون على زَعزعة اِستقرارها. لحظ غولدستون حضور هذه الديناميات في السَنوات التي أفضت إلى الحرب الأهلية الإنكليزية، والثّورة الفرنسية والأزمات في الصّين وتُركيا. ومرّة أخرى نلحظ اِنتشار الفوضى، وإعادة صُنع التاريخ في أعقاب فشل اللعبة في سدَاد ما بذّمتها من المكافآت المُتوقعة.

وحتى في الحالات التي لا تشهد فيها المُجتمعات وقوع ثورات أو تضخّم في النخبة، من المحتمل أن يَستسلم الحُكّام إلى حياة الهَناءة والدعة، فينتهي أمرهم على يد لعبة المكانة. وهذا صحيحٌ في حالة الحَضارات التي دامت قرونًا. فعندما تغزو قوة إمبريالية مُتعطشة للمكانة شعبًا ما، فإنها تعمد إلى تَرسيخ مَوقعها بوصفها نُخبةً. ومع تَعاقب الأجيال، يثابر السكان الأصليون، الساعون إلى المكانة، على الاشتراك في ألعاب الإمبراطورية، وتَبني قَواعدها ورُموزها في أثناء ذلك، فَيَتحدثون لُغتها ويَعبدون آلهتها ويعملون لمصلحة مؤسساتها حتى بلوغهم مرحلةٍ، يطالبون فيها بمكانةٍ مُتساويةٍ، رغبةً منهم في الفوزِ بالعضوية الكَاملة وغير المتحيزة في طبقة النَخبة؛ وهم يَفعلون ذلك في أكثرية الأحيان، بِعدوانيةٍ تأخذ شكل العِصيان المدني أو التحدي القانوني أو ارتكاب أفعال العُنف. وعندها، تبدأ مرحلة سُقوط مؤسسي الإِمبراطورية. يصف المؤرّخ يوفال نوح هراري ما يحدث هنا بـ «الدائرة الإمبراطُورية» التي «تهضم» فيها الألعاب

(314) http:// peterturchin.com/cliodynamica/intra-elite-competition-a-key-concept-for-understanding-the-dynamics-of-complex-societies/.

الإمبراطُورية الثّقافات المَغلوبة وتَستوعبها، وتَستمرُّ في «الإِزدهار والتطوُّر» بعد وقتٍ طَويلٍ من طَردِ مؤسسيها.[315]

وقد وحدَت هذه الديناميات مناطق كثيرةً منها الهند والصّين، وأَسست حضارات عَظيمةً. عاث البريطانيون في الهند قتلًا وقمعًا واِستغلالًا، لكنهم في الوقت نفسه أسهموا في توحيد ما كان يُمثل في الماضي «فُسيفساءً مذهلًا في تنوعه من المَمالك والإمارات والقبائل المتناحِرة»،[316] وأسسوا نظامًا قضائيا وشيدوا سكك الحديد الضّرورية لِنمو الاقتصاد، وأيضًا أقاموا نظامًا إداريا ما زال معتمدًا حتى اليوم. يحدثنا هراري بأنه في أثناء الحكم البريطاني في الهند: «تبنى هنود كُثرٌ، بحماسةِ المُهتدين للأديان، الأفكار الغربية من مثل حقّ تقرير المَصير وحقوق الإنسان، وشعروا بخيبة الأمل حينما فشل البريطانيون في الالتزام بقيمهم المُعلنة بعدما رَفضوا منح الهُنود من السكان المحليين حقوقًا تُساويهم بالرّعايا البريطانيين، وأيضًا أنكروا عليهم حقهم في الإِستقلال.» لقد أعاد هذا النمط من السعي إلى المكانة تَشكيل صورة العالم. إذ يلعبُ أكثرية البشر حاليًا على وفق القَوَاعِد والرُّموز التي وضعها أَسيادهم الذين هُزِموا وغادروا مُنذُ أمدٍ بعيدٍ.[317]

لقد أسهمت القَوَاعِد المُضمرة لِلعبة المكانة في توجيه التاريخ البشري. إذ أدت مَساعينا ومَشاريعنا الدائمة في غضون المئات والآلاف من السنين إلى الغَزو والقهر والثَّورة والقَمع والحَضارة. وهذا ليس مُفاجئًا. فالتاريخ، بعد كل ذلك، صَنيعة الناس الذين يولدون ليلعبوا.

---

(315) *Sapiens*, Yuval Noah Harari (Vintage, 2015), p. 246.

(316) المصدر نفسه 247-248.

(317) المصدر نفسه، ص 235.

الفصل الخامس عشر

صناعة اللاعب

يعيشُ البشرُ، في المجتمعات الغربية الحديثة، في داخل قصةٍ تقول: إذا كنا نتحرَق رغبةً في شيء ما، فلن نتردد في فعل أي شيء في سبيل نَوالِهِ. أفتح الباب، أخطو إلى خارجِهِ، *وأمضي للظفر بِمبتغاك*. تَحثنا هذه الأسطورة الثَّقافية على طلب العُلا ووصلِ الشمس. لكن حقيقة طلب العُلا تستلزم منا سنوات من التدريب، وملايينًا من الدولارات، ودعم وَكالة فَضاء كُبرى وصَاروخًا. من دون هذه الأشياء، ستَسقطُ على الأرض، ويَنكسرُ ظهرك. يقتضي النجاح في طلب العُلا نوعًا خاصًا من الأشخاص بمؤهلات محددةٍ.

الحَقيقةُ المُحزنةُ هي أن العالم، عمليًا، ليس سوقًا مكتظًا بالألعاب التي بِوسعنا أن نَختار منها ما نُريد. كثيرةٌ هي الأسباب وراء اشتراكنا في الألعاب، لكنها ليست عشوائيةً، وغالبًا ما لا يكون لنا يدٌ فيها. تنشأ هذه الألعاب، على الأرجح، بَين أشخاصٍ تَجمعهم وفرة من السمات الشخصية المُشتركة، إذ يَتكتل المدرسون أو الجنود أو السياسيون أو المُمثلون المُرفِهون أو روّاد الفضاء في تحالفات يتماثل أفرادها عقليا. لا أحد يختار بالضّبط نوع العَقلية التي ينعم بها- سواء أكان واثقًا، أم خجولًا أم عبقريًا، أم انبساطيًا أم مُحبًا للمُلاكمة أو الأدب أو تَدخين الحَشيش أو سياسات اليَسَار أو اليَمين.[318] ويعتمدُ وُقوع هذه الأشياء لنا غالبًا على الطّريقة التي تَطوَّرت بها أدمغتنا وأنواع التجارب التي خضناها.

(318) للاستزادة عن علم الشّخصية، أنظر:
Personality, Daniel Nettle (Oxford University Press, 2009).

وثَمّ ثَلاثُ قُوى أساسية تَتَواطأ لِدفعنا في اِتجاهات محدَدة، هي: الجينات والتنشئة وجَماعة الأَقران. وقد عَرفنا سلفًا، لا سيما في الطُّفولة، الآلية التي يستمد الدماغ بوساطتها المَعلومات من الثّقافة المُحيطة، ويُشكل مَلامحنا على وفق مَساراتها، مع أن عملية الشحذ والتهيئة تبدأ حتى قبل هذه المَرحلة. إذ يتخلق الدماغ، المؤلف من قُرابة الستة وثمانين مليار خليةٍ عصبيةٍ، في الرّحم مثله مثل المُكونات الأساسية لِأنظمتنا الهُرمونية والعصبية الكيمائية. وهذه هي العُدة البايولوجية التي نُعالج الواقع بِوسَاطتها، وتَصميمها فريدٌ في ملاءمته لنا. والطّريقةُ التي تَترابط بوساطتها عناصر هذه العُدة تتوجه في جزءٍ منها بالحَوادث البايولوجية العَشوائية، وفي جزئها الآخر بالتعليمات المُشفرة في الجينات التي وَرِثناها من آبائنا. يؤثّر الجينوم تأثيرًا بالغًا في الطَّريقة التي نَتصوّرُ بها ألعاب الحياة ونَستجيب لها. إذ يُعتقد أن مَدى قلقنا، في سبيل المثال، يعتمد في قسمٍ منه على منطقةٍ في الدماغ اسمها اللوزة الدماغية أو العصبية (المسؤولة عن اِستجابات القَلق والخَوف وغيرها من المَشاعر) وأيضًا على هرمون السيروتونين. ومثلما ينفرد كل شخصٍ ببَصمات أصابع، فإنه ينفرد باللوزة الدماغية ونظام السيروتونين الخَاص به. ويحدث أن يُظهر بَعضهُم حساسيَة أعلى للخطر: إذ ينشطُ مُنبههم الداخلي بسهولةٍ أكبر، ويُرجح أن يَتصِفوا بقدرٍ أعلى من العَصبية والحَذر، وأيضًا الحَساسيَة لِلنقد، وربما يعانون اِجتماعيا.

ويُمكن لهذا الاِختلاف في الشخصية أن يُخلف تَأثيرًا هائلًا في الألعاب التي ينتهي المطاف بِهؤلاء إلى الاشتراك فيها. إذ من الرّاجح أن ينجذب الأفراد الأكثر قلقًا إلى ألعاب تختلفُ عن تلك التي يختارها المُجازفون في طَبيعتهم. توقع الأستاذ دانيل نتل، المختص بعلم نَفس الشخصية، في أثناء مقابلتي له، أن سِمات العصبية والاِنفتاح على التجارب مرتفعةٌ في شخصيتي، بوصفي كاتبًا- الواقع أني أَجريت اِختبار شخصية، واكتشفت دِقة وَصفه! ووجد الباحِثون أن «الوظائف التي نقضي جزءًا أساسيا من حياتنا فيها، والمَهابة والدخل الذي نجنيه منها تتأثر، جزئيًا

في الأقل، بالجينات التي نرثها من آبائنا.»[319] ويقول روبرت بلومن، أستاذ عِلم الوِراثة، إن الدور الذي تؤديه جيناتنا في ظُهورنا بالشَكل الذي نحن عليه «ليس مهمًا إحصائيًا فحسب، بل هو بالغ التأثير»:[320]

تؤثر جيناتنا أيضًا في مَدى نَجاحنا في المُستقبل. فالأفراد المُبرمجون لِتَجربة مشاعر الإثارة والإثابة الجياشة عند الفوز هم الأميل إلى التنعم بالثّراء. والسبب في جني أكثرية أَصحاب البلايين لثَرواتهم يعود، في جزء منه، إلى ما يتصفون به من روحٍ تنافسية شَرِسة. وهم، على الأغلب، من الِانبساطيين الذين، حسبما يذكر نتل، يتميزون «بعلو الهمَة والطُّموح»، وأيضًا «الاستعداد للعمل بتفانٍ وجدٍ طلبًا للشُهرة أو المال».[321] الأنجح والأبرع منهم هم الذين يحظَون بقابلية لا نَظير لها على ضبطِ النفس؛ وهو الشيء الذي يقترن بخاصية تُعرف بالوعي والضَّمير الحي، التي تُعد «مُتنبأ الشخصية الأجدر بالثّقة على النجاح المِهني في المجالات كَافة.»[322]

وهكذا نُولد بِنوازع موروثةٍ، ومجموعةٍ من المَيول؛ إنها العنصر الذي يوجه تَطوّرنا. إلا أن الجينات لا تُحدد مصيرَنا أو قدرنا. إذ تبقى أدمغتنا، في سَنوات تَشكلنا الأولى، متأثرةً بالقَوَاعِد والرُّموز الشائعة في الزّمان والمَكان الذي نعيش فيها. وتؤثر تجارب الحياة المُبكرة فينا، بطريقةٍ أو بأخرى، إذ نُصبح أنواعًا محددةً من البشر بمجموعات معينةٍ من المُعتقدات والتوجهات والمَواقف إزاء العالم، التي تُساعد في تحديد أنماط لِعبنا وأساليبِه. قدمت ادري كوسيرو، المختصة بالأنثروبولوجيا الثّقافية، دراسةً رَائعةً عن الطّريقة التي تؤثر فيها الطّبقة الاجتماعية في الأبوة بعدما قضت وقتًا مع آباء بيض في ثَلاثة مجتمعات محلية في

(319) *Personality Psychology*, Larsen, Buss and Wisjeimer (McGraw Hill, 2013), p. 147.

(320) *Blueprint*, Robert Plomin (Penguin, 2018), p. viii.

(321) *Personality*, Daniel Nettle (Oxford University Press, 2009), p. 83.

(322) P*ersonality*, p. 143.

مَدينة نيويورك، هي: منطقة كوينستن المُتهالكة التي «لم تتمكن فيها قط من انتعال الصّنَدل بسبب قناني الزُّجاج المُهشمة التي تَفترش الشوارع؛»[323] ومنطقة كيلي العُمَّالية المُعتزَّة بِوطنيتها، التي يَتحدر ساكنوها من أصول إيرلندية وألمانية وإيطالية، ويعيشون في «مجتمعٍ آمنٍ ومنظمٍ»، ويَتحلون بـ «إحساسٍ عالٍ بالفخر»؛[324] وهناك أخيرًا منطقة باركسايد الثَّرية في مانهاتن. لُقن أطفال المَنطقتين الفقيرة والعُمَّالية أن اللعبة شرسةٌ والنجاح يستوجب المُرونة وسهولة التَكيف. والصّفات المَرفوضة في الشبان الصِّغار هي: «مدلل» و«ساذج» و«كثير الشكوى» و«أحمق» و«مُتزمت»، و«مُتهافت عاطفيًا» و«ضعيف الشخصية» و«سَهل الاِنقياد».[325] قالت إحدى الأمّهات في منطقة كوينستن لكوسيرو: «لا يَنبغي أنْ تولي اهتمامًا كبيرًا بأية عاطفة، ولا يجب أن تُفرطي في رعايتهم أو الثَّناء عليهم. فأنتِ لا تُريدينهم أن يكونوا ضَعيفي الشخصية.»[326] وفي مقابلةٍ أُخرى، دلقت فتاة بسنَ الرّابعة عصير العنب، فصَرخت فيها أمّها: «هذا عظيم، لورا، عظيم بِالفعل. نظّفي المكان قبل أنْ أصفعك.»[327] ويُعلم الأطفال الصّغار في منطقتيَ كوينستن وكيلي احترام التدرج الأساسي في المكانة بين الأبوين- الطّفل: بدت الأمثلة على مكانة الطّفل المُتدنية واضحةً في حرمانه من البقاء في بعض أجزاء المنزل أو استخدام بَعض قطع الأَثاث (من مثل غرفِ نوم الأبوين، وغرفة الطّعام الخاصّة بالضّيوف والكُرسي الذي يجلس عليه الأب)، وأيضًا ضَرورة أن يتحدث مع أَبويه بنبرة صوتٍ تدل على التوقير والاِحترام.[328] تُمنح المكانة، في المَجموعتين كلتيهما، لقاء بلوغ الطّفل أقصى دَرجات المُطواعية والقُدرة على التكيَف مع أن الآباء يختلفون اختلافًا عميقًا فيما يخصّ الأَسباب التي تجعل من

(323) *American Individualisms,* Adrie Kusserow (Palgrave Macmillan, 2004), p. 4.

(324) المصدر نفسه، الصّفحتان 72-72.

(325) المصدر نفسه، ص 26.

(326) المصدر نفسه، ص 37.

(327) المصدر نفسه، ص 55.

(328) المصدر نفسه، الصّفحتان 51-52.

هذا الأمر قاعدةً مهمةً. إذ كانت المُرونة والقُدرة على التكيف ضَروريتين في كوينستن لمنح الأطفال قوّة الشخصية اللازمة لحماية أنفسهم من الدمار الشامل في المَراتب الدنيا من اللعبة. يرى الآباء في هذه المنطقة أنهم «يربّون أولادهم في وسط غابةٍ من الشباب العَنيف والفاسد.»[329] واكتسبت هذه الخاصية شكلًا مُتَفائلًا للغاية في منطقة كيلي، إذ يتعين تحقيق النجاح في ألعاب مكانة أفضل. كان الآباء يُريدون من أبنائهم أن يتحلوا بالقُدرة على « خوض التجارب»و«التميز» و«الظَّفر بأقصى ما يُمكنهم في هذا العالم»، و«الابتعاد» و«السعي لتحقيق أحلامهم».[330] قال أحد الآباء لكوسيرو: «أُريد من أطفالي أن يَسعوا سعيا حقيقيا لكل شيء يُمكنهم الحصول عليه- لا أريدهم أن يأخذوه، أريدهم أن يعملوا بجدٍ من أجل الظَّفر به.»[331]

لحظت كوسيرو، في المقابل، نوعًا من اللاعبين يختلف اِختلافًا جَذريًا يجري إعداده في منطقة باركسايد الغَنية. إذ الأطفال ليسوا محاربين أشاوس في اللعبة، بل براعم ضَعيفة في حاجةٍ إلى «إعدادها بعنايةٍ للعيش في العالم، وأيضًا للعمل في مجالٍ مهني ناجحٍ.»[332] شددَ الآباء على «رَهافة ذَات الطّفل، والحاجة إلى أقصى درجات الرِّعاية وبذل الموارد، والعِناية بالمَواهب، واللمسة الرَّقيقة من أجل أن «تزدهر» هذه الذّات الفَريدة، وتكشف عن أقصى طَاقاتها.»[333] اِرتجفت إحدى الأمّهات من فكرة توبيخ فتاة بعمر الثَّانية عشرة لأنها لم تقل «شكرًا» لوالديها على إقامتهم حفلة عيد ميلاد لها في قصةٍ قرأتها ذات مرّة، وقالت إنها لن تفعل شيئًا مثل هذا مُطلقًا مع ابنتها؛ لِأن ذلك يعني إِصابتها بإحساسٍ عميق بالذّنب. لدينا سُلطة هائلة على أطفالنا لا سيما في الفِئات العُمرية التي يَغلبُ عليهم فيها الضّعف

(329) *American Individualisms*, Adrie Kusserow (Palgrave Macmillan, 2004), p. 4.

(330) المصدر نفسه، ص 73.

(331) المصدر نفسه، ص 76.

(332) المصدر نفسه، ص 82.

(333) المصدر نفسه، ص 171.

والهَشاشة.(334)

وبدلًا من احترام تَدرج المكانة بين الآباء والأطفال، يحثّ الآباء أولادهم في منطقة باركسايد على النظر إلى أنفسهم بوصفهم مُتساوين. ذكرت إحدى الأمّهات أن مُعاملة ابنتها بوصفها راشدةً «يمنح الابنة مكانةً معينةً في العائلة، ويجعلها تشعر بأنها على قدم المُساواة، وأن مشاعرها توازي في أَهميتها مشاعر الآخرين.»(335) فطنت كوسيَرو إلى «التَقنيات المُتنوعة التي تحثّ على هذا النوع من التفكير من مثل مُخاطبة الأطفال المُدرسين بأسمائهم الأوّلى، واستشارة الطفل في حل مشكلات الأُسرة، والسماح لهم بـ "تعليم الآباء" والبالغين عن طريق سؤالهم، "كيف يُمكنني مساعدتك في نيل مُبتغاك؟"» وقال أبٌ عن ابنته: «شعوري الأساسي هو أني لا أملك الحق في تَأديبها ومعاقبتها...أنا على درايةٍ بالتفاضل في القوّة، لكني لا أشعر بأن لدي الحق في تَعنيفها وتَقريعها لخِلاف بيننا على مسألة ما فقط لأني أكبرها سنًا وأقوى منها وأَوسع معرفةً.»(336) [الغَريب أن] ابنتَه كانت في سِنِّ الثّالثة!

كُل الأمّهات والآباء يُريدون الأَفضل لأطفالهم، لكن الآباء في باركسايد يُريدون أفضل الأَفضل. قَالت إحدى الأمّهات: «لست مهتمةً بالعادي والمَألوف، أنا مهتمةً بالأفضل...ابنتي بارعةٌ للغاية في الشطرنج والتزلج على الجليد، وأنا أدفع غاليًا من أجل أن تَتَميز فيهما.»(337) المفارقة هنا هي ملاحظة كوسيرو أن الأطفال الذين كانوا يُعاملون بوصفهم النظراء الرّقيقين والثّمينين لمن يكبرهم سنًّا كانوا يَكشفون عن قدرٍ أقل من التوازن والاِستقرار، وتبعًا لذلك، تَصريحها: «الظاهر أن ما يفتقر إليه بَعضُ أطفال منطقة باركسايد هو الإحساس بالأمان والحِماية والاِحترام والتواضع الذّي ينشأ من معرفة أنهم ليسوا في قمة الترتيب

(334) المصدر نفسه، ص 103.

(335) المصدر نفسه، ص 106.

(336) المصدر نفسه، الصَّفحتان 103-104.

(337) المصدر نفسه، ص 82.

الهَرمي.»[338] قيل لهؤلاء الأطفال إنهم رَقيقون ولُطفاء، ولذا، يَشعرون بأنهم كذلك، وأيضًا، بأنهم في الوقت نفسه، يَستحقون اِستِحقاقًا تِلقائيًا موقعًا نُخبويًا رفيعًا. صدرت دراسة كوسيرو في 2004. مع ذلك، يبدو أن المَزيج المذهل من الهَشاشة والاستِحقاق، الذي لحظته، هو إحدى الخَصائِص المُميزة للسعي إلى المَكانة الذي ينخرط به بعضٌ من الشبان الأوفر حَظًّا في الوقت الحَاضر.

يتخذ السعي إلى المكانة، في سنوات الطُّفولة المُبكرة، شكل الهَيمنة غالبًا حينما نلجأ، بعد الحيلولة دون حُصولنا على ما نرغب به، إلى فرض إرادتنا بذرف الدموع والصُّراخ والتأوُّه وضرب الأشياء. ثُم نُشرع في مرحلة المُراهقة في الاشتراك في ألعاب البَالغين، إذ نُغادر التراتب الهَرمي للأُسرة سَعيًا إلى الاشتراك في المُسابقات في العالم الخَارجي. إنه الوقت المُناسب لِانضِمامنا إلى اللعبة.

وتَكتسبُ الألعاب التي نَشتركُ فيها في مرحلة المراهقة شَكلَ مجموعة الأقران، أي مجموعة الأُفراد الذين نشعرُ بالرّاحة عندما نلعبُ معهم، هذا، على الأقل، ما يجري في العالم المتطَور. والسبب في حدوث ذلك في هذه المَرحلة يعود، في جزء منه، إلى التغيرات في إحدى مناطق الدماغ التي تجعلنا مُرهفي الإحساس حيال أحكام الآخرين وآرائهم.[339] تنشط لدينا الرّغبة بالتنعم بالِاستِحسان الاجتماعي في مقابل الشعور بالذّعر من الرّفض والنبذ. وهذه الحَساسيَة المُفاجئة تزيد من احتمالات تعرض المُراهقين للشعور بالإحراج والوعي بالذّات. ذكرت سارة جين- بلاكمور، عالِمة الأعَصاب، أن المراهقين بعمر الحادية عشرة إلى الرّابعة عشرة، «يزدادون وعيًا بقدرة الآخرين على تَقْييمهم، ونَتيجةً لذلك، فإنهم قد يبالغون في تقييم المَدى الذي يَحدثُ هذا فيه في الواقع.»[340]

ومع تواصل التغيَر في أدمغتهم، يبدأ المراهقون بالشعور بوجود "جمهور

(338) المصدر نفسه، ص xii.
(339) *The Popularity Illusion,* Mitch Prinstein (Ebury, 2018). Kindle location 826.
(340) *Inventing Ourselves,* Sarah-Jayne Blakemore (Transworld, 2018), p. 25.

مُتخيل"[341] يُشاهدهم ويَحكم عليهم باستمرار، وهو «شعور يُحافظ على زخم حُضورهِ حتى بعد مرحلة البِلوغ.»[342] يميلُ المراهقون، على العكس من الأطفال الأَصغر سِنًا، إلى التعامل مع تَقييمات أقرانهم بوصفها مؤشرًا حقيقيا على جَدارتهم أو افتقارهم إليها. ومع التغيَر في تَقييمهم الذّاتي من مرحلة الاعتماد على ما يَشعرُون به في الوقت الحاضر إلى طريقة تخيلهم لأسلوب تَقييم الأقران لهم، يُدشن المراهقون مرحلة شِدة التوق إلى نيل الِاستحسان. وعندها يُمكن للسعي إلى المكانة أن يُصبح مُضنيًا ومُستنزِفًا للوقت والجُهدِ. يقول عالِم النفس متج برنستين: «مع بلوغنا سن الثالثة عشرة، يبدو الأمر كما لو هذا النوع من الشهرة هو الأَهم على الإطلاق، إذ لا يفوقه في الأهميةِ شيءٌ. إننا نَتحدث عن منْ يحظى بهذه الشهرة، ونخطّط للظَفر بها، ونشعر بالانهيار والصَّدمة عند خسارتنا لها. بل إننا نفعلُ أشياءَ نعلم أنها خَاطئةٌ أو مُنافيةٌ للأخلاق أو مُخالفة للقانون أو خَطرةٌ لأجل الفَوز بالمكانة، أو الِاستماتة في الدفاع عنها.»[343]

وابتغاء بلوغ أقصى دَرجات الرّفعة التي يَشتهونها، يتواصل المُراهقون مع ألعاب المكانة ويشتركون فيها. لقد انضممنا إلى قبائلنا في هذا العمر، على الأقل، لِعَشَرات الآلاف من السنين. كان الرّأي في المراهقة، في المجتمعات ما قبل الحديثة بأنها: «وسيلةٌ مهمةٌ وحاسمٌ للفوز بالمكانة»؛[344] إنها تشبه كثيرًا المَنفذ الذي يتوفر لنا في الطّفولة المُبكرة لَاكتساب اللغة. وهذا الِانتقال إلى مرحلة البلوغ يتلازم أحيانًا مع مَراسيم تَلقين مؤلمة من مثل خلع الأسنان أو بَتر الأصابع الصَّغيرة أو التهام المَواد المُخدرة أو السامة، أو الجلدِ بالسوط، أو شقّ الجلد أوحرقه أو رسم

(341) قرأت هذا المصطلح أول مرّة في كتاب بليكمور التي أدانت فيه بالفضل إلى عالِم النفس ديفيد ايكايند. *Inventing Ourselves*, Sarah-Jayne Blakemore (Transworld, 2018) p. 26.

(342) المصدر نفسه، ص 27.

(343) *The Popularity Illusion*, Mitch Prinstein (Ebury, 2018). Kindle location 861.

(344) *The Psychology of Social Status*, Joey T. Cheng, Jessica L. Tracy, Cameron Anderson (Springer, 2014), p. 191.

الوَشم.[345] يُثقبُ حاجز الأنف لدى المُكرسين في قبيلة بيمن- كوسكوسمن في بابوا غينيا الجديدة بخنجرٍ مصنوعٍ من عِظام طائر الشبنم أو الكاسوراي، ويُسكب على أذرعهم زيت الدهن الحار وهم «يتلوُّون ألمًا، ويَصرُخون مع تشكل البثور الكَبيرة».[346] يقول الأنثروبولوجي الآن فيسك إن المُكرسين الشبان «قد يُصابون بالهلع... لكنهم يشعرون بالفَخر لبلوغهم مكانة المُحاربين المُرتقبين... إنهم، في الغالب، يشتركون طوعًا في التكريس، أو حتى يُلحّوا في طلبه». وغايةُ هذه الأفعال المُؤلمة هو تعلَيم الجسم بأحد المُعرفات القبلية، إذ «يخرجُ الفرد المُعذّب من فِئة عُموم الناس».[347]

ولا يَقتصر طقس التكريس على المجتمعات التقليدية فحسب إضافةً إلى أنه ليس عنيفًا في مُجملهِ. فبعض الجماعات الدينية تطلب من المراهقين إعلان قُبولهم أو رفضهم الرّسمي للعبة التي نَشؤُوا في كنفها: يُسمي الكاثوليك والبروتستانت هذه العملية " رومشيبرنغا"أو طقس العبور الذي يُشارك فيه المُراهق في سِن الرّابعة عشرة؛ وتُسمى عند اليهود ميتزفاهس أو ميتزفه (الوَصية أو حَفل البلوغ)، وتقع في سنَ الثانية عشرة أو الثالثة عشرة؛ وجميع هذه الطُّقوس تؤشر للانتقال إلى مرحلة المسؤولية الكاملة وفقًا لقواعد اللعبة.

ويَبقى العُنفُ سَيدَ المَوقف في جماعات مُعاصرةٍ أُخرى. فالشبّان الذّين يَنضمُون إلى عِصابات الشوارع أو الجيَش « يُطرَقون حتى يكتسبوا الشكل المناسب»(يقول أحد المُجندين في ميليشيا ماي ماي في الكونغو الشرقية إن «مجموع العِصي التي يُضرب بها جسمك تقدمك إلى أيديولوجية أخرى»).[348] ويُقال إن طُقوس «الإذلال» بوصفها مَدخلًا إلى النوادي الإخوانية في الجَامعة أو الفرق الرّياضية في

(345) Alan Fiske and Tage Shakti Rai (Cambridge University Press, 2014), p. 180.

(346) *Virtuous Violence*, Alan Fiske and Tage Shakti Rai (Cambridge University Press, 2014), p. 181.

(347) المصدر نفسه، ص 184.

(348) المصدر نفسه، ص 183.

الولايات المُتحدة ما زالت فاعلةً على الرّغم من القيود الصّارمة المَفروضة على مُمارستها. في هذه الطّقوس، قد يَتعرضُ الطّلبة لِلضرب في أثناء نومهم، أو يخضعون للوشم، أو يُضربون بالمجاديف أو يُهانون جنسيًا. وابتغاء تبرير ذلك، استشهد آلان فيسك بالمُسوغ المَنطقي الذي قدمه أحدهم: «ينبغي لِادعاء الإِنتِماء إلى «نُخبة متفوقة» أن يستند إلى مُسوغ ما، وطقس الإذلال هو جزء من ذلك، فهو يَعزلُ من يخضعُ له عن جماعة الأفرادً الأكبر المُحيطة به؛ إنه اِنفصال يتعامل معه المُكرسون، الذين سبقَ لهم اجتياز هذه الطّقوس، بوصفه فعلًا يرفعهم فوق الآخرين الأدنى مَرتبةً الذين لم يَتمكنوا من اِجتيازه.»(349)

إننا نواصل بفخرٍ اِستعراض مَظاهر عضويتنا في الألعاب عن طَريق المَلابس والمَيول الثّقافية والمُعتقدات أو المواقف حتى في الحالات التي لا تستوجب منا إذلال أنفسنا أو الإضرار بها. لِكُل لُعبة ننضم إليها قواعد وَرُموز نَتبناها بوصفها خاصَّةً بنا- الشيء الذي يُثير الهَلع في نفوس آبائنا- وحالما نفعلُ ذلك، نَجد أنفسنا مُحتجزين في داخل منطقةٍ عصبيةٍ. إذ يغدو زملاؤنا في اللعبة جماعتنا وقَبيلتنا وأقاربنا؛ إنهم الأساس لِشُعورنا بالمَكانة، ونحنُ الأَساس لشُعُورهم.

تتزامنُ عَملية الاِنضِمام إلى ألعاب البَالغين، التي يوجهها الدماغ، في العادة، مع مُباشرتنا في المرحلة الثانوية. إذ يتعلم الطَّلبة المُراهقون درسًا قاسيًا من دروس الحياة البشرية هو: إن تَدرجات المَكانة ليست في الألعاب فحسب، بل إن الألعاب في ذاتها هي تَدرجات تَراتبية يشغل بَعضهم فيها مواقع قريبةً من القمّة في حين يوجد آخرون في القعر. يُشكل اللاعبون، البَارعون براعةً طبيعيةً في اكتساب الأصدقاء، مجاميع النخبة. وعن ذلك، كتب نيكولاس كرايستاكس، الخبير في الشبكات الاِجتماعية أن «الثّدييات الاِجتماعية تروم المكانة، أي إنها مُولعةٌ بإقامة عِلاقات صَداقة مع أفراد أَقوياء وجَذابين أو معروفين».(350) وأضاف أن هؤلاء

---

(349) *Virtuous Violence*, Alan Fiske and Tage Shakti Rai (Cambridge University Press, 2014), p. 182.
(350) *Blueprint*, Nicholas Christakis (Little Brown, 2019), p. 283.

الشركاء الجَذابين يرتبطون غالبًا بشركاء يُماثلونهم في الصِّفات؛ لأن عليهم أن يختاروا من يرتبطون معه بصداقةٍ. وبِالنتيجة، وإلى حدٍ ما، ينتهي الأمر بالأفراد الأقل شُهرةً إلى مُصادقة أفراد يُماثلونَهم في هذا الجانب. وهذا النوع من التصنيف هو الذّي يؤدي إلى بروز "المجتمع المَبني على المَكَانة".

أجرى فريقٌ بحثي تَرأسه الأنثروبولوجي، دون ميرتن، في مُنتصف تِسعينيات القرن العَشرين، دِراسةً تناولت المُراهقين الذين تَعرفوا إلى حَقائق لعبة المَكانة القَاسيَة في مدرسةٍ ثانويةٍ تَعودُ للطَبَقة الوسطى في إحدى ضَواحي شيكاغو.(351) وجد الوَافدون الجددَ، الذين اعتمدوا اعتمادًا كليًا في تَحصيل مَعلوماتهم عن لعبة المكانة على ما يجود به الفَضاء الإلكتروني، أنفسهم خاضعين لتَصنيفٍ تلقائي يُجريه الآخرون ضمن التراتبية الهرمية لألعاب المكانة التي يشغل فيها «المُتأنقون ومسايرو الموضة» و«الشبَّان الرِّياضيون مفتولو العَضلات» و«خريجو المدارس الثانوية ميسورو الحال» القمَّة في مقابل «المُتحمسين والمَهووسين» و«المُجهدين المُصابين بالاِحتراق الذَّاتي» و«السذج» الذين يشغلون المَراتب الدنيا. قال أحد الطَّلبة الذين قابلهم الفريق: «إنهم يحكمون عليك هذه العام، وهذا ما لا أرغب به ... لِأنهم لم يحكموا عليك قطّ في العام الفَائت ... لكنهم يَحكمون عليك هذا العام بناءً على مَظهرك: نوع الملابس التي ترتديها، والأصدقاء الذين تقضي الوقت معهم. فإذا كان صديقك من المُجهدين الذين يحترقون ذاتيا، فأنت تُماثله في الشعور بالإجهاد والمُعاناة من الاِحتراق الذَّاتي».

وتَقترنُ ألعابُ المكانة كذلك بِالأنشطة ما بعد المَدرسية المبنية على "تراتبية هرميَة غير رسمية" «يتفقُ عليها الطلبة اِتفاقًا عامًا.» اللعبة الأعلى مقامًا وقيمةً للأولاد هي كُرة السلة يقابلها فريق التشجيع والهُتاف في حالة الفتيات (مما يُؤسف لهُ عدم إحراز أية فتاة مرتبةٍ مُتقدمةٍ في "نادي التطريز الابتكاري"). تَنافسَ نحو

(351) 'Burnout as Cheerleader: The Cultural Basis for Prestige and Privilege in Junior High School', D. Merten, *Anthropology & Education Quarterly*, 1996, 27 (1) 51–70.

خمسين فتاة، في السنة التي نفذ فيها الدراسة الفَريقُ البَحثي بإشراف دون ميرتن، على ثَمانية مَراكز تَشجيع تشغلها على الدوام مجموعةٌ من الفتيات "البَارِزات اجتماعيا". تواجه فتيات النخبة القَليلات اللاتي يَنجحن في الظَّفر بهذه المراكز «صعوبةً في اِحتواء شُعورهن بالفَرح الغامر»، غير أنهن يشعرنَ غريزيًا بضرورة التكتم على مَشاعر التفوق الجياشة هذه. وثّقت الدراسة، في هذا الجَانب، قول إحداهن إنها لم تذهب قط بالزّي الرّسمي لفريق التشجيع إلى المدرسة ثَانيةً بعد أن استَقبلها أصدقاؤها بالهُتاف مع دخولها قاعة التربية البَدنية، وهي في كامل أناقتها. الشيء الذي جعلها تشعر بـ "إحراج فَظيعٍ"، حسبما ذكرت. وفيما عدا ذلك، «يُمكن للجميع لحظ شَغَفها وحبها لِكُل ما كانت تفعله».

في ذاك العام، كانت بِانتظار فريق المُشجعات مفاجئةٌ صادمةٌ سَتكون بِمنزلة الدرس القَاسي الآتي في لعبة المكانة. إذ تشغل «المُجهدات» المُحترقات ذاتيا مَرتبةً أعلى من الساذجات في واحدةٍ من الألعاب الأَحط درجةً في المَدرسة. وعلى العكس من الطّالبات النخبويات المُتأنقات والمُهذبات والمُتميزات اجتماعيا، اشتهرت المُجهدات بالفَظاظة والشراسة والتمرّد والاِنغماس المُتقطّع بتعاطي الكُحول والمُخدرات والاِرتباط بِعلاقات حَميمةٍ. ارتدت بَعضُ المُجهَدات عِصابات رأس، وبِطبيعة الحال، لم يَكن مُمكنًا أبدًا اِختيار إحداهُن لِتولي موقع رَئيسة المُشجعات باستثناء ما حدث في هذه المرّة. شَرحت إحدى المُشجعات للباحِثين المَشاق المُضنيَة التي تَحملنَها نتيجة انضمام المُجهدة «جاكي» إلى لَعبتَهُن. «كان الأمر في غاية الصَّعوبة في البِداية بسبب إعلانهم عن أسماء [المُشجعات] في مُكبرات الصَّوت في أثناء سيرَنا في القاعة. الجميع كان يَصرخُ: "يا ألهي، كيف نَجح الخَاسرون كلهم في فعلها هذا العام؟"...كُنت على وَشك البُكاء. أخبرتني باولا أن رود تَوجَّه إلى الحَافلة، وهو يَصيحُ: "لن نحضر بعد اليوم أيا من الألعابِ لِأن مُشجِّعاتنا هُن من الخاسِرات"».

كان الطّلبة يُضايقون جاكي في التدريبات. إذ ذَكرَ أحد الأصدقاء: «إذا أخطأت

جاكي في أمرٍ ما، كانوا يُسارعون في انتقادها فقط؛ لأن ذلك يُعطيهم عُذرًا في الشعور بالغضب منها. لم أكن أُحبذ ذلك. أعني، إذ كان ما بدر من جاكي شيئًا هينا لا يَكادُ يُذكر، من مثل، عدم تَنفيذها القفزة أو أية حركة أُخرى في اللحظة المُناسبة، أو عند تَأخُّرها ثانيتين أو نحو ذلك، فإنهم يَغضبون منها حقًا.»

وتسرُّب المكانة هو الدرس القَاسي الثَّاني الذي تعلمتهُ هؤلاء المُشجِّعات. فمكانة الألعاب الفَخمة وأيضًا مهابة المُشاركين قد تَتعرضُ للتهديد عند الاحتكاك باللاعبين من المَراتب الدنيا. لكن هذه القصة تحديدًا قد تنتهي نهايةً سعيدةً، إذ يستثمر ذوو المكانة المُتدنية "مبدأ القُرب" في الارتقاء بمنزلتهم. وخيرُ مثالٍ على ذلك جاكي التي تحسنت مَكانتها. عندما سأل الباحِثون إحدى المُشجِّعات عن التغير في وجهة نظر الطَّلبة بجاكي بعد اِنضمامها لِلفَريق، أجابت: «حسنًا، أظن أنهم كَفوا عن التفكير بها بوصفها مُجهدة ومُحترِقة ذاتيا أو سيئة السمعة. لا أعلم بالضَّبط. إنها رفيقة مارك وليمز. ويبدو أن السؤال الذي يُردده الجميع هو: مارك وليمز؟ ما الذي يجعلهُ يصادقها؟"»

تقبعُ ألعابُ البلوغ الحقيقية في اِنتظار هؤلاء الطَّلبة بعد التخرج. فعلى غرار عالم المُنافسة الشرسة والقَاتمة في شركة أنرون، للألعاب التي نشترك فيها القُدرة على إفسادنا وإتلافنا. حظيَت هذه المسألة بعنايةٍ بالغةٍ، إذ وَصفها، في ورقةٍ بحثيةٍ رائعةٍ له، باتريك جيَ. شيلتز، المُحامي السابق في إحدى الشركات الكُبرى، والأستاذ المُساعد في تخصُّص القَانون في كلية نوتردام للقانون الرَّصينة في جامعة أنديانا، والقَاضي حاليًا[352]. كتب شيلتز مُخاطبًا مجموعةً من طلبة القانون المُبتدئين: «إذا كُنت ستَعمل في شركةٍ كُبرى، فإنك على الأرجح ستبدأ في تَبني ممارسات قانونية غيرَ أخلاقية في بعض المجالات، على الأقل، في السنة الأولى أو السنتين الأولى من التطبيق. هذا ما يحصل مع أكثرية المحامين الشبَّان. وهو ما حصل معي.»

(352) 'On Being a Happy, Healthy, and Ethical Member of an Unhappy, Unhealthy, and Unethical Profession', Patrick J. Schiltz, *Vanderbilt Law Review*, 1999, 52, 871.

وزَادَ شيلتز الآتي في وصفه للتَواقين إلى العَمل في هذا المجال، بأنهم «أفراد شديدو القلق والرَغبة في التنافس.» إنهم يقضون حياتهم كلها في شقّ طريقهم في النظام التعليمي كي يصلوا إلى مواقعهم هذه: «إنهم يعملون حاليًا في شَركة مُحاماة مُهمة، ما الذي سيحدث؟ هل سيَكفون عن التزاحم؟ بالطبع لا. سيواصلون التباري والتنافس من أجل الظَّفر بالمَزيد من الأَموال، واستِقطاب الزّبائن، وكسب عددٍ إضافي من القَضايا، وعقد صَفقات أخرى. إنهم يَلعبون لعبة. والنقود هي الطّريقةُ للحفاظ على المكسب والدرجة في تلك اللعبة.» وتتفاقم حُمى المَكاسب والأرباح بفعل المَقالات الصّحفية المالية المُنتظمة التي تَتَحدث عن مقدار ما يجنيه زملاء المهنة الناجحون. كانت قوائم مَداخيل المُحامين تُنشر مرّتين في العام وكان «المُحامون يَتَناقلونَها بِدرجة الحماسة ذاتها التي يُبديها الأطفال الصّغار عند تناقلهم لإحصائيات لاعبي كرة السلة المُفضلين لديهم.» إنها الطّريقة التي تذوي بها مِثَالية الشبَّان وتَفسد. يكتشف المُحامون حال اِنضِمامهم إلى الشركة حزمةً جديدةً من القَوَاعِد والرّموز، ولعبة جديدةً يُمارسونها: يَجب عليهم الآن أن يَتنافسوا باستخدام الثّروة بوصفها رَمزًا للمكانة. ستكون عملية تَلقينهم التعليمات بالغة الدقةِ ومُشددَة: «ستضغط عليك الثّقافة [السائدة في بيئة العمل] بعدة أساليب صارمةٍ كي تَستبدل قيم النظام بقيمك.» وسيتلقى المُحامون في أوّل شهر عملٍ لهم دعوة إلى حَفلة شواء من زميلٍ أقدم منهم. سيُسافرون في رحلةٍ طَويلةٍ، ويوقفون سياراتهم إلى جانب صفوفٍ من السيارات الفَاخرة، ويمشون في مجازٍ مُخضوضر يؤدي إلى منزلٍ فخمٍ. وسيَستقبِلهُم عند الباب شخصٌ بربطة عنقٍ سوداء. وفي حديقةٍ شاسعة غناء، سيُقدم لهم أنواع المُعجنات والرّوبيان وفطائر الكيش الصَّغيرة ومشروبات الكوكتيل. وسيشوي لهم صانع المآدب سمك أبي سيَف بينما يَلمحون، في إحدى الزّوايا "شريكهم الأقدم في العمل" وهو يرتشف الخمر الأبيض، ومحاطٌ بمَجموعة مُعجبةٍ به من الشركاء الأحدث والزُّملاء الأقدم. يرتدي الشريك الأقدم نظارات شَمسية ومَلابس تعود لعلامات تجارية معروفة؛ والعلامة التجارية في ياقة قميصهِ تكشف عن ثمنهِ

الفاحش؛ وسرواله القصير مكويَ بعنايةٍ. وسيكون له لون بشرة أسمر أيضًا- ولو سمرة خفيفة، يَكتسبها في حمام شمسٍ داخلي، ويستخدم فيها سوائل تَسمير مكثفة- وله أيضًا أجمل تصفيفة شعرٍ يُمكنك رؤيتها. سيُشرع المُحامون في هذه الحفلة و«آلاف غيرها من الوَسائل» في هضم لعبة المحاماة وإستيعابها. «سيكون أمرًا بالغ الصَّعوبة على أية مُحامية شابةٍ مُنغمسةٍ في هذه الثّقافة انغماسًا يوميًا أن تُحافظ على القيم التي اكتسبتها من دِراستها للقانون. وهكذا، يتغير المحامون الشبَّان تغيرًا بطيئًا وغير محسوس إلى حدٍ ما، فيَجدون أنفسهم مُعجبين بأشياء لم تكن تلفتُ اِنتباههم من قبل، ويشعرون بالحَرج من أشياء أُخرى لم يكونوا يَستنكفون منها في الماضي، ويُحسون باستحالة العَيش من دون أشياء لم تكن لِتخطر ببالهم في السابق. تَتَغيرُ المحامية، في موضعٍ ما وبطريقةٍ ما، من شخصٍ يشعر بمُتعةٍ بالغةٍ لتمكنها من شراء أوّل جهاز مسجلٍ لسيارتها إلى شخصٍ آخرٍ يَستبد به الغضب على علاوة قيمتها أربعمائة ألف دولار.»

لكن ثمّة مشكلةٌ: فإذا كان هؤلاء المُحامون يَعملون سلفًا بأقصى ما يمكن أن تبلغهُ طاقتهم- وهم كذلك فعلًا- أنى لهم أن يبلغوا مكانةً رفيعةً تُميزهم عن الآخرين؟ إنهم يبدأون، من أجل الفوز، بالتضليل والخِداع بطرائق تبدو، أول وهلةٍ، قابلة للتسويغ. فيأخذون من الزّبون أجرًا لقاء ساعة ونصف من العَمَل الذي لا يستغرق إنجازه سوى ساعةٍ، لكنهم، في الوقت نفسه، يِعدَون بإعادة قيمة النصف ساعة الإضافية في وقت آخر: ليست سرقةً ما يفعلونه، بل اقتراضًا! سيَفعلون ذلك، سيُعيدون قيمة الوقت الزّائد إلى الزَّبون. لكنهم سيتوقفون عن ذلك فيما بعد. سَيَقولون لأنفسهم إنهم أدوا بالفعل عَملًا جيدًا، وأن على الزّبون أن «يدفع لهم مبلغًا إضافيا صغيرًا» لقائه. فيبدأون في الكذب لبلوغ مكانةً أعلى: إذ يتعللُون بعذرٍ عن تَفويت موعد نهائي هنا أو يَزعمون "ضياع" وثيقة عديمة الجدوى للزّبون هُناك.

وما أن يَنقضي عامان على عملهم في الشركة حتى يصلوا إلى مرحلةٍ لا

يلاحظون فيها أن الكَذِبَ والخِداعَ والسرقة أضحت ديدنهم. «ستمضي في اتخاذ الكَثير من القرارات السريعة والغَريزية اليَومية التي بدلًا من أنْ تُجسد مفاهيم الصّواب والخَطأ التي تُدير بها حياتك الشخصية، فإنها تعكس مجموعة القيَم الحَاكمة لِحياتك المهنية- إنها حزمة القيَم التي لا تتصل بالصّح والخطأ بقدر ما تتصل بالأَرباح والمَكاسب. سيكون النظام عندها قد نَجحَ في استبدال قيَمه المهنية بقيمك الشخصية، وسينتفع النظام من ذلك بالنتيجة.» يكتسبُ هذا النظام- أو اللعبة - مع تقدمنا في العمر، قوَّةً هائلةً كَفيلةً بتحديد ما سنُصبح عليه. إننا نُشكل أنفسنا لِتَوافق قواعد هذا النظام ورموزه. وفي حين تمضي الأيام بنا، تتغيَر هوَيتنا على وفق اللعبة التي توافق اشتراكنا فيها، فتَصيرُ إحدانا معماريةً في عملها، وأمّا في بيتها، ومُنسقة حملة في الإنترنت، ومرجع معتمد في أدب الرّوائية شارلوت برونتي في نادي الكُتب، ومرَمِّمة لقَواعد إطلاق الصَّواريخ في حَظيرة الطّائرات؛ وفي كل دور نؤديه، يَحدُونا الأَمل في الشعور *بالرّضا*: بأننا بارعون وأفضل من غيرنا، ومستوانا في تحسنٍ دائم. إن إحساسنا بالذَّات متصلٌ بكل لعبةٍ نُشترك فيها؛ أنه مثل أنبوبٍ غريبٍ يُغرس في داخل جسم كائنٍ حي متعدد الذّوات يمتصّ منه ما يحتاجه. وفضلا عن ذلك، تَندمجُ شَخصيتنا الفردية باللعبة، وتتداخل معها عند الحدود، ويُستَنزف سُلوكنا الأخلاقي وتصوّرنا للواقع في خدمة هذه اللعبة. هذا ما تُضيفه لنا هوِيتنا البَالغة. إننا مجموع الألعاب التي نُمارسها.

الفصل السادس عشر

الإيمان بالحلم

تتحدثُ القصةُ التي نَهوى سرَدها عن البشرية عن رِحلة تقدم بطوليةٍ. إنَها قصة وجهة التاريخ، وأثار الأقدام في الرَّمال، ومَصيرنا المُقدس. الأدلةُّ على وجهة النظر هذه في كل مكانٍ: في العلوم والتكنولوجيا، ومستويات المعيشة سَريعة التطور. شَهد العالم، في غضون الخمسمائة عامٍ الماضية، ثورةً علميةً وتنويرًا ، تجلى في حركات فكرية كُبرى أفضت إلى روائع التحديث، وأظهرت بطلان المُعتقدات غير العقلانية القديمة. لم يَعد سبباً، بعد اليَوم، للتعلق بالأفكار المجنونة. لكن ما الذّي يدعو مليَارات من البشر إلى الاستمرار في التعلق بها؟ ما سبب بقائنا مُتطيرين، وسذجًا ومتدينين؟ إنَ اِستمرار اللاعقلانية أمرٌ محيرٌ مع أنَ لعبة المكانة تَقترح تفسيرًا هو أنَ البشر ليسوا أبطالًا في رحلات تَقدمٍ رائعةٍ، بل هم لَاعبون مُبرمجون لممارسة الألعاب؛ وابتغاء الفوز بها ، يبحثُ البشر عن حلفاء مرموقي المَنزلة ، وما أنَ نعثر عليهم حتى تنشطُ لدينا دائرة التقليد-الإطراء-الامتثال؛ فلا نكتفي بِمُحاكاة سُلوكهم فحسب، بل مُعتقداتهم أيضَاً، وكُلما اِشتد إيماننا ، اِرتقت مكانتنا، وهكذا، يتحفَّزُ ، ويتوثق الإيمان لا الحَقيقة.

وهذه هي العمليةُ التي نصلُ بِفضلها إلى العديد من أرسخ قناعاتنا، يبدو الأمر مثلما لو أنَنا نختار معتقداتنا مثلما يختار طاهي الطّعام مكونات وصفته، إذ يفكر مليًا في عددٍ من الخيَارات قبل اِتخاذ القرار. غير أنَنا نؤمن في الغالب بما يؤمن به أفراد جَماعتنا ؛ إذ نُقلدُ تقليدًا أعمى تصوّرات عليَة القوم لدينا، ونَتقبَل العالم مثلما عرّفوه لنا ؛ هذه هي الطّريقةُ التي تُمارس بوساطتها الألعاب، وهذه هي الطّريقة

التي تعمل الثّقافة البشرية بموجبها ، ولا يتوقع منا هنا أن نَختبر بأنَفسنا كُل حقيقة يستلزم منا البناء عليها، وبدلًا من أن نفعل ذلك، نَرنو بأبصارنا إلى الأعلى اِلتماسًا للهُدى والإرشاد. لدينا عقيدةٌ، ونحن نؤمن، وينتهي بنا الحَالُ أحيانًا إلى الإيمان بأشياء مجنونةٍ.

ماراندا دايندا على درايةٍ بهذا.(353) كانت ميراندا، البالغة من العمر الثامنة عشرة، وتعيشُ في إحدى المناطق الرِّيفية في ولاية بنسلفانيا ، حاملًا في عام 2012، وكانت تُمني النفس في الولادة في المنزل، ولم يكن سهلًا العثور على قابلة كفوءة ومتوفرة في وقت الولادة ؛ إذ استغرق هذا الأمر شهورًا، لكنها عندما عثرت على واحدةٍ أخيرًا؛ تبين أن هذه القابلة هي أفضل ما كانت ماراندا تصبو إليَه. جاءت القابلة في أوّل لقاء بينهنَ، مُحملةً بالحقائب، والكتب، والأوراق، وساعة طبية، وكانت ودودةً ولطيفةً بلا إسراف، واتخذت مقعدًا لها كرسيا خشبيا هزازًا قديمًا اشترته الشابة الحامل من إحدى ساحات البيع. كانت هذه القابلة بخبرتها المهنية الممتدة لعشر سنوات، والأطفال الثّمانية الذين أنجبتهم، مبتغى كل امرأة حامل. تتذكر ماراندا أن القابلةَ «بدت جديرةً بالثّقة وبارعةً»، إذ وجهت مجموعةً من الأسئلة القياسية منها: "في أيَ شهر من شهور الحمل أنت؟"، و"ما كان شُعورك في أثناء الحمل؟" ، و"هل فكرت في توفير مهدٍ؟" ثُم قدمت السؤال الآتي: "هل فكرت في عدم تلقي اللقاح؟" أخبرتني ماراندا: «لم أعرف ماذا كانت القابلة تَعنيه بذلك ، فالتلقيح هو مَحضُ شيء تفعله. تزور الطبيبَ، وتحصل على اللقاحات. الأمر أشبه بتسديد فاتورة الكَهرباء، أو ملء خزان السيارة بالغاز؛ ولذا، بدا الأمر كما لو أنَ ما تريد أن تقوله هو: "هل حدث في يوم ما أنك لم تملئي سيارتك بالغاز؟ هل فكرت يومًا بهذا الأمر؟"» فأجابت ماراندا القابلة: «لا علم

---

(353) مقابلة مع المؤلف ومصادر إضافية.
www.voicesforvaccines.org/i-was-duped-by-the-anti-vaccine-movement/
www.npr.org/transcripts/743195213?t=1611143785309
www.publicradioeast.org/post/when-it-comes-vaccines-and-autism-why-it-hard-refute-isinformation.

لي بما تسألينني عنه.»

جلست ماراندا وأصخت السمع في حين كان حلمٌ جديدٌ، وغريبٌ للواقع يتفتحُ أمام عَينيها مباشرةً في غرفة مَعيشتها. أَخبرتها القابلةُ عن إصابة طفلها البكر بإسهال مزمنٍ، وأيضًا بالتَوحد، وبِالعمى بعد تَلقيه اللقاح، وهل تعلم ماراندا أن اللقاحات قد تَتَسببُ في إصابة الأطفال الصِّغار بالسكَري؟ وبوسعها أن تكشف عن ضربكِ لهم أيضًا، هذه أحد تَأثيراتها الجانبية! يبدو هذا أشبه بإساءة معاملة الأطفال، ثُم اختتمت حديثها بالقول: «على أية حال، عليك أنَ تتخذي القرار. الأمر مَتروك لكِ تمامًا. تتوفر معلومات وافيةٌ في محرك البحث غوغل.»

بدأت مارندا التقصي والبحثَ بعد مغادرة القابلة مستعملةً مُحرك البحث غوغل حسبما أُبلغت. كتبت السؤال الآتي: «لمَ لا تُلقح؟»، وهناك وجدت كُل شيء: كُل مواضع الخَلل، وكُل ما يتعلق بمكونات اللقاحات،وأسباب خطورتها؛ مُدونات تشرح بالتفصيل كيف أُصيب الأطفال بالمرض، ثم ماتوا بعد تلقيهم اللقاح؛ ومقاطع فيديو عن "الصِّناعات الدوائية الكبرى" ، والمبالغ النقديَة التي يحصل عليها الأطباء لتَسميم الأطفال، وراجعت ماراندا كذلك المَوقع الإلكتروني للدكتور جوزيف ميركولا، "أحد مؤلفي الكُتب الأكثر مبيعًا وفقًا لصَحيفة نيويورك تايمز"، والحائز على جائزة "مُغير لعبة الرَّفاهية النهائيَة" . يبدو أنَ ما أطلعت عليه ماراندا مهني وجاد. ميركولا: *تحكم بصحتك*، هذا هو التدوين الصَّوتي (البودكاست)، الذّي تصدَرت المعلومات الآتية حلقته في وقت كتابة هذا الفَصل: «يتضاعف معدل الإصابة بِالتهابات الأذن لدى الأطفال المُلقَحين إلى اثنتين وعشرين مرةً، وإلى اثنتين وثلاثين مرة في حالة الإصابة بالجيوب الأنفية، وإلى أربعة أضعاف في حالة الحساسية، وضعفين في حالة الربو، وأربعة أضعاف عند الإصابة بحُمى القش، وثلاثة أضعاف في حالة اضطِراب فرط الحَركة وقِلة الاِنتباه، ويتضاعف معدل الإصابة بالتوحد المبنية على دراسة مسحية شملت (7850) شخصًا إلى تسع عشرة مرَّة، وعلى الرغم من ذلك، يُلقح

98٪ من الآباء أطفالهم!».

ثَم بحثت ماراندا في الفيس بوك، فهو «الأفضل» حسبما قَالت: «تجد مجموعةً في الفيس بوك، تنضم إليها، فتَلتَهمك.» وكانت إحدى هذه المجموعات هي «الأمَّهات العظيمات المُتشكّكات باللقاح». أدلت ماراندا بأوَّل تَعليقٍ لها، وصفت فيها نفسها بـ «مُترددة في التلقيح». لم يمض وقتٌ طويلٌ حتى احتشد أفراد المجموعةِ حولها مثلما يحتشدُ البزَاق حول دودة الأرض: تعرضت [ماراندا] لقصفٍ شديدٍ مثلما يظهر في التعليقات الآتية: «كُنت ممرضةً وشاهدت الأذى الذّي يُسببه التلقيح، لدي خمسة أطفال، لقحت طفلي البِكر، وهم على هذه الحالة» وواصلت البحث في هذا الموضوع لخمسة وثلاثين عامًا. شَعرت ماراندا بالذّهول، والهَلع من قِصصهن. لكنها أحست بتحسنٍ أيضًا. إذ لم يكن لدى ماراندا أمَّهات يُمكنها التحدث إليهن خلا أمَّها؛ فهي شابةٌ لم تتعد دائرة صداقاتها زميلاتها من الطَّالبات الجامعيات. ولذا، «بدا ما تفعله في مجموعة الفيس بوك لطيفًا ومُريحًا.»

إلا أنَ السببَ في انجذاب ماراندا إلى هذه المجموعةِ لم يقتصرُ على مكافآت التواصل التي حظيت بها. إذ قالت: «كُنت أميلُ بالفعل إلى احترام النساء القويات والوَاثقات بأنفسهن. نشأت في أُسرةٍ من النساء. وفكرت، بعد نظري إلى هؤلاء الأمَّهات جميعهنَ، أنَي محاطةٌ بكل هؤلاء الأمَّهات الخبيرات! إنَهن يفوقنني ذكاءً. لم أكن أعرف ما أفعل، وهنَ خبيرات بكل ما يفعلنَه. كان الأمر أشبه- تخيل أنَك طفلٌ صغيرٌ يرغبُ في أنَ يُصبح رجل إطفاء، فتزوَّر محطَّة إطفاء، وتقابل فيها كُل الإطفائيين الأقوياء البارعين في عملهم، فتفكر: *أريد أن أكون مثلهم.* أريد أنَ أكون أمًا رائعةً وقويةً تستثمر هذه المعرفة التي اكتسبتها فجأة في خدمة مَصلحتها الشخصية، ومَصلحة طفلها، ومَصلحة العالم أيضًا.»

تعلمت ماراندا بسرعةٍ، ومارست لعبة ماكينة الحظّ للظّفر بالمكانة، وواصلت الفوز فيها. وقالت عن ذلك: «مُسايرتك لِلجماعة تضمن حصولك على مكافآت

اجتماعية...إنها علامات الإعجاب في الفيس بوك، إنها تعليقات من مثل: "أجل، أنتِ على وشك أنَ تُصبحي أمًّا"، "أنتِ قوية للغاية، ذَكية للغاية، أنت تفعلين الشيء الأفضل-" تعليقات تحصدها أمٌّ شابة من نساء أكبر سنًا، أحيانًا، من والدتها.» وجدت ماراندا التجربة «أخاذةً ومذهلةً. كان هناك ذلك الشيء أيضًا – إنه يحدث، ونحن بحاجةٍ إلى فعل شيء ما بخصوصه؛ ولذا، كُنا نُحشد القِوى لأجله. بدا الأمر سياسيا.»

اِنطلقت ماراندا، بعد مدةٍ وجيزةٍ، في العالم الرَّحب لتُمارس لعبة الفَضيلة، وتُبشر بمعتقداتها الجَديدة؛ إذ تحدثت عنها مع والدتها، وأبناء عمومتها، ودأبت في البحث عن أي سَببٍ لِتَقديم المَوضوع في المُناسبات الاجتماعية. تقُول ماراندا: «ترغبُ في الحديث عن الموضوع مع أشخاص يُمكنك التناقش معهم؛ لأنَك تريدُ أن تقُول: *"أنا أذكى منكم، وأعلم منكم، أنظر إلى هذا الشيء الذي أعرفه في حين تجهله أنت*. إنَه لأمرٍ مُحرج حقًا أن تُفكر بهذا الموضوع الآن. كُنت أحسب أنَي مُلِمَّةٌ بكل ما يتعلق به، *وأفكر بأَنَ حديثي سيُثبت لهم[تفوقي]، إنَهم سَيندَمون حقًا على الجِدال معي*».

وسألت ماراندا إذا ما كان جزءٌ من المغزى هنا هو العودةُ إلى المجموعةِ في الفيس بوك وإبلاغها بما يجري أملًا في الفوز بمكافآت المكانة، فأجابت: «هذا صحيحٌ لا شك. وهو الشيء الذي يفعلهُ الجميع. "زرت الطّبيبَ اليوم، وأخبرتهن عن ذلك". "زرت أبناء عمومتي اليوم، وكنت أستشيط غضبًا». تحصلين على مكافأة لقاء كُل ذلك. كلما كثفت حُضورك في الفيس بوك، اكتسبت المزيد من الثّقة، وارتفعت مكانتك الاِجتماعية. إذ تغدو شخصًا يَسعى الآخرون إلى الاِقتداء به. سوف تنظرُ إليهم، وتفكر في سرَك: *إنهم شديدو الثَّقة في كل ما يقُولونه؛ إنَهم يؤمنون به إيمانًا راسخًا؛ إنَهم مستعدون لفعل أيَ شيء. أحتاج إلى أنَ أكون مثلهم. أظن أَنه شيء غير واعٍ*. يرغبُ البشر في أن يحظوا بالاِحترام، والتبجيل. إنَهم يتوقون في أنَ يكونوا على رأسِ الجَماعةِ.

رفضت ماراندا تَلقيح ابنتها بعد ولادتها، وقالت للطَّبيب: «من فِضلك، اِحترم مواقفي. شكرًا جزيلًا لك.» إلا إنَها، في غضون السنتين التاليتين، بدأت تشعر بالِاستياء من بعض القناعات الهَامشية الأخرى التي عبرت عنها زميلاتها في اللعبة. كانت تشعر بالزّهو دائمًا بعقلانية تفكيرها، وقراءتها أيضًا الكُتب المنهجية العلمية تَزجيةً للوقت حينما كانت طفلةً: «لطالما أحببت العلم، ووثقت به بِكُل كياني.» وهذه هي الهوَية المُضادة المُتمردة التي ستنقذها. صدقت ماراندا أن موقفها المُناهض للتَلقيح مبنيٌ على أدلةٍ؛ إذ علمت أنَ بعضًا من الأمَّهات يعتقدنَ أنَ التلقيح هو السبب الوحيد في إصابة بعض الناس بالشذوذ، وقالت سيَدة أخرى لاحقًا إن نقص المَناعة المُكتسبة (الإيدز) غير موجود. ثُم حذرت سيَدة أخرى من أنهن سيودَعنَ جميعًا في معسكرات موت تابعة لوكالة إدارة الطَّوارئ الفيدرالية. قالت ماراندا: «في كُل مرةٍ أطلع فيها على هذه التعليقات، كُنت أفكر: "*ما هذا بحق الجحيم*؟ استغرق مني الأمر وقتًا طويلًا. إلا أنَي فكرت في نهاية المَطاف، وسألت نفسي: "*ما الذي يجعلني اتبنى إحدى هذه المعلومات، وأقول عنها "هذه المعلومة صحيحةٌ تمامًا" في حين أقول على أخرى: أليس هذا نوعًا من الجنون*؟ لا سيما إذا جاءت من شخصٍ كان يزودني بمعلومات استثمرتها من قبل.

تَحرت ماراندا الأمر ثانيةً في محرك البحث غوغل، متعمدةً هذه المرَّة البحث عن معلومات مخالفة لِتحيزاتها، وتدبرت دور الطب العام في حياتها أيضًا: «أعاني من الرّبو، ووالدي مُعاق، المُشكلات الطّبية شائعة في أُسرتي، وكُنت سأموت من هذا المَرض لولا الأدوية. بدأت فجأةً في تجميع هذه المعلومات، ورصَفها معًا».

ولذا أسرعت ماراندا في مغادرة مجموعة الفيس بوك، وأعدَت العدَة لتَلقيح ابنتها التي كانت تبلغ العامَين آنذاك، وحينما اشتركت في صفحةٍ مؤيدة للتَلقيح، اسمها "أصوات مؤيدةٌ للقاح"، سألها المُشرف على الصَّفحة إذا ما كانت ترغب في كتابة مدونة عن تجربتها، الشيء الذي كشفَ عن خيانتها لِزميلاتها السابقات في صفحة "أمَّهات ضد التلقيح". انتشر خبر المُدونة مثل النار في الهَشيَم، إذ حقق

نسبة قراءة غير مسبوقةٍ، واستمرت مشاركة المَنشور في المجموعات المُناهضة للتلقيح، وهكذا، مثل حتمية توالي الليل والنهار، هبَت عاصفة الكَراهيَة: «فالنساء اللاتي كُن يُخبرنني بأني الأم الأفضل في العالم، أصبحن يَصفنني الآن بالأم الحُثالة. ثمّة نساءٌ لم يَبخلن عليَ قط بالدعم والمُساعدة في أثناء ولادتي الشاقة، لكنهن يودنَ الآن لو يقلن لي: "كان يَجِب عليكَ أنَ تموتي في المخاض".»

وأَرسلت نساءٌ من عليَة القوم، لم تكن ماراندا على تواصلٍ معهن من قبل، رسائل قُلنَ فيها إنَ ابنتها ستكرهُها عندما تكبرُ، وستصبح "مُتخلفة". كان بوسع ماراندا أنَ تتخيل ما تَتناقلهُ هؤلاء النسوة عنها في مجموعة الفيس بوك الأولى: كان شائعًا إنزال منشورات عن أشخاصٍ مثلي مؤداها: «يا إلهي، كمْ هي معتوهة! إنَّهن يحتشدنَ جميعًا في حملة كَراهيَة ضدَنا». وجدت هؤلاء النسوة أنَ من المستحيل فهم السبب في مغادرة أيَة زميلةٍ سابقةٍ للمجموعة: ففي التصوُّر الوَاهم الذي نَسجته أدمغتهن عن الواقع، كان واضحًا أنهن *أفضل* فحسب من الجَميع: "تحسب هؤلاء النسوة بأنهن أذكى، وأنَ الآخرين كُلهم يُسايرون النظام ما عداهن، فهن يُقاومنه. ويَتصوَّرنَ أنَ حُبهن لأطفالهن يفوق حب الآخرين لأطفالهم. ولمَ لا؟ منْ لا ترغب في أنَ تكون واحدةً من الأمَّهات العظيمات المتشكِّكات باللقاح؟ منْ يرغب في إيذاء طفله؟

استُدرِجت ماراندا إلى الشطط، واللاعقلانية على يد مجموعةٍ من الأمَّهات رفيعات المكانة اللاتي أغرينَها بتبني تصوُّرهن عن الحياة لقاء الفوز بالمكافآت والجَوائز، فباتت مَهووسةً باللعبة، وتُبشر بها بين معارفها، وخَاطرت بصحة طفلتها. أضحت رغبتها في أنَ تُصبح أمًّا صالحةً معتمدةً على اقتناعها بِأنَ اللقاحات مُضرةٌ، وبلوغ هدف الأمومة الصَّالحة تعني تبني قناعة هؤلاء النسوة والاشتراك في لَعبتهن ، والفوز بها ضمانًا لِمَصلحتها ، ومصلحة طفلتها ومصلحة العالم. كان من المؤمل لها أنَ تغدو أمًّا رائعةً، وأنَ تُساعد في إنقاذ العالم. والمكانة المَعروضة عليها كانت مُجزيةً. ولذا، لم يُسمح لها بِأنَ تتوارى هكذا بسهولةٍ ويسرٍ

عندما أدارت ظهرها للمجموعة وتمردت عليها. قضت النسوة وقتًا كافيًا في إبلاغها بذلك: إذ جُردت من جميع مظاهر المَكانة التي حظيَت بها. أضحت نكرةً، وأحط من نكرةٍ. سيكون من الأفضل لها لو أنَها ميتة.

ليست غريبةً تجربة ماراندا. إنَها لم تكن ساذجةً، بل بشرًا يُمارس لعبة الحيَاة بالضّبط مثلما صُممت لها. لم يكن مهمًا في العصر الحجري، إذا ما كانت القصصُ التي نسرَدها عن العالم غير حقيقية، فالإيمان بأساطيَر قبيلتنا وتَحيزاتها يعمل على توحيدنا، وتَنسيق سلوكنا، ودفعنا إلى الاستماتة في قتال أعدائنا. لكن الأمر مختلفٌ في بيئة القرن الواحد والعشرين الذّي نعيش فيه جنبًا إلى جنب العديد من الجماعات الُمتداخلة والُمترابطة، إذ الميَل البشري إلى التقبل الساذج للرؤى الشاملة للَعبتنا يؤدي غالبًا إلى الزّلل، وعدم الثّقة، والفرقة، والعدوان، والغَطرسة، وسوء الحال، وهذا الميَل قوي للغاية.

جمعَ علماءُ النفس كميةً هائلةً من الأدبيات التي تُثبت بأنه حتى قناعاتنا الأرسخ والأمتن مستمدةً غالبًا من ألعابنا، ويصدقُ ذلك على معتقداتنا السياسية. ولحظ الباحِثون الذين عَدلوا في السياسات الظَّاهرة للجمهوريين والديمقراطيين، في دراسةٍ لهم، أنَ الُمصوِّتين غيَروا دعمهم لبرامج الرّخاء الُمتشددة أو الُمسرِفة في ضوء هذه التعديلات. اللافت هنا ليس فشل الُمصوِّتين في إدراك وقوعهم ضحية لِلتلاعب فحسب، بل عثورهم على أسبابٍ وَجيهةٍ لدعم معتقداتهم الُمعدلة، وتمكنَهم من أنَ يفسرَوا بسهولةٍ آلية تبنيهم لها. تقول ليليانا ماسن، المختصَة بعلم النفس: «ما يحدثُ غالبًا أنَ الُمواطنين لا يختارون دعم الحزب بناءً على رأيهم في سياسته؛ بل إنَهم يُعدلون هذا الرَّأي على وفق الحزب الذي يدعمونه. إنَهم لا يُلاحظون أنَ هذا هو ما يحدثُ في الغالب، والواقع أنَ أكثريتهم يشعر بالغضب عند الإتيان على ذكر هذه الاحتِمالية.»

يتوفرُ دماغنا على الكثير من الحِيَل التي تدفعنا إلى تَقبُّل القصة التي تسردها لَعبتنا عن العالم وتَصديق ما تفترضهُ: تقول لنا هذه القصة إنَ أفراد جماعتنا أذكى

من الآخرين؛[354] وتجدَ أنَ من الصّعوبة التفكير منطقيًا بحججٍ، ووجهات نظر مخالفةٍ لمعتقدات جماعتنا،[355] وتعالج آراءً، كُنا نتفق معها سلفًا، ولو أنَها حقائق؛[356] وتفترض تِلقائيًا، في العادة، أنَ المؤمنين بآراء ومعتقدات مخالفةٍ هم أغبى، وأظلم وأفسد، وأكذب منا، الشيء الذي يُيسر مسألة تجاهلهم وإقصائهم.[357]

ليس الذكاء تلقيحًا. على العكس، فعندما يُدفع الأذكياء إلى العثور على أدلةٍ تَدعمُ المعتقدات الخَاطئة لجماعتهم، فإنهم يُثبتون براعةً كبيرةً في ذلك. إنَ ذكاءهم المُتقد يجعلهم، بسهولةٍ ويسرٍ، أفضل في تأكيد قصتهم الرَّاسخة عن الواقع، وحينما درس علماء النفس الطَّريقة التي تؤثر فيها هوَيات الناس الدينية والسياسية والاجتماعية في معتقداتهم وقناعاتهم، لحظوا بأنَه كُلما كان الناس أثقف، وأذكى وأبرع في الحِساب، زادت احتمالات ثِقتهم بالأفكار الغَريبة الخاصَّة بجماعاتهم.[358] ويصدقُ هذا الحال على من يُنكرون التغيَر المَناخي، والمُناهضين للتلقيح والتَطور، فكُلما زاد ذكاء اللاعب، تَضاعف احتمال رفضه للاتفاق العلمي. كُلنا عرضةٌ لِتَصديق ما يُريد منا تحالفنا الجماعي تصديقه. يرى الأنثروبولوجي، جون توبي، أنَ «عقليَة التحالف تجعل من الجَميع، بما فيهم العلماء، أغبى بكثير في الكيانات الجماعية التحالفية موازنةً بوصفهم أفرادًا.»[359]

(354) 'How group identification distorts beliefs', Maria Paula Cacault, Manuel Grieder, *Journal of Economic Behavior & Organization*, Volume 164, 2019, pp. 63–76.

(355) '(Ideo)Logical Reasoning: Ideology Impairs Sound Reasoning', A. Gampa, S. P. Wojcik, M. Motyl, B. A. Nosek, P.H. Ditto, *Social Psychological and Personality Science*, 2019, 10 (8): 1075–1083.

(356) That's My Truth: Evidence for Involuntary Opinion Confirmation', M. Gilead, M. Sela, A. Maril, *Social Psychological and Personality Science*, 2019, 10 (3) 393–401.

(357) 'Taking the High Ground: The Impact of Social Status on the Derogation of Ideological Opponents', Aiden Gregg, Nikhila Mahadevan and Constantine Sedikides, *Social Cognition*, 2017, 36, 10.1521/soco.2018.36.1.43.

(358) *The Intelligence Trap*, David Robson (Hodder, 2020). Kindle location 999–1016.

(359) 'Coalitional Instincts', John Tooby, *Edge*, 22 November 2017.

ومن نَافلة القولِ، إنَنا لسنا سَاذجين تمامًا. فعندما تكون وقائع مسألة ما قويةً ورصينةً، ونبذل جهدًا واعيًا ومُخلصًا في فهمها، فإننا سنكون مؤهلين تمامًا للتفكير العقلاني. بوسع التجارب الشخصية أنَ تقذفنا إلى خارج فُقاعتنا. وثَمّة فئات من المعتقدات يُمكننا تقبلها بلا أي جهد، والعديد منها قابل للقيَاس قياسًا موضوعيا، ومُتحرراً من قيمة المَكانة، مثل طول نهر المَسيسيبي. وإذا كُنا نُحجم عن الاستمرار، إلى ما لا نهاية في مناقشة هذه الأنواع من الحَقائق، فهذا لأنَنا لا نستثمر أيا من عناصر مَكانتنا فيها. لكننا إنَ فعلنا ذلك، فإن تفكيرنا قد ينحرف عن جَادة الصّواب سريعًا. مكتبة سُر مَن قرأ

من المحتمل أنَ نُصدق أي شيء تقريبًا في المَواقع التي نفوز فيها بالمكانة أو نَخسرها. يُمارس مليارات البشر ألعابًا في عوالم الأحلام المُتخيلة التي تَخلقها الأديان العَظيمة: إذ يؤمن المسيحيون أنَ دخول الشر إلى العالم كان عقابًا من الرّب بعدما أكلت امرأةٌ تفاحةً؛ ويؤمن المُسلمون أنَ الملائكة خُلِقت يوم الأربعاء، وأنها تجوب أرجاء الأرض لتَسجيل حسَنات المُسلمين، وسيئاتهم، ويؤمن اليهود بأنَهم الشعب الذي اختاره الله ليكونوا «نورًا للأمم»، ويؤمن الهُندوس بتناسخ الأرواح الخَالدة في دوائر من الوِلادة والوِلادة الثَّانية حتى بلوغ حالة الاكتمال، وتؤمن طائفة شُهُود يهوه بأنَ الموتَ أفضل لهم من عمليات نقل الدم إليهم المُخالفة لإرادة الرّب؛ ويعتقد البوذيون بوجود واحدٍ وثلاثين مستوى من الوجود، من بينها مستوى «عالم الأشباح الجائعة» الذي يرتقي من خلاله المنسوخون إلى الأعلى اعتمادًا على براعتهم في ممارسة اللعبة؛ ويرتدي السيخ سراويل خاصَّة للسيَطرة على شَهواتهم، ويؤمنون أنَ الشعر هو خلق الرّب؛ ولذا لا يجب قَصه أبدًا.

ومن الطَّبيعي ألا يثق جميع أتباع الأديان، في الوقت الحاضر، بهذا النوع من القَصص، إذ يَتعامل بعضهم مع تفاصيلها المُدهشة في لامعقوليتها بوصفها تفاصيل مَجازية في حين يَتقبَّلُون ادعاءاتها الغيبية المُضمرة. إلا أنَ حقيقة أنَ 84٪ من سُكَّان العالم يُعرفون أنفسهم بوصفهم مُتدينين يكشف عن قدرة اللعبة على

غمر عقولنا بالأفكار والتصوُّرات الغريبة[360] مثلما يَتبينُ في رغبتنا القَسرَية في البحث عن خططٍ تُساعدنا على التواصل، والظَّفر بالمكانة، وفي نسج الأحلام الرَّائعة حولها؛ وليس هناك سببٌ يجعل غير المؤمنين يشعرون أنهم أرقى وأرفع مستوى. يولد المُلحدون، في الغالب، ويَتعلمون في مكانٍ تتمتع فيه قيمهم الخاصَّة بالتميز والبروز، وتحظى فيه رُموزهم الأيقونية بالاحترام. وما هو صحيحٌ من وجهة نظرهم صحيحٌ بالنسبة لِمن حولهم أيضًا. إنَنا لا نُدقق بأنفسنا في ما هو صحيح، في أكثرية الأحيان، بل نفعل ذلك مُسترشدين بُنخبنا؛ ولذا نؤمن بما يُفترض بنا الإيمان به.

ويُصدق هذا حتى على معتقداتنا الأعز والأَثمن، التي نَصفها بِالأخلاقية. فالواقع الأخلاقيَ الذي نعيشُ فيه هو لعبة فَضيلة. إذ نستغلُ عروض الأخلاق لتَصنيع المكانة. وفعلنا ذلك هو أمرٌ جيدٌ. إنَه مفيدُ وعملي؛ إنَه السبب الذي يدفع أصحاب المليارات إلى تمويل المكتبات والزَّمالات الدراسية الجامعية والمشاريع العلمية؛ وهو السبب في أنَ واحدًا وثلاثين فقط من أصل (11672) من عمليات التبرع بالأعضاء في الولايات المُتحدة كانت مجهولة المصدر حسبما أوردت إحدى الدراسات،[361] وهو ما يفسر شُعورنا بالرّضا عندما نفعل، ونقول سرًا أشياء دَالةً على الأخلاق، واستمتاعنا باستِحسان الجمهور المتخيل. المكانة الناجمة عن الفضيَلة هي الرِّشوة التي تدفعنا إلى إيثار مصلحة الآخرين- لا سيما إذا كانوا من رفاقنا اللاعبين- على مَصلحتنا.

إنَنا نَتعامل مع المُعتقدات الأخلاقية مثلما لو أنها عالمية، ومُطلقة: لحظت إحدى الدراسات أن الناس يؤمنون، على الأرجح، أنَ قدرة الرّب على تغيير قوانين الكون الفيزيائية أيسر من قدرته على تغيير "الحقائق" الأخلاقية،[362] والظَّاهر أنَ

(360) https://www. pewforum.org/2012/12/18/global-religious-landscape-exec/.

(361) *The Consuming Instinct*, Gad Saad (Prometheus, 2011), p. 100.

(362) 'Immutable morality: Even God could not change some moral facts', Madeline Reinecke and Zach Horne 2018, 10.31234/osf.io/yqm48.

حقائق من هذا النوع تنتمي إلى الفِئة ذاتها التي تنتمي لها الأشياء في الطّبيعة ، ولو أنَها قابلة للملاحظة تحت المجهر، والبرهان بالصّيغ الرّياضية أيضًا. وإذا كانت الحقيقة الأخلاقية موجودة في كُل مكانٍ، فإنها في حُمضنا النووي. إنها تلك البَرمجة القديمة الخاصَّة بمُمارسة اللعبة التي تطورت لتحثنا على التقيَد بالسلوك التعاوني في جماعات الصّيادين-جامعي الثّمار. إلا أنَ هذه التوجيهات- *أي السعي للتحلي بِمظاهر الفضيَلة؛ وتفضيل مصلحة جماعتك على مصلحة الجماعات الأخرى*- قليلةٌ، وغامضةٌ، وخاضعةٌ للاختلافات العَاصفة في التفسير. أما ما تبقى فهو، في مُجملهِ، فعل تخيلٍ مَشتركٍ. إنَه حُلمٌ نسجُ خيوطه حول لعبة مكانةٍ، والحُلم يتغير ، ويتحول مع اِنتقالنا عبر القارات، فتناول دجاجة عمياء، ورؤية الدم في الحُلم، والنوم باتجاه الغرب، إذ سيفوتك شروق الشمس، هو من المُحرمات عند جماعة مالاغاسي في مدغشقر.[363] ويُقَدم المُراهقون في جماعة ماريند في غينيا الجديدة الجنوبية[364] إلى ثقافة "اللواط المؤسسي"،[365] إذ ينامون في منازل الرِّجال البالغين، ويستهلكون سوائلهم المنوية عن طريق المُمارسة الشرجية، ظنَا منهم أنَ ذلك يزيدهم قوَةً. تحدث عالم النفس، ديفيد باس، عن ممارسة خطف الفتيات ، وإجبارهنَ على ممارسة العِلاقة الحَميمة مع رجلٍ متزوجٍ، في جماعة الموظ في الشمال الأمريكي، وذكر أنَ «جميع المعنيين بهذا الأمر-بما فيهم الفتاة- يُقرُّون بأنَ موافقة الوالدين على منح ابنتهم إلى الرجل هو فعل اِمتنان فاضلٍ وشهمٍ.»[366] وبقدر ما تبدو هذه الأعراف غير مألوفةٍ لنا، إلا أنَها تبدو صحيحةً أخلاقياً للمشتركين فيها؛ فهي جزءٌ من حلم الواقع الذي يعيشون فيه؛ الحُلم الذّي لا يقلَ في وضوحه، وأصالته بالنسبة لهم عن وضوح حلمنا، وأصالتهِ.

---

(363) *A Study of Malagasy Customs and Beliefs* (Oslo University Press, 1960), pp. 89, 117, 197.

(364) *Mixed Messages,* Robert Paul (University of Chicago Press, 2015), pp. 46–49.

(365) *The Origins and Role of Same-Sex Relations in Human Societies,* James Neill (McFarland, 2011), p. 48.

(366) *Evolutionary Psychology,* David Buss (Routledge, 2015), p. 8.

ويتغير هذا النوعُ من "الحقائق" بمرور الوقت كذلك. لسنا مضطرين للعودة بالزّمن إلى الماضي لاكتشاف وجهاء تقيين يحملون آراءً أخلاقية كانت كفيلةً بأن تقضي عليهم في الوقت الرَّاهن. كتبت ماري شارلوت ستوبس، البطلة النسوية ،ومنظمة حملة تحديد النسل، التي انتخبها قراء صحيفة الغارديان "سيَدة الألفيَة"،[367] وكُرمت بإصدار طوابع بريد مَلكية خاصَّة بها في 2008،[368] وكانت مُعادية للسامية ومختصة في تَحسين النسل...كتبت ذات يوْمٍ: «دبَ الهُزال في عرقنا بفعل النسبة المُرعبة في اِرتفاعها للضعفاء العاجزين والمرضى»،[369] و«أن واجب المجتمع المُلح هو جعل الأبوَّة مُستحيلةً للمُصابين بعلل ذهنية وجَسدية يزداد معها زيادة شبه مؤكدة احتمال إصابة نسلهم بخلَلٍ جسدي أو ذهني».[370] وفي غضون ذلك، شرح غاندي ذات مرّةٍ غضبه، وشعوره بالتوتر من البريطانيين بالنحو الآتي: «إنَ نِضالنا هو نُضالٌ متواصلٌ ضد الإذلال، والقهر الذي يحاول فرضهُ علينا الأوروبيون الذين يريدون الحَطَّ من قدرنا، وإنزالنا إلى مستوى الكَافر الخالص [الأفريقي الأسود]...الذي يتلخص مَطمحه الوَحيد في الحياة في جمع عددٍ محددٍ من رؤوس الماشية لِاقتناء زوجةٍ... ، ويقضي أيامه...في الكَسل والتعري.»[371] تبدو عِبارات مثل هذه فظيعةً فظاعةً واضحةً. مع ذلك هناك قدرٌ من المنطق في لوم غاندي على عدم مشاطرتنا وجهات نظرنا الغربية الحَديثة عن العرق بقدر المنطق في لوم الفايكنغ على عدم اشتراكهم في شبكة نتفليكس. "الحقائق" الأخلاقية هي أفعال خيَال. إنها أفكار نُمارس الأَلعاب معها.

يبدو الحُلم حقيقيًا للغاية مع أنه، في مُجملهِ" شيءٌ يختلقه الدماغ الصَّانع

(367) 'There's Something About Marie', Ros Coward, *Guardian*, 25 January 1999.

(368) 'Royal Mail Criticised for Stamp Honouring "Racist" Marie Stopes', John Bingham, *Daily Telegraph*, 14 October 2008.

(369) *Married Love*, Marie Stopes (Oxford University Press, 2004), p. xv.

(370) *Radiant Motherhood*, Marie Stopes, via:
https://www.gutenberg.org/files/45711/45711-h/45711-h.htm.

(371) *Subliminal*, Leonard Mlodinow (Penguin, 2012), p. 157.

للألعاب. العالم المُحيط بأجسادنا فوضويٌ ، ومحيرٌ، وعلى الدماغ أنَ يفهمه؛ عليه أنَ يحول طوفان الضَّوضاء هذا إلى عالمٍ دقيقٍ، وملونٍ وشَاملٍ بوسعه أنَ يتنبأ به ويتعاطى معه بِنجاحٍ، حتى يحصل على ما يريده منه. وعندما يكتشف الدماغ وجود لعبة يبدو أنَها تفهم حقيقته المَحسوسة، وتُقدم سُبلًا لبلوغ المكافآت، بوسع الدماغ عندها أنَ يتبنى قواعد هذه اللعبة ورموزها بحماسٍ منقطع النَظير. وعندئذ، تُقمع الضَّوضاء، وتُروض الفَوضى، ونعثر على قصَّتنا، وعلى الدور البطولي الذي سنؤديه فيها! لقد عرفنا الحقيقة، وتَلَمسنا الطريق-عرفنا معنى الحياة! إنَها أشجار اليَام، إنَها الرَّب، إنَها المال، إنَها إنقاذ العالم من الصِّناعات الدوائية الكبرى الشريرة. إنها لا تشبه تجربةً دينيةً، بل هي تجربةٌ دينيةٌ. إنَها ما شعرَ به الكاتب الإنكليزي-الهنغاري المولد، آرثر كويستلر، عندما كان شابًا في 1931، عند انضمامه إلى الحزب الشيوعي: «إنَ قوَلنا إنَ المرء قد "رأى النور" هو وصفٌ بائسٌ وهزيلٌ للنشوة الذّهنيَة التي لا يحس بها سوى المُهتدي (بصرف النظر عن العقيدة التي اِهتدى إليها).[372] والظّاهر أن هذا النور الجديد يتدفق من الاتجاهات كافة في داخل الجُمجمة؛ والكون بأكملهِ يتخذ شكل نمطٍ، مثل قطعٍ ضائعةٍ في أحجية الصُّورة المَقطوعة تُجمع كلها بحركةٍ ساحرةٍ واحدةٍ. هناكَ جوابٌ الآن عن كُل سؤالٍ، والشكُوك ، والصِّراعات أضحت جزءًا من الماضي المُعذِب؛ إنَه ماضٍ بعيدٍ عندما كان المرء يعيش في جهلٍ مُطبقٍ في عالمٍ عديم الذّوق واللون قوامه الجهلة. لا يمكن لشيء، من الآن فصاعدًا، أن يعكر صَفوَ السلام والسكينة الداخلية للمهتدي، فيما عدا خشيته من تَضييع الإيمان مرةً أخرى، وبالتالي تضييع الشيء الوَحيد الذّي يجعل الحيَاة جديرةً بالعيش، والنكوص ثَانيةً إلى الظَّلام الخارجي حيث النحيب، وصرَير الأسنان».

(372) *The God That Failed*, Richard Crossman (editor) (Harper Colophon, 1963), p. 23.

الفصل السابع عشر
حُمى الذّهب

تَحلقت جَماعةُ " الأمَّهات العظيمات المُتشكِّكات بالتلقيح"حول فكرة أن التلقيحات ضَارةٌ. كان تأمين التواصل سهلًا بقدر سُهولة الإيمان. مع ذلك، يجب على اللاعبين الرَّاغبين بالارتقاء بمكانتهم أنَ يفعلوا شيئًا يتجاوز عتبة الموافقة المحضة. كان عليَهم أنَ يُصبحوا مَهووسين بالمُعتقد، ويذودون عنه، ويُبشرون به، ويُجسدونه في حياتهم. وكلما سمحوا للمعتقد بأنَ يُسيطر عليهم، تَمكنوا من الِارتقاء إلى مكانةٍ أعلى. تُغذي هذه الديناميات الجزءَ الأكبر من الصَّخب والجَلبة الجماعاتية التي نلاحظها في العالم. والمكانة هي وقودٌ لا نظير له. ففي حين يَتصفُ إنتاجُ الغاز والفحم والنفط بتكلفتهِ العالية، ومحدودية كمياته، يستمر إنتاج المكانة إلى ما لا نهاية–ومع ذلك، فهي قابلةٌ للاشتعال مثل أنواع الوقود. وحينما تتحلق ألعاب المكانة حول معتقد غير عقلاني، فإنها، على الأرجح، ستنمو نُموًا هائلًا، وتنشر الترهات والفوضى والمُعاناة في القارات.

شرَعت ألعاب المكانة، في ثمانينيات القرن العشرَين في تقديم المكافآت إلى اللاعبين اعتقادًا منها أنَ هناك شَبكات سِرِّية ومؤثرة من البيدوفيليين (الميالين جنسيا إلى الأطفال) الأشرار الذّين يديرون مراكز الرِّعاية النهاريَة في الولايات المُتحدة الأمريكية. إنهَا المرحلة التي شهدَت اِرتفاعًا مذهلًا في ألعاب المكانة التي يُمارسها المُعالجون النفسيون والمُختصون الاجتماعيون لا سيَما من ركز منهم على مسألة استغلال الأطفال والتحرش بهم. هَيمنت على العقودِ السابقة النظَريات الفرويدية التي نزَعت نحو إقصاء ذكريات البالغين عن الاستغلال بوصفها

خيالات، ونتيجةً لذلك، كثيرًا ما كانت وقائع هذا الإِستغلال المُرعبة عرضةً للتجاهل. إلا أنَ هذا الحال لم يَستمر طويلًا، إذ تغيَر في مطلع ثمانينيات القرن العَشرين بعدما أدرك عامة الناس أنَ استغلال الأطفال هو شيء حقيقي، ومنتشر اِنتشارًا واسعًا على ما يبدو. عَرف الجميع أن الوحوشَ البشرية المُستغلة للأطفال مشابهون تمامًا للأمَّهات والآباء العاديين؛ والأمَّهات والآباء العاديون كانوا موجودين في كُل مكانٍ!

وهكذا، دُشِنَ العصر الذّهبي لألعاب مكافحة الاستغلال الجِنسي. إذ اِكتظت وازدحمت شبكات النميمة في وسائل التواصل الاجتماعي بأشكال الهَلع الغاضب. وتصدَرت القصص عن اِستغلال الأطفال والتحرش بهم الأعمال الدراميَة الشعبيَة والأفلام التلفازية، واحتشدت صَفحات المجلات والجرائد بالتقارير المُرعبة، وكشف المَشاهير عن تجاربهم في الطّفولة في مقابلات عاطفية طامحة للمكانة، وتصدرت الكُتب عنوانات مثل *أيام الأب*، *ابنة أبيها*، *ولم أخبر أحدًا بالأمر*، *وقل لأبيك " ليلة سعيدة"*. وقد كتبت الناشطة النسويَة، لويس ارمسترونع، إحدى مؤلفات هذه الكُتب، عن: «العدد الهائل من الأطباء والاستشاريين والمُعالجين والباحثين والمسؤولين والخبراء الذّين ظهروا في ذلك الوقت، وركزا في عملهم على جانبٍ أو آخر من الاستغلال الجنسي للأطفال.»(373)

وشهدَت ثمانينيات القرن العَشرين أيضًا انتعاشًا مُنتشيًا للألعاب المسيحية المحافظة بعد الضّربات الأيديولوجية التي تلقتها في ستينيات القرن العَشرين وسبعينياته في أعقاب الهجمات، على أفكارها الخاصَّة بالأهمية التقليدية للحيَاة الأُسرية، التي شنتها الثَّورة الجنسية ونِسويات الموجة الثَّانية، اللاتي ركزن على المساواة بين الجِنسين. وأسهم انتخاب الرئيس الرَّاحل رونالد ريغن في مساعدة

(373) 'staggering array': *The Day Care Ritual Abuse Moral Panic*, Mary de Young (McFarland, 2004), p. 16.

المسيحيين المحافظين على اكتشاف قوتهم ثانيةً بوصفهم قوةً ثقافية مُهيمنةً لا سيما بعد أنَ بلغت نسبة النساء الأمريكيات اللاتي يعملن في خارج المنزل، في مطلع الثمانينيات- لشدَة هلع المُحافظين- 45٪، وكان الكثير منهن يتخلينَ عن مهمة رعاية أطفالهن، ويوكلنَها إلى غرباء في مراكز الرّعاية النهارية. ما كان يحدث هو انتصارات أحرزها الشيطان من وجهة نظر هذه الفِئة.

وكان من المُقدر أنَ تَتَضافر الجهود في الحَرب التي شنها المسيحيون على عبدَة الشيطان، والحرب التي أضرمَ نارها المُعالجون على الاستغلال الجنسي للأطفال، في تحالفِ غير مقدس في عام 1980 على صفحات كتابٍ كان الأعلى مبيعًا حينها. إذ يُفترض أنَ كتاب *ميشيل تتذكر* هو قصةٌ حقيقيةٌ لعملية استغلال طقوسية شيطانية في مرحلة الطفولة، ألفه المعالج النفسي للطفلة، الدكتور لورنس بازدر. قدمت ميشيل جُملةً من الِادعاءات، منها تعرَضها للاغتصاب على يد عبدةَ شيطان مُلطخين بالدم والغائط، وإجبارها على المساعدة في قتل طفلٍ آخر باستخدام صَليبٍ، إضافةً إلى إجراء الأطبّاء، الذين كانوا أعضاءً في الطَّائفة الدينية، عملية جراحيةً لها بعد إدخالها غرفة العمليات كي يزرعوا له قرونًا وذيَلًا في جسمها. وبلغت الإساءة ذَروتها في طقسٍ دام واحدًا وثلاثين يومًا ظهر فيها الشيطان نفسه من أجل أن يُمهد لوصول السيَد المسيح ومريم والملاك ميخائيل، وبالتالي إزالة الندوب الجسدية التي خلفها الاستغلال الجنسي إزالةً مناسبةً. أخبر بازدر الصحفيين: «في بداية الأمر، كُنت أتساءل عما إذا كانت ميشيل قد اختَلقت هذه الأشياء. لكن إذا كانت هذه خدعةً، فإنها ستكون الخدعة الأكثر شططًا وغرابةً على الإطلاق.»(374)

حقق كتاب بازدر مكسبًا مقداره (342000) ألف دولارٍ من الدفعة النقدية المُسبقة لوحدها، ورَوجت له الصحف بإعلانات شغلت صَفحات كاملةً، وساعد ذلك في إرسال مؤلفه في رحلةٍ دعائيةٍ في الولايات الأمريكية استغرقت تسعة

(374) *WeBelieveTheChildren*, Richard Beck (PublicAffairs, 2015), p. 27.

وثلاثين يومًا. بات بازدر نجمًا خارقًا في ميدان علاج الصّدمات الناجمة عن الاستغلال الذي يشهد [سوقه] انتعاشًا قلَ نظيرَه، إذ سافر في طولِ البلاد وعرضها لتَثقيف أطباء الصحة العقلية والمسؤولين عن تنفيذ القانون بالخطر الذي هو عبدَة الشيطان الأشرار. وحدث في إحدى المُناسبات المبكرة، في أثناء محاضرته التعريفية أمام أعضاء الجمعية النفسية الأمريكية رفيعة المستوى أن قدم بازدر مصطلح "الإِستغلال الطقوسي".

وأدت ألعاب المكانة دورًا في تغذية الهلع الشيطاني، إذ تشكَّلت في جميع المواقع التي يتجمع فيها المؤمنون؛ في المؤتمرات، والحلقات النقاشية، والدورات التدريبية، وكذلك المُنظمات من أمثال "الجماعة المهنية للأطفال المُستَغَلين جنسيا في المرحلة التمهيدية"، و"المعهد الدولي للأطفال"، و"المركز الوطني لدراسة استغلال الأطفال وإهمالهم". ولحظت دراسةٌ مسحيةٌ شملت عددًا يفوق الألفين من المختصَين بعلم النفس، والمعالجين النفسيين، والمرشدين الاجتماعيين، الذّين عملوا مع حالات الاستغلال الطقوسي، أنَهم-أيَ المستجيبين في الدراسة- سجلوا نسبة حضور مرتفعة في المحاضرات التعليمية، والحلقات النقاشية أو الورشات المعنية بالجرائم أو حوادث الاستغلال الجنسي الطقوسية.(375) في هذه المناسبات تنشط البَرمجة القبلية القديمة لدى الوافدين الجددَ، وتبدأ في ممارسة عملها في حين تَستبدُ بهم المشاعر الرَّائعة للتواصل مع اللعبة. إنَهم يجلسون في حالة من الذُّهول في حين ينسج صيَادو عبدَة الشيطان حلمًا جديدًا لهم ليعيشوا فيه، ويعلمونهم آليات فوزهم بالمكانة فيه.

تبدأ الجَلسات غالبًا بشهادةٍ فظيعةٍ حاشدةٍ للغضب والاستياء، يجري بعدها اِستدراج اللاعبين المبتدئين بوعد الفوز بمكانةٍ فاضلةٍ مُهمةٍ بفضل محاربتهم لما يُقدمه المعالج النفسي الدكتور، رونالد سامت، بوصفه «التهديد الأخطر على

(375) *The Day Care Ritual Abuse Moral Panic*, Mary de Young (McFarland, 2004), p. 55.

الأطفال والمجتمع الذي يجب علينا التصدي له في حياتنا».[376]

لُقِن المُتدربون أيضًا قواعد من مثل "قاعدة المِهن"،[377] أي المهن التي ترتفع فيها احتمالات وجود عبدَة الشيطان من أمثال مُقدمي الخَدمات في مراكز الرّعاية النهاريَة، والأطبَّاء، والمُعالجين النفسيين ومديري المَدارس والمعلمين ورجال الشرطة والسياسيين والقساوسة والمسؤولين العموميين وحاملي النعوش. ثُم يتزعم اللاعبون من فئة النخبة جلسات النقاش الجماعي حيث يجري التعامل مع المتشكّكين الضّالين؛ وتُزال العَراقيل المانعة لبلوغ الإجماع.

ويحصلُ المتدربون، في جلسات التدريب، على دروسٍ إضافيةٍ تخصُّ المشاركة في لعبة صيَد عبدَة الشيطان، التي تحكمها جملةٌ من القواعد. القاعدة رقم (1): "صدق الأطفال". فحسبما ذكر سامت: «كلما كانت إفادة الطّفل مخالفة للمنطق والعقلانية، تعززت "احتمالات" صحتها. وإذا غيَر الأطفال آراءهم، وأخبروك بِأنَهم اختلقوا القصة بأكملها، فإن هذا هو "المَسار الطّبيعي" وهو متوقعٌ تمامًا: فهذا النوع من الإنكار هو دليلٌ على عبقرية عبدَة الشيطان في التحكم والسيطرة. والواقع أنَ "عددًا قليلًا من الأطفال، لا يتجاوز الطّفلين أو الثّلاثة في الألف، قد تَبين، مبالغتهم في وصف تفاصيل اِدعاءات التحرش الجِنسي أو فبركتها.»[378] أمسى "تصديق الأطفال" معتقدًا مُقدسًا لصيَادي عبدَة الشيطان؛ والقاعدة التي تستند إليها لَعبتهم. كانت هذه القَاعدة تلازمهم، في الشارات التي يُعلقونها في ملابسهم. وإضافة إلى ذلك، أسس الآباء الناشطون منظمة صدَق الأطفال. وأضحت هذه القَاعدة "الرَّاية الخفَاقة في ذلك العقد، حسبما ذكرت عالمة الاجتماع ماري دي يانغ، إذ «كان جميع من يسيرُ وراءها متفقًا على فكرةٍ واحدةٍ مؤداها أنَه لا يوجد ادعاء واحدٌ من ادعاءات التحرش الجنسي غير قابل للتصديق، وأن التراجع

---

(376) *The Day Care Ritual Abuse Moral Panic*, Mary de Young (McFarland, 2004), p. 8.

(377) المصدر نفسه، ص 47.

(378) 'The child sexual abuse accommodation syndrome', R. C. Summit, *Child Abuse and Neglect*, 1983, 7, 177–193.

عنه أو إنكاره غير مقبول».(379)

ودرسَ المُتدربون كذلك مناهج خاصَّة لجمع الأدلة من الأطفال، إذ تضمنَت المؤشرات الدالة على وقوع الاستغلال الجنسي الطقوسي كُلًا من الخوف من الظّلام، والخَوف من الموت، وضعف الانتباه لِبعض الوقت، والخَشيَة من الحيوانات الوحشية، وتدني التقدير الذاتي.(380)

كان الأطفال يَخضعون لفحص الشرج باستعمال "اختبار الاستجابة لتحفيزية"، وتؤخذ مسحة في منطقةٍ قريبةٍ من الشرج الذّي إنْ انفتح تلقائيًا، فإنَه يعني حدوث التَحرش الجنسي. وهناك مرآة مُكبِرة تُسمى منظار المهبل يُدخله في العضو التناسلي للفتيات الصَّغيرات الطبيب الباحث عن أصغر الندوب والرُّضوض واضطرابات الأوعية الدموية فضلًا عن أي تغيَرات دقيقة في حجم غشاء البَكارة وشكله. كانت هذه "صدمات صُغرى" حسبما ذكر صيَادو عبدَة الشيطان،(381) وكانت بمنزلة دليل على الانتهاك والاستغلال حتى مع عجز العيَن المجردة عن رؤيته.

وجاءت الأدلة الأخرى من المُقابلات مع الأطفال. عمل الخبراءُ من "المعهد الدولي للأطفال" على تدريس المناهج الخاصَّة بفحص الأطفال" في مئات من الدورات التدريبية، تلقوا عن كُل واحدةٍ منها أجرًا قدره (455) دولارًا.(382) وحاز أعضاءُ هذا المعهد، من أمثال استريد هيغر وكي مكفارلين على مكانةٍ مرموقةٍ جراء عملهم فيه، إذ اِنهالت عليهم الدعوات للحديث في المؤتمرات المحلية الدولية، وحرص الصَّحفيون على إجراء مقابلات معهم، وحلوا ضيوفًا في البرامج التلفازية الشائعة على الصّعيد المحلي، وكان الطّلب مرتفعًا على نَصحائهم واستشاراتهم في قضايا الانتهاك الجنسي. ولم تكن مقابلاتهم المُسجلة بارعةً في قُدرتها على الإيحاء والتوجيه فحسب، بل كانت تلجأ أيضًا إلى الإكراه الذي يوشك

---

(379) *The Day Care Ritual Abuse Moral Panic*, Mary de Young (McFarland, 2004), p. 18.
(380) *The Day Care Ritual Abuse Moral Panic*, Mary de Young (McFarland, 2004), p. 33.
(381) *We Believe The Children*, Richard Beck (PublicAffairs, 2015), pp. 58–59.
(382) لمصدر نفسه، ص 60.

أنَ يَتحول إلى تنمرٍ. قالت الطَّبيبة استريد هيغر لفتاةٍ صغيرةٍ في واحدةٍ من هذه المقابلات: «لا أريد أنَ أسمع بعد الآن المزيد من "كلا".[383] كُل فتى وفتاةٍ صغيرةٍ في المدرسة بأكملها تَعرضوا للمسِ بهذه الطريقة.» وعلى شاكلة هيغر، رفضت مكفرلين قبول الإنكار المُتكرر والواضح لصبيَ اسمه كيث.[384] قالت مكفرلين للصبي، في حوارهما، الذي استعملا فيه الدمى المُتحركة أو الماريونيت: «هل ستكون غبيًا، أم هل ستكون ذكيًا وتُساعدنا في هذه المسألة.» و«حسنًا، ما فائدتك؟ لا بد أنَك أحمق.» وكررَ طفلٌ بعمر الخامسة، في مقابلةٍ أخرى، على مَسامع مكفرلين بأنَه لم يُشاهد قط الموظف المُتهم في مركز الرّعاية النهارية يفعل شيئًا "سيئًا". لكنها أجابته: «لا بد من أنَك خائفٌ.»

مكتبة
t.me/soramnqraa

فرد عليَها: «كلا، لست خائفًا.»

فقالت له: «أنت محض قط مذعورٍ. لمَ لا تُخبرني؟»

حسبما تُبين هذه الحالة، استغل معدَو المقابلات رغبة الأطفال الطَّبيعية في المكانة لإقناعهم في تقديم "الإجابات الصّحيحة". وعمل الأطبَّاء في تشجيع طفلٍ آخرٍ بإخباره: «لا شك في أنَك مطلي، ظننت أنَك أصبحت رجلًا.»[385] وقالت مكفرلين لفتاةٍ اسمها كريستي في مقابلةٍ أخرى: «نعلم بوجود ألعاب تعرٍ في مرحلة ما قبل المدرسة.»[386] وبعد أنَ نظرت إلى الدميَة المُتحركة بيَد الفتاة، سألتها: «هل تتذكرين ذلك، يا دُبة؟» وعندما هزّت الفتاة رأس الدُبة لتجيب "كلا"، بادرتها مكفرلين: "أوه، يا دُبة! ربما، ليس لديك ذاكرة قوية تمامًا. لا بد من أنَ ذَاكرتك ليست بمقدار قوة ذاكرة صديقة كريستي. ويذكر مُستجوّب سابق مُكافأة الثَّناء

---

(383) *We Believe The Children*, Richard Beck (PublicAffairs, 2015), p. 60.

(384) *We Believe The Children*, p. 46.

(385) We know there were naked games': *Conviction: American Panic*, podcast, 2020, episode 3.

(386) المصدر نفسه.

التي حظي بها لِكذبه بشأن تعرَضهُ للاستغلال الجنسي على يد أبيه:[387] إذا تذكرت شيئًا ما يبدو وكأنه يدعم الِادعاء، أو يُثبت شيئًا ما، فإني كُنت أشعر شعورًا قاطعًا مثلما لو أني حققت شيئًا، بالتأكيد. لم أكن أرغب في الظّهور بمظهر الطّفل الغبيَ الذي يعجز عن التذكر. وعندها كانوا يقولون لي: «إنكَ تُبلي بلاءً حسنًا».

عاد مئات من المختصينَ بالصّحة العقلية، الذين تعلموا قواعد اللعبة في المؤتمرات والحلقات النقاشية والورش، إلى مجتمعاتهم المحلية للشرَوع في محاولة للعثور على أدلتهم الخاصَّة على الاستغلال الطقوسي. وبسبب التزامهم بقاعدة "*صدق الأطفال*" المُقدسة، كانت كل ادعاءات التحرش والاستغلال معقولةٌ من وجهة نظرهم. كان الأطبَّاء يُحكمون إغلاق عيون الأطفال، ويضعونهم في أكفانٍ مغلقةٍ، ويجعلونهم يشاهدون مُحاميًا وهو يذبح مئات من الحيوانات.[388] وتعرض أطفال آخرون إلى انتهاكات أُخرى منها الاستغلال الجنسي على يد مجموعةٍ من الرَّاهبات العجائز، والقذف من القوارب إلى سرَبٍ من أسماك القرش؛ وتفريغ ميَاه المَراحيض في غرفٍ تحتيةٍ حيث تُمارس أفعال الاستغلال؛ واصطحابهم إلى المقابر لقتل صغار النمور؛ وحبسهم في أقبيةٍ مكتظةٍ بالأسود المُزمجرة، ومشاهدة فتح القبور واستخراج الجُثث ثُم طعنها؛ والإلقاء بهم في أنفاقٍ سرَيةٍ وطائرات وصَالات رياضية وقصورٍ ومغاسل سيَارات ومناطيَد هواء حارة. كانت جميع هذه الِانتهاكات تقع بطريقةٍ ما في أثناء وجود الأطفال في مراكز الرّعاية النهاريَة، يعقبها إعادتهم الذّكيَة إلى آبائهم في نِهاية اليوم من دون أيَة علامة تدل على أنواع المَخاوف والهلع التي تحملَوها.

اِنتقلت عدوى الأحلام المَخبولة لصيَادي الشيطان المُحترفين إلى الآباء القلقيَن الذّين قرأوا عن هذا الشكل الجديد والمُرعب من الاستغلال الجنسي للأطفال في الكُتب والمقالات، وتعرَفوا إليه في أحاديث المُعالجين. وأسهمت هذه الكتب

(387) *Conviction: American Panic*, podcast, 2020, episode 5.

(388) هذه الفقرة هي تجميع لمعلومات من جميع المصادر الملاحظة.

والمقالات «التي اكتظت بالمُصطلحات والمفاهيم السرَيرية، وشحَت فيها البيانات التجريبية، وافتقرت للنظرية»، حسبما أوردت ماري دي يانغ، في مساعدة الآباء على «فهم» سُلوك أطفالهم.[389] إذ أفادَت إحدى الأمّهات في محاكمةٍ بأنَ هذه الأفكار ساعدتها في إدراك أنَ إنكار طفلها المتكرر لتعرضه إلى الإساءة هو في الواقع مؤشرٌ على وقوعها.

انهمرت المكانة إلى داخل هذه الألعاب عبر رَوافد كثيرةٍ، ليس أقلَها القرب من الهيئات الحكومية المُتنفذة، وأنهار المال المُشرقة. وموّلت وزارة العدَل الأمريكية في 1984 مؤتمرًا استمرت وقائعه أربعة أيام جمع خمسة وثمانين من مشاهير المجتمع.[390] وفي أعقاب جلسات الاستماع في الكونغرس في العام ذاته، التي تضمنَت إفادات أدلى به لَاعبون معروفون من أمثال النجمة محاورة الأطفال، الطَّبيبة كي مكفرلين، ضاعف الكونغرس تمويله لبرامج حماية الأطفال لتصَل إلى مائة وثمانية وخمسين مليون دولار في غضون أربع سنوات، ثُم عززَها بخمسة وعشرين مليون دولار أخرى لتدريب العاملين في مراكز الرّعاية النهارية من أجل تحسين قدرتهم على التنبُّؤ بالاستغلال ومنعه. وزادت ميزانية المؤتمر القومي لاستغلال الأطفال وإهمالهم، في عام 1985، إلى ما يفوق الأربعة أضعاف، من بينها (146000) ألف دولار مُنحت إلى مكفرلين مقابل مجموعةٍ من حواراتها مع الأطفال. وزادت الميزانيَة السنويَة التي خصصتها الوزارة للأبحاث ومِنح البرامج التعليمية والثّقافية إلى قرابة الأربعة عشر مليون دولار، مع تقديم إحدى المِنح إلى أحد العامليَن في قسم الصّحة العقليَة التابع للولاية لمُساعدته في دراسة الأطفال في المرحلة التمهيدية في مدينة نايلز في مشيغان. الظّاهر أنَ الأطفال قد تعرضَوا للتحرش في كنيسةٍ، وفي أنفاقٍ، والدفن في الأرض، والاشتراك في طقوس دموية أيضًا، وإدخال مواد في أعضائهم التناسلية، والتهديد بإلقائهم إلى أسماك القرش.

---

(389) *The Day Care Ritual Abuse Moral Panic*, Mary de Young (McFarland, 2004), p. 93.

(390) *Satan's Silence*, Debbie Nathan and Michael Snedeker (iUniverse, 2001), pp. 126–129.

وبلغ مقدار المنحة التي حصل عليَها الباحث من "المؤتمر الوطني لاستغلال الأطفال وإهمالهم" لأجل إجراء "دراسة متابعة" للأطفال (449000) ألف دولار.

ووجدت مؤسسة إنفاذ القانون أيضًا دافعًا لتصديق أنَ أحلام هذه الحركة معقولة وحقيقية. وكان من بين أعضائها محامون طموحون ومسيحيون محافظون في الغالب، الذين أُنتخبوا على خلفيَة وعودهم بإيلاء حماية الأطفال الأوّلوية في برامجهم، ورجال شرطة متحمسون استُدرِجوا إلى اللعبة للأسباب ذاتها مثلهم مثل المُعالجين والمُرشدين الاجتماعيَين. كتب الضّابط السابق، روبرك هكس، بأنَ رجال الشرطة هؤلاء «عادوا إلى أقسامهم، بعد حضورهم حلقات نقاشية قليلةٍ خاصة بِعبادة دينية، وأعدوا ملفًا بالطقوس الشيطانية كي يتمكنوا من أنَ يتولوا بأنفسهم تقديم الحلقات النقاشية للمدرسيَن والآباء ومُنفذي القانون؛ وانضموا إلى الشبكات غير الرسمية لرجال الشرطة المنتمين إلى طوائف تعبديَة أخرى، ثُم تباهوا بحلقاتهم النقاشية الرّامية إلى زيادة الوعي.»[391] ومع تضَخم مكانتهم بفضل إيمانهم الفاعل بهذه الادعاءات والمزاعم، أثبت رجال الشرطة والمدَعون العامون بأنَهم لا يقلون سذاجةً عن العاملين في مجال الصّحة العقلية. ففي قضيةٍ واحدةٍ فحسب، أُلقيَ القبض على ثلاثة وأربعين من البالغين في مدينة وناتشي في واشنطن العاصمة على خلفيَة اتهامهم بأكثر من تسع وعشرين ألف تهمة.[392]

انتَفخت هذه الألعاب وتسارعت وتيرتها بفضل الشهرة التي حازتها في المستوى الوطنيَ. وخصصت نجمات من مثل سالي جيسي رافاييل واوبرا وينفري حلقات في برامجهُن الحوارية للحديث عن الاستغلال الطقوسي، إذ أجريتا مقابلات مع أفرادٍ من صفوة المجتمع. عرَفت وينفري مُشاهديها العشرة ملايين إلى ضيفٍ «استُخدِم في عبادة الشيطان وشارك في طقوس التضحية بالبشر، وأكل لُحوم البشر

(391) *The Day Care Ritual Abuse Moral Panic*, Mary de Young (McFarland, 2004), pp. 52–53.

(392) *We Believe The Children*, Richard Beck (PublicAffairs, 2015), p. xxii.

أيضًا.»[393] وصُنِف برنامج "عبادة الشيطان: الكشف عن عالمٍ سري" الذي أعدَه جيرالدو ريفيرا، في وقت بثَه، ضمن البرامج الوثائقية التلفازية الأعلى تقييمًا على الإطلاق.[394] وحصل ديفيد شو، أحد الصَّحفيين في مجلة لوس أنجلوس تايمز على جائزة البوليتزر لكشفه عن حالات الفشل الكثيرة في صحافة تلك المرحلة، ومن بينها الصَّحيفة التي كان يعمل فيها.[395]

وأضحت المجتمعاتُ المحلية المتأثرة بهذه الحوادث مَهووسةً بالقيل والقال. إذ قُذِف أحد مراكز الرّعاية النهارية بالبيَض في مانهاتن بيج في ولاية كاليفورنيا، وهُشِمت نوافذه، وأُضرمت النيران فيه، وكُتِب على جدرانه الخارجية: "إنَها البداية فقط، والموت".[396] وحفر الآباء أرض المركز بحثًا عن شبكة سِرِّية من الأنفاق،[397] واستعان محامي المُقاطعة، بعد فشلهم في ذلك، بخدمات مجموعة من المختصَين بالآثار. وعندما أخفق هؤلاء للمرَّة الثَّانية، جلب الآباء بأنفسهم مُختصين بالآثار. لم يعثر أحدٌ على أنفاقٍ. ومع ذلك، ذكرت إحدى الدراسات المسحية أنَ 98٪ من أفراد المجتمع المحلي يظنون أنَ ريَ باكي، أحد المُتهمين «مذنبٌ ذنبًا قاطعًا أو في الغالب»،[398] وأنَ 93٪ منهم لهم الرأي نفسه في مديرة مركز الرِّعاية، بيغي مكمارتن-باكي؛ وأنَ 80٪ منهم لا يراودهم "أي شكَ" باقتراف هذين المسؤولين الذّنب. وعندما أُطلق سراحها بكفالةٍ، بعد اثنين وعشرين شهرًا من الاحتجاز السابق على المحاكمة، قاطع الجميع بيغي التي كانت تَتلقى رسائل تهديد بالموت هاتفية في أواخر المساء، ووقعت ضحيةً للاعتداء

(393) *Conviction: American Panic*, podcast, 2020, episode 5.
(394) 'The History of Satanic Panic in the US – and Why it's Not Over Yet', Aja Romano, *Vox*, 30 October 2016.
(395) 'Is Shaken Baby Syndrome the New Satanic Panic?' Amy Nicholson, *LA Weekly*, 9 April 2015.
(396) *We Believe The Children*, Richard Beck (PublicAffairs, 2015), p. 62.
(397) *The Day Care Ritual Abuse Moral Panic*, Mary de Young (McFarland, 2004), p. 35.
(398) المصدر نفسه، ص 36.

اللَفظي والجسدي.[399]

كلفَ حسم هذه القضيَة لوحدها خمسة عشر مليون دولار، وكانت، في وقتها، المحاكمة الجنائية الأطول والأعلى تكلفةً في تاريخ الولايات المُتحدة[400] التي حصل المتهمان على براءتهما في نِهايتها. كتبت دي يانغ أنَ المعنيين مباشرةً بتوجيه هذه الاتهامات دأبوا، في أثناء ذلك، في «المشاركة في المؤتمرات والمحاضرات و ودوائر شهادات الاستشارة والخبرة»، و«استعانوا بآخرين استمروا، بدورهم، في التحري عن حوادث الاستغلال الجنسي في هذه المراكز، في داخل مجتمعاتهم المحلية، وعملوا بعد ذلك في تدريب آخرين لفعل الشيء ذاته في مجتمعاتهم.»[401] وهكذا، واصلت اللعبة إعادة إنتاج ذاتها، واستمر حلمها غير المُقدس في استقطاب المزيد من الناس. والفضل في الاهتمام الذي أظهره أكثرية المُجندين في لعبة مطاردة الشيطان يعود «إلى هذا العدد الصّغير من رواد الأعمال الأخلاقيين.»[402]

وجِه الاتهام رسميًا إلى مائة وتسعين شخصًا بقضايا الاستغلال الطقوسي في ذلك الوقت، وأُدين منهم ثلاثة وثمانون شخصًا على الأقل.[403] واعتمدت إدانة أحد المتهمين اعتمادًا شبه كامل على شهادة طفلٍ بعمر الثّالثة![404] وقضى كثيرٌ منهم سنوات في السجن. واتُهم كلٌ من فرانسس ودان كيلر من مدينة اوستن في ولاية تكساس[405]، بإجبار الأطفال على شرب كولايد ممزوج بالدم، ومشاهدة بتر الأعضاء بالمِنشار، ودفن أحد عابري السبيل في المقبرة. وادعى نفس الأطفال بأنَهم

(399) المصدر نفسه.
(400) المصدر نفسه، ص 41.
(401) المصدر نفسه، ص44.
(402) المصدر نفسه.
(403) *We Believe The Children*, Richard Beck (PublicAffairs, 2015), p. xxi.
(404) المصدر نفسه، ص 115.
(405) 'The History of Satanic Panic in the US – and Why it's Not Over Yet', Aja Romano, *Vox*, 30 October 2016.
'triumph of ideology over science': *The Day Care Ritual Abuse Moral Panic*, Mary de Young (McFarland, 2004), p. 51.

قد أُرسلوا في رِحلةٍ إلى المكسيك، وُقدموا إلى جنودٍ اعتدوا عليهم جنسيًا، ثُم أُعيدوا إلى المدرسة بالوقت المُحدد كي يقلهم آباؤهم مثلما لو أنَ شيئًا لم يقع. قضى آل كيلر اثنتين وعشرين سَنةً في السجن. والأعجب ربما بخصوص هذه الاتهامات والمُلاحقات القضائية هو غياب الأدَلة المادية الداعمة لها مع أنها يجب أن تتوفر في كُل مكانٍ من نحو الدماء، والندوب والحمض النووي والشهود، وسِجلات رحلة الطيَران والأنفاق والأردية والجُثث وأسماك القرش والنمور الصّغيرة الميتة. وبدلًا من كُل هذا، اعتمد رجال الشرطة والمدعوَن العامُّون على اختبارات زائفةٍ ومفبركةٍ لشروج الأطفال المَفحوصة والصّدمات الصّغرى إضافةً إلى شهادات الأطفال المُنتزعة بالإكراه وغير المعقولة حرفيًا. تقول دي يانغ إنَ هذه الأحداث هي «انتصارٌ للأيديولوجيا على العلم»، وأنَه «قد يكون من الصعب، عمليًا، المبالغة في تقدير»[406] الدور الذي أدته فيه ألعاب المكانة المُقترنة بالمؤتمرات والحلقات النقاشية والفصول التدريبية.

وإذا كان الدافعُ وراء ما فعلهُ العددُ القليل الأصلي من صيَادي الشيطان هو حل مشكلة الاستغلال الطقوسي، فإن هذا يعني اشتراكهم في لعبة نجاح. تُمنح المكانة، في ألعاب النجاح، إلى عروض الكفاية والجدَارة بالدرجة الأساس. ويؤدي هذا سريعًا إلى بروز ثقافة قوامها التحليل والتجريب والمُمارسة والبحث والاختبار والمراجعة وجمع البيانات والنقاش العلنَي. ويتوقع من المقاربة، التي تعتمدها هذه اللعبة للتخلَص من عبدَة الشيطان-المولعين بالجنس والمُتخفين، أنَ تستهل عملها بتَقييم مفيدٍ للمشكلة. وكان من الممكن أن يؤدي هذا إلى إدراك أنَ المشكلة غير موجودة في الأصل. والنتيجة؟ ليس الكثير من المكانة لصيَادي الشياطين.

ولِذا، نجدهم، بدلًا من ذلك، يشتركون في ألعاب الفَضيلة التي دائمًا ما تنسج قصةً حول مَسعاهم تقول إنَهم مدفوعون بحل مشكلةٍ حرجةٍ ما- مشكلة تظهر غالبًا في هيأة عدوٍ شريرٍ رفيع المَنزلة-على الرّغم من أن أسلوبهم في اللعب يكشف

(406) *The Day Care Ritual Abuse Moral Panic,* Mary de Young (McFarland, 2004), p. 51.

عن الحقيقة. تميل ألعاب الفضيلة إلى التركيز على ارتقاء اللعبة ذاتها مع إيلائها أهميةً مضاعفةً لعناصر الحفاظ على الامتثال والمعتقدات والسلوك الصّحيحة. وتَتَعرض المعتقدات الأساسية لصيَادي الشياطين إلى التحدي على يد الأطفال في المقابلات، وممارستهم للعبة الفَضيلة واضحةٌ في تحويلهم حالات إنكار الاستغلال والتحرش إلى أدلةٍ إضافيةٍ على أنَ تصوُّرهم المُعتَل عن الواقع كان صحيحًا. الواقع أنهم كانوا مستعدين "لتصديق الأطفال" فقط في حالة مُصادقتهم-أي الأطفال- على صحة معتقداتهم. والنتيجة؟ مكانةٌ تفوق مدياتها أجمح أحلامهم.

وليس مُستبعدًا، بطبيعة الحال، أنَ يقع فعل الاستغلال الجنسي في قلب بعضٍ من هذه القضايا. بل إنَ المختص بالعلوم السيَاسية، الدكتور روس شيت، قد تمادى حدَ القول إنَ أكثرية المُتهمين مذنبون على الأرجح.(407) مع ذلك، لم تسلم فكرة الدكتور شيت من الانتقادات الحادة التي وجهها الأكاديميون والصَّحفيون، الذين اتهموه بالحذف والتلاعب والتشويه.(408) يؤمن شيت، في سبيل المثال، أنَ "أدلةً جوهريةً" توفرت ضد آل كيلر، منها شهادة الدكتور مايكل مو، الذي ذكر في المحكمة أنَه عثر على أدلة ماديَة على تعرض فتاة في الثّالثة من العمر إلى التحرش. لكن تبين أنَ هذا الدليل ينتمي إلى نوعٍ مشكوكٍ به من الصّدمات الصّغرى؛ إذ شهد الدكتور مو في 2013 بأنَه قد اكتسب، منذ ذلك الحين، الكثير من المعلومات والمعرفة بالأعضاء التناسلية الأنثوية، وأنَه "لا يشك" الآن في أنَ غشاء بكارة الفتاة

---

(407) *The Witch-Hunt Narrative*, Ross Cheit (Oxford University Press, 2014).

(408) 'A Critical Evaluation of the Factual Accuracy and Scholarly Foundations of *The Witch-Hunt Narrative*', J. M. Wood, D. Nathan, R. Beck, K. Hampton, *Journal of Interpersonal Violence*, March 2017, 32 (6): 897–925.

'The Methodology of *The Witch-Hunt Narrative*: A Question of Evidence – Evidence Questioned', K. M. Staller, *Journal of Interpersonal Violence*, March 2017, 32 (6) 853–874.

We Believe The Children, Richard Beck (Public Affairs, 2015), pp. 248–252.

كان طبيعيًا.[409] وأردف قائلًا: «أحيانًا، يستغرق الأمر وقتًا لمعرفة ما لا تعرفه. كُنت مُخطئًا.»[410] استشهد شيت أيضًا بدليلٍ إضافي من شُهودِ أطفالٍ آخرين على الرّغم من استحصاله هذا الدليل بعد استجوابٍ مُكثفٍ وموحٍ للغاية في المعتاد.

وحتى لو اعترفنا باحتمال وقوع بعض حالات الاستغلال، ما يزال بوسعنا أن نتأكد من أنَ إدعاءات الاستغلال الجنسي الطقوسي مضحكةٌ وسخيفةٌ. كان يجب أنَ يكون واضحًا للجميع حقيقة أنَ الأطفال لم يتعرضوا إلى تدبيس أعينهم أو قذفهم إلى أسماك القرش. ويبدو أن احتمال انهيار حيوات الكثير من الناس بسبب الحُلم المُفرط في جنونه وجموحه، الذّي نسج تفاصيله صيّادو الشياطين، هو بالكاد احتمالٌ ممكنٌ. لكن حضور بعض القدر من السذاجة وسرعة التصديق يبدو مفهومًا للمشاهد والمراقب المهتم اهتمامًا مُلتبسًا بالموضوع، والمطلع على ما كان يُسطر في عنوانات الصُّحف والمجلات، وفي البرامج الحوارية.

فالمتقدمون بهذه الادعاءات، بعد كل ذلك، هم من الشخصيَات المرموقة التي تحدثت في المؤتمرات، وخطَت المقالات في الصُّحف، وكتبت الأوراق البحثية الأكاديمية، وقابلتهم اوبرا وينفري في برنامجها. كانوا يعرفون عما يتحدثون. وحظيَت ادعاءاتهم بدعمٍ أفرادٍ من عليّة القوم من أمثال رجال الشرطة والمدعيَن العامّين، علاوةً على كسبهم العديد من القضايا. الكُل يعلم أنَ الاستغلال الجنسي للأطفال هو الأزمة الأخلاقية الأهم التي تواجهها أميركا، وأنَ جميع هؤلاء الأطفال المُتألمين والمساكين قد عانوا طويلًا من الإهمال. منْ بوسعه أنَ يقف بوجه تصديق الأطفال؟ منْ بوسعه أنَ يقف بوجه مُحاربة الاستغلال؟

---

(409) 'A Critical Evaluation of the Factual Accuracy and Scholarly Foundations of *The Witch-Hunt Narrative*', J. M. Wood, D. Nathan, R. Beck, K. Hampton, *Journal of Interpersonal Violence*, March 2017, 32 (6) 897–925.

(410) *We Believe The Children*, Richard Beck (PublicAffairs, 2015), p. 248.

'When a group of people make something sacred': *The Righteous Mind*, Jonathan Haidt (Penguin, 2012), p. 28.

يكمنُ اللغز الأغرب في المُبشرين المحاربين الذّين يوجهون دفَة الأحداث، ويَستثمرون مقدارًا هائلًا من مكانتهم الشخصيَة في تأكيد صدقهم. فعندما تُسرد الحكاية بهذا القدر من الإيجاز، يغدو من السهل إغفال أنَ قسمًا من هذه القضايا استغرق البتَ فيَها سنوات، وأنَ عددًا لا بأس به من المُتخصِّصين البالغين تعامل معها بحرصٍ وعنايةٍ. بحثت قوات الشرطة بهمةٍ وانتظامٍ عن الأنفاق السرية، والأطفال القرابين والحيوانات الشائهة. وفشلت، المرَّة تَلو الأخرى عمليات البحث والتدقيق، بنوعيَها المؤسسي، وما يتصل منها بالذّكاء الفردي للأطراف المعنيَة، واستمرت في الفشل. ولا شكَ في أنَ أكثرية اللاعبين الذّين تآمروا للإيقاع بمانحي الرّعاية الأبرياء- من أمثال المعالجين والأطبَّاء النَفسيين، والأطبَّاء عمومًا والمرشدين الاجتماعيين وضباط الشرطة والصَّحفيين- كانوا مَدفوعين بالرّغبة في تقصي الحَقائق. ومع ذلك، لم يكن هؤلاء مُضحكين للغاية في أحيانٍ كثيرةٍ فحسب، بل أيضًا مُتصلبين في إصرارهم على صحة ما يعتقدونه، وعلى التبشير به في طول الطّريق المؤدي بالمتهمين إلى باب الزّنزانة.

تُكافح الرواية القياسية للحياة البشرية لفهم ما يحدث هنا. فإما هؤلاء المحاربون هم أبطال بُسلاء يسعون لجعل العالم مكانًا أفضل، وإما أنَهم أوغادٌ كاذبون ومؤامرون يُسعدهم التضحية بالأبرياء. الخيَاران كلاهما غير مُقنعيَن ولا جديرين بالثّقة لأنَ ما كان يفعله صيَادو الشيطان هو، بسهولةٍ ويسرٍ، ما بَرمجتهم الطّبيعة على فعله. إذ تتبعت أدمغتهم لعبة تُقدم مكافآت مُذهلةً من نحو الارتباط بأفراد مُماثلين في العقلية، والمكانة التي تكتسب شكل النفوذ والاِستِحسان والمال والشهرة والقرب من الألعاب الفخمة المُقترنة بالقضاء ووسائل الإعلام والحُكومة، والتنعم بسمعة المَلاك المُنتقم، الذي يدافع عن حيوات الأطفال الأمريكيين. وهكذا، شرعوا في ممارسة اللعبة، وصدقوا الحُلم، صدقوه بعمقٍ وإخلاصٍ. فعلوا ذلك بالتأكيد لأنَهم بشرٌ، هذا كل ما في الأمر.

توصف أحداثٌ من هذا النوع غالبًا بأنها نوبات هلعٍ أخلاقيَةٍ. ومع أنَ هذا

صحيحٌ صحةً مؤكدةً في بعض الحالات، يُقدم بحثنا في هذا الموضوع احتمالًا بديلًا هو أنَ الهلع ليس مصدر الجزء الأكبر من طاقتهم المتفجرة، بل إنَ مصدرها هو الرّغبة في الإشادة والاِستِحسان. يحدث ذلك عندما تجد الألعاب فجأةً وسائل لإنتاج مقادير هائلة من المكانة تمنحها إلى اللاعبين المُشتركين فيها. وعندما يُكتشف احتواء اللعبة على عناصر مُعززة للمكانة، ينجذب إليها الكثيرُ من الأفراد الذّين يمارسونها بموجب شرطٍ مسبقٍ هو قبول قَواعدها ومُعتقداتها مهما كانت غير محتملة. تُكتسب المكانة، في هذه الحالة، بالإيمان الفاعل والعَميق. ومع نمو الألعاب التي يشتركون فيها، واستغراقهم في الألعاب العالمية من حولهم، تحرز معتقداتهم حضورًا متزايدًا في الظَّاهر. وزيادة عدد اللاعبين يعني زيادة المكانة المُنتجة، وبالتالي، تغدو القُوَّةُ المَاصَة للعبة أبشع وأعنف، ثُم يستمر ذلك إلى ما لا نهاية في عمليةٍ جامحةٍ؛ فيُصبح الأمر بأكملِهِ مكتفيًا بنفسه ومتسعًا ذاتيًا، ثُم تنال اللعبة في النهاية حجمًا هائلًا كافيًا ليشعر به الجميع في الثّقافة السائدة. وفي مخططات نصية مثل هذه، تُصبح المَكانة المَعروضة هائلةً في مقدارها، ومُغريةً إغراءً لا يكاد يُقاوم. ويتحول اللاعبون من أُناس عاديين يعيشون حيوات مألوفةً إلى مُغيرين للعالم أقوياء ونُبلاء.

وإذا كان ثَمَّ تحذير يُمكن استخلاصه من هذا الحديث، فهو ضرورة الاِرتياب في أية فكرة تسمح بالاشتراك في اللعبة من نحو "صدْق الأطفال" أو "اللقاح ضَارٌ". ويَجِب أن يَشتد ارتيابنا عندما يكون الظفر بالمكانة في تلك اللعبة مرهونًا بالإيمان العميق بها. وهذا ما حدث في نوبة الهَلَع الشيطانيَة، وهو ما خبرته الأم الشابة ماراندا دياندا في عالم الرَّافِضات للتلقيح، وهو ما دفع الرّجال في جماعة بوهنبي إلى تكريس حيواتهم لِزراعة أشجار اليَام الضّخمة. وعندما يعتنق الناس معتقدًا أساسيًا ويتصرفون بموجبه، بوصفه الثّمن الذي يجب عليهم دفعه في مقابل الصِّلات والمكانة، فإنهم يُسهّلون عملية تَحوُّلهم إلى مَمسوسين. أصبح المعتقد الآن رمزًا للمكانة. وبينما تلتفُ خيَالاتهم عن الواقع حوله، فإنهم يغدون حَاملين لهذا

المعتقد ومُدافعين عنه، ومفتونين به إلى حدٍ يستحيل معه التحدث معهم بعقلانيةٍ. وبقولٍ موجزٍ، فقد أصبح مُعتقدهم مُقدسًا.

توجد تعريفات عديدة "للمقدس"، لكن الشيء الذي هو مُقدس، من منظور هذه الدراسة، هو الشيء الذّي يُصبح رمزًا للعبة المكانة الخاصَة بنا. وفي ضوء ما تَعلمناه، فإن العالم بأكمله، مثلما خَبرناه في داخل أدمغتنا، مُشيدٌ من الرّموز. إنَه الواجهة الافتراضية التي نُمارس عليها لعبة الحيَاة. الساعتان اليدويتان، من علامتيَ كاسيَو وكارتير التجاريتين، رَمزيتان، إذ تؤشران لمقادير مختلفة من المكانة. ومن المُرجح أنَ تنطوي بعض الظَّواهر على حمولةٍ رمزيةٍ لا تكتفي بِالدلالة على مقدار المكانة التي تمنحها فحسب، بل هي مؤشر على لعبة المكانة ذاتها. ربما تتكشف هذه الظّواهر في أعلامٍ ومبانٍ ومعارك، وملابس رسمية، وألوانٍ خاصةٍ بالعصابات، وحفلات وكتبٍ وأغانٍ وعبارات وصور ومتعلقات اللاعبين من صفوَة القوم، الأحياء منهم والأموات، وأماكن وِلادتهم. ومن الجائز أنَ يكتسب القادة صفة القَداسة. وربما الرّمز المقدس النهائي هو الرّب التوحيدي: الخالق القدير والحكم في لعبة المكانة الخاصَة به. ويُمكن للمُعتقدات أن تُصبح مُقدسةً أيضًا؛ وهي تفعل ذلك دائمًا. وهذا هو السبب الذّي يجعل تفكيرنا فيها مشوشًا للغاية أحيانًا. يقول عالم النفس، جوناثان هيَدت: «عندما يجعل النَاس شيئًا ما مُقدسًا، فإنهم يفقدون القدرة على التفكير به بوضوحٍ.» المُعتقدات مثل القَميص من النوع الذي يرتديه أعضاء فرقة موتلي كرو الموسيقية الأمريكية، لكنها بالتأكيد أخطر.

يُمكن النظر إلى الرّموز المُقدسة بوصفها حوامل ماديَة لمكانتنا: ولذا، فإن الهُجُوم عليها هو الهُجوم على لعبتنا، وعلى رفاقنا من اللاعبين الزّملاء؛ وهو امتهان لكُل مكسبٍ حَصلنا عليه، وكُل ما له قيمة في حياتنا. إنَه احتقار لحلم الواقع الخاص بنا، وتجربتنا المُعاشة، وأساليب تفكيرنا وسلوكنا فيها، التي تكفل لنا الشعور بالتفوق. هذا هو السبب في احتمال أنَ تعمل المُعتقدات على جعلنا عَنيفين وغير عقلانيين. إنَه السبب الذي يجعلها قادرةً على إرسالنا إلى الحرب.

الفصل الثامن عشر

ألعاب الحرب

بدأ كُل شيء في مأدبة غداء قرب الساحل في ضاحية لا هويا (لا خويا) في ولاية كاليفورنيا.[411] في تلك الظهيرة، في خريف عام 1984، حاول رجلُ أعمال من معتنقي الثّورة المُضادة، اسمه لاري برلينت أنَ يحث ناشرًا هو ستيوارت براند على أنَ يستخدم تِقنية مؤتمرات إلكترونية. اشتهر براند بإصداره مجلة «الدليل الكامل للأرض» التي تُساعد وتُرشد الأفراد الذين يشتركون في العيش. وصف ستيف جوبس، المؤسس المُشارك لِشَركة آبل، هذا الدليل بـ «أحد أناجيل جيلي»، فهو مثل «مُحرك البحث غوغل في شكل كتابٍ ورقي الغلاف، لكنه سبقه إلى الظهور بخمسة وثلاثين عامًا.»[412] حاول برلينت، في ذلك اليوم إقناع براند بأنَ يُفعل حضورهُ في العالم الرّقمي. إذ يُمكن لقراء الأدلة الإرشادية الأصلية وخليفتها، "العرَض الكامل للأرض" أن يتواصلوا عن طريق حواسيبهم، وأجهزة المودم وخطوط الهاتف والدردشة أيضًا. ما معنى ذلك؟ كان بوسعهم أنَ يؤسسوا إلى حدٍ ما مجتمعًا محليا هيبيزيا (hippy) اِفتراضيا. منْ يعلم ما سَيحدث؟ ألن يكون اكتشاف ذلك أمرًا مدهَشًا؟ ووافقه براند الرَّأي. أطلق برلينت على هذا المجتمع التجريبي اسم "الرابط الليكتروني للأرض كُلها" -أو "المجتمع الرَّقمي-The Well" اختصارًا- وأدخله حيز الاستخدام العَام، في عام 1985، في يوم كذبة أبريل.[413] سبق وجود

(411) https://worldhatchlearning. wordpress.com/2018/09/22/the-origins-of-web-community-the-well/.

(412) Steve Jobs, Commencement address at Stanford University, 12 June 2005.

(413) *The Well*, Katie Hafner (Carroll & Graf, 2001), p. 18.

هذا "المجتمع" لوحات إعلانية رقمية، ووسائل مماثلة أخرى؛ وهي فضاءات مُغلقة نسبيًا يُمكن للأكاديميين والمَهووسين بالتقنيات التواصل فيها. لم يَسبق قطّ وجود شيءٍ مثل هذا من قبل. إذ شُيدت جميع منصات التواصل الاجتماعي المعروفة اليوم على قاعدة "المجتمع الرَّقمي". والرَّيديت (Reddit) هو النموذج المعاصر الأقرب شبهًا لهذا "المجتمع" الذّي كان مستخدموه ينضمون إلى "المؤتمرات"، المُماثلة إلى الرَّيديت الفرعيَة، ويَتناقشون في موضوعات مُحددة، ويُدردشون إما علنًا وإما عن طريق رسائل مباشرة معروفة باسم "المرسلات-sends". تقول كاتي هافنر، المؤرخة المُختصَّة بخدمة "المجتمع الرَّقمي": «كانت محض فكرة سهلةٍ للغاية: أعثر على مجموعةٍ من الأفراد يجمعهم جامع عشوائي بقدر عشوائية عمر أطفالهم أو مشروبهم المفضل أو ذوقهم في الموسيقى؛ ويتعاملون بجديةٍ مع هذا التجمع؛ وقدم لهم الوسائل الكَفيلة بإبقائهم في حالة تَواصل مُستمرةٍ فيما بينهم، وتراجع خطوةً إلى الوراء لمشاهدة ما يحدث.»[414]

ما حدث هو تُجمعُ أفرادٍ حول هذه "الرَّوابط العشوائية"، وتأسيسهم ألعاب مكانة كان أكثرية اللاعبين فيها ينتمون إلى صنفٍ بعينه؛ إذ وصفتهم هافنر بـ "أفراد طفرة المواليَد في أواخر الثلاثينيات أو بداية الأربعينيات من عمرهم؛ إنهم أذكياء وذوي ميَول يسارية من دون عناية واعية ذاتيًا بالحاسوب الشخصي، وغالبيتهم من الذُّكور، والعديد منهم من حملة الشهادات الجامعية.[415] أسس ذوو العقليات المُتشابهة هؤلاء «شيئًا مقاربًا للنادي» في مُنتدياتهم الإلكترونية تَجاذبوا فيه أطرافَ الحديث عن حيواتهم وخبراتهم، واستَعرضوا معارفهم. لكن بعد حوالي العام من تَدشينه، حينما قارب عدد المُستخدِمين الخمسمائة، انضم إليهم شخصٌ مختلفٌ،[416] اسمه مارك إيثان سمث، وسَجلَ دخوله إلى المَنصة باسم "غراندما

(414) المصدر نفسه، ص 7.

(415) 'The Epic Saga of The Well', Katie Hafner, *Wired*, 1 May 2005.

(416) *The Well*, Katie Hafner (Carroll & Graf, 2001), pp. 33–34.

"Grandma".[417] على خلاف زُملائه اللاعبين الميسوري الحال نسبيًا، قضى سمت قرابة العشرين عامًا مُشردًا،[418] وكان يعاني شظف العيش في مدينة بيركلي،[419] ويشعر بالغَضب، ويكره الرجال، وأضحى يحتقر "جماعة الذُّكور البيض" الذي يعتقد بهيمنتهم على "المجتمع الرّقمي".[420]

دَشَنَ سمث مسيرته بـ "مضايقات" عنيفةٍ،[421] اتخذت شكل توكيدات أو هجمات على أفرادٍ في المُنتديات، في رسائل مباشرةٍ له أو رسائل إلكترونية مكتوبة بِمئات عديدة من الأسطر-وحتى عن طريق الهَاتف العادي (تقول هافنر إنَ سمث كان مولعًا بالعثور على أرقام الهَواتف المنزلية)[422] وكان من جملة ما أورده سمث: الرجال "بُلداء يحملون أعضاءً تناسلية"،[423] ومُصمِمو المنصة «مشابهون لذلك النوع من الأفراد الذّين يتوقفون مؤقتًا عن تطوير الأسلحة النوويَة من أجل التحرش بالأطفال أو مضايقة النساء مع أنَهم غير قادرين، في الغالب، على إقامة علاقات إنسانية.»[424] وكان ردَه على المُحتجين والمُجادلين هو: «على أحدهم أنَ يُدافع عن المُغتصبين والآباء المُسافحين بالمحارم، والمُتخلين عن الأبناء، والمُعتَدين بالضَرب، والمُمتنعين عن الإنفاق على رعاية الطِّفل، وأرباب العمل التمييزين، وزملاء العمل المُزعجين وغيرهم من المُتسكعين وعديمي الفائدة. لم لا تفعلها أنت؟» وهدد أيضًا بملاحقة ومقاضاة خُصُومه للأضرار التي تَسببوا فيها: «لن يكف الساديَون والمُتعصبون عن تعذيب الناس وانتهاك حقوقهم ما لم يُجبروا على ذلك.»[425] ويُقال إنَه كتب أن على المِثليَين أنَ «يَمتصوا نقص المناعة المكتسبة

---

(417) *The Well*, Katie Hafner (Carroll & Graf, 2001), p. 34.

(418) 'CensorshipInCyberspace', Mark Ethan Smith, www.angelfire.com/bc3/dissident/.

(419) *The Well*, Katie Hafner (Carroll & Graf, 2001), p. 34.

(420) 'Censorship In Cyberspace', Mark Ethan Smith, www. angelfire.com/bc3/dissident/.

(421) 'The Epic Saga of The Well', Katie Hafner, *Wired*, 1 May 2005.

(422) *The Well*, Katie Hafner (Carroll & Graf, 2001), p. 42.

(423) http://shikan.org/bjones/Usenet.Hist/Nethist/0020.html.

(424) 'Complaint and the World-Building Politics of Feminist Moderation', Bonnie Washick, *Signs: Journal of Women in Culture and Society*, 2020, 45:3, 555–580.

(425) https://groups.google.com/g/ misc.legal/c/NLUs2u11X_s/m/NJbxBjEWbEAJ.

(الإيدز) ويموتوا!»[426] واصل سمث اِستهداف المُستخدِمين الآخرين الواحد تلو الآخر؛ واستمر في نسج خيوط مَلحمتِهِ مع استمرار الرّدود والسجالات. إذ اشتكى أحدهم بأنَ الغرض من «عدوانية [سمث] الصَّريحة والعَلنية هو الشعور بالمُتعة المحضة لرفع ضغط الدم لدى الآخرين.»[427] مارك إيثان سمث هو أول مُضايق إلكتروني في العالم.

كان سمث أنثى من الناحية البايولوجية. لم يكن متحولًا، بل غير مُمتثل للنوع الاجتماعي، إذ كتب: «لم أكن رجلًا قط، ولا أتمنى أنَ أُعرف بوصفي رجلًا، أو، بوصفي امرأةً، في هذه الحالة!،»[428] وأضاف: «في السنوات الخمسة آلاف من تاريخ البطِرياركية (النظام الأبوي)، ربما أنا أوّل فردٍ يوجد بوصفه شخصًا من دون اعتبارٍ للجنس [البايولوجي]،» ورفض أن يكون له اسم أنثوي وضمائر يعدَها "تَصغيرية"، وأصر على "الحق في مفردات مُساوية لمفردات الرّجال،[429] وحظيَت مطالبته بالرّجوع إليه بوصفه "هو" –شيء غير مألوف في ذلك الوقت– باحترام العديد من النساء الأعضاء في "المجتمع الرّقمي" وقلة من الرّجال[430] في مقابل عددٍ أكبر وجد في هذه المطالبة أمرًا مُستحيلًا. إذ كتب أحدهم: وفقًا لمارك، يجب عليك أنَ تناديني باسمٍ أو ضميرٍ من اِختياري. الرجاء نادوني في المستقبل بهذا الاسم: «بوبا العظيم، سيّد كل ما يراه أو الكون كُلَه، لا يهم أي الاثنين أكبر.»[431] ولم يستغرق الأمرُ وقتًا طويلًا كي يبدأ أعضاء "المجتمع الرّقمي" بالتحرك ضد سمث. وحسبما صرح أحد الأعضاء السابقين: «كلما زادت ملامح "المجتمع الرّقمي" وضوحًا وبيانًا بوصفه مجتمعًا محليًا، ترسخ وعيه بذاته، ودرايتهُ بوجود

(426) https://www.linux.it/~md/usenet/legends3.html.

(427) https://groups.google.com/g/soc.women/c/6gj8v0K9ZHQ/m/_Qj5U8w0K1gJ.

(428) 'Censorship In Cyberspace, Mark Ethan Smith, www.angelfire.com/bc3/dissident/.

(429) 'Complaint and the World-Building Politics of Feminist Moderation', Bonnie Washick, *Signs: Journal of Women in Culture and Society*, 2020, 45:3, 555–580.

(430) 'Censorship In Cyberspace', Mark Ethan Smith, www.angelfire.com/bc3/dissident/.

(431) 'Complaint and the World-Building Politics of Feminist Moderation.'.

آخرين لا يَنتمون إليه، وتفاقمت عدوانيته حيَالهم.»(432) وحينما أعيتهم كُل الحيل في التعامل معه، لجأ الأعضاء إلى إهانته والإساءة إليه. إذ كتب أحدهم: «أنت مريض، ويَجِب إيداعك في مستشفى الأمراض العقلية إلى الأبد»،(433) وقال آخر: «امنحنا جميعًا استراحةً، وأذهب للانتحار من جسر غولدن غيت.» وحاول بعضهم استخدام شَفرة خاصة لِتَنقية منشوراته (لكن المحاولة باءت بالفشل).(434) وقُدمت المُناشَدات إلى المسؤولين لحرمانه من العضوية. لكنها لم تحظ بموافقة مدير الموقع آنذاك، دوغ مكلور الذي صرح: «فقط لأنها [أي سمث] كريهةٌ ومزعجةٌ، ولديها أفكارٌ غريبةٌ لا يعني حرمانها من الاشتراك في اللعب.» لكن تغير الوضع بعد مغادرة مكلور مباشرةً، إذ أبلغ المدير الجديد للموقع سمث في تشرين الأوّل، 1986 بأنَ حسابه قد عُلق إلى أجلٍ غير مُسمى.(435) وتَرتب على ذلك، حسبما صرح سمث، اختفاء مئات الآلاف من كَلماتِه.(436)

يبدو كُل ذلك مألوفًا، على الأغلب، لأي شخصٍ يقضي وقتًا في استخدام الإنترنت. كُل شيء كان هناك، في ثمانينيات القرن العشرين، في الأشهر الثماني عشر الأولى من عمر وسائل التواصل الاجتماعي: السعي الطَّموح إلى المكانة، وتأسيس الجماعات، والمُضايقة والحظر. وصف أحد مُناصري سمث، وهو من الأعضاء الأُصلاء في "المجتمع الرّقمي" أعداءه، بـ "الهمج والرِّعاع"،(437) وعلق على ما كان يحدث قائلًا: «عندما كُنت أشاهد رفاقي من أعضاء "المجتمع الرّقمي" يسكبون القير الافتراضي، ويجمعون الرِّيش الافتراضي، كُنت أشعر بالشفقة على ضيق أفقهم.» وفي مقالةٍ غير مؤرخةٍ مُتأملةٍ لتجربتِه، بدا سمث شديد الانزعاج من خسارته لمشاركاته في الموقع، إذ قال: «لو كانت مؤسسة "المجتمع الرّقمي" غير

(432) *The Well*, Katie Hafner (Carroll & Graf, 2001), pp. 42–43.

(433) https://groups.google.com/g/soc.women/c/6g-j8v0K9ZHQ/m/_Qj5U8w0K1gJ.

(434) 'Complaint and the World-Building PoliticsofFeministModeration',.

(435) *The Well*, Katie Hafner (Carroll & Graf, 2001), p. 43.

(436) 'Censorship In Cyberspace', Mark Ethan Smith, www.angelfire.com/bc3/dissident/.

(437) 'Censorship In Cyberspace', Mark Ethan Smith, www.angelfire.com/bc3/dissident/.

متفقةٍ معي في الآراء، كان بوسعهم فعل ذلك من دون قمعي.»(438)

ما سبب حدوث كُل ذلك؟ عندما قدم سمث أفكارًا لم يثقوا بمصداقيتها، لمَ لمْ يعمدوا، بسهولةٍ ويسرٍ، إلى تجاهلها؟ وحينما أساء لهم، لم لمْ يتمكنوا من التغابي عنها؟ وعندما حُرِم وحُظِر من الموقع، لمَ شعروا بالحاجة إلى محو تَعليقاته؟ لمَ لمْ يكتفوا بتجاهله؟ أو غض الطَّرف عنه؟ لمَ لمْ يفعلوا ذلك؟ لا شك في أنَ التجاهل سهل، هذا هو المفروض: إنَه الإحجام عن فعل شيء. لكننا يندر أنَ ندع مواقف من هذا النوع تمرُّ مرور الكِرام لأنَها ليست هيّنةً في الواقع. إنَ مواجهتنا لأشخاصٍ تناقض مُعتقداتهم معتقداتنا قد يكون أمرًا شديد الوطأة علينا. فتُلازمنا عندها مَشاعر القلق والكَراهية، ونُستدرج إلى وضع الهَيمنة، ومن المحتمل أنَ تقودنا مُعتقداتنا إلى الحرب.

ليس سَهلًا فهم هذا النوع من السلوك. فما جدوى الِانفعال والغَضب من غريبٍ جانبه الصواب؟ إنَه أمر غير منطقي. وما يحدثُ في غالب الأحيان هو أنَنا نغضب ونستاء، على وجه الخصوص، من مسائل ليس لها تأثيرٌ حقيقي في حيواتنا أو حيوات منْ نَعرفهم. ومن بين جميع الأشياء التي من الجائز أنَ ننخرطُ في فعلها بكل همةٍ وحماسٍ، يبدو الغضب مما يُنشر في الإنترنت أسوأ من أيَ خيارٍ عديم النفع. وعليه، ما سَبب وجود هذا الانعكاس في الفعل لدينا؟ سيكون الأمر منطقيًا إذا ما عَدلنا تصوُّرنا عن الوضع البشري: الحياة لعبة يُمارسها البشر باستخدام الرّموز، والمُعتقدات لن تنطوي على رمزيةٍ أقل من رمزية راية المعركة التي يحملها الغازي.

ألعابُ المَكانة التي نشترك فيها متجذرةٌ في إدراكنا. إذ نختبرُ الواقع من حولنا عن طريقها. ولِذا، نشعر بالاضطِراب عندما نقابل شخصًا يشترك في لعبة منافسةٍ. وإذا كان لدى اللاعبين المشتركين في هذه اللعبة مجموعة متنافرة من القواعد والرّموز، فإن ذلك يُلمح ضمنيًا إلى أنَ قواعدنا ورُموزنا- أي معاييرنا الخاصة بِادعاء

(438) المصدر نفسه.

المكانة- سقيمة، وأنَ حلمنا عن الواقع خاطئ. إنَه إبطال واعٍ للقيمة التي أنفقنا حياتنا في بلوغها. إنَهم يُهينوننا، بسهولةٍ ويسرٍ، لأنَهم من هم. وتبعًا لذلك، لا ينبغي أنَ يكون مُستغربًا الإحساس بأنَ مقابلة من يُخالفنا في المعتقدات قد يبدو بمنزلة هجومٍ علينا: المكانة موردٌ، وهم ينتزعُونها منا. عندما قدمت عالمة الأعصاب الأستاذة سارة غيمبل إلى أربعين شخصًا أدلةً على خطأ المُعتقدات السياسية التي يؤمنون بها،[439] كانت الاستجابة التي رصدتها في أدمغتهم «شديدة الشبه لما يُحتمل أنَ يحدث لو كنتَ، في سبيل المثال، ماشيًا في غابةٍ وصادفت دبًا.»[440]

وعندما يحدثُ ذلك، فإننا غالبًا ما نضطر إلى الشعور بالرّاحةِ مع أفرادٍ يماثلوننا في التفكير والعقلية. إذ نعتني بالجُروح التي تفتقت بفعل تصوّراتنا الهَذيانية عن العالم في الحوارات العصبية المُتشنجة التي نُعالجها بالحديث عن المَكانة: فأعداؤنا جهلة، ومجانين، ونازيون، ونسويون متطرفون، وعنصريون مؤمنون بتفوُّق العرق الأبيض، ونُسويات راديكاليات رافضات للتحوُّل، ومتبجحون مفتولو العضلات، وحساسُون للتمييز العرقي، وذوو وجوه مُتورِّدة، ونساء مُتسلطات بيض، ومحاربون من أجل العدالة الاجتماعية، وسَفلة وجبناء وحمقى، وعديمو الفائدة وسَريعو التهشم مثل رقائق البطاطا. إننا ندس أظافرنا في كل شقَ نجدَه في حُلم الواقع الخاص بهم، ومع كُل شقٍ أو خللٍ نعثر عليه، يضمحلُ التهديد الذي هو زعمهم المناوئ لمكانتنا في حين يتعزز ويقوى زُعمنا. وبالتالي، يتعافى فهمنا المُضرج بالدم للحياة وطريقة عَملها، ونستعيدُ إيماننا بلَعبتنا ومَعاييرنا الخاصَّة ببلوغ المكانة، ونفسحُ المجال لعودة أشعة شمس الرِّضا المَسائية الكَثيفة.

إلا أن الحُلم أضحى خطرًا الآن. فهو يستثمرُ الاختلافات فيما بيننا ومنافسينا،

---

(439) 'Neural correlates of maintaining one's political beliefs in the face of counterevidence', Jonas Kaplan, Sarah Gimbel and Sam Harris, *Scientific Reports*, 2016, 6. 39589. 10.1038/srep39589.

(440) 'The Neuroscience of Changing Your Mind', *You Are Not So Smart*, David McRaney, Episode 93, 13 January 2017.

وينسج حولها قصة أخلاقية تقول إنهم ليسوا مخطئين فحسب، بل أشرار، فيقود ذلك إلى التشنيع والمُشاتمة، ويلتوي إدراكنا وينحرف في أثناء تَفحصنا الحقود والقاسي لأفعال أعدائنا بحثًا عن أيَ دليل يسوغ جنوحنا نحو الهَيمنة. وقد رصدت الدراسات هذا الجانب في المواقف العادية اللطيفة، إذ أظهر المشاركون، الذين قدم لهم الباحثون، في مختبرٍ للعلوم العصبية، عددًا أكبر من النقاط، مقابل تمييز النقاط الزرقاء عن الحمراء قدرةً أفضل على رؤية النقاط الزرقاء في مدةٍ لم تتجاوز دقائق.(441) لكن هذا الشيء يبدو شائعًا أيضًا عند انخراطنا في الحكم على مُنافسينا. طلب الباحثون النفسيون من المشاركين تحديد إذا ما كان المُحتجون في أحد مقاطع الفيديو ينتهكون قوانين مُتنوعة.(442) قيَل في إحدى الحالات، إنهم كانوا يحتجون على عيادةٍ تُجري عمليات إجهاضٍ، وعلى التجنيد العسكري في حالةٍ أخرى. استندت أحكام المشاركين في التجربة على قانونية سلوك المحتجين، إلى حدٍ بعيدٍ، إلى ما إذا كانوا يُشاطرونهم معتقداتهم الأخلاقية أم لا. كتب الباحِثون: «شاهد جميع المُستجيبين في التجربة المقطع نفسه، لكن ما شاهدوه حقًا اعتمد على تَوافق آراء المُحتجين ومواقفهم مع القيم الثّقافية للمُستجيبين.» تَتَجلى العقليَة الحقودة والانتقامية في ما قاله الشيوعي داي هاسيو-أي الذي يتذكر التنمر الذي تعرض له أطفال الآباء من الطّبقة البرجوازيَة السابقة في المدرسة: «كان من المؤكد أنَ تفسير أي خطأ [يرتكبه هؤلاء الأطفال]، سواء أتصل بالسياسة أم لا، سيُجري في ضوء موقع طَبقتهم الاجتماعية.» فَالمخالفة التي تُرتكب في ملعب كرة سلَةٍ، في سبيل المثال، قد تغدو «دليلًا إضافيًا على عقلية الفلاحين المُقتدرة.»(443) بِوسعنا

---

(441) *The Case Against Reality*, Donald Hoffman (Penguin, 2019), p. 70.

(442) '"They Saw a Protest": Cognitive Illiberalism and the Speech-Conduct Distinction', February 5, 2011, Dan M. Kahan, David A. Hoffman, Donald Braman, Danieli Evans Peterman and Jeffrey John Rachlinski, *Cultural Cognition Project Working Paper* No. 63, *Stanford Law Review*, Vol. 64, 2012, Temple University Legal Studies Research Paper No. 2011–17.

(443) *Red Guard*, Gordon A. Bennett and Ronald N. Montaperto (Allen & Unwin, 1971), p. 5.

على الدوام العثور على أسبابٍ جديدةٍ لتَقديم مُسوغٍ يَبرر كراهيتنا ما دام حُلمنا المُعتل عن الواقع مستمرًا في تخَيل وجودها [في حياتنا].

وتحصلُ كَراهيتنا على مسوغٍ إضافي يبررها بفضل إيمانِنا بأنَ لعبة المكانة خاصتنا ليست فعل تخيلٍ مشتركٍ محلي خاصٍ بأقاربنا ومعارفنا، بل هي شيءٌ حقيقي. وإذا كانت مَعاييرنا للمطالبة بالمكانة حقيقيةً، فهذا يعني أنَ على الجميع أنْ يلتزم بها. إنَنا نتصف بعادة حقودةٍ ومُتغطرسةٍ هي الحكم على الجميع بناءً على قواعدنا، سواء أكانوا يلعبون معنا أم لا. هذا هو المنطقُ الذي يجعل أمريكيا ينظر نظرةً دونيَةً إلى صيني يبصق في الشارع، في حين من المحتمل أن يتكرر الفعل ذاته مع ياباني يرى ذاك الشخص الأمريكي وهو يمخط. وإذا لم يُمارس الآخرون اللعبة في ضوء القواعد المُتخيلة التي قررنا أهميتها وصحتها، فإنَنا نُسقطهم من اعتبارنا. لاحظ الإخصائي النفسي، سام غوسلنغ، هذا الأمر عندما توزع طلبته على جماعات مبنية على الشخصية: «لم يُخفِ ذوو الشخصية الانبساطية استِخفافهم بذوي الشخصيَة الاِنطوائية الذين رفضوا بأنانيةٍ الاستمرار في النقاش؛ ولم يتمكنوا من فهم السبب في اِمتناع زملائهم الصّامتين عن حمل نصيبهم من ثقل الحوار. في الوقت نفسه، لم يكن لدى الانطوائيين سوى الاستنكاف والاِزدراء بِنظرائهم المهذارين؛ إنَهم يتساءلون، لم لا ينتظرون حتى توفرهم على شيء جديرٍ بالقول قبل أنَ يفتحوا أفواههم؟» إننا نتعامل مع التزام عَدونا بلعبتهم بوصفه دليلًا على ذَهم وسوء سُمعتهم. وحينما يُدافعون عن أنفسهم، تعملُ أدمغتنا على مقاومة حُلمهم عن الواقع المُنافس لحُلمنا عن طريق المضي في تعديل حُلمنا وتحريفه إلى حد قطع سُبل الفوز عليهم. وإذا واجهونا بحُججٍ مُضادةٍ، فإنَنا غالبًا ما نطالبهم بأدلةٍ غير معقولةٍ في قطعيتها لإثبات مزاعمهم في حين نقبل بأدلة غير معقولةٍ في عدم كِفايتها دعمًا لمزاعمنا،(444) ونميلُ إلى العثور على أيَ مسوغٍ يُبرر تجاهل حُجَجهم الأرصن،

(444) يُقدم كتابي الآتي دراسةً أشمل عن هذه التحيزات:
The Heretics (Picador, 2013), in chapter 6: 'The Invisible Actor at the Centre of the World'.

ونَتناسى بسهولةٍ الحُجج الأشدَ إزعاجًا لنا. إنَنا نتبنى مَعايير مزدوجةً قاسيةً في التعامل معها، ولا نخصَها بأيَ من الصَّبر والفهم والتعاطف الذي نغدقه على حُججنا. وفي حين تتكدس الاتِهامات ويشتط الغضب، يستمر زملاؤنا اللاعبون في تزويدنا بعددٍ إضافي من الأسباب التي تُفسر "لم نحن على حق"، وتُساعدنا في قمع أي شعورٍ بالتناقض الناجم عن رغبتنا في الظُّهور بمظهر الفُضلاء وفي الوقت نفسه الرّغبة في إيذائهم. وعندها، نشرع في النظر إلى اللاعبين الذين يؤسسون لَعبتهم بوصفهم بقعةً أو وصمةً غير قابلةٍ للتمييز، والحكم عليهم بأنَهم مُتشابهون ومُتطابقون في خِستهم ووضاعتهم. أنظر إليهم: إنَهم يستحقون ما جرى لهم، بل إنَهم يجتهدون في طلبه. إنَنا نشبه في هجومنا هذا النبي داوود البَطل والمُنزه عن الأخطاء في قتاله للوحش الشرس جالوت. يؤدي أقاربنا دورهم في اللعبة، فيهتفون لنا ويُثنون علينا مع كل نصرٍ مزعومٍ، ويَغمروننا بمكانة مَهيبةٍ مُسكِرة.

الأخلاق، من وجهة نظرنا، صالحةٌ وجديرةٌ جدارةً قطعيةً: هل يمكن أنَ تكون غير ذلك؟ إلا أنَ القواعد الأخلاقية التي نلتزم بها هي أحد مكونات لعبة المكانة، إنَها عالم الحُلم الذي نعيش فيه، والذي يُمكن، بسهولةٍ بالغةٍ، أنَ يتحول إلى كابوسٍ، يَستدرجنا إلى الإيمان بقُدسيَة أفعالنا الوَحشيَة. وحسبما أورد عالما النفس، ستيف رايغر والكس هاسلام: «يرتكب الناس أخطاءً كبيرةً ليس لأنَهم غير مُدركين لما يفعلونه، بل لأنَه صحيحٌ من وجهة نظرهم. وهذا مُحتمل لأنَهم يتماهون تماهيا فاعلًا مع الجماعات التي يُمكن لأيديولوجيتها أنَ تسوغ قمع الآخرين وتَدميرهم، وتغض الطّرف عنه.»[445] ولحظ الأنثروبولوجيان، الآن بيج فيسك وتيغ شاكتي راي، في دراسةٍ أخرى أنَ «الناس عندما يؤذون أو يقتلون شخصًا، فإنهم يفعلون ذلك، في الغالب، لأنَهم يشعرون أنَ عليهم ذلك: إنَهم يشعرون أنَ

(445) 'Questioning the Banality of Evil', Steve Reicher and Alex Haslam, *The Psychologist,* January 2008, Vol. 21, pp. 16–19.

فعلهم صحيحٌ أخلاقيًا أو حتى مُلزَمٌ بأنَ يكون عنيفًا.»[446] وعندما نتخيل أنَ الضّحيَة هو «تهديد محتمل أو ملوثٌ للجماعة الداخلية،» فإن أفعالًا من هذا النوع تغدو جديرة بالإشادة أخلاقيًا.[447]

إننا لا نستخدمُ العُنف في القتال في أكثرية الأحيان، بل ننخرط، بدلًا من ذلك، في معارك تخصَ المُعتقدات. والأيديولوجية هي أقليم من منظور البشر، ويتصف نوعنا الحيَ بقدرةٍ مدهشةٍ على خوض المعارك على محتوى عقول الآخرين. وهذا واضحٌ في المجتمعات ما قبل الحديثة النادرة التي توافق أنَ تعمل التقاليد فيها على الحدَ من التكاثر البايولوجي. يؤمن أفراد جماعة المارِيند في غينيا الجديدة الجنوبية أنَ السائل المنوي للرجل هو مصدرٌ للقوَّة والخصوبة؛[448] ولذا، يَستخدمونه كمرهمٍ للجسم والشعر، ويخلطونه بِطعامهم؛ وعندما تُمسح الرِّماح والأقواس وخَطافات الأسماك به، فإن السائل يوجه الأسلحة مباشرةً إلى أهدافها. ولا يُفضل، في العادة، الحصول على هذا السائل السحري عن طريق الِاستِمناء، بل يجب خلطه بالسائل المَهبلي الناتج عن ممارسة الجنس الطّقوسي. ولذا، لا تمارس نساء جماعة الماريند الجنسَ بانتظامٍ وكثافةٍ لتحقيق هذه الغاية فحسب؛[449] بل تُمارس أية امرأة، في ليلة زفافها، الجنس مع الرّجال من أقارب شَريكها الجديد- يصل عددهم إلى اثني عشر في العادة- قبل اللقاء بِزوجها. وتُكرر فعل ذلك بعد الولادة. وعلى الرَّغم من أنَ الغَاية من هذه المُمارسات هي زيادة الخصوبة، إلا أنَ الأنثروبولوجي روبرت بول انتبه إلى أنها تؤدي، على الأرجح، إلى "نتيجةٍ عكسيةٍ". فجمع السائل المنوي جمعًا منتظمًا من الرّجال والتهاب عنق الرّحم نتيجة "الإفراط في المُمارسة الجنسية" لدى النساء تدَل على تدني معدلات الخصوبة وتَهاويها.

(446) *Virtuous Violence,* Alan Fiske and Tage Shakti Rai (Cambridge University Press, 2014), p. xxii.

(447) المصدر نفسه، ص 19.

(448) *Mixed Messages,* Robert Paul (University of Chicago Press, 2015), pp. 46–49.

(449) 'The dialects of sex in Marindanim culture', Jan van Baal, in *Ritualized Homosexuality in Melanesia,* edited by Gilbert H. Herdt, (Berkeley, Los Angeles, London, 1984), p. 128.

ومع ذلك، كانت هذه الجَماعة تتوسع في عدد سكانها وأراضيَها؛ وسبيلهم إلى ذلك كان شنَ الغَارات على الأراضي المُجاورة، واختطاف الأطفال وتنشئتهم مثلما لو أنهم أطفالهم. وهذه هي الطَّريقة التي حافظت بها جماعة الماريند على حيوية لَعبتها. ربما لا يتكاثر أفراد هذه الجماعة وراثيًا، إلا أنَ المؤكد، حسبما أورد روبرت بول، «هو أنَهم يتكاثرون عن طريق إنتاج خلفاء لهم وورثة وحاملين للنظام الرّمزي الثّقافي الذي يتوارثونه من آبائهم بالتبني.» هؤلاء الأطفال المخطوفون، من وجهة نظر الجَماعة، كانوا «أحفادًا حقيقيين- مثلما لو أنَهم من صُلبهم.»

تَزدهر جماعة الماريند وأمثالها لأنَ الهوَية البشرية مائعة وخلاقة. إذ ليست العلامات الأساسية من نحو الجنس والعرق أو القومية هي من تُعرفنا في النهاية، بل إنَها ألعابنا المتخيلة. بوسعنا، بطبيعة الحال، ممارسة هذه الأنواع من الألعاب، وهذا ما نفعلهُ في المعتاد، لكن الألعاب ذاتها ليست إجبارية. إذ يُمكننا حتى ممارسة ألعاب المكانة المناهضة لهوَيتنا الفِطرية. وهذا ما حدث في السنوات الأخيرة بعدما لوحظ أنَ عددًا من البيض في الولايات المُتحدة يمارسون ألعاب هوَية أقلياتية اثنية، ويظفرون بالمَكانة عن طريق تقديم أنفسهم تقديمًا "مُضللًا" بوصفهم سوّدًا. استقالت جسيكا كراغ، الأستاذ المشارك البيضاء في تخصص التاريخ الأفريقي من عملها في عام 2020 بعد اعترافها بِانتحال «هوَيات ضمن سوّاد لا حق لي بادعائه» في «القسم الأكبر» من حياتها الرّاشدة.[450] اشتملت لعبة المكانة التي انخرطت فيها كراغ على معتقدات مُناهضة للبيض. وأخبر أحد الأفارقة-اللاتينيين، الذي كانت كراغ قد واعدته لمدةٍ وجيزةٍ، في أثناء الفضيحة التي تلت الِاستِقالة، الآتي: «لم أقابل شخصًا في حياتي أشد عنصريةً منها. كانت ضد جميع البيض الزّائفين ورجال الشرطة الزّائفين والرَّأسمالية الزّائفة، وما إلى ذلك. لن يمكنك أبدًا تخيل النظرة التي ارتسمت على وجهها عندما كشفت لها بأنَ لدي أصدقاءً من جميع

(450) 'The Truth, and the Anti-Black Violence of My Lies', Jessica A. Krug, Medium, 3 September 2020.

الأعراق. كُنت أخشى من أنها كانت مُستعدةً إلى الشجار معي بالأيدي لو تحديت أيا من آرائها.»[451]

كانت كراغ تكشفُ لرَفيقها عن طَبائعها، ونُوع اللعبة التي كانت تُمارسها، والمعايير التي كانت تَعتمدها في اِدعاء المَكانة. إنَ دفاعنا عن معتقداتنا المُقدسة، بهذا النحو، إنما هو دفاعٌ عن تجربتنا لهذا العالم، والقيمة المُدركة فيه. إلا أنَنا لا نكتفي بالدفاع عن أوضاعنا من الهجوم، بل ننتقل إلى مرحلة العُنف والعدوان. ربما تكون قد خضت تجربة اللقاء بشخصٍ لا سابق معرفة لك به عمل على تَطعيم حديثه المبدئي معك بملاحظات مريبة عن السياسيين، في سبيل المثال، أو عن أحداث إخبارية جدلية. يسأل المتحدث: *ما اللعبة التي يُمارسها هذا الشخص؟ هل هما أقارب؟ هل سنكون مصدرًا للمكانة المُتبادلة؟ أم هل هذا اللاعب خصمٌ، يُمارس لعبةً مُضادةً؟* إنَهم ينتهكون، في استخدامهم لهذه المُنبهات الخَفيفة، الحدَ الخاص بإقليمك العصبي، وهم شديدو التيقظ لأي مؤشر يُمكن أنَ يكشف عن وضعك: هل أنت زميلٌ في اللعب أم عدو!.

إنَ مدى طبيعتنا العدوانية محل نظرٍ وسجالٍ. يُقال إنَ لدى البشر مُحولًا بايولوجيًا يدل، عند تنشيطه، على أن ألعابنا تشن هجومًا تلقائيًا عنيفًا على أعدائنا. ويحسب أكثرية الباحثين حاليًا أنَ هذا غير صحيح، بل إنَ بعضهم حتى يدعي أنَ الحياة في العصر الحجري كانت تخلو من الحرب خلوًا شبه تامٍ. وهذا، في ظاهره، خاطئ لعددٍ من الأسباب. لاحظت إحدى الدراسات الأساسية المُبكرة وعبر الثّقافية للصراع الداخلي في أوساط الصّيادين–جامعي الثّمار الآتي: في حين تميَزت بعض الجماعات بالمُسالمة، اشتبكت 90٪ منها في معاركَ مُتكررةٍ، أي أنَ الحروب "لم تكن نادرة أو لم تقع قط"، مع اشتراك أغلبية الجماعات في القتال اشتراكًا

(451) 'Musician went on a "Tinder date from hell" with race faker Jessica Krug', Ben Ashford, *Daily Mail*, 10 September 2020.

منتظمًا.(452) ويَدعمُ القسمُ الأكبر من الدراسات المنهجية فكرة شيوع الأعمال الحربية. ومع أن العنف بين الجماعات قد لا يكون تلقائيًا، إلا أنَه نزوع بشري يتعذر إنكاره، وهو حاضرٌ في جميع أطياف المجتمع، في العصر الحديث، من عنف العصابات إلى الطائفية الدينية، ومن إرهاب الدولة إلى الحروب الأهلية والعالمية. الحقيقة المُحزنة، حسبما يذكر الأنثروبولوجي، ريتشارد رنغام، هي أنَنا نبقى عنيفين "للغاية، عندما يتصل الأمر بعدوانية الألعاب المُتعارضة، هذا على الرّغم من المستويات المُدهِشة من اللاعنف التي نُظهرها نحو أقاربنا ومعارفنا.(453) إنَنا لا نُدرك إدراكًا حقيقيا كمْ نحن حيوانات عدوانية مُتوحشة إلا في حالة توسيعنا لتصوّرنا عن الحرب كي يشمل المعارك التي نخوضها على المناطق الأيديولوجية. يُقاتل الناس في الأماكن كافة بالنيابة عن المُعتقدات المُقدسة. وعندما نمضي في الهجوم، بهذا النحو، فإنَ ما نفعله هو بلوغ عقول الآخرين، ومحاولة إعادة تنظيمها بطريقةٍ تجعلهم يُمارسون ألعابنا ويَحلمون بأحلامنا بدلًا من أحلامهم. يجري هنا تحويل كُل فعل سرقةٍ لمهتدٍ إلى عقيدةٍ إلى فعل هِبةٍ: إنَهم ينتقلون من سرقة المكانة منا إلى عرضها علينا. وهو شيءٌ رائعٌ. إذ إنَنا كُلنا إمبرياليون عصبيون نُقاتل من أجل توسيع أقاليمنا عن طريق التوغل في عُقُول الآخرين.

وتعطُّشنا لهذه الأنواع من الإنتِصارات النفسية واضحٌ في تاريخ الاستِعماريين البيض في كندا وأستراليا الذين حرموا السكان الأصليين من الحديث بلغتهم وممارسة دينهم. وهو جليٌ في قرابة الأربعمائة من معسكرات إعادة التثقيف التي يحتجز في داخلها الصّينيون مئات الآلاف من مسلمي الأيغور.(454) وهو ظاهرٌ أيضًا في نظام أنور خوجة الشيوعي، الذي كان يسجن الألبانيين لارتدائهم

---

(452) 'The Evolutionary Anthropology of War', Luke Glowacki, Michael L. Wilson, Richard W.Wrangham, *Journal of Economic Behavior & Organization*, Volume 178, 2020, pp. 963–982.
(453) *The Goodness Paradox*, Richard Wrangham (Profile, 2019). Kindle location 373.
(454) 'Xinjiang: Large Numbers of New Detention Camps Uncovered in Report', Uncredited author, bbc. co.uk, 24 September 2020.

السراويل الضّيقة غربية الطّراز أو لـ "تصفيفات شعرهم الإمبريالية". إنّها باديةٌ في ما يفوق المائتي ألف من الأرواح الذين اعتقلهم شتازي أو جهاز أمن الدولة في ألمانيا الشرقية، الذّين عانوا التعذيب النفسي، والتعنيف الجسديَ وأطلق عليهم النار في أقبية السجون على خلفية التهمة الأروج عن رغبتهم المزعومة بمغادرة الشرق الشيوعي إلى الغرب الرَّأسمالي.[455] وعندما رفضَ الكاثاريون (أو طائفة الأطهار) التحوُّل عن عقيدتهم في فرنسا في القرن الثّالث عشر، شَعرَ الكاثوليك، الذّين أحرقوهم أحياءً، بالهلع من أنَ معتقداتهم المختلفة قليلًا عن الرّب والشيطان ستَنشطُ من جديد بطريقةٍ ما، وتُشرع بالاستيلاء على مساحةٍ نفسيةٍ واسعةٍ، ولذا، عمدوا إلى استخراج عظامهم ودفنهم من جديد.[456]

ترى ليليانا ماسن، المُختصَّة بعلم النفس السياسي، أنَ جانبًا من السبب الذّي يجعلنا نستمر في محاولة خوض المعارك من أجل النصر هو أنَ «الناس مُضطرون إلى التفكير بأفضلية جماعتهم على الجماعات الأخرى لأنّهم سيشعرون من دون ذلك بالدونية،»[457] وأضافت أنَ اللاعبين «في المستوى الأساسي العميق» مدفوعون إلى «رؤية العالم من خلال عدسات تَنافسية، مصحوبةً بالتشديد على تفوُّق جَماعتهم.» يهوى الناس بلوغ القمة، أي الفوز. رصد الباحثون ميل الجماعات إلى تَفضيل فعل الفوز اليسير على الجماعات الأخرى حتى لو كان ذلك يعني حصول اللاعبين على مكاسب أقل. ويقول عالم الاجتماع نيكولاس كريستاكيس إن هذه النتيجة «أزعجته وأثقلت كاهله بنحوٍ أكبر حتى من كره الأجانب.»[458] نرغب أنَ تظفر جماعتنا بالكثير، هذا بديهي، لكن الأهم هو خلق مساحة انتصار رحبة بيننا وبين خصومنا: «ما يبدو مهمًا للناس هو عدد الأفراد في الجماعة التي ينتمون إليها الذين تجري موازنتهم بعدد أفراد الجماعات الأخرى، أي أنّهم لا يهتمون بما تملكه

---

(455) *Stasi*, documentary, 2016.

(456) *Brain and Culture*, Bruce Wexler (MIT Presus, 2008), p. 215.

(457) *Uncivil Agreement*, Lilliana Mason (University of Chicago Press, 2018), p. 49.

(458) *Blueprint*, Nicholas Christakis (Little Brown, 2019), p. 267.

جماعتهم»، وأردف: «لا يقتصر الأمر على ضَرورة أن تمتلك الجماعة الكثير من الأشياء، بل يجب عليها أنَ تبز الجماعات الأخرى في عدد الأشياء التي تملكها.» ويصدقُ هذا أيضًا على حروب المُعتقدات التي لا نسعى فيها إلى إعلاء شأن أفكارنا وحُججنا ضد أعدائنا الأيديولوجيين، بل نسعى أيضًا إلى الهَيمنة، مثلما يتجلى في تعامل أعضاء "المجتمع الرّقمي" مع مارك إيثان سمث، إذ إنَهم فشلوا في تجاهله لأنه كان يَسرق المكانة منهم؛ وللسَبب نفسه، فشل سمث في تجاهلهم. بل إنهم فشلوا حتى في حمل أنفسهم على استخدام الضمير الشخصي المُفضل لديه. إنه فعل يدل رمزيًا على تقديرهم لقَواعده ورُموزه، وتبعًا لذلك، هو مؤشرٌ على هزيمتهم. ولذا، رد عليهم بالتهديد والإساءة المُذلة؛ وبادلوه الإساءة بالإهانة والنبذ والحظر والمراقبة. لم يستطع الطَرفان التعايش مع ادعاءات بعضهما بالمكانة. ثمة طرفٌ واحدٌ عليه أن يفوز.

وهذه نتيجةٌ محتومةٌ وفظيعةٌ للعبة الحياة التي نشترك فيها. إنَنا مُبرمجون لنقع في هوى التفوُّق، ولذا، نستمر في مساعينا لإعادة تَنظيم العالم بطريقة تكفل بقاء لَعبتنا في القمَّة، ونسرد في أثناء ذلك، قصصًا أنانيةً عن استقامة سُلوكنا الذي لا تشوبه شائبة.

والدرسُ الذي سيشعر كثيرٌ من الناس باستحالة تقبلهُ هو: لا تصدق أبدًا الجماعات التي تدعي أنَ "المساواة" مع الخصوم هي غاية مطلبهم لأن الأمر ليس كذلك مهما قالوا أو أمنوا به. إنهم يَنسجون حلمًا بديعًا فحواه العَدالة للجميع، لكن الحُلم نفسه كذبة.

الفصل التاسع عشر

استبداد أبناء العُمُومة

ألعابُ المكانةِ كيانات حيويةٌ وفاعلةٌ، وتبدو أحيانًا مثلما لو أنها تتمتع بذكاء خاصٍ بها، وتنعم بإرادةٍ قادرة على قهر إرادة اللاعبين المشتركين فيها. أضحى صيادو الشيطان دمى متحركةً في لَعبتهم، إذ استوعبوا وهضموا حلمها الجامح، ثُم انطلقوا في العالم للقتال بالإنابة عنها. وبفضل تَفانيهم في خدمتها، اِشتد ساعد اللعبة التي ينتمون إليها وحازت زخمًا ونُفوذًا. وعلى شاكلة ذلك، فإن انقلاب الأمَّهات المتشكِّكات باللقاح على ماراندا دياندا، وانقلاب أعضاء موقع "المجتمع الرَّقمي" على مارك إيثان سمث، إنما كان امتثالًا منهم لهذا الكيان الحي. وليس لأحد اللاعبين منفردًا القُدرة على تفعيل ردود الأفعال المُنفلتة هذه أو تَعطيلها. بدا الأمر مثلما لو نظام المناعة الخاص باللعبة قد انتفض في عقول اللاعبين، وشرعت الجماعة، مسترشدةً بِسُلطة اللعبة العَجيبة، في التحرك دفعةً واحدةً رفضًا للجسم الغريب.

تَستفحلُ سَطْوة اللعبة على المُشاركين فيها عند تَحوُّلها إلى نمطٍ قتالي، إذ تتوثق الصّلات والرّوابط بين اللاعبين. وقد رصد عددٌ كبيرٌ من الدراسات هذه التأثيرات. لاحظ الباحثون، في تحليلٍ لهم للروابط الاجتماعية بين مقاتلين في الحرب العالمية الثّانية، أنَ الجنود الذّين خاضوا المعارك معًا حافظوا على صلات شخصية أقوى امتدت لأربعين عامًا لاحقةً،(459) وتنبهوا كذلك إلى توطد هذه

(459) *Personality Psychology*, Larsen, Buss and Wisjeimer (McGraw Hill, 2013), p. 199.

الصّلات في الحالات التي خسرت فيها الوحدات القتالية مُنتسبيها في دلالةٍ على أنه: «كلما تعاظم الخطر الاِجتماعي، أضحت العلاقة الاجتماعية أمتن.» ووجدت دراسةٌ أخرى أن الصّينيين المُستجيبين فيها، الذّين جرى تصوير أدمغتهم بالأشعة في أثناء قراءتهم عن خطرٍ داهمٍ من اليابانيين أظهروا «تزامنًا عصبيا أعلى» مع بعضهم بعضًا. (460)

وساعدهم هذا التضافر- أو توثيق الصِّلات- على التعجيل بالتنسيق فيما بينهم عند تنفيذ المهام الجماعية. يتحسن أداء اللاعبين في الألعاب الأوثق في علاقاتها الداخلية، إذ تتراجع المَساحة التي يشغلها الفرد في مقابل توسع مساحة الجَماعة، علاوةً على اكتسابها قدرةً أفضل في الوقوف بوجه الهَجمات. وينشط نمط القتال هذا الفائق في تماسكه أيضًا في حالة الرّغبة بالظَّفر بالمكانة. بوسعنا رصد ذلك في حركات حُمى المَكانة من نحو حركة "الهلع الشيطاني" التي تستمدُ طاقتها المتفجرة، مثلما يبدو، من الجوائز المأمولة أساسًا. وتؤكد الدراسات أن الجَماعات تتكاثفُ وتَلتحمُ بهذه الطريقة- في الهُجوم وفي الدفاع أيضًا. ولحظت دِراسةٌ أُخرى تعاظم مقدار التماسك والتفضيل الجماعي عندما كوفئت إحدى الجماعات بمذياعٍ صغيرٍ، ووجدت «أنَ الفرصة للحصول على المَوارد هي سياقٌ مؤثرٌ ومناسبٌ لتَفعيل تماسك المجموعة.»(461) وهذا متوافقٌ مع الأَساليب المُتنوعة التي تعتمدها الجماعات البشرية، في الأوقات كافة، في شَن الحرب. إننا نحمي أنفسنا من الغارات في حين نَشُنها على الآخرين؛ والفِعلان كلاهما هما مسعيَان تعاونيان للغاية، وينتفعان من نمط اللعب الفائق في تماسكه.

ومع تَسارع وَتيرة اللعبة وتكاثفها، يبدأ اللاعبون بالالتحام، ويغدو حُلم اللعبة أقوى وأمضى، ويزداد اِنشغالهم فيها، وتَكريس أنفسهم لِخدمتها. مع ذلك، ليس هناك من بين اللاعبين من يتحكم بهذا التسارع. إنه شيء يحدث فحسب، بريبةٍ

(460) *Rule Makers, Rule Breakers,* Michele J. Gelfand (Robinson, 2018). Kindle location 1005.
(461) *Personality Psychology,* Larsen, Buss and Wisjeimer (McGraw Hill, 2013), p. 199.

وغرابةٍ. إذ نُشرع بإجبار أنفسنا والآخرين. والسبب في ذلك يعود إلى واحدة من أقوى الحقائق المُناهضة للحَدس، المُقترنة بألعاب المكانة والجماعات ما قبل الحديثة التي تفرعت عنها؛ وهذه الحقيقة هي: لا يوجد أحدٌ يتحكم تحكمًا حقيقيًا بهذه الألعاب. فسُهولة تقلد الزّعامة هو أحد المظاهر الطَّبيعية في الحياة البشرية في العصر الذي نعيش فيه حاليًا؛ عصر الرّؤوساء والمَلكات والباباوات والمَشاهير والناشطين النجوم والمُديرين التنفيذيين. لكن هذا غير صحيح. فعلى الرّغم من انتظامها حول بنى تراتبية هرمية، إلا أن مجتمعات الصّيادين-جامعي الثّمار لم تكن تخضع، في جميع الأحيان، لحُكمِ "رجلٍ متنفذٍ" واحدٍ. يقول الأنثروبولوجي كريستوفر بيوهم إن «الحكيمَ قد يُمنح أحيانًا مرتبة الزّعيم المؤقت أو الدائم للجماعة. لكن يتوقع من هذا الزّعيم أن يسلك سلوكًا متواضعًا لأن نمط الزّعامة المقبول لا يسمح بأي فعل توكيدي خلا الإصغاء إلى آراء الآخرين والإسهام، بلطفٍ ورويةٍ، بتنفيذ الإجماع في حال توصل له أفراد الجماعة بِتلقائية. قد تشتمل قرارات من هذا النوع على تحديد الخُطوة التالية للجماعة أو الإجراء الذي يجب أن تتخذه بحق أحد المُنشقّين الخَطرين. ولا يمكن لهؤلاء الزُّعماء الانفراد باتخاذ القرار، إذ توكل مهمة اتخاذه لأفراد الجَماعة كُلهم.»(462) وهذا يعني أن من له القول الفصل والسلطة الأعلى هي الجماعة لا الفرد.

ويُعتقد أن تطوُّرنا بهذا الشكل هو في جزء منه وسيلةٌ للتعامل مع اللاعبين المهيمنين. إذ إننا نقتل الأفراد (الرَّجال في العادة)، الذين دأبوا في محاولة شقِّ طريقهم إلى المَراتب العليا بالعدوان والتهديد به، في غضون مئات الآلاف من السنين من عمر وجودنا على الأرض.(463) إلا أن قتل اللاعبين غير المرغوب بهم يقودنا إلى مشكلةٍ جديدةٍ. إذ ليس بوسعنا الاشتراك في لعبة يتمكن فيها أحد اللاعبين من إدانة لاعبٍ آخر، بسبب سلوكه المُهيمن، والقضاء عليه. وبدلًا من

---

(462) *Moral Origins*, Christopher Boehm (Basic Books, 2012) p. 109.

(463) راجع المصدر الآتي للاطلاع على تحليلٍ رائعٍ لهذا الجانب.

Moral Origins, Christopher Boehm (Basic Books, 2012).

تَخليصنا من متاعب اللعب المُهيمن، فإن هذا الأمر يُسهم في التحفيز عليه، إذ يُمكن للاعبين، بسُهولةٍ، أن يتهموا الخصوم بارتكاب المخالفات، ويخرِجونهم من الحَلبة. وهذا يعني أن اللعبة ذاتها تتخذ القرار. يأتي اللاعبون معًا بوصفهم كيانًا فكريًا واحدًا، ولا يُسمح بِفعل القتل إلا بعد التوصل إلى إجماع. كان أقاربنا القَبليون هم من يقررون جماعيا هل يُبقُون على حياة اللاعبين غير المرغوب بهم أم يقتلونهم في ألعابنا القبلية المبنية على القَرابة.

ولذلك، لم يخضع البشر لِاستبداد القادة في القسم الأكبر من تاريخ وجودنا على الأرض. بل كانوا يعيشون، بدلًا من ذلك، في خوفٍ مما يُسميه الأنثروبولوجيون "استبداد أبناء العمومة"[464] الذين ليس بِالضرورة أن يكونوا "أبناء عمومة" فعليين، بل هم، في الواقع، كِبار العَشيرة الذين يبلغون مرتبة النخبة في هذه التدرجات الهَرمية الضّحلة. وعلى الرغم من الاعتقاد الشائع بأن أبناء العُمُومة هؤلاء كانوا دائمًا من الرّجال، يُمكن للجنسين كليهما أن يشتركا في فعل التوصل إلى الإجماع الحاسم. يقول بيوهم: «حينما تلتحمُ جماعة للإطاحة بمستبدٍ،[465] من المحتمل أن تُبدي النساء نشاطًا مماثلًا لنَشاط الرّجال في الديناميات السياسية المُتضمنة.» بل إن بعض الرّوايات تتحدث عن اشتراك الرِّجال والنساء رمزيا في فِعل القتل، إذ تعرض رجلٌ، مثلًا، إلى الضّرب على يد مجموعةٍ من الذّكور الذين أمطروا جسمه بعد ذلك بالسهام المسمومة حتى "أصبح مثل قنفذٍ".[466] وتقدمت النساء بعد موته لطعن جثتِهِ بالرِّماح.

ربما يبدو ذلك عادلًا، وإنْ كان قاسيا. فإذا حاول لَاعبٌ الهيمنة على اللعبة بالتهديد والتخويف، فإنه يتعرضُ إلى النبذ والإقصاء. والقتل هو الإذلال النهائي؛ إنه نَبذ جسدي ونفسيٌ إضافةً إلى أنه نبذٌ نهائيٌ تُنفذه اللعبة بحق اللاعب.

---

(464) يُدين ريتشارد رنغام بالفضل في ظهور هذه العبارة إلى إيرنست غلنر.
The Goodness Paradox, Richard Wrangham (Profile, 2019). Kindle location 2439.
(465) *Moral Origins*, Christopher Boehm (Basic Books, 2012), p. 86.
(466) *The Goodness Paradox*, Richard Wrangham (Profile, 2019). Kindle location 2411.

ولسوء حظ تاريخ الجنس البشري، فإن ما يحدث ليس بالسُهولة التي يبدو عليها، والسبب في ذلك هو عدم وجود نوعين من اللاعبين منفصلين وقابلين للتمييز بينهما بسُهولة: مستبد في مقابل غير المستبد. فـالجميع لديه القدرة على الاستبداد، وغالبًا ما يكون صعبًا تَمييز المُستبد عن الضّحية. ومن المحتمل أن يَتصف أبناء العُمُومة أنفسهم بالوحشية والقَسوة. والواقع أن جماعات الصّيادين-جامعي الثِّمار التي اجتمعت للقضاء على المُستبدين بقسوةٍ وعنفٍ تستعينُ بالقوة المُميتة أيضًا ضد من ينتهكون العديد من قواعد اللعبة الأخرى. إذ من الجائز أن يُقتل اللاعبون بسبب سرقة اللحوم واحتكارها وممارسة السحر الضّار، والمشاهدة المُحرمة للأبواق السحرية و "وطأ المَسار السري للرِّجال".[467] ويُحتمل أن تكون الألعاب التي نُطوِّرها قمعية ومُخيفةً. يقول الأنثروبولوجي ريتشارد ونغام، في وصفه لنا، بِأننا نعيشُ في «قفصٍ اجتماعي من الأعراف والتقاليد» "يعيش" فيه اللاعبون «أو يَموتون على حسب رغبتهم في الإِمتثال.»[468] كانت قوة أبناء العُمُومة «مطلقةً. إذ تتعرضُ إلى الخَطر إذا لم تمتثل لإملاءاتهم».

رَاقبنا هذه الديناميات في قرية مَهرانا في الهند. فعندما وجدت فتاة من الطّبقة الرَّفيعة مُتلبسةً في علاقةٍ مع شابٍ من طَبقة المَنبوذين، عقد كبار القرية اجتماعًا استغرق الليل بطوله، واقترحوا مقترحًا في نِهايته، لم يواجهوا أي اعتراض عليه من الحضور البالغ عددهم الثلاثة آلاف، هو شنق الشابين بتعليقهم من شجرة تينٍ ضخمةٍ. وأورد ونغام قصةً مماثلةً عن صنع الإجماع القاتل في أوساط جماعة جبوسي (Gebusi) في غينيا الجديدة.[469] إذ سقط أحد أفراد القبيلة صريع المرض الذّي أُلقي فيه باللائمة على أعمال السحر الخبيثة. وأجرى وسيطٌ روحي، في اجتماع قبلي، طقسًا استخدم فيه أوراق شجرِ مسحورةٍ، وانتهى فيه إلى أن الجاني

---

(467) *Moral Origins*, Christopher Boehm (Basic Books, 2012), p. 83.

The Goodness Paradox, Richard Wrangham (Profile, 2019). Kindle location 3517.

(468) *The Goodness Paradox*, Richard Wrangham (Profile, 2019). Kindle location 2439.

(469) *The Goodness Paradox*, Richard Wrangham (Profile, 2019). Kindle location 2467.

هو أحد أقارب المَريض. يجب على المتهم الآن أنْ يلجأ إلى المناورة بعد تعرضه للتهديد، وعليه أيضًا ألا يُخاطر بالظُّهور بمظهر الرَّافض للندم والتَوبة بالإنكار المباشر للذنب. ولذا، لجأ، بدلًا من ذلك، إلى الاستِماتة في اِسترضاء الآخرين بتقديم الاعتراف الآتي: «لا أعرف شيئًا عن هذا الأمر. إنه قريبي أيضًا، ليس بقدرتي إصابته بالمرض. لا أعلم...ربما كُنت غاضبًا قليلًا لأني لم أتناول ما يكفي من السمك في الآونة الأخيرة، لكن المؤكد هو أني لن أجعل قريبي مريضًا بهذا النحو.» طاف مُوجّه التهمة بهدوءٍ على أفراد الجَماعة، في الأيام التي تَلت الاجتماع، سعيا منه لحشد الدعم لِفعل القتل. يصفُ ونغام ما يحدث لأبناء العُمُومة في أثناء الاجتماع الليلي، إذ «يستبد بهم الحماس، ويصبحون مَهووسين بفكرة مسؤولية الساحر المزعوم عن الوفاة. فيتوصلون إلى إجماعٍ، يقرر الجميع فيه أن المُتّهم مذنبٌ. فيَعدون كمينًا فجرًا، ويقتُلون الجاني بالهِراوات أو السهام. وقد يُعذِبونه أولًا قبل الإجهاز عليه، ثُّم يقطعونه إِرْبًا ويطهونه.»

والانطباع بِتوصل جَماعاتنا إلى إجماعٍ في الآراء أساسي. ليس مهمًا أن يكون هذا الإجماع تِقنيًا. الأهم هو الإحساس العام للجماعة، بوصفها كيانًا حيا، المؤيد للفعل الذّي يُتخذ في جوٍ يمور بالنميمة والحديث عن ذُنوب الماضي، الذي يؤدي، بدوره، إلى موجات من الجَسارة الأخلاقية المُوجهة إلى المُتهم. فإضافةً إلى القتل، بوسع الجماعة أن تفرض عقوبات أُخرى مثل الخزي والعار، التي من المحتمل أن تبدأ بفعل "عزلٍ اجتماعي" يسيرٍ، إذ يمتنع أفراد الجماعة عن تحية المستهدفين، أو يَتجاهلونهم أو يستهزئون بهم أو يهينونهم.(470) مثالٌ على ذلك ما حدث لأحد أفراد جماعة مبوتي في الكونغو الذّي غش في الصّيد،(471) إذ بدأ أفراد الجَماعة، حال اكتشافهم ذلك، باغتيابه وإهانته ولَوْكِ إساءاته السابقة. فتَدهورت سمعتهُ بعد تنامي الإجماع على فَساد طبعهِ، وتَعرض للتجاهل بعد عودته إلى الديار، إذ امتنع

(470) *Behave*, Robert Sapolsky (Vintage, 2017), p. 323.
(471) *Moral Origins*, Christopher Boehm (Basic Books, 2012), p. 39.

الجميع، حتى الأطفال، عن تقديم مقعدٍ يجلس عليه مثلما جَرت العادة. وعندما حاول أن يستولي على أحد المقاعد بالقوَّة، قالوا له: «الحيوانات تجلس على الأرض.» وحينما أتُهِم بالغش في الصّيد علنًا، حاول المُتهم اللجوء إلى الكذب أولًا، ثم بكى معتذرًا، وقبض على معدته مُصرحًا بأنه سيموت لأنه لم يحظ بالاحترام.

أبناء العُمُومة مخيفون وأَقوياء، وما نزال نحمل في داخلنا خَوفًا عَميقًا منهم. إنهم يعلنون عن حضورهم في الأدبيات الكثيرة التي تُظهر قدرتنا على أن نمتثل امتثالًا تِلقائيًا لتصوّرات الجماعات التي ننتمي إليها. يتضح ذلك في التجربة المهمة التي أجراها عالم النفس سلومون آليوت آش في 1951، التي طلب فيها من المُستجيبين وضع تقييمات يسيرةٍ وواضحةٍ يحددون بموجبها أيًا من الأسطر الثلاث هي الأقرب في الطول إلى سطرٍ مرسومٍ في بطاقةٍ أخرى.(472) وعندما عبر سَبعة مشاركين زائفين (طُلِب منهم اختيار الإجابة الخَاطئة) عن رأي مختلفٍ يُمثل الأغلبية، لاحظ آش أن 32٪ من المُشاركين الآخرين امتثلوا لحكمهم ووافقوهم رأيهم. لم يتعرض المُستجيبون إلى ضغطٍ واضحٍ ومباشرٍ. إن [حقيقة] أن قرابة ثلث المُستجيبين كانوا مُستعدين لإنكار دليل المشاهدة الوَاضح عندما كانت قوة الجماعة بغاية الضعف والهُزال، والمخاطر بغاية التدني، تَكشف ضِمنًا عن المدى الذّي من المُرجح أن يمتثل فيه البشر لأحلام الجماعة في عام 1938، مثلًا، ممن كانوا يعيشون في موسكو أو برلين. إننا نخشى أبناء العُمُومة؛ ومُضطرون إلى الالتزام بالقَفص الاِجتماعي لقواعدهم عند اشتراكنا في اللعب.

لكن أبناء العُمُومة مَوجودون في داخلنا كذلك، إذ نتمتعُ كلنا بالقدرة على الاستبداد. فالأطفال بعمر ثمانية أشهر يفضلون اللعب مع دمُيةٍ متحركةٍ

(472) 'Effects of group pressure upon the modification and distortion of judgments', Asch, S. E. (1951), in *Groups, Leadership and Men: Research in Human Relations* edited by H. Guetzkow (Carnegie Press, 1951), pp. 177–190.

شاهدوها وهي تعاقب أحد المتجاوزين في عرضٍ للدمى المُتحركة.(473) ويبدأ الأطفال في فرض القواعد عفويًا في حوالي الثّالثة.(474) ولاحظت دراسةٌ للأسباب التي تدفع الأطفال بين سن الخامسة والسابعة إلى رفض زملائهم في اللعب، بِأنهم يَميلون إلى فعل ذلك عندما يغدو سلوك الزّملاء خطرًا على مكانتهم أو مكانة جماعتهم.(475) وقد قال المُختصُّ بعلم النفس، فرانسيسكو خوان غارثيا باسيت: «إن ما يؤدي بالفعل إلى الرَّفض هو تفسيرات الرّافضين لِسلوك الطّفل، وإذا ما كانوا يَحسبون أن لهذا السلوك تأثيرٌ مضر بهم أو بِجماعتهم.»(476) وأظهرت فحوصات الدماغ بالأشعة، في دراسات أخرى، أن محض توقع معاقبة المُعتدي على انتهاك القواعد والأعراف يبعث السرور في النفس.

وليس بنا رغبةٌ في التفكير بأنفسنا على هذا النحو، فالقصة التي نُفضل سَردها تُلغي القمع والكراهية من طبيعتنا البشرية الميالة إلى اللعب في جوهرها، وتُحمِل المسؤولية فيهما إلى القادة الفاسدين ومخططاتهم الشريرة. بوسعنا ملاحظة هذا النوع من السذاجة في رواد الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي الذّين توقعوا أن ربط مَلايين البشر وتَسهيل التواصل بينهم سيخلق نوعًا من العالم الفاضل (اليوتيبيا). أصدر جون بيري بارلو، العضو السابق في "المجتمع الرّقمي" في 1996 «إعلان استقلال الفضاء الإلكتروني» الذّي أعلن فيه عن إنشاء «حضارة عقل» جديدة لا مكان فيها لتدرجات السلطة الهرمية القَديمة،(477) مما جاء فيه: «أعلن أن الفضاء الاجتماعي العالمي الذي نؤسسه هو فضاءٌ مستقلٌ استقلالًا

(473) *The Domesticated Brain*, Bruce Hood (Pelican, 2014), p. 195.

(474) *Enigma of Reason*, Dan Sperber and Hugo Mercier (Penguin, 2017), p. 71.

(475) 'Understanding Rejection between First-and-Second-Grade Elementary Students through Reasons Expressed by Rejecters', Francisco J. Bacete García, Virginia E. Carrero Planes, Ghislaine Marande Perrin, Gonzalo Musitu Ochoa, *Frontiers in Psychology*, Vol. 8, 2017, 462.

(476) 'A New Study Looks at Why Kids Reject Other Kids', Susie Neilson, *Science of Us*, 17 May 2017.

(477) https://www.eff.org/cyberspace- independence.

طبيعيًا من جميع أشكال الاِستبداد التي تَسعى إلى فَرضها علينا..إنَنا نخلق عالمًا يحق فيه للجميع أينما كانوا أن يعبروا عن مُعتقداتهم، مَهما كانت غرابتها، بلا خشية من إرغامنا على الصّمت أو الاِمتثال.» إلا أن النتيجة أتت على خلاف التوقعات. إذ حتى التعليقات البريئة المُسالمة في ظاهرها في وسائل التواصل الاجتماعي حاليًا قد تؤدي إلى التحام جماعةٍ ما في موجةِ غضبٍ عارمٍ. فالحُشود الإلكترونية تُمارس ألعاب هيمنة وفضيلة تُمنح فيها المكانة إلى اللاعبين الذّين يفرضون قواعدهم على الآخرين في داخل ألعابهم وخارجها. وهم مُتراصون أيضًا؛ فاللاعبون المشتركون في اللعبة على درجةٍ عاليةٍ من الاِمتثال. أفراد هذه الحُشود ينبضون بالسلطة الرّهيبة لأبناء العُمُومة، وتَعليقاتهم المُنتقدة والشرِسة غالبًا ما تُلغى أو تُقابل بالرّد بعد شنها. لكن بعضها يبقى وينجو. وما حدث لكارن تمبلر هو أحد الأمثلة على ذلك، إذ تَعرضت لِهَجمةٍ شنتها الحشود في العديد من منصات التواصل، من بينها اليوتيوب والاِنستغرام، وفي تعليقات أيضًا في مدونتها رفضت حذفها لأنها «لا تؤمن بتَنقيح سِجلها التاريخي.»[478]

تمبلر حائكة ومَالكة لموقع جَمعية الحياكة (العبارة الترويجية: حِك ودع الآخرين يحوكون). بثت تمبلر مُدونةً إلكترونية في كانون الثّاني اسمها «عامي المُلون»، كان من بين ما أعلنت عنه فيها هو تُطلعها إلى رحلةٍ إلى الهند. كانت تمبلر في الماضي ترى أن فكرة السفر إلى الخارج «مرهقة ومرعبة»، لكنها الآن ترغب في أن «تكون شخصًا يقول "نعم" للمزيد من الرّحلات». لطالما كان أدب الهند وتاريخها أحد «هَواجس حياتها الدائمة». عرضت أُسرة إحدى صديقاتها في الطُّفولة، وكانت هندية، ذات مرَّة، أن تصطحبها معها إلى الهند: «كان هذا العرض، بالنسبة لمراهقةٍ من سكنة الضّواحي في الغرب الأوسط تعاني من اضطِراب القلق الحاد، بمنزلة الحصول على مقعدٍ في رحلةٍ إلى المريخ. كان التفكير في الأمر مُسليًا، لكن هل تمزحون معي؟» وحالما توفرت لها فرصةٌ جديدةٌ، لم تتردد تمبلر في الإجابة بـ

(478) https://fringeassociation.com/2019/01/07/2019-my-year-of-color/.

"نعم:" «شَعرتُ مثلما لو أن أعلى رأسي سينفجر، كُنت شديدة الحماس والتأثر.»

كانت التعليقات دَاعمةً ومشجعةً في البداية. إذ كتبت كريستين لندوب: «أمضي في سبيلك!. هذه هو المسار الذّي تُشير إليه تلك الصّنادل البرتقالية.» وسريعًا ما تكدست تعليقات مشابهةٌ: «شرق لندن للحياكة: يا له من شيء رائع، الهند!»

وقالت تينا م. بيري: «أسعدني ذلك كثيرًا، وغَمرني بمَشاعر غامضة اليوم! نعم!»

وعلقت شيرل اورتوين: «ياهوووووو الآنسة أغنز: أمضي في طريقك يا فتاة!»

وصرحت ديبا: «أصبحت الولايات المُتحدة في الوقت الحاضر منزلي بكل معنى الكلمة (إنها عشرون عامًا). قلبي هنا لكن روحي ستبقى دائمًا في الهند. سأخبر الناس أنَ الهند مختلفةٌ عن أي مكانٍ آخر على ظهر المعمورة، هذه حقيقة. إنها كل شيء سمِعته عنها، ومع ذلك ستُفاجئك في كُل شيء.»

وقالت ديانا: «المنشور الأفضل على الإطلاق!».

وأعلنت مالا سريكانث: «عشت في الهملايا الهندية...ستَقضين وقتًا رائعًا.»

وأفادت نارنغكر: «أوووه، إنه أمرٌ مثيرٌ حقًا! ستبقى الهند مميزةً لي لأني نشأتُ هناك.»

وأخبرت ماري كارتر: «أنتِ مصدر إلهام أبلغ وأروع مما كُنت أظن.»

وذكرت دوني: «تهانيييييينا!»

ثُّم ظهر ذلك المنشور المُنذر بالشؤم: «وقعت عيني على مراجعةٍ مهمةٍ للمقال في الانستغرام، ومع أني من طبقةٍ متميززة [الخطأ في الأصل] و[بيضاء]، إلا أني أتفق مع المنتقدين، إذ علينا أن نتوخى الحَذر في طريقة نقلنا لفكرة اللون. اللغة بليغةٌ، وبعض العبارات مُريبةٌ وبالغة التهور.»

شَعرت تمبلر بالقلق، وعلقت: «لم ألاحظ قط أيا من النقد الذّي تتحدثين عنه أو تتفقين معه. ما الشيء الذّي تجدينه متهورًا في ما قلته في المُدونة؟»

فردت عليها الكس جي كلين: «كارن، أطلب منك أن تُعيدي قراءة ما كَتبته، والتفكير ثانيةً في الطّريقة التي أسهمت فيها كلماتك في تغذية العقلية الاستعِمارية/ الإِمبريالية نحو الهند وغيرها من البلدان غير الغربية. وازنت في غير مرةٍ بين فكرة السفر إلى الهند وفكرة السفر إلى كوكبٍ آخر- ما الذي تظنين سيكون شعور أي شخصٍ من الهند عند سماعهِ ذلك؟»

لا شَك في أن هناك ثلاثة أشخاص، على الأقل- من الواضح أنهم من الهند- تفاعلوا بإيجابية مع منشور تمبلر في عبارات ملؤها التشجيع المُبتهج. كتبت تمبلر: ما قُلتهُ هو إن الهند كانت تبدو لي، في مراهقتي، بعيدةً ويتعذر الوصول إليها مثل المريخ، وأنه كان من المستحيل أن أتخيل عمليا تمكّني من السفر إلى أي منهما. لست متيقنةً بأي معنى يكون قولي هذا إمبرياليا، ولكني سأنعم النظر فيه. وبعد ملاحظتها التعليقات وردود الفعل الداعمة من الأصدقاء والقُراء الهنود، أضافت تمبلر: «علي معرفة إذا ما كان فيما قلته أي شيء قد أساء لكم».

فردت عليها كلين: «عوضًا عن أن تطلبي من أصدقائك الهنود أن يقدموا المَزيد من العُروض العَاطفية الشجية، ويكفكفوا دموع مُتابعيك البيض، الأفضل ربما أن تُراجعي الطَّريقة التي أسهمت فيها موازنتك بين الهند وأحد العوالم الغَريبة في تعزيز عقلية "الآخر" الواقعة في قلب الحركتين الإِمبريالية والاِستِعمارية».

رَفرَفت مُهاجمات أُخريات وحططن الرِّحال في صَفحة مُدوَّنة تمبلر، ومن بينهم كارولين التي شكرت كلين على مُداخلتها، وعلقت: أؤيد تعليقك بحماسٍ بالغٍ، وسارة التي أضافت: «إن إضفاء الطّابع الرّومانسي على البلدان والثّقافات الأخرى شيءٌ خطرٌ.» فاعتذرت تمبلر منهُن، وحاولت مرةً أخرى بيان قصدها: «الجانبُ الوحيدُ الذّي ساويت فيه بين الهند والمريخ، مثلما بينت لألكس في تعليقٍ

سابقٍ، هو أنهما متماثلان في بُعدهما الجغرافي، وتعذر بلوغهما بالنسبة لمراهقةٍ مثلي.»

فأجابتها كلين: «بدلًا من مُحاولة الدفاع، أنصحك بأن تُصغي بعنايةٍ إلى ما قاله الناس لك هنا، وفي الانستغرام. وعلاوة على ذلك، من الوَاضح أنك بحاجة إلى جمع المَعلومات عن العمل العاطفي للملونين إذا كُنت تظنين أن سؤال أصدقائك الهنود أن يدلوا بِدلوهم في هذا الموضوع ليس عملًا عَاطفيًا. ويجب عليك، في أثناء ذلك، أن تقرأي عن الهَشاشة البيضاء، والنيَة في مقابل التأثير. وبغض النظر عن قَصدك من المَنشور، فإن التأثير الذي خلفه مختلفٌ تمامًا للعديد من الأشخاص. أنتِ بحاجةٍ إلى تَثقيف نفسكِ.»

فردت تمبلر: «إلى كُل من أسأت لهم في ما كتبتهُ هنا، أود أن أقول لقد استمعت لكم وأنا آسفة». فأجابتها راشيل: «أأنت آسفة لأجل الناس الذين أسأت لهم؟ ليس هذا اعتذارًا عن عبارتك الناضحة بالتحيز العرقي والاختِزالية. الرّجاء أعيدي النظر في أمر هذه الرّحلة. لا تُجبري أهل الهند على التعامل معك ومع عقليتك الاستِعمارية.»

عبرَ بعضُ القُراء عن دعمهم لتمبلر في مقابل آخرين بدءوا بالانقلاب عليها. إذ أدلت ماري كارتر التي كتبت سابقًا: «أنت مصدر إلهام أبلغ وأروع مما كُنت أظن، بالتعليق الآتي: «أشعرُ بالخجل من التصريح بأنني فشلت في تقدير تأثير هذا المنشور فينا- نحن من غير البيض. أشعر بألمٍ في قلبي، ولن أتمكن من التعايش مع ذاتي ما لم أعبر عن هذا الألم الذي سَببتهُ الكلمات الواردة في المنشور لي، وللآخرين أمثالي. لن أقول شيئًا بعد اليوم».

وردت عليها لز ن، التي تحدثت عن قراءة «آلاف من التعليقات» في الانستغرام عن منشور تمبلر، مبينةً: «الأمر ذاته هنا.»

لانت تمبلر وتَراخت. وفي مدوّنةٍ لاحقةٍ اسمها «الكلمات مهمة»، اعترفت بأنها كانت «قاسية»، و «فظيعة»، و«طَائشة» لمعاملتها الهند بوصفها «المنطقة الخلفية

لِلبيض»، وإدامتها «الفكرة البَغيضة بأن الهنود (والملونين عمومًا) هم «الآخر»، أو حتى مِمنْ يَجب الحَذر منهم.(479) واختتمت المنشور بالاِعتذار ثانيةً «اعتذارًا جادًا وعميقًا لكل من أسأت لهم، ولكل من تجشم عناء تَنبيهي إلى ما فعلت. كُنت مخطئةً، والسيدة التي غامرت بالحديث علانيةً كانت مُحقةً.»

من المُثير للشجن ملاحظة جوانب التَشابه بين ما رصده الأنثروبولوجيون في المجتمعات ما قبل الحديثة وما نلاحظه هنا، في القرن الحَادي والعشرين، من ساحات معارك قبلية في وسائل التواصل الاجتماعي. يُذكرنا الرَّد الأوّلي لتمبلر على من وجّه لها الاتِهام بقصة المتهم من جماعة جبوسي في غينيا الجديدة، الذي تأرجح موقفه تأرجحًا قَلِقًا بين الدفاع عن نفسه والاِعتراف: «إنه قريبي أيضًا، ليس بقدرتي إصابته بالمرض. لا أعلم... ربما كُنت غاضبًا قليلًا لأني لم أتناول ما يكفي من السمك في الآونة الأخيرة.» الأمر يكمن في مغزى، إن لم يكن في حقيقة، الإجماع الذي نما نموًا عنيفًا ضد الجَاني. إنه في القيل والقال، والنبذ الاجتماعي، والوَصم والعار. إنه الغَرابة المحلية الخَالصة للاتِهامات الموجهة. يبدو واضحًا أن الجاني قد انتهك وتجاوز القواعد بالنسبة للاعبين الذّين يعيشون في داخل حلم الأطراف الموجهة للاتِهام. لكن جريمة تمبلر غامضةً بالنسبة لمنْ يعيش في خارج الحُلم: لقد شاهدت تمبلر الأبواق المسحورة! ولذا، اتحد أبناءُ العُمُومةِ في شَن الهجوم عليها، وعملوا على تَحشيد الإجماعِ ضدها، بكلِ حماسٍ وإخلاصٍ.

لكنها نفذت بجلدها في النهاية. فَشَركتها ما تزال موجودةً في وقتِ كتابة هذا الفَصل، ومدوَّنتها الإلكترونية أيضًا. وبفضل اِمتثالها إلى أبناء العُمُومة المُستبدين (بنات العم في حالتها)، وسَورة الغضب والاستياء التي اجتاحت شبكات النميمة في وسائل التواصل الاجتماعي، تمكنت تمبلر من تجنب «الإلغاء»- وهو التسمية التي نستعملها عندما تحاول الحشود الإلكترونية، غير المقتنعة بأنواع السخرية والإدانة والإذلال التي انهالت على تمبلر في المواقع الإلكترونية، إلى إنزال

(479) https://fringeassociation.com/ 2019/01/12/words-matter/.

أكبر قدرٍ ممكنٍ من التحقير والإهانة بحق ضَحيتهم في العالم الواقعي. قد تكون تأثيرات الإلغاء ضئيلةً بقدر ضآلة خسارة مقادير محدودة من العَمل أو شديدةً بقدر شدة تدمير سبل الرّزق والسمعة- وربما أسوأ من ذلك. والأمثلة على ذلك تَفوق الحصر ومُتاحة، إذ يمكن العثور عليها بِسُهولةٍ. تعرض أكاديميون، في السنوات الأخيرة إلى الإدانة، وإلى سحب أوراقهم البحثية والتجريد من الألقاب التشريفية؛ وحُرِم مفكرون مَعروفون من حضور المُناسبات والأحداث؛ وفُصِل صحفيون ومحرِرون ووكلاء ورواد أعمال أو أُجبروا على الاستقالة؛ وخسر رياضيون ومؤلفون عقودًا؛ وأُغلقت مشاريع أعمال منها شاحنة طعام،[480] ونادي لليوغا؛[481] وأُزيحت اللعبة الحاسوبية الصّوتية، التي صممتها الصَّحفية البريطانية، هيلن لويس، من تحديث السوفت وير؛[482] ومُنع الدراغ كوين (ممثل بلباس امرأة)، فانتي فون غلو، من تقديم عُروضه في مسارح لندن العَديدة؛[483] وخسرت تابيثا مور-موريس، العاملة في أحد مستشفيات ولاية كنتاكي، وظيفتها التي واصلت العمل فيها عشرين عامًا؛[484] وخسر أوستن هينز، التِقني اللامع في وادي السيلكون، سمعتهُ وانتحر.[485]

لا تُريد هذه الحشود أن تَكسب ضحاياها، وتُحولهم إلى حُلفاء لها، بل تُريد القضاء على الجُزء الأكبر من مَكانتهم، وعلى أي من الرُّموز الدالة عليها أيضًا، حتى بلوغهم مرحلة المخاطرة بِتدمير السمعة. هذه هي الطّريقة التي نُمارس فيها القتل في عالمٍ تُهيمن عليه ألعاب المَهابة والسمو. ليس البشر هم الهدف النهائي

(480) 'Portland Burrito Cart Closes After Owners Are Accused Of Cultural Appropriation', Carolina Moreno, *Huffington Post*, 25 May 2017.

(481) 'Kindness Yoga Called Out', Jennifer Brown, *Colorado Sun*, 29 June 2020.

(482) 'Ubisoft Says It Will Patch Out a Watch Dogs Actor Who Made "Controversial Remarks" about Gender', Andy Robinson, *Video Games Chronicle*, 7 November 2020.

(483) 'Vanity Von Glow: the Left Eats its Own', Andrew Doyle, *Spiked*, 6 June 2017.

(484) 'Baptist Health: Woman in Videos No Longer on Staff', Uncredited author, *West Kentucky Star*, 11 June 2020.

(485) سردت قصة أوستن هينز في كتابي:
Selfie (Picador, 2017).

للإلغاء، بل مُعتقداتهم. والحشود كائنات أدائية [في طبيعتها]. إنهم يقولون للعدد الغفير من المُتفرجين عليهم: «إذا عَبرت عن هذا الرأي، بوسعك أن تتوقع أيضًا تواصلًا معك من أبناء العَم». لا أحد مسؤول عن هذه الحشود مثلما أَنه لا أحد بقدرته إيقافهم. إنَهم يظهرون فحسب، وغالبًا ما يحدث ذلك عندما يُعبر أحدهم عن وجهة نظر مُخالفة للمعتقدات الرَّمزية المُقدسة التي تعتمدها اللعبة. ولا تسمحُ الجَماعة المُستبدة بأي تحدٍ لمعاييرها الخاصة بادعاء المَكانة. وعندما يُصاب الحشد الجماعي بُحمى البحث عن المكانة، فإنه يُسارع إلى توجيه كمية ضخمةٍ من الطّاقة الحقودة والمؤذية نحو الضّحية، ويتدفق المزيد من اللاعبين الطَّموحين، بفضل الجوائز المُغرية، إلى داخل اللعبة التي تتحول إلى حيوانٍ وحشيٍ مزهوٍ بنشوة الهَيمنة.

ولِفهم الطَّريقة التي يؤثر بها هذا الشكل من ألعاب المكانة في المجتمع، بوسعنا السفر إلى شمال العراق. إنه صيف العام 2014، وهناك مجموعة من الناشطين الذّين يلتقطون الصّور الشخصية (السيلفي)، أكثريتهم من مواليد الألفية الثَّالثة، في طريقهم إلى مدينة المُوصل.[486] إنَهم من تنظيم الدولة الإسلامية (داعش)، ومنهمكون في ممارسة ألعاب هَيمنة وفضيلة. يَظهر هؤلاء الفتية، في مقاطع الفيديو المُحملة في وسائل التواصل الاجتماعي، مُتشحين بالسواد ومُدجَّجين بالسلاح، ومُنهمكين أيضًا في عمليات تعذيب فظيعةٍ وقتلٍ بحق أعدائهم المُعتَقَلين- كل ما يُعرض كان تحت هاشتاغ/ وسم AllEyesOnISIS# الذّي أضحى الوسم الأروج في منصَّة تويتر باللغة العربية. كان لدى داعش قُرابة الخَمسين من مراكز الإعلام الرّقمية في مناطق مختلفةٍ، تختصُّ كل واحدةٍ منها بِتوجيه المُحتوى إلى فئةٍ سكانية مختلفةٍ. وكانوا يضاعفون من تفاعل المُستخدِم بسؤالِه عن الطريقة التي يَجِب اعتمادها في قتل الأسرى والمُعتَقَلين: «اقترح طريقةً

---

(486) هذه المعلومات مأخوذة من:
Like War, P. W. Singer and Emerson T. Brooking (Mariner, 2018), pp. 4–11, 150–154.

لقتل الخنزير الطّيار الأردني»، إضافةً إلى عَملهم في ركوب موجة الموضوعات الرَّائجة الأخرى. إذ نشر أحد مُقاتليهم صورةً بشعةً، في أثناء بطولة كأس العالم، ذيلها بالتعليق الآتي: «هذه كرة القدم الخاصة بنا، إنها مصنوعةٌ من الجلد WorldCup#.»

هبّ عشرةُ آلاف جندي عراقي دفاعًا عن الموصل. لكن الحملةَ التي قَادها تنظيم داعش في وسائل التواصل الاجتماعي أوقعت الجميع «فريسةً للمخاوف»، حسبما ذكر الباحثان بيتر وارن سنغر وأمرسون بروكنغ. اكتسب الوسم الخاص بهذا التنظيم قوة القصف المَدفعي غير المرئي الذي ما برحت رسائله، التي تُعد بالآلاف، تتدفق بلا توقف قبل تقدم قواته. كان بثُ هذه الرسائل يزرعُ الهلع والتفكك والانشِقاق. ومع اقتِرابهم من الموصل، فرَّ آلاف من الجنود العراقيين مُخلفين وراءهم أسلحتهم ومَركباتهم. ولم يتبق، مع بلوغهم أطراف المدينة، «سوى بضعة جنود ورجال شرطة شجعان (أو مرتبكين) رابطوا في أماكنهم. لم تكن معركةً، بل مجزرةً، صوِرتْ بدقةٍ وإخلاصٍ، وحُرِرتْ اِستِعدادًا للجَولة التالية من التوزيع الإلكتروني السهل.» اعتمد التنظيم على «نُوعٍ مختلفٍ من الهجوم الذي استخدم الإنترنت سلاحًا،» وكانت هذه هي الطّريقة التي ضَمِنت المُحافظة على «زخم قوَّتهم غير المحتملة.»

والحُشودُ الإلكترونية مشابهةٌ لتنظيم داعش في استغلالها لوسائل التواصل الاجتماعي بالطريقة ذاتها التي تَستغلها بها الجَماعة الإرهابية. تعتمد الثَّقافات الغربية قاعدة مقدسةً تمنع التعَصّب والتزمَت. ويُدرك مُديرو الشركات المُساهمة والمؤسسات الحكومية ووسائل الإعلام والتربية أن الاشتباه في كراهيتهم للنساء أو مُمارستهم للتمييز العرقي أو إصابتهم برهاب الشذوذ أو رِهاب التحول [الجَنسي] يعني مواجهتهم لخطر تَدمير السمعة. وهذا ما تُهددُ به هذه الحشود. ليس ضروريًا أن يُتهم أفراد النخبة اتِهامًا مباشرًا بهذه الانتِهاكات، إذ يكفي التفرج على العرض الأدائي الذي تقدمه الحشود. وعلى شاكلة التنظيم، يستغل

الناشطون، بهذه الطّريقة، ماكينة وسائل التواصل الاجتماعي الرّهيبة للظفر بمستوى من المَكانة- مع ما يُصاحبها من نُفوذ وسلطةٍ- يتجاوز تجاوزًا صارخًا عَددهُم.

بِوسعنا مَعرفة ذلك في الدراسات الاستقصائية العامة. صدرت الدراسة الأشمل على الإطلاق في علم النفس الاجتماعي في بِريطانيا، التي تضمنت معلومات مُستحصلةٍ من عشرة آلاف من المُستجيبين، بعد عام واحدٍ من تعرض تمبلر إلى هجوم الحشد الإلكتروني.(487) رصدت الدراسة سبع مجموعات رأي مُميزة، تصف «الناشطين التقدميين» بأنهم «مدفوعون بالسعي إلى العَدالة الاجتماعية.» إنهم «جماعةٌ قويةٌ وناطقةٌ، تقع السياسة في قلب هويتها.» يؤمن الناشطون التقدميون أن اللعبة ثابتةٌ في جوهرها، وأن مقدرات حياة اللاعبين «تتحدد أساسًا بالبنى الاجتماعية التي ينشؤون فيها، وليس بجهودهم الفردية.» إنهم الأفضل تعليمًا والأغنى، من بين الجماعات، مع ارتفاع عدد من يفوق دَخله الخمسين ألف جنيه إسترليني منهم موازنةً بأفراد الجماعات الأخرى فضلًا عن أنهم «الصّوتُ المهيمنُ» في وسائل التواصل الاجتماعي التي يؤدون فيها «دورًا قياديًا.» ويُرجح ارتفاع معدل تَفاعلهم، ونشرهم عن الشأن السياسي في تويتر وغيره من منصّات التواصل إلى ستة أضعاف موازنةٍ بأية جماعةٍ أخرى. ويصدقُ الحالُ ذاته على إسهاماتهم الإجمالية في وسائل التواصل الاجتماعي، إذ يتفوقون فيها على مجموع المُستخدِمين في مستوى البلاد. ومع ذلك، بلغت نَسبتهم 13٪ فقط من السكان، في عام 2020. وذكرت دراسةٌ مماثلةٌ أن نسبتهم في الولايات المُتحدة 8٪.(488)

وتكشفُ الدراسات المَسحية الوطنية عن مدى هامشية مُعتقداتهم وسُلوكهم.

---

(487) ‘Britain’s Choice: Common Ground and Division in 2020s Britain’, October 2020, report conducted by More in Common.

حصلت على معلومات إضافية في اتصال شخصي مع المؤلف المشارك في الدّراسة، تم دكسن.

(488) *American Fabric: Identity and Belonging*, December 2020, MiC Report.

وتبدو المواقف العامة في المملكة المُتحدة والولايات المُتحدة تقدمية إلى حدٍ ما؛ إذ بلغت نسبة الأمريكيين الذّين يؤيدون الزواج بين-الأعراق 4٪ فقط في 1958 موازنةً بنسبة 87٪ في 2013.[489] ويَعتقد 3٪ فقط من البريطانيين أن التنعم بـ «البريطانية الحقَّة» يستلزم أن تكون أبيض؛[490] ويتفقُ 73٪ أن خطاب الكراهية هو إحدى القضايا الشاغلة؛[491] ويرى عددٌ يفوق النصف منهم أن رِهاب التحول الجنسي هو مشكلةٌ «نسبية» أو «جسيمة.»[492] ومع ذلك، لا تحظى بالشعبية الكثير من السلوك المُميزة للناشطين التقدميين وحشودهم الإلكترونية. فالمُراقبة الصَّائبة سياسيًا للتعبير عن الرأي غير مرحب بها أساسًا في البلدين كليهما. إضافةً إلى ذلك، يؤمن 80٪ من الجماعات العرقية الأمريكية أن «الصّوابية السياسية مشكلةٌ في هذا البلد،»[493] ويتفقُ مع هذا الرأي 87٪ من الأمريكيين من أصول إسبانية مُضافًا إلى ثلاثة أرباع الأمريكان الأفارقة. ويَحسب 72٪ من البريطانيين أن الصّوابية السياسية قد أضحت مشكلةً.[494] وتتفق أقلية معتبرة بلغت نسبتها 29٪ أن بريطانيا هي «بلدٌ عُنصُري عنصريةً منهجيةً أو مؤسساتيةً.»[495] ورصدت شركة التصويت YouGov دعمًا مُتدنيًا للغاية للمواقف الأخرى المقترنة بالنشاطية التقدمية؛[496] إذ اِرتأى 12٪ أن من العدل مُعاقبة البالغ على آراء جدليةً أدلى بها في المواقع الإلكترونية عندما كان مراهقًا؛ ورأى 10٪ بأنه «من غير المُناسب» ارتداء غير اليابانيين للكيمونو، وفكر 5٪

(489) Frank Newport, Gallup, 25 July 2013.

(490) 'Culture wars risk blinding us to just how liberal we've become in the past decades', Kenan Malik, *Guardian*, 23 June 2020.

(491) 'Britain's Choice: Common Ground and Division in 2020s Britain', October 2020, MiC Report.

(492) https://yougov.co.uk/topics/politics/explore/issue/Political_correctness.

(493) 'Who are the real Shy Trumpers?' Eric Kaufmann, *Unherd*, 6 November 2020.

(494) 'Britain's Choice: Common Ground and Division in 2020s Britain', October 2020, MiC Report.

(495) https://www.dailymail.co.uk/news/article-9583001/ Sir-Keir-Starmers-Labour-Party-touch-public-opinion-poll-finds.html.

(496) https://yougov. co.uk/topics/politics/explore/issue/Political_correctness.

فحسب أن الحَاكم القادم لبنك إنكلترا يجب أن يكون امرأةً (يرى 3٪ ضرورة أن يكون الحاكم رجلًا في مقابل 87٪ قالوا إن جنس الحاكم غير مهمٍ).

ولَيست الحُشُود الإلكترونية، بطبيعة الحال، العامل الوحيد الذّي يعتمده الناشطون التقدميون في الحصول على المكانة المُتضّخمة؛ فهم قادرون، بفضل مُستويات ثرائهم وتعليمهم الفذَّة، على إشراك نُخبهم في الكَثير من ألعاب المجتمع الأقوى. جدير بالملاحظة أيضًا أن الحكم باستحسان جميع الناشطين التقدميين لسلوك الحشود سيكون مُجحفًا للغاية. وهذه هي النقطة المهمة. فمن يُمارس اللعبة من خلال الحشود هم أقلية الأقلية. ومع ذلك، كثيرًا ما يغدو صوتهم القيادي الآمر في وسائل التواصل الاجتماعي صوتًا قياديًا آمرًا في أنظمتنا الديمقراطية لأنهم، على شاكلة تنظيم داعش، ينالون مكانتهم الضَّخمة جزئيًا عن طريق بَثّهم الهَلع. إن ثَرثَرتهم وكَيلهم التهم وغَضبهم الفتاك كُلها مُصممة لِنسج وهم الإجماع، وإيقاظ خوفنا القديم من أبناء عُمُومتنا، ودفعنا إلى داخل قَفصهم الاجتماعي. هذه هي الطَّريقة التي تفوز بها الحُشُود.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل العشرون

ضحايا ومُحاربون وسحرة

عندما تتجه اللعبة إلى الحرب، تغدو أكثر صرامةً وفاعليةً. إذ تُعزز هيمنتها على اللاعبين، الذّين يتعاظم اندماج ذواتهم في خدمتها، ويُصبح حلمها أعنف وأَظلم، ويصيرُ أبطالها أشوس، وأوغادها أَشر وأخبث، ودُروسها الأخلاقية أنقى وأخلص. ويُكرم بالمَكانة اللاعبون الذين يسردون حِكايات تُعيد تأكيد تَفاصيلها المُحققة للمصالح الذّاتية. تدور هذه الحكايات حول سَردية المَظلومية التي تُصور أعداءهم بوصفهم أقوياء وقُساة وخطرين. وعندما لا يُقدم الواقع الفعلي لنا سوى النزر اليسير من هذه الرّوايات، بوسع اللاعبين، بسهولةٍ ويسرٍ، اختراعها. تلقت صفحة فيسبوك مجهولة المصدر ينشر فيها الطَّلبة عن «أوّل قصص حبٍ لهم»، في جامعة وايومنغ الأمريكية في 2013، منشورًا موجهًا إلى نسوية مَشهورةٍ ومدوِّنةٍ حاصلةٍ على جائزةٍ يقول كاتبها:[497] «أرغب بشدةٍ في مواعدة ميغ لانكر، هذه المُثيرة والبَغيضة في آنٍ. هذه الناعمة التي تحرك فمها الليبرالي طوال الوقت، ولا تهتم بمنْ يفهم ما تقوله. أظن أنها مُثيرةٌ، وهذا يجعلني غاضبًا. ليلة واحدة تقضيها معي، وستكون فاجرةً وجمهوريةً رائعةً.» فَردت عليه لانكر-سيمون قائلةً: «كان شيئًا مُقززًا وكارهًا للنساء، ويبدو أن المسؤولين عن الصَّفحة

(497) 'Meg Lanker-Simons, UW Student, Accused Of Threatening Herself With Rape In Facebook Hoax', Rebecca Klein, *Huffington Post*, 5 March 2013.
'Meg Lanker-Simons Cited for Making UW Crushes Post', Trevor T. Trujillo, kowb1290.com, 30 April 2013.
'UW Student Cited in Facebook Post Investigation', Uncredited author, uwyo.edu, 30 April 2013.

يَظنون إنه إحساسٌ مقبولٌ تمامًا.» وتبع ذلك مظاهرة طُلابية ضد «ثقافة الاِغتصاب» تحدثت فيها لانكر-سيمون، وتبين لاحقًا للشرطة بعد انتهائها من التحقيق، أن ميغ لانكر-سيمون هي من كَتبت المَنشور!

لم تكن هذه حادثةً معزولةً. إذ شملت آخر الخُدع المَعروفة المُمثل الأمريكي جوسي سولت الذي اتهمته الشرطة بتلفيق حادثة اعتداء عرقي مُعاد لِلشواذ زعم سولت أن مؤيدي ترامب ارتكبوه؛ والسبب هو أنه كان يرغب في «تعزيز مَسيرته المهنية والترويج لها»، إضافةً إلى أنه وجِدَ لاحقًا مُذنبًا بالكذب فيما يخص هجوم رجال الشرطة؛[498] وكذلك حملة رسم على الجدران عدوانية ومسيئة في كلية فاسار تكرَّرت فيها عِبارة «إنها تراني. أعرف أين أنت»، وتَبين فيما بعد أن من فعل ذلك هما غينيسيس هرنانديز الذّي كان ناشطًا متحولًا جنسيًا وعضوًا في فريق الاِستجابة لحوادث التحيز في الكلية؛[499] وأستاذة علم النفس، كيري دون، التي وصفتها صحيفة لوس أنجلس تايمز بـ «البطلة للكثير من الطَّلبة...وأنها رفعت صوتها بالإنابة عن المُضطهدين،»[500] والتي وَجدت سيارتها مهشمةً ومخطوطًا عليها، بعد إلقائها محاضرةً عن خطاب الكَراهية،[501] العبارات الآتية: «رفيقة اليهود»، و«عشيقة الزّنوج»[502] و«ساقطة» «أخرسي»، و«عاهرة» و«أغلقي فمك» إضافةً إلى صليبٍ معقوفٍ غير كاملٍ.[503] لكن اِتضح فيما بعد بأنَها هي

(498) 'Jussie Smollett's image takes new hit with revived charges', Tammy Webber, Associated Press, 12 February 2020.
(499) *The Rise of Victimhood Culture*, Jason Manning and Bradley Campbell (Palgrave Macmillan, 2018). Kindle location 3417."the transgender student leading the investigations into the offensive graffiti", Uncredited author, *Mail Online*, 5 December 2013.
(500) ClaremontProfessor'sPastIsaNewPuzzle',NoraZamichow,*LosAngeles Times*, 5 April 2004. 'Teacher Gets Prison in Hate Crime Hoax', Wendy Thermos, *Los Angeles Times*, 16 December 2004.
(501) *The Rise of Victimhood Culture*, Jason Manning and Bradley Campbell (Palgrave Macmillan, 2018). Kindle loca- tion 3308.
(502) هذه الشّتيمة العرقية وردت مختزلة في الكتاب 'N-----lover'، لكنها ظهرت كاملةً على السّيارة.
(503) From Hate to Hoax in Claremont', Tom Tugend, *Jewish Journal*, 1 April 2004.

من ارتكبت بنفسها هذا الفعل التدميري. وهذا النمط من السرد القصصي الأدائي لا يقتصر على لاعبي اليسار. إذ لَفقت آشلي تود، المُتطوعة في الحملة الانتخابية الجمهورية في 2008 هجومًا قالت فيه إن أمريكيا-من أصلٍ أفريقي طرحها على الأرض وخربش حرف «ب» كنايةً عن باراك أوباما على وجهها.[504] وفي حادثةٍ مماثلةٍ، في 2007، أدعى فرانسيسكو نافا، الطّالب في جامعة برنستن، كذِبًا تعرضه للتهديد ثم للضَّرب حتى فقدان الوعي بسبب عضويته في جمعية انسكومب المحافظة.[505]

يُعيد هؤلاء المُخادعون تأكيد القصص الأخلاقية الساذجة التي تَسردها ألعابهم عن العالم، وتُطمئنهم بأن المعايير التي يعتمدونها للمُطالبة بالمكانة صحيحةٌ وحقيقيةٌ. إنهم يظهرون في التلفاز والصَّحف وقاعات المحاضرات، ويَتصدرون الاحتجاجات الطُّلابية. إننا نُكرم ضحايانا في أوقات الحرب لِما ترويه قصصهم عن المعاناة والشجاعة والنجاة؛ إنهم يُصبحون أبطالًا بسبب الحَيف والظّلم الذي وقع عليهم. وهم يسمحون لزملائهم اللاعبين بالإحساس بالبطولة أيضًا في اجتماعهم في هذا التحدي النبيل للوحوش.

وسيَبرزُ من هذا التحالف، في الغالب، عددٌ قليلٌ يَتحلون بالشجاعة والطُّموح اللازمين للتقدم إلى الأمام، والاشتباك بفاعليةٍ مع العدو. وهؤلاء المحاربون هم، في المعتاد، أشد تلهفًا وتوقًا لنيل المَنزلة من اللاعبين الآخرين. رصد تحليلٌ للروح القِتالية في المجتمعات ما قبل الحديثة علاقةً إيجابية بين شدة الصراع والمكانة المعروضة على المقاتلين،[506] ووجدت أن «المقاتلين يندفعون إلى الاشتراك في الحرب تطلعًا للمكافآت» التي تتضمن «تعاظمًا في المكانة، ومزيدًا من الألقاب

(504) 'Ashley Todd Fake "Mutilation" Exposed', Uncredited author, *Huffington Post*, 24 November 2011.

(505) 'The Tale of an Ivy-League Hoaxer', Laura Fitzpatrick, *Time*, 18 December 2007.

(506) 'The Role of Rewards in Motivating Participation in Simple Warfare', Luke Glowacki and R. Wrangham, *Human Nature* 24, 2013, 444–460.

والتسميات التشريفية، أو الشارات والعَلامات المُميزة»، إضافةً إلى زيادة احتمال تحليهم بصفة النرجسية الجماعية؛ إذ يؤمنون بالتفوق الواضح للعبتهم، واستحقاقها التلقائي للاحترام والتبجيل. وتقترح الأبحاث أيضًا أن الرّضا اليسير والشعور بالفخر بجماعتنا، عندما يكون إحساسنا بهذا الرِّضا باعثًا على الطمأنينة وغير مبالغٍ به، لا يؤدي بالضَّرورة إلى تأثيرات سيئة، بل ربما حتى يُسهم في تعزيز التسامح والتعايش. إن ما يجعل هذا الحُلم النرجسي مختلفًا، بالنسبة لهم، هو الاعتقاد بخُصُوصية لَعبتهم وتميزها وجدارتها بأن تُعامل على هذا الأساس. تقول إحدى الدراسات: «يُرجح أن يشعر النرجسيون الجماعيون، المنشغلون بتفوُّق جماعتهم ومصادقة الجماعات الأخرى على ذلك، بِحساسية مفرطةٍ للمؤشرات الدالة على الاعتراف المنقوص بجماعتهم، فَيَعملون على تَضخيمها، والتعامل معها بوصفها إهانةً لهم"، وأضافت أن النرجسية الجَماعية هو "متنبأٌ مُميزٌ وفريدٌ ومنتظمٌ على الحساسية المفرطة إزاء الإهانة الموجهة للجماعة، والمَيل نحو المُبالغة في رد الفعل العدواني".(507)

ويُرجح أن يتماهي المحاربون تماهيًا قويًا مع لَعبتهم؛ إذ يؤمنون بها إيمانًا راسخًا، ويستثمرون مقدارًا عاليًا من مكانتهم فيها. تقول ليليانا ماسن، المُختصَّة بعلم النفس السياسي «إن أعضاء الجماعة المتماهين معها تماهيًا فائقًا سيقاتلون دفاعًا عن مكانتها في حال تعرضت للخطر».(508) إنه هذا التماهي مع اللعبة الذّي «يدفع أفراد الجَماعة إلى اتخاذ التدابير للحفاظ على مكانتها الرّفيعة. شاهد مشاركون في إحدى الدراسات فلم روكي الجزء الرّابع، في حين شاهد غيرهم نسخةً مُعدلةً مُسبقًا يخسر فيها البطل الأمريكي أمام المقاتل الرّوسي، إيفان دراغو.(509) تعرض المُشاهدون الذّين يرتبطون بعلاقةٍ وثيقةً مع هويتهم الأمريكية إلى «ضَربات

(507) 'Collective Narcissism Predicts Hypersensitivity to In-group Insult and Direct and Indirect Retaliatory Intergroup Hostility', A. Golec de Zavala, M. Peker, R. Guerra and T. Baran, *Eur. J. Pers.*, 2016, 30: 532–551.

(508) *Uncivil Agreement*, Lilliana Mason (University of Chicago Press, 2018), p. 23.

(509) المصدر نفسه، ص 84.

موجعة» استهدفت إحساسهم بالمَكانة، إذ شعروا «بالمَهانة والذّلة بعد مشاهدتهم خسارة روكي». ثُّم منحهم علماء النفس فرصة التعبير عن آراء معاديةٍ ضد خُصُومهم الرّوس، فشعر من كال «التعابير المُهينة والمُذلة» لمنافسيهم أنهم استعادوا كبرياءهم المَجروحة. ومن المحتمل أن يُفتن المحاربون-الذين يتعلقون تعلقًا وثيقًا بلَعبتهم، ويكتسبون، في الغالب، صفة النرجسية بالنيابة عنها- حد الثّمالة بالمكانة التي يظفرون بها جراء خوض المعارك، فيسعون إلى تأجيجها في الأماكن كافة، في الغَالب. إنهم يتخذون وضع الدفاع والهجوم أيضًا في أثناء القتال، ويختارون المعارك النفعية التي تصبُّ في مصلحتهم مع الأعداء. وهذا النوع من لعبة الفضيلة-الهيمنة شائعٌ في وسائل التواصل الاجتماعي، التي يؤدي فيها المحاربون لعبة الهُجُوم والدفاع والفوز، والظّفر بالمكانة لهم ولجِماعتهم. وثقت عملية تحليل التغريدات الإستراتيجيات التي يعتمدها هؤلاء المُحاربون، ولاحظت أن التغريدات التي ترتفع احتمالات إعادتها تحتوي على عددٍ أكبر من المفردات الأخلاقية، ومقدارٍ أعلى من العاطفة والشجاعة المَعنوية.[510] وذكرت دراسة تَناولت سبعين مليونًا من الرّسائل في المَنصة الصّينية ويبو (Weibo) أن الغَضب هو الإنفعال «الأسرع في الإنتقال والأقدر على بلوغ الأماكن القَصية في شبكة التواصل الاجتماعي».[511] وبَينت الدراسات الخاصّة بحوادث المُضايقة في تويتر، تزامنًا مع ذلك، ارتفاع حسابات المُتابعة الخاصّة بالمنتقِدين والمُستَهزئين بمعدلٍ أسرع من حسابات غير المُنتقِدين.[512]

تلخص دور «أبناء العُمُومة» تاريخيا في فرض أعراف اللعبة في أثناء تَوجه المحاربين إلى العالم للقِتال بالإنابة عنها، وانتزاعهم الموارد من الجماعات المنافسة

---

(510) 'Attentional capture helps explain why moral and emotional content go viral (in press)', W.J. Brady, A. P. Gantman and J. J. Van Bavel, *Journal of Experimental Psychology*: General.
(511) *LikeWar*, P.W. Singer and Emerson T. Brooking (Mariner, 2018), p. 162.
(512) 'Online Public Shaming on Twitter: Detection, Analysis, and Mitigation', R. Basak, S. Sural, N. Ganguly and S. K. Ghosh, in *IEEE Transactions on Computational Social Systems*, Vol. 6, No. 2, pp. 208–220, April 2019.

أو دفاعهم عن الجماعة من الغزاة والمُعتَدين. ومع ذلك، غالبًا ما تندمج هذه النماذج الأصلية في العالم الحديث. تمتلك «الأمَّهات العظيمات المتشكِّكات باللقاح»، من الناحية النظرية، أبناء عُمُومة في جماعة الفيس بوك الخاصَّة بهنَ، يَفرضون فيها مُعتقداتهم؛ ولَديْهن محاربات في خارجها يُقاتلنَ بالنيابة عنها، ويبشرنَ بالمعايير المُعتمدة في اِدعاء المكانة. لكنهم غالبًا ما يكونون الشخص ذاته في الواقع. المشاركون في الحشود الإلكترونية محاربون يؤدون مهام أبناء العُمُومة الداخليين. لدينا كلنا القابلية على الانخراط في أنواع السلوك هذه: إنه تصميمنا الأصلي الذي تواصل لِمئات الآلاف من السنين. والتحذير من انزلاق شخصٍ إلى هذه الحالة من التشدد يقع عندما يَظهر هذا الشخص بصورة المَهووس هوسًا كليًا بالمُعتقدات المُقدسة للعبة، وبفرضها أيضًا. ليس بوسع هؤلاء، على ما يبدو، أن يتحدثوا أو يفكروا بالكَثير من الأمور الأخرى. إنهم يجدون ما يفعلونه ممتعًا لأنهم يمارسون لعبة رمزية تخصُّ المكانة؛ وهم ينالون الجوائز مع كل فكرةٍ ولفظٍ وتُعبيرٍ عن مُعتقدهم الفاعل. يُمكن القول إن نجمة التلفاز البريطاني، جميلة جميل، قد حققت مكانةً أرفع بفضل معاركها الرَّقمية لا بفضل تَقديمها للبرامج أو تمثيلها. تقول جميلة، المعروفة بتركيزها على قضايا تخصُّ الصحَّة العقلية وصورة الجسد، إن النساء اللاتي يرفضن الاعتراف بأنهن يُعدلن صورهن، مُذنبات بارتكاب «جريمةٍ مقززةٍ».[513] هاجمت جميلة علنًا نساءً من صَفوة المُجتمع من بينهن كارديشيان، وكاردي ب،[514] وريحانة،[515] ومايلي سايرس، ونيكي ميناج،

(513) Like My Good Friend Jameela Told Me At The Chateau Marmont', Kristin Iversen, *Nylon*, 12 December 2018.

(514) 'Calling time on Jameela Jamil and her toxic brand of feminism', Diyora Shadijanova, *The Tab*, 3 May 2019.

(515) 'Put It Away RiRi!', Jameela Jamil, *Company*, April 2013.

وإيجي أزيليا،[516] وكارولين كالووي،[517] وبيونسه،[518] وجي. ك. راولنغ؛[519] وانتقدت برنامجًا تلفازيا في 2019 اتخذ من الجراحة التجميلية محورًا له، وقدمته كارولين فلاك، التي اِشتبكت معها في تبادلٍ للحديث عدائي في تويتر.[520] تَعرضت فلاك لاحقًا إلى «هجومٍ رقمي جماعي» شنه مُتابعو جميلة، الذّين تساءل أحدهم كيف يُمكنها أن تدافع عن «برنامجٍ سامٍ واستغلالي تُقدمه بمحض اِختيارها؟» بعد أربعة أشهر، كتبت جميلة، بعد انتحار فلاك في أعقاب التداول واسع النطاق لشؤونها الخاصَّة: «كانت مسألة وقت فحسب قبل أن تَنقض وسائل الإعلام، ووسائل التواصل الاجتماعي واسعة الانتشار، ما حدث لفلاك استمر شهورًا، وهو الشيء الكفيل بدفع أي شخصٍ إلى حافة الهاوية». ونشر صحفي، بعد ذلك، رسالةً شخصيةً أرسلتها فلاك له، تقول فيها: «أنا في صراعٍ مع جميلة. إنها الكَراهية التي تُصوبها نحوي».[521] نالت جميلة مكانةً متميزةً جراء مضايقتها الآخرين ومُشاكساتها. إذ اختارتها ميغن، دوقة سسكس، في 2019، للظُّهور على غلاف مجلة فوغ ضمن النساء الخمس عشرة في مجموعة «قوى من أجل التغيير». لدى جميلة عددٌ من المُتابعين يفوق المليون في تويتر، وثَلاثة ملايين في الانستغرام.

وهناك، بطبيعة الحال، مُحاربون في الجانب المُقابل أيضًا. إذ تصدر ممثلٌ بريطاني آخر هو لورنس فوكس، في كانون الثّاني عام 2020، عنوانات الأخبار بعد

(516) 'Calling time on Jameela Jamil and her toxic brand of feminism', Diyora Shadijanova, *The Tab*, 3 May 2019.

(517) 'Caroline Calloway might be controversial, but for Jameela Jamil to publicly vilify her exposes complete hypocrisy', Olivia Petter, *Independent*, 3 April 2020.

(518) 'Beyonce's Drawing A Line Under That "Is She A Feminist Question" Once And For All', Sophie Wilkinson, *The Debrief*, 2 February 2014.

(519) 'J.K. Rowling criticized once again for anti-trans comments', Clark Collis, *Entertainment Weekly*, 7 June 2020.

(520) 'Jameela Jamil reignites feud with Caroline Flack as the stars get into war of words', Ellie Phillips, *Mail Online*, 23 October 2019.

(521) 'Stinking Hypocrisy!', Piers Morgan, *Mail Online*, 3 October 2020.

ظهوره في برنامج المُناظرة «حان وقت السؤال Question Time» الذّي تبثه هيأة الإذاعة البريطانية، وفند فيها تهمة أنه «ذكر مُتميز أبيض» و«عنصري». وتَذمر فيما بعد من تضمين جنود سيخ في فلم «1917» عن الحرب العالمية الأولى واصفًا إياه بأحد إجراءات «التنوع القسري» قبل أن يعتذر لدى علمه بمشاركة مائة وثلاثين ألف سيخي فيها.(522) وحاول فوكس لاحقًا التحريض على مقاطعة سلسلة متاجر سينسبيري لِدعمها لحدث «شهر تاريخ السود» الذّي أدعى بأنه يوازي «الفصل والتمييز العنصريين».(523) كان لدى فوكس أقل من خمسين ألف متابع في تويتر قبل مشاركته في البرنامج.(524) لكن العدد تجاوز الربع مليون في نهاية العام.

ينالُ المحاربون، من أمثال جميلة وفوكس، مكانةً متميزةً على الرّغم من أخطائهم وهَزائمهم وتَشويهم سمعة الآخرين. وهم، في العادة، الصّفوة في اللعبة التي يشتركون فيها؛ فهم لَاعبون ظاهرون للعيان، ومتماهون تماهيًا عاليًا مع اللعبة، وساعون إلى إنتاج مكانة مُتميزة أساسية، وغالبًا ما يتمكنون من شن هجماتهم بمساعدة لاعبين مُتدني المكانة ومستائين وطامحين يشتركون في أفعال الثّرثرة والمُضايقة الجماعية. وجد أحد التحقيقات أن الأفراد الذّين ترتفع احتمالات مُشاركتهم في بث «الشائعات السياسية العدوانية» الشاملة لنَظريات المؤامرة و«الأخبار الكَاذبة» في وسائل التواصل الاجتماعي هم في الغالب من «المَهووسين بالمكانة، والمُهمشين اجتماعيا في آنٍ معًا»،(525) الذّين يتغذى سُلوكهم على «الرّغبة المُجهضة بالظّفر بمكانةٍ مرموقةٍ»، وغايتهم «تعبئة الجماهير ضد النخب المكروهة».

---

(522) 'Laurence Fox issues apology to Sikhs for his "clumsy" 1917 comments – but stands by everything else he's said', Emma Kelly, *Metro*, 24 January 2020.

(523) Katie Feehan, *Mail Online*, 4 October 2020.

(524) Via The Wayback Machine.

(525) 'A "Need for Chaos" and the Sharing of Hostile Political Rumors in Advanced Democracies', Michael Petersen, 2018, 10.31234/osf.io/6m4ts.

وفي ظل هذه الظّروف، من الجَائز أن يغدو الحُلم الذّي نَنسجه عن الواقع متوحشًا وهستيريًا. فمثلما شَهدنا في المُضايقة الجماعية التي تعرضت لها كارن تمبلر، يُمكن أن تَتَغير المواقف الأخلاقية في اللعبة، لتتحول إلى نُسخ بالغة التطرف من الأشخاص المُتبنين لها. جرى استهداف تمبلر بعد تصريحها أن الدعوة التي تلقتها للسفر إلى الهند تبدو مثل تلقيها عرضًا للسفر «على متن رحلةٍ إلى المريخ». وهذا التصريح، في عالم الخيال الخانق مرضيا الذّي يعيش فيه متهمِوها، كان بمنزلة دليلٍ على أنَها مُتحيزة عرقيًا وإمبريالية ومؤمنة بتَفوق العرق الأبيض. وصف الباحثان جاستن توسي وبراندن وامك عملية «التحشيد»، التي يعمل فيها الطامحون إلى المكانة على دفع المواقف الأخلاقية في لَعبتهم إلى أماكن أشد منعةً وإحكامًا،[526] في محاولة منهم للتغلب على إحداهم الآخر، بالنحو الآتي: «حالما نَتعرف إلى آراء الآخرين (أو على الأقل ما يُصرحون بأنَها آراؤهم)، يكون أمامنا خياران: فإما أن نتقبل مسألة إننا عاديون أخلاقيًا، ونحافظ على آرائنا مثلما هي، وإما أن نُغير تغييرًا طفيفًا وجهات نظرنا (أو على الأقل أسلوب تَقديمنا لها) للحفاظ على مكانتنا بوصفها النموذج الأخلاقي في الجماعة. والخيار الثّاني هو المُفضل بالنسبة لكَثيرين». وعندما يحشد المحاربون قواهم، فإنهم بهذه الطّريقة، «لا يحاولون التوصل إلى الادعاء الأخلاقي الصَّحيح...إن ما يدفعهم هو الرّغبة في أن يكونوا الأقدر على إثارة الإعجاب».

ومع اِشتداد أوار اللعبة، يُصير حُلمها أغرب: إنه أنقى وأقسى، ومنسوجٌ من المُعتقدات الأكثر تطرفًا. ماذا نفعل عندها؟ نحن اللاعبون العاديون؟ المجازفة بغضب أبناء العُمُومة وأتباعهم المحاربين بالتعبير عن شُكوكنا؟ أو البقاء مطأطئي الرأس ومُسايرتهم؟ لاحظنا سلفًا تجربة «تحديد طول الأسطر» المعروفة التي أجراها سولمن آش لقياس التماثل، إذ أنكر ثلث المُشاركين، في مجموعة مختبرية

(526) *Grandstanding*, Justin Tosi and Brandon Warmke (Oxford University Press, 2020), p. 53.

سائبة نسبيًا، ما شاهدوه بأم أعينهم، مُعلنين، بذلك، عن تطابق معتقداتهم مع معتقدات الأغلبية. ورصد روب ويلر، المختص بعلم النفس، ديناميات مماثلةً في دراسةٍ أشرف عليها،[527] تذوق فيها المشاركون عينات من الخمر، وطُلِب منهم اختيار شرابهم المفضل بناءً على تقييمهم له في مقياسٍ مُتدرجٍ. لم يكن المُشاركون يعلمون أن العينات متشابهةٌ في الواقع، ومأخوذة من الزجاجةِ ذاتها. وكان تَسلسل هؤلاء المشاركين هو الخامس من بين المُتذوقين الستة. عندما لاحظوا أن المتذوقين الأربعة الذّين سبقوهم قد قيموا إحدى العينات بأنها الأفضل والأرقى، اتفق في الرأي معهم أكثر من نصف المُشاركين؛ وهي نتيجةٌ تُظهر معدلًا من الامتثال أعلى مما لاحظه آش في تَجربتهِ. ثُم وقعت المفاجأة، إذ أخبرهم المُتذوق السادس عن تطابق طعم العيَنات. طُلِبَّ من المشاركين لاحقًا تَقييم المتذوقين: من لديه القدرة الأفضل على التذوق من بينهم؟ المشاركون الأربعة الأوّل الكاذبون؟ أو السادس الذّي أدلى بالحقيقة؟ اختار المشاركون المتذوق السادس عندما سُألوا سِرًّا. لكن من سُئِلَ منهم علنًا لم يكتف بالمُصادقة على وجهة نظر الأغلبية الخاطئة، بل عاقبوا أيضًا قائل الحقيقة الوحيد بمنحه تقييمًا متدنيا. يرى الباحثون أن هذا السلوك هو نتيجةٌ متوقعةٌ للعبة تحتدم احتدامًا خطرًا. سيكون بعضُ اللاعبين مؤمنين حقيقيين باللعبة، إذ ينغمسون انغماسًا كليًا في الحُلم في مقابل آخرين لا يؤمنون بسبب إحساسهم بجنونها المُتصاعد. لكنهم يتظاهرون بالإيمان لخَشيتهم من سُلطة أبناء العُمُومة. ما يزال هؤلاء المؤمنون الزَّائفون يتصرفون مثلما لو أنهم لَاعبون مخلصون يلتزمون بقَواعد اللعبة ورُموزها ومعتقداتها. إلا أنَهم فقدوا الإيمان في القصة المُختلقة. ولأن الجماعات المُتراصّة تنزع نحو اللاعقلانية والامتثال العدواني، فإنها عادةً ما تكون مكتظةً بالمؤمنين الحقيقيين والزائفين. يحاول المؤمنون الزّائفون عادةً البرهنة على ولائهم وإِخلاصهم عن طريق الاعتقاد الفاعل وفرض القواعد؛ وهم يفعلون ذلك،

(527) 'The False Enforcement of Unpopular Norms', Robb Willer, Ko Kuwabara and Michael W. Macy, *American Journal of Sociology*, 2009, 115:2, 451–490.

حسبما يورد الباحثون، «لإثبات صدقهم ووفائهم». أي إنهم يريدون أن «يُظهروا أنهم لم يمتثلوا، بسُهولةٍ ويسرٍ، طمعًا في ضمان القبول الاجتماعي لأن الامتثال لوحده غير كافٍ للمؤمنين الحقيقيين في الجماعة. ومن يمتثل من أفراد الجماعة قد يفعل ذلك سعيًا وراء الإستِحسان الاجتماعي فحسب».

إذاً، منْ همْ المؤمنون الحقيقيون؟ ومنْ هم المُنحرفون الخطرون المُتَسترون الخائنون لحُلمنا عن الواقع؟ تغدو اللعبة أصعب وأقسى مع سَعي اللاعبين إلى «الضّغط على إحداهم الآخر للتغطية على شُكوكهم الخاصَّة». فيؤدي ذلك إلى تفاقم الشكوك واستفحالها. وعندها تدخل اللعبة، على الأرجح، مرحلة ما أصطلح عالما الاجتماع، برادلي كامبل وجيسنماننغ، على تسميته بـ «حَلقة النقاء المُفرغة» التي «يسعى فيها اللاعبون إلى التغلب على إحداهم الآخر في عروضٍ من الحماس المُفرط وتوجيه التهم وطرد الأعضاء في جماعتهم لارتكابهم مخالفات يسيرة للغاية لا تبعدهم كثيرًا عن فضائلها الأساسية».[528] إنهم يتدافعون للبرهنة على صدقهم بِكيل التهم للآخرين وإدانتهم، ويَستميتون في إظهار قبولهم للعبة. ومن يُكتَشف انحرافه يَتعرض للتشهير والنبذ، وحتى القتل. وحالما تبلغ اللعبة هذا المرحلة، تبدأ بمطاردة السحرة. وهو ما حَدثَ في أوروبا، إذ بلغت عمليات مطاردة السحرة أوج نشاطها في القرنين الخامس عَشر والسادس عشر، في أزمان طغى عليها مُمارسة الضَّغط الشديد من أجل الجماعة، عندما أدى تدهور الظّروف المناخية وعدوانيتها إلى تلف المَحاصيل الزِّراعية وقلة الطّعام.[529] تُسفر هذه

---

(528) *The Rise of Victimhood Culture,* Jason Manning and Bradley Campbell (Palgrave Macmillan, 2018). Kindle location 4576.

(529) يقول الباحثون المعاصرون إن الظَّروف المناخيَّة لوحدها ليست كافيةً للتنبُّؤ بالمحاكمات وعمليّات الإعدام في أي مكانٍ، وأن ما يدفع المَناطق المنكوبة إلى حالة الهَياج والفوضى هو الوصول الإضافي لمحاربين طَموحين يسعون إلى الظّفر بالمكانة، وكانوا يمثلون وقتها الألعاب المنافسة للكاثوليكيَّة والبروتستانيّة المتصارعة فيما بينهما. وجد الاقتصاديّان الأستاذان بيتر ليسن وجاكوب راس، في تحليلٍ لهما، أن المحاكمات غالبًا ما تقع في مناطق يشتد فيها التنافس بين هذين الخَصمين على الأقاليم العصبيّة في عقول السُّكان، فـ "التنافس المسعور في أسواق الدّين يؤدي إلى المزيد من الاستعار في محاكمات السّحرة." وتعمل محاكماتهم هذه بوصفها إعلانات مؤثرة عن لَعبتهم الفريدة. كتب الأستاذان في تعليقهما على هذه النقطة: "لاحق وقاضى أتباع الطائفتين الكاثوليكيَّة والبروتستانيَّة ملاحقةً شرسةً

الضّغوط، حسبما يذكر المؤرخ بيتر مارشال، عن «إحساس مُتصاعد بالحاجة إلى النقاء المجتمعي والتماثل، الذّي يكشف عن نفسه في التدابير المُتخذة ضد الأشذّ بين المُنحرفين».[530] نُسِج حُلم شيطاني حول هذه الحوادث المناخية يَقُول إن السبب فيها هم المؤمنون الكاذبون الذّين يعيشون بيننا، ويَنعمون بقوى خارقةٍ. لكن البَرهنة على ممارسة السحر لم تكن سهلةٍ. وعندما تنحدرُ اللعبة إلى هذا المستوى، يتوقع من المُكلفين بتنفيذ [التعليمات] أنْ يتحدثوا عن تعاملهم مع مشكلةٍ غير مألوفةٍ تتطلب تَراخيًا في منح الضمانات القَانونية. ذكر صائد السحرة، هنري بوغويه: «السحر لوحدِهِ جريمةٌ...ومُحاكمة هذه الجريمة، تبعًا لذلك، يجب أنْ تُنفذ بأسلوبٍ فريدٍ؛ ويتعذر الالتزام التزامًا صارمًا بالاعتبارات القانونية التقليدية والإجراءات العادية»، وأيده جان بودان مُبينًا أن: «إثبات شرٍ من هذا النوع متعذرٌ ومُلتبسٌ للغاية إلى حد الحَيلولة دون اتهام ومعاقبة ساحر واحدٍ من بين مليون فيما لو اتبعنا الإجراءات القانونية العادية».[531] وفي غضون المائة والخمسين سنةً من مطاردة السحرة، جرت محاكمة ثمانين ألف متهم على الأقل، قُتِل نصفهم على وجه التقريب،[532] أكثريتهم من النساء الفَقيرات الأرامل، في الغالب. وقُتل قرابة الأربعمائة من المُتهمين بمُمارسة السحر في يومٍ واحدٍ في إحدى القرى الألمانية.[533]

ومتشددةً السَّحرة...وكان هؤلاء الأتباع يظهرون التزامهم وقدرتهم على حماية المعتنقين من المظاهر الدّنيوية لخباثة الشّيطان بفضل تمسكهم وتمكّنهم من مقاضاة المُتهمين بممارسة السِّحر والشّعوذة." كانت عمليّات إعدام السَّحرة مناسبات عامة هائلة في المعتاد، إذ تستقطب المئات والآلاف أحيانًا لمشاهدتها.

'Witch Trials', P. T. Leeson and J. W. Russ, *Economic Journal*, 128: 2066–2105.

(530) *The Reformation*, Peter Marshall (Oxford University Press, 2009), p. 112.

(531) 'Taxes, Lawyers, and the Decline of Witch Trials in France', N. Johnson and M. Koyama, *The Journal of Law & Economics*, 2014, 57(1), 77–112. https://doi.org/10.1086/674900.

(532) Witch Trials', P. T. Leeson and J. W. Russ, *Economic Journal*, 2018, 128: 2066–2105.

(533) 'Witchcraft, Weather and Economic Growth in Renaissance Europe', Emily F. Oster, *Journal of Economic Perspectives*, Winter 2004, Available at SSRN: https://ssrn.com/abstract=522403.

وبرزت ديناميات مماثلةٌ في سنوات محاكم التفتيش الإسبانية. إذ أقر الملك الإسباني، في 1478، تأسيس محكمةٍ خاصَّةٍ لمعرفة ما كان يجري في الأقليم النفسي لليهود السابقين الذين تحولوا إلى المسيحية بعد ضغوط تعرضوا إليها.[534] كانت المحكمة التابعة للديوان المُقدس في محكمة التفتيش تُحقق في مزاعم المعتقد اليهودي والممارسة السرِّية لدى هؤلاء «المُتحوِّلين» إلى الكاثوليكية. ولذا، جَردوا المُتهمين من الحماية والضّمانات القانونية: فبعدما كان توجيه الاتهام مجهول المصدر ممنوعًا في القانون الكنسي، لم يكتفوا الآن بالسماح به، بل أصبحوا يُشجعون عليه.[535] يقول المؤرخ هنري كامن: «إن سجلات محاكم التفتيش مليئةً بالدعاوى التي اتهم فيها الجيران جيرانهم، والأصدقاء أصدقاءهم، وأفراد من الأُسرة أفرادًا آخرين. والجَشع المحض كان الدافع الذي حثَّ بعضهم على توجيه الاتهام لأن المُتحولين المُتهمين كانوا يُطردون في الغالب من وظائفهم وتُصادر مُمتلكاتهم. كتبَ أحد المتحولين إلى الكاثوليكية: إن ممتلكات المُتَحولين وأموالهم هي السبب الوحيد في توجيه الاتهام إلى الكَثير منهم، وحرقهم على يد الآباء المُوقرين». وتحدث آخرٌ من مدينة قشتالة عن «حرق ألف وخمسمائة متهم بناءً على شهادات زور». ومع ذلك، أعلن المُفتشون أن «شهادة الزور» في محاكماتهم كانت نادرةً للغاية. وقُيِدتْ ثمان حالات فقط من الحِنْث باليمين في السجلات الرَّسمية لمجموعةٍ واحِدة من المحاكمات بلغ عددها الألف ومائة واثنتين وسبعين. وعلى شَاكلة مُطاردة السحرة في المناطق الأخرى في أوروبا، وصيادي الشيطان في أمريكا في ثمانينيات القرن العشرين، والحُشود الإلكترونية في عصر وسائل التواصل الاجتماعي، مارس المفتشون لعبةً تمنح الجوائز لقاء العثور على المُنحرفين- وقد عثروا عليهم بالفعل *في كل مكان*.

---

(534) مصدر هذه المعلومة هو:

The Spanish Inquisition, Henry Kamen (Yale University Press, 2014).

(535) 'The Spanish Inquisition, 1478–1492', Ruth Johnston, ruthjohnston.com/AllThingsMedieval/?p=2272.

ومع كل مكافأةٍ يحصلُ عليها المفتشون في لعبة الهَيمنة-الفضيلة، تكتسب لَعبتهم زخمًا وقوةً، ويزداد حُلمهم عن الواقع عتمةً، وتغدو رؤيتهم لأعدائهم حقودةً وانتقاميةً انتقامًا معتلًا اجتماعيًا. طورِد المُهتدون إلى الكاثوليكية، وحوكِموا عن المخالفات المُتخيلة الأوهن ضد اللعبة الكاثوليكية. أُبلغ عن امرأةٍ؛ لأنها ابتسمت في أثناء ذِكر أحدهم لمريم العذراء؛ ووشي بامرأةٍ أخرى لعدم تناولها لحم الخنزير، وتَغييرها ملاءات السرير يوم السبت (عُذبت هذه المرأة بالمَخلعة أو آلة المط)؛ ومَثَلَ رجل في العقد الثّامن من عمره أمام محكمة التفتيش لتناوله لَحم الخنزير المُقَدد في يوم الجمعة الذّي يُحَرِمُ فيه تناوله مثلما جرت العادة. وحتى الجهل اليسير، من مثل الجهل بالمُعتقد، كان مقبولًا بوصفه دليلًا على التجديفي. والوضع بالنسبة للمُشتبه بهم قد يكون خانقًا. ولذا، شرع المُتحولون الخائفون في الإبلاغ عن مخالفاتهم. إذ تقدم غونزاليز روز ببلاغ شخصي إلى محكمة التفتيش لأنه ذكر العبارة الآتية في لعبة الورق: «حتى لو كان الرّب شَريكك، لن تربح في هذه اللعبة». وأحس كثيرٌ بفظائع القَفص الاجتماعي. إذ كتب أحد المُتحولين، في 1538، «أن الوعاظ لا يجرؤون على الوعظ، ومن يعظ منهم لا يجرؤ على التطرق للمسائل الخلافية، لأنه ...لا يوجد أحدٌ في هذه الحياة بلا شرطي شخصي يلازمه».

هذا ما يحدثُ عندما تضيقُ سُبل الحياة. فسُلطة أبناء العُمُومة المُستَبدين منفلتةٌ، والمحاربون منهم يقاتلون، والسحرة يُحرقون، والأقليم العصبي التابع للعبة يغدو كابوسًا سورياليًا وخانقًا لعروض الهيمنة والفَضيلة. هناك مطالبات بالتماثل والنقاء، وهناك القيل والقال، والخَوف، وجُنون العَظمة، وكيل التهم والإدانات، وهناك أيضًا دعوات للتراخي في منح الحماية القانونية، فضلًا عن معايير مزدوجة في التعامل مع العدو، والذُّنوب المُتخيلة التي تُطارد بأساليب غير عادلةٍ؛ وإلى جانب ذلك، هناك اليَأس والإذلال والبؤس؛ وحيوات ضائعة، وأحيانًا مهدورة. وهناك، بعد كل ذلك، الفائزون: إنهم المحاربون المَزهوون، الواثقون حد الثّمالة من مكانتهم بوصفهم نماذج أخلاقية، الذين يسطعون زهوًا بانتصارهم من مجلسهم في القمَّة.

الفصل الحادي والعشرون

تائه في حلم

عندما تَتَعرضُ لُعبةٌ ما إلى تهديدٍ أساسي مدةً من الوقت، فإن حالة التماسك الناجمة عن ذلك تترك تأثيرات تمتد قرونًا. درست ميشيل غلفاند، المختصَّة بعلم النفس، هذه التأثيرات في مستوى العالم، ووجدت أن الأمم التي مرَّت بأحداثٍ جسامٍ من نحو الأوبئة والمجاعة والكوارث الطّبيعية أو الصِّراع تنعم بثقافات أمتن وأكثر تماسًكا، وأعراف اجتماعية أقوى إضافةً إلى معدلٍ أقل من التحمل والتسامح مع الانحراف من الأمم الأكثر تَراخيًا،[536] وبينت أن: «الجماعات التي تتعامل مع كثيرٍ من المخاطر البيئية والتاريخية في حاجةٍ إلى فعل كل ما بوسعها لخلق النظام في مواجهة الفوضى[537]...وكلما كان الخطر أشد، إزداد المجتمعُ المحلي تماسكًا وتراصًا».[538]

يزدادُ معدلُ التشابه في المَلابس التي يرتديها اللاعبون في الثَّقافات الصَّارِمة- التي تشمل الباكستان وألمانيا وماليزيا وسويسرا والهند وسنغافورة والنرويج وتركيا واليابان والصّين- ويزداد أيضًا ميلهم إلى شراء أشياء متشابهةٍ، والتمتع بقدرةٍ فائقة على الضّبط الذّاتي؛ إنهم يُسجلون في الغالب معدلات أوطأ من الجريمة وإدمان الكحول والبَدانة.[539] ومواطنو هذه البُلدان أحرص،[540]

(536) *Rule Makers, Rule Breakers*, MicheleGelfand (Robinson, 2018).Kindle location 817.

(537) *Rule Makers, Rule Breakers*, Kindle location 812.

(538) '*RuleMakers,RuleBreakers*, Kindle location 1379.

(539) *Rule Makers, Rule Breakers*, Kindle location 382.

(540) *RuleMakers,RuleBreakers*,Kindle location 125.

ووسائل النقل العامة فيها أدق في المواعيد. إذ يبلغ مُتوسط دقة القطارات السويسرية 97٪؛ وسجل أربعة عشر قطارًا في سنغافورة تأخرًا في الوصول تجاوز الثَّلاثين دقيقةً في 2014؛ وبلغ مُتوسط التأخر في الشينكانسن، أو شبكة القطارات فائقة السرعة في اليابان، أربع وخمسين ثانيةً. وحتى الوقت في الساعات العامة في الأمم الصّارمة يكون متزامنًا، على الأَرجح.(541)

ويُظهر الأفراد الذّين ينشئون في ثقافات صارمة أيضًا احترامًا وتقديرًا أعلى للتدرج الهَرمي والسلطة.(542) ويُرجحُ أن ينال اللاعبون الصَّارمون المكانة بِسَبب التزامهم بالسلوك الأخلاقي القويم على وجه الخُصُوص،(543) الذّي يبلغ مُستويات هزليةً مُضحكةً في بعض الأحيان. تقدم أحدهم بشكوى ضد كلبٍ نابحٍ في ألمانيا،(544) إذ تنصُّ القواعد على الحفاظ على «الهدوء» في ساعات محددة من الأسبوع؛ فأصدر القاضي في المحكمة أمرًا بالسماح للكَلب بأن ينبح مدة ثلاثين دقيقةً في اليوم موزعة على فواصل زمنية أمَدها عشر دقائق. إنهم أشد عنايةً بالنقاء الأخلاقي؛(545) وأميل إلى إصدار عقوبة الإعدام،(546) وأقل ترحيبًا بغير المُنتمين(547) علاوةً على تفضيلهم للقادة المُهيمنين.(548) ويُبدي اللاعبون الصَّارمون أيضًا ضعفًا أعظم أمام تصديق الأحلام المُنفلتة والمُقدسة لِلَعبتهم. لاحظ تحليلٌ للصرامة في مُقابل التراخي في الولايات الأمريكية «وجود نسبةٍ مرتفعةٍ للغاية من المؤمنين المُتدينين في الولايات الأكثر صَرامةً، شَمَلت قرابة 80٪ من البالغين في ولايات كنساس ومسيسيبي وكارولينا الجنوبية».(549)

---

(541) *Rule Makers, Rule Breakers,* Kindle location 610.

(542) *Rule Makers, Rule Breakers,* Kindle location 1229.

(543) *Rule Makers, Rule Breakers,* Kindle location 1229.

(544) *Rule Makers, Rule Breakers,* Kindle location 592.

(545) *Rule Makers, Rule Breakers,* Kindle location 1229.

(546) *Rule Makers, Rule Breakers,* Kindle location 538.

(547) *Rule Makers, Rule Breakers,* Kindle location 718.

(548) *Rule Makers, Rule Breakers,* Kindle location 784.

(549) *Rule Makers, Rule Breakers,* Kindle location 1224.

وهناك عُمُوميات، بِطَبيعة الحال. فليس صحيحًا، مثلما هو واضحٌ، أن المواطنَ في سنغافورة أو ألمانيا هو أكثر اِنصياعًا واِمتثالًا من نظيرهِ في بريطانيا أو البرازيل. ومما لا شك فيه أيضًا أن التجانس-التنافر ليسا قطبين ثنائيين لأنهما يوجدان على طول طيفٍ ممتدٍ. مع ذلك، لدينا جميعًا فكرة عما يبدو عليه الأمر حينما تغدو اللعبة مُتَجانسةً تجانسًا مزعجًا. إذ يُصبح اللاعبون موطدي العزم ومُكرسين، ويلتحمون ببعضهم بعضًا في حين يشرعُ القَفص الاجتماعي في العمل، وتَتَحد أحلامهُم عن الواقع اتحادًا كاملًا، وفي أثناء ذلك، يَتعاظمُ هَوسهم باللعبة ومعتقداتها المُقدسة. وحينما ينتشر أبناء عُمُومتهم ويَستفحلُ أمرهم، نقول إنهم «مَغسولو الدماغ»، وإن جماعاتهم أضحت شبيهةً بـ «الديانات» أو «الدوائر الاجتماعية».

والدوائر الاجتماعية هي الأكثر تماسكًا من بين جميع أنواع الألعاب. إذ تستمدُ قوتها من تمثيلها المصدر المهم الوَحيد للترابط والمكانة بالنسبة للاعبين. والظَّفر بموقعٍ في الدوائر الاجتماعية يعني التمسك الفاعل بنظامها العقائدي، والالتزام الصَّارم بلعبتها فكرًا وسلوكًا، والسماح لها باستعمار أقاليمَنا العصبية استعمارًا كاملًا. ولِكُل عضو حقيقي في الدائرة الاجتماعية هوية فاعلة واحدة. واللاعبون الذّين ينجذبون إلى هذه الدوائر هم، في العادة، من الذّين فشلوا في مُمارسة ألعاب الحياة التقليدية. تبحثُ أدمغة هؤلاء، بسبب شعورهم بالتغريب، والمَهانة، والحاجة، عن لعبة توفر لهم الشعور باليقين، على ما يبدو، إذ يُمكنهم فيها الفوز بالصِّلات والمكانة باتباع مجموعةٍ من القواعد الدقيقة دقَّةً مُطلقةً.

وهذا صَحيحٌ في حالة الكَثير من أفراد الدائرة للاجتماعية الأمريكية المعروفة، في القسم الأكبر من تاريخ وجودها، بـ «التحول الفردي البشري» أو «بوابة السماء»، التي نَسجت زعيمتها، وني نتلز، ونائبها، مارشال ابلوايت حلمًا غير معقول في اِستحالتهِ للَاعبين المُنتمين إليها الذّين وجدوا أنفسهم ينتقلون إلى «المستوى التالي» من الوجود، أي «المستوى التطوري الأعلى من البشر» بعد

الالتزام الحَرفي والصَّارم بقَواعدها. إذ ستَلتقطهُم، بعد قضائهم مدةً في التدريب، أطباقٌ طائرةٌ مجهولةٌ، وتطير بهم إلى السماء، المكان «الحقيقي الذي يُمكنهم الوصول إليه بصحبة الساعين إليه».

كان نتلز وابلوايت، اللذان عُرِفا بِأسماء عديدة منها تي ودو، وأتباعهم أيضًا، يريان بأنهما التجسيدان الحَرفيان للرَّب ويسوع المَسيح. كانا كيانين مُقدسين ورموزًا حيةً وقادة مُطلقين في لَعبتهم، وكانا يشعران بالغُربة عن الألعاب العادية للحياة، عند لقائهما في 1972. إذ تصدعت أركان الزَّواج الذّي دام ستة عشر عامًا، والمسيرة المهنية أيضًا في حالة ابلوايت بعد اتهامه بإقامة علاقة عاطفية مع طالب ذكر؛ وتتذكر ابنة نتلز أن أمها كانت تُحدق إلى السماء متمنيةً أن يأتي صحنٌ طائرٌ لحملها بعيدًا: «لم نكن نشعر بأننا جزءٌ من هذا العالم. كنا على الدوام في الخارج مُتطلعين إلى شيء ما. كُنا نُريد شيئًا مُختلفًا».(550)

شرعَ نتلز وابلوايت في تدريس أفكار «العصر الجديد»، وباتا مُقتنعين بِأنهما رفيعا المنزلة، وليسا أقل من «الشاهدين» في سِفر الرؤيا اللذّين قال لهم الرّب بأنه سيمنحهما «قوةً غير عاديةٍ»، وإنهما سيتنبآن «لمدة ألف ومائتين وستين يومًا، وهما يرتديان مسوحًا». بدأ نتلز وابلوايت بالتبشير لعقيدتهما بعد تجمع بضعة أَنفارٍ حولهما، العديد منهم يشبهونهما من حيث اِنفصالهم عن ألعاب العالم التقليدي. يتذكر أحدهم شعوره بـ «الغُربة واليأس والنقص والسُخط التام في هذا العالم بصرف النظر عن محاولاتـ[ـه]».(551) يرى تي ودو أن لا واحدة من القواعد التي يعتمدها غيرهم من الأشخاص في اللعب مهمةٌ. ويقول بنجامين زيلر، أستاذ الدين، إن نتلز وابلوايت كانا «يؤمنان أن منزلتهما بوصفهم الشاهدين، وأهمية مهمتهما الرّوحية تسمحان لهما بانتهاك القوانين البشرية».(552) والقواعد

(550) *Heaven's Gate Cult* documentary – History TV, https://www.youtube.com/watch?v=ca2Lh JdlK3U.

(551) *Heaven'sGate:America's UFO Religion*, Benjamin E. Zeller (NYU Press, 2014), p. 53.

(552) *Heaven's Gate: America's UFO Religion*, Benjamin E. Zeller (NYU Press, 2014), p. 33.

الصَّحيحة الوحيدة من وجهة نظرهم هي القواعد التي اختلقاها. كان يَجِب على أتباعهم أن «يقهروا حرفيًا كُل رغبةٍ وحاجةٍ بشريةٍ» لكي يكونوا مؤهلين لبلوغ «المستوى التالي». وهذا التحول سيكون «المهمة الأصعب...إذ عليهم أنْ يتخلوا عن كل شيء، وأنْ يقطعوا أية صلةٍ لهم أو تَعلق بذاك العالم الذّي يعيشون فيه». الانغماس في اللعبة انغماسًا تامًا واستخدام مَعاييرها في المطالبة بالمكانة التي تصل حد إقصاء الآخرين هو المطلوب من اللاعبين. يعني هذا نبذ الهوِيات السابقة المُعرفة لهم بما فيها وظائفهم، وأزواجهم، وأطفالهم ومتعلقاتهم، وحتى أسماؤهم: إذ يُعاد تعميد كل واحدٍ منهم باسمٍ من سَتة حروفٍ ينتهي بـ «ودي– ody».

وفد ثمان وثمانون امرأةً ورجلًا، في 1976، على غابة مدسن بو الوطنية النائية في ولاية وايومنغ كي يعيشوا فيها ويمارسون لعبة تُقدم مسارًا مُطمِئنًا في دقته إلى المكانة الأخروية. لا مجال للتسامح أو التغاضي عن الفشل في الالتزام بالقواعد بالنسبة لنتلز وابلوايت اللذين طردا تسعة عشر من الأتباع في ذلك العام لوحدهِ. وطورت اللعبة، في العقدين التاليين، لُغةً سِرِّيةً خاصَّةً بها؛ فالمجتمع الأصلي هو «الصَّنعة»، وغرف النوم هي «غرف الِاستراحة»، والمطابخ أصبحت «مختبرات تَغذية»، ومغاسل المَلابس أضحت «مختبرات ألياف؛ والحمامات صارت «غرف استحمام»، والجسم بات «أداة نقل»، وحمالة الصّدر غدت «مصيادة»؛ والضّرطة أصبحت «بوفوفوس». سُجِلت هذه القواعد التي تجاوزت المئات في «كُتبٍ إرشادية» تشرحُ للأتباع أنواع السلوك الصَّحيحة التي تقودهم إلى «المستوى التالي»، بدءًا بالبرامج التلفازية التي بوسعهم مشاهدتها، إلى تحديد وقت المكوث في الحمام (ست دقائق)، وكمية معجون الأسنان الذي يُمكن استخدامه (ما يكفي منه لتغطية ربع شُعيرات فرشة الأسنان)، وطريقة حلق الرِّجال لشعرِ وجوههم (إلى الأسفل لا إلى الأعلى)، وطريقة طهي البيض المَخفوق (يجف تمامًا لكن لا يُحمص)، وتحديد الأماكن التي يُمكن إطلاق الرِّيح فيها (يَجِب على التابع أن يكتم الضَّرطة، ويطلقها في الحمام). وكان جدول مواعيدهم مماثلًا في دِقته: فالسابعة

واثنتان وعشرون دقيقة هو موعد تناول الفيتامينات اليومية. والقيل والقال و«الدردشة» محرمتان في عرف تي ودو، والحديث همسًا أيضًا. والمُخالفة المتعمدة لأيٍ من هذه الإرشادات هي «إساءة عظيمة» تعرض اللاعب/ التابع لخطر الطَّرد من الجماعة.

كان يَجِب على لعبة «تحول الفرد البشري» المُتخيلة أن تُسيطر سيطرةً تامةً على الأقليم العصبي للاعب. وتشمل قائمة المُخالفات والإساءات: «المُفاضلة بين الأشياء: حب بعضها وكره بعضها الآخر»، و«الفضول غير المناسب»، و«الأفكار السرية»، و«الثِّقة بالأحكام الشخصية-أو الاستقلال بالتفكير». فإذا شعر اللاعب أن فكرةً خاطئةً بدأت بالتشكل في ذهنه، يَجِب عليه أنْ «يستخدم بطاقةً فارغة» وينقل عقله إلى المكان الصَّحيح فيها. يتذكر، سويودي، العضو السابق في اللعبة: «كان بوسع المرء أن يُحدد نوع الفكرة حتى قبل أن تُصبح فكرةً. قبل ذلك، كان ينصت إلى بداية الفكرة، فيتخلص منها مُباشرةً، ولذا لم تكن الجمل تكتمل فعلًا في دماغه»،[553] وقال أيضًا إن تي ودو علماه بِأنهما «إذا قالا عن خيمةٍ إنها مُنقطة الشكل، فإنك سترغب في تصديق أنَها مُنقطة، حتى لو كنت ترى خلاف ذلك، وستَضطر إلى حشد قواك من أجل أن تراها منقطةً مثلما يقولان». وهناك أيضًا «مهمة المُراقبة»: «زُوِد كُل واحدٍ منا بلوحٍ مشبكي، وكُلفنا بمراقبة زملائنا، فإذا فعلوا أو قالوا شيئًا نرتاب فيه، أو نظن أَن تي ودو يودان إبلاغهما عنه، أو خالفوا قاعدةً ما، كان علينا توثيق ذلك. وكان تي ودو يقرآن ما نُدوِّنه يوميًا». كانا يُعلنان عن المُخالفات في «اجتماعات اِعتراف» مُنتظمة؛ إذ يجلس الأتباع في شكل دائرةٍ، ويعترفون علنًا بـ «مُخالفاتهم»، وعندما يقترح الآخرون عليهم الشيء

(553) *This "Little Book" Provides the "Backside" Evidence Showing How All Jesus' Prophecy Revelations are Fulfilled By Those who were known as: Ti & Do The Father and "Jesus" Heaven's Gate UFO Two Witnesses*... Sawyer (Authorhouse, 2017). 'They all ordered the exact same thing': 'Heaven's Gate 20 Years Later: 10 Things You Didn't Know', Michael Hafford, *Rolling Stone*, 24 March 2017.

الأفضل الذي كان بوسعهم فعله، يَجِب عليهم أن يقولوا لهم «شكرًا». ويُرسل تقريرٌ تحريريٌ بالاعترافات إلى تي ودو.

وكان تَحريمُ العلاقة الجنسية أو التفكير بها هو الأصعب والأشق على النفس بالنسبة لسويودي. ينص الإجراء الصّحيح على أن ينام اللاعبون بوضع أيديهم فوق خواصرهم. وعندما يقع «الانبعاث الليلي» [الاستمناء] في حُلم مُثيرٍ للشهوة، ينص الإجراء الصَّحيح على تنظيف اللاعب لنفسه بواحدةٍ من مناشف اليد المُعدة خصيصًا لهذا الغرض، والتي يجب التخلص منها كي يكون تي ودو على بينةٍ. شعر سويودي بالخجل لأنه كان يَتهرب من فعل ذلك أحيانًا. وعلى الرغم من البراعة التي اكتسبها في التعامل مع الأفكار الجنسية في «البطاقة الفارغة»، والتخلص منها قبل أن تَختمر في ذهنه، تبين في النهاية استحالة هذا الأمر: «عندما تواظب سنوات طويلة على الحفاظ على عزوبية الذِّهن والجسد، ستتحوَّل على الأرجح إلى قُنبلةٍ موقوتةٍ بالغة الحَساسيَة؛ إذ تتسبَّبُ فكرةٌ واحدةٌ فحسب في استثارةٍ فوريةٍ».

تَقدمَ دو بمقترحٍ لحل هذه المشكلة، إذ دعا الرِّجال الأعضاء إلى اجتماع في عام 1987، أخبرهم فيه عن زميلتهم ليففودي، التي عملت في الماضي مُمرضةً مع طبيبٍ جراح كان يُجري عمليات استئصال الخصية. خمنت ليففودي درايتها بطريقة إجراء العملية. لم يأمر دو بإخصاء الرِّجال، بل كان يُجيل النظر في الأمر فحسب. كان سويودي، في هذا الوقت، في صراع مع لاعب آخر هو سرودي، الذّي وصفه على النحو الآتي: «كان جسمه إيرلنديًا، وشَعْره أحمر، وكان سريعًا، مثل الثَّعلب، في كل ما يفعلهُ»، عُرِفَ عن سرودي اِستعداده الدائم وتلهفه لإرضاء تي ودو. يتذكر سويودي: «فكرت بشيء أُزاحم به سرودي، وقررت أن أُظهر لدو رغبتي العميقة بإجراء العملية». وحينما سأل دو خصمي إذا ما كانت لديه أي تحفظات، أجابه: «لا يتطلع أداة نقلي [أي جسمه] لإجراء العملية، لكني أحاول قهره».

لَكن، ثمة مشكلة، إذ عبرَ سرودي أيضًا عن رغبتهِ بإجراء عملية الإِخصاء، ولذا قررا إجراء قرعةٍ برمي القطعة النقدية، فاز فيها سرودي، الشيء الذي أحزن سويودي وجعله يشعر بخيبة الأمل. وضعت لففودي علامةً على باب غرفة العمليات المؤقتة كتبت فيها «المكسيك»، فإذا «وقعت مشكلة ما، كان يُمكننا أن نَقول صادقين بأننا ذهبنا إلى المكسيك لإجراء العملية». اِعتلى سرودي الطَّاولة، ورفعت لففودي عضوهُ الذَّكري، وحلقت شعر كيس الخصية، وحقنته بمخدرٍ محلي الصنع. ثم التقطت مِشرَطًا جراحيًا، وعملت شقًا في الكيس، وفتحته. قال سويودي: «اصطكت ركبتاي بشدةٍ، وكدت أفقد وعيي». هبَّ دو لمساندة سويودي، وقال له: «حسنًا، إذا لم يوحدنا ذلك، فلن يوحدنا شيءٌ». مدت لففودي يديها بمباضعها الجراحية إلى كيس الخصية المفتوح، وعملت بضع فتحات، واستئصلت الخصيتين. لكنها ما أن أتمت خياطة الجرح حتى بدأ جسم سرودي بالتورم: «كان كيس خصية سرودي كبيرًا بحجم كرة قاعدة». أخذه سويودي إلى المستشفى، وأخبر الأطباء هناك أن المريض راهبٌ أجرى العملية في المكسيك. تماثل سرودي للشفاء تماثلًا تامًا وكاملًا، الشيء الذي أشعر سويودي بالغيرة، إذ قال: «شعرت بخيبة الأمل لأني لم أجرِ العملية». غَلِمَ سويودي، في الأشهر التالية، وأشتدت شهوته الجنسية: «كُنت أشعر بالتهيج الجنسي طوال الوقت. كُنت أبلغ هزَّة الجماع من دون أن استمني باليد، وكُنت أبلغها مرةً أخرى بعد بضع دقائق». فاستسلم في النهاية، ووجد نفسه مدمنًا على الاستمناء: «لم أكن أشعر حتى بالرّغبة في التغيير. بدا الأمر وكأنني شخصٌ مختلفٌ». خرج سويودي من الجماعة التي أصبحت تُعرف بـ «بوابة السماء» في أيلول 1994، بعد تسعة عشر عامًا من اللعب المُخلص. وأعد دو العدة لإجراء عمليات إخصاء لسبعة رجالٍ، هو بضمنهم، بعد مغادرة سويودي، هذه المرة على يد جراحين حقيقيَين، في المكسيك الحقيقية.

اجتمعَ دو بأعضاء الدائرة في مستودعٍ في الشهر الذّي غادر فيه سويودي. وقبل

ذلك، توفيت الزّعيمة تي بمرض السرطان في 1985. وشكلت وفاتها تحديًا خطيرًا للحُلم الذي نَسجه الزَّعيمان لأتباعهم في عيش حياتهم والاشتراك في اللعب: إذ كان يُفترض بتي ودو أن يرافقا أتباعهم، شخصيا وجسديا، إلى داخل الصّحون الطَّائرة التي ستقلهم إلى المستوى التالي. إلا أن وفاة تي اضطرت دو إلى مراجعة تفاصيل القصة. قرر دو بأنه من الممكن بالفعل الارتقاء إلى مستوى أعلى من البشري عند الخُروج من الجسد؛ أي بعد الوفاة. وتبعًا لذلك، كان لدى دو سؤال لهم: «ماذا لو تعين علينا أن نخرج من أجسادنا بإرادتنا؟ هل منْ مشكلة في ذلك؟»

واحدٌ أو اِثنان منهم فحسب أقدما على ذلك، تلاهم انتحار التسعة وثلاثين عضوًا المُتبقين، بما فيهم دو، في 1997، ببلع جرعةٍ من المهدئات والفودكا الممزوجة بـ حلوى البودنغ؛ ثُّم ربطوا حقائب فوق رؤوسهم. انتحر الأعضاء في ثلاث دفعات، بموجب تعليمات تلتزم بها كل دفعة التزامًا دقيقًا، منها التزامهم بارتداء ملابس مُتماثلة هي قمصان رمادية اللون وسراويل رياضية، وأحذية علامة نايك ديكيدز بيضاء وسوداء. وحملوا على أكتافهم شارات كُتب عليها «فريقُ بوابة السماء المبتعد». حظي خبر الانتحار الجماعي بتغطيةٍ إخبارية دولية، وتوافد الصَّحفيون على المنطقة في محاولةٍ منهم لجمع معلومات عن الأيام الأخيرة للمُنتحرين. عَرَفَ الصَّحفيون، مثلًا، تناولهم آخر عشاء في مطعم ماري غالندر في مدينة كارلسباد في الأسبوع الذّي سبق مغادرتهم إلى المستوى التالي، وأخبرهم أحد النُدُل المُتعجبين أن المُنتحرين: «طلبوا كُلهم الطَّعام ذاته».

لا يُمكن للسرد التقليدي عن الحياة البشرية أن يُفسر ما فعله أعضاء «بوابة السماء». وعند مطالبتنا بفعل ذلك، فإننا سنصل إلى شيء مضحك أخلاقي. لقد تعرض أعضاء هذه الدائرة إلى «غسيل دماغ»، ووقعوا في قبضة عقول موجّهة شريرةٍ غايتها الوحيدة من تأسيسها هو الجنس أو المال. ليس هناك شكٌ في لجوء الدوائر الاجتماعية إلى وسائل عدوانية عند إهانة الأعضاء لمعتقداتها المُقدسة إما

بعدم إظهار القدر الكَافي من الِامتثال وإما السعي للمغادرة.، وأن بعضَ الزُّعماء مدفوعون في جزء من أفعالهم وسلوكهم بالجنس أو المال. لكن لا يمكن أن يُكتب البقاء والاستمرار لأي دائرة اجتماعية ما لم تُقدم إلى اللاعبين الأعضاء فيها شيئًا مهمًا. وأعضاء «بوابة السماء» لم ينتموا إليها لأن أدمغتهم قد غُسِلت؛ بل لأن أدمغتهم فعلت ما ترغب الأدمغة في فعله في العادة.

إننا نبحثُ عن رموزٍ وقواعد نستعين بها في ممارسة لعبة المكانة. وحال عثورنا على لعبة مكانة مناسبةٍ وصحيحة في ظاهرها، نضعف ونُقبل على تبني قصتها مهما كانت مجنونةً وهائجةً. وهذا صحيحٌ في حالة صيادي الشياطين، والأمَّهات المُناهضات للتلقيح، وزارعي أشجار اليَام من جماعة بوهنبي، وتنظيم الدولة الإسلامية، والحشود الإلكترونية وأتباع الأديان في العالم. قال أحد أعضاء بوابة السماء، الذّي دامت عضويته فيها ثلاثة عشر عامًا، للباحِثين: «كُنا محميين. لم نكن نُحب قواعد العالم، ولذا، اخترعنا قواعد خاصة بنا. كانت مدينة فاضلة». تُريد الأدمغة أن تعرف: من يَجِب أن أكون لأحظى بالصّلات والمكانة؟ نسجَ تي ودو حلمًا خياليا يُقدم تعليمات دقيقة تُعلم الأعضاء كيف يكتسبون الصِّفات المطلوبة. وهذا بالضبط ما كانوا يفعلونهُ. أحمد

هناك حاجة ضئيلة لأبناء العُمُومة الخارجيين لضبط الامتثال ومراقبته: فأبناء العُمُومة كانوا في داخلهم. في مذكراته اليومية، استعان سويودي بالكتابة بالحروف الكبيرة لتوضيح هذه النقطة: «كُنت أرغب في الانتماء إلى برنامج تي ودو، والالتزام بجميع قواعدهم أيضًا. [وعدم الامتثال] سيكون موازيًا للرغبة في أن تُصبح رائد فضاء في وكالة ناسا مع أنك ترتأي انتفاء الحاجة إلى الالتزام بهذا الإجراء أو ذاك». أظهرَ اللاعبون درجةً عاليةً من الحماس حتى أنَهم طالبوا شخصيًا بعقد «اجتماعات الاعتراف بالمخالفات». وعن ذلك، كتب أحد الأعضاء: «اعتدنا أن نمزح في الصف قائلين بأننا دائرة الدوائر. لم نكن هنا لكي نُبرمج أو تُغسل أدمغتنا. كُنا هنا كي نتوسل إليهم أن يغسلوا أدمغتنا». انتحر

الأعضاء التسع والثَّلاثون بمحض إرادتهم. وذكر عالما الاجتماع، روبرت بالج وديفيد تايلر أن وفاتهم كانت «نتيجةً لقرار متعمدٍ غير مدفوعٍ بتهديدٍ خارجي، وغير مُنفذٍ قسريا. ذهب الأعضاء إلى حتفهم طوعيًا، وحتى بحماسٍ لأن الانتحار مفهوم ومنطقي لهم في سياق نظام معتقداتهم».(554) لم يكن موتًا، كان انتصارًا وادعاءً مَهيبًا بالمكانة التي حصلوا عليها بعد بلوغهم منزلةً تفوق المستوى البشري.

بعد شهرين من الإنتحار لحق بهم عضوٌ سابقٌ هو غبودي، كان يُشعر بالندم، بعد مغادرته المجموعة، لأنه لم يرافقهم في رحلتهم إلى المستوى التالي. كتب غبودي قبل ذلك، في 1995، بعد مدةٍ قصيرةٍ من خروجه من الدائرة، برقةٍ وحنانٍ عن الوقت الذّي قضاه مع بوابة السماء: «كانوا أُسرتي، أكثر من أي شيء آخر. كُنت أحبهم حبًا جمًا. كُنا جماعة مُتراصةً متماسكةً».(555)

(554) 'Making Sense of the Heaven's Gate Suicides', R. Balch and D. Taylor, in *Cults, Religion, and Violence* edited by D. Bromley and J. Melton (Cambridge University Press, 2002), pp. 209–228.

(555) *Heaven's Gate: America's UFO Religion*, Benjamin Zeller (NYU Press, 2014), p. 55.

الفصل الثّاني والعشرون

مكائن إنتاج المكانة

الجماعاتُ الناجحة ماكينات لإنتاج المكانة، فهي تزدهر عندما تَصنع المكانة وتَمنحها إلى لَاعبيها، وإلى اللعبة ذاتها أيضًا. وهذا صحيحٌ في أوقات الحرب والسلم، وفي مواقف التماسك والتراخي؛ وهو صحيحٌ كذلك في الألعاب السياسية، والدوائر الاجتماعية، وفي العصابات، وحركات حُمى الذّهب، والشركات المُساهِمة، والأَديان، والفرق الرِّياضية، ومحاكم التفتيش، والحُشود الغوغائية، وفي أية لعبة قد تخطر على بالك. وحسبما علِمنا، فالناس بحاجةٍ إلى المكانة: إنهم يتجهون بِأنظارهم إلى اللعبة للفوز بها. بِوسع المرأة أو الرّجل من ذوي المكانة والرِّفعة أن يَظهروا، بالتأكيد، بِمظهر الأقوياء عندما تُحييهم الحُشود، وتَهتف لهم تحت الأضواء الكاشفة الباهِرة، وتَتداول وسائل الإعلام العالمية أخبارهم، وتُبدي جَحافلُ المُساعدين الاحتِرام لهم. إلا أن هذا المظهر خادع؛ فالأتباع والخاضعون هم من بأيديهم زِمام الأمور في نِهاية المَطاف.

يَستأجرُ القادة عُروشهم من هؤلاء الأتباع. فإذا أرادوا الاطمِئنان إلى موقعهم الرّسمي في القمَّة، ورغِبوا في البقاء مرتاحين في مَناصبهم الرفيعة، يَجِب عليهم أنْ يفوزوا بمكانةٍ حقيقيةٍ في عقول اللاعبين التابعين لهم. وهذا يعني النجاح في مُهمَّة صُنع المكانة لِلجَماعة، وتَوزيعها نزولًا في التدرُّج الهرمي بِطَريقةٍ تلتزم التزامًا عامًا بالقَواعد. قد تتخذ المكانة شكل الألقاب أو المال أو الأوسمة والنياشين أو معرفة سِرّية أو سُلم إلى السماء أو مستوى فوق البشر، أو التقدير اليَسير فحسب. وحتى الطُّغاة لديهم لاعبون يحرصون على اِستِرضائهم، لَيس أقلهم نُخبهم العَسكرية

التي يَجِب عليهم مجازاتها إذا ما أرادوا لِحُكمهم المهيمن البقاء والاستمرار. يَتعذَّر على أية لعبة- وحتى الدائرة الاِجتماعية- البقاء عندما يَشعُر جميع اللاعبين، عدا واحدًا، باليأس وعَدم الجدوى.

يَعرف الاِستراتيجي الأُسطورة، نيكولاي ميكافيلي، هذا الأمر حقّ المَعرفة. ولِذا، يَقُول ناصحًا إن الأمير الناجح عليه أن «يُظهر تقديرهُ للموهبة، ويُشجع تشجيعًا فاعلًا المُقتدِرين، ويُكرم المُتفوقين في عَملهم». ومن الطبيعي أن يشمل هذا السخاء والكَرم أي لَاعبٍ ينتمي إلى طَبقة النُخبة المُحيطة بالأمير. يَجِب على الأَمير أن «يراعي وجود هذا اللاعب ويَستجيب له، ويَحترمه، ويجزل العطاء له، ويُشعِره بالاِمتنان لما يفعله، ويُشاركه المكافآت والمسؤوليات. وبذا، سيُدرك [هذا اللاعب] مدى اتكاله على الأمير». ونَصح ميكافيلي القادةَ، بِحنكةٍ ودهاء، بتغذية الاعتقاد بأنَه لا سبيل إلى الظّفر بجوائز من هذا النوع إلا تَحت إِدارتهم. إذ يَقُول: «يَجِب على الأمير الحَكيم أن يُهيأ الظَّروف التي يكون فيها رعاياه دائمًا، وفي الأحوال كافة، معتمدين عليه وعلى سُلطَته؛ ومن ثُّم سيكونون على الدوام مُخلصين له». لوحظ بعد ذلك بِقرونٍ أن بعضًا من أفكار ميكافيلي صحيحةٌ. إذ توصل أحد التحليلات إلى نتيجةٍ مؤداها أن المنظَّمات الناجحة «تعمل على منع الموظَّفين الأمهر لديها من المغادرة بِمنحهم المكانة الرَّفيعة».[556] يتماهى العَاملون تماهيًا أقوى مع جماعتهم، ويتعزز إخلاصهم لها، وتتعمق نظرتهم الإيجابية عنها عندما يُكافئون بالمكانة. تتحدث عالمة الاجتماع، سيسليا رجوي، عن وجود «أدلةٍ دامغةٍ»[557] على أن التدرجات الهرمية للمكانة تعمل بهذه الطّريقة، أي أنها تمنح التقدير والتأثير «في مقابل القيمة المَتخيلة التي يسبغها المُتلقي على جهود الجماعة التي ينتمي إليها». إننا نُكافئ اللاعبين الذّين يُسهمون في تحقيق الفوز لألعابنا، إذ

(556) 'Is the Desire for Status a Fundamental Human Motive? A Review of the Empirical Literature', C. Anderson, J. A. D. Hildreth, L. Howland, *Psychological Bulletin,* 16 March 2015.
(557) *Status,* Cecilia L. Ridgeway (Russell Sage Foundation, 2019), p. 13.

نَرفع منزلتهم. وإذا برهنوا على أنهم نافعون لنا نفعًا مُقنعًا وكافيًا، فإننا ربما حتى نسمح لهم بقيادتنا مدةً من الوقت.

يَسردُ القادة الناجحون القِصَّة المُغرية نفسها التي يتعذر مُقاومتها، وفحواها: إننا نستحقُ مكانةً أرفع، وسنحصل عليها بتوجيه مني. روى دونالد ترامب، الرَّئيس الخامس والأربعين للولايات المُتحدة الأمريكية هذه القصَّة بعدما وَعَدَ بأن «يجعل أمريكا عظيمةً ثانيةً»؛ وهو الشيء ذاته الذّي فعلهُ سلفهُ باراك أوباما الذي سعى إلى تجسيد «الأمل». وفي حين استغلت جماعة تنظيم الدولة الإسلامية الإرهابية ماكينة وسائل التواصل الاجتماعي الرَّهيبة لإخافة الأعداء وبث الهَلع في نفوسهم، نسج أفرادها لأنفسهم قصَّةً خياليةً مختلفةً تمامًا. لحظ أحد التحليلات لمجلة دابق الفاخرة التابعة للتنظيم أن 5٪ فقط من الصُّور فيها تتخذ من العنف مضمونًا لها؛ أما الأكثر شيوعًا فيها فكانت صور المُستقبل المجيد في «الخلافة المثالية».(558) وقد تكون قصص النهايات السعيدة أكثر فتنةً وإغراءً عند تعرضها إلى تهديدات المُنافسين في طول الطَّريق إلى خاتمتها. فحينما تشعرُ الألعاب أن أعداءها يعرضون مكانتها للخطر، تتعزز احتمالات اشتراك اللاعبين في المعركة دعمًا لها، ومساندة قادتها الذّين يُظهرون حماسةً للقتال. فَطنَ الباحثون إلى أن الغضب المبني على التنافس، عندما يكون مصحوبًا بالحماس المُتفائل بالفوز، يحظى، على الأغلب، بقدرةٍ خاصةٍ على تحفيز اللاعبين.(559) وكتبت ليليانا ماسن، المختصة بعلم النفس السياسي، في دراسةٍ لها، أن «الناس يرغبون في القفز إلى الحَلبة، والمباشرة بالعمل بهمةٍ وحماسٍ»،(560) عندما يطلعون على رسالةٍ سياسيةٍ تجعلهم يستشيطون غضبًا أو اندفاعًا، «كانوا يريدون أن يشتركوا». ويؤدي التهديد الذّي هو الألعاب المُنافسة دورًا في تحفيز اللاعبين عن طريق زيادة حدة مَنسوب السرد المُتحيز المَسموم والخبيث: «وما لم تتَعرض الجماعة إلى تهديدٍ، فإن

---

(558) *The Reputation Game*, David Waller (Oneworld, 2017). Kindle location 2058.

(559) *Uncivil Agreement*, Lilliana Mason (University of Chicago Press, 2018), p. 122.

(560) المصدر نفسه، ص 123.

أفرادها لن ينتقصوا، على الأرجح، من مَنزلة الجماعات الأخرى، ولن يكون لديهم الدافع الكافي لِتَحسين مكانة الجماعة».[561] وسواء كُنت تمقته أو تزدريه، كان هتلر أحد أنجح القَادة في التاريخ الحديث لمدةٍ من الوقت. وحسبما كتب المؤرخ، أيان كيرشو، «قلة من القادة السياسيين، هذا إذا كانوا مَوجودين في الأصل، حازوا شعبيةٍ تفوق ما حازه هتلر من شعبيةٍ في أوساط شَعبه في السنوات العشر أو ما يقاربها بعد تَقلده السلطة في ألمانيا».[562] شعر كثيرٌ بالذُّهول، منذ نِهاية الحرب العالمية الثَّانية، من الشراسة التي نهضت بها قِوى الشر واللاعقلانية في بلدٍ متطورٍ مثل ألمانيا. فهذا الشيء يتعارضُ، مرّةً أخرى، مع أفكارنا الأساسية عن الطَّبيعة البشرية. كيف يُمكن لشعبٍ مثقفٍ وبارعٍ مثل الشعب الألماني أن يختار شخصًا عنيفًا مُعاديًا للسامية زعيمًا له؟ ثم الهُتاف له بهستيرية، في ساحات مُكتظةٍ بالآلاف كما لو أنه كان إلهًا؟ مع ذلك، يغدو بروز النازيين قابلًا للتفسير إذا ما نظرنا له من منظور لعبة المكانة.

وقد وَضعتنا رِحلاتنا الغَريبة سَلفًا بصحبة ثلاثة من مُرتكبي المَجازر: اليوت روجر وإد كمبر وتيد كازينسكي. جميعهم كانوا مَغرورين وواثقين من استحقاقهم بأن يُعاملوا بوصفهم من ذوي المَنزلة المَرموقة، ومع ذلك، لم تكن حياتهم تخلو من تجارب الإذلال المُزمنة والخَطرة. والإذلال، مثلما عَلِمنا، هو الِامتهان النفسي النهائي: «إنه القُنبلة النووية للانفعالات» التي من المحتمل أن تؤدي إلى «إبادة النفس»، وحالات كآبة عميقة، وميول انتِحارية وذِهان نفسي وغضبٍ شديدٍ وقلقٍ حادٍ أيضًا. ويُعتقد أيضًا أنه من القوى الدافعة للقَتلة في جرائم الشرف الذّين يَسعون سعيًا مماثلًا لِاستعادة منزلتهم المهدورة بوسائل عنيفةٍ. وهذا بالضبط ما نرصده في ألمانيا في مرحلة ما قبل الحرب: إنه الإذلالُ الأعظمُ الواقع في مستوى الأمَّة.

---

(561) المصدر نفسه، ص 124.

(562) *The Hitler Myth*, Ian Kershaw (Oxford University Press, 2001), p. 1.

كان المجتمع الألماني الأثرى والأرقى بين المجتمعات الأوروبية قبل الحرب العالمية الأولى.(563) إنه البلد الذي «بلغ فيه المشروع الرَّأسمالي مقياسًا ودرجةً من التنظيم غير مسبوقةٍ»، حسبما يقول المؤرخ ريتشارد إيفانز. إذ كان ينتج ثلثي كمية الفولاذ في أوروبا القارية،(564) ونصف كمية الفحم، وتجاوز إنتاجه من الطَّاقة الكهربائية بِمعدل (20٪) إنتاج إيطاليا وفرنسا وبريطانيا مجتمعةً. والكثيرُ من قطاعاتها الصناعية-مثل صناعة الكيماويات والأدوية والطَّاقة الكهربائية- كانت من أقطاب العالم الصناعي، إذ تضم قائمة الشركات المُساهمة فيه كلًّا من شركة سيمنز وشركة إنتاج الكهرباء، وشركة إنتاج المواد الكيمائية، وشركة هوكست، لعُلُوم الحياة وصِناعة الأدوية، ومجموعة كروب لإنتاج الصّلب والذّخائر والأسلحة، وشركة تيسسين لإنتاج الصُّلب، المعروفة جميعها بجودة مُنتجاتها التي لا يُدانيها الشك. ويَصدقُ الحال نفسه في قطاع الزِّراعة الذي حقق العاملون فيه نجاحًا باهرًا في عملهم؛ إذ كانت ألمانيا تستأثر بإنتاج ثلثِ محصول البطاطا في العالم. وتحسنت مستويات المعيشة تحسنًا مُذهلًا منذ بداية القرن. وساد افتراض مع بداية الحرب يتحدث عن تحقيق ألمانيا المتفوقة لانتصارٍ سريعٍ؛ افتراضٌ عززته الانتصارات الساحقة في الجبهة الشرقية، والاستيلاء الخاطف على بولندا. وحتى مع إعلان ألمانيا الصَّادم والمُفاجئ عن هزيمتها، ساد التوقع بـأن بنود السلام، في اِتفاقية فرساي، ستكون متوازنة توازنًا عادلًا.

لكنها لم تكن كذلك. قال إيفانز: «لم يكن أحدٌ مستعدًا لبنود السلام التي أُجبرت ألمانيا على الموافقة عليها».(565) بل إنها أُرغِمت على أن تَتَحمَّل «بمفردها ذنب» شن الصِّراع، والمسؤولية عن العَوَاقب التي أسفرت عنه.(566) وهذا يعني التنازل عن مساحات شاسعةٍ من الأراضي في أوروبا، والتخلي عن مستعمراتها في

(563) *The Coming of the Third Reich*, Richard Evans (Penguin, 2004). Kindle location 289.

(564) *The Coming of the Third Reich*, Kindle location 790.

(565) *The Coming of the Third Reich*, Kindle location 1491.

(566) *The Coming of the Third Reich*, Kindle location 1535.

المناطق الأخرى، وتسليم كميات هائلة من المُعدات العَسكرية، بضمنها جميع الغواصات البحرية؛ وتدمير ست ملايين بندقية، وأكثر من خمس عشرة ألف طائرة ومائة وثلاثين ألفًا من البنادق الآلية؛ والالتزام بقيودٍ صارمةٍ على النشاط العَسكري في المُستقبل، منها الاكتفاء بحيازة ست بوارج حربية فقط، والتخلي نهائيًا عن القوة الجوية؛ ودفع ما يوازي حاليًا الثلاثمائة مليار جنيه إسترليني بِصفة تَعويضات نقدية إضافةً إلى كميات وفيرة من أنواع الغنائم الأخرى منها أربعة وعشرون مليون طن من الفحم. وكان من المفترض أن يستمر هذا الحِصار الاقتصادي المُدمر على ألمانيا التي «طغى فيها شعورٌ عامٌ نسبيًا بأن هذه الشُرُوط هي إهانة وطنية غير مبررةٍ».[567]

ولم يَقف الأمرُ عند هذا الحد. فعلاوةً على دفع تكاليف الحرب إلى الأطراف الأخرى، تعين على الألمان أن يدفعوا للتعويض عن التَكاليف التي تكبدوها. كانت الحكومةُ الألمانية تتوقع أن تتدفق عليها التعويضات والثَّروات من المناطق الصِّناعية المُلحقة حديثًا بها بدلًا من تَدفقها نحو الخارج، وكانت مَاضية في طبع النقود وإنفاقها بناءً على ذلك.[568] وأدت الهَزيمة إلى دخول البلاد مرحلة تضخمٍ جامحٍ كابوسية إلى حد يبعث على السخرية والضِّحك. إذ ارتفعت الأَسعار بسرعةٍ جنونيةٍ اضطر معها أصحاب المَتاجر إلى تدوينها على سَبورات؛ وأوردت إحدى الصُّحف خبرًا عن ارتفاع سعر جهاز الحَاكي (الغراموفون) من خمسة ملايين مارك في العاشرة صباحًا إلى اثني عشر مليون مارك بعد خمس ساعات.[569] وربما يكلف كوب قهوةٍ خمسة آلاف مارك عند الطَّلب وثمانية آلاف عند الانتهاء من شربه.[570] كان الدولار الأمريكي يساوي ألف مارك في آب 1922، لكنه قفز إلى رقم فلكي هو (4200000000000) في كانون الأول في

(567) *The Coming of the Third Reich*, Kindle locations 1491, 1560.
(568) *The Coming of the Third Reich*, Kindle location 2211.
(569) *The Coming of the Third Reich*, Kindle location 2263.
(570) *The Coming of the Third Reich*, Kindle location 2290.

1923.[571] كان العُمّالُ يجمعون الأجور في عربات اليد. وتَراكمت الإهانات على الألمان، فعندما تخلفت بِلادهم عن سَداد التعويضات من الذَّهب والفحم، احتل الفرنسيون والبلجيكيون أهم مناطقها الصِّناعية، الروهر، للحصول على مُستحقاتهم.[572]

يقول إيفانز: «كيف حدث كل هذا؟ كان الإِحساس بالغَضب وعدم القدرة على التصديق، الذّي اجتاح الطَّبقتين العُليا والوسطى الألمانية مثل موجة صدمةٍ، عامًا وشاملًا. أُزيحت ألمانيا بقسوةٍ ووحشيةٍ عن مواقع القوى العُظمى، وجُللت بها يَعدونه عارًا غير مستحقٍ».[573] وأضاف: «كانت ألمانيا متفوقة، والألمان يعرفون ذلك. إذ نظروا إلى التسلسُل الهرمي المُحطم، ونَسَجوا حوله قصةً تخدم مصلحتهم تقول إن هزيمتهم كانت من صنع قوى مُتنفذة وشِريرة. وشرع القادة العسكريون، بِمساندة الكَثير غيرهم، بادعاء أنهم كانوا ضحية لحملةٍ سِرية مُعدة مُسبقًا وغوغائية شنها مُنحرفون».[574] لقد كان زمن القيل والقال وتوجيه الاتِهامات والغَضب الذّي يعتملُ في النفوس. تماسكت والتحمت أجزاء الثَّقافة الوطنية بفعل الحرب العالمية الأولى، ولم تضعف أو تتراخى قط على الرّغم من المَخاطر التي واجهتها والعار الذّي لحق بها. بقيت ألمانيا «في حالة حربٍ دائمةٍ؛ مع نفسها ومع بقية أرجاء العالم لأن صدمة معاهدة فرساي أسهمت عمليًا في توحيد كل أجزاء الطَّيف السياسي في إصرار راسخٍ على التخلص من بنودها الأساسية، واستِعادة المَناطق التي خسرتها، والكف عن دفع التعويضات، والنهوض ثانيةً بألمانيا بوصفها القُوَّة المُهيمنة في أوروبا الوسطى».[575]

وما أنْ وضِع التضخم الجَامح تحت السيطرة حتى عصف الكسادُ العظيمُ

---

(571) *The Coming of the Third Reich,* Kindle location 2247.
(572) *The Coming of the Third Reich,* Kindle location 2211.
(573) *The Coming of the Third Reich,* Kindle location 1568.
(574) *The Coming of the Third Reich,* Kindle location 1491.
(575) *The Coming of the Third Reich,* Kindle location 1679.

بالعالم، وأفادت الأنباء في 1932 أنَ ثلاثة عشر مليون شخصٍ كانوا في أُسرٍ عاطلةٍ عن العمل.[576] خيبة الأمل بالنظام الرَّأسمالي أضحت الآن تدفع الناس بعددٍ أكبر نحو الشيوعيين الذّين صاروا، منذ ثورتهم في روسيا، خطرًا مُقلقًا وحقيقيا لا سيما للصناعيين وأبناء الطّبقة الوسطى الذّين شاهدوا نظراءهم في الشرق يَتعرضون إلى السرقة والتعذيب والقتل والإِختِفاء. كان زمنًا شاعت فيه معاداة السامية شيوعًا نسبيًا في أوروبا. قبِلَ كثيرٌ من الألمان، في أثناء مطاردتهم للمُسيئين، وهمًا مؤاتيًا يقول إن اليهود هم الطرف المسؤول عن الكَساد والخطر الشيوعي والخسارة غير العادلة في الحرب العالمية الأولى وما صاحبها من أنواع الإذلال.

وكان يوجد، في ذلك الوقت، قرابة الستمائة ألفٍ من اليهود المُلتزمين في الإِمبراطورية الألمانية،[577] وجُلهم عمومًا من مرموقي المنزلة الطامحين إلى المَراتب العليا والناجحين اقتصاديا وثقافيا، والمُنتمين إلى أُسرٍ معروفةٍ في قطاعي المال والتجارة، وأسماء لامعةٍ في الألعاب النخبوية في مجالات الفنون والطّب والعُلُوم والصّحافة.[578] واختلطت أفكار علمية جديدة عن الوراثة مع مشاعر الاستياء والغضب الجياشة، والقصة التي تتحدث عن وقوع ألمانيا ضحيةً «لمؤامرة يهودية–بلشفية»،[579] وشاعت نَظريات تتحدث عن إمكانية استئصال بعض الخصائص غير المرغوب بها من المَجمع الجيني الوطني من أجل النهوض بألمانيا.[580] وعلاوةً على ذلك، حظيت البلاد بمكانةٍ مرموقةٍ لدورها في الكشف عن مُسببات الأمراض من مثل الكوليرا والسل الرّئوي، الشيء الذّي أنعش الاهتمام بمسائل الصّحة. وتضافرت هذه التصورات والأفكار، وتَحولت إلى هوسٍ خطرٍ بـ «الصِّحة العرقية» لألمانيا كُلها لا للاعبين في أقصى اليمين فحسب.

---

(576) *The Coming of the Third Reich,* Kindle location 4561.

(577) *The Coming of the Third Reich,* Kindle location 833.

(578) *The Coming of the Third Reich,* Kindle locations 822, 847.

(579) *The Coming of the Third Reich,* Kindle location 3129.

(580) *The Coming of the Third Reich,* Kindle locations 1099, 1113, 1127.

ومع أن كثيرًا من الألمان ألقوا باللائمة على اليهود في الإذلال الذّي عانوه، إلا أن عددًا قليلًا نسبيًا منهم أقروا اتخاذ إجراءات وحشية بحقهم.[581] إذ أظهروا اهتمامًا أكبر برحلتهم المَجيدة صوب النظام والوحدة الوطنية واستِعادة المكانة. يقول إيفانز: «كان التأكيد على التضامن الاجتماعي- أي فكرة المجتمع العرقي العضوي لجميع الألمانيين-الذّي تبعه بعد مدةٍ من الوقت القومية المتطرفة وعبادة هتلر، هو الجانب الأهم في الأيديولوجية النازية بين الناشطين العاديين في الحزب في عشرينيات القرن العَشرين ومطلع ثلاثينياته. وخلافًا للتَضامن الاجتماعي، اقتصرت أهمية مناهضة السامية على أقليةٍ محدودةٍ، وكان الأمر عَرَضيًا لنسبةٍ لا بأس بها من هؤلاء».[582] ابتعد هتلر، الذي أدرك هذا الجانب، قليلًا عن مُناهضة السامية في العلن مع أنه دأب، قبل العام 1922،[583] في مُهاجمة اليهود؛ ولم يتطرق إلى «المسألة اليهودية» بعد ذلك، إلا نادرًا في خُطبه، لا سيما في الجزء الأكبر من ثلاثينيات القرن العشرين.[584] كانت النظرة العامة إلى حوادث العُنف المناهض للسامية بأنها نوبات مُستعرة مُحزنة ومفهومة في آنٍ معًا للحماس المُفرط الذّي تبديه جماعات هامشية عنيفة، ولم يكن هتلر راضيًا عنها.[585]

الأعمق تأثيرًا من الكراهية العرقية هو الوعدُ بالمكانة في المستقبل. قدم حزب هتلر نفسه بوصفهِ حزبًا شابًا ومتطلعًا إلى الأمام وحائزًا حيازةً تامةً على عناصر القوّة والتنظيم والحماس الضَّرورية لاستِعادة مكانة ألمانيا المُستحقة.[586] نسجَ هتلر حلمًا خياليا وجده ملايين من المُصوِّتين المُتوقعين مُغريًا وجذابًا: إنه حُلم انتمائهم إلى العرق الآري الأصلي الراقي، «إنه بروميثيوس البشرية، الذي تنطلق

(581) *The Hitler Myth*, Ian Kershaw (Oxford University Press, 2001), p. 235.
(582) *The Coming of the Third Reich*, Richard Evans (Penguin, 2004). Kindle location 4239.
(583) *The Hitler Myth*, Ian Kershaw (Oxford University Press, 2001), p. 230.
(584) *The Hitler Myth*, pp. 231–241.
(585) *The Hitler Myth*, p. 234.
(586) *Marketing the Third Reich*, Nicholas O'Shaughnessy (Routledge, 2017), pp. 71–72.
لاحظ المؤلف أن قرابة الأربعين بالمائة من أعضاء الحزب النازي كانوا تحت الثّلاثين بحلول العام 1931.

من جبهته الوضاءة الشرارة المُقدسة للعبقرية في جميع الأزمان».[587] تقول القصة التي كان هتلر يسردها عن لعبة المكانة إن العَرق هو المهم، لا الطَّبقة: «ليست هناك أشياء من نحو الطَّبقات، ولا يمكن لها أن تكون. الطّبقة تعني الطّائفة والطَّائفة تعني العرق».[588] وأضاف هتلر أن الألمان كانوا على الدوام ضحايا «للسَفالة والخِسة الأعظم في القرن العشرين»، وصرح عند سماعهِ بخبر الهزيمة في الحرب: «أسود كل شيء أمامي»،[589] وأجهَش بالبكاء. لكن مرحلة المَهانة والهَوان هذ ستنتهي حال توحدهم بوصفهم شعبًا، إذ إنهم، سيرتقون، تحت قيادته، إلى منازل أعلى في شكل مَملكة آرية عظيمة عمرها ألف عامٍ، هي الرَّايخ الثَّالث.

وعن ذلك، قال مؤيدٌ للحزب في الثَّامنة عشرة من عمره في 1929: «وأخيرًا، هناك مقترحٌ عملي لضخ الدماء في الناس. حطم الأحزاب! أقضي على الطَّبقات! مجتمع قومي حقيقي! هذه هي الغايات التي أُكرس لها نفسي بلا ترددٍ».[590] فاز حزب هتلر في الاِنتخابات، وإنْ بأقل من 50٪ من عدد المُصوِّتين في الخامس من آذار، 1933. أسرع النازيون في فرض قواعد لَعبتهم ورموزها على الأمَّة بعامة. وصرح وزير الدعاية، جوزيف غوبلز، أن على ألمانيا أن «تُفكر وترد بوصفها كُتلةً واحدة، وأن تضع نفسها في خدمة الحكومة بكل إخلاصٍ».[591] واُعتمد قانون الممارسات الهَدامة في الحادي والعشرين من آذار، الذي يفرض على كل ألماني «قومي التوجه» أن يُبلغ السلطات عن أي شخصٍ «مسؤولٍ عن إهانة حكومة الرَّايخ أو أي انتقاصٍ من الثَّورة القومية».[592]

أبلغ غوبلز المُذيعين، بعد ثلاثة أسابيع فقط من الانتخابات، أن الرّافضين

---

(587) '*Selling Hitler*, Nicholas O'Shaughnessy (C. Hurst & Co, 2016), p. 160.
(588) Speech, April 1921,
https://web.viu.ca/davies/H479B.Imperialism.Nationalism/Hitler.speech. April1921.htm.
(589) *The Coming of the Third Reich*, Richard Evans (Penguin, 2004). Kindle location 3333.
(590) *The Coming of the Third Reich*, Richard Evans (Penguin, 2004). Kindle location 4354.
(591) *The Coming of the Third Reich*, Richard Evans (Penguin, 2004). Kindle location 7315.
(592) *The Hitler Myth*, Ian Kershaw (Oxford University Press, 2001), p. 56.

للامتثال «سيُطردون» من وظائفهم؛[593] وإنهم سيُطهِرون بأنفسهم العناصر غير المرغوب بها في كوادرهم، أو يُكلِفون آخرين بفعل ذلك. وتواصل مُسلسل الإطاحة بالأعداء الأيديولوجيين واليهود من مواقعهم المرموقة: إذ طردت السلطات أساتذة جامعات، وفنانين وكُتابًا وصحفيين وعلماء بسبب نمط تفكيرهم غير الصَّحيح!،[594] كان من بينهم عشرون من الحَاصلين على جائزة نوبل أو الذّين يتوقع حصولهم عليها، من مثل ألبرت آنشتاين وإرفين شرودنغر. حشدت اللعبة قِواها لبلوغ مستوى بوابة السماء في التطرف: كان على اللاعبين إما الحصول على مكانةٍ في الحزب النازي وإما الحرمان منها حرمانًا مُطلقًا. انتشر أبناء العُمُومة والمحاربون في كل مكان. ومثلما حدث في الأيام الخانقة لمحاكم التفتيش، بدأ مسلسل تَوجيه الاتِهامات، المَدفوعة في الغالب بالأحقاد الشخصية، الشيء الذّي أدى إلى «جوٍ من الترهيب والترصد لأية ملاحظة عفوية وعابرة قد تقتنصها الأذان المُتطفلة».[595] في اليوم التالي على الانتخابات، أُعلن رسميًا عن حظر الحزب الشيوعي.[596] وبحلول نهاية العام، تعرض عشرات الآلاف من أعضاء الحزب، على الأقل، إلى السجن أو القتل، في هجوم «شاملٍ ووحشي، وقاتلٍ»[597] مبني على الاعتقاد بِأنهم كانوا يدبرون لِثورةٍ. ثُّم حُظِرت سريعًا جميع الأحزاب السياسية الأخرى.[598] وصدر قرارٌ يُلزم موظفي الدولة بأداء تحية «يحيا هتلر»، وأضاف: «سيلتزم بهذه التحية كل من لا يرغب في أن يُشتبه بتصرفه تصرفًا سلبيا واعيا».[599]

---

(593) *The Third Reich in Power*, Richard Evans (Penguin, 2006), p. 134.

(594) *The Third Reich in Power*, Richard Evans (Penguin, 2006), p. 15.

(595) *The Hitler Myth*, Ian Kershaw (Oxford University Press, 2001), p. 57.

(596) *The Coming of the Third Reich*, Richard Evans (Penguin, 2004). Kindle location 6447.

(597) استشهد إيفانز بالأرقام التي أوردها الحزب الشُيوعي البالغة مائة وثلاثين ألفًا من المعتقلين والسُجناء وألفين وخمسمائة من المقتولين، لكنه أضاف أن هذه الأرقام "مبالغ بها نسبيًا، على الأرجح."
'massive, brutal and murderous assault': *The Coming of the Third Reich*, Richard Evans (Penguin, 2004). Kindle location 6454.

(598) *The Hitler Myth*, Ian Kershaw (Oxford University Press, 2001), p. 60.

(599) *The Hitler Myth*, p. 60.

ومع ذلك، تبقى حَقيقة أن ملايين الألمان- أكثر من نصف السكان- لم يصوتوا لهتلر أو حزبهِ. ومثلما هو الحال دائمًا في عصور الطُّغيان والاستبداد، توزع المواطنون بين مُصدقين حقيقيين ومصدقين زائفين (وحسبما ذكر أحد المراهقين آنذاك: إذا «أراد مدرسٌ أن يرتقي بمنزلته، فعليه أن يُظهر كم هو نازيٌ جيدٌ، سواء أكان يؤمن حقًّا بما يقوله أم لا»)، ومحايدين ومُتمردين.(600) أدركت العُقُول الحاذقة في قلب النظام النازي أن إستراتيجيات الهيمنة لوحدها لن تُغري التائهين بالعودة إلى جادة الصَّواب. قال غوبلز للصَّحفيين في أول خطابٍ له إلى وسائل الإعلام بعد مباشرته عمله وزيرًا للدعاية(601): «هناك طريقتان للقيام بثورةٍ. بوسعك أنْ تَنسف عدوك ببنادق آلية حتى يُقرَ بتفوق حاملي هذه البنادق. هذه أوّل طريقة. أو يُمكنك تغيير الأمَّة عبر ثورة روحية، وبدلًا من تدمير عَدوك، بوسعك أن تكسبهُ إلى صَفك». واستغل النازيون الاستراتيجيتين كليهما.

إن نشر لعبة في المجتمع يعني السيطرة على الألعاب الأصغر المؤدية إليها: يُمارس الجميع، في الدوائر البيروقراطية، والمجتمعات المحلية، ومراكز الاتصال والإعلام والنوادي، اللعبة وفقًا للقواعد المُتعارف عليها للفوز بالمكانة. الجامعات كانت خاضعة لهم سلفًا، و«الغالبية العظمى من الأساتذة» كانوا «قوميين متحمسين» ومُناهضين للسامية.(602) وحل محل الأساتذة الجامعيين المُحترمين الذّين رفضوا الانصياع لإملاءات الحزب، حسبما قال إيفانز: «شخصيات متواضعة في الغالب حجَّتها الوحيدة في المطالبة بمواقعها الجديدة هي أنهم نازيون ويحظون بدعم منظمة الطُّلاب النازيين».(603) كان هؤلاء يُدرسون طلابًا من «طبقة النخبة التي كان التحيز العرقي ومناهضة السامية وأفكار التفوُّق الألماني بالنسبة لهم من الميول الفِطرية المتأصِلة نسبيًا».(604) نظم هؤلاء المُحاربون

(600) *The Third Reich in Power,* Richard Evans (Penguin, 2006), p. 266.

(601) https://research.calvin.edu/german-propaganda- archive/goeb62.htm.

(602) *TheComingofthe Third Reich,* Kindle location 2744.

(603) *The Coming of the Third Reich,* Kindle location 7826.

(604) *TheComingoftheThirdReich,*Kindle location 2763.

الطَّامحون «حملات ضد الأساتذة غير المرغوب بهم في الصُّحف المحلية، واتفقوا على المقاطعة الجماعية لمحاضراتهم وتزعموا مفارز من الجنود (أو أعضاء في الميليشيا السياسية النازية) في حملات تفتيش للمنازل وغارات عليها».[605] ونظموا في أيار عام 1933 حملةً مُنسقةً «ضد الرُّوح غير الألمانية» في عددٍ كبيرٍ من الجامعات، فجمعوا الكتب التي يرون أنها غير مناسبة سياسيا من المكتبات وحرقوها في أكوامٍ.

لكن الجامعات ليست كافية من وجهة نظرهم، لأن على قواعد النازيين ورُموزهم أن تستعمر كُل لعبة ممكنة، وتستبدل بالمَعايير الجديدة المَعايير القديمة للمطالبة بالمكانة. ضمت منظمة الشباب النازي في عضويتها، في نهاية 1933، عددًا من المراهقين جاوز المليونين.[606] وتضاعف العدد عمليا في 1935، وأضحى مطلوبًا قانونيا للأطفال فوق سن العاشرة في العام 1939. ملأ النازيون إدارات الرَّخاء الاجتماعي الضّخمة التابعة لهم بمهنيين ومُتخصِّصين يؤمنون بمفاهيم النقاء العرقي المُهيمنة في الدوائر البيروقراطية لقطاعات الطِّب وفرض القانون ونظام السجن.[607] وخضعت المُنتديات والجمعيات في كل قريةٍ ومدينةٍ صغيرةٍ وكبيرةٍ لعملية إضفاء الطّابع النازي؛[608] وأسس الحزبُ ذاته ألعابًا محليةً مدعومةً بمنظمات في المستويات الإقليمية والمناطقية والمحلية «مكتظة بكوادر وظيفية مُخلصة ومتحمسة، الكثير منهم ذات تعليمٍ مُناسبٍ وفي الإدارة بارعٌ؛»[609] وتأسست منظمة النساء النازيات، وهيئات خاصة أيضًا للموظفين المدنيين والفلاحين وجرحى الحرب، علاوةً على العديد من «الدوائر الأخرى، التي تُكرس كل واحدةٍ منها جهودها الدعائية لهدفٍ محددٍ». برعَ الحزب في إعداد

---

(605) *The Coming of the Third Reich,* Kindle location 7813.
(606) *The Third Reich in Power,* Richard Evans (Penguin, 2006), p. 271.
(607) *The Coming of the Third Reich,* Kindle location 2962.
(608) *The Coming of the Third Reich,* Kindle location 7165.
(609) *The Coming of the Third Reich,* Kindle location 4131.

رسالتهِ المناسبة لقيم كل واحدةٍ من أنواع الألعاب المهمة:[610] فهناك هتلر للعمال الريفيين، وهتلر للمفكرين، وهتلر للمحاربين القدامى، وهتلر لرِجال الأعمال، وهتلر للنِساء. وكتب المؤرخ والباحث في التسويق، نيكولاس أوشوغنيسي: «قدم النازيون شيئًا للجميع».[611] وعلى غرار ما حدث في حُمى الهلع الشيطاني، كانت هذه الجماعات ألعاب مكانة تعمل بوصفها مُسرِعات لتنفيذ قواعد اللعبة النازية ورُموزها.

صارت اللعبة، لأغلبية النازيين، الوسيلةَ الوحيدةَ للحصول على مكانة متميزةٍ. إذ ارتفع عدد أعضاء الحزب، في غضون شهور من تسلم هتلر مَهام عملهِ في المستشارية، إلى مليونين ونصف-كان هناك الكثير من الرَّاغبين بالانضمام إلى حدٍ الاضطرار إلى الإعلان عن تأجيل موعده. كان «نصف الألمان، على الأقل، أو ثُلثاهم على الأغلب، منتمين إلى منظمة نازية ما في عام 1939.[612] «كانت عضوية الحزب أساسية للارتقاء الوظيفي والصعود الاجتماعي. إذ تمكن الحزب، بفضل الشبكة الكثيفة من المنظمات التابعة له، من تأسيس مجموعة من الكوادر الوظيفية التي تتقاضى أجورًا مُجزيَةً إضافةً إلى حوالي المليونين من الوظائف التطوعية المُحترمة». وحالما يبدأ الأفراد في اللعب والاستمتاع بالمكافآت، تغدو هذه اللعبة جزءًا من هويتهم. فَيُشرعون في الاعتماد عليها والدفاع عنها والتبشير بها. وهكذا، أصبحت اللعبة مَدعومة ومكينةً ذاتيًا، وبات كل لاعبٍ يرغب في أن تكون هذه اللعبة حقيقية وصحيحةً كي تكون مَنزلتهم حقيقية وصحيحةً. يشتط أبناء العُمُومة الطُّغاة في سلوكهم. ومع اِستعار حُمى البحث عن المَكانة، تستقطب اللعبة لاعبين جدد ينجذبون إلى مكافآتها الفَخمة فخامةً مُتواصلة؛ ومع اِشتداد عودها، تُقدم اللعبة مكانة أثرى وأعظم، وتزداد، على أثر ذلك، مَساحتُها وقوَّتها.

ثمَّ تحذيرٌ مهمٌ في كل هذا: يبدأ الطُّغاة، في العادة، في الحديث معك عما تؤمن به

(610) *Marketing the Third Reich*, Nicholas O'Shaughnessy (Routledge, 2017), p. 71.
(611) *Marketing the Third Reich*, p. 70.
(612) Public display, NS-Dokumentationszentrum Muenchen (as per September 2020).

سلفًا. وعندما يَتَسنمون مقاليد الأمور، ينسجون حلمًا شخصيًا مُغريًا، يخبرونك فيه أنك تستحق مكانةً أعلى، موافقة لتوقعاتك الدائمة، ويُشيرون بأصابع الاتِهام إلى منْ حددتهم سلفًا بوصفهم خَصومك: إنهم المستغِلون والمتحرِشون بالأطفال، والمُتَحولون إلى دينٍ آخر، ورجال الأعمال الكبار، والشيوعيون، واليهود. إنهم يكيلون الاتهامات ويُثرثرون؛ فتصبح غاضبًا ومتحمسًا وسَاخطًا أخلاقيًا. ثُمَّ تبدأ باللعب، ومتى ما كسبوك إلى جانبهم، فإنهم يَتراصون ويتماسكون. فتغدو مُعتقداتهم أكثر تطرفًا وتحديدًا، وتخضعُ أنت لمراقبةٍ مُستحكمة؛ ويشيع استخدام تِقنيات الهيمنة التابعة للذَّات الثّانية. وتُصر الألعاب الأكثر استبدادًا- من نحو الدوائر الاجتماعية والحركات السياسية والدينية الأصولية- على الإِنصياع والامتثال الكاملين في الفكر والمُمارسة؛ ويدور حُلمهم عن الواقع حول الاحتلال الكامل لأقليمك العصبي. إنهم يسعون إلى أن يتحولوا إلى المصدر الوَحيد للمكانة بالنسبة للاعب؛ ولذا، ليس من السهولة قبول أية ألعاب منافسة أخرى. ويَجِب على الجميع أن يَنصاع ويخضع في مستوى الأمَّة، الذّي يستلزم وجود ألعاب أخرى في أشكالٍ متنوعةٍ من مثل الجامعات ووسائل الإعلام ودوائر الدولة البيروقراطية: وبصرف النظر عن موقع ممارسة الألعاب، فإن المكانة تُمنح إلى اللعبة التي تخدم القبيلة في حين تنتظر العواقب الوخيمة المُنحرفين والمُتمردين.

لم يكن لأي من هذا أن ينجح لو لم يُهيأ هتلر مكانةً للاعبين التابعين له. وإذا كانت مواجهة «النجاحات» الظاهرية للنظام النازي مستهجنةً، فذلك لأننا نسرد قصةً مُقدسةً عن وحشيته: إن أي شيء يبدو إيجابيا، ولو من بعيد، يدق ناقوس المُحرمات. لكن يَجب علينا أن نَتحلى بِالشجاعة. فالوحوش توجد في الخيال فحسب. ويتعذر فهم الكارثة النازية من دون معرفة السبب الذّي جعل الألمان يقدسون زعيمهم بوصفه إلهًا، والآلية التي اِستَثمروها في تحقيق أهداف غوبلز الذّي صرح، عند انتخابهم في 1933، أنهم قد استمالوا المتشكّكين إلى جانبهم

لأنهم استمروا في محاولة إقناعهم «حتى أصبحوا مُدمنين علينا».[613]

وقائمةُ انتصارات نظام هتلر المُتخيلة والكبرى طويلة، وتُصيب المرء بالدوار (الرَّجاء لا تتردد في الانتقال إلى نهاية القائمة حالما تفهم المُراد): فبعد أشهر من تولي الحكم، أَجاز النظام تَشييد شكلٍ جديدٍ حديثٍ للغاية من الطُّرق السريعة مع توقيع هتلر شخصيًا على تصميم الجسور والمرافق الخدمية؛[614] وعمل في هذا المشروع مائة وخمسة وعشرون ألفًا من الألمان في 1935، تمكنوا بحلول صيف العام 1938 من تَشييد ثلاثة آلاف وخمسمائة كيلومتر منها؛ وأنفق النظام، حتى نهاية العام، خمسة مليارات مارك على مشاريع خلق الوظائف؛ وقدمَ المساعدات المالية لشراء العقارات، وتحويل جنسها وصِيانتها؛ وأنفق مقادير هائلة من الأموال في دعم المناطق المُهمشة؛[615] ووفرَ للشباب المُرتبطين قروضًا بلا فائدة لإعانتهم في مُقتبل حياتهم (قدم النظام قرابة الربع مليون قرضٍ في السنة الأولى لوحدها)؛[616] واشترى ودعمَ آلافًا من تذاكر المسرح (يفوق عددها نصف مبيعات تذاكر برلين في 1938)[617] عن طريق مؤسسة الترفيه المَعروفة باسم «القوَّة عن طريق المرح»؛ وأقام الحفلات الموسيقية في المصانع، وشيد المَسارح، ونظم المعارض الفنية، وأشرف على عرض الأعمال الأوبرالية والمسرحيات (توجه قرابة السبعة ملايين وخمسمائة ألف ألماني لمشاهدة المسرحيات، وستة ملايين وخمسمائة لحضور الأعمال المسرحية المُغَناة والتمثيليات الموسيقية المسائية في 1938)؛ ووفر أيضًا رحلات جماعية مُنخفضة التكاليف إلى أماكن من نحو ليبيا وفنلندا وبلغاريا وإسطنبول،[618] وعرضَ أيضًا خصمًا مقداره 75٪ من قيمة تذاكر القِطارات و50٪ من تذاكر الإقامة في الفنادق (في سنة 1937 لوحدها،

---

(613) *The Coming of the Third Reich*, Richard Evans (Penguin, 2004). Kindle location 7275.

(614) *The Third Reich in Power*, Richard Evans (Penguin, 2006), pp. 322–328.

(615) *The Third Reich in Power*, p. 330.

(616) *The Third Reich in Power*, pp. 330, 331.

(617) *The Third Reich in Power*, pp. 466–467.

(618) *The Third Reich in Power*, p. 467.

مكتبة
t.me/soramnqraa

تمتع مليون وسبعمائة ألف ألماني بعطلٍ نظمتها مؤسسة «القوّة عن طريق المرح» في حين تمتعَ قرابة السبعة ملايين ألماني بواحدةٍ من استراحاتهم القَصيرة في عطلة نهاية الأسبوع، أي ما يوازي ١١٪ من مجموع ليالي المَبيت في جميع الفنادق الألمانية)؛[619] ونُظِم رِحلات بحرية أيضًا (بطاقة مائة وأربعين ألف مسافرٍ في عامٍ واحدٍ)؛[620] وتمكنت مبادرة المُساعدات الشتوية السنوية من جمع مئات الملايين من الماركات للمُحتاجين الذّين حصلوا على الطَّعام والمَلابس والوقود؛[621] واستعان هتلر بالمهندس ومؤسس شركة السيارات، فردناند بورش، للمساعدة في صِناعة «سيارة الشعب» مَيْسُورة التكْلِفة (المعروفة حاليًا بفولكس فاغن أو الدعسوقة) التي أحرز تصميمها نجاحًا شعبيًا سَاحقًا (على الرَّغم من كساد بيعها بسبب الحرب)، علاوةً على استقرار الدين الأجنبي؛[622] واِعتَمَدَ النظام حزمةً واسعةً من الإجراءات الصِّحية العامة المتطورة، من بينها فرض قيود بعيدة النظر على استخدام معدن الأسبستوس والمُشعات والمُبيدات الحشرية والأصباغ الغذائية؛ وتطبيق معايير الأمان والصِّحة المهنية «المتقدمة بعقود على البلدان الأخرى؛» وكان العلماء النازيون أوّلَ من ربط التدخين ربطًا مؤكدًا بسَرطان الرِّئة،[623] وشن الحزب حملة شَعْوَاء على هذه العادة. عندما تسلم الحزب مقاليد السلطة، كان ثُلث السكان، أي ستة ملايين ومائة ألف ألماني عاطلين عن العمل،[624] لَكنه تناقص تناقصًا مُطَّرِدًا، إذ بلغ مليونين ومائتي ألف في 1935،[625] وأقل من مليون في 1937، وأدعى النظام القضاء على البطالة بحلول العام 1939؛[626] وحقق الاقتصادُ الزِّراعي في الأعوام بين 1933

---

(619) *The Third Reich in Power*, p. 474.

(620) *TheThirdReichinPower*,p. 467.

(621) *The Third Reich in Power*, p. 487.

(622) *TheThirdReichinPower*,p. 409.

(623) *The Reputation Game*, David Waller (Oneworld, 2017). Kindle location 1251.

(624) www.bbc.co.uk/bitesize/guides/zpvhk7h/revision/1.

(625) *The Third Reich in Power*, Richard Evans (Penguin, 2006), p. 333.

(626) www.bbc.co.uk/bitesize/guides/zqrfj6f/ revision/3.

و1939 نموًا بلغ 71٪؛[627] ويصدقُ الشيءُ ذاته على الناتج الوطني الإجمالي الذي سجل طفرةً بلغت 81٪ بين 1932 و1939.[628]

إلا أن الحياة كانت بعيدةً غاية البعد عن الكمال، بطبيعة الحال. إذ تُخفي بعضُ هذه الأرقام الرَّسمية، وتَتَغافل عن الدور الذي أدته عوامل أُخرى من بينها الحظَّ والتوقيت والتلاعب بالإحصائيات إضافةً إلى ضَرورة الاعتراف بمكر هذه الأرقام وحِقدها؛ إذ كانت إقصائية عرقيا، والوظائف الكثيرة التي «وفرها» النظام قد أُخليت قسرًا أو أُعدت استعدادًا للحرب. ومع كُل هذه الإنجازات، هناك نقصٌ وقلةٌ في المواد، والسبب، في جزء منه، يعود إلى إعادة توجيه الموارد إلى القطاع العسكري. يكتب الصَّحفي، وليم شيرر، في مذكراته اليومية عن صنع الملابس من نشارة الخَشب،[629] وعن «الصُّفوف الطَّويلة من الناس العَابسين الواقفين أمام متاجر الأغذية». ومن الضَّروري أيضًا ألا نُبالغ في التأكيد على دور المكانة؛ فالرَّاحة التي شعر بها الفُقراء والمُعدمون عند تجهيزهم ببعض المواد ليست مكانةً؛ والمُتعة المُتأتية من العطل قليلة التكلفة ليست مكانةً؛ والرَّفاهية والإثارة الناجمة عن التنقل بالطرق السريعة ليست مكانةً؛ والتقاط الأنفاس من قلق البَطالة والتهديد الشيوعي ليست مكانةً. غير أن المكانة لم تكن غائبةً عن هذه الأحداث: فهناك الإحساس بِأن حياة كل فردٍ ألماني، والبلد ذاتها، آخذةً في التحسن تحسنًا جوهريًا، وأن البلاد تستعيد مجدها ومَكانتها؛ وأن بقدرة الألمانيين وألمانيا أن يرفعوا رؤوسهم عاليًا مرةً أخرى لَعلمهم أن رحلتهم إلى الأرض المَوعودة قد بدأت.

أضحت المغانمُ التي حصل عليها الألمان أوضح في الِانتصارات التي أحرزها هتلر في تلك الرِّحلة. وحسبما ذكر كيرشو: «كان واضحًا أن الغَالبية العظمى من

---

(627) *The Third Reich in Power*, p. 349.

(628) *The Third Reich in Power*, p. 409.

(629) *Berlin Diary: The Journal of a Foreign Correspondent, 1934–1941*, William L. Shirer (Ishi Press, 2010), p. 85.

السكان ترغب في «النجاح القومي»- أي اِستِعادة ألمانيا قوّتها ومجدها في أوروبا».[630] والمشاهد التي نميل إلى رَبطَها ذِهنيا بجنون هتلر تقع في الغالب حينها يُحاول، بطريقةٍ ما، مداواة الإهانات التي لحقت بالبلاد جراء معاهدة فرساي المَقيتة، فاستِعادته لمنطقة الرَّاين في 1936 من دون مقاومةٍ جادةٍ من الحلفاء، حلقت بالإعجاب «عاليًا إلى ذَروةٍ جديدةٍ»،[631] وأدت إلى مشاهد من «الهُتافات والإشادات المجنونة»،[632] التي علقَ عليها أحد المُعاصرين ملاحظًا: «كانت معاهدة فرساي محل كَراهية جميع الألمان. وقد مزق هتلر في الوقت الحاضر هذه المعاهدة اللعينة، وقذف بها عند أقدام الفرنسيين؛»[633] وأسهم الاستيلاء على النمسا المماثل في سُهُولته في 1938 في بلوغ شعبية هتلر «مستويات غير مسبوقةٍ»،[634] إذ اكتسح مئات الآلاف من الألمان شوارع المدن في نوبة فرحٍ غامر علق عليها أحد الشهود قائلًا بأنه حتى المتشكّكون أضحوا الآن يَعترفون بأن «هتلر رجل دولة عظيم وبارع، وسيرتفع بألمانيا من قاع هزيمة العام 1918 إلى ذُرى العظمة والنهوض ثانيةً».[635] وحتى عندما قاد بلاده إلى الحرب، رغمًا عن الإرادة الشعبية، حقق هتلر سلسلةً من النجاحات السريعة والمذهلة، من بينها الاستيلاء على فرنسا الكريهة التي كان اِستسلامها، حسبما يقول كيرشو، بمنزلة «محوٍ رمزي لعار الاستسلام الألماني في البقعة ذاتها في 1918».[636]

بات هتلر نفسه، إلى حدٍ ما، بفضل الدعاية الفاعلة، رمزًا ساميا لألمانيا الناهضة؛ وأضحى مُقدسًا، وفقًا لمنطق لعبة المكانة، إنه المعادلُ الحرفي للإله، والشخص الذي يرمزُ لكل ما يُثمنه ويُعظمه اللاعبون، والذي يُمثل، عمليًا،

(630) *The Hitler Myth*, Ian Kershaw (Oxford University Press, 2001), p. 122.
(631) *The Hitler Myth*, Ian Kershaw (Oxford University Press, 2001), p. 126.
(632) *The Hitler Myth*, p. 127.
(633) *The Hitler Myth*, p. 129.
(634) *The Third Reich in Power*, Richard Evans (Penguin, 2006), p. 663.
(635) *The Hitler Myth*, p. 132.
(636) *The Hitler Myth*, p. 155.

مكانتهم. كتب أوتو ديتريش، أحد الشهود على تلك المرحلة: «كُنا نرى...فيه رَمزًا لِقوَّة الحياة المَنيعة والرَّاسخة للأمَّة الألمانية التي اكتسبت شكلها الحي في أدولف هتلر».[637] وقال الوزير البافاري، هانس شيم: «في شخص هتلر، أصبح التوق المليوني للشعب الألماني واقعًا».[638] وحسبما نادى الشعار الدعائي: «ألمانيا هي هتلر، وهتلر هو ألمانيا».[639]

ومع كل ذلك، ما يزال صحيحًا أن ما كان يَفعلهُ هتلر هو محض اِستِئجار للعرش من الناس؛ إذ بلغ الإعجاب به ذروته، وتَقلب مع تَبدل الأحوال في البلاد، التي كان شَاهدًا عليها، صعودًا وهبوطًا. إلا أن قوَّة هذه اللعبة التي نُمارسها، وجنون الأحلام التي نَسجناها عنها نادرًا ما كانت أوضح مما في أوقات نجاحه. زُرِعت أشجار «بلوط هتلر» و«زيزفون هتلر» في مئات من المُدن الصَّغيرة والقرى؛[640] وأُعيد تسمية الساحات على اسم هتلر؛[641] وأُطلقت أسماء هلترين، وأدولفين، وهتلريك، وهيليرين على الفتيات المَولودات حديثًا؛[642] وعُلِقت الأعلام والرَّايات؛ وعَرضت واجهات المتاجر صورًا شخصيةً وتماثيل صغيرةً لهتلر مزينة بالورود؛[643] والطَّقس الرَّائق أصبح يُعرف بـ«طقس هتلر»؛[644] وأُرسلت آلاف من الرَّسائل والهدايا والقصائد في عيد ميلاده: «الفوهرر معبودي! اليوم عيد ميلادك، وليس لدينا سوى أمنيتين متوهجتين: فليكن كل شيء في أرض أجدادنا الآن وفي المستقبل مثلما تُريده أن يكون، ونسأل الرَّب أن يحفظك لنا إلى الأبد».[645] وكان المُصابون بالسل الرِّئوي يُحدقون إلى

(637) *The Hitler Myth*, p. 48.
(638) *The Hitler Myth*, p. 58.
(639) '*The Hitler Myth*, p. 151.
(640) *The Hitler Myth*, p. 55.
(641) *The Third Reich in Power*, Richard Evans (Penguin, 2006), p. 122.
(642) *How to be a Dictator*, Frank Dikötter (Bloomsbury, 2019). Kindle location 921.
(643) *The Hitler Myth*, p. 58.
(644) *Marketing the Third Reich*, Nicholas O'Shaughnessy (Routledge, 2017), p. 119.
(645) *The Hitler Myth*, p. 73.

«صورة هتلر لساعات «طلبًا للقوة»؛[646] وشاع اعتقاد يُفيد بأن جدران المنازل المقصوفة التي تحمل صورة هتلر تبقى منيعةً على السقوط على الدوام»؛[647] وبيعت النقانق في شكل الصليب المعقوف؛[648] وكانت فتيات المدارس يرسمن الصليب المعقوف على أظافرهن؛[649] ونحت جزارٌ هيأة هتلر من الشحم؛[650] وأقسمت النساء الشابات على «قول يحيا هتلر وأداء التضحية النازية عند بلوغهن ذروة الإثارة الجنسية».[651] وسار مئات الآلاف، «وربما حتى الملايين» عبر الشوارع في استعراضات متفاخرة.[652] وجد الصحفي، وليم شيرر، نفسه مُحاطًا بحشدٍ قوامه عشرة آلاف من الهائجين المُنفعلين الذّين احتشدوا أمام فندق هتلر، وكانوا يصرخون: «نُريد زعيمنا!»[653] ذُهلت قليلًا لرؤيتي وجوههم، لا سيما النساء عندما ظهر هتلر أخيرًا في الشرفة لبرهةٍ من الوقت. ذكرني مظهرهم بالتعبيرات المَخبولة التي شاهدتها ذات مرَّةٍ في تَصرفات بعض المُتحمسين المُتدينين في بعض المناطق الرِّيفية قليلة السكان في ولاية لويزيانا الذّين كانوا على وشك البدء بِأداء طَقسهم. نظرت الحُشُود إلى هتلر كما لو أنه مسيحٌ مخلصٌ، إذ اكتست وجوههم بتعبيرٍ غير إنساني واضح إلى حدٍ ما. هل كان ذلك دينًا؟ هل كان دائرة اجتماعية؟ كان الشيئان كلاهما، ولم يكن أيًا منهما: بل كان لعبة مكانة متماسكة تماسكًا اِستبداديًا، وكانت فاعلةً وناجحةً في عملها.

---

(646) *Marketing the Third Reich*, p. 116.
(647) *Marketing the Third Reich*, p. 125.
(648) *How to be a Dictator*, Kindle location 926.
(649) *Marketing the Third Reich*, p. 116.
(650) *Marketing the Third Reich*, p. 19.
(651) *Marketing the Third Reich*, p. 116.
(652) '*The Coming of the Third Reich*, Richard Evans (Penguin, 2004). Kindle location 6604.
(653) *Berlin Diary: The Journal of a Foreign Correspondent, 1934–1941*, William L. Shirer (Ishi Press, 2010), p. 17.

الفصل الثَّالث والعشرون

الإِبادة: الجزء الثَّاني

تَغدو اللعبة مُتَماسِكةً، وتُقلدها في ذلك القصَّة التي ترويها عن العَالَمْ. إنها تنظرُ إلى التسلْسُل الهرمي -إلى مَوقِعها بِإزاء مواقع المُنافِسين- وتَختَلقُ حِكَايةً أخلاقيةً سَهلةً ونفعية تَشرَح طَرِيقة نشوء هذا التسلسُل. وهذه الحكاية هي ذاتها على الدوام: نحن لِاعُبون فَاضلون، ومُستَحقّون للمّزيد، ومن يَقف في طَرِيقنا أشرار. القصةُ مغريةٌ، فهي ما يتوق اللاعبون إلى الإيمان به. تُصبح هذه القصَّة مصدرًا للمكانة والأمل بالمزيد منها، والاستياء والسخط أيضًا الموجه ضد الأعداء- إنه شُعُور بالاستياء عميق وقوي شبيه بِغضب الآلِهة. وهي قصَّةٌ مُقدسةٌ يَجِب على كُل فردٍ الإيمان بها بِحَذّافِيرها. ومع اِنْتِشار أبناء العُمُومة، وتُهديدهُم وفَرضهُم [لإرادتهم]، فإننا، على الأَرجح، سنتعرَّض إلى الاكتساح، مثل ورقة شجرٍ في سيلٍ جارفٍ. يُغدو السرد أشد تطرُّفًا واضطرابًا. ومع ذلك، نستمر في تصديقه والإيمان به، *فهو يبدو حقيقيا للغاية*. إننا حالمون، وأحلامنا هي أحلامُ ألعابنا. إننا نُقيم فيها، ونُجسدها، وحينما تَضطرب هذه الأحلام، نُصبح كَوَابيسها.

وهكذا، تَصِل رِحلتنا في لعبة المكانة إلى بوَّابة الجَحيم. واجهنا، في محطَّةٍ سابقةٍ، العوالم الداخلية الفوضوية والمُشَوَّشة للقَتَلة، وتعرفنا هناك إلى التيارات الجامحة لهَوَس العَظَمة والمَهانة. ونعثر على هذه التيارات ذاتها في الأحلام الجماعية لواحدٍ من ألعاب التاريخ الأشد فتكًا وتدميرًا. النازيون هم أليوت روجر وإد كمبر وتد كازينسكي في مستوى الثَّقافة. سَرَد الثَّلاثة قصَّةً نفعية تُبين افتقارهم الكارثي إلى المكانة، وتسوّغ اِستردادها بِهُجومٍ قاتلٍ. ولم تكن ألمانيا وحدها من أُصيبت بهذا

الهَوَس. إذ تُغدو الأُمم، في أرجاء العَالم كافَّةً، خطرةً عند تعرُّضها للإِذلال. لحظت دراسةٌ لأربعٍ وتسعين حربًا منذ العام 1648 أن عامل المكانة القومية أو الانتقام كان الدافع وراء 67٪ من النزاعات، مع تمثيل الأمن العامل الأهم الثّاني، إذ بلغت نسبته 18٪.[654] ووجد عالِما الإناسة، الان بيج فيسك وتيج شاكتي راي أن «صانعي القرار والرَّأي العام يندفعون»، في أكثرية الأحيان، «إلى إعلان الحرب للحفاظ على مكانة بُلدانهم بإزاء مكانة البُلدان الأخرى أو الِارتقاء بها، لا سيما عند شعورهم بِأنهم قد أُنزِلوا ظلّمًا إلى مرتبةٍ متدنيةٍ موازنةً بالأمم الأخرى».[655] سيجنحُ الطَّرفُ المُحاربُ إلى الهُجُوم في حلمٍ من الأخلاقية المُميتة، وإلى الثّقة بِمقصده الشريف: «كلما تضخَّم شعور الأُمَّة بالذُّل والمَهانة الناجم عن الانتهاك الأَخلاقي المُمارس بِحقها، وتعمق شعورها بهذا السلوك بوصفه شنيعًا أخلاقيا، تعززت رغبتها بالسعي إلى الانتقام».[656]

والهَوَسُ بالعَظَمةِ والإِذلال يُغذّيان أحلام المُقاتلين الشباب التابعين «للحَرس الأحمر» الذين وقفوا بوجه الثَّورة الثَّقافية في الصِّين التي قُتِل فيها بَين خَمسمائة ألفٍ ومليونيْ شخصٍ.[657] اشتهر الزَّعيم ماو تسي تونغ بنرجسيته[658]، وإيمانه بأَنه «الرَّجل الذي سيقود الكُرة الأرضية إلى الشيوعية».[659] مع ذلك، لاحت إمارات التمرُّد ضده في أعقاب المَجَاعة الكَارثية التي حلت بِالبِلاد في موسمي 1959–1960. يروي حِزبُ ماو قصَّةً تتحدث عن الرَّأسماليين المُتخفّين الذين عملوا على تقويض النهضة المجيدة في البلاد، والذين يتآمرون من أجل إنشاء

---

(654) *Virtuous Violence*, Alan Fiske and Tage Shakti Rai (Cambridge University Press, 2014), p. 94.

(655) المصدر نفسه، ص 94-95.

(656) المصدر نفسه، ص 95.

(657) 'The Cultural Revolution', Tom Phillips, *Guardian*, 11 May 2016.

(658) لمعرفة المزيد من نرجسيّة ما وتسي تونغ، راجع:
How to be a Dictator, Frank Dikötter (Bloomsbury, 2019), chapter 4.

(659) 'The Cultural Revolution', Tom Phillips, *Guardian*, 11 May 2016.

«دكتاتورية الطّبقة البرجوازية».(660) ولِذا، حثَّ الحِزب الجماهير على القَضاء على هؤلاء «الوحوش والأَشباح...المُمَثلين لِهذِه الطَّبقة الذين تَسللوا إلى صُفُوف الحِزب»، و«القَضاء على جميع العادات الشرّيرة للمجتمع القَديم». بدأ الطُّلاب بإدانة مُدرسيهم وكيل التُهم إليهم: «في مُلصقات شخصية كبيرة» - شبيهة بالتغريدات حاليًا- تُرسم على الوَرق وتُعلق في الأماكن العامَّة. يتذكر، داي هاسيو-أي، أحد أعضاء الحَرس الأحمر وقتذاك، الدهشة التي اعترته عند إدانة إحدى المُدرِسات المُفَضَلات من وجهة نَظره: «لم أكن راغبًا في انتقادها أو مُهاجمتها، غير أن رفاقي في الصّف اتهموني بالعاطفية، ونبَّهوني إلى أنني أصبحت شبيهًا بها. ولم يكتفوا بذلك، بل إنهم أخبروني بِأني أبحث عن المَتَاعِب. وأَدركت شيئًا فشيئًا بِأنهم كانوا على حقٍ. إذ لا يُمكن لِلحزب أنْ يكون مُخطئًا، وواجبي يُحتم علي المُشَاركة في الكِفاح. وهذا ما فعلته بحماسٍ في نِهاية المَطاف».(661)

أُجبِرَ المُتَشكّكون على حُضور «جلسات الاتهام والإِدانة» التي أمطرهم فيها «الحَرَس الأحمر» بالاتهامات، لأيامٍ وأسابيع في بعض الأحيان، وأَصرُّوا على اعترافهم بها. يَقُول داي هوسيو-أَي إن الجَلَسات كانت «شديدة الوطأة على الدوام». إذ كان أفراد الحرس من الجَزَارين المُتمرسين بالإِذلال والإهانة، وكانت غايتهم هي تجريد الأكبر مِنْهُم سِنًا من المكانة ومن القُدرة على الِادعاء بها: «أَجبرنا المُدرسين على ارتداء قُبّعات وياقات مكتوب عليها أشياء من نحو "أنا وحشٌ"».(662) وكان كُل صفٍ يقف قبالتهم ويشتمهم ويُمطرهم بِدوره، بالشعارات والِاتهامات والتعليمات القمينة بإصلاح سُلوكهم. وأرغمناهم أيضًا على تنظيف الحمَّامات ولطّخناهم بصبغٍ أسود ونظمنا «فرق مراقبة الوحش» للإشراف على تنفيذ ذلك تنفيذًا مناسبًا...استغرق الأمر قرابة الأسبوع من

---

(660) المصدر نفسه.

(661) *Red Guard*, Gordon A. Bennett and Ronald N. Montaperto (Allen & Unwin, 1971), pp. 42–44.

(662) المصدر نفسه، ص 41.

الجَلسات المُتواصلة لدفع [مُدرسٍ] إلى الاعتراف بِأنه قال في حديثٍ له: «كان ماو تسي مُخطئًا». وخَشينا، بعد أسبوعين من الجَلَسات، من احتمال إِقدام مُدرسة الأَدَب على الانتحار، ولذا، أخضعناها للمراقبة الدائمة، بل وكتبنا مُلصقًا علقناه على الناموسية (شَبَكة البَعوض) فوق سَريرها لتذكيرها بخضوعها للمراقبة، وعدم قدرتها على الإِنتحار. ولاحظ مترجمو حياة داي بِأنه «اعترف بالتلذُّذ باللعبة القاسية المحضة لإهانة أصحاب الحظوة والمكانة، لا سيما المُديرون، وخصص، في إحدى المرَّات، مثلًا، يومًا كاملًا لإعداد نسخةٍ ضخمةٍ من الوَرق المقوَّى لرأسِ بقرةٍ، بالتعاون مع زملائه، واستخدمها بوصفها تاجًا رمزيًا مناسبًا للمدير تشن».(663) واستسلم المُدرسون لهذه المُضايقات المُذِلة، إذ كتبوا على مُلصقات شخصيةٍ كبيرة: «نُرحب بالنقد والاِتهامات من زُملائنا الطُّلاب».

وعِندَمَا اِجتَاحت الثّورة الشوارع، فتش الحَرس الأَحمر المَنازل كُلها بحثًا عن «الأَشياء القَديمة»، التي ترمُز، في حلمهم الانتقامي عن الواقع، إلى الالِتزام السرِّي باللعبة ما قبل العهد الشيوعي من مثل قُصاصات الورق والمجوهرات والكُتب والسَراويل الضِّيقة والأحذية مُدبَّبة المقدمة، واللحف المصنوعة في هونغ كونغ. قال داي: «هَدَم بعضنا الجُدران، وبحثَ خلف الجص، في حين حمل بعضنا الآخر المَجارف والمَعاول وحطم الأقبيَة بحثًا عن المَواد المُخبئة... بل أتذكر مشاهدتي اثنين أو ثلاثة من الزُّملاء في مجموعتي يعصرون عُلبة معجون أسنان بحثًا عن حُلي مُخفية».(664) أُجبِر شاغلُو المنازل، في أثناء انهماك الحَرس الأحمر بالتفتيش، على الانتظار خارجًا، والاعتراف بجرائم مُناهضة لِلثَّورة: «إذا كان للنساء شعرٌ طويلٌ، كُنا نَقُصه. وكُنا نُحلق نصف رأس الرَّجل أحيانًا، ونتحداه أَنْ يُكمل حلاقة الجزء المُتبقي. كانت غايتنا أَنْ نَذلهم ونُهينهم بقدر ما نستطيع...تصوَّرت أن ما كُنا نفعله كان مُهِمًّا؛ ولِذا، استمتعت به إيما استمتاع.

(663) المصدر نفسه، ص 53.

(664) المصدر نفسه، الصَّفحات 70-80.

كان أمرًا مُسليًا للغاية».

وَجَدَ داي الأمر مُسليًا. ما المعنى الذي يُمكن للرِّواية القياسية عن الطَّبيعة البَشرية أنْ تستخلصه من هذا؟ لا شيء. ولِذا، تبحثُ الرِّواية عن صورةٍ هَزليةٍ تَقول: كان داي شِريرًا، وهذا كُل ما في الأمر. لكن داي لم يكن شيْطّانًا في قِصَّةٍ، بل كان إنسانًا عاديًا، لديه دماغٌ عادي، وكان مُنهمِكًا في مُمارسة لُعبة مكانة على وفق الآلية التي صُمِّمَ بها. لا تعتمدُ المكانة على الامتثال للإيمان فحسب، الأهم منه هو الإيمان الفاعل. سَمَح داي لنفسه بِأَنْ تنغمس في داخل التصوّر الكَابوسي لِلُعبته، بعد أنْ خَلَصه [الحزب] من شكُوكه وهَوَاجسه: «أَدركت شيئًا فشيئًا بِأنهم كانوا على حقٍ. إذ لا يُمكن لِلحزب أنْ يكون مُخطئًا، وواجبي يُحتم علي المُشَاركة في الكِفاح. وهذا ما فعلته بحماسٍ في نِهاية المَطاف». صَدق داي أن ما فعلهُ كان مُهمًّا. كانت الثَّورةُ التي اِنضم إِليها تَجسيدًا لحُمى التوق إلى المكانة، وكانت مُكافآتها مُذهلةً. كانت شيئًا مُسليًا بطبيعة الحال. ولطالما كان الاستبداد كذلك بالنسبة للاعبين الرَّاغبين والمُتحّمسين المُنتشرين في الجانِب الصَّحيح مِن السلطة.

وبِالإمكان ملاحظة حُضُور الإِذلال أيضًا في قَلب العديد من الأَفعال الإِرهابية. قَال أُسامة بن لادن في أوَّل خطابٍ عامٍ له بعد أحداث الحادي عشر من أيلول: «ما تَتجرَّعه أميركا الآن هو قطرةٌ فحسب مما تجرَّعناه في الماضي. واصلت أُمَّتنا الإسلامية تَجرُّع الشراب ذاته لأكثر من ثمانين عامًا من المَهانة والعار».(665) ولاحظ البَاحِثون أن «الشعُور بالعارِ والذُّل جرَّاء وجود القوات الأجنبية في بُلدانهم هو الدافع الرَّئيس وراء ما يَفعَلهُ الانتحاريون».(666) يَقُول أياد السرّاج، الطَّبيب النفسي ومؤسس الهيأة الفِلسطِينية المُستقلة لحقوق المواطنين إن الانتحاريين الفلسطِينيين مدفوعون بـ «تاريخٍ طَويلٍ من الإِذلال، والرَّغبة

(665) 'Shame, guilt, and violence', James Gilligan, *Social Research: An International Quarterly* 70 (4):1149–1180.
(666) '*Why We Fight,* Mike Martin (Hurst & Company, 2018). Kindle location 2964.

بالإنتقام».[667] ويُعتقد بأن انفعالات من هذا النوع تكون على أشُدها في الثَّقافات الشرق أوسطية، على وجه الخُصُوص؛ إذ يحظى الشرف بِأهمّية قياسية؛ وهي عقلية تستدعي في أذهاننا السفَّاحينَ الأمريكان المَهووسين بالعَظَمة الذّين يَسْعَون إلى اِستِعادة مكانتهم بِالعنف والقوَّة. إنهم يُمارسون لعبة- على شاكلة الدائرة الاجتماعية لبوَّابة السماء- تتمتع بجاذبيةٍ مُغرية إلى حد تمَكّنها من اِستدراج لَاعبين إلى حَتفِهم عن طيب خاطرٍ. الحِوار أدناه لِأحد الأكاديميين في مقابلةٍ له مع مُتشدد مُسلم في أَنْدُونيسيا:

الأكاديمي: «ما رأيك لو أن قَريبًا ثريا تَبرَّع بمبلغٍ كبيرٍ من المال إلى القضية في مقابل إلغائك أو تأجيلك لعملية الاستشهاد؟»

المُتشدد: «هل هذه مُزحةٌ؟ سأرمي النقودَ في وجههِ».

الأكاديمي: «لماذا؟»

المُتشدد: «لِأن الرِّفعة والنبل في الحياة هما فقط في القِتال في سَبيل قضيةٍ، والموت من أجلها».[668]

يؤمن الإرهَابيون بِفضِيلتِهم الأَخلاقية، ويُماثلهم في ذلك الِاستعماريون المُتحيزون عرقيا. يروي لنا الإمبرياليون قِصَّةً تخدم مصلحتهم تقول إنهم يقودون الأشكال المُتدنية من الحياة في رِحلةٍ إلى أرض الحَضَارة الموعُودة. رَسَمَ الشاعر رديارد كبلنغ هذا الشعُور في قصيدتهِ «عبء الرَّجل الأَبيض»:

اِحملوا عبء الرَّجل الأَبيض،

واِحصلوا على ما جناه،

(667) 'Shame, guilt, and violence', James Gilligan, *Social Research: An International Quarterly* 70 (4):1149–1180.

(668) *Virtuous Violence*, Alan Fiske and Tage Shakti Rai (Cambridge University Press, 2014), p. 105.

لَومُ من أحسنتُم إليهم،

وكُرهَ منْ حرستُمُوهم،

وصُراخ منْ علمتُمُوهم،

آه، ببطّء! نَقُودهم نحو الضَّوء.

يؤمن المستوطنون البيض في الولايات المُتحدة أيضًا بِأنهم في مُهمة تَثقيفية حَضارية. إذ يَقول تيودور روزفلت، الرَّئيس السادس والعشرين للولايات المُتحدة: «يؤمن المُستوطن الرَّائد في أعماقِهِ بِأن العَدلَ يقف إلى جانبِهِ؛ لا يُمكن أنْ تظل هذه القارَّة العظيمة محض سَاحَة لَعِبَ للمتوحِّشين القَذِرين».(669)

وقد يَتَسبَّب الشعُور بالعَظَمَة المُهَان في نوبة قتلِ جماعيةٍ لأِن الجُناة المُعتَدين يَتبنون قصَّةً بطوليةً تَقُول إِنهم متفوقون تفوُّقًا مؤكّدًا على ضحاياهم الذّين يُمَثِّلون، عَمَليا نوعًا مُختلِفًا من الكَائِنات. من المُعتَاد والمُتوقَّع وصف الأطراف المُستهدَفة في الصَّراع بِصيغة المخلوقات مُتَدنية المَنزِلة: فالطَّبقات الوسطى، من وجهة نَظر الشيوعيين، هم «طُفيليات»؛ واليَهود «قَمْل» بالنسبة إلى النازيين؛ والمُسلُمون «جرذانٌ» من مَنظور الفَرنسيين في الجزائر؛ والأَفَارِقة «سَعادين» في تَصوَّر البوير (أي المُستوطنين المَسيحيين الهُولنديين في أفريقيا الجَنُوبِية). وأية محاولةٍ للدفاع أو الأخذ بالثَّأر تَعني ضِمنًا أن حُلمَهم وهمٌ، وبالتالي، فإن مَعَايِرهم للمُطالبة بالمَكَانة خَاطَئةٌ. وهذا شيءٌ مُقلقٌ بالنسبة لهم؛ إذ يؤدي في الغالِب إلى استِجابةٍ فحواها الهيمنة المُتَفاوِتة تفاوتًا هائِلًا. ولِشُعُورهم بالسخط الشديد بِسبب تمرُّد أتباعهم الأَدنى من البَشر، فإنهم يعمدون إلى الرَّد تبعًا لِمبدأ العينين بالعين- لا العينُ بالعين- أو ربما يَصل العَدد إلى مائتي أو ألفي عينٍ، أو أي عَدَدٍ من الأَعين يَرونَه مُساويًا أخلاقيا لِعينهم الغالية. حينما قتلَ الجَزائريون مائة وثلاثة فرنسيين في أعقاب أعمال تَمرُّدٍ، أَرسَل المُستَعمِرون طائرات لِتدمير أربع

(669) *Virtuous Violence,*, p. 211.

وأربعين قرْيةٍ، وسفينة حربية لِقَصف المُدن الساحلية، وقوات مغاوير خاصة لِقتل الناس.[670] اعترف الفَرنسيون بِقَتل ألفٍ وخَمسُمائة جزائري في حين أدعى الجزائريون مقتل خمسين ألفًا منهم. ولِهذِهِ الأسباب تحديدًا، خَلَصت الطبيبة النفسية، إيفيلين لندنر إلى النتِيجة الآتية: «إن العقل المُهان هو السلاح الأَمضى والأَقدرُ على التدمير الشامِل».[671]

نَفَّذَ عالم الاِجتماع، برادلي كامبل، دِرَاسةً شامِلةً عن أحد أَشْرَس وأَعنف أنواع الأَلعاب التي نَشتَرك فيها، لَاحظ فيها اِحتِمال ارتِكاب أفعال الإِبادة الجَماعية في الحَالات التي «تَختَبرُ فيها جَماعةٌ رَفيعة المَنزِلة تَدَهورًا في مَكَانتها أو تهدِيدًا لَها، أو في حالة ارتِقاء جماعة مُتدنية المَنزِلة أو مُحَاولتها الارتِقاء بِمنزِلَتها».[672] إنه التَدَهور في المَكَانة بَين هَذين الحَدين الذي يؤدي إلى الجُزء الأَكبر من حَالات الجُنُون الفَظيعة. والأَخلاقية السمية مُتجذِرةٌ تَجذُرًا عَميقًا في هذه الحَوَادث: «فَالإِبادة الجَماعية أَخلاقية لِلغاية»[673] لِأَنها ألعاب هيمنة-فَضيلة تُنَفّذ باسم العَدَالة وإِعادة الأمور إلى نِصابها الصَّحيح. وهي ليست عَمليات قَتلٍ مَحضة أو «تَطهير» للأعداء؛ بل إنها تَتصل بِمُعالجة الهَوَس بالعَظَمة المُهَان لدى الجُناة المُعتَدين في عُرُوضٍ أدائية عِلاجية غَريبة مَضْمُونُها الهَيمنة والإِذلال.

إِنهم مَعرُوفون، في العَادة، بما يُعرف به القَتَلة من «شِدة الحَماس والاندِفَاع في إِذلال» ضحاياهُم. مَارس الجُنود الأَتراك، في أثناء الإِبادة الجَماعية الأَرمنية، لعبة قَذفِ الناس من خيولهم على سيوفٍ مُثَبَّتَةٍ في الأرض من مَقابِضها؛[674] وسَحَبَ

---

(670) *The Rise and Fall of the Third Chimpanzee*, Jared Diamond (Vintage, 2002). Kindle location 4933.

(671) 'Genocide, Humiliation, and Inferiority: An Interdisciplinary Perspective', Evelin Gerda Lindner, in *Genocides by the Oppressed: Subaltern Genocide in Theory and Practice*, edited by Nicholas A. Robins and Adam Jones (Indiana University Press, 2009), chapter 7, pp. 138–158.

(672) *The Geometry of Genocide*, Bradley Campbell (University of Virginia Press, 2015), p. 16.

(673) المصدر نفسه، ص 31.

(674) المصدر نفسه، ص 3.

الهندوس ضحاياهم من المُسلِمين من لِحاهُم، وَدَنسوا القرآن، وسَاروا بهم في الشوارع وهُم عُراة، وبأصابع مقطوعةٍ، وأَجبَروهم على الترديد عَاليا: «يحيا الإله رام»، ولَعبوا الكريكت بِرؤوس بَعضهم المَقطُوعة في مَجزرة وِلاية كوجرات؛[675] وَوَقَعت أمورٌ مُماثِلةٌ في حرب الإبادة الرُّواندية، إذ أُوقِفِ أفراد جماعة التوتسي، رمزيًا، «عند حدهم» بَعدَما قُطِعت أوتار آخيل في أَقدَامِهِم، وإجبَارهم على الزَّحفِ على أَرجُلَهم قبل الإِجهَاز عليهم.[676] أَخبَرَ المُغتصِبُون الهوتو ضحاياهُم: «أنتُن، نِساء التوتسي تتخيلنَ أنكن أعلى مَقامًا مِنا»، و «أَنتُن، يا فتَيات التوتسي فَخُورات لِلغاية»، و«تَتَذكرن عندما كُنتن مزهوات بِأنفسكن في الأَشهُر الماضية، ولم تكن تَنظُرن إلينا لشُعُوركن بِأننا أدنى مكانةً مِنكن؟ لن يَتكرر ذلك أَبَدًا مرةً أُخرى».

ويصدقُ الحَال ذاتُهُ على الهُولوكوست والمرحلة التي أفضت إِليها. إذ بَدَأت عَملية القَتل الجَماعي لِليَهود بعدما تَحوَّلت دَفَّة النصرِ في الحرب بَعيدًا عن هِتلر، وأضحَت أُمَته وحُلمُها بِالعَظَمة يتداعيان أمامه. لم يَكن البَرد أو الجُوعِ أو الضَرب هو الشيء الأسوأ في مُعَسكر أوشفيتز، بالنسبة لِلنَاجية ماريان تورسكي،[677] بل «الإِذلَال. ولِأننا يهود، لم يَكن العَاملون في المُعَسكر يُعامِلوننا بوصفنا بَشَرًا، بل قَملًا، وحَشَرات فِراش، وصَراصير». وفي حين عَمَلَ النازيون في «تَطهير» جَميع أَنواع المُنحَرفين عن لُعبَتهم، ومن بينهم الشيوعيون والغَجر والشواذُّ والمّعاقون، إلا أن اليَهُود المَحسُودين والمَغضوب عَليهم هُم الفِئة الأهمُّ التي خَصَّها النازيون بِهذه النوع من المُعاملة الوَاضِحة في مَقاصِدها التحْقيرية. حدث ذلك مِرارًا وتِكرارًا؛ إذ قَصَّ النازيون شَعرَ رؤوس اليهُود علَنًا، وحَلَقوا لِحاهُم،[678] وسَاروا بِهم في اِستِعراضَات بسَراويل مُمزقةٍ وعَلامات حول رِقابهم، وأَجبَروهم على شُرب كميات خَطِرة من زيت الخِروع،[679]

(675) المصدر نفسه، ص 74.

(676) 'Genocide, Humiliation, and Inferiority: An Interdisciplinary Perspective', Evelin Gerda Lindner,....pp.138-158

(677) "'Humiliation was the worst"; Holocaust survivor at UN, asks world to act with "empathy and compassion"', Uncredited author, UN News, 28 January 2019.

(678) Public display, Topography of Terror, Berlin (visited November 2018).

(679) *The Coming of the Third Reich*, Kindle location 7898.

وأمروهم بأداء مَهام عَبثية من مثل نَقل الحَصَائر ذِهابًا وإيابًا، وبناء الجُدران المَرة تلو الأخرى، والجلوس مُقرفَصين وحَاملين على أكتَافِهم جُذُوع شَجرٍ ثقيلةٍ.(680) وعلى غَرار الثَّوريين الثَّقافيين في الصِّين، كان إِجبار المُعتَقلين على التنظيف هو الفِعل المُفَضَّل لدى النازيين. شَهَدَ الصَّحافي، وليم شيرر، في فيينا: «مجَاميع من اليَهود جاثمين على أيديهم ورُكَبهم يَمسَحون أَية علامات تَدل على كورت شوشينغ [السياسي النمساوي المُناهِض للنازية] من على الأَرصِفة، يُشرف عليهم أفراد من قوّات العَاصِفة المُستهزئين. وأَقدَم عَددٌ غَفيرٌ من اليَهود على قَتل أَنفُسهم. لم تَكن تُدهِشني كُل أَنواع التقارير عن سادية النازيين، والنمساويين أيضًا. أُجبِرَ الرِّجال والنساء اليهود على تَنظيف المَراحيض الصِّحية. والتُقِط مئات منهم عَشوائيا من الشوارع لِتَنظيف حَمَّامات الشباب النازي».(681) وفي أوروبَّا الشرقية المُحتلة، يُشاهد حَشدٌ من الناس المُنهمكين في الغِناء والضَّحك والعَزف على آلة الأوركوديون مجموعةً من اليَهود الذين أُجبِروا على تَنظيف رَوث البَقر من أرضية مرآب سيارات، وضُرِبوا حتى كادوا يموتون بِالبَنادق وقُضبان الحَديد، وأُدخِلت قَسرًا خراطيم مياه ضغط عالٍ في أفوَاههم حتى انفجرت مِعَدهم؛ وحال الانتِهاء من قتلَهم جميعًا، صَدَرت الأَوامر إلى مجموعةٍ أخرى من اليهود لتَنظيف المَكان من الدماء والجُثث.(682) وعُثِر، في ضَاحيةٍ أخرى، على حاخام «مُنحنيا على كُتبه المُلَطَخة بالدماء في حين يُحدق به رَأسه المَقطوع من الغُرفة الأخرى».(683)

جميعُ هذه الأفعال بعيدةٌ عن الملاءمة أو عن التخلص اليسير من الأعداء طَمَعًا في المَكاسب المادية. ثمَّةَ رِسالةٌ في هذه الكَوابيس. إِنها تُخبرنا شيئًا حَقيقيًا عن منْ نكون، وكَيف نَلعب؟

---

(680) Public display, Topography of Terror, Berlin (visited November 2018).

(681) *Berlin Diary: The Journal of a Foreign Correspondent, 1934–1941*, William L. Shirer (Ishi Press, 2010), p. 110.

(682) *The Geometry of Genocide*, Bradley Campbell (University of Virginia Press, 2015), pp. 159–160.

(683) المصدر نفسه، ص 150.

الفصل الرّابع والعشرون

الخروج من الجحيم

ليست الألعاب، المُكتظة بِأبناء العُمُومة، التي اِبتدعناها في تاريخ وجودنا شيئًا إنْ لم تكن عَنيدةً ومستبدةً. عَرَفتْ لُعبَة الفَضيلة-الهيمنة طَبيعة وجودنا إلى حدِ بعيدٍ لِآلاف السنين. إننا نُولد في شَبكةٍ مَبنيةٍ على القَرابة[684] قَوامُها الأَعمام والعَمات والأَخوال والخَالات والأَصهار، وأُسر مُترابطة تُوحدها أساليب عيشٍ وعملٍ مُميزةٍ تمتد زَمنيًا إلى الماضي البَعيد، وتَضيف الكثير إلى هويَة الجَماعة. ومعنى التوافق والمُضي قُدمًا هو الامتثال لِهذه القَواعد والرُّموز، وضَبطَها عِندما يُخطِئ الآخرون، وتُبجيل الأَكبر سِنا وَمقامًا، والإِيفاء بِالالتِزامات، والاشتِهار بالولاء وتَنفيذ الوَاجِبات وتَعزيز قيمة نجاح اللعبة بِرُمَّتها أيضًا. والسبب في الِاستمرار المُذهل لهذه الشبكات يَعود جُزئيا إلى حَقيقة أن أَلعاب الفَضيلة هَذه كانت ميالة إلى التكرار الذَّاتي. حَدَثت الزِّيجات غَالِبًا ضِمن شَبكات القَرابة، وَاستَمر هذا الحال لِقرونٍ.[685] نَصحَ الفَارس الفرنسي من بَلدية لا تور-لاندري الفَتيات العَذراوات على «الزَّواج من أقاربهن» على الدوام.[686] وإلى يومنا هذا، تقع زيجةٌ واحدةٌ من كُل عشر زِيجات بين الأَقارب بِما فيهم أبناء العُمُومة.[687] إلا أن الفَضِيلة والهَيمنة ليستا الوَسيلة الوَحيدة التي طَوَّرها البَشر لِلفوز بالمَكانة. إذ

---

(684) *The Weirdest People in the World*, Joseph Henrich (Penguin, 2020), p. 27.

(685) المصدر نفسه، 167.

(686) *The Politico's World*, Joan Wildeblood and Peter Brinson (Oxford University Press, 1965), p. 21.

(687) *The Weirdest People in the World*, p. 157.

بِوسعنا أيضًا استخدام اِستراتيجيات النجاح. كان تَقديم المَنافع والفَوائد للآخرين، في أفعالِ دَالةٍ على البَراعة والكِفاية، أَحد السبُل المؤدية إلى الظّفر بالمكانة في الجماعات القَبَلية التي تَطوّرنا فيها، من نَحو أَنْ تكون الصّياد الأمهر والمُعالِج الأفضل، ومُكتشف العَسل الأبرع. ويَكتظ العَالم الحَديث اكتِظاظًا مُكثفًا بِألعاب النجاح التي يُمارِسها العُلَماء والتقنيون وَالبَاحِثون وَالشرِكات المُساهِمة والمُبدعون. ولا يفوز هَؤلاء بِالمكانة عن طَريق إِظْهار الصَّوابية الأَخلاقية وفَرضها، بل لِأنهم يُصبِحون أذكى وأثرى وأبرع وأقدر على التجديد والابتِكار.

نَشأ التحديثُ في الغَربِ. والأَجوبة كَثيرةٌ عن السببِ، ومع ذلك، لا واحد منها- وهو شيء لا يَنبغي أَنْ يَكُون أَمرُ ملاحظته ضَروريا- يزعُم أن شَيئًا ما مُتفوّقًا تَفوّقٌ فِطريًا يتميز به المَولُودُون في هذا الجُزء مِن العَالم. هذه الأَسبابُ مُعَقدةٌ، إذ يَتَصلُ قسمٌ مِنها بِالعَوامل الجُغرافية المَيمونة: أي الظُّروف المَناخية التي أَسعَفت زُرَّاع المَحاصيل ومُربي المَاشية الأَوائِل.(688) عَجَّلَتْ مَحاصيل الحِنطة والشعير وتَربية المَواشي والأَغنام بعملية الاستِيطان، وتَكديس الثَّروات، وتَقسيم العَمل إلى تَخَصُّصات مَبنية على الطَّبَقة. اِتَّجه الباحِثون، الذَّين تَعَقَّبوا جِذور الفردانية الغَربية في مَواضع أُخرى، بِأَنظارهم صَوبَ اليُونان القَديمة،(689) وفَطِنوا أيضًا إلى طَبيعتها الجُغرافية؛ إذ كانت حَضارة تَنقيطية للغاية مُؤلفة من قرابة الألف من الدويلات-المُدن المُتَناثرة في عَددٍ من السواحل والجُزر الصَّخرية التي يَستَحيل فيها غالِبًا الزِّراعة واسِعة النطاق. وأرغمت هذه الظُّروف الناس على تَدَبُر أمورهم، لا بِوصفهم أَفرادًا مُطيعين في مجتمعات مَحَلية زِراعية، بل بِوصفهم أَصحابَ مشاريع، إذ عَمِلوا في صيد السمك وصُنع الفَخَّار ودَبغ

---

(688) قُدِمت هذه الفِكرة في:

Guns, Germs, and Steel, Jared Diamond (Vintage, 1998).

(689) قُدِمت هذه الفِكرة في:

The Geography of Thought, Richard E. Nisbett (Nicholas Brealey, 2003) وعَملت في تطوِيرها في كتابي *سيلفي*، 2017.

الجُلُود.

كان اليونانيون القُدماء مُبادرين، وعلى احتِكاكٍ دائِمِ بالتجّار الذين يأتون بِرُؤى وَوجهات نَظرٍ جديدةٍ من المُجتمعات الأُخرى، وحتى من القَارّات البَعيدة. وهذا شَجعَ على اِزدهار أَلعاب القُدرة والنقاش الفَردي المَولَعة بِالنجاح. ومنْ دَاخِل هذه الأَلعاب بَرَزَ مِثالُ الذّات، المَبني على الفرد مُطلق القوّة، الذّي يَبقى مِن مُميزات الثَّقافة الغَربية. إِلا أن روايات من هذا النوع ليست سِوى جزءٍ من الجَواب. إذ يُمكن العُثُور على عَاملٍ آخرٍ عن طَريق التوجه في رِحلةٍ عميقةٍ في تاريخ أَلعاب المَكَانة الخاصَّة بعقيدة التوحيد والمال. الثّروة والأديان الكُبرى في أرجاء العَالم هي مصادر تهديد أساسية لِلقوى المُهيمنة الخاصَّة بِالمَلك والمَلِكة، والإمبراطور. وتَمخض بروز الزُّعماء المُقَدسين والتجار الأَثرياء إلى ظُهور طَبقات نُخب جديدةٍ تقود أَلعابًا مُتصارعة. بيد أن الغَرب هو الساحة التي شَهَدت تَمَكُن ألعاب المَكانة لِأوّل مرةٍ من التغلب على أَلعاب الفَضِيلة القَديمة، والتسيد على الثَّقافة فيها.

وحُدوث ذلك لم يكن نتيجةً لِاستراتيجيةٍ أو مَكيدةٍ، بل بِالصّدفة والعاقبة غير المَقصودة. إِنها عمليةٌ كاشفةٌ عن القوَّة التي تحظى بها الأَلعاب، التي نُمارسها من أجل الظَّفر بِالمكانة، في تَعريف الذّات والثّقافة وَالتاريخ. يُريد البَشر أنْ يعرفوا: منْ يَجِب أنْ أكون لِكي أَتمَكن من التوافق والمُضي قُدمًا؟ سيُصبح المولودون في بيئة الهَيمنة والفَضيلة والطّاعة لِلطبقة الاجتماعية والأَقارب لَاعبين يُمارسون هَذه الأَلعاب، وسَيَعيشون في الحُلم الذّي نَسَجوه لِأنفسهم. لَكِننا اِنْطَلَقنا، مع بداية العَصر الحَديث، في الغَرب في بادئ الأمر، في البحث عن الصِّلات والمَكَانة في خارج جَماعات القَرابة، التي ننتَمي إِليها، فضلًا عن العِناية بِالأَفكار الجَديدة والمُفيدة الوَافدة من الجَماعات والقَارات الأَجنبية. اِندَفعنا نحو إِنتاج المَكَانة الأَساسيَة بِالدراسة والاِبتكار والتوصل إلى التنبؤات الصَّحيحة عن الوَاقع، ومُجازاة بَعضنا بعضًا لِاكتِشافنا الحَقيقة والاِنتفاع بها. وأَضحت أَلعاب النجاح

هذه نَشاطًا محمومًا اجتاح أوروبا الغَربية والولايات المُتحِدة الأمريكية، ثُمَّ انتقلت العَدوى إلى بَقية أَنحاء العالم. وغيرت هذه الأَلعاب كُل شيء، وَكانت طَريقنا إلى الخُروج مِن الجَحيم.

وربما لم يَكن لِهذه الأَلعاب أَنْ تَظهر أَبدًا لولا اِنشغال الكَنيسة الغَريب بِزنا المَحارِم.[690] دأبت الكَنيسة، في مُدةٍ زَمنيةٍ فاقت الألف سَنةٍ، بِدءًا من عام 305 ميلادية، في إِحداثِ سِلسلةِ من التغيرات في القَواعد التي تَضافرت لِتَعطيل أَلعاب الفَضيلة القَديمة المُتقوقعة، والمَبنية على القَرابة والأُسرة المُمتدة، وأَرغَمت الناس على مُمارسة اللعبة بِأساليب جديدةٍ.[691] إذ حَرّمت الزّواج التعَددي، والزّواج من الأَقارب بما فيهم أبناء العُمُومة من الدَرَجة السادِسة؛ والزَواج من الأصهار بما فيهم زَواج الأَعمام من بَنات الأخوة والرِّجال من زَوجات الأب وزَوجات الأبناء. وإضافةً إلى ذلك، وَضعت الكَنيسة حَدا لِلزيجات القَسرية، وشَجَعت المُتزوجين حَديثًا على إِنشاء أُسرهم بَعيدًا عن اَلأُسرة المُمتدة، وحَثت على التوريث الفَردي بِالوصية والشَهادة عِوضًا عن الانتقال التقليدي لِلمُمتلكات إلى الجَماعة. كان مُتوقعًا أنْ يستغرق هذا الأمر قرونًا عديدة، لكن بِسَبب الهَوس غير المُقدس الذّي أَظهرته الكَنيسة، أصبح مُقَدرًا لِما حَدث أن يُغير اللعبة إلى الأَبد.

اِستَدل جوزيف هنريش، أُستاذ عِلم الأحياء التطوري البَشري، على هذه التعديلات في القَواعد وتَأثيراتها التاريخية. إذ قَدَمَ، بِالاشتراك مع زُملائِهِ، مجموعةً باهرةً من الأَدِلة دَعمًا لِهذا الِاكتشاف، وقَال إن هذه التغيرات قد «قَسمت تَقسيمًا مُنتَظمًا العَشائر والجَماعات القَرابية في أوروبا إلى أُسر أوّليةٍ أُحادية الزَّواج».[692]

---

(690) قُدِمت هذه الفِكرة في:
The Weirdest People in the World, Joseph Henrich (Penguin, 2020).
(691) The Origins of WEIRD Psychology', Jonathan Schulz, Duman Bahrami-Rad, Jonathan Beauchamp and Joseph Heinrich, 22 June, 2018.
The Weirdest People in the World, Joseph Henrich (Penguin, 2020), pp. 165–199.
(692) 'Western Individualism Arose from Incest Taboo', David Noonan, *Scientific American*, 7 November 2019.

فأضطَر الناس إلى البَحث عن المَكَانة في خارج شَبَكات القَرابة، واللعب مع الغُرَباء أيضًا. و«تَعلم الترحال في العَالَم بِقليلٍ من الرَّوابط والصِّلات المَوروثة» هو تَطويرٌ لِبناء نفسي جديدٍ، مِما يعني إعادة كِتابة شَفرة ماكينات مُمارسة اللعبة.(693) صَنَعَ الناس أَلعابًا لِأنفسهم اعتمد فيها «النجاح والمَكَانة» على «شَحذ السِمات الشخصية المُميزة؛ والانتفاع بها في اِستقطاب الأَصدقاء والأَزْواج وشُركاء العَمل، ثُمَّ العمل على إدامة العِلاقات بوساطتها». الأَهم في ما وَرد في دِراسة هنريش هو إظهارها أن القَواعد الجَديدة التي وَضَعها الكَاثوليكيون تَسَببت في تغيير ما كُنا عَليه: كُلما طَال أمد عيش الناس في ضوء هذه القَواعد، أَضحت جماعات القَرابة أَوهن وأكثر تَفكُّكا، وأَميل إلى التطَلع إلى الخارج، والثِّقة بِالغُرباء، والتمرُّد، والتركيز على الذّات والفَردانية.(694) والسَبب في تَيسر حُدوث عملية إعادة التشفير النفسي الجَماعية هذه يعود فقط إلى نَجاح الأَديان الرَّئيسة في دس حُلمُها الخاص باللعبة في عقول مَلايين البَشر.

يُعودُ الفَضل في اِنتشار العَقيدتين الأَنجح، أي المَسيحية في البِداية، ثُمَّ الإسلام، في جزءٍ منه، إلى التعديل الذّي شهِده نِظام مُعتقداتهم؛ فعلى العكس من الديانات الوَثنية والرُّوحانية، التي تَمور بالآلِهة، كانت هاتان العقيدتان موحِدتين.(695) لم يَكنْ إلههم إلهًا، بل كان رَبًّا، الواحد الأحد، الذّي تَطبقُ أَحكامه الأخلاقية الشاملة الجَميع. وتَقَبُل حقيقة الآلهة الأخرى، ومُخالفة تَّعاليمه هي الآن بِمنزلة هرطقةٍ، ورَفضٍ واضحٍ لِمَعاييره التوحيدية المُتصِلة بِادعاء المَكانة. وحَفز هذا الشيء المؤمنين على تحويل عَقيدة المُحيطين بهم، والسيطرة على إقليمهم العَصبي. تَرى الدراسات أن العَقيدة الدينية لا تَغلب الناس لِأن الأَخيار ذوي الشخصيات الساحرة والمؤثرة يجوبُون المُدن على ظُهور مُهورهم، ويحوِّلُون الناس إلى عَقيدتهم

---

(693) *The Weirdest People in the World*, Joseph Henrich (Penguin, 2020), p. 28.

(694) 'Western Individualism Arose from Incest Taboo', David Noonan, *Scientific American*, 7 November 2019.

(695) *Sapiens*, Yuval Noah Harari (Vintage, 2015), p. 242.

جَماعيا، بل جاء اِنتشارها بِفضل الصِلات الشخصية، إذ يعمل الأَصدقاء وأفراد الأُسرة على إِقناع المُقربين إِليهم بِتَبنيها والإِيمان بها.(696) وقد نَجحَ الأمر. إذ تَحدثت الأبحاث التي تناولت تأثيرات التحول الديني عن «التحسن في الأَوضاع النفسية والعَاطِفية لِأكثرية المُهتَدين» بعد تَبنيهم للعَقيدة.

يَدعو الحُلم الذّي نَسَجه الموحدون في أعلى لُعبة الحَياة إلى الإيمان المُطلق. يَقول الأستاذ بارت اهرمان، البَاحث في العَهد الجَديد، إن الرّب لا يُمكن أنْ يُعبد بِتقديم القَرابين، على غرار الآلِهة الوَثنية، بل يُعبد بـ «الإيمان الصَّحيح...ومنْ لا يؤمن إِيمانا صَحيحًا، فهو مُذنبٌ أمام الرّب».(697) كانت العُقوبات المفروضة على الإيمان الناقص قاسيةً بقدر القَسوة التي يُمكن لِلخيال بلوغها: إنهُ تحقيرٌ دائمٌ في الدَرَك الأسفل من الجَحيم، إذ كان الناس يوعدون بِالعَذابُ، المُسلط على الجَسد في الغَالب، في شكل «حرقٍ أبدي لا يُبلى»، في خُطبٍ تفوق الحصر من مثل خُطبة القِديس ليونارد:«النار، النار، نارُ الجَحيمِ جزاء فُسوقكم، أيها المّذنبون. نارٌ في أعينكم، نارٌ في أفواهكم، نارٌ في بطونكم، نارٌ في حناجركم، نارٌ في أنوفكم، نارٌ في أحشائكم، نارٌ تُحيط بكم، نارٌ في أسفلكم، نارٌ في أعلاكم، نارٌ تُحيق بكم. آه، أيها الأشقياء، ستكونون مثلَ جَذَوات الجمرِ المُحترقةِ في هذه النار».(698) وقد يؤدي عَدم الإيمان أيضًا إلى تَدهورٍ في المكانة في العالم الواقعي مع ما يَترتب على ذلك من تُبعات حقيقية ومَلموسة للغاية: فإذا نجا غير المؤمن من المُضايقة والتَعنيف الصَّريحين، فإنه في الغَالب يُحرم من الامتيازات القانونية والاجتماعية، وتُفرض عليه غرامات مالية أعلى في بعض المجتمعات المَحلية المُسلمة.(699) أما ثوابُ الإيمان فهو الصِّلات والمَكانة في هذه الحياة، وجِنات النعيم في الحياة الآخرة. يقول

(696) 'psychological and emotional condition': *Not Born Yesterday*, Hugo Mercier (Princeton University Press, 2020), p. 123.

(697) *Inside the Conversion Tactics of the Early Christian Church*, Bart D. Ehrman, History.com, 29 March 2018.

(698) '*Sin and Fear*, Jean Delumeau (St Martin's Press, 1990), pp. 365,380.

(699) 'Medieval Muslim societies', Uncredited author, Khanacademy.org.

المُختص بارت اهرمان: «لم يوطّد الدين قط فكرةً مثل هذه مِن قبل. خلقَ المَسيحيون حاجةً إلى خَلاصٍ لم يكن أحدٌ يعلم بِوجودهِ. ثُمَّ قالوا إنهم وحدهم منْ بِقدرته تلبية هذه الحاجة. ونَجحوا في ذلك نَجاحًا باهرًا».[700]

صارت الكَنيسة الكَاثوليكية، بحلول القرون الوسطى، المؤسسة الأقوى في العالم، وَزعيمها الأقوى بين الأحياء. كان البابا وأساقفتهِ وقساوسته، الذّين يشغلون القِمَّة في اللعبة، يُعينون إلهيا، في جزءٍ من «تَسلسل رسولي» يَمتد مباشرةً إلى حواري المَسيح. وإِهانة القَس هي بمنزلةِ جريمةٍ بِحق الرّب.[701] أثْرَت الكَنيسة، وأَضحت الإِقطاعي الأهم في أوروبا، إِذ تستأثر بـ 44٪ من أَراضي فَرنسا ونصف أراضي ألمانيا.[702] والنتيجة المحتومة هي أن أفراد الطَّبقة المِهنية في الكَنيسة باتوا ثَملى بِالمَكانة، إذ أحاطوا أنفسهم بالكُنوز والثَّروات، وأصبحوا يَعتمرون القُبعات الكَبيرة، ويُصرون على إِبداء مظاهر التبجيل المُطلق في حَضرَتهم- إذ تُثنى الرُكبتان وتُخلع القُبعات- وأن يُخاطبوا بِالألقاب من نحو «قَدَاستكم» و«فَخامتكم» و«سِموكم». والفَضل في الجزء الأكبر من ثَروتهم يعود إلى تعديلٍ مَاكرٍ في واحِدةٍ من قَواعد اللعبة. قد يَكون صَحيحًا أن المَسيح قال يوما ما «أَنْ يَدخل الجَمل في ثُقب الإبرة أيسرُ من أنْ يَدخُل الغَني ملكوت الرَّب»، لَكنهم أَضافوا تَعديلًا خَادِعًا: بِوسع الأَغنياء التمتع بِثَرواتهم في الحَياة الدنيا، ثُمَّ وَهَبها إلى الكَنيسة قَبل الموت بِقليل؛ وهذا يعني، بَعد كُل ذلك، أنهم سَيكونون فقراء عند وصولهم إلى أبواب الجَنة إذا ما تَخففوا من ثُقل الثَّروة ولو قبل ثَانيةٍ من وفاتهم.

يُشكِّك المُختصُّون الأَكاديميون في مدى اِقتناع الناس العادين في القُرون

(700) *Inside the Conversion Tactics of the Early Christian Church*, Bart D. Ehrman, History.com, 29 March 2018.

(701) *A Little History of Religion*, Richard Holloway (Yale University Press, 2016), pp. 124–150.

(702) *The Weirdest People in the World*, Joseph Henrich (Penguin, 2020), pp. 182, 185

الوِسطى بِحُلم المَسيحية. إذ سِاورت بعضهم الرِّيبة فيه، بلا أدنى شكّ، ومَارسَ بَعضهم الآخر لعبة مُزدوجةً استمر فيها في توقير التَقاليد الشِركية (أي تَعدد الآلهة) القَديمة (التي عملت الكَنيسة في تجديد الكَثير منها عن طريق العَدد الكَبير من القدِيسين الذين قَدمتهم، وتَلاعبها بالأَعياد الوَثَنية). مع ذلك، بدا الأملُ في الجَنة ومَخافة الجَحيم حقيقيين وشائعين شيوعًا مؤكدًا؛ إذ قَدَم الأَغنياء إلى الكَنيسة الكَثير من الأموال ابتغاء الفوز بحياةٍ أفضل في الآخرة، وَشَرعَ القَادة والحُكام الدنيويون قَوانين لِتَقييد إنفاقهم لِلمال.[703]

كانت الكَاثوليكية لعبة فَضيلة–هيمنة يرجو فيها اللاعبون رَحمة الرَّب لِانتشال أَنفُسهم من القاع. تَساءلت القِديسة كاثرين من جنوه «ما الإنسان من دون النعمة الإلهية؟ أَشرَ وأَخبث من الشيطان».[704] كانت الحياة لعبة مَكانةٍ تَفوز بها غَالِبًا في دار المَقام؛ إذ يعتمد مَقرُّك الأخير على بَراعتك في مُمارستها. اِمتازت قَواعد اللعبة بِأنها مُعقدة إلى حد ما. فَالرَّب الوَدود والمُحب دائمًا يَهبُ الرَّحمة لجميع المؤمنين شَريطة أنْ يُبرهن اللاعبون على قُبولهم لِهذا العَرض السخي بِإتيانهم صالح الأعمال في الحَياة الدنيا. يقول المؤرخ الأُستاذ، بيتر مارشال، «الأمر الصَّعبُ هنا هو معرفة إِذا ما كان المرء قد أَتمَ المُتطلبات كُلها لكي يُعلنها «نعم» صريحةً وقاطعةً لِدعوة الرَّب».[705] أضحى هذا السؤال هَوَسًا وأمرًا مُقلِقًا لِعددٍ غفيرٍ من الناس المَرعوبين. ويُقال إن شُعورًا «مُتَفشيا ومُروّعًا» بـ «قلق النجاة» قد سَيطر على مَساحات شاسعةٍ من العالم المَسيحي في أَواخر القُرون الوسطى.

وَجَدت الكَنيسة في هذا القَلق فرصَةً مؤاتيةً. إذ أدعى البابا القُدْرة على ضَمان مَكانٍ لِلمرء في الجَنة عن طَريق السحب من «فائض» الأعمال الصَّالِحة لِلقديسين في مُقابل المال. فَشَرعَ في إصدار رسائل أو صُكوك غُفران تَغفر الذُّنوب وتُيسر انتقال المرء إلى الحياة الآخرة. وبعد أنْ كان القَصد الأَوّلي منها هو تَقديمها بوصفها

(703) المصدر نفسه، ص 183- 184.

(704) *Sin and Fear*, Jean Delumeau (St Martin's Press, 1990), p. 2.

(705) *The Reformation*, Peter Marshall (Oxford University Press, 2009), pp. 43–44.

رشاوى إلى الرِّجال لِلانضمام إلى الحَملات الصَّليبية ضد مُنافسي الكَنيسة المُسلمين، تحولت هذه الصُّكوك سَريعًا إلى وَسيلةٍ لجمع الأموال، لا سيما تَشييد رُموز المَكانة الفَخمة من نحو الكَنائس والكاتدرائيات. اِزدهرت سوقٌ لِهذه الصُّكوك بِوسع المَرء فيها أنْ يشتري المَغفِرة عن ذنوبٍ من بينها زَواج الأَقارب،[706] بل باعوا الصَّفح والمَغفرة لِذنوب قد تُرتكب في وقتٍ لاحقٍ.[707] شُيدَ الجُزء الفَخم والباهر المَعروف بِـ «بُرج باتر» [يُترجم إلى بُرج الزَّبدة] في كاتدرائية روان بِالأموال المُستَحصلة من بيع صُكوك الغُفران التي تُجيز تَناول الزِّبد في الصَّوم الكَبير.

لكن الأمر لم يَخلِ من المُشكلات. فقد شَرعت نفس الكَنيسة، قبل قرونٍ، في إعادة بَرمجة عُقول اللاعبين فيها، وأدى هَوَسها بِسفاح القُربى إلى سِلسلةٍ من التَعديلات في القَواعد التي فَككت أنماط العيش القَديمة المَبنية على الطَّبقة الاجتماعية والأُسرة المُمتدة. لم يَعد مُتاحًا ولا مُمكنًا بالنسبة لِلكَثير من المَسيحيين النجاة نَجاةً كاملةً بِالانكفاء على أنفسهم. فارتفعت معدلات عيشهم في مَنازلهم في أُسرٍ أَوّليةٍ لا يتجاوز عدد أطفالها الاثنين إلى الأربعة.[708] وعَملَ بعضهم أَجيرًا لِصالح أحد الإِقطاعيين، وانتَقل بعضهم الآخر إلى البَلدات والمُدن. وَجَد هؤلاء أَنفُسهم، بعد أنْ أرغمتهم الحُروب وَالأَوبئة على الانتقال من الرِّيف، مُفترشين للشوارع والأَسواق والساحات، وَمُختلطين بِغرباء تَعين عَليهم أَن يُقيموا عِلاقات مُثمرة وآمنة ومِهنية معهم.

وبِذا، تَغيرت عملية التوافق والمُضي إلى الأمام. إذ تَأسست الجامعات، منها خمسون في عام 1500، التي تَخرج فيها المُحامون والكُتاب، والمُختصُّون بِالرِّياضيات والمَنطق والفَلك.[709] وَشَكل الحِرفيون وأصحاب المِهن، الذين

---

(706) *The Weirdest People in the World*, Joseph Henrich (Penguin, 2020), p. 185.

(707) *The Renaissance*, Jerry Brotton (Oxford University Press, 2006), p. 69.

(708) *The Weirdest People in the World*, Joseph Henrich (Penguin, 2020), p. 189.

(709) *The Weirdest People in the World*, p. 319.

حَظيوا وقتذاك بِفرصةٍ أرحب في اختيار المِهنة بناءً على التفضيل الفَردي لا في ضوء صدفة الوِلادة، النقابات المِهنية التي كانت ألعابًا ناجحةً اِزدهرت وضَمت في عضويتها جميع أنواع الحِرفيين من مِثل الحَدادين وصَانعي الخُمور، والنساجين، والزَّجَّاجين، والصَّباغين، وصانعي الأَحذية والأَقفال والخَبازين ودابغي الجُلُود. ولِكُل مجموعة من هؤلاء الحِرفيين قواعدهم ورموزهم التي يمنحون بِموجبها المَكانة المُستندة إلى النجاح إلى زملائهم الأعضاء، مع حُصول بَعضهم على لقب «الحِرفي المَاهر/ أو الأُستاذ». يَتَتلمذ اللاعبون الشباب الطَّموحون على يدِ أستاذٍ، فَيَتعلمون الحرفة ويَنضمون إلى اللعبة قبل الاِنتقال إلى أستاذٍ آخرٍ طَمعًا في المّزيد من الخِبرات.[710] ومع تنامي الخِبرة، يزداد الطَّلب على البضائع النوعية، فيَظهر للوجود «ميثاق عمل أخلاقي» يَكتَسبُ فيه الكَد والعَمل رفعةً ومَهابةً. يقول المؤرخ أندريا كوملوسي: «يُمكن فهم هذا التحوُّل بوصفهِ بدايةً لِظهور المُجتمع المُبني على العمل، إذ تُرغم الفَعاليات المُتنوعة لجميع أفراده إرغامًا مُتزايدًا على اِكتساب خَصائص الإِنتاج الفاعل والكَدح المُجهد».[711] صرنا نحصل على المَكانة من أَنواعٍ جديدةٍ من الألعاب، وتَحوَلَ اهتمامنا تَحولا بطيئًا ومُتَقطّعًا وغير مُنتظم من الوَلاء لِلعَشيرة إلى الولاء للكِفاية والنجاح الفرديين. وأدى ذلك إلى تغيير بنائنا النفسي، وإعادة كِتابة الشفرة الثّقافية لِأدمغتنا التي تُمارس اللعبة، ونتيجةً لذلك، تَحولنا إلى أَصنافٍ جديدةٍ من البَشر. وهكذا، تَوطّد شُعورنا بِالاِستقلال، وشَغَلنا التركيز على الذّات، وأصبحنا نتطلع إلى خارِج الجَماعة، وزادت عنايتنا بالمهارة والتفوق الشخصيَين، وقل مَنسوب اِمتثالنا، وخَشيتنا من التقاليد والسلف والوَاجب والسلطة.[712] وصَفوة القَول إننا لم نَعد ذلك الصّنفُ من الناس المُستعدين لِتَحمل التنمر والتهديد، وقِبول الرُّشاوى والإِهانة من كَنيسةٍ فاسِدةٍ ومُتعطّشة لِلسلطة. وبِحلول القرن السادس عَشر، حَلت القَطيعة

(710) المصدر نفسه، ص 447.

(711) *Work*, Andrea Komlosy (Verso, 2018). Kindle locations 213, 229.

(712) *The Weirdest People in the World*, Joseph Henrich (Penguin, 2020), p. 314.

بين الكَنيسة الكَاثوليكية والطَّبيعة النفسية لِلَاعبين فيها، ولَاح شيءٌ ما في الأُفق كان مُقدرًا له أَن يَحدث.

كان البابا مُنهمكا في بيع صُكوك الغُفران في تشرين الأوّل من عام 1517 لِجمع الأَموال اللازِمة لِبناء رمزِ مَكانة غاية في الفَخامة، هو باسيليكا (كاتدرائية) القديس بُطرس في روما. أَشرف على المَبيعات في أَلمانيا الرَّاهب والوَاعظ الملحاح، يوهان تتسل المُقنِع، الذّي اِشتَهَر بِمقولته: «ما أنْ تَرنَ قطعة النقود في الخزانة حتى تَنتَقِل روحٌ من المَطهّر إلى السماء».(713) وأساء وصول هذا الرَّاهب امتعاض مارتن لوثر، أستاذ اللاهوت الأَخلاقي في جامعة ويتنبيرغ، الذّي تساءل مُتَعجبًا: «لِمَ لا يُشيدُ البابا، فَاحش الثَّراء، الذّي تفوق ثَرواته أَغنى الأغنياء، كَنيسة القديس بُطرس بِأمواله الخاصَّة بدلًا من أموال المؤمنين الفُقراء؟»(714) دَوّنَ لوثر اِعتراضاته في وَثيقةٍ عُرفت بِرسالة الخمس وتسعين قَضية، التي أرسلها إلى رئيس الأَساقفة، وعَلَقها على أبواب كَنائس المَدينة. ولو لم يَستمر البِناء النفسي لِلجَماهير الأوروبية في التغير على مَدار القُرونِ، لجَنحوا على الأَرجح إلى تَجاهل هذا التمرد المَحلي الصَّغير. لكن لوثر أَشعَل فَتيل ثورةً.

حَظيت حَركة لوثر بِاستِحسان ودعم النخب في أَلمانيا من مثل حُكام الأقاليم والمُلوك والأُمراء والدوقات. واستثمر لوثر أيضًا آخر ما جادت به التكنولوجيا، فبِفضل آلات الطِّباعة، انتَشرت كِتاباته انتشارًا سَريعًا وواسعًا، إذ شَهدت الأَعوام بين 1517 و 1520 توزيع ما يَفوق ثلاثمائة ألف نُسخةً من كُتبِهِ وكُرَّاساتهِ وانتِقاداتهِ.(715) وعلى الرَّغم من اختِلافه في الآراء مع مُفكرين آخرين، أهمهم جون كالفن، إلا أنهم أَسسوا، في النهاية، نوعًا جديدًا من اللعبة المَسيحية، بَعد ظُهور «البروتستانتيين» إلى الوجود، الذّين عَدَلوا ونَقحوا حُزمة القَواعد والرُّموز كي تُناسب اللاعب المُنشَغل بالنجاح في المَدينة الصَّغيرة والجَامعة والنقابة

(713) *The Reformation*, Peter Marshall (Oxford University Press, 2009), p. 13.
(714) *The Renaissance*, Jerry Brotton (Oxford University Press, 2006), p. 69.
(715) *The Renaissance*, p. 71.

والسوق.

لم تَعد الحياة، من وجهة نظر البروتستانتيين، اِختبارًا قاسيًا لِلفوز إما بِالجنة وإما الجَحيم لِأن الرَّب يعرف سَلفًا الموضع الذي ستنتهي إليه حياتك. تَعين على المؤمنين أنْ يبحثوا عن دلائل «الطَّمأنينة» لِمعرفة إذا ما كانت الأمور سَتؤول إلى نجاتهم أو إِحلال اللعنة عليهم:[716] إذ يُمكن العُثور على العَلامات الدالة على «المَكانة المُنتَخبة» في السلوك الشخصي كأن تكون فَاضِلا ورَزينا، وفي جني الثَّروة والمَنزِلة أيضًا في الحياة الدنيا. قيلَ إن لدى المؤمنين «مهمّة» شخصية تقع على عاتقهم، وقد وَهبهم الرَّب مَواهب خاصة يَجِب عليهم السعي لِتنميتها باختيار المِهنة المُناسبة، ثُمَّ العَمل بِجدٍ في إتقانها. ومن يَكدح في العَمل ويَتَحلى بِضبط النفس في لعبة من اختياره، فإنه يُسهل ازدهار عَطية الرَّب. أضحى اللعب من أجل النجاح الشخصي مُقدسًا، وفِعل عبادةٍ. بِوسعنا عند جلاء النظر في المِئات القَليلة من السنين أنْ نُدرك الطَّبيعة الحَقَّة لهذه الاِبتكارات الثَّقافية؛ فهي خطوةٌ طويلةٌ تقودنا إلى التحديث.

إلا أن التغيرات لم تَقف عند هذا الحد. إذ كَتَب لوثر عن اِنتفاء الحَاجة إلى وَساطة طَبقة رجال الدين النخبوية في عِلاقة المَسيحي بِربهِ؛ فَنحنُ جميعًا قَساوِسة.[717] يَتعلم المؤمنون/ اللاعبون بِأنفُسهم قراءة الإنجيل، المُترجم عن اللاتينية. وصار التعليم والتثقيف فَضيلةً مُقدسة، إذ لم يحظِ بالتشجيع على الانكباب عليه فحسب، بل أضحى إحدى قَواعد اللعبة الأساسية، وفعلًا ضروريا لِتنمية السلوك الأخلاقي الفردي، والارتباط بِعلاقةٍ خاصَّةٍ مع الرَّب.[718] ويبدو أن اِستحداث هذه القَاعدة لِوحده قد أسعَفَ في الدفع بِاتجاه إحداث تغيير جماعي آخر في بنائنا النفسي. تقترح الدراسات، مرةً ثانيةً، أن التغيير كان سَببيا وفاعِلًا. إذ لاحظ هنريش، في تحليلِهِ، أن معدلات الإلمام بالقِراءة

(716) *TheReformation,*PeterMarshall (Oxford University Press, 2009), p. 47.

(717) *The Reformation,* p. 80.

(718) *The Weirdest People in the World,* Joseph Henrich (Penguin, 2020), pp. 9–10.

والكِتابة كانت «الأسرع في البُلدان التي تَرسخ فيها وجود البروتستانتية ترسخًا عميقًا».[719] إن زيادة عدد البروتستانت في أي بلدٍ هي مؤشر على ارتفاع نسب التمكن من القراءة والكِتابة فيه حتى بعد وفاة لوثر بقرونٍ.

انتشرت نُسخة الدين المُنقح الذي تبناه البروتستانتيون في أرجاء أوروبا الغربية، بين السكان/ اللاعبين المُنشغلين بِأنفسهم نِسبيا، الذّين أَثقَل كاهِلهم قلق النجاة، ولم يعودوا مُستعدين لِتَقبل الخِداع والإهانة التي يُمارسها نُخبهم. يتجلى الغضب الشعبي آنذاك في الدعاية المُضادة لِلطَّبقة الدينية التي قَدمت الرُّهبان في صورة الذِئاب، والأَساقفة في صورة الشياطين والبابا في هيأة التنين.[720] في إحدى القُرى في مقاطعة كامبرج، في عشرينيات القرن السادس عَشر، حمَل رجلٌ قابلَ قَسا برأسٍ حَليقٍ حديثًا، روث بقرةٍ بِمجرفتهِ، وألقاه على إكليله، مُخاطِبا إياه بهذه الكَلمات: «أنتَ، وكُل من على شاكلتك، ستكونون سُعداء، قبل أن يمضي وقتٌ طويلٌ، بإخفاء يوافيخكم المَحلوقة بَدلا من أنْ تحرصوا على إظهارها».[721] انقسمت الكَنيسة، واندلعت الحرب بين الكَاثوليك والبروتستانت، وما تزال نيرانها مُضطرمة في بعض الأماكن.

مع ذلك، ما زالت ألعاب الفضيلة تُمسك بِزمام الأمور. وبقدر ما تبدو اللعبة البروتستانتية ثَوريةً في مُتبنياتها، لم يكن «النجاح» للمُتدينين تَدينا عميقًا مُنفصلا انفصالا تامًّا عن «الفَضيلة»، بل هو امتداد لها. كان هؤلاء المُتدينون يَهبون المَكانة لِمن يُظهر الكِفاية والبراعة، مع ملاحظة استمرار حدوث ذلك في سياق لعبة الفَضيلة المَسيحية الفَاعلة، وتأثره العميق بها. وبالنتيجة، سواء أكان القَساوسة، ورؤساء الأساقفة والبابوات هم من يتولون مقاليد الأمور، أم الأمراء والدوقات والمُلوك، ما تزال هذه الألعابُ في أصلها ألعاب طاعةٍ وامتثالٍ. فإذا كان اللاعبون المُنشغلون بِالنجاح على وفق الأسلوب الجَديد راغبين في قهر السلطات الرَّاسخة

(719) *The Weirdest People in the World*, p. 10.

(720) *The Reformation*, Peter Marshall (Oxford University Press, 2009), pp. 19, 80.

(721) *The Reformation*, p. 81.

في مواقعها، فهم بحاجة إلى تَشكيل نُخبٍ قويةً خاصَّةً بهم. وهم سيفعلون ذلك بجني الثَّروات.

أسهَمت الثَّروة، في القرون التي أَفضت إلى ثورة لوثر، في منح اللاعبين من الطَّبقات العادية غير المُقدسة وغير المَلكية وسيلةَ لبلوغ المراتب الاجتماعية الرَّفيعة. اِزدهرت هذه النخب الجَديدة بفضل المَكاسب المُتأتية من السعي إلى المكانةا وأدت طُرُق التجارة في آسيا وأفريقيا وأندونيسيا والأمريكيتين، في القُرون الوسطى من الأَلفية السابقة، إلى رواج استخدام السلع الفَاخرة عالية القيمة من نحو البُهارات والحَرير والسكر والحَشيش والقَنب والمخمل وخَشب الأبنوس والعاج وخَشب الصَّندل وجوز الهند والأصباغ المُتنوعة والموز وثمرة البابايا وراوند الحَدائق والبطاطا والأناناس والدمى الجِنسية وعطور العَنبر وقِط الزَّباد.[722] وانتعشت تِجارة العَبيد أيضًا. وعملت أوروبا، في أثناء ذلك، في تَصدير السلع التي يصنعها الحِرفيون المَهرة مثل المَنسوجات والأخشاب والأدوات الزُّجاجية والوَرق. أثرى التجار الذين كانوا يُديرون هذه الأعمال، وكان ثراؤهم فاحشا في أكثرية الأحيان. وشَرَعت بعض الأُسر التجارية في تمويل الرِّحلات الاستكشافية عن طريق تَقديم القُروض الإئتمانية لِلمغامرين في مقابل السداد لاحقًا مع الفَوائد. واِكتنز «المَصرفيون التجار» المال أيضًا، وتُمكنوا من جني ثروات تفوق الخيال. وشَهدت القابلية على التحرك الاجتماعية نَشاطًا محمومًا؛ إذ تَيسر لِرواد الأعمال وأصحاب المَشاريع الطموحين الذين يفتقرون المَوارد المالية اللازمة أنْ يبدأوا حياتهم المَهنية بِالسفر في قاربٍ في رِحلات اِستكشافية من هذا النوع والظَّفر برأس المال، ثُمَّ الارتقاء صعودا في لعبة التجارة. وبدأت شركات التجارة، في نهاية المَطاف، في الاِستِعانة بِجيوشها الخاصَّة وإنشاء المُستعمرات في القَارات البَعيدة.

وبِفضل الثَّروات الناجمة عن مجمل الأنشطة التجارية؛ وبروز طَبقة الحِرفيين

(722) *The Renaissance*, Jerry Brotton (Oxford University Press, 2006), pp. 90–91.

والصُّناع، ووباء الطَّاعون الأَسود الذّي خلف مَوارد يتقاسمها عددٌ أقل من الناس، والألعاب التي اِنهمك الناس في ممارستها من أجل الكِفاية والنجاح، أصبحت الأموال المُتراكمة تتدفق في مَسالك اللعبة. وهذه الثَّروة الجديدة هي تهديدٌ للقوى القَديمة. بات الفائزون في ألعاب النجاح يَنعمون بِرموز المَكانة ذاتها التي ينعم بها نُظراؤهم في ألعاب الفّضيلة، الشيء الذّي أثار غضب النخب القديمة وسُخطها. وشُرِعت قواعد خاصة، عُرِفت بقوانين المَصاريف غايتُها ضبط الطَّريقة التي يُمكن فيها لِأفراد كُل طبقةٍ من الطَّبقات الاجتماعية أنْ يُعلنوا عن أنفسهم باستخدام سِلع المَكَانة والسلوك. عَملت هذه القَوانين على تحديد نوع المَلابس التي يُمكنهم ارتداؤها، والطَّعام الذّي يُمكنهم تناوله، وطريقة تنظيمهم للجنائز وَحَفلات الزفاف، وأنواع العَربات والأَثاث التي يُمكنهم اِقتناؤها.(723) وقَدمت السلطات في إِنكلترا تشريعًا في 1363 لِكبح جماح «الأَردية الفَاخرة والفَخمة التي لا تَتَناسب مع إقطاعاتهم ومواقعهم، وأحدثت دَمارًا وإفقارًا عَظيمين في البِلاد».(724) حَدد التشريع ما يُمكن لِلناس من المَراتب المُختلفة، إنفاقه على المَلابس، بدءًا من سائقي عَربات النقل ومُربي الثِّيران والفَلاحين وصولا إلى الفُرسان. وحَرمت تَشريعات أُخرى «الاستهلاك الفاحش لِلحوم والأطعمة الفَاخرة الأُخرى»، وأَمَرت بِألا «ينتعل فارسٌ تابعٌ لِسيدٍ أو مُبجلٍ أو رَجلٍ نبيلٍ، أو أي شخصٍ آخرٍ، حِذاءً أو جِزمًا بِمسامير أو مُقدَمات يَتجاوز طولها البوصتين، مع فرض غرامةٍ مقدارها أربعون بنسًا على المُخالف».(725) سُجِن أحد سُكان لندن، في 1574، لارتدائه «زوجًا من الجَوارب المُبطنة بقطيفة التافتاه، وقميصًا مُزينًا بِالفضة على خلاف التعليمات المّنصوص عليها».(726) ولم يقتصر

---

(723) *Empire of Things*, Frank Trentmann (Allen Lane, 2016), pp. 38–40.

(724) 'The 1363 English Sumptuary Law: A comparison with Fabric Prices of the Late Fourteenth-Century', Sarah Kelly Silverman, PhD thesis 2011.

(725) 'Sumptuary Laws of the Middle Ages', www.lordsandladies.org/sumptuary- laws-middle-ages.htm.

(726) *Empire of Things*, FrankTrentmann (Allen Lane, 2016), p. 39.

هذا الشعور الطَّاغي بالقلق من ظهور هذه الطَّبقة الثَّرية الجديدة مع ما تكتنزهُ من رُموز مكانة على الغرب. إذ أشتكى أحد الكُتاب الصّينيين في 1591 قائِلا: «تتنقل أُسرةٌ ليس لديها حتى مَكنسة قديمة بِعرباتٍ...وتَعتمر قبعات ميسوري الحال والوجهاء، وترتدي ملابسهم».[727]

وكانت مُدن جنوه وفلورنسا والبُندقية التجارية في إيطاليا من بين المناطق الأثرى في العالم. لم تَعد هذه المُدن هي المجتمعات التي سادها التفاوت الاجتماعي الحاد بين الطَّبقات في العهود السابقة، إذ تُمارس النخب ألعابها على مسافةٍ بعيدةٍ عن الكَدح الشاق لِلجماهير. بل تمخضت ألعاب النجاح التي أشتركت فيها هذه المُدن في إنتاج طبقة وسطى ثريةٍ تضم بين صفوفها الحرفيين وأصحاب المَحال مع ملاحظة إمكانية موازنة حالة عدم المساواة مع نظيرتها في الولايات المُتحدة اليوم.[728] وفي هذا المجتمع المُتساوي نسبيا برزَ نوعٌ جديدٌ من الثّقافة أضطر فيها اللاعبون من طَبقة النخبة، الذّين صارت عملية التميز فيما بينهم أصعب، إلى مواصلة البحث عن وسائل جديدةٍ لِلتدليل على مكانتهم. فاستثمروا مظاهر الذَّوق والجَمال في الحَدائق والساحات والمَنازل والنحت والأثاث والمظهر الشخصي، الذّي أدى، بدوره، إلى اِنتعاش سوقٍ فيه المزيد من ألعاب النجاح لِلرسامين والنحاتين والمعماريين والخَزفيين وصانعي خصلات الشعر والأسنان الزَّائفة.[729] بل إن واحدًا من شعراء تِلك المرحلة، هو جيوفاني بونتانو، كَتَب رسالةً يُثني فيها على فضيلة إنفاق المال سَعيا إلى المُتعة الخاصَّة.[730]

ويَتجلى هذا الوَلع الحَديث بالفَخامة والأناقة تَجليا واضحًا في لعبة المَكانة الإيطالية الخاصَّة بالطعام. حافظت عادات تناول العَشاء على موقعها الأساسي في

(727) *Empire of Things*, p. 47.
(728) *Empire of Things*, p. 32.
(729) *Empire of Things*, p. 30.
(730) 'The Economic and Social World of Italian Renaissance Maiolica', R. Goldthwaite, *Renaissance Quarterly*, 1989. 42(1), 1–32.

مناطق أوروبا الأُخرى. يصف إراسموس من مدينة روتردام في كتابٍ له عن آدابِ السلوك في عام 1530 رواد مطعمٍ يجلسون حاملين الكؤوس ويتناولون وجبةً جماعية من اللحم باستخدام السكين التي يحملونها معهم يوميا. الأطباقُ نادرةٌ نسبيًا ومصنوعةٌ من القصدير غالبًا، ويَضطرُ الزَّبائن إلى تناول قطعةً سميكةً من الخبز. الكُل يتناول الطَّعام بيديِه حتى المُلوك والمَلكات. وحذّر إراسموس من كَتمِ غازات البطن لأسبابٍ صحية؛ وبِالمثل، نصحَ بالتقيؤ إذا اقتضت الضَّرورة: «ليس التقيؤ هو المُعيب، بل الإبقاء عليه في المريء».[731]

إلا أن الأمر على خلاف ذلك في إيطاليا. إذ كان النبلاء وأفراد الطَّبقة الوسطى في المُدن التجارية الغنية يأكلون بأطباقٍ من البورسلين، ويستخدمون الأَشواك والسكاكين والمَلاعق. اشترى أحد المَصرفيين في فلورنسا في 1475 طقمًا مؤلفًا من أربعمائة من الأكواب الزُّجاجية؛[732] وقَدمَ المضيفون في إحدى الولائم في 1565 مائة وخمسين طَبقًا وخمسين سلطانية جميعها مصنوعةً من «خَزف البورسلين».[733] وجمع التجار والأُسر النبيلة الثَّرية مئات من أدوات تَقديم الطَّعام لإقامة الولائم. يقول المؤرخ الأُستاذ، ريتشارد غولدويت مُعلقًا على ذلك: «أصبح إعداد الطَّعام إلى جانب العِناية بِقواعد السلوك، لعبة يتنافس فيها اللاعبون على المَكانة في مجتمعٍ ما برح واعيا بالتسلسل الهَرمي». من المُحتمل أن يَصف الزُّوار الأجانب ثقافة الطَّعام الإيطالية بالفخامة والإِسراف غير المعقول. وحَسِبَ المُفكر الفرنسي ميشيل دي مونتين أن تخصيص مناديل سفرة ومجموعة من الأواني الفضية لِرواد المَطاعم هو أمرٌ لافتٌ لِلنظر، وقال إن طاهيا إيطاليا قابله «قَدَمَ لي محُاضرةً عن عِلم تناول العَشاء بِجديةٍ ووقارٍ بالغين ارتسما على محياه كما لو أنه يتحدث عن أحد موضوعات اللاهوت المُهمة...وكَشَفَ لي عن الفوارق

---

(731) *The Civilizing Process*, Norbert Elias (Blackwell, 2000), p. 51.

(732) *Empire of Things*, p. 29.

(733) 'The Economic and Social World of Italian Renaissance Maiolica', R. Goldthwaite, *Renaissance Quarterly*, 1989, 42 (1), 1–32.

في الأذواق...ثم أعقبها بالحديث عن ترتيب الأطباق، وكان حديثه مُحتشدًا بالتفاصيل المُهمة والدقيقة...وموشحًا بِبديع الكَلِمات ورفيعها، التي قد نستعين بها في وصف حكومة إمبراطورية ما».

وعلى الرَّغم من قوة ألعاب النجاح التي يُمارسها الحِرفيون والتجار، إلا أن ثَقافتها ما تزال مَحكومةً بألعاب الفَضيلة الخاصَّة بالدين والنبالة، إذ ظلت ترنو بِبصرها إلى الماضي، فَسواء أكان الإِنجيل أم الأعمال الكلاسيكية التي ترى فيها النخبة في إيطاليا خَير مُعين لِلصلاح الأخلاقي وفُرص العَمل، بقي الاعتقاد شائعًا بِأن حل المُشكلات في الحاضر يعني الاستئناس بحكمة الماضي.

إلا أن هذا الوضع أخذ بِالتغير تدريجيا فيما بعد في الغرب. إذ بدأت النخب المَسيحية، قبل ذلك بِقرونٍ، في إعادة برمجة لَاعبيها كي يكونوا أكثر انفتاحًا وأقل توجسًا من أفراد جماعتهم؛ الشيء الذّي أدى إلى منح الغربيين حريةً أكبر في تَقَبل الأفكار الجَديدة. وفي حين تَبنى الشرق المُتقوقع تِقانات ورؤى غربية قليلة نسبيا،(734) أظهر الغرب رَغبةً عارمةً في هضم التقانات والأفكار الشرقية مثلما يظهر في الولع الإيطالي بالمُقتنيات «الصّينية». ولم يكن هذا «الهضم» يقتصر على السلع والبَضائع الجَميلة واللذيذة والمُسكِرة، بل اِمتد ليشمل عبقريتهم من نحو النظام العَددي الهندي- العربي من الصّفر إلى التسعة وتطبيقاته الحِسابية والمُحاسبية، والنقاط العُشرية والعمليات الرّياضية الأربع: الجمع والطّرح والضّرب والقِسمة، ومبادئ الفائدة وسَندات الصرف.(735)

وتَحول هذا الترحيب بالأفكار الجَديدة إلى مسعى للفوز بالمَكانة. إذ شَهدت إيطاليا، أوّلًا، في القرن السادس عشر، ثُمَّ في مناطق أوروبا الغَربية، شيوع موضة حيازة «المَعرِفة المُفيدة»،(736) التي تَجلت مَظاهرها، في البِداية، حسبما يقول المؤرخ

(734) *A Culture of Growth*, Joel Mokyr (Princeton University Press, 2016), p. 146.
(735) *The Renaissance*, Jerry Brotton (Oxford University Press, 2006), pp. 26–27.
(736) *A Culture of Growth*, Joel Mokyr (Princeton University Press, 2016), p. 152.

الاقتصادي جويل موكير، في «انبهار الطَّبقة العُليا وولعها بالتعلم والفنون، وَالجَمع بين خَصائص الباحث والرَّجُل المُحترم ومَزجها بِصورة المُفكر الجادة وإنْ كانت، على الأرجح، تفتقر الاحترافية الكافية».(737) كَتَبَ المُفكرون المُهذبون، الذّين عُرِفوا بـ «الموهوبين»، كُتبًا عن موضوعات متنوعة من نحو علم الغابات والرّياضيات وقوانين المَصاريف. وتأسست لعبة النجاح التي يُمارسونها على الحُب الخَالص لِلمعرفة. وتحول «الفُضول الذّي كان يُعد رَذيلةً في الماضي إلى فَضيلةٍ» على أيديهم. وأصبحَ إظهار المَعرفة رمزًا لِلمكانة: «صار رجلُ البَلاط دارِسًا وباحِثًا، واتجهت ثقافة التفاخر الاجتماعي صوب التعلم من أجل الفَوز بِالشهرة والاستِحسان».(738)

ومع تَمدد أحلام الموهوبين نُزولا من طَبقة النُبلاء إلى عددٍ أرحب من المُفكرين، بدأت لعبة مكانة مُميزة بِالتشكل حول المَعرفة الجديدة والمُفيدة. وهذه اللعبة، التي أسماها رَجُل الدولة والمُفكر البُندقي، فرانسِيسكو باربارو، بـ «جمهورية المَعرفة والمُراسلات» صَارت مُمكنةً بِفضل النظام البَريدي الذّي تأسس في أكثرية مناطق أوروبا الغَربية، وسَهل على الرِّجال والنساء اللامعين تَوصيل أفكارهم في كَراريس ودَوريات وكُتب ومُراسلات شَخصية. اِتسعت خِبرة هؤلاء، فصارت تُغطي فُروعًا معرفية متنوعة منها الطّب والعلم والفَلسفة واللاهوت والفَلك وفقه اللغة. وتَمكنوا من إنشاء لعبة نجاح دولية تُمنح فيها عروض البَراعة والكِفاية الباهرة مَكانةً مرموقةً.

وإتقان علوم الماضي لوحدها لم يكن ذا قيمةٍ كبيرةٍ في هذه اللعبة لِأن الظَّفر بِالمَكانة كان معنيا بِالجَديد: بِالتقدم والاِبتِكار والتبصر والأَصالة. والعَوائد المَالية المأمولة مُعتبرةٌ ومُغريةٌ على الأرجح؛ إذ يحظى الأفضل بين اللاَعبين بِرعاية الدوقات والأُمراء والمُلوك الذّين يَتَفاخرون بِعمل العُقُول الألمع لَديهم،

---

(737) *A Culture of Growth*, p. 153.

(738) *A Culture of Growth*, p. 154.

وانتفاعهم البالغ من خبرتهم في بناء الدولة؛[739] وقَلدهم في ذلك التجار الذّين استعانوا بالرِّياضيين والمُهندسين في تَطوير أعمالهم. غير أن المال لم يكن القوة الدافعة خلف جمهورية العُلُوم والمُراسلات، بل إن «السمعة المَبنية على تَقييم الأَقران هي الدافع الأهم...أن تَحظى بِاعتراف الأَقران بوصفك أُستاذًا بارِعًا هو عز الطَّلب والمُنى، وكان هذا الدافع المُحرك الرَّئيس خلف الجُزء الأكبر من الجُهود التثقيفية والبَحثية في بواكير أوروبا الحَديثة».[740] بِوسع اللاعبين الفوز بِمكانةٍ مرموقةٍ بِأن يُصبحوا نُجومًا لامِعين تطبق شُهرتَهم الآفاق، وتُسمى بِأسمائهم اكتشافاتهم في القَوانين والمناهج والعَمليات والأَجسام الفَلَكية، وأجزاء الدماغ والجسم.[741]

وتبدو القواعد التي تعتمدها لُعبة الجُمهورية أشبه بِبيانٍ لِمستقبل العِلم والتكنولوجيا. فَبَدَلا من الحرص الجائر على حماية أَفكارهم، يدخُل اللاعبون في حِوارٍ معها؛[742] وينظر الجَميع إلى المَعرِفة بِوصفها سِلعةً عامةً، مع احتفاظ الأَصحاب الأَصليين لِلأفكار الجَديدة بِحق الانتفاع منها، وضَرورة الإقرار بِالمديونية الفِكرية؛ وفضح سَرِقة الأَفكار وإِدانتها؛ وأهمِّية الرَّد على الرَّسائل، وإمكانية، بل وضرورة، مناقشة الأَفكار الجَديدة والتباحث فيها؛ وتلاشي حدود القَرابة والعَشيرة والأُمّة أو الدين.

وَطَور العُلماء «مَنهَجًا علميا» لِاختبار النظريات «يُعلم الناس»، حسبما كَتَب أحد البَاحِثين، «التواضع، ويُعرِفهم بِأخطائهم، وبذا، يُخلصهم من غَطرسة العَقل

(739) *A Culture of Growth*, p. 204.

يقول موكير: "إن المُفكرين (فيما عدا، ربما، مجموعة صَغيرة من النجوم اللامعين) كانوا ما يزالون يَشغلون مكانة اِجتماعيّة مُتدنية للغاية في بواكير أوروبا الحديثة. وَكان السَّادة والرُّعاة الأقوياء يمنحونهم فُرصةً بحياةٍ آمنةٍ ومَكانة اِجتماعيّة مَرموقةً أيضًا، وبِذلك، وَفر نظام الرِّعاية حوافز مُغرية لِلمبدعين واللامعين دفعتهم إلى الاجتهاد والكَدّ في العَمل."

(740) *A Culture of Growth*, p. 181.

(741) *A Culture of Growth*, pp. 201, 214.

(742) *A Culture of Growth*, pp. 189, 192, 199.

وتَبجحه».[743] وجرى العَمل أيضًا بِتطبيق معايير صارمةٍ على هذه التجارب؛ وعدم السماح بأي تحليلٍ غير موضوعي لِلبيانات والمَعارف؛ إضافةً إلى الاحتفاظ بِسجلاتٍ دقيقةٍ يُمكن اِستنساخها؛ مع ضرورة إعلان النتائج.

إن تأسيس جمهورية العُلُوم حَدثٌ مُهم في التاريخ البَشري. إذ حاز مَوقعًا له في سجل الزَّمن إلى جانب النار ومواقع التخييم والقيل والقَال والسمعة وظهور الإمبراطوريات والأَديان الغَالِبة. تَطلبَ الأمر سِلكين كهربائيين، وتَوصيلهما معًا لإِحداث انفجار يَقذف بنا إلى عَهدٍ جديدٍ. سِلك الحياة الأَوّل هو القَابلية لِلتَعلم. فالسبب في تَمَكُن البَشر من قهر كوكب الأرض يعود، في جزء منه، إلى عيشهم في شَبكةٍ من المَعلومات المُخَزنة التي تُجنب الفرد عناء تَعلم كُل شيء من نقطة الصّفر، إذ تَتَناقل الأَجيال المَعارف من الأَكبر سِنا إلى الأَصغر على خِلاف ألعاب الفَضيلة القَديمة المَبنية على القَرابة التي كان أفراد المجموعة فيها يتداولون المعلومات تَداولا غير رسمي غالبًا، وكانت أفكار الجَماعات الأُخرى لا تحظى بأهميةٍ كبيرةٍ. لا مكان أبدا للابتكار في ألعاب الفَضيلة هذه، إذ يُهيمن تَقديس الأَسلاف وحِكمة الماضي على تفكير اللعب ورؤيته. ومع مواجهة المُشكلات وَحَلها، بَرَز الاِبتكار بُروزًا طبيعيا، لا لِذاته، بل لِخدمة غايات أُخرى في أكثرية الأحيان. كان التقدم بَطيئًا عمومًا في عَصر ألعاب الفَضيلة، هذا إذا استَثنينا بعض الاِندفاعات النادرة نسبيا في أماكن مُتفرقة.

وسِلكُ الحياة الثَّاني هو *المَكانة المُتأتية من النجاح*. تُريد أَدمغة البَشر أنْ تعرف: «*من يَجِب أَنْ أُصبح لأِنال المَنزِلة؟*» ركزت لعبة النجاح على زِراعة أشجار اليَام الضَّخمة في جماعة بوهنبي، والنتيجة كانت أَشجارًا ضخمةً. واِعتنت لعبة النجاح، في جمهورية العُلُوم، بالقُدرة على استحصال المَعلومات والمَعارف، والنتيجةُ كميات ضخمةٌ منها. الفوز في هذه اللعبة مَرهونٌ بصحة الملاحظات

(743) *A Culture of Growth*, p. 198.

والتنبُّؤات عن الواقع، وخَزن ما تَعلمناه في رَسائل وكَراريس وكُتب، وتيسير أمرَ مضاعفته وتحويله إلى شيء أَنفع بِفضل تَبني اللاعبين الآخرين له وتَطويرهم إياه. كانت القَواعد في «الجمهورية» من النوع الذّي يُتيح التشارك في النتائج تَشاركا مَجانيا، وتمكين الأقران من الحُكم عليها؛ ويحظى الفائزون باحتفاء موثوقٍ به، إذ يرتقون في المَنزلة. كانت لعبة نجاح مُشيدةً تشييدا جميلا. وعلى الرَّغم من جهل اللاعبين بهذا الشيء، إِلا أَن «الجمهورية» كانت تعمل على وفق آلية قديمة تبلورت في الماضي لِمساعدة الجماعات المُتعاونة لِلصَّيادين وجامعي الثِّمار على النجاة. وبفضل هذا الرَّبط بين قُدرتنا على تكديس المَعارف ورَغبتنا بِالمكانة، استكشف أفراد هذه الجَماعات المُستقبل.

إِلا أن المُستقبل لم يَكن مُهيئًا لهم بعد. إذ كانت الجمهورية صغيرة؛ ولُعبةٌ تُمارسها نُخبةٌ مَحدودةٌ من المُفكرين والنبلاء، ولم تكن بِتلك القوة التي تتيح لها التغلغل في عقول الملايين وتعريف ثقافةٍ مثلما عَرَفت ممالك وإمبراطوريات وعقائد كُبرى. دافعت ألعاب الفَضيلة الخاصَّة بالأُسر المَالكة والدين والمَبنية على القَرابة، من جانبها، دِفاعًا شَرِسًا عن مناطق نفوذها؛ وقاومت الإمبراطوريات. وتَمكنت النخب القَديمة في إيطاليا، في النهاية، من قَهر الجديدة ثانيةً. وأُغلِقت أبواب المَجلس الأكبر في البُندقية، وهو مركز القوَّة السياسية فيها، بوجه التجار من رواد الأَعمال والمَصرفيين، وحلَ فيه مَحلهم طبقة أَرُستقراطية مُتوارثة اِعتاشت على قُدرة التجار على خلق الثَّروة، الشيء الذّي أدى إلى خسارة المَدينة لِمكانتها.(744)

الاِستِثناء لذلك هو بِريطانيا، فهي المَكانُ الوَحيدُ في العالم الذي فشلت فيه القوى القَديمة في كَبح جِماح الجَديدة. أَجبرت نُخبةٌ من البارونات، في 1215، المَلك جون على توقيع «الميثاق العَظيم» الذّي تَحدى سُلطة التاج في أكثر من جانبٍ

(744) *WhyNationsFail*,Daron Acemoglu and James A. Robinson (Profile, 2012), pp. 155–156.

من مثل تَقييد قُدرته على رفع الضَّرائب، وشَكَّلوا مَجلسًا لِلتوثق من إنصياع المَلك. وشَهَدَ عام 1265 اِنتخاب أوّل بَرلمانٍ لم تَقتصر عضويته، في النهاية، على النبلاء والفُرسان والأرُستقراطيين، بل شملَ المُزارعين الأثرياء وأقطاب الصِّناعة والتجارة، أي الفائزين بِألعاب النجاح.[745] وجرى التفاوض على «لائحة حقوق» نصَّت على أن البَرلمان هو قوَة الحُكم الوَحيدة في البِلاد، وذَلك في أعقاب «الثَّورة المَجيدة» التي لم يَعد لِلتاج اليَد الطُّولى فيها. ثُمَّ جاءت سلسلة القَواعد والمؤسسات المُزلزلة التي صَبَّت في مَصلحة ألعاب النجاح. إذ أُسِس بنك إنكلترا الذّي وفر القُروض الإِئتمانية،[746] وصَدَرت تشريعات قانونية مُبتكرة منها الملكية المَضمونة وحقوق براءات الإختراع ومبدأ التطبيق العَادل لِلقانون على الجَميع؛ الشيء الذّي وفرَ بيئةً آمنةً تَضمن الازدهار لأصحاب المَشاريع وألعاب النجاح الخاصَّة بهم إضافةً إلى إلغاء نِظام الاِحتكار، واعتماد مبدأ التجارة الحُرة، ووقوف الدولة بِكُل طَاقتها إلى جانب التجار الذّين نِعموا بالمُساعدة والدفاع عن مصالحهم. وهذه هي البيئةُ الفريدةُ التي تَمكن فيها المُبتكرون، حسبما يَذكر المُختصان في الاِقتصاد، دارون أيسموغلو وجيمس أ. روبنسن من «اِستثمار الفرص الاقتصادية التي كانت وَليدة أفكارهم، مع ثِقتهم في احترام حقوق المِلكية الخاصَّة بهم، وقُدرتهم على بلوغ الأسواق التي تُتيح لهم الكَسب من بيع اِبتكاراتهم واستخدامها».

وكان لِبريطانيا نُخبة من الأَعضاء الفاعلين في «جمهورية العُلُوم» منهم المِعماري كريستوفر رِن، والفَيلسوف روبرت بويل، والاقتصادي وليم بتي، والمُثقف روبرت هوك، الذّين حَل بَلَدهم تَدريجيا محل إيطاليا بوصفه المكان الذّي يُصنع فيه المُستقبل: يُقال إن لا أُسرة في لندن كانت بحوزتها أطباق بورسلين في 1675،[747] لكن نسبة من حاز منها هذه الأطباق بلغت 35٪ في 1725.

---

(745) *Why Nations Fail*, p. 185.

(746) *Why Nations Fail*, pp. 102–103.

(747) *Empire of Things*, Frank Trentmann (Allen Lane, 2016), p. 60.

وبِفضل الِانتزاع التدريجي لِلسلطة من ألعاب الفَضيلة القَديمة الخاصَّة بِالَملكية والكَنيسة، أضحت بريطانيا أُمّةً قادرةً قُدرةً فريدةً على استثمار لعبة النجاح الصَّغيرة، المَبنية على المَعرفة التي أسستها جمهورية العُلُوم، ونَقلها إلى الجماهير. تَمتع الُمبتكرون الناجحون بِالشهرة بين أقرانهم، وسَمحت لهم مؤسسات بريطانيا بِجني الثّروات وحتى النجومية الواسعة، فَتَضخم مخزونهم من المكانة تَضخمًا هائِلا. وانفتحت مسارات اللعبة تَدريجيا أمام الآلاف من التقنيين ورواد الأَعمال والُمهندسين والمشتغلين بِالفكر والحِرفيين، ولم تعد حِكرًا على النخبة الُمفكرة.

كانت هذه «الثَّورة الصِّناعية» بِمنزلة حُمى البَحث عن المَكانة التي رَسَمت مَزاج البِلاد وثَقافتها. يقول المؤرخ الدكتور أنتون هيوز إن «البِريطانيين أصبحوا مُبتكرين لِأنهم تَبنوا واِحتضنوا عَقلية دائمة التطور»، تَفشت مثل «مرضٍ» يُمكن أنْ يُصيب «الجميع...الأَغنياء والفُقراء، سُكان الُمدن والأرياف، الإِنجيليكانيين والُمنشقين، الأحرار والُمحافظين، الحِرفيين المَهرة والهِواة الُمبتدئين».(748) فَزاد عدد من «يكتب ويَنشر عن الِابتكار ويُحاضر فيه ويَستعرضه ويُموله». وأسسَ هؤلاء تَجمُّعات محلية محورها مصالحهم، وجَمعيات أيضًا لِلترويج لِهذه العَقلية. وكانت هذه التجمُّعات والجَمعيات مولدات لِلمعارف الجَديدة والنافعة، ولِلمَكانة الأَساسية التي ظَفر بها الُمبتكرون الناجحون أيضًا.

أَطلقت الثَّورة سيلا من ألعاب المَكانة أصبحت معها بريطانيا، بِكلمات المؤرخ بيتر كلارك، «عَالَمًا مُترابطًا».(749) واختَرع اللاعبون ألعابًا تَتصل بِتَخصُّصاتهم، فكانوا يتقابلون في النوادي ومُنتديات الحِوار، ويَتجمَّعُون في المقاهي التي بلغ عددها في عام 1700 قُرابة الألفين في لندن لِوحدها.(750) وأَسسوا مُنظمات

---

(748) 'The Spread of Improvement: Why Innovation Accelerated in Britain 1547–1851', Anton Howes, Working Paper April 2017. الاقتباس بِترخيصٍ من المؤلف

(749) *British Clubs and Societies 1580–1800: The Origins of an Associational World*, Peter Clark (Oxford University Press, 2000).

(750) *A Culture of Growth*, Joel Mokyr (Princeton University Press, 2016), p. 222.

تَثقيفية مُكرسة لِتحصيل المَعارف الجَديدة والمُفيدة ونَشرها، ؛ مُنظمات يقول جيمس دَوي، المُختص في الاقتصاد، إن عددها ارتفع من أقل من خمسين في 1750 إلى حوالي الألف وخمسمائة بعد مائة عام.[751] واستهلت إحدى هذه المُنظمات، وهي «جميعة تَنمية الفُنُون والصِّناعات والتجارة»،[752] عملها في مقهى لندني، ومنحت آلاف الجوائز النقدية أو الأَوسمة للأعضاء الذّين حَلوا المُشكلات أو تَقدموا بِابتكارات عبقرية منها اختراع قارب النجاة، وآلية فَرملة هوائية أَسلم لِلرافعات، وطريقة ميكانيكية لِتنظيف المَداخن سَهلت على المُشرعين حَظر تَشغيل الأطفال الصِّغار بِعمر الرَّابعة. وما تزال هذه الجمعية موجودة اليوم، ومَعروفةً باسم الجَمعية المَلكية لِلفُنُون.

كانت هذه الجَمعيات ألعاب نَجاحٍ، تَمنح المَنزِلة لِعروض البَراعة والكِفاية. لاحظ جيمس دَوي أن الجَمعية المَلكيّة أنفقت على الأَوسمة في العَقدين الأوّل والثَّاني من تأسيسها مَبلغًا يفوق ما أَنفقته على أقساط التأمين النقدي، وكان لِمكافآتها، حسبما يقول، تأثيرٌ مجتمعي هائلٌ تَجلى في المُشاهدين الطَّموحين. وبِوصفها «مؤسسة معروفة في المستوى العام تَحظى بِرعاية النخب الاجتماعية والفِكرية والتجارية في لندن»، كان الإِسهام الأهم لهذه الجَمعية هو «إعلاء شأن الاِختراع عمومًا ومَنحه المَنزلة اللائقة».[753] وهذه الديناميات حَولت ألعاب المَكانة من مثل الجَمعية المَلكية إلى مَصاهر للابتكار. ففي أثناء نشدانهم الإشادة والاحترام، يُصبح المُبتكرون مولدين لِلمعارف الجديدة والنَافعة. وفَضلًا عن ذلك، كَشَفت تَحليلات دَوي عن أن زيادة عَدد الجَمعيات في مَنطقة ما أَثمَرَ زيادة في عدد بَراءات الاِختراع المَمنوحة فيها؛ وتَكرَّر الشيء نفسه في تحليلِهِ لِلمشاركين

(751) 'The Spread of Improvement: Why Innovation Accelerated in Britain 1547–1851', Anton Howes, Working Paper April 2017.
(752) 'Age of Invention: England's Peculiar Disgrace', Anton Howes, Newsletter 14 April 2020.
(753) 'Mind over Matter: Access to Knowledge and the British Industrial Revolution', Dissertation, J. Dowey, London School of Economics and Political Science, 2017.

في «المعرض الكَبير (لِلأعمال الصّناعية لِلأمم)» في لندن عام 1851، فوفرة الجَمعيات في منطقةٍ هو مؤشرٌ على ارتفاع تمثيلها فيه، وكذلك وفرة الجوائز التي تحصل عليها. ففي مُقابل كُل سبعمائة وستة وأربعين عضوًا في الجَمعية، ارتفعت نسبة المواد المَعروضة إلى 42٪، والجوائز إلى 48٪. وهذه الأَشياء مُجتمعةً قادت دَوي إلى نَتيجةٍ فحواها ضرورة «النظر إلى العِلاقة بين الجَمعيات التَثقيفية والاختراع في أثناء الثَّورة الصّناعية بوصفها سَبَبية».

وهكَذا، أَثمَرت حُمى السعي إلى المَكانة تَراكمًا متواصِلا في المَعارف لم يشهد له التاريخ البشري مَثيلا من قبل. وَصف الرَّياضي الدكتور أولينثوس غريغوري هذا المَناخ في خِطابٍ له ألقاه في 1826 مُبينًا: «الزّراعة والصّناعة والتجارة والمِلاحة والفُنُون والعُلُوم، النافعة منها والترفيهية، بأنواعٍ شتى لا نَفاد لها كُلها عَزَزت وسائل الرَّاحة والترف في هذه البُقعة السعيدة. المُدنُ مُزدحمةٌ بِالسكان، والمُستودعات مَليئةٌ بِالمَتاجر، والأسواق والمَعارض مُكتظةٌ بالمرتادين من عَامة الناس المشغولين؛ والحقول والقُرى والطُّرق والمؤانئ البحرية كُلها تُنمي ثَروات هذه الأرض وأمجادها...هناك جمعيات جديدةٌ لِلتنمية...وآلات جَديدة لتَحسين الفُنُون وتيسير العَمل، وتَسييج لِلأراضي البور، وتَعبيد لِلطُّرق، وإقامة لِلجسور، وشَق للقنوات، وحفر للأنفاق وتجفيف للمستنقعات وإستصلاحها، وبِناء لأحواض السفن، وتَوسيع للمَرافئ؛ هذه وآلاف غيرها من التحسينات المُشابهة التي تظهر شاخصةً لِلعيان، تُثبت بِأننا لم نَبلغ الذّروة بعد، وأن آفاق الإستِقرار والعَظمة ما زالت مُشرعة أمامنا في المُستقبل».(754)

اِمتدت الثَّورة الصّناعية سَريعًا إلى الأَجزاء الأُخرى من العالم. وعندما أصابت حُمى التطوير الوِلايات المُتحدة، فإنها زَاحمت، أوّلا، أوروبا الغَربية، وهي تتفوق عليها اليَوم تَفوقًا سَهلًا في قُدرتها الفَذة على الابتكار. يستند الجزء الأكبر من مَنزلة الولايات الظَّاهرة لِلعيان إلى الشرِكات التقنية في وادي السليكون. والألعاب التي

(754) 'Age of Invention: Higher Perfection', Anton Howes, Newsletter 19 December 2019.

يُمارسها هؤلاء المُبتكرون هي من اختراع الدارسين والبَاحِثين في جمهورية العُلُوم، التي حصلت على سُلطة تحويل العالم بِثورات بريطانيا السابقة ومؤسساتها.

كان المُفكرون في عصر التنوير، الذّين دَفعوا، في القرنين السابع عشر والثّامن عشر، بِاتجاه تحويل أوروبا، ثُمَّ العالم بِأفكارهم عن المنطق والحرية والتَعايش وفصل الدين عن الدولة... كانوا أيضًا ورثةً لِألعابِ تأسست قبلهم. ويُعرف أحد أشهر هؤلاء المُفكرين، وهو الاقتصادي الأسكُتلندي، آدم سمث، بـ «مؤسس الرَّأسمالية». والعالم، الذّي نَعيش فيه اليوم بتَوجهاتِهِ الفردانية المُفرِطة، وهَوسه بالمال، وحرصه على المَصلحة الذّاتية، مرتبطٌ بِسمث ونظرياته عن دور الأسواق الحُرة والمنافسة في الازدهار والرَّخاء بنحوِ أوثق من اِرتباطه بأي شيء آخر. ألا أن سمث لم يكن يُصدق أن الجَشع للثَّروة هو الدافع النهائي للنظم الاقتصادية، بل الدافع هو شيءٌ آخر، يقع عميقًا في نَفسية الإنسان. وعن ذلك، كَتَب في 1759: «البشر لا يريدوا أن يكونوا عُظماء، بل يَرغبوا في أنْ يكونوا محبوبين...فَالغنيُ يَتفاخر بِثرواته لِأنه يشعر بِأنها تَلفتُ إليه لَفتا طبيعيا نَظر العالم...ولهذا السَبب، هو أكثر وَلعًا بها من جميع المَزايا الأخرى التي يَنعمُ بها بِفضلها».(755) وهذه الحاجةُ إلى الإعجاب والقُبول، في رأي سمث، هي أحد الجَوانب الأَساسية في الطَّبيعة البشرية. إذ نَسعى إلى تَحسين أوضاعنا لِأننا ننشدُ «لفت النَظر والعِناية بنا». إنَه الحُلم الذّي يقول إن رموز المكانة من نحو الثّروة ستَمنحنا السعادة الكَاملة، التي سَتدفعنا، بِدورها، إلى «زِراعة الأرض وبناء المَنازل، وإنشاء المُدن والتواصل مع الشعوب، واختراع وتطوير العلوم والفُنُون، التي تَسمو بِحياة الإنسان وتُلونها؛ والتي قد غيرت وجه العالم تَغييرًا كامِلا».

نَحنُ في وضعِ أفضل بما لا يُقاس فيما يَتصل بِمَساعينا إلى الألمعية والتفوُّق في الحاضر. كان مُتوسط العمر المتوقع ومستويات المَعيشة في اِرتفاع في نِهاية القرن

(755) Adam Smith and Thorstein Veblen on the Pursuit of Status Through Consumption versus Work', Jon Wisman, *Cambridge Journal of Economics*, 2019, 43, 17–36. 10.1093/cje/bey015.

التَاسع عشر في مُقابل انخفاض معدلات الفُقر المُدقع ووفيَات الأطفال وتراجع خطر المَجاعة ونُدرة الطَّعام اللذين لطالما قضا مضاجع الناس.[756] وأَثمر تَكديسنا المُتواصل والعَنيد للمعارف المُفيدة اِبتكارات مُدهشة في التقانة والطّب والعلم. إن طَريق الخُروج من الجَحيم مُمتدٌ عبر بيانات الصّحة والرّخاء البشريين. في كُل التاريخ المُمتد قبل الثّورة الصّناعية، كان متوسط العُمر المتوقع في العالم يدور حول الثّلاثين، لَكنه حلقَ بعدها إلى السبعين، وجاوز الثّمانين في الدول المُتطورة. وأنقذت التطوُّرات العلمية حياة المِليارات من البشر، ومُعالجة المياه بِالكلور حياة 177 مليون شخصٍ، والقَضاء على الجدري حياة 131 مليون، ولُقاح الحَصبة 120 مليون شخصٍ، وأسهمت مُكافحة الأمراض المُعدية في إسعاف عددٍ من الأطفال فاق المائة مليون منذ العام 1990، وأدى لُقاح كوفيد 19 المُتعدد في 2021 إلى إنقاذ العالم كُله. وبالمثل، نحنُ أفضل حالا من أي وقتٍ مضى من ناحية تَوفر الطّعام. فَقُرابة نصف سكُّان العالم كانوا يُعانون من سوء التغذية في 1947، لكن المُعدل يقف عند حدود 13٪ في البُلدان النامية، وأقل من 5٪ في نَظيرتها المُتطورة. وكان قرابة 95٪ من البَشر يعيشون في فقرِ مدقعٍ في عام 1800 موازنةً بِانخفاض شهده هذا العدد في الأعوام من 1990 إلى 2018، من حوالي المِليار وتسعة مليون إلى قُرابة 650 مليونًا.

التاريخ لا يَصنعه الأفرادُ لِوحدهم، بل يَصنعه أفرادٌ يرتبطون بِجماعات تؤسس ألعاب مَكانة. المعلومات، وتَاريخنا، واضحان. ولو كُنا نرغب رَغبةً حقيقية في مساعدة الآخرين، وجعل العالم مكانًا أفضل، يَجِب علينا مُمارسة ألعاب النجاح.

(756) جميع الأرقام في هذا الجُزء من الفصل مأخوذة من:
Enlightenment Now, Steven Pinker (Allen Lane, 2019).

الفصل الخامس والعشرون

الذّات النيوليبرالية

وهكذا، بَلغت رِحلتنا الحاضر. فَنحن في القرن الحادي والعشرين مِثلما كُنا على الدوام: قرودٌ ضخمةٌ تسعى إلى الصِّلات والمَكانة في هَلوسات مُشتركة. الذّات الغَربية المُعاصرة غريبةٌ وقَلقةٌ ومُتعطِّشة. ذاتٌ خرجت من رحم اِقتصاد سوقٍ يُبالغ في التركيز على النجاح. ومع أننا لن نكف أبدًا عن مُمارسة ألعاب الهَيمنة والفَضيلة، إلا أن مُجتمعاتنا تُركز على الكِفاية والإنجاز الفَردي. نُحرز النقاط لقاء النجاح الشخصي في مَسيرتنا الحَياتية في ألعاب المَدرسة والجامعة والعَمل الرَّسمية للغاية والمَحمية حمايةً مُحكمةً. إننا نُعلن عن إنجازاتنا في مَظهرنا، ومُقتَنياتنا، وأساليب حياتنا في الشارع، وموقع العمل، ووسائل التواصل الِاجتماعي. إننا مهووسون بِذواتنا لِأننا تَربينا على مُمارسة هذه اللعبة بِالذّات.

إننا نُركز على الدوام تركيزًا نسبيا على «أنا»، والسبب هو أننا فردانيون. مع ذلك، كان القرن العِشرين المُنصرم شَاهدًا على تَحولنا إلى نمطٍ مُكثفٍ من الهَوس بِالذّات. إذ بات النظام الاقتصادي في الولايات المُتحدة وألمانيا، بعد مرحلة الكَساد العَظيم والحَربين العالميتين الأولى والثّانية، أشد التزامًا بالقواعد وفاضلًا ومَعنيا بالجَماعة. اشتهر هذا القرن بِارتفاع مُعدل التحكم بِعمل المَصارف والأَعمال، وفرض الضَّرائب العالية (التي فاقت 90٪ في أربعينيات القرن العشرين وخمسينياته)،[757] وتفعيل دور العمل النقابي والمُبادرات «الحكومية

(757) *The Rise and Fall of American Growth*, Robert J. Gordon (Princeton University Press, 2016), p. 617.

الكبيرة»، من أمثال «الصَّفقة الجَديدة»، و«قانون الضَّمان الاجتماعي»، وَدولة الرَّفاهية. أصبح اللاعبون في الولايات المُتحدة وبِريطانيا جَماعيين بِالتبعية، وأسهمت [ثقافة] «العَامل المُمتثل لِلشركة» المُناسبة لِعقلية القُرود في مناطق الضّواحي في خمسينيات القرن العشرين في ظهور جماعات الهيبيز الأشد تَمسكًا بِالعقلية الجَماعية ذات القيم المُعادية لِلمادية. ومثلما هو الحالُ دائمًا، كانت اللعبة العَظيمة في داخلنا؛ وقواعدها ورموزها مُدوَّنة في عُدتنا الخاصَّة بِمُمارسة اللعبة؛ إننا نحلم حُلم اللعبة، ونَعيشُ تكرَارها لِلذات.

إلا أن اللعبة تَغيرت ثَانيةً في ثمانينيات القرن العشرين. كانت النظم الِاقتصادية الغربية قد أخذت بالإنهيار في العقد السابق، وكان لا بد من البحث عن أساليب جديدةٍ لِمارسة اللعبة. فَقررَت مارغريت تاتشر ورونالد ريغن، زعيما المَملكة المُتحدة والولايات المُتحدة الرَّاحلان، زيادة جُرعة المُنافسة في اللعبة. قالت تاتشر للصَّحفيين في 1981 : «ما أزعجني في الِاتجاه العام لِلسياسة في السنوات الثَّلاثين الأخيرة هو ميلها الدائم نحو المجتمع الجَماعي».(758) شن الزَّعيمان سلسلة من الهَجمات الشرِسة على أساليب اللعب الأقدم الميالة إلى الفّضيلة، وطويا صَفحة الإجراءات الحِمائية التي تَتكفلها الدولة، وَخَفضا الضَّرائب، وأزالا القيود عن عمل المَصارف والأعمال، وخَصخَصا أصول المَوجودات الوطنية، وانتزعا أنياب النقابات، وكَبحا حقوق المُستخدمين. الأسواق، لا السياسيون في العصر الجَديد، هي منْ تتولى مَقاليد الأمور، حيثما كان ذلك مُمكنًا. كانت هذه اللعبة «النيوليبرالية» أكثر تَحررًا وفردانيةً، وأقل تَمسكًا بِالقَواعد. ومن أجل الفوز بها، يَجب علينا إعادة تشفير أجهِزتنا. وبِالمثل، لِبلوغ مرحلة التوافق والمضي قُدمًا، علينا أنْ نَتَحلى بِقدرةٍ أكبر على التَنافس، وبِرغبةٍ أشد في كسب المال، وبولعِ أعتى بِالذّات.

وهذا ما فَعلناه. إِنه لأمر مُدهش التفكير بِما كُنا عَليه، بِوصفنا مجموعةً، في

(758) 'Mrs Thatcher: The First Two Years', Ronald Butt, *Sunday Times*, 1 May 1981.

1965 في مقابل ما أصبحنا عليه في 1985. إذ اِنتقلنا، في هذه السنوات العشرين، من «تبًّا يا رجل» إلى «الجَشع رائع». كلما توغلنا وحَثثنا الخُطى في العصر النيوليبرالي، اِلتهمنا حُلمه واستنزفنا. كان التحوُّل سَريعًا فعلًا. لاحظت دراسةٌ شملت ما يفوق الثَّلاثمائة مليونًا من المَواليد الجُدد أن الأمريكان أخذوا، بدءًا من عام 1983، يُسمون أطفالهم أسماءً غريبةً غير شائعةً. كتبت المؤلفة المُشاركة، جين تونج أن الآباء يُريدون لِأطفالهم الصّغار أنْ «يتميزوا ويكونوا نُجومًا».(759) وهكذا أسسنا، في حين كانت سنوات الثمانينيات تطوي صفحاتها، ثقافةً سَادت فيها مقاطع فيديو اللياقة البدنية التي بيعت منها مليون نسخةً، والمُترفون من مُتعاطي الكوكايين، وأغنية وتني هيوستن التي تَصدرت قائمة المبيعات، وتُخبرنا أن «تعلم حُب الذّات هو أعظم أنواع الحُب على الإطلاق». صارت هذه الفكرة النرجسية قيمةً ثَقافيةً: وَجدت مؤسسة غالوب الإحصائية في اِستطلاعٍ لها لمصلحة صحيفة *نيوزويك* في 1992 أن 89٪ من المُستجيبين يؤمنون أن «التقدير الذّاتي» هو العامل «الأهم في حثِّ الفرد على الاجتِهاد في العَمَلِ والنجاح» (أما «المكانة من وجهة نظر الآخرين» فكانت الأقل أهمّية). وحَلَقت الرُّوح الليبرالية مُرفرفةً في إعلانٍ عن بطاقة الماستركارد الذَّهبية في 1987 يقول: «كُل ما يَتطلبهُ الأمر هو النجاح».(760) يتفق اللاعبون المُشتركون في اللعبة على الآتي: كان اِحتمال أنْ يؤمن طَلَبة المرحلة الثَّانوية في سبعينيات القرن العشرين بِأن «حيازة الكَثير من رأس المال» أمرٌ «في غاية الأَهَمّية» هو بمقدار النصف موازنةً بِنظرائهم في تسعينياتهِ.(761)

ومَعَ تَجذر القيم النيوليبرالية وتَرسخها في الأَلفية الثَّالثة، ترسخت وتجذرت

(759) 'Fitting In or Standing Out: Trends in American Parents' Choices for Children's Names, 1880–2007', Jean M. Twenge et al., *Social Psychological and Personality Science*, 2010, 1(1), 19–25. a Gallup poll for *Newsweek* in 1992: 'Hey, I'm Terrific!', Jerry Adler, *Newsweek*, 17 February 1992.

(760) *The Age of Entitlement*, Christopher Caldwell (Simon & Schuster, 2020), p. 128.

(761) *Generation Me*, Jean Twenge (Atria, 2006), p. 99.

تَجذرًا مُتزايدا عِنايتنا بِالشهرة. وَجَدت دراسةٌ مَسحيةٌ لِألفين وخمسمائة طفلٍ بِريطاني بِعمر أقل من عشرة أعوام في 2006 إن «الشيء الأَفضل في العالم من وجهة نظرهم هو أن يكونوا من المَشاهير (في حين شَغَل «حُسن المظهر» و«الثَّراء» المركزين الثّاني والثَّالث من بين الأشياء الأَفضل في العالم)».[762] وأَطلَقت شركة سوني أوّل هاتفٍ بِكاميرا أمامية في 2003 من أجل اِستخدامها في اجتماعات العَمل. إلا أننا اِخترنا استغلال هذه التكنولوجيا في فِعل أشياء أخرى.[763] إذ كشفت غوغل في 2019 أن مُستخدمي أَجهِزة الأندرويد يلتقطون وَحدهم 93 مليون صورة شخصية (سيلفي) يوميا.[764]

ومع صُعُود نجم النيوليبرالية، أخذت الألعاب القَديمة الخاصَّة بالصِّلات والمَكانة، التي شَاعت مُمارستها في الماضي بين الأَصدقاء والجيران في المُجتمعات المَحلية، بِالتداعي، وهو الجانب الذّي خصَّه عالم السياسة، روبرت بوتنام، بالبحث والدراسة.[765] إذ يقول إن «الأمريكيين، في الثُّلثين الأَوّليين من القرن، أدوا دورًا فاعلا في الحياة الاِجتماعية والسيَاسية في مجتمعاتهم المُتمثلة في الكَنائس والاِجتماعات النقابية وصَالات لُعبة البولينغ والنوادي وطاولات اللجان واللعب والعشاء». بدت هذه الجماعات واقفةً «على أَعتاب عهدٍ جديدٍ من الاِنخراط [المُجتمعي] المُكثف». لَكن، حدث بعد ذلك أننا، في حوالي الوقت نفسه، أصبحنا نفعل هذه الأشياء بمعدلٍ أقل عُمومًا».

في مناقشتهِ لمسرحيتهِ «موتُ بائع عربةٍ مُتجولٍ»، وَصَف آرثر مِلر رؤية بَطله التراجيدي، ولي لومان، إلى العالم بِالكَلمات الآتية: «يَنص قانون النجاح أن فشلك

---

(762) 'Childrensaybeingfamousisbestthinginworld', Andrew Johnson and Andy McSmith, *Independent*, 18 December 2006.

(763) 'Front-facing cameras were never intended for selfies', Anne Quito, qz.com, 26 October 2017.

(764) 'Taking Selfies Destroys Your Confidence and Raises Anxiety, a Study Shows. Why Are You Still Doing It?', Minda Zetlin, *Inc.*, 31 May 2019.

(765) *Bowling Alone*, Robert D. Putnam (Simon & Schuster, 2001), pp. 27, 16, 183.

يعني موتك. وأنت تُوزَن بهذا الميزان بِالطَّريقة نفسها التي كان الرَّب يقيس بها الناس في الأيام الخَوالي».(766) والعصر النيوليبرالي شاهدٌ على تحوُّلنا كُلنا إلى نُسخٍ من لومان الصّغير. فاليَوم، أكثر من أي وقتٍ مضى في التاريخ، نَميل إلى قياس مَكانتنا في ضوء نَجاحنا المهني ورُموزه، ومَساعينا اليَومية- حتى المُتصلة منها بالتعليم والفُنُون- تتجه اِتجاهًا مُتصاعدًا نحو الغايات المَادية، واِنتصاراتنا تُقاس بمقياس المال والثَّراء. ولهذا، يرى البَاحثون أن الاِنشغال بِالعَمل أصبح في ذاته رَمزًا لِلمكانة. لاحظت سِلسلةٌ من الدراسات أن النظرة إلى الناس المَشغولين هي أنهم «أرفع مَقامًا لِأن الفكرة عنهم بِأنهم أكفأ وأكثر طموحًا مُضافًا إلى أنهم أندر وأوفر حظًّا لجهة الطَّلب عليهم».(767)

يلتمع عَالم الأحلام النيوليبرالي بِرموز من هذا النوع. قد تكون عَلامات النجاح قد ظهرت في قلائد الأَسنان التي طَوقت عنق الصّياد، لَكننا نراها اليَوم في كُل مكان في الثَّقافات الغَربية في القرن الواحد والعشرين. إننا نَكد ونكدَح ونُنفق المال ونُسرع لِلحاق بِالرَّكب لِأن هذه العَلامات سَلَبت عُقُولنا. إننا نَطمح إلى تَطوير شخصياتنا وتَشكيلها في هيأةٍ مُحددةٍ كي نحظى بالتفوُّق والتميز.

لَكن من أين جاءت هذه الصّورة المِثالية المُعاصرة عن الذّات؟ إننا نُعاين هذا الإنسان المتكامل حولنا، يشع بأسنانه الرَّائعة السليمة من الإعلانات وشاشات التلفاز والسينما ووسائل التواصل والإنترنت.: إنه شابٌ لطيفٌ، متناسقُ الهيأة ظاهريا ومتميزٌ ومُنتجٌ ومحبوبٌ ومُنفتحٌ على العالم وأنيقٌ وواثقٌ من نفسه ومُنبسط الشخصية ومشغول. من هو هذا الشخصُ الذي نَشعر بضغطٍ كبير يدفعنا إلى أنْ نكتسبُ صفاته؟ إنه اللاعب الأَفضل اِستعدادا لِلفوز بالمكانة في لعبة نشترك فيها. إنه البَطل النيوليبرالي أو الصّورة المُتخيلة التي أفرزها الاقتصاد. وعندما نعجز عن

---

(766) *The South Bank Show*, 9 November 1980.

(767) 'Conspicuous Consumption of Time: When Busyness and Lack of Leisure Time Become a Status Symbol', Silvia Bellezza, Paharia Neeru and Keinan Anat, *Journal of Consumer Research* 44, June 2017, no. 1, 118–138.

المواكبة أو اللحاق بِالرَّكب، نقرأ رموز النجاح هذه بوصفها أدلةً على فَشلنا. نحن ميالون إلى الفردانية؛ فالإيمان أن بِوسعنا الفوز يعني الإيمان بِأن الفَشل في ذلك هو خطؤنا الذي نتحمل وِزره لوحدنا. وبناءً على ذلك، نحن خاسرون: هذه هي حَقِيقَتنا. لقد وِضعنا في ميزان الرّب، وِوجد أننا دون الوزن المَطلوب.

لدى علماء النفس تسميةٌ يستخدمونها لِوصف الأفراد ذوي الحَساسية العالية لمؤشرات النجاح هي: مُنشدو الكَمال، وهم على أنواع؛[768] «فَمُنشدو الكَمال المُتجهون نحو ذواتهم» معروفون بمقاييسهم المُفرِطة في صَرامتها، وبتفانيهم وتَحملهم الضَّغط في سبيل الفوز؛ ويؤمن «مُنشدو الكَمال النرجسيون» مُسبقًا بِأنهم رقم واحد، ويشعرون بِالقلق إذا ما أخفق العالم في التعامل معهم على هذا الأساس؛ ويشعرُ «مُنشدو الكَمال العَصّبيون» بِتدني تَقدير الذّات، وعادةً ما يثقون في أن انتصارهم التالي سيَرفع، في النهاية، من معنوياتهم. مع ذلك، هناك صُنفٌ واحدٌ من مُنشدي الكَمال شَديدُ الحَساسية إزاء اللعبة النيوليبرالية؛ وإلى هذا الصّنف ينتمي «منشدو الكَمال الاجتماعيون» الذين يشعرون أن الحاجة المُلحة للفوز تأتي من اللاعبين الآخرين الذين يشتركون مَعهم في اللعبة. وهم ميالون إلى المُصادقة على العبارات الآتية: «لا يتوقع الناس أقل من الكَمال مني...ومعنى النجاح هو ضَرورة أن أعمل بجديةٍ أكبر لإِرضاء الآخرين». وهم، إضافةً إلى ذلك، شديدو الرَّغبة بِالتنعم بِالسمعة والهَوية. إنهم يَتصوَّرون، بسهولةٍ، بِأنهم خَذلوا أقرانهم لِأنهم موظفون غير أكفاء، أو نُاشطون غير مَهَرَة، أو نساء غير بارعات. وثَمة خاصيةٌ خَطرةٌ لِلغاية في الكَمالية الاِجتماعية هي ركونها إلى ما نعتقد أن الآخرين يعتقدون به. وفي هذه الفجوة السوداء بين الخَيال والوَاقع تظهرُ الشياطين.

يبدو أن الألعاب الرَّسمية، بِسلسلةِ مؤشرات الفَشل المُتضمنة فيها، عند عيش الحلم النيوليبرالي بِمحصلته الصّفرية، تجعلنا نُغالي في نشدان الكَمال. بِوسعنا

(768) Interviews, Professor Gordon Flett, Professor Rory O'Connor.

الإطّلاع على أَدلةٍ إضافية قوِيّة تخصُّ الدور الذي يؤديه تعديلنا لِقواعد ألعاب المكانة في تَغيير منْ نكون، وذلك في دِراسةٍ شملت ما يَزيد عن الأربعين ألف طالب في الولايات المُتحدة، وبريطانيا، وكَندا.[769] اكتشف الباحِثون، الذين عَملوا بِإشراف عالم النفس الدكتور ثوماس كوران، أن جميع أَشكال الكَمال التي نَظروا فيها قد برزت في السنوات بين 1989 و2016، وتَصَدرتها الكَمالية الإِجتماعية، إذ اِرتفع مُعدل شُعور الناس بِالحاجة إلى أن «يُظهروا الكَمال من أجل أن يَضمنوا الإِستِحسان والقُبول» بِمعدل 32٪. واستنتجوا، تبعًا لذلك، أن «الشبابَ يرون أن السياق الاجتماعي الذي يعيشون فيه مُتطلبٌ ومُرهقٌ لِلغاية، وأن الآخرين يَحكمون عليهم بِقسوةٍ بالغةٍ، وبِأنهم ما برحوا يميلون إلى إظهار صِفات الكَمال بوصفه وَسيلةً لِضمان القُبول والرِّضا». وفي محاولتهم تَخمين السبب، أشار البَاحثون بِأصابعهم إلى النيوليبرالية. إذ لاحظوا، أن البُلدان الثَّلاثة الغربية موضوع الدراسة تَطرفت في تَبني «الفَردانية والمادية والعدوانية الاجتماعية في هذه المُدة، التي بات الشباب فيها حاليا في مواجهة بيئات ترتفع فيها حدة المُنافسة الشرسة، وتوقعات مُستحيلة ما برح سقفها يعلو، وأولياء أمور يبالغون في القَلق والرَّغبة في التحكم بِمعدل أكبر من الأَجيال السابقة». وربطَ الباحثون بين الكَمالية الإِجتماعية ونُشدان الغايات المادية من جهةٍ والصُّندوق السحري لِلأمراض الإِجتماعية من جهةٍ أُخرى، من مثل الكآبة والقلق وإضطِرابات الأكل وإيذاء النفس، التي ارتفعت مُعدلاتها في السنوات الأَخيرة لا سيما بين الشباب.

هُناك تَنافرٌ مُهلكٌ ومُقلقٌ بين تَصميم أَدمغتنا والعَدد الهَائل وغير المُتكافئ على الإطلاق من الألعاب التي تتشكل منها الحياة النيوليبرالية. المَكانة نسبيةٌ هنا مع اعتماد المقدار الذي نَشعر أنه بحوزتنا على المقدار الذي نتصوَّر حيازة الآخرين له. والجُزء الأكبر من مُمارستنا لِلُعبة المَكانة يعني التنافس على جوائز رَسمية صفرية

(769) 'Perfectionism Is Increasing Over Time: A Meta-Analysis of Birth Cohort Differences From 1989 to 2016', Thomas Curran and Andrew Hill, *Psychological Bulletin*, 2017, 145. 10.1037/bul0000138.

المُحصلة في عمليات إعادة اِختراع جَماعية ضَخمة لِلقَبيلة. فتسعة وستون من الكيانات الِاقتصادية المائة الأَضخم في العالم اليوم هي شركات مُساهمة، وليست أُممًا.[770] حققت شركة التقانة آبل، في الرّبع الأوّل من عام 2021 فقط، مَكاسب تفوق الناتج القومي الإِجمالي لمائة وخمسة وثلاثين بلدا؛[771] وتفوقت قيمتها في السوق على الناتج القومي لإيطاليا والبَرازيل وكَندا وجنوب كوريا وروسيا. إنه لأمر سهلٌ للغاية ومُتاح أنْ نشعر، في هذه السلاسل الهَرمية الحديثة الضَّخمة، مثلما لو أننا نفشل في أداء ما هو مطلوب منا، حتى مع تَمكننا من توفير ما يكفي من الطَّعام والمأوى والأمان لأُسرنا. أنْ تعيش في عالم الحُلم النيوليبراليَ هو أنْ تُعاني قلق المكانة. إنه المقياس. إنه يَتصل بِمنْ نكون؟ وكَيف نَلعب؟

تغدو اللعبة أقسى وأصعب. إذ غَلب على العصر النيوليبرالي التفاوت المُجحف في توزيع الجوائز، وتضاعف أجر المُديرين التنفيذيين المُعدل حسب التضخم، بمعدل 1000٪ في السنوات من 1978 إلى 2014؛[772] وزادَ الناتج المحلي الإِجمالي في الولايات المُتحِدة المُعدل حسب التضخُّم، قُرابة الثَّلاث مرَّات في مُدة مماثلة اِمتدت من 1975 إلى 2017،[773] بلغ مُعدل الِارتفاع في إنتاجية العامل حوالي 60٪. ومع ذلك، وفي حين حَصَلت مجموعةٌ من العُمَّال الأمريكيَين بالفعل على بعض الزِّيادات في أجورهم، بَقيت الأجور الحقيقية لقاء المَحسوبة بالساعات لأغلبية الأمريكيين على حالها أو انخفضت. ولم يكن الوضعُ مختلفًا في المَملكة المُتحدة، إذ استحوذت نسبة 1٪ من الأغنياء على 7٪ من الواردات الوطنية في

---

(770) '69 of the richest 100 enti- ties on the planet are corporations', Uncredited author, *Global Justice Now*, 17 October 2018.

(771) https://twitter. com/olifranklin/status/1354547507574034432?s=03. 'Applesurpasses$100billioninquarterlyrevenueforfirsttimeinitshistory', Chris Welch, *The Verge*, 27 January 2021.'Apple Becomes First U.S. Company Worth More Than $2 Trillion', Sergei Klebnikov, *Forbes*, 19 August 2020.

(772) 'Top CEOs make more than 300 times the average worker', Paul Hodgson, *Fortune Magazine*, 22 June 2015.

(773) *The Value of Everything*, Mariana Mazzucato (Allen Lane, 2018), p. xiii.

1970؛[774] وارتفعت إلى 16٪ في عام 2005. ومع ذلك، ذكرت دائرة الإحصاء الوطنية أن الأجور «كانت تتجه عمومًا نحو الاِنخفاض» منذ سبعينيات القرن العِشرين.[775]

ومع هَيمنة الشركات المُساهمة الكُبرى على اللعبة، تَدهورت نوعية المَكانة المَعروضة على المُشتركين فيها. وهذا ما بدا وَاضحًا لي عند زيارتي مدينة أمانفورد الويلزية التي كانت مُجتمع مناجم تعدين فخورًا وزاخرًا في الماضي بالمَشاريع التجارية المُستقلة والخاصَّة. أُغلقت المناجم في 1976، ثُمَّ جاء عصر الأسواق الكَبيرة. قال أحد الشباب الذين قابلتهم: «قضت سَلسلة أسواق تسكو على تجارتنا المَحلية: على أعمال البقالين وبَائعي الخُضروات والفواكه»، ووصفَ جيله وهو «يُستدرج إلى التجول ذهابًا وإيابًا بين رُفُوف السلع المَعروضة، بلا غاية حقيقيةٍ. إنك لن تستمر في العمل لِسنوات مع تسكو، ثُمَّ تخرج منها مُعتقدًا: «لقد حققت شيئًا ما بالفعل في حياتي!» لِأنك لن تَحصل على شيء على الإطلاق».

يعملُ ما يفوق المليون بريطاني بموجب عقودٍ بساعات عملٍ غير مُحدد تَصب الحُقوق فيها في مصلحة أصحاب العمل، ولا تُقدم ضمانات إلى العَاملين.[776] يقول الأستاذ الجامعي غي إستاندنغ إن المَملكة المُتحدة قد شَهدت ظُهور طَبقة اِجتماعية جديدة هي «البرِيكاريا»[777] أو الطَّبقة العَاملة الهَشة المؤلفة من العاملين المُهاجرين في الغالب، ذوي الأُجور المُتدنية للغاية الذين يَتدبرون أمورهم في

(774) 'Britain must close the great pay divide', Danny Dorling, *Guardian*, 28 November 2010.

(775) Real wages have been falling since the 1970s and living standards are not about to recover', Institute of Employment Rights, 31 January 2014.

(776) www.statista.com/statistics/414896/employees-with- zero-hours-contracts-number/.

(777) تعبير جديد مؤلف من preca، المقطع الأول من كلمة precarious وتَعني 'هش، ضعيف، متداع، أو مُتقلقل، والمقطع الأخير من proletariat بِمعنى الكادح والمُنهك، إلى آخره، وتُشير عُمُومًا إلى هشاشة أوضاع هؤلاء العَاملين وافتقارهم الرَّفاهيَّة والأمان.

مجموعةٍ من الوظائف قليلة الأجر وقصيرة الأمد:[778] «يعيش أفراد البريكاريا حيوات يُهيمن عليها عدم الأمان واللايقين والدين والإذلال. إنَهم مُقيمون، وليسوا مواطنين، وهم فاقدون لِلحقوق الثَّقافية والمَدنية والاِجتماعية والسياسية والاِقتصادية التي تراكمت عِبر الأَجيال». وغَلب على الجزء الأكبر من وجودهم الامتثال المُطلق غالبًا وعجز شبه مُطلق عن التحكم في أي شيء، حتى حياتهم. وبسبب إحجام الشركات النفعية عن دفع الأجر الذي يكفل لهم العَيش الكَريم، يعتمد هؤلاء على مبالغ الرِّعاية الاِجتماعية في دعم أجورهم. إلا أن هذا التنظيم يتجاهل مراعاة الأهمِّية الطَّاغية لِلمكانة. فِعندما نُجبر المُجدين على قبول الإعانات، فإننا نَظلمهم ونَهضم حقوقهم: إننا نسرق منهم شيئًا كسبوه بِعرق جَبينهم.

والمَعاركُ السياسيةُ بين اليَسار واليَمين مَعنيةٌ، في الغالب، بِالآلية التي تَتبعها ألعاب النجاح في خلق الثَّروة، التي تُنتجها، وتوزيعها. هل من الأَفضل منح المُبتكرين والمُصنعين حُريةً قصوى لِعمل أكبر مقدار منها، وتَغذية الاقتصاد؟ أم الأفضل تشديد الرَّقابة، وزيادة مقدار الفَضيلة فيها عن طَريق فرض الضَّرائب واللوائح التنظيمية، وبالنتيجة، فرض المزيد من العَدالة على اللعبة؟ هذه سِجالات جوهرية. وفي حين أن الوَاضح هو أن الرَّسمالية لها قابلية سِحرية تقريبًا على رفع مُستويات المَعيشة ومُتَوسط تَوقعات الحَياة، فإن الأَوضح منه هو أن زعماء ألعاب النجاح يمكن أنْ يكونوا قُساةً ومُعتلين اجتماعيا وجامحين في رغبتهم بِالفوز.

وجدَ الباحِثون النفسيون الذين دَرسوا أوضاع طلبة الجامعة، في أعقاب المشكلات التي خَلَفتها الأَزمة المالية العالمية في 2008، أدلةً على التضييق والتشديد.[779] فمع شيوع التصوُّرات عن اِنهيار اللعبة النيوليبرالية، وفقدان

(778) *The Precariat*, Guy Standing (Bloomsbury, 2016). Kindle location 112.

(779) Jean M. Twenge, Sara H. Konrath, A. Bell Cooper, Joshua D. Foster, W. Keith Campbell, Cooper McAllister, 'Egos deflating with the Great Recession: A cross-temporal meta-

المكافآت المتأتية منها لِأهمِّيتها، تناقصت قيمة العَلامات الدالة على الفردانية والنرجسية بين الطلاب. وشَهَدت المُدة ذاتها بروز ما يبدو أنَه «ذات خاصَّة بوسائل التواصل الِاجتماعي». عَملت فيالق الأفراد، الذين تلقوا جُزءًا من تنشئتهم الاجتماعية في العالم الرَّقمي، بعد استغلال القَواعد والرُّموز المعتمدة في المواقع الإلكترونية من مثل تويتر، وتامبلر وريديت، على إدخال أنماط اللعب القاسية والمُلتزمة بِالفَضيلة والمائعة الهوية في هذه المَنصات إلى العالم الواقعي غير المُتصل بِالإنترنت. فتحوّلت الألعاب المُتمردة والساخطة لِهؤلاء حاليا إلى شيء ما قريب الشبه بِحمى البحث عن المكانة بالنسبة للاعبين الشباب والمُتميزين. وقد تشهد السنوات اللاحقة تَمددا لهم وزيادةً في عددهم. تُركز العديد من المَعارك التي يَخوض غمارها هؤلاء على جوانب الفشل في النيوليبرالية، وحقيقة أَننا ما زلنا نُكافح لِتوفير فرصٍ مُتساويةٍ في مُمارسة اللعب تَشمل جميع فئات العرق والنوع الاجتماعي.

---

analysis and with- in-campus analysis of the Narcissistic Personality Inventory, 1982–2016', *Personality and Individual Differences*, volume 179.

الفصل السادس والعشرون

العدالة والظّلم

مكتبة
t.me/soramnqraa

ما زلنا، حتى في هَذين العقدين من القرن الحادي والعِشرين، نركب الموجة المُتدفقة لِلابتِكارات الثَّقافية التي اِنطلقت شَرارتها في القرن السادس عشر. لم يكن موطن الوِلادة هو المُهم بالنسبة للاعبين في جمهورية العُلُوم، المهم هي نوعية الأفكار. وهذه هي الطَّريقة التي تُريد ألعاب النجاح، الساندة لِلتحديث، من الناس الاِلتزام بها عند الاشتراك فيها: إذ تفوز بالثَّناء لقاء ما تفعلهُ، لا لقاء من تكون. ومع إرساء الثّورة الصِّناعية لِدعائمها، والتأثير المتعاظم الذي حازته هذه الألعاب في الثّقافة، اكتسبت قيمة اللاعب الفرد ورفاهيَتهُ أهمِّيةً محوريةً. شَهد العام 1869 صدور *المُساعدة الذّاتية* لصامويل سمايلز في بريطانيا، وهو أوّل كتابٍ في بابهِ. يقول الكتابُ، المحتشدُ بِدراسات الحالة المُلهمة، أن بِقدرة حتى اللاعبين في قاع اللعبة الصُّعود إلى الأعلى بِالعمل الجاد والمُثابرة. اِستهل سمايلز كلامه بِاقتباسٍ من الفيلسوف جون ستيوارت مِل: «قيمة الدولة، في المدى الطَّويل، في قيمة الأفراد الذين تتكون منهم». واِحتل الكتاب قائمة أَفضل المبيعات حالاً[1].

بَدأت رِحلة اِنتمائنا إلى أَنفسنا مع بدء رحلة اِنتمائنا إلى القَبيلة في الماضي. كُل فردٍ كان ثَمينا؛ وكان للأفراد حقوقٌ. والقَاعدة التي تَبلورت من هذا الشيء- التي تَقُول إن اللعبة يَجب أنْ تُمارس من دون اِعتبار لِحدود الطَّبقة والعرق والنوع الاجتماعي أو الهوية الجنسية- جَذريةٌ وجديدةٌ. وصِراعات هذه اللعبة وصعوباتها ما تزال تؤثر في الحياة اليَومية لملايين من البشر، الذين تُهيمن حِكاياتهم عن الظُّلم

في العادة على شَبكات النميمة الحديثة في وسائل التَواصل الاجتماعية التقليدية والحَديثة. وفي سَورة الغضب والقلق من كل هذا، من السهل أنْ نَغفل عن تَقدير المَدى الذي خَضعت فيه أفكارنا الجوهرية عن الإنصاف إلى المراجعة والتعديل. كان فيلسوف التنوير، ديفيد هيوم، من المُنتقدين لِلعبودية، لَكِنه كَتب في 1754 بِأنه «ميال إلى الظَّن بِأَن الزُّنوج، وعمومًا جميع أنواع البشر الأُخرى (لأن هناك أربعة أو خمسة أنواع مُختلفة) في موقعٍ أدنى، بِطبيعة الحال، من البيض».[780] وكَتَب غوستاف لوبون، المختص الرَّائد والمؤثر في علم النفس الاجتماعيَ، في 1879: «هناك عددٌ كبيرٌ من النساء أَدمغتهن أقرب في الحجم إلى أَدمغة الغوريلا منها إلى دماغ الذَّكر الأَكثر تطورًا...توجد نساء مُتميزات قطعًا، أرقى كثيرًا من الرّجل العادي، لَكنهن نادرات مثل ندرة ولادة مسخٍ، على شاكلة غوريلا بِرأسين».[781]

وليست هذه الآراء مُستفِزةً ومبغوضةً اليَوم فحسب، بل هي من المُحرمات. وحتى المُتشددين، الذين يَتمسكون بها، يُدركون أن التصريحَ بها في الغرب هو اِنتهاك لِلقواعد المُقدسة، وبالتالي، المخاطرة بالتعرض لِلملاحقة والطَّرد من العَمل والتشهير العَلني، وربما الهُجُوم الجَسدي.

مع ذلك، تَبينَ في الآونة الأخيرة أن مفاهيم شَديدة التحيز من هذا النوع قد شاعت وحَظِيَت بِقبول العديد من مُفكري العالم الأذكياء. يروى الدماغ، في محاولتِهِ شرح لعبة الحياة، قصةً سَهلةً ونفعيةً عن السبب الذي يجعل الأشياء تظهرُ على ما هي عليه. عاش المُفكران ديفيد هيوم وغوستاف لو بون واقعًا يسوده ترتيبٌ معولٌ عليه لِلنوع الاجتماعي والعرق. ولذا، نَسجا حلمًا صانعًا للمَكانة

(780) *TheEnlightenment*, JohnRobertson(OxfordUniversity Press, 2015), p. 63.
(781) *TheApe that Understoodthe Universe*, Steve Stewart- Williams (Cambridge University Press, 2018), p. 64.

حول ذلك التسلسل الهَرمي يَتحدث عن تفوق الرّجل الأبيض.[782] لم يكونا يَعرفان، مثلما نعرف الآن، أن الثّقافة الغربية الأوروبية لم تكن نِتاجًا للتفوق الفِطري أو حتى التخطيط المُتعمد، بل الحظّ والصّدفة والنتائج العَرضية؛ لم يكونا قد أَدركا بعد أن القمعَ العالمي لِلنساء لم يكن نمطًا محتومًا فرضته الطَبيعة، بل كان ظُلمًا تاريخيا واسع النطاق.

إلا أن التعديلات في القاعدة، التي أفضت إلى إنشاء ثقافة لعبة النجاح الغربية، أسهمت سريعًا في تغيير تَصورنا عن بعضنا بعضًا، وعما نَعدهُ لَعبًا عادلًا أيضًا. إذ شَهدت نِهاية القرن الثّامن عشر في الغرب شُيوع النقاشات الخاصَّة بـ «حقوق الإنسان» بمعدل أعلى من ذي قبل، مع تَضاعف ظهور مفردة «الحقوق» مطبوعةً إلى أربعة أضعاف بين ثمانينيات القرن الثّامن عشر وتِسعينياته.[783] وشهدت المُدة نفسها حُزمةً من الإصلاحات القانونية التي تعكس الإيمان المُتنامي بقيمة الفرد. وفقد مُمارسة التعذيب فَقدا متزايدا بريقها مع إقدام الدول الأوروبية، ومنها بروسيا والسويد وبوهيميا وفرنسا، على إلغائه بين 1754 و1788، وجادل الطَّبيب الأمريكي، بنجامين بوش في 1787 بِأنه حتى المُجرمين «لديهم أرواحٌ وأجسامٌ تتكون من المواد ذاتها التي تتكون منها أرواح أصدقائنا وأجسَامهم».[784] كانت عمليات الإِعدام العَلنية في المَملكة المُتحدة في الماضي تستقطب حشودا ضخمة ومُعربدة، مع تقارير معاصرة عن عمليات الإِعدام شنقًا في لندن تتحدث عن «أغرب وأعجب مشاهد السكر والخَلاعة»، و«جموع غفيرةٍ عديمة الرَّحمة...تصرخ وتضحك وتتقاذف فيما بينها كُرات الثَّلج».[785]

---

(782)يعكس المُفكران، هيوم ولو بون، الشّائع في واقعهما من أفكارٍ وآراء. كَتب عالم الأحياء والوِراثة، ديفيد سلونولسن: "من الصّعب أنْ تجد شخصيَّة مهمةً لا توزع البشر في سِلسلة هرميَّة من الأعراق يشغل الأوروبيُون القِمَّة فيها." *This View of Life*, David Sloan Wilson (Pantheon, 2019). Kindle location285.

(783) *Inventing Human Rights*, Lynn Hunt (W. W. Norton & Company), p. 135.

(784) الصمدر نفسه، ص 76.

(785) المصدر نفسه، ص 95.

وهذه أيضًا أصدرَ البرلمان قرارًا بإلغائها في 1868، سَبقه بقرارٍ آخرٍ، قبل ثمانين عامًا، يَقضي بمنع حرق النساء على الوتد.(786)

يرى المؤرخُ الأستاذ هانت لِن أن تحولات من هذا النوع مستوحاةٌ من التغيرات العَميقة في نَظرتنا إلى اللاعب الفرد: «لِأن الألم والجَسد ذاته هو الآن مُلك الفرد حَصرًا لا مُلك الجماعة، لم يَعد مُمكنا بعد اليوم التضحِيَة بالفرد لمصلحة المجتمع المحلي، أو لغايةٍ دينية أسمى». أخذت مُمارسات وحشية كثيرة منها التعذيب والإعدام العَلني بِالتلاشي بعد «اِنهيار الإطار التقليدي لِلألم والذّات، إذ حل محله، تدريجيا، إطارٌ جديدٌ للأفراد فيه حق تَملك أجسامهم، وأيضًا الحق بالتَحكم بها، وحماية حُرمتها، ويُقرون أن لدى الآخرين العواطف والمشاعر والأحاسيس ذاتها التي لديهم».(787)

وامتد مبدأ تساوي الحقوق إلى الأَقليات الدينية والنساء. وبالمِثل، شهدت هذه المرحلة بداية النهاية لِلعبودية التي يعود وجودها في العالم إلى الحَضارات المُبكرة. إذ حَظرت الدنمارك المُشاركة في تجارة العَبيد في 1804، وصَوتت بريطانيا على ذلك في 1807، وأبطلتها في أغلبية المُستعمرات في 1834. وصَادقَ الكونغرس في الولايات المُتحدة على التعديل الثَّالث عشر الذي وضع حَدا لِلعبودية في السادس من كانون الأوّل عام 1865. ومنح قانون تمثيل الشعب البِريطاني، في 1918، حق التصويت إلى الرِّجال من غير طبقة المُلاك، وبعض النساء ذوات الأملاك. وأُجيز التعديل بأغلبية 385 في مقابل 55 صوتا.(788) وفازت النساء بحقوق تصويت مُتساوية بعد ذلك بعشر سنوات، وبحق التصويت الكامل في الولايات المُتحدة في 1920 (في حين تأخر ذلك في سويسرا حتى العام 1971). وحُظِرت حظرًا متزايدًا عقوبة الإِعدام التي كان يُعتقد بِأنها من العقوبات العالمية

---

(786) المصدر نفسه، ص 77.

(787) المصدر نفسه، ص 97.

(788) www.historyextra.com/period/20th-century/what- was-the-1918-representation-of-the-people-act/.

في الماضي. كان من المُمكن أن يُحكم على سُكان مدينة نيو هافن في أمريكا بالموت بِجريمة الإستمناء في القرن السابع عَشر؛[789] وكانت بريطانيا، حتى 1834، ما تزال تُعلق جُثث القَتلة في حين أضحى هذا الإجراء مَلغيا في نصف دول العالم في 2020.[790] وتوسع نطاق مبدأ المُساواة ليشمل الأَقليات الجنسية في الآونة الأخيرة. إذ شُرع قانون زواج الشواذ، في وقت تأليف الكِتاب، في ثمانية وعشرين بَلدا، الغالبية العُظمى منها غربية الثَّقافة.

لَكن هذه الأفعال ما تزال فاعلةً ومؤثرةً. فَالتركيز على الكِفاية واعتمادها بديلا عن الهويات الطَّبقية، من نحو العرق والنوع الاجتماعي والهوية الجنسية، هو توجهٌ حديثٌ. ما يَزال الملايين من الناس يُمارسون هذه الألعاب، ويستمدون مقدارًا مُعتبرًا من المَكانة من لون بشرتهم وموطن ولادتهم أو إذا ما كانوا يملكون الكورسومات الأُنثوية أو الذّكرية. إنها لعبة مَكانة متقوقعة، ومَعنية بِالدفاع عن جماعتنا: الشرف والواجب والأحكام الأخلاقية لها الأولوية، في العادة، على المَهارة والمَوهبة والمَعرفة. ولِسوء الحظّ، فإن الدماغ البشري ليس حاسوبًا. إذ يَتعذر علينا بَرمجة الجَميع بِنظام عملٍ جديدٍ تمامًا، وتَعليمهم قُبول اللاعبين دونما اِعتبار أو تَحيزٍ للنوع الاجتماعي والعرق والهوية الجنسية. ومثلما عَرَفنا، ما زلنا نعمل على وفق آلية تَشفير أساسية نَستخدم فيها «التماثل مع الذّات» بوصفهِ مؤشرًا دالا عند بحثنا عن آخرين نُمارس معهم الألعاب.

والأدبيات البحثية عن غياب العَدالة العرقية مُثقلة بِالشعور بِالعار. تَناولت دراسةٌ مُهمةٌ شملت ما يفوق المائتي ألفٍ من طلبات التوظيف في تسعة بُلدان غربية تأثير الهوية العرقية في احتمالات الرَّد على اِتصال المُتقدم للوظيفة،[791]

---

(789) *The Goodness Paradox*, Richard Wrangham (Profile, 2019). Kindle location 2346.
(790) *Inventing Human Rights*, Lynn Hunt (W. W. Norton & Company), p. 77.
(791) 'The persistence of racial discrimination in hiring', Lincoln Quillian, Devah Pager, Ole Hexel, Arnfinn H. Midtbøen, *Proceedings of the National Academy of Sciences*, September 2017, 201706255; https://doi.org/10.1073/pnas.1706255114.

وَوجدت أدلةً على «ممارسات تَمييزية شائعةٍ في التوظيف ضد جميع الجماعات غير البيضاء» في البُلدان كافة مع تسجيل فرنسا والسويد المشكلات الأخطر في هذا المجال: إذ يَجب على المُتقدمين إلى الوظائف من أبناء الأَقليات أن يُرسلوا عددا من الطَّلبات يفوق 70٪ إلى 94٪ عدد ما يُرسله البيض لِتلقي العدد نفسه من الاِتصالات الرّاجعة. وكان تَرتيب بريطانيا الثّالث في القائمة، بِمعدل بلغ 55٪.

إلا أن ذلك لا يعني غيابًا كُليا لبوارق الأمل المُشجعة. فعلى الرَّغم من مشكلات الولايات المُتحدة المَعروفة مع العرق، كان تَرتيبها الثُّالث من الأَخير. ظن الباحثون أن السبب في ذلك هو التزام الشركات الأمريكية الكُبرى في الكَشف عن البَنية العرقية لِكُل صِنفٍ من أعمالها أمام «هيئة التساوي في فرص العمل»، وهي إحدى آليات المُراقبة غير الموجودة في الدول الأوروبية. وهناك أخبار تبعث على المَزيد من التفاؤل مصدرها ألمانيا، البَلد الذي اِشتهر في السابق بِالتحيز العرقي. إذ كانت فرص التوظيف فيها الأَعدل في البُلدان التسعة التي شملتها الدراسة. يقول عالم الاجتماع الأستاذ، لنكولن كوليان، إن أحد أسباب «تَدني مُعدل التمييز» هو المجموعة المُتنوعة من الوثائق الداعمة من مثل «تقارير التمرّن» التي يجب تقديمها مع طَلبات التوظيف،[792] وأَضاف أن «وجود وفرة من المَعلومات في الطَلب الأوّل يُقلل من اِحتمال النظر إلى المُتقَدمين إلى الوظائف من فئة الأقلية بوصفهم أقل كِفايةً أو غير مؤهلين». كلما زَادت معرفة رَب العَمل بمؤهلات المُرشح وكفايته، بدا تحيزه ضده أضعف.

وتَدعمُ دِراسات أُخرى وجهة النظر هذه. إذ تمكن البَاحِثون من تَغيير التحيزات العرقية الأوَّلية للمشاركين في دِراستهم بعد تقديمهم «معلومات إضافية عن المكانة مُصادق عليها وقاطعة لا لبس فيها، الأمر الذي صبَّ في مصلحة المرشح وتفوقه على المُرشحين الآخرين».[793] ولاحظت دراسةٌ أُخرى

---

(792) 'DoSomeCountriesDiscriminate More Than Others?', Uncredited author, Institute for Policy Research, 18 June 2019.

(793) *Status*, Cecilia L. Ridgeway (Russell Sage Foundation, 2019), p. 119.

تأثيرًا مماثلا، إذ عَبَرَ اللاعبون البيض الذين وِضعوا مع لاَعبين سود في فريقٍ عن تَحيزٍ لِفريقهم «تَغلب على تَحيزهم العرقي الأَصلي».[794] ودراسات من هذا النوع تُزودنا بِالأَمل. فالبَشر غير مُبرمجين لكي يكونوا مُتحيزين عرقيا، لَكنهم ينحازون لجماعاتهم. ولو رَبطنا رَغبتنا بالمكانة رَبطًا مُحكمًا بِهويتنا العرقية، سينتهي بنا الحال إلى ممارسة ألعابٍ مُتحيزة عرقيا. لكننا غير مُضطرين إلى فعل ذلك. ينشدُ البشرُ الفوزَ، ويتمنون أن تَظفر ألعابهم به. ولو اِرتبطت حاجتهم إلى المَكانة بِلعبة النجاح، فإن عنايتهم بِكفاية اللاعب تتفوق في الغالب على عنايتهم بلون بشرتِهِ.

ستواصلُ الأجيالُ القادمة كِفاحها أيضًا من أجل المُساواة في النوع الاجتماعي. ومع ذلك، ما تزال المُعتقدات المَبنية جنسيا مُنتشرةً. لاحظت دراسةٌ شملت «مجموعة الدول السبع»، كَندا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا، واليَابان وبريطانيا والولايات المُتحدة، أن قُرابة 80٪ من المُستجِيبين يؤمنون أن الرّجال والنساء متساوون في قُدرتهم على تولي القيادة في وسائل الإعلام والعُلُوم والطّب والقانون والسياسة والمال في حين راوحت النسبة بين 65٪ و75٪ في مجالات الرّياضة والتكنولوجيا والهَندسة.[795] وتَحدثَ قُرابة النصف منهم عن غياب الفرق المبني على النوع الاجتماعي في القدرة على القيادة في مجالات الدفاع والشرطة والأَزياء والجَمال ورِعاية الأطفال. واِنتبه كثيرٌ من المُستجِيبين، على ما يبدو، إلى حضور الرِّجال بمعدل أعلى من النساء في الهندسة، في سبيل المثال، خِلافًا للوضع السائد في رِعاية الأطفال، واِستنتجوا أن أحد النوعين الاجتماعيين كان أفضل من الآخر في هذه المِهن. وهذا يُبرهن على درسٍ عنيدٍ عنادا مُحبطًّا هو: إن التقليل من شأن

(794) 'The neural substrates of in-group bias: a functional magnetic resonance imaging investigation', J. J. Van Bavel, D. J. Packer, W.A. Cunningham, *Psychological Science*, November 2008, 19 (11):1131–9. doi:10.1111/j.1467-9280.2008.02214.x.PMID: 19076485.
'There's a name for that': social identity theory', Emily Moon, *Pacific Standard*, 3 December 2018.
(795) The Reykjavik Index for Leadership survey on behalf of the World Economic Forum, www.weforum.org/ agenda/2018/12/women-reykjavik-index-leadership/.

لاعبٍ على أساس نُوعه الإجتماعي ليس جَهلا فحسب، بل هو اِستراتيجية رهيبة لِلنَجاح.

والحَقيقة، بالطبع، هي أن الرِّجال والنساء متساوون في قدرتهم على التصدي للمسؤولية في جميع هذه المِهن. لَكن الأسباب التي تجعل بعضها مكتظةً بنوع اِجتماعي دون آخر ما زالت محل خلافٍ. إذ يَشك العديد من الباحثين في أن جُزءًا من الجواب يكمن في الفوارق العامة بين الجِنسين. ليس هناك أحدٌ، على الأغلب، يؤمن في هذه الأيام في أن البناء النفسي يختلف اختلافًا *قاطعًا* بين الذَكر والأُنثى: فَنحنُ لسنا من المَريخ أو الزُهرة، والمعروف حاليا هو أن ما يجمعهما أكثر مما يُفرقهما. مع ذلك، تُبين الدراسات أن الجنسين يُظهران بالفعل بعض الفَوارق في الشخصية والاهتِمامات والتفضِيلات المِهنية التي تؤثر في توزيعهم في ألعاب الحياة. ولاحظت دراسةٌ، شَملت مائتي ألفٍ من المُستجِيبين في ثلاثة وخمسين بَلدا أن النساء تختلف اختلافًا مُميزًا في بعض الصِّفات الشخصية، ووَثقت «اختلافًا مَبنيا على الجنس كبيرًا ودائمًا» في اِختيار المهنة المُفضلة.[796] تقول إحدى النتائج المَرصودة الشائعة إن الرِّجال يَميلون إلى تَفضيل العمل مع «الأشياء» في حين تَميل النساء إلى العَمل مع «الأشخاص». ورَصد تَحليلُ لعددٍ يفوق نصف مليون شخصٍ «حجم تأثير كبير» في هذا البعد كان «متوافقًا توافقًا ملحوظًا من حيث الفئة العمرية والمُدة الزَّمنية». هناك، حسبما يرى عالم النفس، ستيفن، بنكر، «مُتوسط فرق هائل بين الرِّجال والنساء في هذا الجانب».[797]

وليس لهذه الفَوارق إلا أن تنعكس في التوازن في النوع الاجتماعي في الألعاب التي نُمارسها. ومع ذلك، هناك جانبان حاسِمان في أهمِّيتهما يَجب ملاحظتهما فيها.

---

(796) 'Men and things, women and people: a meta-analysis of sex differences in interests', R. Su, J. Rounds, P.I. Armstrong, *Psychological Bulletin* November 2009, 135 (6):859–884. https://doi.org/10.1037/a0017364. PMID: 19883140.
(797) 'The Science of Gender and Science: Pinker vs. Spelke', *Debate*, 16 June 2005, transcript: www.edge.org/ event/the-science-of-gender-and-science-pinker-vs-spelke-a-debate.

فهذه الفَوارق، أوّلا، متوسط إحصائيات يُغطي مجاميع كبيرة من الناس؛ أي إنها لا تُخبرنا شيئًا عن أية امرأة أو أي رجلٍ مفردٍ. وثانيا، إن التفضيل لا يعني القدرة. فحسبما تذكر الدراسة المَسحية للقيادة، ثَمَّة تفسيرٌ مبني على عامل الجنس شائعٌ مؤداه إن الرِّجال *أفضل* في بعض الأشياء، والنساء *أفضل* في أداء أشياء أُخرى. وهذا غير صحيح لِأن الأمر يتصل بقيمة الأرقام. فلو جمعت مائة رجلٍ وامرأةٍ، وطلبت من المُهتمين بِالجرارات أن يتقدموا الصّفوف، فالأَرجح هو أن يتقدم عددٌ من الرِّجال يفوق النساء. والنتيجةُ في العالم الواقعي هي أن عددا أكبر من الرِّجال يعملون في مصنع الجَرارات، ومن القادة الذّكور أيضًا في هذا القطاع الصّناعي. ما لا يعنيه ذلك هو أن النساء العاملات في مصنع الجرَّارات لن يَكن بحالٍ أفضل أو أسوأ من الرِّجال في وظائفهن.

تدحضُ الباحثات النسوَيَات، على الدوام، مصداقية، هذا النوع من النتائج. إنهن يَشممن فيه رائحة ذريعةٍ مُقنعة لِلغاية غايتها الإبقاء على الوضع الرَّاهن. وهن يتساءلن عن السبب الذي أدى إلى ذلك: هل هو التشفير الثَّقافي حصرًا؟ بمعنى، هل تُربى النساء في بيئات مُتَحيزة جنسيا، ويُبرمجنَ على الإيمان بِأنه لا يُفترض بِهن أنْ يُظهرن الاهتمام بِالجرَّارات؟ أم هل إن هذا التشفير قَديمٌ للغاية إلى حد رسوخه في مُعدات حُمضنا النووي؟ هل السبب في اِرتفاع نسبة عناية النساء بالألعاب المُتصلة بِالناس يعود، جُزئيا، إلى تَقسيم العمل الذي يعود إلى ملايين من السنين خَلت، وإلى حقيقة الأمومة البايولوجية؟ ومن نافلة القولِ السجال المُحتدم المُلازم لِأفكار من هذا النوع، التي يُمكن لها أنْ تكون مَشحونةً وخَطرةً بسبب اِرتباطها المُباشر بِقضايا المَكانة. إنها تُثير حفيظة أبناء العُمُومة بِتهديدها لقصةٍ مُقدسةٍ، يؤمن بها بعضهم، تقول إن الشر الذّكوري لا يُمكن إلا أن يكون السبب في عدم المساواة في النوع الاجتماعي. مع ذلك، هناك خُبراء حُكماء وحسنو النية في المُعسكرين كِليهما، لدى كُل واحدٍ منهم مجموعةٌ مُعتبرةٌ من الأَدلة. ليس لدى الطَّرفين أي شكٍ في حقيقة التفاوت في النوع الاجتماعي، وفي حجمه أيضًا،

وفي أن الافتراضات المَبنية على الجنس مُشكلةٌ واقعةٌ. ولو تَبين أن الأسباب وراثيةٌ في جزء منها، فإن الكفاح سيستمر لِتَنظيم المجتمع والاقتصاد بطريقةٍ ما بحيث لا تُفرض بعد اليوم عقوبات غير عادلةٍ على ملايين النساء لِتَعبيرهن عن هوياتهن.

والنَوع الاجتماعي والعرق ليسا المَظلمتين الوَحيدتين المُتضمنتين في الألعاب التي نُمارسها اليوم. فَبعد خَمسُمائة جيلٍ من بزوغ فجر الزِّراعة، ما زلنا نُولد في نظام طبقةٍ اِجتماعي يعمل على توجيه موقعنا في التسلسل الهَرمي والمِهن اللاحقة. الطَّبقةُ عنيدةٌ، مثلما لاحظت الأستاذة ادري كوسيرو في دراستها لِنمط الأبوة في ضاحية سايد ابا إيست في مانهاتن؛ إذ يمتلك الأطفال، الذين يَتربون في هذه الألعاب، قَواعد ورُموز نخبوية مُدَوَّنة في أَدمغتهم مُنذ الوِلادة. ولا تتعلق الطَّبقةُ الاجتماعيةُ، بِسهولةٍ ويسرٍ، بالثَّروة والأسلاف، بل بالذَّوق في الفُنُون والطَّعام والعُطل واِختيار الملابس. إنها في نَبرة الفَرد والكلمات التي يختار استخدامها. أَحدثت نانسي متفورد، الإبنة الأَرُستقراطية للبارون الثَّاني لِمدينة ردسديل، ضجةً كبيرةً في 1955 بعد نشر مقالتها عن اِستخدام الطَّبقة العُليا لِلغة الإنكليزية.(798) أَعدت متفورد قائمةً بِالكَلمات العُليا (خاصة بِالطَّبقة العُليا) في مقابل غير العُليا؛ فَحلويات: غير عُليا في مقابل حلوى البُودونغ العليا؛ وورق المرحاض غير عُليا في مُقابل وَرق دورة المياه العُليا. ويتناول المُتحدثون من الطَّبقة العُليا غداءهم في منتصف النهار، وعشاءهم في المَساء؛ في حين يتناول المُتحدثون من غير هذه الطَّبقة (وأطفال الطَّبقة العُليا وكلاهما أيضًا) عشاءهم في منتصف النهار. وَوَثقت متفورد أيضًا اِستخدام الطَّبقة العُليا لِلتوبيخ، والصَّمت الناقد الحَاكم: «فَالصَّمت هو الرَّد المُمكن الوحيد لدى أفراد هذه الطَّبقة على العديد من المواقف الحالية المُحرِجة من نحو التبادل السريع «لِلأنخاب» قبل تناول الشراب أو كان من الرَّائع رؤيتك، بعد الوداع. وفي الصَّمت أيضًا يجب على المرء أن يتحمل استخدام الغُرباء عنك

(798) The English Aristocracy', Nancy Mitford, accessed at: www.unz.com/print/Encounter-1955sep-00005.

إلى حدٍ ما للاسم المسيحي، وتَحمل الهلع من التعريف بك بِاستخدام الاسم المَسيحي واللقب من دون أي بادئة.

تُقدمُ كُلية النخبة في إيتون اليوم مَسرَدًا شَارِحًا بِوصفه جُزءًا من «دليل الطَّالب الجَديد»،[799] يُساعد الوافدين الجُدد على تعلم لغةٍ خاصةٍ لا تَقل في غرابتها عن لُغة أعضاء جماعة «بوابة السماء»، من مثل: «مِنقار، أُستاذ، أي مُدرس»، و«الصَّلب للطلبة الذين يختارون لعبة الكريكت»، و«ساكن المدينة الصَّغيرة [أوبيدان] لأي صبي من غير طَلبة الجامعة»، و«مدرسة بورني، هي المَدرسة الابتدائية في ستريت ايتون هاي»، وكذلك «الحائط الذي تُمارس لعبة الحائط عنده». وليس غريبًا أنْ تعتمد المؤسسات التعليمية الرَّفيعة لُغةً خاصةً بها. إذ يُشير اللاعبون إلى المُفردات التي تَربوا عليها بِأنها «فِكرة إيتون» أو «فكرة أكسفورد». يقول المؤلف والصَّحفي، روبرت فركايك، إن لدى كِبار السن في إيتون: «أساليب واضحة في تمييز بعضهم بعضًا إلى جانب نَبرة الصّوت ورَبطة العنق. فَالتحية بين رَجُلين من المَدينة يَظُنان بِأنهما تَلقيا تعليمهما في المَدرسة نفسها هي: "هل التحقت بمدرسة...؟"»[800]

تمنحُ هذه اللغات الخاصَّة «إحساسا مُباشرًا بِالِانتماء إلى مُجتمعٍ محلي مُنتخبٍ» يؤدي، من وجهة نظر فركايك، غرض فصل الطلبة وتَمييزهم عن عامة الناس في الشارع الذي يشتركون فيه.[801] قد يبدو ذلك غير مقبول، لَكنه المَسار الذي تَسلكه جميع ألعاب المكانة. فَمعرفة معنى «أوبيدان» و«الأولاد الصَّلِبون» واِستخدام «ورق دورة المياه» بدلا من «ورق التواليت» يُعادل معرفة أن موازنة الهند والمَريخ هو فِعلٌ مُتحيزٌ عرقيا واِستعماري، وضرورة ألا تنظر أبدا إلى أشجار

---

(799) المَسرد متوفر في:
www.etoncollege.com/glossary.aspx during my research but appeared to have been removed as of January 2021.

(800) *Posh Boys*, Robert Verkaik (OneWorld, 2018), p. 141.

(801) *PoshBoys*, p. 21.

اليام التي زرعها غيرك. وهذه الاتفاقيات المُتخيلة التي نَبرمها مع زُملائنا اللاعبين هي المَنطقة المُشتركة التي نلعب فيها. إنها تسمح لنا بِالشعور بِالرَّاحة عند حضورنا معًا، وبِالقيمة أيضًا، إذ نتبادل منح المكانة لقاء معرفتنا بِالقواعد والرُّموز، والالتزام بها. إنها كَلمات سِحرية تُعرف الجَماعة القَرابية.

قال المؤلفُ آلان بينيت، في خطابٍ له في مَصلى كلية كنغ، في أكسفورد: «إن التعليم الخاص غير عادل. من يُقدمه يَعرفُ ذلك. ومن يَدفع المال من أجله يعرف ذلك. ومن يَضطر إلى التضحية من أجل الحصول عليه يعرفُ ذلك. ومن يتلقاه يعرفُ ذلك، أو يَجب عليه».(802) تَشتهرُ الألعاب البريطانية الأعلى مَنزلةً في القانون والحُكومة ووسائل الإعلام والفُنُون بالتمثيل المُرتفع لهؤلاء اللاعبين فيها. ومع أن قرابة 7٪ من البِريطانيين قد تلقوا تعليمًا خاصًا،(803) إلا أنهم يُشكلون 70٪ من المُحامين في البِلاد،(804) و60٪ من الحاصلين على الأوسكار فيها.(805) ودرسَ أقل من 1٪ من السكان في جامعة أكسفورد أو كامبرج،(806) ومع ذلك، فإن أكثرية رؤوساء الوزراء هم من الخريجين فيها. ولاحظت دراسةٌ في 2019 أن 71٪ من القُضاة الأقدم،(807) و57٪ من وزراء الحُكومة و44٪ من كُتاب الأعمدة الصَّحفية دَرَسوا في إحدى هاتين الجَامعتين. وفي برلمان 2010-2015، حصل رئيس الوزراء وزَعيم المُعارضة كلاهما على الدرجة العلمية ذاتها في الفلسفة والسياسة والاقتصاد في جامعة أكسفورد (مثلهما مثل مستشار حكومة

(802) 'Private education': *Engines of Privilege*, David Kynaston (Bloomsbury, 2019), p. 15.

(803) 'Private school and Oxbridge "take top jobs"', Sean Coughlan and David Brown, BBC News, 24 June 2019.

(804) *Engines of Privilege*, David Kynaston (Bloomsbury, 2019), p. 4.

(805) *Engines of Privilege*, p. 6.

(806) 'Oxbridge uncovered: More elitist than we thought', Hannah Richardson, BBC News, 20 October 2017.

(807) Private school and Oxbridge "take top jobs"', Sean Coughlan and David Brown, BBC News, 24 June 2019.

الظِّل، ووزير الخارجية، والسكرتير الأوّل في وَزارة الخِزانة).[808]

و«شبكة العلاقات المَدرسية القَديمة» التي تسمح بالوصول المُباشر لألعاب النخبة هي أحد الأسباب الرَّئيسة لِغياب العَدالة. تحتفظ مَدرسة إيتون بقواعد بيانات تخص الطَلَبة السابقين يُمكن الرُّجوع إليها لِلتواصل معهم.[809] وأشكال الظُّلم الأخرى أوضح. فعندما يلتقي الزُّملاء والزَّميلات السابقين في قاعات الاِجتماعات والنوادي، فإنهم سيتحدثون بِلُغة لعبة المكانة نفسها- التي لا تظهر في شكلٍ كلمات سِحرية فحسب. لقد صُنِعت ماكينات الواقع الافتراضي في المَصنع نفسه، إذ بوسعهم التعرف إلى بعضهم تعرفًا مباشرًا بفضل تَعقب عددٍ لا يُحصى من العَلامات الثَّقافية، العديد منها غير واعية. إنهم يشعرون بطمأنينةٍ تلقائيةٍ بوجود زملائهم لِأنهم مصادر لِتبادل المَكانة فيما بينهم، وتوكيدٌ حي لِحقيقة أحلامهم. ويُمكن لِهذا الترابط القوي الذي يشعرُ به الذين دَرَسوا في إيتون وغيرها من مَدارس النخبة المماثلة أن يتعسف في منع اللاعبين الطموحين والمُستحقين من الاشتراك في اللعبة. ومن المُحتمل أنْ يشعر لاَعبون رائعون، في جوانب كثيرةٍ، بالإحباط والقَلق والإقصاء لِأن لُغة المكانة غير الواعية التي يستخدمونها عاجزةٌ عن تحقيق هدف رَبطهم بالآخرين.

وهذا الشعور بالتغريب التَقطتهُ دراسةٌ مسحيةٌ بإشراف عالم الاجتماع، الأستاذ مايك سافج.[810] نشأت لويز، إحدى الفَتيات اللاتي قابلهن سافج، في سكنٍ تابعٍ لِلحكومة في جنوب لندن، ولم تَكن قادرةً على القراءة والكِتابة بعمر الرَّابعة عشرة. ومع ذلك، فقد عملت، عندما كَبُرت، في مجال إدارة عددٍ من الشركات المَعروفة المُنتجة لِمواد التجميل، وكانت تجني مبلغًا يفوق الرّبع مليون جُنيه إسترليني سنويا. تَلعب لويز يوميا مع أفرادٍ تَربوا في أُسرٍ مرموقةٍ، وهي تقول بِأنهم يحترمون مَسيرتها الحياتية والمَهنية. ومع ذلك، تَحدثت عن «إحساسٍ عميقٍ بِالعُزلة» تَشعر

(808) *Social Class in the 21st Century*, Mike Savage (Pelican, 2015), p. 222.

(809) *Posh Boys*, Robert Verkaik (OneWorld, 2018), p. 140.

(810) Mike Savage: *Social Class in the 21st Century* (Pelican, 2015), p. 204.

بِتجذره في «ثقافةِ الدردشة غير الرّسمية، إذ تبادل الأحاديث عن الفُنُون، والحكايات عن أيام العُطل أو مناقشة تَعليم الأَطفال قد يُمثل وسيلةً مُهمة لتَسيير عجلات علاقات العَمل أو تعزيز الصِّلات مع الزُّملاء الأَقدم». قالت لويز لِلباحثين: «لا أشارك مشاركة حقيقية في هذه الأحاديث، تعرفون، أنا بعيدةٌ لِلغاية عنهم».

ويخوض من ينتقل جانبيا بين الألعاب في المستوى الثَّقافي تَجارب تغريب مُشابهةٍ؛ فالمُهاجرون يتربون في الغالب على مجموعةٍ واحدةٍ من القَواعد والرُّموز في حين يعيشون حياةً مغمورةً بقواعد ورموز أُخرى بعد بلوغهم. قابل فريق سافج البحثي غيتا التي هاجر أبواها من أوغندا إلى الطّرف الشرقي من لندن، إذ يُديران وكالة أخبار. دَرست غيتا في الجَامعة، وأصبحت لاحقًا مُصممة رسومات غرافيكية ناجحة. يصف الباحثون تفاوضها على أداء «فعل توازنٍ مرهقٍ بين القيم الثَّقافية لِلطبقة العَاملة التي تنتمي لها والهويات الاثنية والمِهنية الخاصَّة بِالطَّبقة المُتوسطة».[811] أخبرتهم غيتا: «أُفكر دائمًا بِأنني لا أنتمي انتماءً حقيقيا أبدا، لكني، بعد ذلك، أُفكر دائمًا أيضًا بِأن الأمر يتعلق بي فحسب، تفهمون ذلك؟ لِأني شعرت بِأني لا أؤمن تَمامًا بِالثَّقافة الهندية،[812] ولا بالِانتماء إلى حيوات أصدقائي الإنكليز لِأنهم يعيشون حياةً أكثر تَحررًا. أنا دائمة التنقل، والدخول والخُروج بين ثقافات مُختلفةٍ، حيثما أذهب، أشعر دائمًا بِأنني شخصٌ مُنفصلٌ».

إنها هذه المَسافة الفاصلة، وهذا الشعور بالِانفِصال والتغريب الذي تَظنُ لويز وغيتا بِأنه يُعيق تَقَدمهُن في لعبة المكانة. قد يكون تحقيق النجاح يَسيرًا ومُتاحًا حَصرًا لِمن نشأ في طبقةٍ مرموقةٍ أو حتى ثقافة الأمَّة الغالبة عدديا. إلا أن ذلك لا يعني أن الأفراد الذَّين تعاملت معهم لويز وغيتا كانوا يتصرفون بِلومٍ وخَباثةٍ. بل إنهم، بِسهولةٍ ويسرٍ، كانوا يلعبون في ضوء القَواعد والرّموز التي تأصلت في

(811) *Social Class in the 21st Century* (Pelican, 2015), p. 213.

(812) أظن أن المؤلفَ يقصد الإنكليزية، وليس الهندية، على وفق السياق.

أدمغتهم، أي أنهم بشرٌ بِالطَّريقة الوحيدة التي يعرفونها. لَكن الصَّحيح بالقَدر نفسه هو دخول هؤلاء اللاعبين إلى ألعاب الحياة مُتسلحين بِعُدةٍ قوية هي الإمتياز.

والإمتيازُ فكرةٌ مُفَجِرةٌ. فمثلما عَرفنا، البَشر مُصَممون بِطريقةٍ تجعلهم يَشعرون بِالغَضب عندما يرون أن الآخرين يَتَفوقون عليهم، وإن ما يَتمتعُون به من مكانة غير مُنصف، وظاهر لِلعيان. فيُنمي الشعور بِالاستياء في داخلنا الرَّغبة بِإنزالهم من عليائهم سواء بالإقصاء الاجتماعي أو السخرية أو الإذلال أو النبذ أو القَتل. وقد ساعدت مَشاعر الإستياء والسخط هذه في تَأجيج بعضًا من الأحداث الأَعنف في التاريخ البَشري. إذ وجهَ النازيون والشيوعيون بوصلة كَراهيتهم نحو الجماعات التي تصوَّروا بِأنها تحظى بِمكانةٍ غير مُستحَقةٍ، وسَرَدوا قصَّةً اِستولت فيها جماعات على ثَروات ونفوذ وسلطة لم تكن من استحقاقهم، وأن انتزاع هذه الإمتيازات منهم بِمُطاردتهم وقتلهم هو لعبة عَادلةٌ.

يَكمنُ الخطرُ في الحُلم. إذ يُحتمل أن من يتفوَّقون علينا مَنزِلةً قد بلغوا هذا المبلغ بِبذل الجُهد والتَمتع بالكِفاية؛ وربما بِتدبير المكائد والهَيمنة. والأرجح هو استغلالهم لجميع الإستراتيجيات المُتاحة. ومهما كانت الحقيقة، فَنحن عرضةً لِتصديق الحِكايات السهلة التي ينسج تفاصيلها الدماغ، والتي تُخبرنا بِأنهم، بِسهولةٍ ويسرٍ، مَاكرون، وأن اِزدهارهم الظَّاهري هو خِداع لنا. أما الطَّريقة التي تَمكنوا بوساطتها من الإعلان عن نَجاحهم واِنتعاشهم فتعتمد على اللعبة التي نشترك فيها: فهم قد يتفوقون علينا في الثَّراء، وربما تحظى ألعابهم بتَبجيلٍ مجتمعي أعلى، ومن المُحتمل أن تكون مُعتقداتهم المُقدسة أقدر على التأثير، وتَتغلب دائما على مُعتقداتنا. وبِصرف النظر عن الطَّريقة التي نقيسُ بها المَكانة، فإن شُعُورنا بِأن هذه الجرذان المُتبخترة تقضم تَدريجيا من مخزون جوائزنا العَظيمة قَدْ يَتَسلل إلى داخِلنا ويُسيطر علينا بِسهولةٍ. بوسع المُحاربين الذين يقفون ويروون قصصًا من هذا النوع أن يظفروا بِمكانةٍ مُتميزةٍ، لِيسهموا بِذلك في إشعال فتيل حُمى البحث

عن المَكَانة بِإلقاء اللوم على *المُهاجرين المتوحشين، والبيض القُساة، والرِّجال البربريين، والنساء المُتعطِّشات لِلدماء، ومواليد الألفية الجَديدة الملعونين، ومواليد الطَّفرة العَنيفين...*

وحيثما تُصغي إلى أحاسيس من هذا النوع، فهذا يعني أنك أمام قصةٍ سهلةٍ عن واقع غوردي[813] متشابكٍ. تَدبر موضوع العَرق. لا أحد يُنكر وجود الإِمتياز الأبيض. لَكن، بالقدر نفسه، لا أحد يُنكر أن الجماعات الاثنية الأنجح في مستوى الدخل ليست البيضاء، بل الهندية والصّينية.[814] إذ يتفوق الصّينيون على نُظرائهم من العرق القوقازي الأبيض في مقدار الدخل الذي يكسبونه بمعدل 30٪. وتَمكن 69٪ من الطَلَبة من أصول صينية في المَدارس الحكومية في المَملكة المُتحدة من الاِنتقال إلى الجَامعة في مقابل 55٪ من الآسيويين و44٪ من الطَّلبة السود. مَنْ في أدنة القَائمة؟ الصِّغار البيض، بِنسبة 30٪.[815] وبنحوٍ مماثلٍ، ليسَ البيض هم الفئة السكانية الأَنجح في الولايات المُتحدة، بل الأمريكان من أصولٍ آسيوية.[816] ولا تَعني أي من هذه الأرقام أن التمييز العنصري ليس حقيقيا أو خطرًا أو مُستحقًا لِلعناية المباشرة. بل تعني أن العالم أغرب مما يَسمح به المُحاربون.

هناك عددٌ يفوق الحصر من الوَسائل التي تُساعد في التمتع بالإِمتياز في لعبة الحياة، بأنْ تكون جَذَّابًا، ذَكيا، سَليمًا عقليا، موهوبًا، مُقتدر جَسديا، ذَكرًا في لعبة يُهيمن عليها الرِّجال، أُنثى في لعبة تُهيمن عليها النساء، أو تحت سن الثَّلاثين، أو

(813) العُقدة الغورديّضة (Gordon Knot) أسطورة لها صِلة بالأسكندر الأكبر، وتُستخدم عادةً لِلدلالة على مشكلة صعبة يحتاج حلها إلى فعلٍ حاسمٍ وجريء.

(814) 'Chinese ethnic group biggest earners in the UK', Uncredited author, BBC News, 9 July 2019.

(815) Entry rates into higher education, 24 August 2020, www.ethnicity-facts-figures.service.gov.uk/.

(816) 'Asian women and men earned more than their White, Black, and Hispanic counterparts in 2017', 29 August 2018, www.bls.gov.

مُتخرج في مدرسة خاصَّة، أو مُتخرج في الجَامعة، أو تكون ثَريا، أو لك علاقات مهنية، أو تتحدث بِنبرةٍ صحيحةٍ سَليمةٍ، أو تعيش في المنطقة المُناسبة في البَلد؛ أو أنْ يكون لك أبوان نَاجحان ولطيفان أو مُرتبطان بشبكةٍ من العلاقات؛ أو أنْ تعيش في ظِل ثقافةٍ غربيةٍ بما تُوفره من حُرِّيات وفرصٍ واهتمامٍ بالمُساواة وحقوق الإنسان، وغيرها من الِامتيَازَات.

وحقيقة الامتيَاز هو أنه توليفةٌ من جميع هذه العَوامل وغيرها: إنه بناءٌ مُعقدٌ وديناميٍ وفريدٌ لجهة اِتصاله بِمنْ نكون، وبِأنواع الألعاب التي نحاول الاشتراك فيها. وأحد أشكال الامتيَاز الرَّئيسة وراثي. إذ يتطلب اِزدهاره نوعيةً مُحددةً من الشخصية، والجُزء الأكبر من أمزجتنا وبنائنا وذكائنا وقُدرتنا على المُخالطة الاجتماعية ورغبتنا النسبية في المَكانة، وراثي؛ إنه يولد معنا، ثُمَّ يعمل آباؤنا على تَنميته ومُكاثرته فينا لو كُنا محظوظين كِفايةً بِالتنعم بِذلك النوع من الأبوة. العديدُ من أفراد النخبة موهوبون، بسهولةٍ ويسرٍ، والهِبة التي تَلقوها من الآلِهة هو أنهم خَرجوا من الرَحَم المُناسب.

ولو ظهرت الأرضُ المَوعودةُ، وقضينا على الحواجز القَديمة لِلطبقة والنوع الاجتماعي والعرق، فَسنجد أنفسنا محكومين أساسًا بِالنخبة الوِراثية، بالفائزين المُتميزين في لعبة يانصيب الوِلادة. سَيَعيش أفراد هذه القِلة المَحسودة، ويعملون ويَلعبون معًا، وسَيَصيرون مَصدرًا لِلمكانة التي يتبادلونها فيما بينهم. سَيعتادون التَحدثِ بأسلوبٍ مُعينٍ، ويرتدون ملابس مُحددة، ويَتَمتعون بوسائل لَهوٍ فريدة، ويَتبنون رموزًا وقواعد خاصَّة بهم. وسَيُرتبون تفاصيل ألعابهم ترتيبًا واعيا وغير وَاعٍ، لِينعموا بِامتيازات أوفر لهم ولأولادهم. ونحنُ نُعجب بهم ونُقلدهم، ونشعرُ بالاستياء منهم، مثلما نفعلُ اليوم. والمُشكلة مع النخب هي أنهم مُشكلةٌ غير قابلةٍ لِلحل؛ إنهم أحد المكونات المَحتومة في اللعبة التي بُرمجنا على الاشتراك فيها. سَيكونون مَوجودين دائمًا، وسَيَجعلُونَنَا نَشعر بِأننا صِغار.

الفصل السابع والعشرون

عندما تتصادم الأَحلام

ثَمَّة حرب مُستعرة في الأَقاليم النيوليبرالية، يخوضها تحَالفان متصارعان يعيش كُل واحدٍ منهما حُلمًا مُختلفًا عن الواقع، ويؤمن أن لعبة الحياة ثابتةٌ. يَتَصوَّر أحد الجَانبين أن البيض، لا سيما الرِّجال، وعلى الأخصّ الرِّجال البيض المُغايرين جنسيا، يُهيمنون هَيمنةً غير عادلةٍ على هذه اللعبة في حين يَظنُ الجانب الآخر أن من يفعل ذلك هم النخب المُتعَلمة تَعليمًا عاليًا التي دأب أفرادها في السنوات الأَخيرة في التوغل في داخل السلاسل الهَرمية للمجتمع. وفي حين أَحرز أحدهما سلسلةً من الانتِصارات الباهرة، إذ اِحتلوا ألعاب الثَّقافة والتربية والتجارة، سجل الآخر حضورًا مُهمًا له في اللعبة السياسية، وأحرز اِنتصارات فيها كان أهمها فوز دونالد ترامب بالاِنتخابات الأمريكية في 2016، والتصْويت خُروج المَملكة المُتحدة من الاِتحاد الأوروبي. والمعركة بين الطَّرفين تؤشر لِما يُمكن عَده بداية نهاية العَهد النيوليبرالي مثلما نَعرفهُ.

وهذه الجُيوش مَعروفةٌ بِعددٍ متنوعٍ من الأَسماء المُهينة والمُحرجة وغير الدقيقة من نحو جماعة ووك (الحَساسُون لِلتمييز العُنصري بأنواعه كافة) والمُحاربين من أجل العَدالة الاِجتماعية أو الناشطين التقدميين، هذا من جانبٍ. وهناك، في الجانب الآخر، اليَمين المُتطرف، والمؤمنون بِتَفوُّق العرق الأبيض أو الشعبويون القَوميون.

وتَوخيا للإيجاز والإنصاف، سنُسميهم «اليَسار الجديد» و«اليَمين الجَديد»

اللذين يُمارس كِلاهما ألعابَ فَضيلةٍ، ويَسعون إلى الظَّفر بِالمَكانة الأخلاقية من زُملائهم اللاعبين عن طَريق الدفاع عن رُموزهم المُقدسة، ومنها مُعتقداتهم. إنهم يَلعبون بِجديةٍ وإتقانٍ، ويستخدمون اِستراتيجيات هَيمنة، ويَشنون حملات الهُجُوم في الفَضاء الرَّقمي، وفي الشوارع، وفي الاحتجاجات العَنيفة، ويُشاركون في تَخريب الرُّموز المُقدسة لِخصومهم، وفي عروض الترهيب والقوَّة التي تُمارسها جماعات على شَاكلة أنتيفا في اليسار، وبراود بويز أو الأولاد الفَخورين في اليَمين. وكُل جماعةٍ مَهووسةٌ بالقصة السهلة النفعية التي تخدم مَصلحتها الذَّاتية: فأفرادها هم الأَبطال الأَخلاقيون الذين يُحاربون قوى الظُّلم الشريرة. هذه هي حرب الأَطراف الهَامشية التي لا يَشترك أكثرية السكان اشتراكًا دقيقًا معها في تصوُّرها عن اللعبة، وآلية عملها. والمُشكلةُ هو نُزوع اليَسار الجديد نحو رؤية كُل من يُخالفهم بوصفه عَدوًّا لهم. وهكذا، وَجدَ المركزُ السياسي، إذ يعيش الأَكثرية، نفسهِ تحت الهُجُوم من الطَّرفين كِليهما، الشيء الذي جَعل كَثيرون يَشعرون بالغُربة والحِيرة والغَضب والخوف في حين يمورُ العالم من حولهم بالحركة.

والفكرةُ الآتيةُ تَخمينيةٌ، من دون شك، بِمعدل أكبر من أية فكرةٍ سابقةٍ قدمها الكتاب إلى حد الآن. مع ذلك، نُلاحظ، عند النظر من مَنظور لعبة المَكانة، بِأن القوى المُضمرة التي تُغذي حَرب الثَّقافة شَرَعت، على الأقل، في الإعلان عن نَفسها. ونَعلم مُسبقًا أن المجتمعات، في التاريخ، قد تَعرضت لِلضغط عند فَشَل ألعابها في تَقديم المُكافآت المُتوقعة منها. وهذا ما حَدثَ لِلكَثيرين في اليَسار الجَديد، الذين كَشَفَت دراسةٌ تَحليليةٌ في المَملكة المُتحدة بِأنهم الأَصغر سِنًا بين الفئات السكانية الوَطنية السبع، وأن مواليد الألفية وجيل زد(817) هم الأعلى تَمثيلًا لهم.(818) هذه جماعة يَشعر أفرادها بِأن مستوى مَكانتهم النسبية في تدهور:

(817) هو الجيل الذي وِلدَ أفراده في منتصف تسعينيّات القرن العشرين، وأهم خصائصه هو الاستخدام الواسع للإنترنت في سِن مُبكرة، والتكيف مع التكنولوجيا، وكَثافة التفاعل في مواقع التواصل الاجتماعي. (المترجمة)

(818) 'Britain's Choice: Common Ground and Division in 2020s Britain', October 2020, More in Common Report.

إنهم أفضل تأهيلًا من مواليد الطَّفرة، لَكنهم أقل ثراءً مما كانوا بالعمر نفسه بِمعدل 20٪؛[819] وأن قيمة مولود الألفية العادي في 2016 كان أقل بمعدل 41٪ من نُظرائهم بالفئة العمرية نفسها في 1989 إضافةً إلى مواجهتهم صعوبةً أكبر في شراء العقارات، وتَحملهم عبء الأَقساط الدراسية، إذ يتخرج الطالبُ منهم بمتوسط عجزٍ مالي يبلغ اثنين وثلاثين ألفًا وسبعمائة دولار في الولايات المُتحدة،[820] وأربعين ألف جُنيه إسترليني في إنكلترا.[821]

ويُعتقد أن «الإفراط في إنتاج النخبة» هو العامل التَاريخي الآخر الذي أَنذَر بالاِنهيار المجتمعي؛ وهذا يَحدثُ، مثلما عَلِمنا، عند إنتاج عددٍ كبيرٍ يفوق الحَاجة من اللاعبين المَرموقين الذين يضطرون إلى التنافس على عددٍ قليلٍ من المَواقع الرَّفيعة. والظَّاهر أن شيئًا مُماثلًا كان يحدث لِكثيرين في اليَسار الجَديد. فَهم نخبة في الجماعات الوَطنية السبع، إذ يَنتمون إلى الأُسر الأثرى، وهم الأرقى تَعليمًا أيضًا.[822] عدد حاملي الشهادات الجامعية من اليَسار الجَديد، وعدد من يَحمل منهم دَرجات عُليا، مثل الدكتوراه وماجستير العلوم، يَفوق أية فئة أخرى. وكان 31٪ من الخريجين في المَملكة المُتحدة، في 2019، يعملون في مواقع تفوق فيها مؤهلاتهم مُتطلباتها مُوازنةً بمعدل 22٪ في 1992.[823] وَوَثقت دِراسةٌ مَسحيةٌ شملت مائتين وخمسة عشر ألف خريج حديثٍ اِرتفاع مستوى شُعُورهم بِالقلق موازنةً بِعموم السكان. وفي الولايات المُتحدة، التي يحمل فيها 13٪ من الأفراد اللامعين درجة الدكتوراه أو ماجستير في العُلُوم أو شهادة مهنية (تَضاعف الرَّقم

---

(819) 'The Emerging Millennial Wealth Gap: Divergent Trajectories, Weak Balance Sheets, and Implications for Social Policy', Report, Reid Cramer et al., *New America*, October 2019.

(820) 'Average Student Loan Debt in America: 2019 Facts & Figures', Justin Song, Value Penguin, 4 January 2021.

(821) Student loan statistics, Paul Bolton, House of Commons Library, 9 December 2020.

(822) 'Britain's Choice: Common Ground and Division in 2020s Britain', More in Common Report, October 2020.

حصلت على معلومات إضافية في اِتصال شخصيّ مع الزميل الدِّراسة المؤلف، تم دكسن.

(823) 'Almost a third of graduates "overeducated" for their job', Uncredited author, BBC News, 29 April 2019.

منذ العام 2000)،[824] تبلغ نسبة العاطِلين في صفوف خريجي الجامعات 34٪ في مقابل 41٪ من المُتخرجين حديثًا.[825] وفي حين شَهدت الصِّناعات المُتوسعة مثل تَكنولوجيا المعلومات ظهور وظائف وأدوار مهنية جديدة، تَدهورت الأَوضاع في ألعاب أُخرى وتَضرَّرت تَضرُّرًا بالِغًا. والمُتخرجون في أقسام الفُنُون والعُلوم الإنسانية والإعلام هم الفِئة الأكثر تضرَّرًا من حيث تفشي البَطالة بينهم في البلدين كِليهما.[826]

وهذا التدهور في المَكانة النسبية بالنسبة للاعبين الشباب الذين تَربوا وتَثقفوا رَقميا، وتَعلموا تعليمًا عاليًا ما برح يَتحول إلى رفضٍ متواصلٍ لِلعبة. إذ انخفض الدعم للرأسمالية بين الشباب الأمريكي في غُضون ثلاث سَنوات فحسب، بين 2015 و2018، من 39٪ إلى 30٪،[827] ونَقل اِستطلاعٌ في 2019 أن 36٪ من مواليد الألفية يقولون بِأنهم يؤيدون الشيوعية.[828] يقول عالم الاِجتماع، ثوماس كاشمان إن: «مُناهضة الرَّأسمالية قد أضحت، في أكثر من جانبٍ، دَعامةً أسَاسية في المُعتقد العلماني لِلمفكرين، والهابيتوس أو مجموعة السلوك الاجتماعي للمُفكرين النقدين الحديثين بوصفهم جماعة تَنعمُ بالمكانة».[829] واِنخفض أيضًا

(824) Graduate wellbeing recorded in the Graduate Outcomes survey, Office for Students report, 8 December 2020. 13 per cent of adults have a PhD, MSc: About 13.1 Percent Have a Master's, Professional Degree or Doctorate, American Counts Staff, census.gov, 21 February 2019.

(825) '41% of Recent Grads Work in Jobs Not Requiring a Degree', Elizabeth Redden, insidehighered.com, 18 February 2020.

(826) 'Almost a third of graduates "overeducated" for their job', Uncredited author, BBC News, 29 April 2019.'41% of Recent Grads Work in Jobs Not Requiring a Degree', Elizabeth Redden, insidehighered.com, 18 February, 2020.

(827) 'Keynes was wrong. Gen Z will have it worse', Malcom Harris, *MIT Technology Review*, 16 December 2019.

(828) 'US Attitudes Toward Socialism, Communism and Collectivism', YouGov, October 2019.

(829) 'Intellectuals and Resentment Toward Capitalism', T. Cushman, *Sociology*, 2012, 49, 247–255.

الرِّضا عن الديمقراطية إلى أقل من 50٪ بين مواليد الألفية لأوّل مرَّةٍ في 2020.[830] قال الباحث الأوّل في الدراسة عن ذلك: «أَسْهَمت عَوامل عديدة في تأجيج مشاعر السخط بين الشباب، منها اِرتفاع أعباء الدين، واِنخفاض احتمالات الحُصول على سكنٍ، وكَثرة التحَديات أمام إنشاء أُسرةٍ، والرُّكون إلى الثَّروة بِالوراثة لا بِالعَمل الجاد والموهبة لِضمان النجاح».[831]

في الجانب الآخر، هناك اليَمين الجَديد الذي لا يَضُم في عضويته جَميع المُصوتين على ترامب أو على خروج بريطانيا من الاِتحاد الأوروبي، الذين يصل عددهم إلى عَشرات المَلايين، ويَضُمُّون في صُفوفهم أَقليات عرقية. سَنُركز على القاعدة البيضاء المؤلفة من أَفراد الطَّبقات العَاملة والوسطى المُتدنية الذين اِنحَسرت مَكانتهم النسبية في عصر النيوليبرالية. إذ اِنخفض متوسط الأَجر الحقيقي بِالساعة لِلعمال من الطَّبقة العَاملة البيضاء بلا شَهادة دراسة ثانوية بِمعدل 18٪ بين عامي 1979 و2005.[832] وتتحدث عالمة الاجتماع، كاثرين كرامر، عن تصوُّرٍ شائع بينهم فحواه هو: إنه على الرَّغم من عملهم الذي لا يَختلف في جديته عن عمل آبائهم، إلا أنهم يُكافئون بِنوعية حياةٍ أقل وأسوأ: «إِنهم يشعرون بِأنهم يفعلون ما قيل لهم إنهم بحاجةٍ إلى فعله من أجل المُضي إلى الأَمام. لكن هذا، بطريقةٍ ما، لم يكن كافيًا».[833] ورُصِدتْ مواقف مُشابهة بين الطَّبقة العاملة البيضاء من مؤيدي حركة الشاي الأخضر في لويزيانا. تَكتبُ عالمة الاِجتماع، سيسليا رجوّي في دراسةٍ لها مُبينةً: «لقد تَعودوا على رؤية أنفسهم ضمن المَركز المُحترم لأمريكا بوصفهم

---

(830) 'Youth and Satisfaction with Democracy: Reversing the Democratic Disconnect?', R. S. Foa, A. Klassen, D. Wenger, A. Rand and M. Slade, 2020, Cambridge, United Kingdom: Centre for the Future of Democracy.

(831) 'Democracy: Millennials are the most disillusioned generation "in living memory"' – global study, News release, University of Cambridge, 19 October 2020.

(832) *Red, Blue and Purple America: The Future of Election Demographics*, Alan Abramowitz and Roy Teixeira (Brookings Institution Press, 2008), p. 110.

(833) 'A new theory for why Trump voters are so angry – that actually makes sense', Jeff Guo, *Washington Post*, 8 November 2016.

أمريكيين مجتهدين في العمل، وتَقليديين، ومن الطَّبقة الوسطى»،[834] لَكنهم يشعرون الآن بِأنهم مُحطمون اِجتماعيا واقتصاديا و«يُعاملهم الأمريكان من سُكان المَناطق الساحلية والنخب الحَضَرية بِاحتقار ومَهانة، ويَنظرون إليهم بِوصفهم جَهلة وريفيين مُتحاملين وضَيقي الأفق، فضلًا عن منحهم اِمتيازات خاصةً لجماعات أُخرى، يشعر هؤلاء، بِأنَ أفرادها لم يجتهدوا بِالعَمل مثلما اِجتهدوا». ومشاعر النقمة والاِستياء هذه تَختمر وتتحول بِسهولةٍ إلى تَمييز عرقي: فَهذه «الفئات الاجتماعية الأُخرى» التي يَحسب هؤلاء بِأنها اِنتفعت من «اِمتيازات خاصة» تضم الأمريكان-الأفارِقة.

تقول القصَّةُ التي تَرويها جماعة البيض هذه إن النخب المُتعلمة تَعليمًا مَرموقًا تُمسك بِزمام السلطة، وتُهين وتَحط من قَدرِهم بوصفهم «قُمامة مُتنقلة» و«مُثيرين لِلشفقة»، في حين تعمل على دعم فئة الأقليات دعمًا غير عادلٍ. ويَروي نُظراؤهم في المَملكة المُتحدة الحِكاية ذاتها، إذ الأرجح أن المُهاجرين هم الفئة المَقصودة عند الحديث عن الأَقليات. أنفقت النخب المُتعلمة، في البَلدين كِليهما، عُقودًا في دعم المَشروع النيوليبرالي لِلعولمة الذي سَعى إلى تحويل أكبر قدرٍ ممكن من العالم إلى سوقٍ حُرَّة يُمكن فيها بِحريةٍ تبادل السلع والخَدمات وقوَّة العمل. وقد تأثرت مجتمعات الطَّبقة العَاملة البيضاء في بِريطانيا تأثرًا شديدًا بالعَاملين الوافدين من السود والأوروبيين الشرقيين والمُسلمين. وهذا التحوُّل الاقتصادي الناجم عن تطبيق المَشروع النيوليبرالي، حسبما أورد عَالِما السياسة، روجر ايتوّل وماثيو غودوّن، مؤلفا الدراسة المُستَفيضة عن بروز الشعبوية القومية، قد أسهم في «تَغذية إحساس عميق بِالحرمان النسبي- اِعتقادٌ شاعَ بين جماعات مُحددة بِأنها تفقد الكثير موازنةً بالجَماعات الأُخرى».[835] ومعنى ذلك «إنهم يشعرون بِالقلق الشديد على المُستقبل، وعلى ما تُدخره الأيام لهم ولِأطفالهم. وهذا الإحساس

(834) *Status*,CeciliaL.Ridgeway (Russell Sage Foundation, 2019), p. 53.

(835) *National Populism*, Roger Eatwell and Matthew Goodwin, (Pelican Books, 2018), p. xxii.

العميق بالخَسارة مُتضافرٌ تَضافرًا وَثيقًا مع الطَّريقة التي يُفكر بها الناس بِقضايا من نحو الهُجرة والهوية. مَلايينُ من المُصوِّتين اليوم مُقتنعُون أن الماضي كان أفضل من الحاضر، وأن الحاضر، مهما كانت قتامته، ما يزال أفضل من المُستقبل».

يَنظر كثيرون في اليَسار الجديد، والبَعضُ أيضًا في اليَمين الوَسط، بِعين الاشمئزاز لِلمواقف السياسية لِليمين الجديد المؤيدة للدولة القومية والمُناهضة للعولمة والهجرة و«التغير الاثني المُرتفع».[836] يَقول العالِمان إن اليَمين يُساند السياسيين الذين «يُفضلون ثَقافة الأُمة ومصالحها ويضعونها ضمن أولوياتهم، ويَتعهدون بتمكين من يشعر بالإهمال، وحتى المَهانة والإذلال على يد نُخبٍ بَعيدةٍ وفاسدةٍ في الغالب، من التعبير عن أنفسهم وهمومهم».[837] وهذا التصوُّر عن الحرمان النسبي- والشعور بِانهيار اللعبة بِالنسبة لِجماعتهم- هو تَصوُّر «محوري لِلغاية» لِهذه الحركة.[838] لقد أثرت النيوليبرالية والعَولمة «تأثيرًا هائلًا في المستويات المُتخيلة بين الناس عن الاحترام والاِعتراف بِالوجود والمَكانة موازنةً بالآخرين في المجتمع».[839] في السنوات الأَخيرة، أضحى العمال الذُّكور البيض من ذوي المؤهلات الضَّعيفة الذين أدركوا بِأنهم «غير مُهيأين لمواجهة العواصف الاقتصادية أضعف وأكثر عُرضةً للشُعُور بِتَدهور مَكانتهم في المجتمع موازنةً بالآخرين، وبِأنهم لم يعودوا يَنعمون بالاعتراف الكامل بهم، وبِقيمتهم. وهذه هي الفئة التي تحملت عواقب الاندفاع القوي لِلرياح الاقتصادية، من اِنخفاضٍ في عدد الوظائف المُستقرة والثَّابتة والمُجزية ماليًا، واقتصاد مَعرفة يولي أهميةً قصوى لِحملة الدرجات الجامعية التي لا يملكونها». وهذه هي القَضايا التي ركزت عليها تركيزًا ناجحًا حملتا بريكست (خروج بريطانيا من الاِتحاد الأوروبي) وترامب في 2016، وتَحظى باهتمام متنامٍ في أوروبا أيضًا مثلما تُجسده شخصيات عامة من

(836) *National Populism*, p. 129.

(837) *National Populism*, p. ix.

(838) *National Populism*, p. 32.

(839) *National Populism*, p. 212.

نحو مارين لوبان في فرنسا، وماتيو سالفيني في إيطاليا، وفكتور أوربان في هنغاريا. ويَتجلى التصادم بين أحلام اليَمين الجَديد واليَسار الجَديد تَجليًا دقيقًا في سلسلة التغريدات التي نشرتها الصَّحفية الأمريكي راني مولا التي علقت في تَقريرٍ شاركت فيه عن محنة العُمّال البيض الفقراء في مشروع تَصنيع دجاج في منطقة ريفية لا يتجاوزهم أَجرهم في الساعة ثلاثة عشر دولارًا قائلةً: «أوه، أغلقوا هذا المَشروع اللعين... هل تُريدون عنوانًا بديلًا: ما شُعُورك وأنت تحظى بِكُل الامتيَازات، وما تزال تتصرف مثل مُتذمرٍ أحمق؟»[(840)] كَتَبت مولا لصحيفة وول ستريت،[(841)] وعملت لِمصلحة وكالتي أخبار بلومبيرغ وفوكس، وحصلت على شَهادات من جامعة أوبرلين وكُلية الصَّحافة في جامعة كولومبيا؛ وهما من المؤسسات التعليمية الرَّاقية. ترى مولا واليَسار الجَديد أن اللعبة ثابتةُ الاِتجاه؛ فَالتصانيف البايولوجية من مثل البياض تُزوِّد اللاعبين بـ«جميع الامتيازات»، في حين يرى خصومهما بِأنها ثابتةٌ في اِتجاه آخرٍ يُفيد: إن تعليم مولا المَرموق قد منحها، ومن هم على شاكلتها، «جميع الامتيازات». مرةً أُخرى، يقول روجر ايتوّل وماثيو غودوّن: عندما ينظر أفراد اليَمين الجَديد إلى الأعلى، فإنهم «يرون في الغالب أشخاصًا تمتعوا بِتنشئة اجتِماعية مُختلفةٍ لِلغاية، ويَعيشون حيوات مُغايرة تمامًا، ويؤمنون بقيمٍ مُختلفة كَثيرًا...والتعليم يقع في قلب هذا الانقسام».[(842)] أكثرية نسبة الـ (41٪) من مَواليد الألفية الذين صوَّتوا لترامب في اِنتخابات 2016 لم يكونوا من حَملة الدرجات الجامعية.[(843)] وشَكَل المُصوِّتون البيض غير الجامعيين، على العُموم، حوالي ثلاثة أخماس المؤيدين لِترامب في هذه

---

(840) https://twitter.com/rani- molla/status/1024680943666257922.
https://me.me/i/rani-molla-ranimolla-follow-oh-shut-the-fuck-up-how-0ac67c62de214f79af249d3c17487ab4.

(841) https://www.vox.com/authors/ rani-molla (accessed 10 November 2020).

(842) *National Populism*, Roger Eatwell and Matthew Goodwin (Pelican Books, 2018), p. 106.

(843) *National Populism*, p. 10.

الإِنتخابات؛[844] في حين بلغت نسبة المُصوِّتين على البريكست الذين لا يحملون مؤهلات، 74٪، وهذا يعني أن الفَجوة التعليمية أعظم من نَظيرتها في الطَّبقة الاجتماعية والدخل أو الفئة العمرية.[845]

والأرجح أن يَتَمتع طلبة الجَامعة بـ «عقلية مُتحرِّرة ثقافيا» بمعدلٍ أعلى مِمن لم يُكملوا الدراسة.[846] وقوام هذه العَقلية هو مجموعة من المُعتقدات عن الأُمَّة والهجرة تَشغل موقعًا محوريا لِكُل من اليَسار الجديد واليَمين الجَديد. جديرٌ بالملاحظة أن أفراد اليَسار الجَديد المُتعلمين تَعليمًا عاليًا، في المَملكة المُتحدة، أقل شُعُورًا بالفخر بِبريطانيتهم من أية فئة سُكانية أُخرى،[847] وِأنهم يؤمنون إيمانًا راسخًا بالتأثير الإيجابي لِلهجرة، إذ تبلغ نسبة من يَحملون هذا الرأي منهم 85٪ موازنةً بـ 43٪ في مستوى البِلاد كُلها. ويُمارس خصومهم ألعابًا قوميةً. فاللغات والمتاجر والأَطعمة والأديان غير البيضاء وغير المَسيحية التي حَلت مَحل اللغات والمَتاجر والأَطعمة والأديان الخاصَّة بهم تَحولت إلى رُموزٍ للهزيمة. ويَشعرُ أفراد اليَمين الجَديد بِالغُربة من اللعبة التي يُمارسها الآخرون من حولهم، ولذا، ليس بِوسعهم سِوى رؤية احتمال التعرض إلى أنواعٍ أُخرى من الإهانة والإذلال في المُستقبل.

إنهم غاضبون أيضًا بِسَبب الرُّموز في الثَّقافة الأَشمل التي يفوز بها خصومهم أصحاب الانتصارات الشاخصة في العديد من الألعاب النخبوية التي يتكون منها المُجتمع. إنهم موجودون في شركاتنا المُساهمة: في متاجر ستارباكس التي تَبيع قطع البسكويت الهَش البارد الذي يُروج لِجمعية حوريات البحر الخَيرية الداعمة

---

(844) *National Populism*, p. 26.
(845) *NationalPopulism*,p. 26.
(846) *National Populism*, p. 28.
(847) 'Britain's Choice: Common Ground and Division in 2020s Britain', More in Common Report, October 2020.

لحقوق المتحولين جنسيا والمُثيرة لِلجدل؛[848] وفي شركة جيلت لِشفرات الحِلاقة التي نَشرت إعلانًا يُصور رِجالًا (أغلبيتهم من البيض) بِوصفهم مُتنمرين ومُتحيزين جنسيًا ومُتحرشين، وأَعلنت «إن هذا مستمر في الحدوث منذ وقتٍ طويل»؛[849] وفي شركة الوسائط الإخبارية المُتدفقة، هولو، التي غَرَدت: «إذا كُنت تُريد اختيار الملابس لحضور حفل الهالوين هذا العام، فهذا تذكارٌ لك بِأن ترتدي ملابس مُناسِبة ثقافيا ولائقةٌ من وجهة نظر الآخرين».[850] ويُمكن رَصد صعودهم أيضًا في المواقع الأسَاسية التي يشغلها لَاعبو اليَسار الجَديد في طيفٍ متنوعٍ من ألعاب النخبة؛ هناك كبيرة أُمناء المكتبة في المَكتبة البريطانية، ليز جواي، التي قالت: «إن التمييز العُنصري هو من اختلاق البيض»[851] ونيكا بيرنز، المُخرجة والمُنتجة الحاصلة على جوائز عن المسرح الكَوميدي في أدنبره، التي قالت بِأنها «كانت تَتطلع إلى مُستقبل الكوميديا في عالم ووك (الحَساسية لِلتمييز العنصري)»؛[852] والجَمعية النفسية الأمريكية التي اِستحسنت ما صرحت به الدكتوره ثوبيا جاكسن لِلصحافة: «كُل مؤسسة في أمريكا مولودة من دِماء أيديولوجيا التفوُّق العنصري الأبيض والرَّأسمالية؛ وهذه هي العِلة»؛[853] وفي صحيفة نيويورك تايمز التي انتَخَبت في هيأة تحريرها الصَّحفية سارة جيونغ المَعروفة بِتغريداتها العُنصرية، منها: «أوه، يا رجل، إنه لأمر مُقرف حجم السعادة

---

(848) 'Starbucks new limited-edition Mermaids Cookie is making a splash!', Press Release, 2 February 2020.

(849) www.youtube.com/watch/ koPmuEyP3a0.

(850) 'Hulu deletes tweet about wearing "respectful" Halloween costume', Audra Schroeder, *The Daily Dot*, 17 October 2018.

(851) BritishLibrary'schieflibrarian says "racism is the creation of white people" as bosses call for changes to displays in wake of BLM movement after colleagues were "urged to support work of Labour MP Diane Abbott"', Katie Feehan, *Mail Online*, 30 August 2020.

(852) 'I am looking forward to comedy's future in the woke world', Nica Burns, chortle.co.uk, 5 August 2018.

(853) 'APA calls for true systemic change in U.S. Culture', Zara Abrams, apa.org, 1 September 2020.

التي أشعر بها من التعامل بِقسوةٍ مع الرِّجال البيض كِبار السن»؛[854] و«لقد توقف البيض عن التكاثر، سَتَنقرضون كُلكم قَريبًا. لَطالما كانت هذه خطتي»؛ و«الرِّجال البيض تافهون»؛ البيض الحمقى اللعناء يُمطرون الإنترنت بِآرائهم مثل كلابٍ تتبول على صَنابير مُكافحة الحريق؛ ووسم تخلصوا من البيض- #cancelwhite- people».

ونَجحَ اليَسار الجديد أيضًا نَجاحًا ساحقًا في إضفاء الطَّابع المؤسساتي على لَعبتهم وحُلمُها عن الوَاقع بِفضل صناعة «التنوع والشمول والإِنصاف» التي واصل نطاق حضورها في الِاتساع سريعًا. وتَضمُ العديد من الجَامعات هيئات «تنوع وشُمول وإنصاف» كبيرة تعمل فيها فرقٌ كَثيرةٌ من التبشيريين الذين يُشرفون على ميزانيات ضَخمة تُقدر بملايين الدولارات. يتجاوز الحساب السنوي لِرواتب الموظفين في هيئة التنوع والشمول في جامعة مشيغان الأحد عشر مليون دولار، ولديها قرابة المائة موظف بِدوامٍ كاملٍ، يَجني خمسة وعشرون منهم دَخلًا سنويا يتجاوز المائة ألف دولار.[855] ويفوق عدد الموظفين في هيأة التنوع في جامعة ييل مائةً وخمسين فضلًا عن مُمثلي الطُّلاب الذين يعملون في خدمة أهداف الهيأة.[856] وجدت دراسةٌ شَملت 669 جامعةً أمرِيكيةً أن قرابة الثُّلث منها تُخضع كوادرها لِتدريب إلزامي على التنوع والشمول والإِنصاف.[857]

ولا يقتصرُ هذا الأمرُ على الجَامعات. إذ تَحدثت صَحيفة النيويورك تايمز في 2019 عن اِزدهار صناعة التنوع والشمول التي نَجحت في «خلق مسارات وأدوار مهنية جديدة».[858] وأشارت وكالة توظيف أمرِيكية إلى الِارتفاع في عدد

---

(854) 'When Racism Is Fit to Print', Andrew Sullivan, *New York Magazine*, 3 August 2018.
(855) 'The Campus Diversity Swarm', Mark Pulliam, *City Journal*, 10 October 2018.
(856) 'The Downside of Diversity', Anthony Kronman, *Wall Street Journal*, 2 August 2019.
(857) 'The rise of universities' diversity bureaucrats', B.S., *The Economist*, 8 May 2018.
(858) 'The Big Business of Unconscious Bias', Nora Zelevansky, *New York Times*, 20 November 2019.

الإعلانات عن وظائف من هذا النوع بِمعدل 18٪ بين 2017 و2018،[859] لِيقفز إلى 25٪ بَين 2018 و2019.[860] ولاحظت دراسةٌ مَسحيةٌ لِلشركات المائتين وأربع وثلاثين في مؤشر ستاندرد وبورز في سوق الأسهم أن 63٪ منها قد عَيَنت أو شَجعت على تعيين موظفين تَلقوا تَدريبًا على التنوع والشمول والإِنصاف في السنوات الثَّلاثة المَاضية.[861] وقد شَرَعت جامعات منها ييل وكورنيل وجورج تاون في تَقديم برامج تَمنح شَهادات في هذا المَجال.[862] وتَستحصل مُؤتمرات التنوع والشمول حوالي ألفين وأربعمائة دولار عن التسجيل فيها فحسب؛[863] وأنفقت غوغل مائة وأربعة عشر مليون دولار على برامج التنوع والشمول في 2014 ومبلغًا إضافيا هو مائة وخمسون مليون دولار في 2015.[864] ويُقدر أن الشركات الأمرِيكية تُنفق ثمانية مليارات دولار سَنويا على التدريب على التنوع والشمول.[865] أين يَذهب كُل هذا المال؟ وِفقًا لِوثائق مُسربة، فاقت مجموع المَبالغ التي حصل عليها مُستشارٌ واحدٌ فحسب، بين عامي 2006 و2020، من الوكالات الحكومية، منها وزارة العَدل ومَكتب المُدعي العام، الخَمسة ملايين دولار لقاء التدريب على التنوع؛ وحصل من وكالة ناسا لِعلوم الفضاء في 2011 على نصف مليون دولار مقابل «ورشات العمل [التي أقامها] المَعنية بِالتوجه الجنسي في حقلي السلطة والاِمتياز».[866]

وقيل في مواقع أُخرى إن جمعية تايم أب (Time's Up) الخيرية، التي تأسست

---

(859) *Diversity Inc.*, Pamela Newkirk (Bold Type, 2019). Kindle location 2608.

(860) 'The Big Business of Unconscious Bias', Nora Zelevansky, *New York Times*, 20 November2019.

(861) *Diversity Inc.*, Pamela Newkirk (Bold Type, 2019). Kindle location 2621.

(862) 'The Big Business of Unconscious Bias', Nora Zelevansky, *New York Times*, 20 November 2019.

(863) *Diversity Inc.*, Pamela Newkirk (Bold Type, 2019). Kindle location 2660.

(864) *Diversity Inc.*, Kindle location 2737.

(865) *Diversity Inc.*, Kindle location 2608.

(866) 'Obscene federal "diversity training" scam prospers – even under Trump', Christopher F. Rufo, *New York Post*, 16 July 2020.

في أعقاب حركة «أنا أيضًا-#MeToo» جمعت ثلاثة ملايين وستمائة ألف دولار، أنفقت منها مليونًا وأربعمائة ألف على الرَّواتب- منها 342 ألف لِلمدير التنفيذي، و295 ألف لِكَبير مسؤولي التسويق، و255 ألف لِأمين الخَزنة- ومع ذلك، لم تُقدم سوى 312 ألف دولار إلى الصُّندوق المالي الذي أُنشأ لِمساعدة ضحايا الاستغلال الجنسي.(867) ويَدلُ هذا كُله على أن اليَسار الجَديد قد صار حركة حُمَّى ذهب قوية، إذ يَمنح جوائز المَكانة الكُبرى ورموزها، من نحو الثَّروة، إلى الأفراد الذين يَلعبون بِمهارةٍ كافيةٍ. وتعتمد حاليا آلاف لا حصر لها من سُبل العيش على الإيمان الفَاعل في مبادئ هذه الحَركة وعقائدها، وَيُحرز عددٌ هائلٌ من الأفراد مَكانةً كُبرى في ألعاب الصَّحافة والنشر والسياسة وَوسائل التواصل الاجتماعي بفضل القِتال في سَبيلها. وقد تَعزز نَجاح الحَركة بفضل اِستثمارها لِحيلةٍ بدأها الموحدون. إذ اختلق المَسيحيون الجَحيم، الذي أدى إلى قلق النجاة، وعَملوا، بعد ذلك، على تَقديم لَعبتهم بِوصفها الوَسيلة الوَحيدة للنجاة. وعلى شَاكلة ذلك، يُهدد ناشطو اليَسار الجَديد الناس بِالجَحيم عن طريق إعادة الكِتابة الجذرية لِلفقرات التي يُمكن على أساسها كيل الِاتهامات بِالتعصُّب الأَعمى، وخَفض المعايير المَطلوبة إلى حد يَتحول فيه البياض أو الذُّكورة فَحسب إلى علامات دالةٍ على اِرتكاب الذَّنب. وبعد التسبب في الشعور بِقلق النجاة، يُقدم الناشطون حَركتهم بِوصفها العِلاج المُتاح الوَحيد. وهكذا، يكون السبيل الوحيد لِلفرار من خَطر الجحيم هو المشاركة الوَاضحة والمُتحمسة والصَّحيحة في اللعبة.

تَنسُجُ ألعابُ الفَضيلة المُتماسكة أحلامًا عدوانية، تَعيش في داخل أَقاليم مُتخيلة تَعصف بها رياحُ الأَخلاقية السامة، ويؤمن اللاعبون فيها بِأنهم أبطالٌ يُحاربون قوى الظُّلم العَجيبة. وتَغدو نُسخ الوَاقع الهَزلية هذه خطرةً عند تخصيص دور الوغد أحادي البُعد لِأعدائهم. وفي حين تَعمل المهمة التثقيفية التي يرفع رايتها

(867) 'Star-studded Time's Up charities spent big on salaries, little on helping victims', Isabel Vincent and Paula Froelich, *New York Post*, 28 November 2020.

اليَسار الجديد على شَيْطنة البيض (الرِّجال منهم على وَجه الخُصوص)، يَعمل اليَمين الجَديد على شَيْطنة الأَقليات الإِثنية التي يرى بِأن النخب المُتعلمة تمنحهم مَنزِلةً لا يَستحقونها. لاحظ جاستن جيست، الأُستاذ المُشارك لِمادة السياسة والحكومة، هذا الأمر في اثنتين من مناطق الطَّبقة العاملة البيضاء، هي يانغستاون في أوهايو وداغنهام في شرق لندن. كان أفرادُ الطبقة العاملة البيضاء، في المنطقتين، يَشعرون بِأن جماعات الأَقليات يفوقونهم عددًا، وأنهم مَقصيون من العَملية السياسية، وعُرضةٌ للتحيز العرقي.[868] يقول جيست: «يَنظرُ العديد من أبناء هذه الطَّبقة إلى النضال من أجل المُعاملة المُتساوية بِأنه خَسارةٌ شخصيةٌ للمكانة؛ إنه حملةٌ غايتها الحط من قدر البيض لا دعم الآخرين».[869]

تراجعت مَكانة مدينة يانغستاون، التي تفاخرت بها في القرن الماضي، بِوصفها «عاصمة الفُولاذ في العالم» إلى حد تَقديم متوسط دخلٍ لا يتجاوز 14996 دولارًا.[870] قال أحد الرِّجال لجيست: «إنه الكَابوس الأمريكي. من وجهة نَظري، ليس لديك أية فرصة».[871] وعندما سأل جيست أفراد هذه الطَّبقة الذين يَبحثون عن مصالحهم، كانت إجاباتهم التقليدية تَتَضمن: «لا أحد»، «أنت وأنا»، والأَروج: «إني أبحث عن نفسي».[872] كانت مَشاعر النقمة والاستياء شائعةً، وتَدور في الغالب حول قصةٍ تقول إن الأمريكان الأفارقة يَتمتَعون بمُعاملةً جيدةً لا يتمتعون هم بها، وتَعتني السلطات بِشؤونهم بِطريقة تُميزهم عن البيض. أَخبرت أُمٌ لِطفلين جيست: «يَتصرف الجَميع كما لو أن البيض ميسورو الحال. أنت أبيض، إذن، لا بد أنَك غني. نَعمل بوظيفتين ونُكافح من أجل تعليم أطفالنا في المَدارس. لَكنك أبيض، بِوسعك فعل ذلك. لست بحاجة إلى مساعدةٍ، ولا

(868) *The New Minority,* Justin Gest (Oxford University Press, 2016), pp. 20–23.

(869) *The New Minority,* Justin Gest (Oxford University Press, 2016), p. 22.

(870) *The New Minority,* Justin Gest (Oxford University Press, 2016), p. 92.

(871) ' *The New Minority,* p. 159.

(872) *The New Minority,* p. 113.

قرض مثل الذي يحصل عليه أبناء الأقليات، ولا خصم من الحكومة».[873]
وأشارت إلى منزلٍ مجاورٍ، وقالت: «هناك أفرادُ عِصابةٍ في ذلك المَنزل... إنهم يَعبثون بمناطقنا. وهذا ما يجعلنا نُغادرها... ليس بوسعك أنْ تلمس طفلًا أسود أو تتحدث إليه أو تُهدده. يُمكنهم أن يقولوا أو يفعلوا ما يحلو لهم لِطفلٍ أبيض. وتذمر شخصٌ آخرٌ، بِلُغةٍ مُشفرةٍ في ظاهرها من «أشخاصٍ يَطوفون في الجِوار بِسيارات حديثةٍ في حين لا يُمكِنني حتى حيازة مركبة. تدفع الحكومة إيجارات منازلهم ومنافعهم الأُخرى، فَينفقون المال على شراء سلاسل ذهبيةٍ وسيارة كاديلاك، في حين بالكاد يُمكِنني شراء حصان».[874]

لم تَكن علامات من هذا النوع باديةً لِلعيان في داغنهام. فَبعد أنْ كانت مجتمعًا مَحليا بريطانيا أبيض غَالبًا، يُشكل الأفراد من ذوي الأصول الأفريقية والأفريقية الكاريبية والآسيوية الجنوبية والأوروبية الشرقية قرابة النصف من سَكأنها حاليا.[875] كانت الأعمال والتجارة تتمحور حول منشأة إنتاج سَيارات فورد التي توقفت في 2002. زار جيست مَنزل نانسي بمبرتن البالغة من العمر التاسعة والخمسين، التي كانت ترفع خمسة أعلام وطنية في حديقتها أحدها مُثبتٌ على عمودٍ بطول اثني عشر قدمًا، وتُحيطها بِأزهارٍ يانعة زرعتها حولها.[876] قالت نانسي: «كان مُجتمعًا حقيقيا آنذاك. وكان أغلبية سُكَّانه من الإنكليز. عاشت هنا أيضًا فتاةٌ آسيوية، وصَبي أسود أُمه مثلية بدينة لم يعرف الهُدوء طريقه إلى حياتها. لَكننا كُنا نتدبر أمورنا على الدوام، وكان الإنكليز هم الأغلبية». تؤمن بمبرتن أن الاتحاد الأوروبي كان «يُشجع» الهجرة إلى إنكلترا: «فهي المكان الأفضل لِجني المكاسب. ولدينا سَلفًا عددٌ كافٍ من الكَسالى في منطقتنا الذين لا يُحرِكون سَاكنًا. خَرجت من القطار في إحدى الأُمسيات، وشاهدت عَشرات من النساء

---

(873) *The New Minority*, p. 136.
(874) *TheNewMinority*, p. 95.
(875) *The New Minority*, p. 47.
(876) *The New Minority*, pp. 44–45.

الرُّومانيات مع أطفالهن، وكان واضحًا بأنهن جئن على متنه. أوغاد، رومانيون. وبعد ذلك تتمشى في الخارج، فَتجد نفسك مُحاطًا بِكُل تلك الضَّوضاء الصَّادرة عن محَال الأطعمة الحلال والترَّهات في الشارع. تبدو مَنطقتنا مثل ضاحيةٍ في نَيروبي». والآراء المُتحيزة عرقيا غير محصورةٍ بكِبار السن. إذ قالت شابةٌ في الثَّانية والعشرين من عمرها إلى جيست: «إذا كانت هناك مقابلة عمل لم يحصل عليه مُهاجرٌ، فَسيقولون بِأن صاحب العمل مُتحيز عرقيا. أَشعر مثلما لو أنهم يستولون على وظائفنا ومِنازلنا وكُل شيء تُحاول الحكومة فعله من أجل الإنكليز، إنهم يحصلون عليه أوّلًا».[877] وقال شابٌ في الثَّامنة عشرة من عمره إن «الآسيويين يَتصرفون مثلما لو أنهم أعلى مَقامًا منا في حين كُنا نحنُ من رَحبَ بهم في بَلدنا. الجميع مُنزعجٌ من هذا الأمر. أَشعر مثلما لو أنني على الهَامش يَنظر إلى المُهاجرين في الداخل».

وهناك العبارة الشائعة في الحوار: «لست عنصريا، لكن..». التي يرى جيست بأنها ليست طلبًا صادقًا في نفي صفة العُنصرية عن الشخص بقدر ما هي رغبةٌ في أن يُصغي إليه أحدٌ. إن مفردة «عُنصري» هي «زرٌ صامتٌ يُضغط على شخصٍ ما ما يزال يشتكي من الإحساس بالخسارة».[878] سمع جيست عبارة «لستُ عنصريا، لكن..». اثنتين وثلاثين مرَّةً لافتةً في المقابلات الأربعين التي أجراها.[879] وأورد هنا عينةً صغيرةً: «لَست عُنصريا، لَكنه كان مُجتمعًا لطيفًا مُكونًا من الإنكليز، قبل أنْ يتدفق عليه جميع الألبانيين والأفارقة»؛ و«لست عُنصريا. أحب مُمارسة العلاقة الحميمة مع الآسيويات، أعذرني على قولي ذلك. لَكن فكرة أن الأُسر الإنكليزية لا تأتي أوّلًا ليست صحيحةً.؛ و«لستُ عُنصريا على الإطلاق...لكن البولنديين يستولون على جميع الأعمال، ويُديرون أعمال البَغاء والمُخدرات»؛ و«لست عُنصريا، لكن هذا البلد مَملوء بالسود والبوسنيين».

---

(877) *The New Minority*, p. 162.

(878) *The New Minority*, p. 73.

(879) *The New Minority*, p. 72.

يعيشُ أفرادُ الطَّبقة العَاملة البيضاء في داغنهام في داخل هذا الحُلُم السام لِأنهم يُمارسون الألعاب بِرموز العرق والشعُور القومي. وقد جَردت مشاريع النيوليبرالية والعَولمة ألعابهم من مَكانتها، وغَصتْ أقاليمهم الطَّبيعية والعصبية بِرموز الهَزيمة والاِندحار. لا يهم هؤلاء أن الهجرةً هي مَكسبٌ للاقتصاد البريطاني، ولا مسؤولية التجربة العَميقة لِلتشغيل الآلي، والاستعانة بِمصادر خارجية في العمل في تداعي مَكانتهم. كُل ما يَرونه هو خسارتهم لِهذه المَكانة. كَتبت نانسي بمبرتن في رِسالةٍ لها إلى أحد السياسيين: «أفتخر لِأني إنكليزية، وأحب إنكلترا، لَكِني أَمقت رؤيتها تَختفي، ولُغتها تندثر في وسط هذه الألسُن الأُخرى...ولا أستسيغ رؤية أسلوب حياتنا يَضمحل، وقيمنا تُهمل. وأنفر من استغلال مناطقنا الخضراء الصَّغيرة في تَشييد المنازل لعددٍ ما برح يزداد من المُهاجرين الذين يَستنزفون مُجتمعنا، ولا يَنفعوننا بشيء».(880) وسأل الباحثون في دراسةٍ مَسحية، في 2017 سُكان داغنهام وباركنغ عَما يَجِب فعله لتَحسين أوضاع المُجتمع المحلي، فكان الجواب الأَروج: «أجعلها مثلما كانت قبل خمسين عامًا».(881)

الأَحلام التي نَنسجها في أثناء نومنا هي خَليطٌ من الحقيقة والجُنون. ورؤانا الليلية ليست خيالية تمامًا: فَنحنُ ما نحنُ عليه، ونلتقي بالأشخاص الذين نعرفهم في الأَماكن التي نُميزها، لكن عمليات مُحاكاة الوَاقع هذه تَتقاطع مع الوَهم. والأَحلام التي نَنسجها عن الحياة وسَلاسلها التراتبية لا تختلف كثيرًا في العادة. يقول اليَسار الجَديد إن اللعبة مُتحيزة جنسيا ومؤمنة بتَفوق العرق الأبيض الكامل، وهي تَنظر إلى التمييز العُنصري الذي يُمارسه خُصومها في حين يرى أفرادُ اليَمين الجَديد أن النُخب المُتعلمة لم تَعد تعتني بهم على الإطلاق، وهي تَرصد احتقارهم لِلبيض، وتَقديرهم لِلأَقليات. وهذه من أخطاء المُبالغات؛

(880) *The New Minority*, Justin Gest (Oxford University Press, 2016), p. 61

(881) *The New Minority*, Justin Gest (Oxford University Press, 2016), p. 52.

فلَيس جميع البيض عنصريين مثلما ليس جميع النُخب المُتعلمة مُتحاملة ضد الطبقة العاملة البيضاء. لَكنهم مُضَللون بِسبب الإهمال. إذ فَشلوا في إدراك حضور الكَراهية جَنبًا إلى جنب الحقيقة في كُل حلم مُتضارب.

الفصل الثّامن والعشرون

حكاية الشيوعيين

ماذا لو تَيسر لنا العيش من دون مَكانة؟ أو إنشاء مجتمع يُلغى فيه المُتطلب الخاص بِالمُضي قُدمًا، والتَوافق فيه هو كُل ما يُهم؟ البؤس والظُّلم اللذان تَتَسبب فيهما لعبة المَكانة، وكُل ما يُرافقهما من حَسدٍ وغَضَبٍ وإرهاقٍ فَظيعٍ، كُل هذا يختفي، ولا يبقى منه شيءٌ. تَخيل ذلك! سَتكون مَدينةً فَاضلةً؛ إنه بزوغ فَجر الفردوس الحَقيقي على الأرض، وبلوغ الفَصل الأخير والجَميل من قصة التقدم البَشري. لَكن، ما سَبيلك إلى ذلك؟ مِنْ أين سَتبدأ؟ حَسنًا، ما سَبب هذه الاِنقسامات بيننا في الأَصل؟ ما السَبب في التفاوت وعدم المُساواة؟ الثَّروة. المِلكية الخاصَّة لِلسِلع والعقارات والأراضي والمَشاريع التجارية والصِّناعات، أي *كُل* شيء. لا مُلكية خاصة بعد اليوم. يَجب أن نشترك في كُل شيء. سَنعيش ونَعمل جماعيا. وَلو سَعينا جميعًا بالنيابة عن بعضنا بعضًا، بدلًا من السعي من أجل أنفسنا فحسب، سَنَحصل على وَفرةٍ مُذهلةٍ يُمكن تَوزيعها على أساس الحاجة لا الجَشع. وسَنُطلق على ذلك «الشيوعية».

ويُعتقد أن أصول هذه الفكرة تَعود إلى اليونان القَديمة؛[882] فمع أنها أوّل مكان شَهَد تَسليع حيازة الأرض، إلا أنها أيضًا أوّل مكانٍ كان شَاهِدًا على المَظالم وأوجه عَدم المُساواة التي يُمكن أن يَتسبب بها هذا الإجراء. تَحدثَ أفلاطون عن دَولةٍ مِثاليةٍ مُشاع فيها كُل شيء،[883] بما فيه الزَّوجات والأطفال، و«الفَردي

---

(882) *Communism*, Richard Pipes (Weidenfeld & Nicolson, 2001), p. 1.

(883) المصدر نفسه، ص 2.

والشخصي مَنفيان نفيا تامًا من الحياة، والأشياء الخاصَّة بِحكم طَبيعتها، من نحو الأعين والآذان والأَيدي، قد أَضحت مُشاعةً». والكَلمة ذاتها أُختُرِعت في باريس في أربعينيات القرن التاسع عشر،[884] ودَلت على نموذجٍ من المُساواة الأَفلاطونية الكَاملة، إذ يَختفي الفرد عَمليا من الوَاقع الاجتماعي، وتُجرم المِلكية الخاصَّة. وهي تُحيل، فَضلًا عن ذلك، إلى برنامجٍ مُقترحٍ، ونِظامٍ منشودٍ يُحقق هذا العَالم الخيَالي من الارتباط الخَالص.

وكانت هذه هي المُدة اللاحقة على اِنطلاق عَجلة الثَّورة الصِّناعية، التي اِرتفعت فيها اِرتفاعًا مَلحوظًا حدة التفاوت وأوجه عدم المُساواة بين الطَّبقات. كان 80٪ إلى 90٪ من اقتصاد العالم يعتمد في السابق على الزِّراعة.[885] إلا أن ذلك تَغير مع بروز طَبقةٍ جديدةٍ- من الصِّناعيين والرَّأسماليين والبرجوازيين- الذين أثروا ثراءً واضحًا على حِساب جُموع العَاملين المُهانين والمُستَغلين. فَشرع الغَضَب يتفاقم في صُفوف العُمال، وفي أَوساط المُثقَّفين أيضًا الذين اِمتعضوا من اِرتقاء طَبقة مُحدثي النعمة في المَكانة.[886] وكان كارل ماركس وفردريك أنجلز من بين هؤلاء المُفكرين، إذ كَتبا «البَيان الشيوعي» في 1848، وقَالا فيه: «يُمكن تَلخيص نَظرية الشيوعيين في جُملةٍ واحدةٍ: القَضاء على المِلكية الخاصَّة». صَدقَ ماركس وأنجلز أن تَقسيم العَمل الذي دَشن عَهدًا دام مئات آلاف السنين من عدم المُساواة سَينتهي في ظل الشيوعية. ولن يتقيد الناس بِلعبة كفاية واحد يَتَخصصون بها، بل سَينتقلون بِخفةٍ من مَهمةٍ إلى أُخرى. كَتب ماركس بِأنه في العالم الشيوعي: «يُنظم المُجتمع الإِنتاج العام، وبذا، يُمكنني من أن أفعل شيئًا اليوم، وشيئًا آخرًا غدًا، أن أَصيد الحَيوانات في الصَّباح، والسمَك في الظَّهيرة، وأرعى قطعان المَاشية في المَساء، وأَنتَقد بعد العَشاء...من دون أن أُصبح أبدًا

---

(884) المصدر نفسه، الصَّفحات ix-xi.

(885) المصدر نفسه، ص 9.

(886) المصدر نفسه، ص 10.

صيادًا، سَمَّاكًا، راعيا لِقطعان الماشية أو ناقدًا».(887)

يتحدث الحُلم الذي نَسجهُ الشيوعيون عن وِلادةٍ ثانيةٍ لِلحيوان البَشري. لقد أَبعدت الأنظمة الرَّأسمالية الناس عن حَالة التعاون الطَّبيعية فيما بَينهم إلى حَالةٍ من التنافس في عالمٍ قاسٍ اِنمسخ فيه الحُب والمُشاركة إلى كُلفةٍ ومنفعةٍ وتِجارةٍ، وتكون فيه قيمة الفَرد مَرهونةً بِالحد الذي يُمكنه فيه مُساعدة شخصٍ آخرٍ على المُضي قُدُمًا.(888) وقد سَمَّم تَصوُّراتنا الخاصَّة هذا السعي إلى المكانة، الذي اختَلقته «البُرجوازية» الرأسمالية الجَشعة. قال ماركس: «قد يكون المنزل صَغيرًا أو كَبيرًا؛ فطالما أن المنازل المُجاورة موازية له في صُغر الحجم، فإنه يُلبي جميع المُتطلبات الاجتماعية لِلسَكن...لَكن دع قصرًا يَنتصب بِجانب المَنزل الصَّغير، عندها سَينكمش من منزلٍ صغيرٍ إلى كوخٍ». وحتى لو توسع هذا المَنزل كَثيرًا، «لو تَوسع القَصر المُجاوز إلى مدى مساوٍ أو حتى أعظم، فإن مشاعر الانزعاج وعَدم الرِّضا ستتفاقم لدى شَاغل المنزل الصَغير نسبيا؛ سيَحسُ صاحبُ المنزل بِأنه محشورٌ ومُقيدٌ بين جُدرانه الأربعة».(889)

أخبرتنا القصة أن هذه النخبة البرجوازية كانت قادرة على تَشييد القُصور لِأفرادها، والحِفاظ على مواقعهم في القمَّة بِمساعدة المِلكية الخاصَّة لِلصناعة. اِستغل هؤلاء السلطة التي مَنحتها لهم هذه المِلكية لِاستغلال جميع من حولهم. وخَلَقت المِلكية هذه طَبقةً اِجتماعية، وأدت إلى «إِفقار» الفُقراء، وإلى «اِرتفاع مُعدل البؤس والقَمع والعُبودية والمَهانة والاِستغلال».(890) وإذا أُريد لِفردوس المُساواة أن يَظهر لِلوجود، فلا بد من القَضاء على مِلكية وسائل الإنتاج. وهذا ما سَيحدث، لا شكَ في ذلك. ولِأن لا أساس لِلنظام يدعمه، فإن البُرجوازيين الرَّأسماليين سيأكلون بعضهم بعضًا، وسيتناقص عددهم بِسبب المُنافسة المَحضة

(887) المصدر نفسه، ص 12.

(888) *Marx*, Peter Singer (Oxford University Press, 2000), p. 35.

(889) المصدر نفسه، ص 63.

(890) *Communism*, Richard Pipes (Weidenfeld & Nicolson, 2001), p. 13.

في حين يستمر في الارتفاع عدد العُمال الغَضبى، والمُستَغلين الذين ليس لديهم مُمتلكات، أو «طبقة البروليتاريا». كانت الثَّورة في جميع مناطق العالم الرَّأسمالي محتومةً. كَتب ماركس وإنجلز: «دع الطَّبقات الحاكمة تَرتجف أمام الثَّورة الشيوعية. ليس لدى العُمال الكادحين ما يخسرونه خلا أغلالهم. لديهم العالم ليظفروا به». وعندما يُحققون ذلك، سَيَصلُ نوعنا إلى الأرض المَوعودة، ويولدون من جديدٍ في مُستوى من المَكانة المُتعالية الشبيهة بِتلك التي تَخيلها النازيون وأعضاء جماعة «بوابة السماء». كَتبَ الثَّوري والمُنظر الرُّوسي، ليون تروتسكي: «النوع البشري، الإنسان العاقل المُتكاسل، سَيبلغ مرةً أُخرى، مرحلة إعادة البِناء الشامِلة والجذرية».[891] سَيغدو الرَّجلُ «نَوعًا اِجتماعيا بايولوجيا أرقى، إنسانًا فائقًا، إنْ جاز لنا القول... أحكم وأقوى وأذكى بِما لا يُقاس. سَيكون جسمهُ أَفضل في تناسقه، وحركاته أمثل في تناغمها، وصوته أرخم في نَبرته. سيرتقي هذا الإنسان العادي إلى مِثال أرسطو وغوته وماركس. وسَتظهر قممٌ أُخرى بعد هذه القِمَّة».

وفلاديمير أليتش اوليانوف، المَعروف بلينين، هو صَاحب الفَضل الأَكبر في مُحاولة تَحقيق هذا الحُلم. كانت كراهيتهُ للبُرجوازيين عمياء وعَنيفة وشَاملة؛ ويَحسب العديد من المُؤرخين المُعاصرين[892] أن السبب الأصلي يعود إلى الإذلال الذي عانتهُ أُسرته من الطَبقة فوق المتوسطة بعد إعدام أَخيه، ساشا، بسبب مؤامرة اِغتيال «ساذجةٍ سَذاجةً مُضحكةً» لَكنها كانت قريبةً من النجاح.[893] كان والدا لينين طَموحين اِجتماعيا وناجحين لامعين في الفوز بِالمكانة. ارتقى والدُ لينين، الذي وِلِدَ لِأبٍ خياطٍ في 1870، إلى مرتبة النبلاء، وحاز وسام القِديس فلاديمير، الفِئة الثَّالثة. إلا أن بلوغ الأُسرة هذه المُستَويات الشاهقة المُخلخلة لم يكن مُؤكدًا مِثلما يَجب أنْ يكون. يقول المؤرخ الأستاذ روبرت سيرفس، «لقد تمتع أكثرية

---

(891) المصدر نفسه، ص 68.

(892) *Communism*, Leslie Holmes (Oxford University Press, 2009), p. 399.

(893) *Lenin The Dictator*, Victor Sebestyen (Weidenfeld & Nicolson, 2018), p. 45.

النبلاء في مقاطعة سمبرسك بِهذه المَكانة لِعدة أجيالٍ». غير أن طَبقة النخبة في المَدينة كانت تُعامل والد لينين، الوَافد الجديد، بِاحتقارٍ وعجرفةٍ. قُذِفت الأُسرة الفخورة إلى «هامش المُجتمع»، بعد القَبض على ساشا وإعدامِه.(894) فكَفَ الوجهاء، الذين كانوا يَحلون ضيوفًا على الأُسرة، عن زيارتها؛(895) ولم يَتصل الأصدقاء القدامى بهم أبدا، وكان الغُرباء يحدقون إليهم في الشوارع. وعَبرَ أَشرافُ المَدينة- من نحو الأَطباء، والمُدرسين والمَسؤولين الإداريين وضُباط الجيش- عن مَقتهم لِأُسرة لينين. وحُمِلَ كُل فردٍ من أفراد الأُسرة مسؤولية الجَريمة،(896) حتى الأطفال، وواجهوا، نتيجةً لِذلك، «نَبذًا اِجتماعيا دائمًا».(897) وكان اِبتعاد الآخرين عنهم وتَجنبهم مُتعسفًا، إذ اِضطرهم إلى الِانتقال من المَدينة. يقول المؤرخ الأستاذ، فكتور سيبستيان: أطلق ذلك شَرارة المَقت اللاذع، والجَامح أحيانًا، لِليبراليين والمُصلحين المِثاليين من الطَّبقة المُتوسطة، التي لازمت لينين حتى وَفاته.(898) من الآن فَصاعدًا، سيواصل لينين التصريح بِرتابةٍ ومَللٍ: «البُرجوازيون...سَيَكونون دائمًا خونةً وجُبناء. السياسةُ شأنٌ شخصي- وهذا الأمرُ شأنٌ شخصي كذلك». لقد «أصبح مُتشددًا بين عَشيةٍ وُضَحاها».(899) سَيَكتبُ أحد المُتعاونين معه لاحقًا أن العِناية بِالفُقراء لم تكن أهم ما يُميزه، بل الكَراهية التي كانت من ذلك النوع الذي يُغير العالم.(900) شَهدت ثَورة أكتوبر بِزعامة لينين في 1917 بزوغ فَجر عهدٍ دام سبعة عقود في روسيا؛ وبِحلول سبعينيات القرن العشرين، كان الحُلم يَمد أجنحته على ما يفوق ثُلث سُكان العالم.(901) مع ذلك، لم يَكن حَزبهُ «البَلشفي» يَحظى بِالشعبية، على الأقل في

(894) *Lenin*, Robert Service (Macmillan, 2000), p. 59.

(895) *Lenin The Dictator*, Victor Sebestyen (Weidenfeld & Nicolson, 2018), p. 47.

(896) *Lenin*, Robert Service (Macmillan, 2000), p. 59.

(897) *Lenin*, Robert Service (Macmillan, 2000), p. 62.

(898) *Lenin The Dictator*, Victor Sebestyen (Weidenfeld & Nicolson, 2018), p. 47.

(899) المصدر نفسه.

(900) *Communism*, Richard Pipes (Weidenfeld & Nicolson, 2001), p. 28.

(901) *Communism*, Leslie, Kindle location 522.

البداية، فحتى في أزهى عهودهم، كان حجمُ التصويت له أقلَ من الرُّبع.[902] وبعد اِستيلائهم على السلطة بِالقوَّة في اِنقلابٍ،[903] أدرك البَلاشفة بِأنهم يفتقرون دَعمَ الأغلبية في البِلاد إضافةً إلى الطَّوق الذي ضَربته عليهم فَصائل الاشتراكيين والفَوضَويين المُناوئة. وهنا برزَ رَجلٌ مَهيبٌ مدفوعٌ بِجراح المَهانة والإذلال؛ رجلٌ كان يَقود جماعةً رفيعة المَقام مَعروفةً بِاستخدامها لعبة هيمنة-فَضيلة صَارمة وقَلقةً قَلقًا هَذَيانيا على مكانتها، ومُحاطةً بأعداء ومُنَافِسين رفيعي المَنزلة حقيقيين ومُتَخيَّلين. وعلى وفق مَنطق لُعبة المَكانة، كان هذا الوَضع مُصَمَّمًا تَصميمًا دَقيقًا لإنشاء جحيمٍ.

وَقبل أنْ تُتاح الفرصة لِظهور هذه المَدينة الفَاضلة الخَالية من الطَّبقات، تحدث ماركس عن مرحلةٍ اِنتقاليةٍ ضروريةٍ ومُؤقَّتةٍ في نفس الوقت لا بد من اِجتيازها، سَيَستخدم [البَلاشفة] فيها الهَيمنة في إعادة تَنظيم المُجتمع واِنتزاع المِلكية من مَخالب الرَّأسماليين. وهذه ستكون «دكتاتورية البروليتاريا-الطَّبقة العُمَّالية الكَادِحة».[904] وهكذا، خَول لينين قياداته بالبدء «بِنهب السرَّاق والناهبين»؛[905] بانتزاع المال والسلع والعِقارات من البُرجوازيين الذين أُهينوا بإجبارهم على أداء أعمالٍ يَدوية عامَّة مثل إزالة الثَّلج وتَنظيف الشوارع. وحسبما ذَكر أحد الثُّوار البَارزين: «واصل آباؤنا وأَجدادنا لِقرونٍ العَمل في تنظيف أوساخ الطَّبقات الحاكمة وقاذوراتهم، لَكننا سَنَجعلهم الآن يُنظفون قاذوراتنا».[906] كَتَب المؤرخ الأستاذ أورلاندو فيجز أن أبناء الطَّبقات القَديمة أضحوا يوصفون بـ «السكان السابقين» الذين «كافحوا لِلبقاء على قيد الحياة. إذ اضطروا إلى بيع

(902) *How to be a Dictator*, Frank Dikötter (Bloomsbury, 2019). Kindle location 1332.
(903) *Revolutionary Russia 1891–1991*, Orlando Figes (Pelican, 2014). Kindle location 1484.
(904) *Communism*, Leslie Holmes (Oxford University Press, 2009), p. 379.
(905) http://www.orlandofiges.info/section6_TheOctoberRevolution1917/RevolutionandRevenge.php.
(906) *Revolutionary Russia 1891–1991*, Orlando Figes (Pelican, 2014). Kindle location 1674.

آخر ما لَديهم لِإطعام أَنفُسهم.(907) بَاعت البَارونة ميندورف دَبّوس زينة من الألماس مقابل خمسة آلاف روبل- ما يَكفي لِشراء كيس طَحينٍ».

يَجب أنْ تكون الهَيمنة الشيوعية على الأقليم العَصَبي لِلبلاد شَامِلةً، ومَعاييرها لِادعاء المَكانة هي المَعايير الوَحيدة المُتوفِّرة. حَظَرَ لينين الأحزاب السياسية الأُخرى،(908) ومنعَ أيضًا تأسيس الجَماعات الفَرعية في دَاخل حزبِهِ. كُل مَصادر الخَطر المُحتملة كانت تُوضع في خَانة «أعداء الطَبقة»، وتَتعرض لِلتَرهيب. وكان المَسيحيون، الذين يَحظون بِمَكانةٍ رَفيعةٍ في روسيا، من بين مَصادر الخَطر هذه؛ ولِذا، قُتِلَ آلاف من القَساوسة والرَّاهبات «بَعضهم بِالصَّلب، أو الإِخصاء أو الدفن أحياء أو الرَّمي في قِدورٍ من القَار المَغلي».(909) وإشتدت حُمَّى لعبة لينين، وأَصبحت أكثر تَوترًا بعد محاولة اِغتياله في 1918. إذ طَالبت الصَّحافة بالإِنتقام من البُرجوازيين الذين أُلقي القبض على آلاف منهم(910)، وعُذِبَ كثيرٌ من بينهم، بعضهم بِغلي يديه حتى يُمكن الحُصول على قفازٍ من جِلدهِ.(911)

وبعد إعلان مِلكية الدولة لِجميع محاصيل الحُبوب في البِلاد، اِجتاحت القُوات المُسَلحة المَناطق الرِّيفية لِلاستيلاء عليها. وعندما لم يَجد لينين ما يَكفي منها، تَخيلَ وجود مجموعةٍ من السحرة المؤامرين: إنهم الفلاحون الناجحون والأَغنياء نسبيا المَعروفون بالكولاك الذين اِتهمهم لينين بِأنهم رأسماليون ومُحتكرون لِلحبوب. كَتَبَ لينين: «الكولاك هم الأَعداء المَسعورون لِلحكومة السوفيتية.(912) لَقد أثرى مَصَّاصو الدماء هؤلاء على حِساب جُوع الشعب. وسَمَنت هذه العَناكب بِاستغلال العُمَّال. لَقد مَّصَّت هذه الديدان الحَلَقية دِماء العُمَّال، وزادوا ثراءً في حين يَتَضور جوعًا العُمَّال في المُدن. حَربٌ لا هَوادة فيها

(907) المصدر نفسه.

(908) *Communism*, Leslie Holmes (Oxford University Press, 2009). Kindle location 543.

(909) *How to be a Dictator*, Frank Dikötter (Bloomsbury, 2019). Kindle location 1328.

(910) *RevolutionaryRussia 1891–1991*, Kindle location 1891.

(911) *RevolutionaryRussia 1891–1991*, Kindle location 1854.

(912) *Lenin The Dictator*, Victor Sebestyen (Weidenfeld and Nicolson, 2018), p. 394.

على الكولاك! المَوتُ لهم جَميعًا». وتَتَجلى قَسوتهُ المُعتلة نَفسيا في هذه البَرقية في 1918:

أيها الرِّفاق!

لا بُد من سحق اِنتفاضة الكولاك في مقاطعاتكم الخَمس، بِلا رحمةٍ ولا شفقةٍ. مَصالُح الثَّورة كُلُها تَستَلزم ذلك لِأننا حاليا نخوض المَعركة الفَاصِلة النهائية ضدهم في الأَمَاكن كافة. عَلينا أنْ نجعَلهم عِبرةً.(913)

1-أَنتم بحاجةٍ إلى شنق (شَنقًا تامًا، كي يرى الناس بِأعينهم) ما لا يقل عن مائةٍ من الكولاك المَعروفين، الأثرياء ومن مَصَّاصي الدماء.

2-أُنشروا أسماءهم.

3- صَادروا كل مَحاصيلهم من الحُبوب.

مكتبة
t.me/soramnqraa

4- حَددوا الرَّهائن...

اِفعلوا ذلك حتى يَتمكن الناس لِمئات الأميال من أنْ يُشاهِدوا، ويَرتجفوا، ويَعلموا ويَذرِفوا الدموع: إنهم يَقتلون الأفراد من الكولاك مَصَّاصي الدماء، وسَيَستمرُّون في قَتلهم.

أَبلغونا بِاستلامكم لِلبرقية وتَنفيذكم لِفحواها. المُخلص، لينين.

مُلاحظة: أجمعوا الناس.

أما فيما يَخص المَدينة الفَاضلة الجديدة مَعدومة الطَّبقات، فَكانت ما تزال قيد الإِنشاء. تَقول المؤرخة الأُستاذة شيلا فتزباترك: إن الشيوعيين تَبنوا وساندوا سياسات تُمارس تَمييزًا واضحًا ضد «السكان السابقين»،(914) أو أبناء الطَّبقات

---

(913) *Lenin The Dictator*, p. 396.
https://www.marxists.org/archive/lenin/works/1918/aug/11c.htm.
(914) *Everyday Stalinism*, Sheila Fitzpatrick (Oxford University Press, 1999), p. 5.

المُتميزة القَديمة، وتَدعم العُمّال، أو «الطَّبقة الديكتاتورية» الجَديدة. وحُصص الطَعام هي أحد الجوانب التي بدأ فيها هذا التسَلسُل الهَرمي الجَديد لِلمكانة بِالإعلان عن نفسهِ. شَغَل جنود الجيش الأحمر والموظفون الحُكوميون القِمَّة في هذا التَسلسل، الشيء الذي مَكَّنَهم من الحُصول على كَميات وفيرةٍ من الطَّعام؛ وتَلاهم في المَرتبة العُمّال؛ وبَعدهم، في المَرتبة الأخيرة حَل البُرجوازيون الكَريهون الذين بِالكاد حَصَلوا، بِكلمات أحد الثّوار القُدامى، على ما «يَكفي من الخُبز لِسد رَمقهم كي لا يَنسوا رائحته».[915] فَهَم الناس أن الطَّريقة الوحيدة المَضمونة لِلصعود إلى الأعلى في هذه اللعبة الشيوعية الجَديدة هي الِانضمام إلى صُفُوف الحزب أو العَمل في خِدمته. بلغَ عدد الأشخاص الذين وَظَفتهم الحُكومة توظيفًا مُباشرًا في دوائرها خمسة ملايين وأربعمائة ألف في عام 1920.[916] يقول أورلاندو فيجز: «بَلَغ عدد المَوظفين ضعف عدد العُمّال في روسيا السوفيتية، وكان هؤلاء الموظفون هم القَاعدة الِاجتماعية الرَّئيسة لِلنظام الجَديد...ولم يَكن ذلك تَجسيدًا لِديكتاتورية البروليتاريا، بل "ديكتاتورية المُوظفين"». وفي حين كان اللاعبون مُنهمكين في اللعبة، أضحوا يؤمنون بِمعاييرها وَقواعدها. رَبَط مَلايين الرّوس مَكانتهم الشخصية بِلعبة الشيوعيين، واستوعبوا حُلمها، وصاروا مُخلصين لها وصَادقين معها. وكان زُعماؤهم يَسردون عَليهم قصَّةً لا تُقاوم في جَاذبيتها تقول إن الِاتحاد السوفيتي سَينهض، إذ سَتَتَغير الصُّورة الشائعة عنه بِأنه محض مجتمعٍ غير مواكب ومُتخلفٍ لِلغاية عن الغَرب إلى المجتمع الأكثر تَطورًا في العالم. تَقول أستاذة العُلوم السياسية ليزلي هولمز: «ليس هناك شَكٌّ في الحَماس الذي استبد بالكَثير من المواطنين السوفيات بشأن مُستقبل بلادهم في منتصف عشرينيات القرن العشرين».[917]

أخذت اللعبة بالِانتشار في خارج جمهوريات الِاتحاد السوفياتي كذلك. بوسعنا

(915) *Revolutionary Russia 1891–1991*, Kindle location 1854.

(916) *Revolutionary Russia 1891–1991*, Kindle location 1850.

(917) *Communism*, Leslie Holmes (Oxford University Press, 2009), p. 562.

الحُصول على صورةٍ رائعةٍ عن عَقلية المُتَحولين في مقالةٍ لِلمؤلف آرثر كويستلر الذي اِنضم إلى الحزب الشيوعي في ألمانيا في 1931.[918] راقب كويستلر أبناء الطَّبقات المتوسطة التي دَمرتها وشَتَتت صفوفها الأزمة الاقتصادية وهم يَفرون إلى أقصى اليَسار وأقصى اليَمين، وكان قد قَرأ في «البَيان الشيوعي» تَكهُن ماركس بِأن «مجاميع كاملةً من الطَّبقات الحَاكمة» ستُجهز الحَركة بـ «عناصر مُتَجددة من التنوير والتقدم». ورَاق له عبارة «العُنصر المُتجدد لِلتنوير»، إذ أَدرك، لِشدة فَرحه، بِأنه هو المَقصود بها.

وحَالما اِنضم كويستلر إلى لعبة الحزب، بدأت عملية تَدوين قَواعدها وَرموزها في جهازه الداخلي الخاص بِمُمارستها. ومِثلما لاحظنا في العَوالم التي يَقطنها الطُّلاب في كلية إيتون وجماعة بوابة السماء، اِحتشدت العضوَّية بِرموزٍ يُعبر عنها بلُغةٍ خاصَّةٍ. أُبلِغ كويستلر، بعد تَسليمه بطاقة الحزب، بِأنه يَجب عليه، من الآن فَصاعدًا، اِستخدام «حضرتك» بَدلًا من «أنت». واكتشف أن «عَفويًا» لا تُستخدم لِاقترانها مع ليون تروتسكي، الذي سيُصبح، مَنذ ذلك الحين، عَدوًّا طَبقيا. وعلى شَاكلة ذلك، لم يكن هناك شيء اسمه «أهون الشرين»، لِأن هذه العِبارة كانت «مُغالطة فَلسفية، واِستراتيجية، وتَعبوية؛ وفكرةً تَرُوتسكيةً مُضلِلةً وتَصفَوية ومُناهضة لِلثَّورة». وتَشمل قائمة الكَلمات والعِبارات المُفضلة «الجماهير الكادحة»، و«مذهبية»، و«الساعي إلى الشهرة»، و«وضوح»، (كما في: «يَجب عليك تَقديم سؤالك بِكلمات أوضح، رفيق»). كَشَفت إحدى النساء عن اِنتمائها لِلحزب، في أثناء حملة المُلاحقة والتضييق النازية، بِسبب اِستخدامها لِكلمة «واضح». كان المُفوَّض من الغِستابو (الشرطة الرَّسمية النازية) يُصغي إليها بِمللٍ، وكان شُبه مُقتنع بِأن مُعاونيه قد أَخطئوا في القبض عليها حتى اِستخدامها هذه الكَلمة المُميتة لِلمرة الثَّانية.

---

(918) *The God That Failed,* Richard Crossman (editor), (Harper Colophon, 1963), pp. 15–75.

ومع تَوغل اللعبة في اِستعمار الأقليم العصبي لكويستلر، وتَفعيل دائرة «التقليد، الإطراء، الإمتثال»، وَجدَ أن أذواقهِ الفَنية والموسيقية تَحولت إلى نُسخةٍ من أذواق النخب التي يَمتثل لها: فَلينين قد قرأ بلزاك، إذًا، بلزاك هو «الأعظم في العُصُور كُلها»؛ وأية لوحة من دون مَدخنة معملٍ أو جرار نقلٍ مَصيرها الإِهمال لِأنها «دَعوة لِلهروب». ابتلع الحُلم الحقيقة ذاتها. فأي تشكيك بِتوجه الحزب هو بِمنزلة تَخريبٍ؛ وفي الِاجتماعات كانوا يَتبادلون الثَّناء والإشادات لِتكرارهم المُعتقدات الصَّحيحة بِالتعاقب. وكانت النظرة إلى قيمة حُرية التعبير عن الرأي بِأنها اِنحرافٌ. يَقول أحد شِعارات الحزب الألماني: «الخَط الأمامي ليس مَكانا لِلنقاش»، ويُخبرنا آخر: «حيثما يكون الشيوعي، فإنه في الخَط الأمامي على الدوام».

ومثلما هو الحال مع جَماعة بوابة السماء، التي تَعلم الأعضاء فيها أنْ يَحملوا «بطاقات خالية» يُدونون فيها الأفكار الخاطئة لِلتخلص منها، تَعلم كويستلر أنْ يُفكر تَفكيرًا صَحيحًا. عندما كان كويستلر يُشكك، في الأيام الأوائل لِاِنتمائه، في تَحليل الحزب بِوصفه النقيض لِلحقيقة الواضحة، كان يُقال له بِأنه ما يزال يُعاني من «الرؤية الآلية»، وأن من الأَفضل له أنْ يُفكر «جَدليًا» ويُفسر العالم من منظور الحزب. عَلَق كويستلر على ذلك شارِحًا: «تَعلمت شيئًا فشيئًا الِارتياب بِانشغالي الآلي بالحَقائق، وكذلك رؤية العالم من حولي في ضوء التفسير الجَدلي. كانت حالة مُقنعةً ورائعةً في الواقع؛ إذ حالما تَستوعب التقنية، لن تُزعجك الحقائق بَعدها لِأنها- أي الحقائق- سَتكتسب اللون المُناسب، وتَتجه إلى مَكانها الصَّحيح». ألفى كويستلر نفسه، على شَاكلة، أفراد جماعة بوابة السماء، تائهًا، بِمحض اختيارِهِ، في حُلم لَعبته: «كُنا نَتوق إلى أن نكون أُحادي ومَحدودي التفكير». ومع إِحكام اللعبة لِقبضتها، وسعي كويستلر إلى المَكانة فيها، تراخت تَراخيا متواصلًا سَيطرة هذا الرَّجل اللامع الذَّكاء على الواقع. يقول عن ذلك: «الإيمان رائعٌ؛ فهو قادرٌ على تحريك الجِبال، وجَعلك تُصدق أن سَمك الرِّنجة هو حِصان سِباقٍ».

كانت المَدينة الفاضلة المِثالية مَعدومة الطَّبقات ما تزال في خَطواتها الأولى في جمهوريات الاِتحاد السوفياتي. اِعتمد لينين، لِتحريك عجلة الاقتصاد، «سياسة اقتصادية جديد» في 1921 تَستمد قِسمًا من مَلامحها من الرَّأسمالية؛ إذ سُمِح بإنشاء بعض المَشاريع التجارية الصَّغيرة،(919) وتَقرر أنْ يَحل فرض الضَّرائب محل اِستحصال الحُبوب من الفَلاحين.(920) فَنما الاقتصاد نُموًّا سَريعًا.(921) إلا أن هذه السياسة لم تحظ أبدا بِالشعبية في أوساط النزيهين والمُستَقيمين الذين رأوا فيها «اِستغلالًا جديدًا لِلطبقة العُمَّالية الكادحة».(922)

بدأت صحة لينين بِالتدهور، وتوفي في 1924. وبوفاتهِ توقف العمل بهذه السياسة الاقتصادية، إذ اعتمد خَلفه، ستالين، بدلًا منها، برنامجًا لِلتصنيع السريع والتنظيم الجَماعي القَسري لِلمزارع. ولهذا الغرض، أرسلت السلطات فِرقًا مُسلحةً إلى المَناطق الرِّيفية لإعادة تَنظيم العَمل الزِّراعي. وكان من مَهام هذه الفِرق الإضافية الاِستيلاء على مَحاصيل الحُبُوب لإطعام الشعب، وبِناء المُستقبل المَجيد الذي سَيَتفوقون فيه على خُصومهم في الغَرب. كَتَب ستالين: «إننا نَتقدم بِكامل طاقتنا على طول مَسار التصنيع إلى الاشتراكية تاركين وراء ظُهورنا «تَخلف روسيا» القَديمة...لقد تَحولنا إلى بَلد المَعادن، بَلد السيارات، بلد جَرَّارات النقل. وعندما نضع جمهوريات الاتحاد السوفياتي في طَريق العَجلات، والفَلاحين على الجَرَّارات، دع الرَّأسماليين الجَديرين، الذين يَتفاخرون بـ «حضارتهم»، يُحاولون التغلب علينا. سنرى عندها أي البُلدان سَتوصف بِالمُتخلفة وأيها بِالمُتقدمة».(923)

ومع هذا الهُجوم الجَديد على الرِّيف، بدأت من جديد حملة مُلاحقة السحَرة التي استهدفت الفَلاحين الأقدر الذين كانوا يُنتجون قرابة ثلاثة أرباع المحصول

(919) *Revolutionary Russia 1891–1991*, Kindle location 2184.

(920) *How to be a Dictator*, Frank Dikötter (Bloomsbury, 2019). Kindle location 1328.

(921) *Revolutionary Russia 1891–1991*, Kindle location 2272.

(922) *Revolutionary Russia 1891–1991*, Kindle location 2193.

(923) *Revolutionary Russia 1891–1991*, Kindle location 2411.

التجاري للحُبوب.[924] سَعى ستالين إلى «تَصفِيَة الكولاك بِوصفهم طَبقةً».[925] وأُجبِر حوالي ستة ملايين من الفَلاحين على الاِنضمام إلى المَزارع الجَماعية في الشهرين الأوّل والثَّاني من عام 1931 لِوحده.[926] وأَعقب ذلك بِعامين إرسال قرابة المليون وأربعمائة ألفًا إلى «مستوطنات خاصَّة» في الشمال المُتجمد.[927] يُبين أحد التقارير أن قِطارًا واحدًا فحسب بواحدةٍ وستين عربةٍ، غَادر المَحطة المَحلية الصَّغيرة في يانتسينوفو مُتجهًا إلى سِيبيريا، وعلى مِتنه قُرابة ثلاثة آلاف وخمسمائة من الفَلاحين.[928] وكانت نسبة الوَفيات في رِحلات من هذا النوع حوالي 15٪. يَتذكر أحد الشهُود «تَعوده على رؤية الجُثث في الصَّباح؛ كانت العربة تتوقف فيَبدأ المُعاون الطّبي، إبرام، في تَكديس الجُثث فيها».[929] لم يَمت الجَميع، بل هَام الكَثيرُ منهم في شَوارع مُغبرةٍ صغيرةٍ ومُتربةٍ ومُقرفة، وهم يجرون سيقانًا زَرقاء شَاحبة اللون، ومتورمة من الاِستسقاء، يَستعلمون من كُل عابرٍ بأَعين مُتوسلة أشبه بأعين الكِلاب... لَكنهم لا يَظفرون بشيء. قَذَفت السلطات، في 1933، قرابة الخَمسة آلاف من الفلاحين والفاقدين لِلمَنزلة الاِجتماعية، على جزيرةٍ في نهر أوب لا يَحملون معهم سوى أكياسٍ قليلةٍ من الطَّحين المُتعفن.[930] حاول بَعضهم السباحة إلى الشاطئ، فَغَرق في المياه المُتجمدة، واِنقلب آخرون ضد بعضهم بعضًا، فَقُتِلوا من أجل زوجٍ من الجَوارب أو كِسرة خبزٍ. واِنحدر بعضهم إلى تناول لُحوم زملائهم. فَحسبما أورد تقريرٌ رسمي، اُكتُشِفت في يومٍ واحدٍ فحسب، خمس جُثثٍ «اُنتُزِعت منها الأَكباد والقلوب والرِّئات، والأجزاء المُكتنزة باللحم

(924) *Harvest of Sorrow*, Robert Conquest (Vintage, 2002). Kindle location 1822.
(925) *Communism*, Richard Pipes (Weidenfeld & Nicolson, 2001), p. 58.
(926) *Revolutionary Russia 1891–1991*, Orlando Figes (Pelican, 2014). Kindle location 2452.
(927) *Revolutionary Russia 1891–1991*, Kindle location 2475.
(928) *Harvest of Sorrow*, Robert Conquest (Vintage, 2002). Kindle location 3020.
(929) *Harvest of Sorrow*, Kindle location 3038.
(930) *Cannibal Island*, Nicolas Werth (Princeton University Press, 2007), p. 129.

(مثل الأثداء والسيقان).[931] يتذكر أحد الشهود «فتاةً جميلة»، كان حارسٌ شابٌ اسمه كوستيا فينيكوف يَتَودد إليها»:[932] كان يَحميها. لَكنه اضطر إلى المُغادرة في أحد الأيام، فَقال لِأحد أصدقائه، «أعتنِ بها»... أمسك الناس بِالفتاة، وعلقوها على شجرة حورٍ، وقَطعوا ثدييها، وعَضلاتها، وكُل ما يُمكن لهم تناوله...كانت ما تزال على قيد الحياة عندما عاد كوستيا الذي حاول إنقاذها دون جدوى بِسبب فقدانها كميةٍ كبيرةٍ من الدم. فَتوفيت، وشَعر هو بإحباطٍ شديدٍ.[933] كان أكل لُحوم البَشر شائعًا في نِظام السجن السوفياتي إلى حد سَكِ اسم لِمن يُحكم عليهم بِأن يكونوا طَعامًا للآخرين. هذا الاسم هو «أَبقار». يقول جاكْ روسي، المُترجم الفوري لِستالين، والنزيل اللاحق في سِجن الغولاج: «"البقرة" هو سَجينٌ مُستجدٌ يَطلب منه المُدانون الاِنضمام إليهم في محاولتهم الهَرب. يشعر هذا السجين، عمومًّا، بالإِطراء والأَهمية لوجوده مع مجموعةٍ من المُجرمين المَعروفين. لَكنه لا يَعلم بِأنهم سيَقتلونه ويأكلونه حال نفاد الطَّعام لديهم».

كان الفوز بالمكانة مَرهونا بقمع التعاطف البَشري الطَّبيعي قَمعًا شديدًا في حالة المَسؤولين عن «اِجتثاث طَبقة الكولاك»؛ الذين لُقِنوا الآتي: «ارموا نوازعكم الإِنسانية البُرجوازية من النافذة، وتَصرفوا مثل بَلشفي جديرٍ بِالرَّفيق ستالين».[934] وصرخ أحدهم، ليف كوبيليف، الذي وَبخَ نفسه لِشُعورهِ بالغضب بعد سَماع صراخ الأطفال، قائلًا: «يَجب القَضاء، بأي ثمنٍ، على آخر البقايا المُتحللة لِلزِّراعة الرَّأسمالية».[935] كان كوبيليف يَروي لِنفسه قصَّةً بُطولية تقول إن «الِاستسلام لِلشفقة المُدمرة» هو فعلٌ غير أخلاقي، و«كُنا نُدرك ضرورةً تاريخيةً. كُنا نؤدي واجبنا الثَّوري. كُنا نَجمع مَحاصيل الحُبوب من أجل أرض الآباء الِاشتراكية». وطمأنت أُخرى نفسها بِالقول: «ليسوا بَشرًا، بل كولاك

---

(931) المصدر نفسه، ص 139.

(932) المصدر نفسه، 141.

(933) المصدر نفسه، ص xiv.

(934) *Revolutionary Russia 1891–1991*, Kindle location 2449.

(935) *Revolutionary Russia 1891–1991*, Kindle location 2487.

فلاحين».[936]

هَلك الكثيرُ من الكولاك جوعًا. نَصَّ مرسومٌ صَدر في 1932 على السجن بالأَعمال الشاقة لِعشر سنوات أو عقوبة الإعدام «لِأي سرقةٍ أو تَدميرٍ لِلمُمتلكات الاِشتراكية»[937] التي تَتَضمن أخذ بضع سيقان من الحُبوب لِتناول الطَّعام؛ فَبدأ الفَلاحون بِتناول الحشائش ولُحاء الشجر.[938] وفي حين كانت أطنانٌ من أنواع الحُبوب والحَليب والألبان والبيض واللحم تُشحن من الأرياف وتُباع في الأسواق العالمية لِتمويل برامج التصنيع الستالينية، هَلَك جوعًا قُرابة الستة ملايين من الفَلاحين.[939] يَقول فيجز إن تَدمير طَبقة الكولاك كان «كارثةً على الاقتصاد السوفياتي. إذ حَرم المَزارع الجَماعية من الفَلاحين الأبرع والأكثر جديةً لِأن هذا هو بِالضَّبط ما كانوا عليه، الشيء الذي أدى إلى اِنهيارٍ دائمٍ لِلقطاع الزِّراعي السوفياتي».[940] أخذت السلع بالِاختفاء من المتاجر في البَلدات والمُدن في مطلع ثلاثينيات القرن العشرين، وعانت البِلاد نَقصًا حادا في البضائع والملابس وغيرها من المَواد الأساسية.[941] وبحلول العام 1933، أضحت جمهوريات الِاتحاد السوفياتي تُعاني، وفقًا لِأستاذ الاقتصاد، الك نوف، «الِانهيار الأعنف، في أوقات السلم، في مستويات المعيشة المَعروفة في التاريخ المُدون».[942] أعقب ذلك فشل الموسم الزِّراعي في 1936.

ولا بُد من إلقاء اللوم على شخصٍ في المُشكلات التي تواجهها الثُّورة. ومن الواضح أن الشيوعيين ليسوا هم ذلك الشخص. مَنْ هو، إذن؟ هناك قوى مُعادية

(936) *Harvest of Sorrow*, Robert Conquest (Vintage, 2002). Kindle location 2807.
(937) *Communism*, Richard Pipes (Weidenfeld & Nicolson, 2001), p. 59.
(938) *How to be a Dictator*, Frank Dikötter (Bloomsbury, 2019). Kindle location 1515.
(939) *Communism*, Richard Pipes (Weidenfeld & Nicolson, 2001), p. 60.
(940) *Revolutionary Russia 1891–1991*, Orlando Figes (Pelican, 2014). Kindle location 2504.
(941) *Everyday Stalinism*, Sheila Fitzpatrick (Oxford University Press, 1999), p. 2.
(942) *Communism*, Richard Pipes (Weidenfeld & Nicolson, 2001), p. 57.

تَتآمر ضد الثَّورة من مثل المُنشقين والرَّأسماليين المُتخفين، و*السحرة*. والمُشكلة تَتلخَّص في العُثور عليهم. كانت لعبة صَارمةً تَمامًا واصل الناس مُمارستها قُرابة العَقدين؛ وكان الإمتثال هو النمطُ المُعرف لِلحياة. رَفض الحزب مفهوم الحياة الخاصَّة. يقول فيجز إن «كُل شيء يَفعله الناس سِرًّا كان "سياسيا"»، ونَتيجةً لذلك، «فهو خاضعٌ لِمراقبة النظام الجَماعي».(943) وعَلَقَ أحد الكُتاب المؤيدين لِلشيوعية، الذي جاء من فَرنسا لِزيارة الاتحاد السوفياتي في 1936، على «التطابق المُدهش» في ملابس الناس الذين التقاهم، مُضيفًا:(944) «لا شك أن التطابق حاضرٌ أيضًا في عقولهم ... الفردُ غارقٌ في الجُمهور، ولِذا، لا يَشعرُ المرء بِالكثير من الخُصُوصية كما لو أن عليه أنْ يستخدم صيغةً مفردةً جماعيةً عند الحَديث عن الناس، فلا يقول "هنا رِجال"، بل "هنا رَجلٌ واحدٌ"».

لَكن إذا كان الجَميع يَقولون بِأنهم يؤمنون بِالحُلم الشيوعي، كيف يَتسنى لنا أنْ نكتشف المُنحرفين والمُنشقين؟ أنى لِستالين أنْ يعرف المُخلص إخلاصًا حقيقيا في النخب التابعة له، ومنْ من بينهم يُمارس لعبة مُختلفةً في العَوالم السرية في داخل رُؤوسهم؟ وعلى الرَّغم من أنه كان موجودًا في القمَّة المُطلقة في اللعبة الشيوعية الرَّسمية، لم تكن لدى ستالين وسيلةٌ تُمكِّنه من معرفة موقعهِ في اللعبة الحقيقية الجَارية في عقول المُحيطين به. يُخبرنا فيجز أن «حَملات التطهير بدأت هنا...في حاجة البَلاشِفة إلى الكَشف عن الأعداء المُحتَملين».(945) وهكذا، بدأ ما يُمكن وصفه بِالمِثال الأشهر لبارانويا (الإِرتياب الهذياني) المكانة في التاريخ: إنه التطهير العَظيم. يَجب على الشيوعيَين الصَّالحين أنْ يكونوا في حالة يقظةٍ دائمةٍ لِرصد المُنحرفين الخَطرين ذوي الأفكار المُنحرفة الخَطرة الذين يَتحركون في صُفُوفهم، ويَتظاهرون بِأنهم شُيُوعيون صَالحون. وأُعلِنَ أن الطَّرد سَيكون مَصير «المُخربين

---

(943) *Revolutionary Russia 1891–1991,* Kindle location 2328.

(944) *Caviar with Champagne,* Jukka Gronow (Berg, 2003), p. 2.

(945) '*Revolutionary Russia 1891–1991,* Orlando Figes (Pelican, 2014). Kindle location 2352.

العَلنيين والسريين» لِلحزب الذين «يُشكّكون بِقراراته وخُططه ويُكذِبونها»،(946) وهذا ما حصل لعَددٍ فاق النصف مليون من الأعضاء.(947) والاِتهام أو الطَّرد من اللعبة التي كرسوا حيواتهم لأجلها كان شيئًا مُغربًا وإقصائيا إقصاءً لا يُطاق. اِشتكى أحدهم من أنه كان «مَعزولًا عن الجَميع، عَدوًّا لِلناس، في وضعٍ غير بَشري، مَعزولًا تمامًا من كل ما يؤلف جوهر الحياة». وتساءل آخر: «هي يُمكن أنْ ينهار كُل شيء بهذه الطَّريقة؟ هل يُمكن أنْ أُصبح عَدوًّا لِلحزب الذي أسهم في تَشكيلي؟ كلا، إنه خطأ».(948)

صارت النُخب والنخب التي سَبقتها محل شكٍ وريبةٍ فَظيعةٍ؛(949) إذ وِصِمَ أفراد الطَّبقة المُفكرة السابقة ما قبل الثَّورة بِأنهم «مُتخصِّصون بُرجوازيون».(950) وتَعرضَ لِلهُجوم أيضًا القَساوسة وأفراد طَبقة الكولاك، ورِجال الأعمال الذين كانوا يُديرون مشاريع تِجاريةً صغيرةً في أثناء تَطبيق الخُطة الاِقتصادية الجَديدة في عهد لينين.(951) وخضعَ المُشتبه بِحيازتهم لِأفكار ومُعتقدات غير صحيحة لِلاستجواب في اِجتماعات التطهير. تقول شيلا فتزباتريك إن «خوض تَجربة التطهير» يعني الاِعتراف بِذنوبك إلى ما لا نِهاية، لا سيما الاِنتماء إلى جِهات المُعارضة، وإلى أصولٍ اِجتماعية مرذولةٍ... ولم يكن في هذا الطَّقس فرصةٌ لِتخفيف العبء عن كاهلهم. إنك «تعترف بِأخطائك»، وتَعتذر، وإذا كُنت مَحظوظًا، ستُرسل بَعيدًا مع تحذيرٍ في يَدك. لَكن الأخطاء سَتبقى في اِنتظارك في المَرّة القَادمة.(952) وإضافةً إلى ذلك، كانت المُحاكمات الصُّورية تُعقد، إذ مَصيرُ

(946) *Everyday Stalinism*, Sheila Fitzpatrick (Oxford University Press, 1999), p. 19.
(947) *Revolutionary Russia 1891–1991*, Kindle location 2719.
(948) *Everyday Stalinism*, Sheila Fitzpatrick (Oxford University Press, 1999), pp. 19–20.
(949) المصدر نفسه، ص 7.
(950) المصدر نفسه، ص 5.
(951) الصمدر نفسه، ص 7.
المُفردة المُستخدمة لوصف رجال الأعمال هؤلاء هي 'Nepmen' التي تتكون من جُزأين: رجال (men) والخطة الاِقتصادية الجَديدة (NEP) (المُترجمة).
(952) المصدر نفسه، ص 20.

الضَّحايا المُذنبين دائمًا هو إما الطَّرد وإما القَتل أو النفي إلى الغولاغ. صَرخ أحد المُدانين غَاضبًا: «إن المِثال المُخزي لِسُقوطي يُبين أن أدنى اِختلافٍ أو اِنحرافٍ عن الحزب، وأدنى تَحايل أو نفاقٍ معه، وأقل تَرددٍ فيما يَتصل بِقيادته، وبِلجنته المَركزية، كافٍ لِوضعك في خانة المُعارضين لِلثَّورة».[953]

ومثلما لَاحظنا في أزمان التضييق الشديد في ظل حُكم النازيين ومَحاكم التفتيش الإسبانية، بدأت سلَسلةٌ من الوِشايات والإدانات في ظِل وجود ملايين من المُخبرين من الأصدقاء والزُّملاء وأفراد الأُسرة الذين اندفع بَعضهم إلى فعل ذلك بِالخوف، والبُغض والنقمة والطُّموح الشخصي، وبَعضهم الآخر بالإيمان الحقيقي.[954] يُندد الناس ويُدينون المَشاهير الذين يقرأون عنهم في الصُّحف،[955] ويُدين العُمَّال مُديريهم، وتُندد زوجة عالم الأحياء بخَصم زوجها في المؤسسة الأكاديمية، إذ تَصفه بـ «سوقي الذَّوق الذي يَذر الرَّماد في أعين الناس، والقِزم العلمي التافه والحَقير، والمُنتحل، والمؤلف الجَامع»، وعَثَر المؤرخون على «العَديد من الرَّسائل من مُمثلين ومُمثلات ومُغني أوبرا معروفين يُدينون فيها ويُنددون بالمُنتجين المَسرحيين الذين أهانوهم، وفَشلوا في مَنحهم أدوارًا مُناسبةً».[956]

أُدين أحد الشعراء لِأنه رفض توقيع طلبِ جماعي لإِعدام اثنين من الثُّوار كِبار السن؛ وأُدين كاتبٌ لِتناوله الشراب مع شَخصٍ آخرِ صَدر عليه حُكم الإِدانة.[957] وتَعرضَ طَلَبةٌ في الجامعة لِلتنديد لِأن آباءهم من الفَلاحين الكولاك أو لِأنهم «تَربوا على يدِ تاجر».[958] وَوَشى أحد المُتدربين بِأُستاذه المُصوِّر لِأن

---

(953) المَصدر نفسه، ص 19.

(954) *Revolutionary Russia 1891–1991*, Kindle location 3208.

(955) *Everyday Stalinism*, Sheila Fitzpatrick (Oxford University Press, 1999), p. 208.

(956) *The Rise of Victimhood Culture*, Jason Manning and Bradley Campbell (Palgrave Macmillan, 2018). Kindle location 1634.

(957) *Everyday Stalinism*, Sheila Fitzpatrick (Oxford University Press, 1999), p. 198.

(958) المصدر نفسه، ص. 204.

الأخير اشتكى من أن ورق التصوير كان أفضل قبل الثَّورة، وكان مَصيره النهائي الإِعدام.[959] وتَتحدث شيلا فتزباتريك عن تَحول بعض المُحاربين الطَّموحين إلى «مُنددين مُتطرفين...أو مُنددين عَلنيين مُحترفين عَمليا».[960] وَصَف أحدُهم لاحقًا ذَهابه مع شريكٍ له إلى الاجتماعات حاملين معهما قوائم مُعدة مُسبقًا لِأشخاصٍ كانوا يَنوون اِتِهامهم بِأنهم من أعداء [الحزب]... لم تكن القائمة مَصدر حرجٍ فحسب عندما قدمناها في الاِجتماع، بل إن أعضاء الحزب المَرعوبين تَسللُوا بِهدوء إلى خارج المَبنى. وتَمَلكت الحيرة الشيوعيين المؤمنين إيمانًا حقيقيا، عند إلقاء القَبض عليهم، فهم كانوا ما يزالون تائهين في حُلم المَعصومية الشاملة لِلحزب. كَتب أحدهم في تَعليقٍ له على ذلك: «إن حقيقة وجودي هنا تَعني بِأني قد اِرتكبت غلطةً ما- غير أني لا أَعرف ما هي».[961]

كَانت السلطت تُحدد حُصصًا، لِكل مركز شُرطة، في أثناء التطهير العَظيم، تُبينُ فيها النسبة المئوية للأفراد الذين يَتعين قَتلهم أو إرسالهم إلى المُعسكرات في كُل مَنطقةٍ.[962] صَدَرت الأَوامر «بقمع» خمسة وثلاثين ألفًا من السكان في مُقاطعةٍ واحدةٍ، وإِعدام خمسة آلاف منهم في الثَّاني من حُزيران، 1937. وأُلقي القبض على مائة وخمسة وستين ألف قسٍ بين عامي 1937 و1938، قُتِل منهم مائة وستة آلاف قسًا.[963] وبلغ متوسط الإعدام ألفًا وخمسمائة فردٍ يوميا في المُدة نفسها.[964] وألقى جِهاز الشرطة السري الرُّوسي القَبض على مليونٍ ونصفٍ من الرُّوس العاديين،[965] أُعِدمَ منهم قُرابة السبعُمائة ألفٍ بِتهمة الاشتراك في «أَنشطة مُعادية

(959) المصدر نفسه، ص 208.

(960) المصدر نفسه، ص 209.

(961) *Revolutionary Russia 1891–1991*, Orlando Figes (Pelican, 2014). Kindle location 3242.

(962) *Communism*, Richard Pipes (Weidenfeld & Nicolson, 2001), p. 63.

(963) المصدر نفسه، ص 65.

(964) *Revolutionary Russia 1891–1991*, Kindle location 3080.

(965) *How to be a Dictator*, Frank Dikötter (Bloomsbury, 2019). Kindle location 1546.

لِلثورة».[966] وفَضلًا عن ذلك، أُبيد جميع خُصُوم ستالين المُقربين منه، بما فيهم أكثرية أفراد النخبة في عهد لينين.[967]

لَربما يكون ستالين قد دَمَرَ الزِّراعة الوَطنية، وقَضى على مَلايين البَشر في حملات التطهير والتصفية والمَجاعة، إلا أنه كان مُنشغِلًا أيضًا بِفرض التحديث على الاِتحاد السوفياتي. إذ أَمَرَ بِتَشييد المُدن الجَديدة والمَصانع والمَشروعات. عَمَل العُمَّال بِكدٍ طَوال الأسبوع خِدمةً لِلمستقبل. وبِسبب حقيقة تَركيزها الهَائل والمُميت على اللاعبين الناجحين، أَسفرت حملة التطهير العَظيمة عن شَواغر جديدة في قطاع العَمل، الشيء الذي يعني إتاحة فرص عَملٍ جديدةٍ لِلملايين.[968] وتَزامن ذلك مع الشروع في تنفيذ برنامجٍ مُكثفٍ لـ «بلترة»[969] الطَّبقة المُثَقَّفة التي حقق من أشترك في هذه اللعبة الجَديدة من أفرادها «تَقدمًا سَريعًا في أثناء حملة التطهير». تَحول هؤلاء إلى نُخبةٍ جديدةٍ اِحتلت أَلعاب الصِّناعة والفِنون والسياسة. واِكتظَّ الجِهاز الإداري البيروقراطي السوفياتي بِلَاعبين مُتدني المَكانة سابقين وغير ماهرين، والعديد منهم من أَنصاف المُتَعلمين.[970] تقول شيلا فتزباتريك إن «الناس، في جَميع مناطق الاِتحاد السوفياتي، وفي المُستويات كافة، كانوا يُغيرون مَكانتهم الاِجتماعية. كان الفَلاحون ينتقلون إلى المُدن الصَّغيرة، ويَّصبحوا عُمَّالًا صِناعيين، وكان العُمَّال يَتحولون إلى وَظائف تِقنية، وكان المُعَلمون في المَدارس يَتَحولون إلى أساتذة جامعات».[971]

أَسسَ ستالين ألعاب مَكانة لِلناس، الشيء الذي تَمخض عن تَشجيع التَطَلع

---

(966) *Revolutionary Russia 1891–1991*, Kindle location 3066.

(967) ذَكَرَ لينين في 'وَصيتهِ' أسماء ستة من الشُيوعيّين البارزين بوصفهم خُلفاء مُحتملين له: لكن هَلَكَ الجميع ما عدا واحدٍ هو ستالين.

Richard Pipes (Weidenfeld & Nicolson, 2001), p. 64.

(968) *Caviar with Champagne*, Jukka Gronow (Berg, 2003), p. 11.

(969) تعني 'بلترة-proletarianization' التحول إلى الروليتاريا أو تحويل أجزاء من الطَّبقة الوسطى وامتصاصها في داخل الطَّبقة العُمَّاليّة الكادحة (المُترجمة).

(970) *Everyday Stalinism*, Sheila Fitzpatrick (Oxford University Press, 1999), p. 6.

(971) المصدر نفسه، ص 86.

والطُّموح والمَعنى. وحَظيت هذه الطَّبقات الجَديدة الصَّاعدة نحو الأَعلى بحافزٍ مُشجعٍ إضافي وفره لها تَحول ستالين المُدهش بَعيدًا عن الحُلم التأسيسي الخاص بالمُساواة الكَاملة. فَبدلًا من اِنعدام الطَّبقات الاِجتماعية، أَعلن ستالين عن وجود ثَلاث طَبقات فِعلية، هي: العُمَّال والفَلاحين وطَّبقة المُثَقَّفين.[972] ومثلما أُلغيت الرُّموز القَديمة لِلتَسلسل الهَرمي، المُتَضمِنة لِلدرجات والألقاب التشريفية، استُحدثت واعتُمِدت ألقابٌ جديدةٌ من نحو: «بَطلُ الاِتحاد السوفياتي» و«الخَبير الرِّياضي المُمتاز». وبعد إلغاء الألقاب والمَراتب والعَلامات الدالة على المكانة في السلك العَسكري، من مثل الكَتفية،[973] في وقت سَابقٍ، أُعِيد العَمَل بها ثَانيةً.[974] وصارت «المُساواتية»، التي تَنصّ على تَساوي العُمَّال في الأَجر بِصرف النظر عن مُستوى الكِفاية والمَهارة، فكرةً «يَسارية مُتطرفة».[975] إذ سَخَرَ منها بوصفها «مُتاجرةً بِالمساواة»،[976] ودافع عن فكرة اِمتلاك المواطنين لِقطعان الماشية الخاصَّة بهم؛ «الفرد، بعد كُل ذلك، هو فرد يُريد أنْ يَمتلك شيئًا خاصًّا به». وليس هناك «خَطأ في ذلك».[977]

كان هناك في الماضي سقفٌ أقصى لِلأجور يُحدده الحزب، حتى لِمن يَشغلُ القِمَّة.[978] لَكن هذا الشيء أصبح طي النسيان. إذ أَلح ستالين، وفقًا لِعالم الاِجتماع، جوكا غروناو، على «مُكافأة المَهارات والجُهود الفَردية بأجورٍ أعلى، وحوافز مادية أُخرى. بَات ضَروريا الآن، من وجهة نَظر ستالين، تَشجيع العُمَّال على تَنمية اهتمامهم الشخصي بِمُحصلات عَملهم».[979] فازدهرت، تَبعًا لذلك، أحوال مئات الآلاف من اللاعبين. لَكن ما نفع المَال في ظِل شِحة السلع الدالة

---

(972) *Caviar with Champagne*, Jukka Gronow (Berg, 2003), p. 5.

(973) نَسيج مُقصَّب على كَتف السَترة العَسكريَّة (المُترجمة).

(974) *Everyday Stalinism*, pp. 106–107.

(975) *Communism*, Richard Pipes (Weidenfeld & Nicolson, 2001), p. 57.

(976) *Why Nations Fail*, Daron Acemoglu and James A. Robinson (Profile, 2012), p. 129.

(977) *Revolutionary Russia 1891–1991*, Kindle location 2844.

(978) *Revolutionary Russia 1891–1991*, Kindle location 2755.

(979) *Caviar with Champagne*, Jukka Gronow (Berg, 2003), p. 12.

على المَكانة التي يُمكنهم إنفاقهُ عليها؟ عندها «أدركت السلطات إدراكًا واضحًا الأَهمية القُصوى لِسِلعٍ ماديةٍ جَديدةٍ وعالية الجَودة إضافةً إلى توفير مَتاجر لِبيعها فيها».[980]

وتأسست صِناعة الشمبانيا السوفياتية في 1936 بعد تَدخلٍ شخصي من ستالين. كان أَجر مُدير الإِنتاج أَلفي روبل شَهريا، أي عَشرة أَضعاف عَامل المَصنع.[981] وبَدأ أيضًا إنتاج الخُمُور وأنواع البيرة والمَشروبات الكُحولية، وصَلصة الطَّماطم، والعُطُور والحَلويات وأَصناف الشوكلاته والمُثلجات، وأستوردت الحُكُومة ألف وأربعمائة طنٍ من حبوب الكَاكاو في 1934؛ وزَادت الكَمية إلى أحد عشر ألف طنٍ ومائة كيلو غرام في 1937،[982] إضافةً إلى اِستيراد «أشجار أعياد ميلاد السنة الجَديدة» بعد حَظرها في عهدٍ سابقٍ؛ إذ بيع في لينينغراد وحدها مائتان وَعَشرة آلاف شجرة في 1938.[983] وتَفاخر أحد مَتاجر البَقالة بِأنه باع خَمسين نَوعًا من الخُبز،[984] ومائتي نوعٍ من الحَلويات والشوكلاتة وثمانية وثلاثين نوعًا من النقانق، منها عشرين نَوعًا جَديدًا لم يَعرفها السوق من قبل.

وتَعاظم الاهتمام بِالنوعية والاِبتكار، المَدفوع، في العَادة، بِالمُوازنة المؤلمة مع مُنافِسيهم في الغَرب. كانت التقارير المُرسلة من المَناطق الرَّأسمالية تُسهب في وَصف الأَساليب التي يَعتمدها الأمريكان في إعداد خمسة آلاف شَطيرة همبرغر في الساعة، واِستعمال الألمان أدوات مائدة تُستخدم مَرَّة واحدةً: تُباع المُثلجات في ألمانيا بِأقداح وَرقية، ويُمكن في المَتاجر نفسها تناول النقانق بأطباقٍ وَرقية.[985] عَلينا أنْ نَنضم حالًا إلى نِظام المَتاجر الخاصَّة التابعة لِوزارة التجارة، إذ يُباع كُل شيء بِصحون وأكواب وَرقية. شَملت قائمة الاِبتكارات الرُّوسية مَظلة قَابلة

(980) المصدر نفسه، ص 13.
(981) المصدر نفسه، ص 22
(982) المصدر نفسه، ص 50.
(983) المصدر نفسه، ص 36.
(984) *EverydayStalinism,*Sheila Fitzpatrick (Oxford University Press, 1999), p. 90.
(985) *Caviar with Champagne,* Jukka Gronow (Berg, 2003), pp. 74–75.

لِلطَّي وأطباق حَرارية (تَبين بِأنها لم تُحرز النجاح التجاري المأمول).[986] وفُتِحت المَطاعم، التي سُمِح لِبعضها بِرفع الأَسعار بِنسبة 30٪ لِتَحسين النوعية والخَدمات المُقَدمة. وبَدأ بَعضها، الفَخور بِنجاحه، في تَقديم أنفُسهم بِصورة المُتَفوقين مِما أدى إلى تَوترٍ مُهلِك على الأرجح، إذ تَعرض المُشاركون المُتطلعون في ألعاب النجاح إلى الِانتقاد والإِدانة بِوصفهم «مَجموعةً من السراق ورجال العِصابات الفَاشية»، واتُهموا، حسبما ذَكَرَ جوكا غروناو، بِأنهم «يُقدمون دَعمًا قويًا لِسياسة مُكرسة لإِنشاء المَطاعم الفَاخرة».

وبَرَز تُسلسلٌ هَرَمي مُعقدٌ يَخصّ المَكانة في ثلاثينيات القرن العَشرين. ربما يكون ستالين قد أَقرَ بِوجود ثَلاث طَبقات، لَكن عُلماء الِاجتماع يُخالفونه الرَّأي، إذ يؤيدون وجود عشر على الأَقل، هي: النخبة الحَاكمة، وطَبقة المُثَقفين المتفوقين، وَطَبقة المُثَقَّفين العامة، وأرستقراطية الطَّبقة العَامِلة، والموظفون الإداريون (ذوو اليَاقات البيضاء)، والفَلاحين الأثرياء، والعُمَّال العاديون؛ والفَلاحون العاديون، والعُمَّال الفُقراء المُتضررون، والعُمَّال بِالسخرة.[987] تَقول شيلا فتزباتريك إن نِظام ستالين اعتمد [سياسة] «تَمييز مَنهجي مُبنية على الطَّبقة في جَميع السياقات المُهمة لِلحياة اليَومية: في التربية والتعليم والقَضاء والإِسكان وتَوزيع حُصص الطَّعام، وغيرها...وحتى الحَق بِالتصويت كان مَكفولًا لِلأفراد من الطَّبقات "الكَادحة"».[988] كان العَامل الشاب يَحظى بِامتياز إكمال دِراسته الجَامعية، وعُضوية الحزب الشيوعي وحُزمة من المَنافع الأُخرى في حين يُعاني ابن نبيلٍ أو قسٍ من مُعوقات وقيود مُقابلة. وَوَصل الأمر إلى تَوثيق الطَّبقة الِاجتماعية في جواز السفر.[989]

---

(986) المصدر نفسه، ص 94.

(987) 'Social Stratification and Mobility in the Soviet Union: 1940-1950', A. Inkeles, *American Sociological Review*, 1950, 15(4), 465–479.

(988) *Everyday Stalinism*, Sheila Fitzpatrick (Oxford University Press, 1999), pp. 11–12.

(989) *Caviar with Champagne*, Jukka Gronow (Berg, 2003), p. 12.

وكان التمييز حاضِرًا في مَنح عُضوية الحزب، وفي القُبول في الجَامعات أيضًا. وتَشتَمل الإجراءات الخَاصَّة بِذلك على تَقديم رَسائل تَوصية، وإستفسارات عن الخَلفية الِاجتماعية، ومن كان منهم من أُسرٍ عُمَّالية، فَحظهُ في القُبول أوفر.(990) وكانت الجَوائز في الفُنون تُحجز في الغَالب لِلفنانين من الأَقليات. اِشتكى أحدهم من «مَنح الأوسمة إلى الجميع، إلى الأَرمنيين والجُورجيين والأوكرانيين، ما عدا الرُّوس».(991) وحَصَل المُهندسون، وأفراد الطَّبقة المُثَقَّفة الجَديدة الصَّائبة سياسيا الذين نَالوا رِضا السلطات، على اِمتيازات خاصَّة.(992) ويُؤلف العُمَّال الصِّناعيون 40٪ من قوَّة العَمَل، لَكنهم يَستلمون قُرابة 75٪ من الطَّعام.(993) وحَسبما يَذكر غروناو، فقد اِمتد التنظيم الطَّبقي حتى إلى مُقاصف الطَّعام الصَّغيرة في مَواقع العمَل: «إذ يَحصل العُمَّال الأَهمُّ في المَعامل الأهم على أفضل الوَجبات بِأسعارٍ أقل».(994) وكانت هذه المَقاصف ذاتها تَتوزع غالبًا على ثلاثة أقسامٍ مَبنية على المَكانة: لقد «تَغلغَل مبدأ التدرُّج الهَرمي في جميع مَفاصل الحَياة-والمَقصود هنا هو المُكافآت المُتصلة بِالناتج المُتخيل المَبني على موقع العَمل موضوع التَقييم أو نوعه». اشترى ستالين «ولاء الطَّبقة المتوسطة الجَديدة «بالأوسمة والجوائز المُبهرجة»، وبِامتيازات حقيقية كذلك... الشيء الذي أَسهم في تَوسيع الفَوارق في المَكانة». وحَصَلت النُخب الجَديدة على شققٍ خاصَّةٍ، وكَانت السلع الأفضل تُحجز لهم تلقائيا،(995) وأولادهم يُرسلون إلى مُعَسكرات صيفية حَصرية،(996) وكانوا يَنعُمون أيضًا بِالعُطل والسيارات المُزوَّدة بِسواقٍ، وبالمَال. وبات «عاديا» بالنسبة إليهم وجود خدمٍ مُقيمين معهم لم يَكن العَديد منهم يُجهزون بأَسِرَّةٍ للنوم عليه، ويُجبَرون على النوم في المَطبخ، أو تحت الطَّاولة أو على الكَراسي. قال أحد

---

(990) *Everyday Stalinism*, Sheila Fitzpatrick (Oxford University Press, 1999), p. 16.

(991) المصدر نفسه، ص 168.

(992) المصدر نفسه، ص96.

(993) *Caviar with Champagne*, Jukka Gronow (Berg, 2003), p. 123.

(994) المصدر نفسه، ص 125.

(995) *Everyday Stalinism*, Sheila Fitzpatrick (Oxford University Press, 1999), p. 98.

(996) المصدر نفسه، الصَّفحتان 101-102.

المُشتكين الشجعان بِأنهم كانوا يَعيشون «حياةً أسوأ من "سَيدات" الأَزمان السابقة، أي زوجات المُهندسين، والأَطبَّاء، والكَوادر "المَسؤولة"».(997) وتمكن المُنتَفِعون من هذه الاِمتيازات من التغطية، إلى حدٍ ما، على التناقض الذي تَكشف عنه أسَاليب حياتهم المَرموقة بِذَريعةٍ فَحواها أن الشيوعية لا تُبيح لهم، عَمليا، أن يَمتلكوا أيا من هذه الخَدمات ووَسائل الرَّاحة، التي تَعود مُلكيتها إلى الدولة. الاِمتياز، بالنسبة لهم، هو القُدرة على بلوُغها والحُصول عليها لا اِمتلاكها– وإلغاء المُلكية الخاصَّة هو بَيتُ القَصيد من كُل هذا الأمر، أليس كذلك؟ وجَادلت الدولة من جانبها بِأن الاِمتيازات التي يَتَمتع بها أعضاء الحزب كانت مؤقَّتةً؛ وأن جميع سُكان الاِتحاد السوفياتي سيَحصلون قريبًا على ما يُماثلها. كَانت الفكرة السائدة أن هؤلاء لم يكونوا نُخبةً مُتميزة فحسب، بل كانوا الطَّليعة.(998)

بَاتت النخبةُ في الحزب الشيوعي، المُتضمنة لِفئة الإداريين والمَسؤولين العسكريين والحُكوميين من ذوي المَراتب المُتقدمة، يُعرفون «بِالطَّبقة الجديدة– nomenklatura». وفي حين كان الفَلاحون من فئة الكولاك يأكلون الحَشيش ولُحاء الشجر وبَعضهم بعضًا في ذروة المَجاعة في 1933، كانت قِطارات الترف والرَّفاهِيَة تَنقل أعضاء الحزب في العُطل إلى المُنتَجعات الصَّحية في الجَنوب.(999) تؤيد وثيقةٌ رسميةٌ واحدةٌ فحسب حَصيلة ما أُنفق في شَهرٍ واحدٍ في إحدى عَربات الطَّعام كالآتي:200 كيلو غرام من الزبدة، و150 كيلوغرام من الجُبنة السويسرية، و500 كيلوغرام من النقانق، و 500 كيلوغرام من لَحم الدجاج، و500 كيلوغرام أُخرى من أنواعٍ مُختلفةٍ من اللحُوم، و300 كيلوغرام من السمك (إضافةً إلى 350 كيلوغرام من السمك المُعلب و100 كيلوغرام من سمك الرَّنجة)، و100 كيلوغرام من الكافير، و300 كيلوغرام من السكر، و160 كيلوغرام من الشوكولاته والحَلويات، و100 صندوقٍ من الفَواكه،

(997) المصدر نفسه، الصَّفحتان، 99-100.

(998) *Everyday Stalinism*, Sheila Fitzpatrick (Oxford University Press, 1999), p. 105.

(999) *Caviar with Champagne*, Jukka Gronow (Berg, 2003), p. 127.

و60000 سيجارة. كَتَبَ أحد الأعضاء عن ذلك: «الطَّبَقةُ الجَديدةُ كوكبٌ آخرٌ. إنها المَريخ. لا يَتصلُ الأمرُ، بِسهولةٍ ويسرٍ، بِالسيارات أو الشقق الفَارهة. إنه الإِشباع المُتواصل لِنَزواتك، والطَّريقة التي يَسمح بها جيشٌ من لَاعقي الأَحذية لَك بِالعمل لِساعات من دون عناء أو ألمٍ. جميع الرِّفاق الصِّغار مُستعدون لِفعل أي شيء من أجلك. كُل رَغباتك مُجابةٌ. بِوسعك الذِّهاب إلى المَسرح متى تَشاءُ، وبِوسعك السفر إلى اليَابان من نُزل الصَّيد. إنها حياة يَنسابُ فيها كُل شيء بِسُهُولةٍ وأريحيةٍ... إنَك أشبه بِملكٍ: أَشِر بأصبعك فحسب، وسَيتم لك ما تُريد».[1000] بلغ عددُ أفراد الطَّبقة الجَديدة مع أُسرهم قُرابة الثَّلاثة ملايين، أي حوالي 15٪ من السكان عند اِنهيار الإتحاد السوفياتي، وهي نسبةٌ، حسبما يورد المؤرخ الأستاذ ريتشارد بايبس، «مُقارِبةٌ لِنسبة النبلاء في العَهد القَيصري في القرن التَّاسع عَشر. والاِمتيازات والمَنافع التي كانوا يَرفلون بها مُماثلة لِما كان يرفلُ به كِبار المَسؤولين في ذاك العَهد».

ما الخَطأ الذي حَدثَ؟ كان المُفترض بِالشيوعية أنْ تُقيم «مَملكة المُساواة».[1001] لا يَعود السبب إلى أن الاِتحاد السوفياتي كان سيءُ الحَظ لِان لينين وستالين توليا قيادته، أو لِأن طغيانهما الموبوء بالطَّبقية كان مُميزًا، بِطريقةٍ ما، لِشخصيتهما الثَّقافية؛ كلا، فَالتدرجات الهَرمية وأنواع الرُّعبِ والهَلع ظَهرت في كَمبوديا والصّين أيضًا. الوَاقع أن الخطأ الذي ارتكبه الشيوعيون يُمكن تَتَبعه إلى أفكار أفلاطون. إذ صَحح أرسطو، قبل الثَّورة الرُّوسية بألفي عام، الفكرة التي تَقدم بها أستاذه أفلاطون، اليوناني القَديم الذي كان أوّل من تراءى له الحُلم الشيوعي.[1002] إذ بَين أرسطو أن الثَّروة أو المِلكية الخَاصَّة ليست هيَ حقًّا من خَلقت الرَّغبة البَشرية الجامحة في المُضي قُدمًا. بل إن هذه الرَّغبة هي جزءٌ من طَبيعتنا: «ليست المِلكية، بل رَغبات الجنس البشري التي تقتضي بِأنْ نكون مُتساوين».

(1000) *Communism*, Richard Pipes (Weidenfeld & Nicolson, 2001) p. 65.

(1001) *Communism*, Richard Pipes, p 7.

(1002) المصدر نفسه، ص 3.

تكشفُ حِكاية الشيوعيين عن اِستحالة تَخليص الوجود البَشري من اللعبة. فَدافع المُضي قُدُمًا سَيبقى على الدوام يؤكد وجوده. إنه في داخلنا. إنه ما نحنُ عَليه. شَهدت العُقود الأولى من وجود الاِتحاد السوفياتي لعبة المَكانة بِتفاصيلها وسِماتها كَافة من نحو: تَعذر كَبتها ومُقاومتها، وقُدرتها على التسبب بِالعُنف؛ والفَخامة والمَهابة التي تَبعثها في نفوس اللاعبين والقَادة الفائزين، وحَتمية ظهور النخب، والشعوور بالنقص الذي يجعل الناس يؤمنون بِأنهم يَستحقون على الدوام مَكانةً أرفع، واستغلال الإذلال بِوصفه السلاح النهائي؛ والهَلع من أبناء العُمُومة وقُدرتهم الطَّاغية على الاِستبداد؛ وألعاب الحرب الأيديولوجية التي تَستعر في الأَقاليم العَصبية، وقابليتنا على تَصديق أي شيء عن الوَاقع لو أن مَكانتنا تَعتمد عليه، وقُدرة هذا الحلم على تَشويه تَصوّرنا عن الواقع، وخَطر الإِيمان الشديد، واختراع لُغة خاصَّة، وحماس القَادة الذين يَعرضون رؤى عن المَكانة السماوية في الأراضي المَوعودة في المُستقبل، ويُشيرون إلى الأعداء المُتربصين بِصعودها، والغَضَب والحَماس اللذان يُوحيان بِهما؛ ودَورة النميمة، والحَنق، والاِتفاق، والعِقاب الأليم، والاِرتياب الهَذياني الذي قد يُصيب الزُّعماء، والهَلع الذي يُحدثهُ ذلك، والسحر القاتم للأخلاقية السمية، وخُدعتها الفاتنة التي تَجعل الشر يبدو فَاضِلًا، وضَرورة أنْ تُنتج الألعاب المَكانة لو رَغبت في الاِستمرار، وقُدرة حُمى المَكانة على تَغيير العالم.

يقول المِثاليون المُؤمنون بِالقصَّة، الذين يَتحدثون عن البَشرية، بِأنهم سَاعون بِالفِطرة إلى المساواة. وهذا غير صحيح. ويَتحدث الطُّوباويون الفاضلون عن الظُّلم والإجحاف في حين ينهمكون في تَشييد سلاسل هَرمية جديدة يَختارون لِأنفسهم القمَّة فيها. هذا السلوك متأصلٌ في طَبيعتنا، إذ لا يُمكن أبدًا القَضاء على هذه الرَّغبة في المَنزلة والسؤدد. إنه الهَدف السري لِحيواتنا: أنْ نحوز المَكانة لِأنفسنا وألعابنا، والظَّفر بأكبر قدرٍ منها على حِساب الجَميع. هذه هي الطَّريقة التي نَعتمدها في صُنع المَعنى. إنها أسلوبنا في صُنع الهوية. إنها أسوأ ما فينا، وأفضل ما

فينا؛ وهي حَقيقتنا التي لا مَفر منها: ستبقى المُساواة دائمًا حُلمًا مُستحيلًا بِالنسبة لنا.

الفصل التاسع والعشرون

القواعد السبع في لعبة المكانة

إن المُتعة التي تَمنحها المَكانة هي الجائزةُ التي نَحصل عليها لقاء مُمارسة اللعبة على وفق قَواعد الحَياة البَشرية. يَجب على الطَّبيعة أنْ ترشونا من أجل أنْ نَتحمل الأفعال الضَّرورية لِبقائنا وَتكاثُرنا، مع غرابة هذه الأفعال وعُرُوضها المُرعبة. فلِكي تُقنعنا بِمُمارسة العلاقة الحميمة، اخترعت الطَّبيعة الرَّعشة الجنسية. ولِإقناعنا بِالتضحية بِراحتنا من أجل العِناية بِطفلٍ صغيرٍ باكٍ ومُلطَّخٍ بالغائط، صَنعت الطَّبيعة الحُبَّ. وَمن أجل حَثنا على إدخال موادٍ غريبةٍ مَهروسة في بَلاعيمنا، قَدمت الذَّوق والشهية. وابتغاء اِستدراجنا إلى الاِنخراط في العيش المُشترك الجَماعي، ابتكرت مُتع التواصل والقُبول القَسرية. أتبع لقَواعد، والتزم بها اِلتزامًا كَاملًا، وعندها بوسعك أنْ تتوقع الشعور بِالعَظمة.

إلا أن في لعبة الحياة، مثلما اكتَشفنا، قَواعد ومَصائد مَخفية. وعَددٌ غَفيرٌ من مُشكلات الوجود الاِجتماعي ينشأ في الاِنفصال بين الواقع والوَهم، إذ يَخدعنا الدماغ بِدفعنا إلى تَصديق أساطير جماعاتنا وتَحيزاتها، وإقناعنا بِأننا لسنا محض لَاعبين يَشتركون في الألعاب، بل إننا أبطالٌ أخلاقيون في قِصصٍ. وهذا يَجعل نَوعنا البَشري عرضةً للإصابة بِالغرور والوَهم والتصرف بِعدوانية. ومع اِستمرارنا في اللعب من أجل الظَّفر بِمكانةٍ أسمى وأرفع لِأنفسنا وألعابنا، نَنهمك في نَسجِ تَفاصيل حُلمٍ مُلهمٍ ومُحفزٍ لنا ويُحقق مَصالحنا الذَّاتية، ومُحتشدٍ بِالقِديسين والشياطين والمُعتقدات غير العَقلانية. يُقدم هذا الحُلمُ لنا بِوصفه حقيقةً؛ وهو مُقنعٌ تمامًا في جميع تنويعاته وصَخبِهِ ومحور اهتمامه البِدائي. الأدلةُ على أنه صحيحٌ

موجودةٌ حولنا في كُل مكانٍ. إنهُ قادرٌ على اِستدراجنا إلى أفعال الكَراهية والوَحشية الأخس والأرذل. لَكنه قادر أيضًا على أنْ يقودنا إلى أساليب في اللعب تُسهم بِالفعل في جَعل العالم أفضل. وإذا كان الحُلمُ مُقنِعًا إلى هذه الدرجة، كَيف لنا أنْ نَعرف أن الألعاب التي نَشترك فيه صَحيحةٌ؟ وكَيف نَفوز بها نَحتاج الفوز به عند مُمارستنا لها؟ ومن أجل تَحسين مستوى حياتنا، وحماية أنفسنا من المَخاطر، بِوسعنا أن نَحفظ القَواعد السبع الآتية.

1

مَارس المَودة، والصِّدق، والكِفاية

مُنذُ أيام قبيلة الصَّياد-جامع الثِّمار، كان زُملاؤنا اللاعبون يَمنحون الهيبة والاِعتبار والسؤدد بِحرِّيةٍ وطواعيةٍ. ومن المُحتمل أنْ تُمارس الأساليب التي نُقدم بها إلى الناس في المُناسبات الاِجتماعية تأثيرًا هائلًا في مقدار الهَيبَة التي يَمنحونها لنا. يُناقش عُلماء النفس الذين يَدرسون التقديم الذَّاتي الأَمثل مجموعةً من الأفكار المُتصلة اِتصالًا وثيقًا بِهذا الجَانب. تقول أستاذة علم النفس، سوزان فيسك، إن الناس يَستعلمون عن شيئين أساسيَن يَخص الأشخاص الذين يُقابلونهم، هما: «ما مَقاصدهم؟» و «ما قُدرتهم على بلوغها؟»(1003) وإذا أردت أنْ تُقدم الجَواب الصَّحيح، وتَحظى، بالتالي، بِالترحيب والقُبول، لاحظت فيسك أن علينا أنْ نتصرف بأساليب تَدل على المَودة والكِفاية.(1004) وجرى الحَديث، في المُدة الأخيرة، عن ضرورة إضافة مُكونٍ ثالثٍ. فالأخلاق «ليست بُعدًا حاسمًا وقابلًا للفصل فحسب»، من وجهة نَظر الأستاذة جينيفر ريَ، بل «قد تكون البُعد

(1003) 'The role of morality in social cognition', J. L. Ray, P. Mende-Siedlecki, A. P. Gantman and J. J. Van Bavel (in press), in *The Neural Bases of Mentalizing*, K. Ochsner and M. Gilead (Eds.) (Springer Press).
(1004) 'Universal dimensions of social cognition: Warmth and competence', S. T. Fiske, A. J. Cuddy and P. Glick, *Trends in Cognitive Sciences*, 11, 77–83.

الأساسي». وذَكرت دِراسات أُخرى أن «الصَّدق المُتخيل» هو أحد «العَناصر الجوهرية في نَجاح "إدارة الاِنطِباع"».(1005)

ولو تَعاملنا مع الأَفكار من منظور لعبة المَكانة، فإني أظن بإمكانية اِستقرارنا اِستقرارًا نافعًا على ثَلاثة أبعاد مهمة في اللعب الناجح، هي: المَودة والصَّدق والكِفاية. تُؤلف هذه الأبعاد أحد أنواع التوجيهات الثُّلاثية المُباركة لِلسُلوك البَشري. ومع أن الحَديث عن هذا الثُّلاثي هو، بلا أدنى شك، أَسهل من تَطبيقه، إلا أنه، على الأقل، يُقدم لنا مِثالًا نرنو إليه. وثَمَّ، على حد عِلمنا، ثلاثة مَسارات رَئيسة تؤدي إلى المَكانة في الألعاب البَشرية: إذ يُمكِنَنا خَطفها في أفعال الهَيمنة، أو بِوسعنا نيل الهَيبة بالبَرهنة على فائدتنا لِلجماعة بإتيان أفعال تَدل على الفَضيلة أو النجاح. إن إظهارنا المَودة هو تَلميح ضمني إلى عدم نيتَنا اللجوء إلى الهَيمنة، وتَحلينا بِالصَّدق يعني التزامنا باللعب بِعدالةٍ واِستِقامةٍ، وتَمَتُعنا بالكِفاية هو مؤشرٌ على فائدتنا لِلعبة ذاتها في مَعاركها الرَّامية إلى المَكانة، وللاعبين الآخرين أيضًا الذين قد يَتعلمون الدروس منا. وتَختلفُ قليلًا قاعدة المَودة والصّدق والكِفاية في

(1005) 'Impression mismanagement: People as inept self-presenters', J. Steinmetz, O. Sezer, C. Sedikides, *Social and Personality Psychology Compass*, 2017: 11:e12321.

تَتناول هذه الوَرقة البحثيَّة الرَّائعة صِفات 'الغُرور والتفاخر المُغلف بالتواضع والمُجاملات الخادعة' بِوصفها اِستراتيجيَّات يستثمرها الناس لِتقديم صورةٍ إيجابيَّةٍ "تَنتهي بِالفشل في العادة." وخَلَصَ الباحثون إلى "أن الناسَ مُديرُو اِنطِباع فاشلون لِلغاية." وإحدى المُشكلات المألوفة هي أننا ضُعفاء في التنبُؤ بالتأثيرات العَاطفيَّة، التي يُخلفها توطيدنا لِلمكانة الذَّاتيَّة، في نفوس جُمهورنا. إننا نَحسب أن ما يجعلنا سُعداء سَيُسعد غيرنا تِلقائيًا. لَكنه لن يَفعل ذلك. وهو يُمثل أيضًا سوء فهمٍ جوهريّ لِلَعبة: فالمكانة المَبينة على النجاح يَمنحها الآخرون، والفائز لا يُعلن عنها.

يُمكن إضافة مُلاحظتين إشكاليتين إلى ما ذُكِر أعلاه. فَالناس، أوَّلًا، لن يكونوا قُساةً للغاية إذا ما اِدعينا أن الفَضل في نَجاحنا يعود إلى العَمل الجَاد لا إلى المَوهبة الفِطريَّة التي قد تبدو غير مُستحقة تَمامًا، ولِذا، أكثر تَسَبُبًا بِالحُنقِ الغَضب. الشَّيء المُفرح، ثانيًا، هو أننا لا نُحسن التنبُؤ بالنتائج التي سيؤول إليها اِعترافنا بالفشل؛ إذ يَميلُ الناس إلى الاِعتقاد أن المُراقب لهم "سَيكون أقسى في الحُكم عليهم على حوادث مؤسفةٍ وحالات فشلٍ مما عليه الحال في الواقع." ومع ذلك، وما لم نَتفاخر بِمُنجزنا أمام والِدينا، مَثلًا، أو شَريكنا العاطفي، إذ يُرجح أنْ تَتسلل قُطيرة ذهبية لامِعة من المكانة التي فِزنا بها مُؤخرًا، وتَصب في مَجراهم بِفضل مبدأ المكانة المُتسرِّبة، فإن فرص شُعُور جمهورنا بِالسَّعادة لِانتِصاراتنا قَليلةٌ لِلغاية.

حالة القادة. ففي حين تَتسمُ المودة، بلا أدنى شك، بِأنها مُستحسنةٌ لا سيما عند التعامل مع النخب المُدللة، الأهمُّ منها، ربما، هو إظهار الحَماسة والإِندفاع بالإِنابة عن اللعبة. لقد نَجح القادة، في التاريخ المَديد، لِأنهم كانوا يَسردون قصَّةً تقول إن جماعتهم تَستحق مَكانةً أرفع، وإنها سَتظفر بها في ظل قيادتهم. مع ذلك، لا بد من الحذر لكيلا يَتَحول هذا الإِتقاد والشغف إلى غرورٍ وغَطرسةٍ. لا أحد يُحِبُّ الناجحين لِلغاية.

2

أصنع لَحظات قَصيرة من الهَيبة

خَلقُ لحظات صَغيرةٍ من الهَيمنة أمرٌ في غاية السُهُولة. ركزنا في دِراسَتنا على لعبة الهَيمنة في بعضٍ من أوضح وأقوى مَظاهرها. فالمسؤولةُ في سُلطة الميناء وصَديقة العُمدة، كارن تيرنر، والحُشود الرَّقمية، والقَتَلة، وأبناء العُمُومة المُتَسلطين في التاريخ كُلهم حاولوا بُلوغ مَنزلةٍ رفيعةٍ بالقوَّة. ونحنُ مَثلهم مُعرضون، في اللحظات الجامحة، إلى الانِزلاق إلى داخل هذه الحالات الثَّانية، وارتكاب الأخطاء التي قد نَندم عليها طَوال الحياة. إلا أن تراكم الضَّرر الذي قد نَتَسبب به في لَحظات الهَيمنة الوَاضحة له تَبعاته أيضًا. فتَجهُّم الوَجه والتأوَّه ونَحيب الشكوى كُلها اِختلاجات حيوانية قد تُساعدنا في تَحقيق بَعض الأهداف الآنية مع أنها سَتؤدي أيضًا إلى الحَطِّ من مَنزلتنا عند الآخرين. وحالات التوتر عديمة الجَدوى هذه هي نتاجٌ مُعتاد لِدورة مُمارسة اللعبة التي لا تتوقف أبدًا. إذ إننا دائما ما نُقحم في مُنافسات وسِباقات عَقيمة في المُستوى المَحلي الخاص. ربما نتذكر أن الشخص الذي نَتعامل، عند وقوفنا في طابور التفتيش في المَطار أو في مركز الإِتصالات الهَاتفية، معه قد يَكون فَظًّا أو مُحبًّا لِعرقلة الأمور، إلا أننا لَسنا مضطَرين إلى التعامل مع الأمر بِوصفه تَحديًا لِمنزِلتنا. بِوسعنا أنْ نَتغلب تَغلبًا واعيًا على أية رغبةٍ

مُلحةٍ في إظهار الهَيمنة، والاِستِعاضة عنها بِاستجابة مُحترمة ووقورة بتَقديم فروض الاِحترام للمَعنيين والإشادة بِجهودهم. ومع أن اِحتمال فَشلنا في الظَّفر بما نُريده واردٌ (مع إمكانية تَحسن فُرصنا في ذلك)، لَكننا، على الأقل، سَنخلق شعورًا جيدًا لدى الآخرين- ولدى أنفسنا- بشأن هويتنا بوصفنا أشخاصًا. وتَراكم مَظاهر الهَيمنة، في هذه الحالة، هو تَراكم لِلهيبة والاِعتبار، الشيء الذي يؤدي إلى تَميزٍ هائلٍ، على الأرجح، في السمعة بِمرور الوقت، مع ما يُصاحب ذلك من جوائز ومُكافآت.

من السهلِ علينا أنْ نَنسى أن بِحوزتنا مَكانةً يُمكننا مَنحها، وأنها لا تُكلف شيئًا ووفيرةٌ لا تنفد. وخَلقُ لَحظاتٍ صغيرةٍ من الهَيبة يعني على الدوام البحث عن فرصٍ لِاستِخدامها. والسماحُ للآخرين بِالشعور بِمَنزلتهم يُعزز من اِحتمالات قُبُولهم لِتأثيرنا. وسواء أَكنا نَنشدُ مَعروفًا أو نُكلف تَابعًا لنا بمُهمةٍ، فمن المُستَحسن الإِحجام عن إبداء حتى مَعلمات الهَيمنة الواضحة، والاِكتفاء بِالسماح لها بِالتوصل إلى القَرار «الصَّحيح» من دون تَعريضها لِلضغط. ولو أَحس الآخرون أن لا خيار لهم في المَسألة، فِأنهم عندها يُجردون من هِبة الشعور بِالرِّضا عن فِعلهم. وتَعتمد كَيفية قيامك بِذلك على قَواعد ثَقافتك، والتَغير لا سيما عند الاِنتقال من الغَرب إلى الشرق.(1006) لاحظ البَاحِثون، مع ذلك، أن «اِستحضار الحُرية» في المُجتمعات الفَردانية له قوّة إقناع هائلة، مثلما يَتبين في دِراسةٌ كَشفت أن إخبار أشخاصٍ غُرباء بِأنهم «أحرار في قُبول أو رَفض» طَلبِ لِلمال لِدفع أُجرة الحَافلة أَسهم في رفع مُعدل الاِمتثال من 16٪ إلى 40٪.(1007) وأحسب أن الشيءَ

(1006) 'Cross-Cultural Investigation of Compliance Without Pressure: The "You Are Free to" Technique in France, Ivory Coast, Romania, Russia, and China', A. Pascual, C. Oteme, L. Samson et al., *Cross-Cultural Research*, 2012, 46 (4):394–416.

(1007) 'I'm free but I'll comply with your request: generalization and multidimensional effects of the "evoking freedom" technique'. N. Guéguen, R. V. Joule, S. Halimi-Falkowicz, A. Pascual, J. Fischer- Lokou and M. Dufourcq-Brana (2013), *Journal of Applied Social Psychology*, 43: 116–137.

ذاتهُ حاضرٌ في المَكانة؛ فِإذا شَعرَ بَعضَهُم بِأنه مَجبورٌ على فعل الشيء «الصَّحيح»، حتى لو حَدثَ ذلك بِأسلوبٍ لَطيفٍ، فِأنهم يَفعلون ذلك بِسبب الهَيمنة فَحسب. وهذا يَدل على أن المَكانة ليست مُلكهم لِيَتَمتعوا بها، بل هي تَعود إلى اللاعب الذي يُذعِنون إليه. لَكنهم لو صَدقوا بِأنهم كانوا أحرارًا في قرارهم، فِأنهم عندها لن يكونوا ضُعفاء، بل فُضلاء، وبالنتيجة، يَتمكنون من أنْ يَستَمتعوا اِستمتاعًا مُستحقًا بِالمُكافأة المُتأتية من تَصرفهم الكَريم.

3

ألعب مع التسَلسُل الهَرمي لِلألعاب

الاِستبداد هو إحدى أعظم المَخاطر في لعبة الحياة هذه، ومُقاومته يعني إدراك أن هذا الاِستبداد هو لُعبةٌ مُسليةٌ. فهو يُغوينا بِوهج المَكانة المُتميزة. والقَادة لا يُحرزون النجاح عندما يُخبرون الناس بِأنهم مُخطئون لا سيما في العصر الحَديث مع الميل إلى خوض الحُروب لِلاستيلاء على أقاليم نَفسية لا على أقاليم طَبيعية. لَكنهم يَستهلون تَعاملهم مَعنا بإخبارنا ما نَعرفه سَلفًا، ولذا، تَكون حُجَجهم وأفكارهم أخلاقية في طابعها. فَمنْ بوسعه الوقوف بوجه القضاء على الاِستغلال القاسي لِلجماهير الرُّوسية؟ أو من بِقدرته مُعارضة تَطوير الاقتصاد الألماني واِستعادة الكِبرياء الوطنية، والقَضاء على التهديد الشيوعي؟ وهل يُمكن لأحدٍ الاعتراض على مُحاربة اِستغلال الأطفال؟ يُقدم النازيون والشيوعيون وصَيادو الشيطان ألعابًا تَبدو فاضلةً ومُتفائلةً. ويُلقي القادة قصَّة على مَسامع لاعبيهم مؤاتيةً لِرغباتهم. إذ يُخبرونهم بِأنهم على حقٍ، وأنهم أَبطالٌ أخلاقيون ماضون في طريق المَجد والاِفتخار إلى الأرض الموعودة حيث المَكانة الرَّفيعة في اِنتظارهم. ويَختبر اللاعبون الحُلم الذي بَاعهُ لهم القادة بِوصفه حقيقةً: إنهم يؤمنون إيمانًا صادقًا ومُطلقًا بِأنهم كانوا إلى جانب الحقِّ.

وفي ظِل قُدرة اللعبة على تَشكيل تَصوُّرنا عن الوَاقع، كيف يَتسنى لنا أنْ نَعرف إذا ما كُنا قد تَعرضنا لِلخداع؟ يُمكن معرفة نَوع اللعبة التي نَشترك فيها بِمراقبة الأَساليب المُعتمدة في مَنح المَكانة. أشكالُ الاِستبداد هي ألعاب فَضيلة وهَيمنة، والجزءُ الأكبر من لَعبها وحديثها اليَومي سيُركز على مسائل الطَّاعة والإيمان والأعداء. هل تُكره اللعبة، التي تُشارك فيها، الناس سواء في داخِلها أم خارجها، على الاِنصياع لِقواعدها ورُموزها؟ هل تُحاول كَتم أَصوات خُصُومها الأيديولوجيين؟ هل تَروي قصَّةً يَسيرةً في مَضمونها تَشرحُ فيها التدرج الهَرمي، فَتُعلي من شأن جَماعتها في حين تُشيطن عَدوًّا عامًّا؟ هل الأشخاص المُحيطون بك مَهووسون بِمُعتقداتهم المُقدسة؟ هل يَتحدثون عنها بِاستمرارٍ ومُتعةٍ جياشةٍ، ويَنهلون مَكانةً مُعتبرةً من الإيمان والإيمان الفاعل بها؟ هل تَسعى اللعبة إلى تَدمير الحيوات وإتلافها بِتَلذذٍ في العادة؟ هل يَتلبس العُدوان لُبوس الفَضيلة؟ هذا، على الأرجح، اِستبدادٌ. قد يَبدو هذا الأمر مُثيرًا للعواطف والأحزان مع أننا جَميعًا لَدينا القُدرة على إتيان هذا النُوع المُريع من اللعب: إن أبناء العُمُومةِ هؤلاء مُتجذرون في داخل بنائنا الترميزي. وإذا كُنا جادين حَقًّا بِشأن «لن يحدث ذلك مرَّةً أخرى أبدًا»، فَيَجب علينا أنْ نُقرَّ أن الاِستبداد ليس «يَساريا» ولا «يَمينيا»، بل هو شيء بشري. إنها لا تَظهر في الشوارع بِصُفوفٍ مُرعبةٍ وهي تَمشي مَشيَة الإوزَّة، بل تُغرينا وتَستميلنا بِالقصص.

وَمُمارسة العَديد من الألعاب هو، ربما، النمط الأفضل لِلحماية. لقد اِستثمر الناس، الذين يبدون مَغسولي الدماغ، مَقدارًا كَبيرًا من هويتهم في لعبة واحدةٍ يَّعتمدون عليها اِعتمادًا كُليًا في تأمين عَلاقاتهم ومَكانتهم التي يَقتضي الحِفاظ عليها وإدامتها مِنهم أنْ يؤمنوا إيمانًا مُطلقًا بِحُلمُها عن الواقع مَهما كان خياليا وَوهميا. ولا يُعرضهم هذا لِخَطر الإساءة إلى الآخرين وإيذائهم، بل إلى اِحتمال تَعرضهم أنفسهم لِانهيار كارثي. إذ قد تَتفكَّك هويتهم- وذَاتهم الخاصَّة- إذا ما تَداعت اللعبة أو طُرِدوا مِنها. ولن يُحيق هذا الخَطر باللاعب مُتعدد الهَويات الذي يَشترك

في ألعابٍ متنوعةٍ. والواقع أن فَعل ذلك يَبدو جيدا لِلغاية لنا. وَجَد عُلماء النفس أن أصحاب الهَويات الذّاتية المُتعددة و«المُعقدة» يكونون، في الغَالب، أسعد وأصح جَسديا، ويَنعمون بِحياةٍ عاطفيةٍ أكثر اِستقرارًا.[1008]

ومن المُهم أيضًا أنْ نَتَجنب مُمارسة كُل لعبة بِالقدر ذاته من العِناية والتركيز. وإذا أردنا أنْ نَحظى بِالمَهابة التي نَتوق إليها، فَعلينا السعي لَتقديم فائدةٍ حقيقية إلى زُملائنا اللاعبين. وهذا يَستغرق وَقتًا، ويَتطلب مقدارًا من اليَقَظة المُتشبثة لِمسعى واحدٍ على حساب المَساعي الأُخرى. يَنبغي تَنظيم الحياة، عندها، في شَكل سِلسلةٍ مُتدرجة من الألعاب، مع بَذل من يَشغلون القمَّة الجُهد الأكبر وإنتاجهم المَعنى الأَمثل.

4

قَلص مَساحة مضمارك الأَخلاقي

الحُصُول على بعضِ أشكال المَكانة أَسَهلُ من غيرها. فَمن لم يَنعم بِالجَمال مِنا، ربما تَكون الفَضيلة اللعبة الأسهل لِلاشتراك فيها. إنها سَهلةٌ بِقدر سُهولة الحُكم على الناس: ولِأن المَكانة نَسبية، فَإن مَهانتهم وتَداعي مَنزِلتهم يعني اِرتقاء مَكانتنا، وإنْ حدث ذلك في عُقولنا فَحسب. لَقد وَضعت الهَواتف الذَّكية وَوسائل التواصل الاِجتماعي ألعاب الفَضيلة العَالمية في جُيوبنا. والفوز بهذا النوع من المَكانة أَيسر وأريح حاليا من ذي قبل. لَكنه يُكلف لا سيما من حيث البؤس الذي قد يُسببه للآخرين عندما يَكون مَمزوجًا بالهَيمنة. وبوسع الكَثير منا الاِنتفاع من التقليص الواعي لِمضمارنا الأخلاقي. كَمْ من الوقت تُكرس لِلُحكم على الآخرين؟ ما مِقدار المَكانة الرَّخيصة والمُلوثة التي تَختطفها لِنفسك بِفعلك ذلك؟ يَعني تَقليص مِضمارنا الأخلاق أنْ نوجه أنظارنا إلى ما في داخلنا، وأنْ نَنشغل

(1008) *Happiness*, Daniel Nettle (Oxford University Press, 2005), pp. 156, 175.

أغلب الوقت بِسُلوكنا لا سُلوك الآخرين. إنه يعني الكَف عن الإدانة العارضة للاعبين البَعيدين الذين يَعيشون أَحلامًا مُختلفة نَرفض أنْ نَفهمها، ويَسهلُ علينا الِاستخفاف بها وكَراهيتها.

مكتبة
t.me/soramnqraa

5

نَمي عَقلية المُفاضلة

تُسممُ الأَخلاقُ التقمصَ. ولِأن عَوالم الحُلم التي نَعيشُ فيها تَبدو حقيقيةً وصَادقةً، نُصدق أن المُعتقدات الأخلاقية التي تُشكلها هي كَذلك حقيقية وصادقة مثلم لو أنَها أشياءٌ تُستخرج من باطن الأرض يُمكن لِلجميع ملاحظتها طَالما نُقدم الحُجج الصّحيحة. لَكن «الحَقائق» الأخلاقية موجودة في الدماغ حَصرًا، وإِصرارنا على وجودها المَادي يُعمينا عن اعتبار مَنظورات الآخرين؛ فإذا كان واقعنا الأَخلاقي هو الواقع، فلا بُد من أن واقعهم كَذبةٌ. وتَبعًا لِذلك، فَهم كاذبون، وأشرار.

ويَدفعنا نَمطُ التفكير هذا إلى الخَوض في أسئلةٍ ومسائل لا جواب لها. فالسؤال إذا ما كانت الهَجرة أو الليبرالية المُحدَثة أو الدين «جيدة» أو «سيئة» لا مَعنى له. إنها لعبة مَكانة خالصة تَعتمد فيها الفِئة الأَخلاقية التي نَنسبها لها على نُوع اللعبة التي تَوافق إِشتراكنا فيها. وحَقيقة ظواهر مُعقدة مثل هذه هي أنها في الغَالب مُفاضلات: إذ إن لها طَيفًا من التأثيرات الإِيجابية والسلبية التي تؤثر في ألعاب مَكانة متنوعة بِأساليب مُختلفة.

يَجب علينا أنْ نُنمي ونُطور عَقلية مُفاضلة بَدلًا من القِتال لِجعل حَقائقنا الأَخلاقية تُصنف على أنها حقيقية ماديا ومُبجلة تَبجيلًا مُطلقًا. وهذا لا يعني النظر إلى العَالم بِصيغ الرَّابحين والخَاسرين، بل بِصيغ جَماعات تُفاوض على مُفاضلات. إنه يَعني تَجاوز المُتَخَيل النفعي الذي يُقسم العالم إلى أبطال أَخلاقيين

وأوغاد، وتَدبر الطَرائق التي قد تؤذي بها النتائج المُختلفة أعداءنا الذين يتألمون مَثلما نتألم. ويَعني أيضًا التقمص، أو المُحاولة الصَّادقة لِفهم الألعاب التي يُمارسها أعداؤنا، والاِعتراف بِمعاييرهم في اِدعاء المَكانة، حتى لو لم نَتمكن أبدًا من إقناع أَنفسنا بِصحَّتها.

يَنهمك كُل طَرفٍ، في أكثرية الأحيان، وفي أشرس الصِّراعات وأقساها، في سَردِ قصةٍ تَحملُ جانِبًا من الحَقيقة. نُلاحظ ذلك في السرديات المُتصارعة بين اليَسار الجَديد واليَمين الجَديد اللذين يَنسجان حُلمًا صَحيحًا وخاطئًا في الوقتِ نفسهِ: الحَقيقة الناصعة هي أننا في حاجةٍ إلى الاِطمئنان إلى أن جَميع الفُرص مُتاحةٌ للأقليات كي ينجحوا ويَزدهروا مثلما أننا بحاجةٍ إلى أنْ نفهم أن التغريب الذي يَشعر به البيض والمحتاجون حقيقي، وهو يؤذيهم.

يَجِب علينا مُحاربة التشدد الذي يُتهم الجَانبان بِمُمارسته. فالهَجرة ليست «جيدةً» أو «سيئةً»، بل هي صفقةٌ تُؤثر في أطيافٍ متنوعةٍ من البشر بأساليب مُتباينة. وبوسعنا أنْ نَنجح، على الأغلب، في العُثور على طريق التقدم إلى أمامٍ لو اِستجمعنا الحكمة اللازمة لِلنظر عبر الصُّورة الساخرة الأخلاقية وفهم أن العالم لا تَسكنه التنانين وَقَاتلوها، بل يَسكنه لَاعبون يَتفاوضون على أشياء يُمكن المُفاضلة بينها.

6

كُنْ مُختلفًا

قد تَكون الحَياة في لعبة المَكانة قاسيةً وصَعبةً لا سيما في العالم المُفرط في فردانيته والليبرالي المُحدث الذي نُمارس فيه ألعابنا في الوقت الرَّاهن. وتَرى الأبحاث أن هذه اللعبة مُستمرَّةٌ في تَغييرنا: فَنحنُ أكثر حَساسيةً لِعَلامات الفَشل في بيئتنا، الشيء الذي يَجعلنا نَتوخى دَرجةً أعلى من الكَمال. والمَعايير التي نعتمدها في القول

بِأننا جَديرون ونَستحق الأفضل مُرتفعةٌ، إذ لا نَقبل بِأقل من الكَمال.

مع ذلك، ثَمَّة طريقةٌ أُخرى. يَتحدث عُلماء النفس عن إمكانية الفوز بالمكانة المَبنية على النجاح بِفضل الإِنخراط في «أفعال عدم اِمتثال صَغيرةٍ لا تَنتهك مَعايير الجَماعة الأساسية الخاصَّة بالسلوك، بل تَلفت الإِنتباه لنا».[1009] يَتطلب فعلُ الأشياء، التي تَرغب بها، منك خيالًا وشجاعةَ، ولديك فُرصة الصُّعود والإِرتقاء طَالما تَنجح في البَرهنة على فائدتك للجماعة، وتمتنع عن اِنتهاك القَواعد المُقدسة. وتَحليك بِالأصالة يَحد من قُدرة خُصومك على اللحاق بك. ولا بُد من أن هذا الشيء هو مَصدرُ راحةٍ للمَهووسين هَوسًا مَرضيا بِفشلنا في بُلوغ الكَمال. ومحاولة أنْ تكون مُختلفًا هيِ استراتيجية أفضل في العادة.

7

تذكر دائمًا أنك تَحلم

لعبة المَكانة هي مؤامرةٌ نَنضمُ إليها كي نَشعر بالأهمية. فَحالما تُشبعْ اِحتياجاتنا الأساسية إلى اِلبقاء، ونَرتبط بالآخرين في عِلاقات، ما يَتبقى لنا هو المُنافسة والسباق. ما الغاية من ذلك؟ ليس الأمر كما لو أن بِقُدرتنا التوجه إلى مُستودعٍ ما في الصَّحراء، وفَتح صُندوقٍ فولاذي، والعُثور على المَكانة في دَاخله. وليس لنا أنْ نَصطحب المَكانة معنا إلى السرير، ونمَنحها قُبلةً. إِننا نَختلقها، كما لو كانت سِحرًا، من تلك الرُّموز الوَفيرة التي لا تنفد: من التبجيل، والتأثير، والمال، والتملق، والتواصل البّصري، والمَلابس والجَواهر، والألقاب المِهنية، ومقادير عَصير البُرتقال، واليَسار أو اليَمين في الطَّائرة. إننا نَستثمر سَنوات حياتنا في مَشاريع تَفترسنا في أهميتها، ونَمضي في الاِتجاهات جميعًا صُعودًا ونُزولًا، وذِهابًا

(1009) *Status*, Cecilia L. Ridgeway (Russell Sage Foundation, 2019), p. 114.

وإِيابًا، وإلى الأعلى والأسفل. وفي حين نَواصل السعي في هذه الحياة، تَرانا نُحلق عاليا تارةً، ونَسقط تارةً أُخرى؛ اِنتصاراتنا مُبهجة ومُذهلة، وخَساراتنا مُحزنة وشَديدة الوطأة للغاية حد دَفعنا إلى الاِنتِحار، فَمرارة الموت تَبدو أَلذ طَعمًا من تَحمل الفَشل.

وفي حين يَتَعذر علينا تَعذرًا مُطلقًا عَزل أنفسنا عن اللعبة، يُمكننا اكتساب الحكمة من إدراك وجودها فَحسب. في السنوات التي قَضيتها لإِجراء هذا البحث، وَجدت الرَّاحة في مَعرفة هذا الأمر الذي تَجلى في عددٍ متنوعٍ من السياقات. فأنا أَكتبُ أليك في عامي الخَامس والأربعين. قبل وقتٍ ليس بالطَّويل، كُنت أشعر شُعورًا واعيا أحيانًا بِعمري والعَلامات المُتنوعة الدالة عليه. وأَفهم الآن أن هذه العَلامات هي رُموزٌ في لعبة ليس مَطلوبًا مني بَعد اليَوم الاِشتراك فيها. فالتباري مع الشباب في ألعاب تَخصُّ هذه الفئة العُمرية ليس أمرًا لا رجاء فيه فَحسب، بل هو مُمل كذلك. والخُدعة هي العُثور على ألعابٍ أحدث وأفضل. فأمامك، في النصف الثَّاني من حياتك، عَوالم بِوسعك اِستكشافها، وهي أجدى وأنفع موازنةً بِالألعاب في النصف الأوّل، إِضافةً إلى أني أشد وعيا واِنتباهًا حاليا لِأفكاري وقُدرتها على التحوُّل إلى قصصٍ تَخدم مَصلحتي الذَّاتية. لاحظت بِأني اجترَّ التفكير اِجترَارًا مُتعسفًا بالأحداث، وأنسُجُ، آليا، حِكايةً أخلاقيةً تَكتظ بالأبطال والأوغاد حول إهانات صغيرة وعنوانات رئيسة عالمية. ومَعارك المَكانة حاضرةٌ على الدوام في قلب هذه الخَيالات التي تراودني عندما أشعر بالتهديد. وأنا الآن، بعد ملاحظتي لِا أفعله، أقدر على وضع حد له، والاِبتعاد عنه، واِستعادة ولو القليل من العَقلانية، على الأقل. ومثلما أنا مُدركٌ لِضعفي واِحتمال اِنجرافي إلى هوَّة الخيالات المَحفوفة بِالمَخاطر، فإِني مُدركٌ أيضًا لقدرة ر الجَماعات على فعل ذلك. لقد أسعَفتني مَعرفتي باللعبة، لا سيما في هذا العَصر الذي ما بَرح يَزداد غَضبًا واِنقسامًا، في أنْ أُراقب، بِإحساس أعلى بِالثِّقة، الأحلام الجَديدة المُنفلتة التي تَشكلت في الثَّقافة وسَحَرت الجَماهير. وأنا أقدر على الدفاع عن رأيي

في أن شروع الحُشود الكبيرة من الأذكياء في الإيمان بما يبدو شيئًا جنونيا لا يعني بالضَّرورة أنهم على صواب. فَحقيقة ضَخامة عددهم لا تعني زيادةً في مصداقيتهم، ويصدقُ الشيء ذاته على سَلطتهم، وأساليب تَعبيرهم أو ذكائهم. لقد فَسدت النخب وألعابهم في التاريخ البشري، وليس هناك سببٌ يُلزمهم بالتوقف في الوقت الحاضر.

وفي الخِتام، لقد تَعلمت تَمييز الوقت الذي تَغدو فيه ضُغوط اللعبة ساحقةً. في عالم الأحلام الغَريب والمُقلق هذا، نجد أنفسنا بِاستمرار أمام رموز جديدةٍ ومتحوّلةٍ لما يَعنيه أن تكون فائزًا: أنْ تكون أنحف، أكبر، أكثر بياضًا، أغمق لونًا، أذكى، أسعد، أشجع وأكثر حُزنًا مع *هذا* الِانتصار المِهني و*تلك* الأشياء المُشابهة. وأذكِر نفسي أن هذه الرُّموز التي نُطاردها ليست أقل سُخفًا وغرابةً من أشجار اليَام الضَّخمة، وأننا لا نَتنافس مع الجَميع في هذا العالم، بِصرف النظر عن شُعورنا بِهذا النحو.

وأحسب أن بوسعنا جميعًا أنْ نَجد العَزاء في معرفة أن لا أحد سَيصل إلى هناك أبدًا: لن يَصل المَشاهير ولا الرؤوساء ولا العَباقرة ولا الفنانون الذين نَنظر إليهم بِحسدٍ ورَهبةٍ. تلك الأرضُ الموعودةُ سرابٌ. علينا أنْ نُذكر أنفسنا، في أتعس اللحظات وأقساها، بِحقيقة الحُلم: إن الحياة ليست قصَّةً، بل لعبة لا نِهاية لها. ومعنى ذلك أن الِانتصار النهائي الحاسم ليس هو ما يَجِب علينا السعي إليه، بل التقدم اليسير والمُتواضع: المُتعة الدائمة المُتأتية من التحرك في الِاتجاه الصَّحيح. لا أحد يَفوز في لعبة المَكانة. ولا يُفترض بالبشر ذلك. فمعنى الحياة ليس أنْ تَربح، بل أنْ تَلعب.

تَعليقٌ على منهجي

أكثريةُ الأفكار التي غَطتها فُصُول هذا الكِتاب موثقةٌ تَوثيقًا جيدًا في عددٍ كبيرٍ من الكُتب والأوراق البَحثية الأكاديمية والدوريات العلمية التي كانت مُجتمعةً المَصدر الرَّئيس لي في تأليفه. والقسمُ الأكبر من المَفاهيم العامة المُقدمة فيه غير مُثيرة لِلجدل نسبيا. وفي المَواضع القَليلة التي اِستكشفت فيها أَفكارًا خِلافيةً، فإني حَرصتُ على طَلب مَشورة الخُبراء المُختصّين لِمساعدتي في فك مغاليق الدراسات التي توشك طبيعتها المُعقدة بِأن تُهدد بِالحيلولة دون أنْ يَفهمها القارئ العادي فِهمًا مُناسبًا. ثُمَّ اِستعنت بفريقٍ من الأكاديميين ذوي التخصُّصات العلمية الملائمة لقراءة مخطوطة الكتاب، وتزويدي بالملاحظات والنصائح لِتَصويب ما وقعت فيه من خطأ. ويُسعدني أن أَتقدم بِجزيل الشكر والاِمتنان للدكتور ستيوارت ريتشي، والأُستاذة صوفي سكوت ووليم بكنر من مُختبر الأَنظمة والسلوك البَشريين الذين لم يبخلوا بِتقديم يد المساعدة في هذا الجانب، وكانوا رائعين وصبورين مع أسئلتي. تولت مادلين فيني وإسحاق شير مهمة التثبت الإضافي من الحقائق. وأنا أَتحمل المَسْؤُولية كاملةً عن الأخطاء المُتبقّية.

وما أُبرئ نفسي من التحيزات التي تُصيب أي مؤلفٍ، ولست مُحصنًا، قطعًا، من اِرتكاب الأخطاء. وسأكون مُمتنا لو تكرمتم بِلفت اِنتباهي إلى أي أخطاء في الحقائق أو إذا نَسَخت نتائج جديدةٌ الاِدعاءات التي تَقدمت بها في الكتاب، وسأكون سَعيدًا بِتلقي مُلاحظاتكم بهذا الشأن في موقعي الإلكتروني willstorr.com كي يتسنى لي تَصحيح الطَّبعات اللاحقة من «لعبة المَكانة» وتَحديثها.

ولا يضمُ هذا الكتابُ بَين دَفتيه، بِطبيعة الحل، سوى جزءٍ يسير من المَعارف

والمَعلومات ذات الصِّلة. وسَيَختلف أكاديميون آخرون، بِلا أدنى شكٍ، مع منْ اِقتبست منهم واستَشهَدت بِآرائهم في هذه الصَّفحات. ولو استفزك أي من هذه الاقتباسات أو أثار فُضولك بطريقةٍ ما، فإني أحثُك على التعمق في البحث، إذ سَتَجد حتمًا معلومات أحدث تَتَعارض مع بعضٍ مما عَرضت له بِالنقاش هنا.

وخِتامًا، فَقد حُررت جميع المُقابلات، وخَضَعت أزمنة الأَفعال في بعض الاقتِباسات إلى تعديلٍ تَسهيلًا لِلقراءة. ونُشِرت المُقابلة مع بن غون في الفَصْل الأوّل في شكلٍ مُختلفٍ، في مجلة الأوبزيرفر Observer Magazine.

عرفان بالجميل

لو كَانت هذه الصَّفحةُ لعبة مَكانةٍ، فإن وَكيل أعمالي الرَّائع، وِل فرانسيس، الحَكيم والصَّادق، والصَّبور، والحَاذق- الوَكيل الكَامل، بِكلمات أُخرى- هو منْ سيتَربع على القمة فيها، يُشاركه في ذلك أيضًا، شُوئب روكديا، مُحرِّري الرَّائع، الذي يبدو أنه لا يَكل ولا يَمل. شُكرًا لكما لِحرصكما، ولِأَنكما لم تَسلُكا الطَّريق الأسهل. وأُدين أيضًا بالفَضل الكبير لِلعُقُول النيرة التي راقبت عملي بِأعينٍ متفحصةٍ وخبيرةٍ، وهم: ستيوارت ريتشي، ووليم بكنر، وصوفي سكوت، وكريستوفر بويس، ومادلين فيني، وإسحاق شير. ويُسعدني التوجه بشكرٍ خاصٍ أيضًا إلى جميع العَاملين في وليم كولنز، وإلى توم كيلنغبك، وبن غون، وماراندا دياندا، وانتون هاوز، وريتشارد إيسترلين، وتم ديكسن، وروب هندرسن، وموقع ساي-هاب (Sci-Hub)، وآندرو هانكسن، وتم لوت، وأيان لي، وآدم راذرفورد، وجيسي سِنغال،ورولف ديغن. وخِتامًا، الشكرُ موصولٌ لِزوجتي الرَّائعة والجَميلة، فرح، لِتظاهرها بالإِصغاء في حين كُنت أواصل الحديث عن المَكانة في السنوات الأربع الأخيرة، ولِسماحها لي بِالسفر إلى البُلدان البَعيدة لِأسابيع مُتتَالِية من أجل جمع المعلومات البحثية والاِنتهاء من تأليف الكِتاب، ولِقراءتها إحدى عشرة صَفحةً منه على الأَقل- أُحبك من أجل ذلك كُله.

مكتبة
t.me/soramnqraa

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة

SCAN QR

مَسرد بالمُصطَلحات

Active belief	الإيمان الفاعل
Acts of Imagination	أفعال الخيَال
Acute or chronic social rejection	الرَّفض الاجتماعي الحاد أو المُزمن
Cancellation culture	ثقافة الإلغاء
Capacity for tyranny	القابلية على الِاستبداد
Code of conduct	مُدوَّنة قواعد السلوك
Collective cultures	ثقافات جماعية
Comforting beliefs	المُعتقدات المُريحة
Competitive altruism	الإيثار التنافسي
Copy-flatter-conform behavior	سُلوك التقليد-الإطراء-الِامتثال
Cultural Revolution	الثَّورة الثَّقافية
Cultural shock	الصَّدمة الثَّقافية
Cultural war	الحرب الثَّقافية
Cults	دوائر إِجتماعية
Dictatorship of the Bureaucracy	ديكتاتورية البيروقراطية
Dictatorship of the Proletariat	ديكتاتورية البروليتاريا (الطَّبقة العُمَّالية الكَادحة)
Discrimination	التمييز
Identity games	ألعاب الهوية
Diversity Equity Inclusion	التنوع والشمُول والإنصاف
Dominance behavior	سُلوك الهَيمنة
Dominance games	ألعاب الهَيمنة
Elites	النخب
Elites overproduction	التخمة في إنتاج النخب
Evolutionary needs	إِحتياجات تطورية
Fame addiction	الإدمان على الشهرة
Gender-based discrimination	تَمييز مبني على النوع الِاجتماعي
genocide	إبادة
gossiping	النميمة والقيل والقال
Hallucination of reality	هَلوسة الواقع

Hierarchy	التسلسل الهَرميّ
Humiliated grandiosity	الشعور بالعَظمة المُهان
Humiliation	الإذلال
Ideological territory	أقليم أيديولوجي
Identity politics	سياسة الهوية
Imaginary audience	جمهور مُتخيل
imposter syndrome	مُتلازمة المُحتال
Initiation rituals	طُقوس التكريس
Internet trolling	المُضايقة الرَّقمية
Modes of dominance	أشكال الهَيمنة
Moral bias	تَحيز أخلاقي
Nerve territory	أقليم عَصبي
nomenclature	الطَّبقة الجَديدة
nonconformity	اللاامتثال
Online mobs	الحُشُود الرَّقمية
Peer Group	جَماعة الأقران
perfectionism	طَلب الكَمال
players	لَاعبون
Political correctness	الصَّوابية السياسية
Precariat	بريكاريا- الطَّبقة العُمَّالية الهَشة
Prestige	المَهابة
Principle of leaked status	مَبدأ المكانة المُتسرِّبة
Privilege	امتياز
Psychological domain	النطاق النفسي
Purity Spiral	دَوامة النقاء
Republic of Letters	جُمهورية العُلوم والمُراسلات
rewards	مُكافآت
Salvation anxiety	قلق النجاة
Satanic Panic	هَلع شيطاني
Status drunkenness	الإنتشاء بِالمكانة
Second self state	حالة الذّات الثّانية
Self-subordination process	عملية الخُضُوع الذّاتي
Social cage of rules	قَفص الأعراف والتقاليد الِاجتماعي
Social class	طَبقة إِجتماعية
Social detachment	إِنفصال إِجتماعي
Social media self	الذّات الخاصَّة بِوسائل التواصل الاجتماعي
social withdrawal syndrome	مُتلازمة الِانسحاب الِاجتماعي

Superiority /Inferiority complex	عُقدة التفوق/الدونية
Status detection system	نِظام تَعقب المكانة
Status games	ألعاب المكانة
Status rules and symbols	رُموز المكانة وقَواعدها
Status syndrome	مُتلازمة المكانة
Success and prestige cues	مؤشرات النجاح والمَهابة
Survival anxiety	قلق البَقاء
Symbolic prestige	المَهابة الرَّمزية
Symbolic self	الذَّات الرَّمزية
Tall poppy syndrome	مُتلازمة التنكيل بالمُتفوقين
The Paris Hilton Effect	تأثير باريس هلتون
Toxic morality	الأخلقية السامة
Trade-off mindset	عقلية المُفاضلة
Tyranny of the cousins	إستبداد أبناء العُمُومة
Victimhood narrative	سَردية المَظلومية
Vindictive mindset	عَقلية ثأرية أو اِنتقامية
Virtue games	ألعاب الفَضيلة

مكتبة
t.me/soramnqraa

لعبة المكانة

يَكشفُ وِل ستور في لُعبة المكانة عن القوَّة الخَفيَّة التي تَتَسبب في شُعُورنا بِالكَثير من القلق والحيرة. وهذه القوَّة هي المكانة الِاجتماعيَّة. إنَّ حاجة البَشر إلى المكانة، حَسبما يُجادل ستور، هي حاجة قَديمةٌ وعالميَّة ومُتجذرةٌ تَجذّرًا عَميقًا في داخلنا فَضلًا عن أنَّ السَّعي إلى المكانة ليس فِعلًا عابثًا أو تَافهًا لأنَّه مُتشابكٌ تَشابكًا دَقيقًا مع غاياتنا التَّطوريَّة النِّهائية، ولأنَّ الظَّفر بِالمكانة يعني التَّنعم بِالوَفرة من كُلّ شيء: من الطَّعام، والمَال والعلاقات الِاجتماعية، وَوسائل الرَّاحة، والشُّعُور بِالتَّقدير الذَّاتي. كُلما اِرتقينا في المَنزلة، تَعززت فُرص تَمَكّننا من العيش والحُب والعَمل والتَّكاثر. وهذا هو جوهر السَّعي الإنسانيّ. إنَّها لَعبة المكانة. وخَسارتها، تَبعًا لذلك، هي خَسارةٌ لهذا الجوهر مع ما يَستَتبع ذلك من عَواقب وَخيمة نَفسيَّة واجتماعيّة واقتصاديَّة تَدفع بِالكَثيرين إلى حَافة التَّعصب، والغَضب، والجُنون. هذه الخَسارة هي مُكونٌ أساسي في تَركيبة العَديد من القَتلة والمُجرمين. إنَّها الشُّعور بالإذلال والهَوان والضِّعة المُناقض لِلرّفعة والسُّمو، والَّذي يؤدي غالبًا إلى السَّعي إلى الثأر واستعادة المكانة والكَرامة المَهدورتين، وإنْ بأساليب عَنيفة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

صفحة